ثورة أُمَّة

أسرار بعثة الجامعة العربية إلى سوريا

تأليف

أنور مالك

المراقب العربي المستقيل

العبيكان
Obeikan

ح مكتبة العبيكان، ١٤٣٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

عبدالمالك، نوار

ثورة أمة - أسرار بعثة الجامعة العربية إلى سوريا./ نوار عبدالمالك؛

الرياض، ١٤٣٤هـ

٥٩٦ ص؛ ١٦,٥ × ٢٤ سم.

ردمك: ٣-٥٢٩-٥٠٣-٦٠٣-٩٧٨

١- سوريا - تاريخ - ثورة ١٤٣٢هـ، (٢٠١١م) أ. العنوان

ديوي ٩٥٦,٥٠٩١ ٤٨٦٤ / ١٤٣٤

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الطبعة الأولى

١٤٣٤هـ / ٢٠١٣م

الناشر العبيكان Obeikan للنشر

المملكة العربية السعودية - الرياض - المحمدية - طريق الأمير تركي بن عبدالعزيز الأول

هاتف: 4808654 فاكس: 4808095 ص.ب: 67622 الرياض 11517

موقعنا على الإنترنت

www.obeikanpublishing.com

متجر العبيكان Obeikan على أبل

http://itunes.apple.com/sa/app/obeikan-store

امتياز التوزيع شركة مكتبة العبيكان Obeikan

المملكة العربية السعودية - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع شارع العروبة

هاتف: 4160018 /4654424 - فاكس: 4650129 ص. ب: 62807 الرياض 11595

جميع الحقوق محفوظة للناشر. ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ «فوتوكوبي»، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

أرفع هذا الكتاب إلى الثورة السورية الخالدة، إلى كل الأحرار في العالم الذين يناهضون الظلم ويتصدون للظالمين.

وأخص بالذكر أهالي حمص الذين عايشتهم على مدار أيام قضيتها بينهم بصفتي مراقبًا عربيًّا، فأحببت فيهم بساطتهم وإخلاصهم وصدقهم ورباطة جأشهم على الرغم من النار، والدمار.

إلى أهلي وأسرتي وابنتيّ أريج ومرام.

المؤلف

محتويات الكتاب

الموضوع | الصفحة

الإهداء ٥
كلمة من الناشط خالد أبو صلاح ١١
كلمة من الناشط هادي العبدالله ١٧
مقدمة المؤلف ١٩
هكذا كانت البداية ٢٩
الرحلة الى مصر ٤٠
في القاهرة ٤٧
في مقرّ الجامعة العربية ٥٢
الطريق إلى الشام ٦٥
في مطار دمشق ٦٩
الاجتماع الأول مع رئيس بعثة مراقبي الجامعة العربية ٧٣
الطريق نحو حمص ٧٨
في بيت محافظ حمص ٨٤
الوصول إلى حيّ بابا عمرو الشهير ٩٣
يوم صعب في حيّ بابا عمرو ٩٨
بين القنّاصة وجثث الحاجز عسكري ١٠٣
اللّقاء الأول مع الهيئة الإعلامية في بابا عمرو ١١٥
الرضيع اليتيم الذي أبكاني ١٢٣
جلسة عاصفة مع محافظ حمص ١٢٧
العودة إلى الشام ١٣٥

الاجتماع الثاني بدمشق ١٤١
في حمص للمرة الثانية ١٥٠
يوم دموي في حيّ بابا عمرو ١٥٩
قنص الطفل محمد أحمد الراعي وآخرين ١٧٤
في حي باب السباع بين إشاعة الاختطاف ورصاص القناصة ١٨٣
على مائدة محافظ حمص ١٩٠
في دمشق مرة أخرى ١٩٥
توزيع الأفواج عبر المحافظات ٢٠٧
في فندق السفير بحمص ٢١٤
لقاء استثنائي مع وزير الداخلية اللواء محمد الشعار ٢٢٠
سحب حاجز عسكري وإطلاق سراح سيدتين ٢٣١
في ضيافة أحد ضحايا القناصة ٢٥٥
مع وزير الداخلية الشعار والعماد آصف شوكت واللواء هشام بختيار... ٢٦٨
مراقبون ناقمون على واقع البعثة العربية ٢٧٧
أهالي بابا عمرو والمساعدات الإنسانية ٢٨٣
مع حاجز كفرعايا ودموع في حيّ السلطانية ٢٨٥
حكاية فتاة اغتصبت أمام والديها قبل إعدامهما ميدانيًّا ٣٠٤
قنص امرأة وغليان في بابا عمرو ٣١٠
اجتماع مع المحافظ وأخبار من مراقبين في مناطق أخرى ٣١٧
ديكتاتورية رئيس البعثة الدابي ٣٣١
رحلة ضائعة بين العباسية والأرمن ٣٣٩
مراقب جزائري يرى القناصة والدابي في ولائم رامي مخلوف ... ٣٦٧
لقاء مع أسيرة في بابا عمرو ٣٧٧

معاينة جثث لبعض ضحايا التعذيب ٣٨٤
مشاهد باكية مع ثكلى ضريرة ٣٩٢
قضية معتقلة بين يدي محمد الشعار وآصف شوكت ٣٩٧
المراقبون يصابون بالإسهال المفاجئ ٤٠٥
لقاء مع ضباط الجيش الحر في بابا عمرو ٤١١
تحرش نسوي وفياغرا في طعام المراقبين ٤٢٦
مراقب يعقد زواج المتعة في الفندق ٤٣٠
في زنازين الأمن السياسي ٤٣٤
فضيحة اغتيال طال الطائفة المسيحية ٤٥٣
اجتماع مع محافظ حمص ٤٦١
آخر لقاء مع العماد آصف شوكت ٤٦٦
قنبلة الفيس بوك وفضائح أخرى ٤٧٥
ضغط رهيب وبيان الجامعة العربية ٤٨٦
آخر لقاء مع الجنرال الدابي في دمشق ٤٩٩
الطريق إلى الدوحة ٥٠٤
خاتمة ٥١٤
التقرير المفبرك الذي قدمه الفريق الدابي للجامعة العربية ٥١٩
ملحق ٥٣٣

كلمة من الناشط خالد أبو صلاح

نحاول دومًا ألا نسترجع ما مضى من ذكرياتنا الآن؛ حتى لا نوهن أجسادنا الغضـة، وتفتر عزيمتنا من ترجيع الذكريات وتردد أصدائها في جنبات الروح، وحتى لا ندخل في غياهب الألم، فتسـري فينا تلك القشـعريرة الحبلى بصـور وأصوات من كانوا بيننا، ثم فجأة غابوا.

غابوا.. وتركوا أرواحنا معلقة بين صـورهم و صور أبنائنا المنتظرين على بوابة الأمل والألم، الذين مازالوا يتضوّرون يتمًا وبردًا وخوفًا وقهرًا.

غابوا.. وخطّوا بدمائهم تاريخًا جديدًا لبلادنا التي توشّحت اليوم منديلها الأحمر ووشـته بأحلام أطفالها الصـغار وآمال رجالها الكبار الذين جعلوا من أجسادهم قنابل موقوتة في وجه الطغاة، ثم رحلوا إلى حتفهم باسمين.

وصـلت طلائع بعثة المراقبين العرب، في صـباح يـوم الثلاثاء الواقع في ٢٠١١/١٢/٢٧، وبعد مضـي خمسـة أيام خبرنـا فيها الموت لأول مرة قصـفًا بالهـاون الثقيل. وعلى أرضـنا الحبيبة حمص وعلى ربوع حيها الأسـطوري بابا عمرو كان اللقاء الأول معهم.

وصـلت البعثة وعلى رأسـها كان الدابي؛ ذلك الجنرال الذي إذا ما نظرت في وجهه وهو يؤدي دور الإنسـان ببراعة تشـعر بالطمأنينة، وإذا ما أمعنت فيه النظر ودققت وجدت أنك أمام أفعى يكاد يلفحك فحيحها.

الرجل ذو الوجهين الذي كان يؤدي دوره بحنكة - كأي ضابط استخبارات عربي- تدمع عيناه أو تكاد عندما يرى الضـحايا، وعندما يغادر ليدوّن تقاريره ويعرضـها، إذا به يغرز خنجره في جسـد الضحية منتشًا، ثم يعود الى التباكي على ضحاياه. هذا ما كان من حال هذا الرجل باختصار.

وبين هذه الطلائع عدد من المراقبين كان عددهم بين السبعة والثمانية، كان بعضهم يدوِّن ما يسمع، وبعضهم الآخر يصور بكاميرته الصغيرة بعض المشاهد وبعض «الوجوه»، وآخرون يحاولون من خلال نظراتهم متابعة كل صغيرة وكبيرة، وفي زحمة هؤلاء كان اللقاء الأول مع المراقب أنور مالك.

كان أنور مالك ومعه شاب آخر يدعى محمد حسين عمر من جيبوتي يحاولان توثيق بعض الشهادات من الأهالي المتجمهرين حول المراقبين، وكنت على رأسهم، وكانوا يدوّنون كل ما يسمعونه بعناية، وبدا لي كغيري من أهالي الحيّ اهتمامهم الواضح في هذا الحدث الجلل، حيث البيوت المدمرة وهياكل الناس المتجمهرة التي ينخرها الألم والغصة.

خمسة أيام لم تكن كغيرها من أيام الحياة على ذلك الحيّ الشعبي الذي ألف أهله الموت حتى غدوا شموعًا تنير الدرب لمن لم يثوروا بعد، وتُرِيهم كيف يمكن للعين أن تقاوم المخرز، وكيف للأجساد أن تتحدى النار والحديد، فتجعل من حاضرها وآلامها أنشودة يترنم بها الكون.

وبعد لأي كبير من التزاحم والتدافع بين الأهالي الذين كان يريد كل واحد منهم أن يروي قصته ومأساته بنفسه للمراقبين، استطاع وجهاء الحيّ الاتفاق مع الناس على أن يصحب المراقبين وفد منهم لاختصار الجهد والوقت لتوثيق جرائم النظام ومعاينة الحيّ المنكوب والوقوف على حاجاته.

كنا وقتها نحتفظ بجثامين خمسة عشر شهيدًا في منزل أبي سفيان، لم نتمكن من دفنهم بسبب ضراوة الهجوم ووحشية القصف، ومن الجدير بالذكر أنه لا ثلاجات للاحتفاظ بالجثامين لدى أبي سفيان في منزله، وإنما مجرد منزل عرف في ذلك الحي باختصاصه في تأبين الشهداء وتشييعهم منه، حيث كان لذلك المنزل مكانة خاصة لدى كل أهل حيّنا.

فاصطحبنا وفد المراقبين؛ ليشاهدوا ويعاينوا ما يجري في هذا القرن من وحشية ومجازر على أيدي الطغمة الحاكمة في سوريا، فكنا كلما استوقفنا أمر مهيب وموقف إنساني مؤلم ألمح بين عيني أنور مالك دمعة تبحث لها عن طريق، فإذا ما انتبه الواقفون له غضّ النظر، وأشاح بوجهه جانبًا ممسكًا بدموعه.

وبعد يوم طويل مضى، غادر المراقبون الحيّ، وتركوا أرقام هواتفهم المحمولة مع وفد الأهالي لإخبارهم بأي طارئ يحصل، وما إن غادروا حتى عاد جيش النظام لسيرته الأولى في إطلاقه النار واستهدافه الناس، وكذلك مُنع في ذات اليوم المراقبون من الوصول للحيّ المجاور -السلطانية- الذي كان محاصرًا منذ أكثر من أحد عشر يومًا، فأطلق النار على سيارة المراقبين ومنعهم حتى الاقتراب من الحي.

ومضت الأيام وزادت الثقة بين الأهالي وبعض المراقبين وفي مقدمتهم أنور مالك الذي لم يدّخر وقتًا أو جهدًا إلا ووثّق فيه حادثة أو نقل به طلبًا لتخفيف ما يمكن عن الناس، حتى جاء ذلك اليوم الذي لم يستطع به أنور أو وفد الوجهاء من الأهالي أن يمسكوا دموعهم أمام ذاك المنظر المهيب، كان وقتها عبدالكريم الدرويش مسجّى على نعشه وحوله أهله وذووه، عبدالكريم الذي كان أخًا لشهيدين قبله حمدان ورمضان، وآخر معتقل في غياهب السجون، وآخر لحق ركب إخوته، فدفن بصمت كمن سبقوه بعيدًا عن أنظار العالم المتحضّر، كانت أم عبدالكريم تبكيه وتندبه ولكن دون دموع، لا لشيء فقط لأنها فقدت بصرها، وابيضت عيناها - كيعقوب عليه السلام- بعد فقدها بكرها حمدان الذي غيبه نظام الأسد في سجن صيدنايا، فكان أحد شهداء المجزرة الشهيرة في ذلك السجن عام ٢٠٠٨م. بكى كل الحاضرين ذلك الموقف، حتى علت أصوات نشيج بعضهم، ولا سيما من وقف منهم يعاين جثة الشهيد التي مزقت

بوحشية، ومثّل بها بما لا يخطر على بال بشر، فُقِئت العينان، وثُقب الجسد بالمثقب الآلي، وسلخ الجلد، وتهشمت الجمجمة... إلخ.

وقتها نظرت وعيني تغص بدمعي في وجه أنور مالك الذي تاه بجسده بين الجموع، وأسند ظهره على حائط قريب، فإذا بعرقه يتصبّب من جبينه وكأن الحمى تنخر أوصاله بعد هذا المشهد الذي ألفناه طوال تسعة شهور مضت، فخرج بعدها وغادر الحيّ وكان الوقت حينها مساء، فكفنا شهيدنا وكفكفنا دموعنا وآلامنا معه وشيعناه وواريناه التراب.

جرى اتصال بيني وبين أنور مالك فأخبرني أنه سيترك بعثة المراقبين ويستقيل، مؤكدًا وقتها أنه سيعلن موقفه وهو في عقر دار النظام، ولا يريد أن ينسحب من البعثة، ثم يقول ما يقول بعد أن يصبح آمنًا كالجبناء. فدار حديث طويل بيننا لمست من خلاله إصراره على ما عزم عليه وعدم تراجعه عما نواه، وقال لي وقتها: «سلم لي على أهالي بابا عمرو، وأخبرهم بأني سأوصل صوتهم بأمانة، حتى لو كلّفني هذا حياتي، وأخبرهم حتى إن خرجت سالمًا من بلادكم، فإني سأبقى مدافعًا عن حقوقكم وناقلًا أمينًا لمعاناتكم، حتى يقضي الله أمره في هذه المحنة».

نعم، كان أنور مالك هو الشاهد الحر الأمين الذي منعه ضميره أن يبيع نفسه أو يسكت عن الحق، وبرّ بقسمه الذي أقسمه مع بقية أعضاء بعثته أن يقف مع الحق ومع الحق فقط ولا شيء غيره، حركت آلامنا ومعاناة أهلنا مشاعره، فصيرته لسان عدل ينطق بما رأى، ويتحدث بما شاهد وعاين على أرض سوريا من دمار ومجازر طالت البشر والحجر، ولم يسلم منها طفل أو شيخ أو امرأة.

مضى أنور، ونجا من محاولة اغتيال دبرها وحاكها له نظام الأسد وخرج من سوريا، وروى ما أملاه عليه ضميره ومازال أحد أهم الإخوة العرب

المتضامنين مع قضيتنا يجول في المحافل والجامعات ينافح عن القضية التي أصبحت قضيته، ويدافع عنها ويلتقي السوريين والعرب والعجم في كل أصقاع الأرض، ويروي لهم حكاية الدم والألم والصمود والكرامة.

نعم، أقول: «مضيت أخي أنور في طريقك، وتركتنا في أرضنا الحبيبة، فزففنا بعدك ثلة من الشهداء الذين كانوا يوثقون معكم جرائم النظام وأحداث بعثتكم، وصوروك كما صوروا غيرك بكاميراتهم الصغيرة، فرحلوا الواحد تلو الآخر، فاستشهد رامي السيّد، وتبعه أحمد حمادة، فيوسف وحمزة فعمر ووائل، و...، ومازال غيرهم ينتظر دوره في أداء واجبه، فإما أن يلتحق بركبهم، وإما أن يرى نصره بعينه.

الناشط الثوري

خالد أبو صلاح

إسطنبول، في: ٢٠١٢/٠٢/٢٨

كلمة من الناشط هادي العبدالله

الجامعة العربية ارتكبت جريمة تاريخية في حق الشعب السوري عندما وقّعت مع النظام السوري على رخصة القتل المشروعة عبر اتفاق بروتوكول الموت وإرسال بعثة المراقبين العرب.

ففي كل مرة اجتمعت فيها الجامعة لتداول ملف سوريا وإيجاد الحلول للأزمة، دارت عجلات آليات نظام الأسد القمعية، فأزهقت مئات الأرواح من أبناء سورية الغالية.

في كل مهلة، ومع تجميد العضوية، وكل قرار إدانة أممية، والوفود والبعثات، يسقط الشهداء أرقامًا على القنوات والصفحات فقط والحيلولة دون إسقاط بشار.

تابع العالم أجمع عمل المراقبين العرب في سوريا عبر مقاطع بثّها الناشطون في مختلف المحافظات، حيث حشد أبناء سوريا كلّ طاقاتهم لخدمة الثورة عبر تنظيم المظاهرات، ورفع اللافتات، وتوثيق الشهداء والجرحى والمفقودين في ملفات. أعد الناشطون الإعلاميون عشرات التقارير عن انتهاكات النظام لحقوق الإنسان وقدّموها جاهزة للمراقبين وكلّهم أمل بأنهم جاؤوا لخدمتنا، ولكن خاب الظن وحصل ما كان متوقعًا.

شخصيًّا لم أهتم يومًا بدخول المراقبين، وكنت على يقين بأن الشعب لن يستكين وأن الثورة يتيمة وحيدة وماضية في طريقها، وأن الجيش الحر لن يتخلّى عنّا، ولكننا منذ البداية تعاملنا مع كل المعاهدات والاتفاقيات والتزمنا بها على عكس الأنظمة القمعية التي تتقن دورها المسرحي حين تمارس عملها السياسي.

تخاذل المراقبون عن نصرتنا، وكذبوا في شهادتهم بحقنا، فنقلوا ما أراد بشار الأسد قوله، وتجاهلوا أنات الثكالى وآلام الجرحى، وصمّوا آذانهم عن هتافات الأحرار، فكانوا متفرّجين وطعنوا في الشعب السوري من خلال تقرير الدابي عن البعثة في ختام أعمال المراقبين.

فكانت البعثة والبروتوكول فرصة الحياة للنظام ووصمة عار تضاف إلى مواقف الجامعة المتخاذلة لنصرة قضايانا عبر التاريخ.

كلماتي في هذا الكتاب ليست إلا وسام شرف أتقلّده طول عمري وبصمة لي في صفحات رجل عظيم وإنسان بطل وقف إلى جانب الحق وانتصر لنا. إنه المراقب الحر أنور مالك، الذي صرنا نهتف له جميعًا: ليتهم صدقوا عُشر ما فعلت!

لقد كان انشقاق أنور مالك عن البعثة زلزالاً اهتزت له كراسي الطغاة العرب، وكان الخطوة الملموسة الوحيدة التي خدمت الشعب السوري، وصبّت في مصلحته في تلك الحقبة.

يشهد له الناشطون بصدق عمله وقوله واهتمامه بهم وبقصصهم، وإن كانت شهادتنا له مجروحة، فله مني وباسم الشعب السوري جزيل الشكر والامتنان. وليبقَ الصوت الصادح للحرية ونصرة المظلوم.. حماه الله.

الناشط الميداني

هادي العبدالله

حمص، في: ٢٠١٣/٠٢/٢٦

مُقَدِّمَةُ المؤلِّف

الحمد لله والصلاة والسلام على خير خلق الله وعلى آله وصحابته ومن والاه وعلى من اهتدى بهديهم واتبع سبيلهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين.

أما بعد..

فالحديث عن التجارب الشخصية والسير الذاتية مهما كان نوعها في كتاب أو مسلسل أو رواية أو ديوان شعر ليست بالأمر الهيّن أو أنها في متناول كل من هبَّ ودبَّ؛ لأن في ذلك تشعبات كثيرة وزوايا مفتوحة وأخرى مغلقة تجد الكثير من الناس يتفادونها أو يجهلون حيثياتها، ولو كان طرفًا في صناعة قرار ما، وإن الخوض في تجارب الآخرين وقصصهم ومواقفهم إذا تعلق الأمر بالتاريخ هو بدوره صعب للغاية؛ لأنه دائمًا توجد دوائر مظلمة، إما لأن الذين لديهم علاقة بالحدث يطمسونه أو أن الفاعلين الأساسيين غائبون، أو أنه يفضح جهة نافذة لا تزال لديها سطوتها في صناعة المشهد وتطوراته.

بين هذا وذاك نجد تجربتي الذاتية مع بعثة المراقبين العرب التي دخلت أول دفعة منها سوريا، وكنت من ضمنها في ٢٦/١٢/٢٠١١ بعد توقيع بروتوكول بين الأمانة العامة للجامعة العربية ممثلة في نائب الأمين العام أحمد بن حلي والحكومة السورية ممثلة في نائب وزير الخارجية فيصل المقداد، وذلك في العاصمة المصرية بتاريخ ١٩/١٢/٢٠١١. حيث إن هذه التجربة الشخصية صنعت الحدث العالمي في مدة معينة، وكانت مسارًا مهمًّا في ثورة الشعب السوري على نظامه، وفيها الجمع بين ما يتعلق بي شخصيًّا وفق دور رسمي أوكل إليّ بوصفي مراقبًا انتدبه كيان عربي معترف به دوليًّا بناء على رصيد حقوقي معروف في الساحة الحقوقية والإعلامية، وبين أشياء أخرى تتعلق

بغيري بينهم من صاروا لاعبين أساسيين في مسار ما يجري بالمنطقة العربية من تطورات في إطار (الربيع العربي).

بدأت السطور الأولى من هذا الكتاب منذ انسحابي من بعثة الجامعة العربية في سوريا، حيث أعلنت استقالتي من فندق السفير بحمص عبر صفحتي الخاصة على الفيس بوك صباح يوم الجمعة ٢٠١٢/٠١/٠٦، وهو ما أثار جدلًا واسعًا حينها، لما تداولت رسالتي فضائيات كثيرة، حتى تعرضت لتهديدات بالذبح وحملات تشويه ممنهجة، ثم تمكنت بحمد الله تعالى من مغادرة مدينة خالد بن الوليد المنكوبة يوم الإثنين ٢٠١٢/٠١/٠٩، وتعرضت لمحاولة اغتيال فاشلة لم يفلح المتربصون من تحقيق غايتهم؛ لأن الله سبحانه قدّر فضح المتاجرين بدماء الأبرياء. وبعدها نجحت في مغادرة دمشق مساء يوم الثلاثاء ٢٠١٢/٠١/١٠ نحو الدوحة، وقدمت شهادة تابعها كل العالم. غرقت أكثر من سنة وأنا أخطّ حروف كتابي بين الفينة والفينة، وما أخرني كل هذا الوقت في إكمال سطوره هو المرحلة التي عشتها تحت ضغوط مختلفة، وأكثرها ترحالي عبر أصقاع الأرض، حيث سافرت كثيرًا إلى دول العالم في القارات الخمس، أروي فيها تجربتي للجاليات السورية والعربية والشعوب الغربية بمختلف ألوانها ولغاتها ودياناتها، بصفتي الشاهد المحايد الذي دخل سوريا تحت غطاء رسمي وحصانة منحتها لنا الجامعة العربية في إطار الحصانات التي يتمتع بها دائمًا المراقبون الدوليون التابعون للأمم المتحدة.

بالتأكيد أن ما عليه الشأن السوري الآن من تدهور في الأوضاع الإنسانية والأمنية وما بلغته الجرائم المرتكبة في حق الإنسانية التي فاقت كل التصورات، لم تعد جرائم حرب فقط، بل هي في حاجة إلى مراجعة القوانين والمواثيق الدولية لابتكار مصطلح جديد يليق بما هو عليه وضع هذا البلد الرائع الذي كان شعبه مصدر الفرحة لشعوب ودول كثيرة على مستويات مختلفة. وإن الأمور

في تطور متسارع حتى صار ما وقفنا عليه نحن المراقبين العرب أو الدوليين من مأساة لا تمثل إلا العشرة في المئة من حجم ما عليه وضع سوريا الآن، فقد كان حينها الشعب يقصف بسلاح الدبابات والقناصة، والآن بعدما مرت الأحداث على مرحلة القصف بالطيران الحربي والبراميل المتفجرة قفزت إلى قصف القرى والمدن الآهلة بسكان مدنيين بصواريخ سكود، وهو ما لم يتصوره أي عاقل، وإن لم يتم تدارك الأمور سريعًا فستصل للمواد الكيماوية وربما الجرثومية. لكن أهمية كتابة هذه التجربة التي عايشتها شخصيًّا تعود إلى منطلقات أساسية عدة يمكن أن نختزل الأهم منها فيما يأتي:

- **أولًا**: إن تجربة المراقبين العرب هي الأولى من نوعها في تاريخ الجامعة العربية، وكان من المفروض أن تقدم لها كل الإمكانيات اللازمة لإنجاحها، غير أن سوء التسيير والاختيار وتقدير العواقب - كما سيكتشفه القارئ الكريم بين دفتي هذا الكتاب - أعطى صورة سوداء أكثر مما عليه شأن الجامعة، بل أساء لما تبقى من سمعتها لدى الرأي العام كثيرًا خصوصًا منذ استقالتي وردة فعل المسؤولين فيها الذي كان سيئًا على الرغم من أن الأحداث اللاحقة أنصفتني، وأكدت مصداقية كل كلمة صرّحت بها وصرخت لأجلها.
- **ثانيًا**: إن بعثة المراقبة العربية كانت أول تدخل خارجي في الأزمة السورية الذي جاء متأخرًا، فهو بعد أكثر من تسعة أشهر من الدماء والقتل والجريمة المنظمة التي تقترف في وضح النهار ضد مدنيين عزل يتظاهرون سلميًّا من أجل المطالبة بالإصلاحات والحريات العامة والديمقراطية، ولكن لما قوبل حراكهم بهمجية منقطعة النظير اضطروا إلى الدفاع عن أنفسهم بعسكريين انشقوا من المؤسسة النظامية، حيث رفضوا قتل الناس والأبرياء من أهلهم وذويهم.
- **ثالثًا**: إن البعثة كانت خيارًا للإبقاء على الأزمة السورية في إطارها العربي، ولا تصل الأمور لمجلس الأمن، هكذا خُيِّل للجامعة العربية وأمينها العام

وأطـراف أخرى فـي المعادلة، غير أن ذلك جاء في سـياق متناقض، وهو أن الأزمـة منذ بدايتها وُجدت فيها أطراف أجنبية من روسـيا وإيران وغيرهما، ولذلك جاء الرهان على خيار عربي في مستنقع تلعب فيه أطراف غير عربية ولمصـلحة نظام بشـار الأسـد، وهذا الذي عجّل بنهايتها على تلك الطريقة التي سيعرفها القارئ عبر سطور الكتاب.

- **رابعًا**: إن البروتوكول الذي أنجزته الجامعة العربية ولد ميتًا أصلًا، ولا يمكن تطبيقـه في وسـط كارثة إنسـانية ونظـام كان همّه ربح الوقت، ويا للأسـف أرسـلت بعثـة المراقبة بمعطيات لا أسـاس لها ومن دون أدنى دراسـة للواقع علـى الأرض، فكأن الجامعة تريد أن تبـرز للعالم أنها بمقدورها حلّ الأزمات العربيـة، ولكـن ببعثة مسوّسـة من الداخل، مـا جعل الأزمة السـورية تعرف منعطفًا سـيئًا للغاية جاء على حساب دم الشـعب السوري الذي لا يزال يدفع ثمن تلك الخيارات الفاشـلة والحسابات غير الجادة والمبادرات التي ما فيها أدنى رشد وروح المسؤولية الدينية والأخلاقية والإنسانية والقومية أيضًا.

- **خامسًا**: بعثة المراقبين العرب التي فشـلت لأسباب سيجدها القارئ الكريم فـي هذا الكتاب أعقبتها بعثـة المراقبين الدوليين من خلال خطة كوفي أنان وبآليـات لا اختـلاف بينهما إلا في لون السـترة والقبعة وعنـوان البعثة الذي كان فـي القاهرة وصـار نيويورك. وبعدها جـاء دور المبعوث العربي والدولي الأخضر الإبراهيمي ليكون مشهدًا آخر من مسرحية التدخل الدولي في الأزمة السورية، وهو بدوره لا يزال يراوح مكانه. نلاحظ أن الفشل يطارد كل الجهود اللاحقة؛ لأنها لم تراعِ ما كنت تحدثت عنه عشـية اسـتقالتي من البعثة، من أن الأزمة عميقة، إذ إنها ليسـت بين نظام ومعارضـة يتصـارعان ويتقاتلان على كرسـي السـلطة، ولا هي بين نظام شرعي معترف به دوليًا وإرهاب عابر للقارات والحدود، ولا هي بين احتلال أجنبي بمفهومه التقليدي وأهل الأرض

ممن لا يقبلون أي أجنبي يغزو بلادهم، بل ما يحدث حقيقة هو نظام يشنّ حرب إبادة شاملة على شعبه الذي لم يجد من خيار أمام ذلك وتحت صمت دولي متخاذل سوى الدفاع عن نفسه بما يقدر عليه من قوة ورباط الخيل.

- **سادسًا**: إن الحديث عن تجربة المراقبين العرب هي شهادة محايدة ورسمية من الداخل السوري عما جرى في ذلك الوقت الذي هو أساس ما يجري الآن، وإن اختلف المشهد والوضع الذي بلغ قمة السوء فعليًّا، وأي تفكير لوضع حدّ لهذه المأساة الإنسانية يفرض العودة إلى أصل الأزمة وسيجدون ما يفيدهم فعليًّا من خلال شهادتي التي تناقلتها وسائل الإعلام أو من متن ما فصّلته في هذا الكتاب.

- **سابعًا**: ما تحدثت به في وسائل الإعلام المسموعة والمرئية والمكتوبة في مختلف أنحاء العالم وترجم لكل اللغات، يُعدّ قليلاً لما هو في جعبتي، فالمتاح دائمًا من الوقت لا يسمح بقول كل المشاهد والحقائق المخفية عن بعثة أسالت الحبر الكثير على مدار حقبة لا يستهان بها. وإن الجامعة العربية بداية من الأمين العام السيد نبيل العربي إلى أركان إدارته والطاقم الذي اختاره لمتابعة الوضع، قد رفضوا الاستماع إليّ وأنا في حمص وبعدها من الدوحة ثم راسلتهم، لكنهم تجاهلوا ذلك على الرغم من أن ما قلته عن سبب استقالتي جاء مثله تمامًا بعد أيام قليلة على لسان وزير خارجية المملكة العربية السعودية الأمير سعود الفيصل وتحت قبّة مقرّ الجامعة العربية بالقاهرة عندما قرّرت بلاده سحب المراقبين السعوديين؛ لأنهم يرفضون أن يكونوا شهود زور، وبعدها لحقت مباشرة دول مجلس التعاون الخليجي للأسباب نفسها، ما يعني أن التقارير والمعطيات التي بحوزة هذه الدول تؤكّد ما كشفته شخصيًّا للعالم من خلال شهادتي. ولهذا، فمن الضروري أن أروي للتاريخ الكثير من التفاصيل عما كان يجري من وراء الستار في بعثة كان من

المفروض أن تكون على مستوى المهمة النبيلة التي أحيطت بها، وأهدي شرف رئاستها للجنرال السوداني محمد مصطفى الدابي الذي لاحقته اتهامات كثيرة من قبل في دارفور، ولكنه لم يكن على مستوى الأمانة، وهذا الشرف الرفيع، فضيّع فرصة من ذهب كان بوسعها رفع مقامه إلى درجة سيحسده عليها الكثيرون، ويعتذر له حتى من تطاولوا عليه، وشكّكوا في ماضيه وذمّته من قبل ومن بعد.

- **ثامنًا**: إن الأجيال اللاحقة في حاجة إلى أن نترك لها بين أيديها تفاصيل مرحلة معينة ليست بالسهلة ولا هي في متناول الجميع، فالشهادات عبر وسائل الإعلام تنسى ويطويها الزمن، لكن الكتاب سيبقى لكل الأزمنة لتعرف الشعوب الحقيقة من مصدر عايشها من داخلها وكان له شرف الذود عن حمى المضطهدين ممن ردّوا صنيعه بأكثر مما يستحق، حيث رفعوا اسمه في مظاهرات وسمّوا عليه المواليد والشوارع، وصار يرفع على الأكتاف حيثما حلّ وارتحل، وليس بذلك الذي يستقيها من الأوراق والأخبار العابرة غير الموثّقة.
- **تاسعًا**: توجد أطراف ظلت تحملني جزافًا مسؤولية تدويل الملف السوري، سواء من النظام أو وجوه أخرى تحسب على المعارضة المصطنعة وآخرون بلغ بهم الإسفاف في إطلاق المزاعم حدّ تحميلي مسؤولية الدماء التي تهرق، فأردت أن أكشف لهم ولغيرهم حقيقة ما كان يجري في الكواليس بعيدًا عن الإعلام والتصريحات الاستهلاكية والعابرة التي يتقن السياسيون زركشتها وفق أطر بيداغوجية معهودة ومتعارفة وفي غالبها لا تمت بصلة لأرض الواقع. وأشرح لهم ما بذلته من جهود لأجل إنقاذ البعثة من السقوط الحرّ، غير أنهم قابلوا ذلك بالإنكار، ولم أجد في آخر المطاف من حلّ، وأنا وجدت نفسي أنني سأتورّط في كبيرة من الكبائر وهي شهادة زور على حساب حرمات تنتهك وأرواح تزهق ظلمًا وعدوانًا، سوى تبرئة ذمتي أمام الله -عز وجل- ثم الضحايا ممن وقفت على مآسيهم مباشرة.

- **عاشرًا**: إن بقية المراقبين لاذوا بالصمت الرهيب؛ لأن أغلبيتهم الساحقة من الموظفين في الأجهزة الاستخباراتية والدبلوماسية العربية جاؤوا للمهمة بأمر حكومي وغادروها كذلك ويتلقون عليها علاوات استثنائية، وطبعًا لا يمكنهم التحدث سواء في إطار التكتم المهني المعمول به في مثل هذه الحالات، أو يوجد من همهم الحفاظ على مناصبهم ورغبة منهم في الالتزام بتعهداتهم أمام حكوماتهم من أجل مهام أخرى مستقبلًا أو الترقية وبلوغ مناصب أهم. وآخرون من الحقوقيين سكتوا بدورهم؛ لأن الجهات التي توظفهم أمرتهم بالصمت ومن سيتكلم سيفقد لقمة عيشه، فآثروا خبز صغارهم على أي شيء آخر. ويوجد من بينهم من تكلم وحلب في إناء النظام السوري لأنه يعمل عند جهة معينة لديها الأطروحة نفسها التي تظهر في شكلها معارضة وفي موضوعها تخدم حكم بشار الأسد بكل ما أوتيت من قوة، أو أنهم ضعفوا أمام ابتزاز ما. فآثرت أن أكشف الغطاء عن كل الأمور للناس، وأضع كل واحد في مكانه الطبيعي والحقيقي بعيدًا عن النيات العدائية أو تصفية الحسابات التي لا مكان لها في تفكيري أو نضالي المعروف.

- **حادي عشر**: معلومات مؤكدة ومن جهات موثوقة أن مراقبين يتعرضون للابتزاز في الآونة الأخيرة من طرف جهات استخباراتية سورية لأجل أن يتحدثوا، وينظموا للمدافعين عن النظام وتقرير الجنرال الدابي الذي يوصف في الإعلام الموالي لبشار الأسد بأنه ظلم في كل ما قدّمه؛ لأنه قلب الحقائق لمصلحة الجلاد على حساب الضحية، ويجري استغلال الصور الفاضحة التي التقطت في الفندق وغرف النوم والحانات. ولهذا أي واحد من المراقبين سيدافع عن نظام بشار الأسد لاحقًا سيكون بلا شك ممن خضعوا لابتزاز بصوره في مواضع مخلّة أو صور أخرى التقطت له وهو يتلقى رشوة ويأخذ الأموال نظير خدمات ما، فطبع الأنظمة المستبدة ألا تكتفي بما يقدمه

لها العملاء وأولئك الذين ورطتهم في شباكهم، بل ستبقى تحلبهم حتى آخر رمق لطرف منهما.

- **ثاني عشر**: ما يجري في سوريا سيكون مصدر إلهام للمؤرخين والباحثين عن الحقيقة والمحققين في مجازرها، وستتناقل الأجيال ملحمة شعب خرج ليموت وواجه النار بلافتات وأناشيد وأغاني الحرية، ولكن بلا شك سيجد المؤرخ نفسه أمام محطة حاسمة اسمها «بعثة مراقبي الجامعة العربية إلى سوريا» وداخل هذه المحطة سيقف حتمًا على موقف مفصلي، وهو انسحابي من البعثة وشهادتي ومن دون مبالغة مني بل باعترافات لا تحصى ولا تعد بأنها زلزلت كيان نظام بشار الأسد وأنظمة عربية كان رهانها فقط على التسويق للباطل، ومنها انتقل مباشرة الملف السوري إلى مجلس الأمن وبداية تدويل القضية بعدما صارت البعثة مجرّد مهزلة كما سمّيتها، ووجدت الجامعة العربية نفسها في موقف لا تحسد عليه، وقد تأكدت أنها لم تحسن الاختيار، سواء بالنسبة إلى رئيس البعثة أو حتى وجود أمثالي كما صرح بذلك الدابي نفسه وآخرون أيضًا، حينما اعتبروا تعييني مراقبًا غلطة لا يغفرها بعضهم، ممن لا تروقهم الحقيقة ولا يعجبهم الحق.

هذه بعض الأسباب التي دفعتني لتأليف هذا الكتاب «ثورة أمة: أسرار بعثة الجامعة العربية إلى سوريا»، وطبعًا لا نقصد الإساءة للأشخاص أو التشهير بهم، فتوجد أشياء كثيرة فضلنا أن نتجاوزها؛ صيانة لأوراقنا مما تعافه النفوس العفيفة والطاهرة، وحفاظًا على ما تبقى من كرامة المتورطين ممن سولت لهم أنفسهم خيانة الأمانة. وليست رغبتنا في شهرة دنيوية زائلة وزائفة على حساب دماء الناس كما قد يتوهّم بعض الناس، فقد ذهبت للبعثة وفي جعبتي مؤلفات مطبوعة وبرامج لا تعد ولا تحصى في الفضائيات الكبيرة، ولكن غايتي واحدة بعد رضوان الله علينا هي أن تعرف الأجيال الحالية والقادمة،

سواء من أبناء الشعب السوري أو غيرهم، حقيقة العابثين بالدماء والأعراض. وأتركه عبرة للمسؤولين في جامعة الدول العربية والأمم المتحدة وكل العالم؛ حتى يدركوا جيدًا مسؤوليتهم الأخلاقية والتاريخية في العبث بدماء الشعوب؛ لأن الدرس السوري لا ينسى أبدًا وتجربة المراقبين العرب ستبقى شاهدة على فصل خطير من الفشل الذريع الذي تغرق به الجامعة العربية كعادتها في التعامل الساذج والهزلي مع الأزمات العربية مثلما يجري في سوريا الجريحة التي ستتبعها ربما أزمات أخرى دموية مستقبلًا لا قدّر الله تعالى إذا لم يتمّ تدارك الكثير من الأمور. وأردنا أن نقدم هذه العبرات لكل مسؤول قصّر في حق الشعب السوري حتى تطالعه في خلوته علّه يحسّ بتأنيب الضمير، ولو على فراش نومه، ويتدارك نفسه قبل أن يتمدّد على فراش موته، حيث لن ينفعه جاه ولا سلطان، وإن تحققت الأمنية تكون الرسالة قد وصلت بامتياز، وهو أقل ما يمكن أن يقدمه مواطن جزائري رضع كل القيم النبيلة من ثورة المليون ونصف المليون شهيد، إلى الشعب السوري الذي كلما أتذكر الآن نجاتي من المشاركة في قتله والولوغ بدمه أخرّ ساجدًا لأشكر الله رب العالمين.

اللهم قد بلّغت، اللهم فاشهد.

أنور مالك

الرياض، في: ٢٠١٣/٠٣/٠١

هكذا كانت البداية

ككل الكتّاب والمثقفين والحقوقيين كنت أتابع الشـأن السوري، وما يجري فـي تلك البلاد، منـذ اندلاع الثورة فـي ١٥ مارس ٢٠١١، وشـغفت بها وتألمت كثيرًا لحال الشـام، ولما أراه عبر الفضـائيات العربية والدولية، وتوجعت لتلك الفيديوهـات الأليمة التـي تبث على شـبكة الإنترنت، وبينت للعالم وحشـية ما يجري في حق بني البشر بسوريا الجريحة.

كنت شـغوفًا إلى حدّ لا يمكن تصـوره، أن أذهب إلى هنـاك من أجل إنجاز تحقيقات وريبورتاجات وتقارير صـحفية وحقوقية عن الوضع الميداني الفعلي، وأكشـف بنفسـي قبل أن أنقله للآخرين حقيقة ما يجري في ذلك البلد الجميل والطيب، الذي يعشقه الجزائريون حتى النخاع.

فكـرت كثيرًا فـي الذهاب إلـى هناك علـى طريقتي الخاصـة، لكن زملاء وأصدقاء كثيرين حذروني من المغامرة، وأكدوا أن النظام السوري لن يتساهل مع أجنبي، وخاصـة إذا عرف أنه من الصحافة المستقلة أو ينتمي إلى جهة حقوقية محايـدة، فضـلاً عن كل ذلـك أن الجريدة التـي كنت أكتب فيها وهي «الشـروق اليومـي» لديها مواقف مناوئة للنظام السـوري، وقد حاولـوا على ما أعلم انتداب صحفي يذهب إلى هناك غير أن السلطات السورية لم توافق على طلبهم.

على الرغم من أنني أحب المغامرة، ولو أن تكون بين التماسيح لأجل الحق والحقيقـة، إلا أنني لـم أجد حلاًّ لذلك، وقـد فكرت في الذهاب إلى السـفارة

السورية بباريس لأطلب منهم ترخيصًا لزيارة سورية بوصفي كاتبًا وصحافيًّا وحقوقيًّا مستقلاًّ لا ينتمي لأي هيئة أخرى، غير أن الذين شاورتهم نصحوني ألا أشقّ على نفسي؛ لأنهم لن يوافقوا لي، وخاصة أن المخابرات السورية ستجري تحقيقًا عني ويعرفون حقيقة مواقفي التي لا أجاري فيها أحدًا، وهم لا يريدون إلا من يذهب هناك ويدخل بعض المناطق المحددة، ويحرر ما يريده النظام السوري عن استقرار الوضع وما يسمونه بـ (الجماعات الإرهابية المسلحة).

في مطلع شهر ديسمبر/كانون الأول ٢٠١١ وأنا لا أزال أفكّر في تحقيق غايتي، فجأة تلقيت مكالمة من السيدة فيوليت داغر، رئيسة اللجنة العربية لحقوق الإنسان، التي كانت تربطني بها وبلجنتها علاقات صداقة وطيدة، وكنّا دائمًا على اتصال، وتشاورني في أمور كثيرة تتعلق بالشأن الحقوقي والسياسي الجزائري، والمغاربي بصفة عامة.

طلبت مني الدكتورة داغر أن أنضمّ إلى بعثة المراقبين العرب التي تزمع الجامعة العربية إرسالها إلى سوريا في حال موافقة الحكومة، وذلك ضمن مجموعة اللجنة العربية لحقوق الإنسان، التي ستكون من أجل المساهمة في حلّ الأزمة واستقرار البلاد وعودة الأمور إلى مجراها الطبيعي. رحبت بالفكرة من حيث المبدأ دون أدنى تردّد؛ لأنني كنت أتلهّف من قبل لزيارة سوريا، وأتمنى لها الاستقرار والأمن، لكن شرطي الوحيد الذي ذكرته للدكتورة داغر هو ألا ألتزم بأي أجندة سياسية أو خلفية تخدم جهة ما.

لقد كنت أعرف مسبقًا أطروحات الدكتورة فيوليت داغر، وأنها لبنانية من الطائفة المسيحية ولها رؤيتها الخاصة في الشأن السوري، ومن جهة أخرى هي كانت زوجة السوري هيثم العودات المدعو هيثم مناع رئيس ما تسمى هيئة التنسيق الوطنية السورية في الخارج. والرجل بدوره له أطروحته وأجندته ومعاركه السياسية في القضية السورية، فضلاً عن كل ذلك أنه صار مغضوبًا

عليه من قبل الثورة في الداخل والخارج بسبب مواقف كثيرة عُدّت عند الكثيرين تحلب في إناء نظام بشار الأسد.

ومازلـت أذكر اليوم الذي شـارك فيـه هيثم مناع، وهو ينحـدر من درعا مهد اندلاع الثورة، في برنامج على قناة الجزيرة مطلع الثورة السـورية، وادعى حينها أن جهات ما عرضت عليه السلاح لتهريبه نحو الداخل السوري ومواجهة النظام، وقد أغضـب ما قاله الكثيرين من المعارضـين وحتى الشعب السوري، حيث في ذلك الوقت لم يكن الأمر سـوى مسيرات سلمية تواجه بالقمع الدموي من قبل سلطات الأمن.

بعدما سـمعت ما قاله على (الجزيرة) اتصـلت به هاتفيًّا بوصفي صديقًا لأستفسـر حقيقة الأمر، فأخبرني نظرًا لطبيعـة العلاقة التي تربط بيننا، ومن دون أي تحفظ أو تردّد بعدما أوصـاني بـأن الكلام الذي يدور بيننا حينها ليس للنشـر ولا للتوزيع، والآن أرى من الضـروري كشـفه؛ لما ينطوي عليه من أمور سنراها لاحقًا في قصتي مع لجنته.

أكّد لي هيثم مناع حينها أنه فعل ذلك حتى يقطع الطريق على من يفكرون في عسكرة الثورة المدنية يومًا ما، فأخبرته أن كلامه هذا يسيء للثورة السلمية التـي لا تـزال في بدايتها، ويضـعها في خانة الشـبهات خصوصًـا مـع الغرب، ويخدم النظام السـوري وبه يبرر قمع الثورة التي يصـورها إعلامه بأنها تتكون من جماعات إرهابية متشددة تعتدي على قوات حفظ الأمن.

غيـر أن منّاع أصـرّ على موقفه الذي برّره بأن الأمور سـتتجه نحو العنف المضـاد، وستتشـكل شـبكات لتهريب السـلاح، وما لفت انتباهي أن الرجل لم يؤكـد صـحة المعلومة بل رواها على أسـاس أنها مجرد حكايـة بمقهى مع أحد الأشـخاص المتحمسين والمتعاطفين للتغيير في سوريا، قال له يومًا في باريس

قبل اندلاع الثورة: إنه إذا ثار الشعب السوري وقمعه النظام على طريقة حماة، فمن حقهم أن يفكروا في أي طريقة ينقل بها السلاح للمواطنين؛ حتى يدافعوا عن أنفسهم، ولا يمكن أن يسمحوا بمرور مجازرهم كما جرى مع حماة في عهد الرئيس السابق حافظ الأسد.

أكدت لي رئيسة اللجنة العربية لحقوق الإنسان في اتصالاتها المختلفة معي، أن مهمتي حقوقية بحتة ولا علاقة لها بأي أجندة، سواء تلك التي يحملها هيثم مناع أو تقتنع بها هي، خاصة أنها محسوبة على جهة لبنانية تساند وتدعم نظام بشار الأسد، غير أنها استرسلت في أن البعثة العربية مهمة للغاية من أجل تفويت الفرصة على دعاة التدويل والتدخّل الأجنبي، فأخبرتها بأنني أيضًا ضد أي تدخل غربي، وأتمنى حل الأزمة في إطارها العربي والإسلامي.

أعرف جيدًا الجامعة العربية والمهام التي تقوم بها الدول العربية التي تعاني أنظمة شمولية متسلطة وديكتاتورية، لذلك أكّدت للدكتورة فيوليت داغر أنه في حال رأيت الباطل في إطار أجندات الأنظمة التي تكوّن بيت الجامعة وعادتها أنها تتبارى بالحقيقة، فلا يمكن أن ألتزم بأي قيود تفرض علي، سواء من جامعة الدول العربية أو من المنظمة الحقوقية التي سأمثلها، ولا يمكن مطلقًا أن أصمت مهما كانت طبيعة الالتزام الذي سنرتبط به مع الهيئة العربية، وحرصي كان صريحًا على حريتي المطلقة في التصرف واتخاذ ما أراه مناسبًا مع قناعاتي ومنطقي في معالجة الملفات الحقوقية الشائكة.

الدكتورة فيوليت لم تعارضني في شيء إلا أنها أشارت إلى ضرورة بذل الجهد لإنجاح الحلّ العربي، وبالطبع راهنت على تجربتي في الميدان الحقوقي والإعلامي والتوثيقي، خاصة أنني كتبت معهم وشاركتهم في أنشطة عدة وندوات مختلفة وتقارير متعددة.

أذكر في هذا الإطار أنني حدثتها عن الكتابة في شأن مشاهداتي؛ لأنني سأدوّن هذا الشأن بلا أدنى شكّ، فقالت لي بالحرف الواحد: «أنت حرّ اكتب ما تريد حين تعود، وأتمنى فقط إن أمكن أن تكتب لنا شيئًا للجنة العربية لحقوق الإنسان نضعه في موقعها الإلكتروني».

وكان جوابي: «بالتأكيد إن مرت المهمة كما نتمناها، ونجحت في تحقيق الأمن والاستقرار، فأنا لن أبخل على اللجنة بشيء».

ظلّت اللجنة العربية لحقوق الإنسان في تواصل معي من حين لآخر، وبقيت أترقب أخبارًا جديدة عن تطورات الاتفاق بين الجامعة العربية والنظام السوري بشأن المراقبين. وشغفت أكثر من ذي قبل بالأزمة السورية وفصول هذه الثورة الشعبية التي كانت تتصاعد بصفة بدت لي حينها أنها توحي بأن الأمر أكبر مما أراه على وسائل الإعلام، سواء كانت تحلب في إناء المعارضة أو الأخرى التي تسبح بحمد السلطة.

تابعت الشدّ والمدّ بين الجامعة العربية والحكومة السورية حول المبادرة العربية لحلّ الأزمة، وما تخلل البروتوكول من تداعيات وتبادل للاتهامات أو التصريحات والتصريحات المضادّة، التي وصلت إلى حد إعلان الجامعة العربية قرار مقاطعة اقتصادية في إطار عقوبات مفروضة، وأيضًا من خلال تجميد عضوية سوريا في الجامعة، بدت للبعض أنها محاولات للضغط بكل ما أوتيت الهيئة العربية من قدرات وصلاحيات لوقف العنف، وآخرون يرونها مجرّد شكليات لا تقدّم ولا تؤخر شيئًا.

في يوم الإثنين ٢٠١١/١٢/١٩ تم التوقيع على البروتوكول بين الجامعة العربية ممثلة في نائب الأمين العام السيّد أحمد بن حلي، والحكومة السورية ممثلة في نائب وزير الخارجية فيصل مقداد، وطبعًا الصيغة معدّلة بعض

الشــيء وفــق مقترحــات ظلت يتجاذبهــا الطرفان علــى مدار مدة ســقط فيها ضحايا كثيرون في المناطق الساخنة كحمص وإدلب ودرعا وغيرها.

في ذلك اليوم كنت في زيارة إلى الروائي الكبير الدكتور واسـيني الأعرج ببيتــه فــي باريس، حيث أعدت لنــا زوجته الدكتورة زينب الأعــوج طبقًا متميزًا جمع بين نكهة جزائرية أصـيلة وأخرى ســورية شهية، وقضيت بينهم وقتًا رائعًا فــي ظل ذكريات ثنائية للأديبين في الشــام، حيث عاشــا ســنوات عدة هناك، وكان الرائعان ريم وباسم تلك النكهة التي صنعت لنا زمنًا استثنائيًّا في حضرة صــاحب كتاب الأمير. والجميل أن الدكتور واسيني قد أبحر بي في حياة الأمير عبدالقادر كثيرًا من الجزائر إلى الشــام، واســتفدت منه كثيرًا وعرفت أشــياء أخرى لم يسبق لي أن طالعتها من قبل. وعند مغادرتي تلقيت مجموعة كتب من الدكتورة زينب لدواوينها الشــعرية الرائعة، ولم تبخل علي ريم الأعوج بدورها، وقدمت لي مؤلفها باللغة الفرنسية.

وأذكر أنه في اليوم نفســه ٢٠١١/١٢/١٩ تلقيت اتصالا هاتفيًّا من رئيسة اللجنة العربية لحقوق الإنســان، الدكتورة فيوليــت داغر، تخبرني فيه أنه يجب أن أجهّز نفســي، وما عليّ سوى الاستعداد للسفر في أي لحظة قد تأتي مفاجئة وقريبة جدًّا.

مســاء يــوم الثلاثاء ٢٠١١/١٢/٢٠ اتصــلت بــي الدكتــورة فيوليت داغر هاتفيًّا وعلمت منها أن السفر تقرر نهاية الأسبوع ما بين الجمعة أو السبت على أكثر تقدير. فرحت أســتعدّ للأمر الذي انتظرته بفارغ الصبر؛ حتى أساهم في نيل فضل المشاركة بمهمة نبيلة هي الأولى من نوعها في البيت العربي، وتسعى لأجل إنقاذ شــعب يقتل ووطن مهدد في استقراره وربما وجوده ووحدته الترابية أيضًا.

يوم الأربعاء ٢١/١٢/٢٠١١ تلقيت اتصالات من الجامعة العربية مباشرة، حيث تحدثت لي السيدة عفاف منصور، وقد أخبرتني أنه لدينا اجتماع مع السيد نبيل العربي، الأمين العام لجامعة الدول العربية، بمقر الجامعة في القاهرة، يوم الإثنين ٢٦/١٢/٢٠١١ نحو الساعة العاشرة صباحًا، وسفرنا نحو دمشق تقرر في اليوم نفسه مساء، ما يعني أن توجهي للقاهرة يجب أن يكون قبل ذلك، وأكدت لي أنها سترسل لي التذاكر فيها مواعيد السفر في أقرب وقت ممكن، بعدما أرسل لها جواز سفري، وهو ما قمت به فورًا.

بروتوكول

المركز القانوني ومهام بعثة مراقبي جامعة الدول العربية

بين

الجمهورية العربية السورية و الأمانة العامة لجامعة الدول العربية

بشأن

متابعة تطورات الوضع في سورية

- تنفيذاً للبند (2) من قرار مجلس الجامعة على المستوى الوزاري رقم 7438 د.غ.ع.م بتاريخ 2011/11/12 والخاص بتوفير الحماية للمواطنين السوريين العزل، ووفقاً لما جاء في البند "أولاً" من خطة العمل التي جرى الاتفاق عليها بين حكومة الجمهورية العربية السورية واللجنة الوزارية العربية في الدوحة والتي اعتمدها مجلس الجامعة على المستوى الوزاري بتاريخ 2011/11/2،
- واستناداً إلى ما ورد في رسالة وزير خارجية الجمهورية العربية السورية الموجهة إلى الأمين العام لجامعة الدول العربية بتاريخ 2011/11/14،

تم الاتفاق على ما يلي:

أولاً: تشكيل بعثة من الخبراء المدنيين والعسكريين العرب من مرشحي الدول والمنظمات العربية ذات الصلة بأنشطة حقوق الانسان وتوفير الحماية للمواطنين العزل، لإيفادها إلى أراضي الجمهورية العربية السورية، وتعرف باسم "بعثة مراقبي جامعة الدول العربية" وتعمل في إطارها، وهي مكلفة بالتحقق من تنفيذ الحكومة السورية لبنود خطة العمل العربية لحل الأزمة السورية وتوفير الحماية للمواطنين السوريين العزل.

ثانياً: - تبدأ البعثة عملها فور توقيع الحكومة السورية على هذا البروتوكول، وتباشر مهامها بوفد مقدمة مكون من رئيس البعثة وعدد كافٍ من

-2-

المراقبين (من 30 إلى 50 مراقب) مدعم بعدد مناسب من الموظفين الاداريين وأفراد الأمن والحماية الشخصية لأعضاء البعثة.

- يحدد رئيس البعثة وبالتشاور مع الأمين العام أعداد المراقبين وفقاً لما يراه من احتياجات تتعلق بانجاز مهام البعثة للتحقق من تنفيذ الحكومة السورية لتعهداتها بحماية المواطنين السوريين العزل، وللامين العام الاستعانة بالخبرات الفنية والمراقبين من الدول العربية والاسلامية والصديقة لتنفيذ المهام الموكولة للبعثة.

ثالثاً: تتولى البعثة الاطلاع على حقيقة الأوضاع والأحداث الجارية في سورية وذلك من خلال:

1- المراقبة والرصد لمدى التنفيذ الكامل لوقف جميع أعمال العنف ومن أي مصدر كان في المدن والأحياء السكنية السورية.

2- التأكد من عدم تعرض أجهزة الأمن السورية فضلاً عما يسمى "عصابات الشبيحة" للمظاهرات السلمية.

3- التأكد من الافراج عن المعتقلين بسبب الأحداث الراهنة.

4- التأكد من سحب وإخلاء جميع المظاهر المسلحة من المدن والأحياء السكنية التي شهدت أو تشهد المظاهرات وحركات الاحتجاجات.

5- التحقق من منح الحكومة السورية رخص الاعتماد لوسائل الاعلام العربية والدولية، والتحقق من فتح المجال أمامها للتنقل بحرية في جميع أنحاء سورية وعدم التعرض لها.

6- للبعثة حرية الاتصال والتنسيق مع المنظمات غير الحكومية ومع المسئولين الحكوميين، ومع من تراه من الأفراد والشخصيات وعائلات المتضررين من الأحداث الراهنة.

-3-

7- للبعثة حرية الحركة الكاملة وحرية إجراء ما تراه مناسباً من زيارات واتصالات ذات صلة بالمسائل المتعلقة بمهامها واطار وأساليب عملها المتعلقة بتوفير الحماية للمواطنين العزل، وذلك بالتنسيق مع الحكومة السورية.

رابعاً: تتعهد الحكومة السورية من أجل مساعدة البعثة على أداء مهمتها بما يلي:

1- تقديم كافة التسهيلات والسماح بدخول المعدات الفنية اللازمة لانجاح مهمة البعثة، وتوفير مقرات لها في العاصمة السورية وفي المواقع الأخرى التي تقررها البعثة.

2- تأمين سبل الوصول وحرية التحرك الآمن لجميع أعضاء البعثة في جميع أنحاء أراضي الجمهورية العربية السورية في الوقت الذي تحدده البعثة، وذلك بالتنسيق مع الحكومة السورية.

3- العمل على توفير الحرية الكاملة للبعثة في زيارة السجون والمعتقلات ومراكز الشرطة والمستشفيات في الوقت الذي تحدده البعثة، وذلك بالتنسيق مع الحكومة السورية.

4- ضمان حرية إجراء اللقاءات والاجتماعات اللازمة للبعثة لأداء مهامها.

5- ضمان عدم معاقبة أو الضغط على أي شخص بأي شكل من الأشكال وأفراد أسرته بسبب اتصاله مع البعثة أو تقديم شهادات أو معلومات لها.

6- منح البعثة وأعضائها وفقا للقوانين واللوائح المعمول بها في الجمهورية العربية السورية ذات الامتيازات والحصانات التي يتمتع بها خبراء الأمم المتحدة المشار إليهم في المادة السادسة من اتفاقية مزايا وحصانات الأمم المتحدة لعام 1946، والخبراء المشار إليهم في المادة (25) من اتفاقية مزايا وحصانات جامعة الدول العربية.

خامساً: تقدم البعثة تقارير دورية عن نتائج أعمالها إلى الأمين العام لجامعة الدول العربية والحكومة السورية تمهيداً لعرضها على المجلس الوزاري عن طريق

-4-

اللجنة الوزارية العربية المعنية بالوضع في سورية للنظر فيها واتخاذ ما يلزم في هذا الشأن.

سادساً: الأحكام الختامية:

يدخل هذا البروتوكول حيز التنفيذ بتوقيع الطرفين عليه، ويسري لمدة شهر ويمدد لشهر آخر باتفاق الطرفين.

حررت هذه الوثيقة بمقر الأمانة العامة لجامعة الدول العربية في القاهرة في يوم الاثنين الموافق 2011/12/19 من نسختين أصليتين.

السفير احمد بن حلي	د. فيصل المقداد
نائب الأمين العام لجامعة الدول العربية	نائب وزير الخارجية والمغتربين في الجمهورية العربية السورية

-5-

8

نسخة من البروتوكول الموقع بين الجامعة العربية والحكومة السورية

الرحلة الى مصر

يوم الأحد ٢٠١١/١٢/٢٥ عبر الرحلة رقم TK١٨٠٦ التابعة للخطوط الجوية التركية، ومن مطار تولوز الدولي الفرنسي انطلقت قرابة الساعة ٢:١٥ في اتجاه إسطنبول، وقد مرّت الأمور بصفة عادية، ولم يطلب مني أحد التأشيرة نحو مصر، وهو الذي كنت أخشاه، فأنا لا أملك تأشيرة بسبب السرعة في اتخاذ قرار السفر الذي صادف العطلة الأسبوعية في فرنسا ما حال دون ذهابي نحو السفارة المصرية، وقد طمأنوني من الجامعة العربية بأنني سوف أجد تأشيرتي في مطار القاهرة الدولي، ولن أتعرض لأي صعوبات أبدًا.

حطت بنا الطائرة التابعة للخطوط الجوية التركية في حدود الساعة ٦:٤٥ بالتوقيت المحلي، وكنت في الطريق مشغولًا إلى حدّ بعيد بما يجري في سوريا، فالفضائيات والوكالات والمتابعون يصفون الوضع بما لا يمكن تخيله من السوء والتدهور والانهيار، وهو الذي يجعل ذهابنا مغامرة حقيقية غير محسوبة العواقب، وخاصة إن لم تتوافر لنا الحماية والإمكانيات الكافية.

حطت قدماي لأول مرة في بلاد العثمانيين، ويا للأسف لا يمكن أن أغادر مطار إسطنبول الدولي بسبب عدم توافر تأشيرة تركية تسمح لي بجولة ولو عابرة في إسطنبول، لذلك اضطررت للبقاء بالمطار في إطار التحويل نحو القاهرة.

مكثت وحيدًا في انتظار الطائرة التي ستتجه بي نحو العاصمة المصرية، وكانت مدة الانتظار أكثر من خمس ساعات مرت كأنها يوم كامل. مدة الانتظار

مقلقة جدًّا بالنسبة إلي في أي مكان أحطّ به رحالي، وخاصة لما أكون وحدي في المطارات التي ترددت عليها في حياتي، وزاد أكثر وأنا في تركيا أنتظر مفاجآت السفر، فقد احتملت منعي من ركوب الطائرة بسبب عدم امتلاكي للتأشيرة. وكنت أفكر في هذه المهمة الصعبة وما يحفّها من أخطار جسيمة، فضلًا عن كل ذلك أن المهمة عميقة والمسؤولية جسيمة وتاريخية وخطيرة، فهي تتعلق بمصير بلد له مكانته الخاصة في أعماقي منذ طفولتي.

لقد كانت الرؤية قاتمة مذبذبة تجدها أحيانًا في المنطقة الرمادية وأخرى تتماوج ما بين السواد والبياض. فما أعرفه من خلال وسائل الإعلام أن الوضع خطير للغاية والحرب قائمة والنظام يمارس إبادة حقيقية، هذه الرؤية موجودة من خلال المشاهد الفظيعة التي تتناقلها الفضائيات الكبرى مثل الجزيرة والعربية والبي بي سي وغيرها، وحتى على شبكة الإنترنت رأيت ما ينزف له القلب، ويتصفّد له الجبين عرقًا، ويفتّت الأكباد من مشاهد أطفال قتلوا بطرق بشعة ومواطنين يعذبون بلا رحمة وجثث تتناثر في الشوارع وثكالى يصرخن بما تتشقق له الصخور.

أما القنوات الموالية لنظام بشار الأسد، سواء كانت سورية أو الأخرى الإيرانية والشيعية التي تبث من طهران أو لبنان أو العراق، فتعطي صورة مغايرة تمامًا عما نشاهده موثقًا، فهي تردد إلى حدّ الملل أن سوريا تتعرض لمؤامرة كونية كبيرة، بل إنها ذهبت إلى حدّ جعل الصور والفيديوهات التي تبث مفبركة ومركبة وملفقة، تم إنجازها وإخراجها في إستديوهات مخصصة لذلك، فمرة يزعمون أنها بمبنى الجزيرة في الدوحة، وأخرى أنها مجرد مونتاج في زوايا دولية أخرى معادية ومتآمرة على البلد وسيادته.

وإن كنت أرى هذا التصور سخيفًا إلى حدّ بعيد وأصحابه يستخفون بعقولهم قبل عقول الشعوب الأخرى، إلا أنه في أثناء مكوثي في مطار إسطنبول

الدولي راجت بمخيلتي كل تلك الاحتمالات المتلاطمة في بحر الأزمة السورية، التي أراها معقدة تتقاذها أطراف تتنازع في ظلمة واضح أن سدولها تمتد من طهران إلى واشنطن.

كنت غارقًا في احتمالاتي لفك طلاسم من يجول في هذا العالم الموبوء، وقد أقطعها من حين لآخر باتصالات متقطعة مع أسرتي في فرنسا؛ حتى أطمئنهم عليّ، أو أرد على مكالمات تصلني من أصدقاء أو صحفيين، وأبحر مرات أخرى في الإنترنت لأتابع مستجدات مهمة بعثة مراقبي الجامعة العربية إلى سوريا.

بينما أنا في هذه الحال تتجاذبني أمواج مختلفة، إذا بشاب يبدو في الثلاثينيات من عمره وبرفقته سيدة أكبر منه سنًّا، جلسا بقربي وكانا يتحدثان باللغة العربية، وظهرت لي أنها لهجة سورية.

عندما تحدثت في الهاتف تأكدا أنني عربي، فجمعنا حوار، وكانت فرصة لأقطع عن نفسي حبل الوحدة وأبعد تلك الهواجس الهوجاء التي أحاطت بي من كل جانب، والتي ليست بسبب الخوف بل من باب الحرص على معرفة ما أنا مقدم عليه في هذه المهمة الخطيرة والحساسة للغاية، تعرفت على الشاب ووجدته ينحدر من دمشق والأكثر من كل ذلك أنه لما أعلمته أنني من بين المراقبين العرب الذين سيتوجهون لسوريا في إطار البروتوكول الذي وقعته الحكومة السورية مع الجامعة العربية، فرح الشاب كثيرًا وبعدما كان يفصله عني كرسي، اقترب مني وهو يخاطبني: «هذه فرصة ذهبية أن ألتقي مراقبًا عربيًّا».

الشاب السوري وجدته من الناقمين جدًّا على النظام، وروى لي أنه غادر السجن حديثًا، حيث قضى خمس سنوات في زنازين مظلمة، وتعرض للتعذيب

البشع في سجن صيدنايا بدمشق. وقد حكى لي ما يندى له الجبين عن تعذيب السجناء من قبل جلادين لا فيهم رحمة ولا أدنى شفقة، بل إنهم يتباهون برفس الإنسانية تحت أقدامهم على حدّ تعبيره.

اقشعر جلدي، وارتعشت مفاصلي وأنا أستمع هذا الشاب وما عاناه، بل رأيت آثار التعذيب على بطنه وساقيه وما خفي كان أعظم في الأماكن الحساسة الأخرى التي لا يمكن رؤيتها. هذا الشاب السوري أعطاني صورة سوداء عن الواقع السوري، وما يعانيه الشعب من جبروت نظام بشار الأسد الاستخباراتي الإجرامي كما وصفه صاحبنا.

لم يتوقّف الأمر على سرد قصته ومأساته في أقبية سجون سوريا المظلمة، بل راح يحفّزني، ويوجّهني لأمور أخرى يجب أن آخذها في الحسبان في عملي ومهمتي، وخاصة ما يتعلق بالمعتقلين، فأخبرني صاحبي أن ضحايا التعذيب والعناصر المعروفة التي لا تخاف، ولن تتردد في فضح أساليب النظام الوحشية، يتم نقلهم إلى سجون سرية موجودة في ثكنات للمخابرات وأخرى بمصانع للتصنيع الكهرومنزلي، حيث أعدت لهم زنازين خاصة وأجنحة لا يمكن الوصول إليها، وهناك يجري تعذيبهم والتنكيل بهم.

وقد قال لي بالحرف الواحد:

«قضية المساجين الذين قبض عليهم بسبب الثورة لن تصلوا إليهم، فمن لم يقتل تحت التعذيب فهو موجود بسجون سرية لا يمكنكم الوصول إليها مطلقًا».

ليضيف: «زوروا شركة سيرونيكس بدمشق، ففيها مساجين منذ سبتمبر ٢٠٠٩ وبينهم من ماتوا تحت التعذيب، ودفنوا من دون أن يعرف أهاليهم بذلك».

لقد حكى لي محدثي الكثير من أسرار السجون السورية، وما يقترف في حق المساجين من انتهاكات يندى لها الجبين، فهم يتعرضون لقلع الأظافر والحرق في أماكن حساسة من أجسادهم ونتف الشعر بالكلاليب، فضلاً عن الخنق بالغطس والكهرباء والضرب المبرح بآلات حادة. بل روى لي قصصًا مختلفة عن زملاء له ماتوا تحت التعذيب من دون أن يبالي بهم أحد.

قضيت نحو ساعتين مع هذا الشاب السوري الذي أبدى حرصه على تنويري بما يجري في أرض الواقع، ولقد كان يقينه الذي لم يساوره أدنى شكّ أن مهمة المراقبين لن تكون ناجحة مطلقًا؛ لأنه يعرف طبيعة النظام السوري ومراوغاته، و«لا يمكن لنظام اقترف جرائم ضد الإنسانية أن يسمح لمراقبين بكشف عورته» على حد تعبيره.

كانت السيّدة التي ترافقه بدورها صبّت جام غضبها على نظام بشار الأسد، الذي أفقد سوريا بريقها وتاريخها ووزنها الحقيقي في العالم، حتى إنها قالت:

«من العيب والعار على سوريا الحضارة أن يحكمها بشار الأسد».

بعد ذلك الحديث الممتع الذي من خلاله تمكنت من اختصار الزمن الطويل الذي خلف مللًا في أعماقي، وخاصة أن قلقي شديد على أمر مهم للغاية يتعلق بالتأشيرة نحو القاهرة كما ذكرت سابقًا، حيث إنني قدمت من فرنسا متوجهًا نحو مصر من دون تأشيرة، وإن كنت تلقيت تطمينات من قبل السيدة عفاف التي كانت تتابع شأننا من الجامعة العربية، إلا أن تخوفي يتمثل أساسًا في منعي من مغادرة إسطنبول نحو القاهرة على أساس أنه ليس في جعبتي التأشيرة، أو ربما يتم إرجاعي لفرنسا، وهذا الذي سيفوت عليّ فرصة المشاركة في هذه المهمة النبيلة والإنسانية.

وأذكر في هذا السياق أنه قبل مغادرتي بيتي في فرنسا، كنت متحسسًا من مشكلة التأشيرة، فاتصلت بالسفارة المصرية التي أخبرتني أنه ليست هناك مشكلة، إذ كانت لي تأشيرة جاهزة في المطار، والأمر نفسه أكده لي أصدقاء من بينهم الروائي الكبير الدكتور واسيني الأعرج الذي يتردد كثيرًا على مصر.

غادرني الشاب والسيدة التي كانت برفقته، فقد كانا متوجهين إلى العاصمة الأردنية عمان، وذلك في حدود الساعة ١٠:٠٠ مساءً بالتوقيت المحلي لتركيا، أما أنا فبقيت في انتظار طائرتي التي موعدها هو الساعة ٢٣:٤٥.

غيرت مكاني بعدما أُعلن عن رقم البوابة التي ستنطلق منها الطائرة، ودومًا على الخطوط الجوية التركية. وهناك بقيت أفكر في حديث الشاب السوري الذي فتح لي آفاقًا أخرى عن الواقع الحقيقي للبلاد وما تعانيه، وخاصة أنه لما ودعني قال لي بالحرف الواحد: «الله يكون في عونكم، وتعودون سالمين لأهاليكم، فالنظام السوري أخبث مما تتخيلون».

تضيف السيدة التي ترافقه: «الداخل لسوريا مفقود، والخارج منها مولود».

من حين لآخر يعود بي شريط الذكريات إلى اللحظات الأخيرة التي ودعت فيها أسرتي، وخاصة ابنتي أريج التي قبلتني، وكانت لا تريدني أن أغادر، وكأنها أحست بأن الطريق طويل وشاق لأبعد الحدود، فضلًا عن أنني تركت زوجتي حاملًا في شهرها الخامس. ولا أجد في ظل هجمات الخيال على ذاتي إلا الدعاء إلى الله تعالى أن يعيدنا سالمين لأهالينا، ونتمكن من النجاح في مهمتنا وإنهاء العنف الذي يحصد أرواح الناس والأبرياء، حتى تعود سوريا لدورها الريادي الذي عرفت به في تاريخنا الذي لا تزال آثاره تصدح في الشام كلها.

في حدود الساعة ١١:٠٠ دخلنا البوابة التي خصصت للطائرة المتوجهة نحو القاهرة، وهناك تحدث المفتش معي باللغة التركية التي لا أعرفها، غير أنني فهمت من خلال سؤاله أنه يسأل عن التأشيرة، فأجبته بالفرنسية بأنني سآخذها من المطار، وترجمت له فتاة كانت تقف بجانبي ومتوجهة بدورها إلى القاهرة، وهي طالبة مصرية في الجامعة الألمانية ببرلين.

سمح لي بالدخول إلى قاعة الركوب، فحمدت الله أن الأمور مرت بسلام، وبقيت أفكر في أمر المطار؛ لذلك اتصلت بالسيدة عفاف الموظفة بالجامعة العربية، وأخبرتها بموعد وصولي للقاهرة، فطمأنتني أنهم أوفدوا من سيكون في انتظاري هناك ولديه كل ما يفيد بمهمتي مع الجامعة العربية.

في القاهرة

ركبنا الطائرة، وانطلقت بنا في موعدها من دون تأخير، وطبعًا كنت متلهفًا لزيارة القاهرة، وخاصة بعد الثورة وسقوط نظام حسني مبارك، بل كانت لهفتي أكثر لرؤية ميدان التحرير وتلك المناطق التي تابعتها كثيرًا خلال تلك الثورة التي شغفت بصغائرها إلى حد الإدمان.

بعد مدة من الانطلاق تجاوزت الساعتين، حلّقت بنا الطائرة في سماء القاهرة، حيث تجلت أنوارها البهية وعانقت سدول الليل التي تهادت كأنها تروي أساطير لا يمكن لأي أحد فكّ طلاسمها الغريبة، ما زاد في لهفتي للغوص في أعماق هذه المدينة التي لها شواهدها العميقة في دفاتر التاريخ.

حطت بنا الطائرة قرابة الساعة ٠٢:٠٥ صباحًا في مطار القاهرة الدولي، وكانت الخطوات الأولى لي في العاصمة المصرية... نزلنا من الطائرة من دون أي تأخير، واتجهت نحو المدخل المخصص، حيث قبل وصولي إلى شرطة المطار لختم جوازي، التقيت موظفًا في الجامعة العربية الذي كان يحمل لافتة كتب عليها اسمي.

سلمت عليه، وأعلمني أنه جاء لأجل تسهيل مروري ودخولي للبلاد من دون أي عراقيل، فاطمأن قلبي بعد تلك الهواجس التي طاردتني عبر رحلتي هذه. ولما وصلت إلى الشرطي أعطيته جواز سفري، فنظر فيه، وسألني عن التأشيرة؟ أخبرته بأنني لا أملكها، وأن جامعة الدول العربية أعلمتنا بالتكفل بكل شيء.

نادى الشرطي على ضابط كان يقف غير بعيد منا ومعه رفاقه، وسلمه الجواز ثم طلب مني الذهاب معه، تحدث إليه ممثل الجامعة العربية، وأخبره بأنني أحد المراقبين الذين استدعتهم الجامعة العربية، وسوف نتوجه إلى سوريا في مساء اليوم نفسه.

طلب مني الضابط أن أجلس لأنتظر دقائق، فاخترت كرسيًّا غير بعيد منه، وانتابني بعض القلق على ما أتعرض له، وكان لومي كبيرًا على الجامعة العربية، وقد بلغني موظفوها أن الأمور كلها قد سُوِّيت مع وزارة الداخلية، وأنه توجد قوائم فيها الأسماء بالمطار تسهل دخولنا.

لقد قلت في قرارة نفسي: إنه أول مرة أزور مصر، ولكن قدري اختارني لأدخلها من غير تأشيرة ربما تكون فأل خير مستقبلاً على شعوبنا العربية والإسلامية، حيث تزول الحدود والعراقيل التي صنعتها الأنظمة لحسابات لا تمت بصلة لقيم الوحدة التي تقتضيها التحولات الكبرى التي يعرفها العالم الآن.

بعد نحو خمس دقائق عاد الضابط ومعه شرطي آخر، فطلب مني مرافقته، توجه بي الشرطي إلى رواق غير بعيد، وهناك أدخلني إلى مكتب، وكان معي ممثّل الجامعة العربية، دخلنا على شاب في زيّ مدني يبدو أنه ضابط، فقد حيّاه مرافقنا على الطريقة النظامية بصورة توحي بأنه صاحب مكانة مهمة. سلمه جواز سفري وهناك قام بتحرير محضر لي، حيث سألني عن هويتي وأسباب زيارتي لمصر، وهل سبق لي من قبل دخول البلاد، وعن عملي وأشياء أخرى من هذا القبيل؟

بعد نحو ربع ساعة من الاستجواب طلب مني التوقيع على المحضر، وأيضًا الأمر نفسه بالنسبة إلى ممثل الجامعة العربية الذي أكّد ما تحدثت به عن مهمتي في إطار بعثة المراقبين العرب، وبعدها وقّع على جوازي بالموافقة، وأعطاه لي قائلًا: «خذه إلى الشرطي ليختم لك بختم الدخول».

حمـدت الله أن الأمـور انتهت عند هذا الحدّ، ولم يتـم ترحيلي إلى وجهة أخرى، وسـعدت لدخولي أول مرة إلى جمهورية مصر العربية، من دون تأشيرة أو أي شيء سوى محضر كان من الضروري تحريره.

توجّـه بي ممثـل الجامعة العربيـة إلى موقف غيـر بعيد مـن البوابة التي خرجنا منها، حيث كانت سـيارة أجرة في انتظارنا، أخبر السـائق بوجهتي، ثم ودعني بعدها؛ لأنه سيمكث في المطار في انتظار وافدين آخرين.

امتطيت السـيارة، وتوجهت بي نحو الفندق الذي خصّص لنا، وهو فندق السفير بالدقّي. وفي الطريق كان السائق يشرح لي كل الأماكن التي نصل إليها، وقـد طلبت منه أن نزور ميدان التحرير، فأخبرني بـأن طريقنا غير بعيد عنه، ووعدني بأن ينفّذ لي طلبي على الرغم من أن الساعة متأخرة.

كان محدثي يروي لي في الطريق الكثير مما عايشه خلال الثورة المصرية، ولما علم أنني جزائري راح يعتذر عما حدث بين البلدين بسبب مقابلة كروية في القاهرة والسـودان في إطار تصـفيات كأس العالم، بل حمل المسؤولية للنظام السـابق الذي أراد أن يسـتغلّ الأمور في إطار مخطط التوريث الذي كان يربط خيوطه، حتى يتولى الحكم جمال مبارك بدلًا من والده حسني مبارك.

شـدّ انتباهي هذا السـائق بثقافته الواسـعة وقدرته على التحليل وترتيب أفكاره، وعرفت منه في أثناء الحوار أنه متخرج في الجامعة منذ سنوات وموظف بسيط في إحدى الإدارات غير أن مدخوله لا يكفيه لسدّ رمق أسرته المكونة من زوجته وأربعة أبناء ووالديه وثلاث أخوات. ولهذا يعمل في المساء على سيارته؛ عله يضـمن مدخولًا إضافيًّا يساعده في التغلب على متاعب الحياة التي يعانيها الشعب المصري من جراء سياسة الفساد والنهب التي طالت البلاد.

وصـلنا ميدان التحرير، وقمنـا بجولة فيه على متن السـيارة طبعًا، حيث لاحظت بعض الخيم المنصـوبة لأشخاص لا يزالون في ثورتهم واعتصاماتهم،

غير أن محدثي انتقد ذلك، وقال: إنه يجب عليهم الآن المساهمة في بناء الدولة وإنقاذها من الانهيار، وفي الوقت نفسه حذّر من مخططات الالتفاف على الثورة التي يمارسها من سماهم «فلول مبارك» والحزب الحاكم المنحلّ الذين يتجذّرون في الإدارات والمرافق العمومية وأجهزة الدولة.

حقيقة اهتزت مشاعري، وأنا أجد نفسي في ميدان التحرير الذي تابعه الملايين في العالم، وصار قبلة لأمم وشعوب على مدار ثورة ما تخيلها أحد وما حسب لها نظام مبارك مطلقًا، بل احتقر من سماهم شباب الفيس بوك وعلى لسان جمال مبارك الذي كان يعدّ نفسه للسيطرة على إرث أبيه في قصر العروبة وغيره.

بعد دقائق معدودة من التأمل في ذلك المكان قضيناها في السيارة، توجهنا نحو الدقّي، وطبعًا مررنا على النيل وأماكن أخرى كانت تشدّ ناظري خصوصًا خلال الثورة المصرية، التي شغفت بتطوراتها بحكم عملي الإعلامي والحقوقي إلى درجة كبيرة حتى صرت مصريًّا أكثر من المصريين أنفسهم في ذلك الوقت، كما وصفتني زوجتي «أم أريج».

وصلت الفندق وبعد الإجراءات اللازمة لدى الاستقبال، تسلمت بطاقة الغرفة وتوجهت برفقة أحد أفراد الفندق الذي حمل حقيبتي ومحفظتي.. دخلت غرفتي في حدود الساعة الرابعة صباحًا. كنت منهكًا جدًّا من التعب، فقد قضيت أوقاتًا طويلة تجاوزت ١٢ ساعة وأنا بين ثلاثة مطارات، بل الليلة التي قبلها لم أنم جيدًا وهي عادتي لما أكون على موعد السفر.

توضأت، وصليت ما فاتني من أوقات اليوم، ثم أرسلت رسالة من المحمول حتى أطمئن أسرتي الصغيرة بوصولي لمصر، ثم تمددت على فراشي واستسلمت للنوم الثقيل الذي هجم علي بشراسة شديدة قلّ نظيرها.

علـى الرغم من كل ذلك لم أنم طويلًا، واسـتيقظت نحو السـاعة الثامنة صـباحًا، حيـث أخذت حمامًـا ونزلت للمطعم مـن أجل تناول فطور الصـباح، وهناك لاحظت بعض الوجـوه التي تبدو غريبة وتتكلم بلهجات مختلفة، فعرفت أنهـم من أعضـاء الوفد الذين يقيمون في الفندق نفسـه، وقـد قدموا من دول عربية مختلفة.

في مقرّ الجامعة العربية

بينما أنا في المطعم تقدّم مني أحدهم للتأكد من أنني عضو في بعثة الجامعة العربية، فرددت عليه بالإيجاب، فأخبرني أن الحافلة مركونة قبالة الفندق وسوف ننطلق في حدود التاسعة نحو مقر الجامعة العربية، فلدينا اجتماع نحو الساعة العاشرة مع الأمين العام لجامعة الدول العربية، السيد نبيل العربي. أعلمته بأنني سأكون جاهزًا في الوقت المحدد.

تأخرنا بعض الشيء في الانطلاق بسبب عدم حضور كل الأعضاء، وفي حدود الساعة العاشرة والربع دخلنا إلى قاعة الاجتماعات بمقر الجامعة العربية. وطبعًا لم نصل كما أرادت الجامعة بسبب الازدحام حيث كانت الطرقات مكتظة بالسيارات، وهي عادة القاهرة خاصة في مثل ذلك الوقت حيث يتوجه الناس إلى مقارّ عملهم.

دخلنا إلى القاعة الكبرى المخصصة لاجتماعات الجامعة العربية، التي طالما تابعت عبر الشاشات اجتماعات ولقاءات الدول الأعضاء في هذه الهيئة، وصادف أن التقيت عناصر من البعثة الرسمية للجزائر تتمثل في ستة أشخاص: ثلاثة ضباط في المخابرات وثلاثة سفراء، وقد عرفوني من النظرة الأولى، وذكر لي بعضهم كتاباتي وتحقيقاتي التي تابعوها عبر يومية «الشروق» الجزائرية، ويوجد من شاهدني في الفضائيات العربية وخاصة عبر برنامج «الاتجاه المعاكس» الذي تبثه قناة الجزيرة القطرية، وشاركت في ستّ حلقات منه، حيث ناظرت شخصيات عسكرية وفكرية وسياسية.

اندفع بعضهم من أجل الظفر بمقاعد قريبة من الأمين العام، وفضلت أن أختار كرسيًّا بعيدًا عن المائدة المستديرة، جلس بقربي ضابط برتبة مقدم من الجيش الموريتاني، وكان رجلًا طيبًا، بادر بالتعرف إليّ حيث قدم لي نفسه بأنه المقدم صالح ولد سيدي مولود، وعرفته على شخصي أنا بدوري.

تبادلنا أطراف الحديث عن المهمة التي تنتظرنا، وأعلمني أنه سبق له وعمل في مهمة حفظ السلام بدارفور. في تلك الأثناء تم توزيع كراسة عنوانها «ملف وثائقي بشأن بعثة مراقبي جامعة الدول العربية إلى سورية»، فيها كل مواد البروتوكول والقرارات التي اتخذها مجلس وزراء الخارجية العرب عبر جلساتهم المختلفة في إطار مهمة الجامعة لحلّ الأزمة السورية.

افتتح الاجتماع من طرف الأمين العام للجامعة العربية السيد نبيل العربي، الذي تحدث عن تجربة الجامعة مع القضية السورية منذ اندلاع أزمتها، وذكر بمحطات بارزة في تطورات هذه الوضعية الشائكة، وأشار إلى أهمية سوريا بوصفها عضوًا مؤسسًا للبيت العربي، حيث وصفها بقلب العروبة النابض، وأكد أن المطلوب هو إخراجها من أزمتها، وإبعاد التدخل الأجنبي بأي شكل من الأشكال.

وأشار نبيل العربي في مداخلته إلى أن «المطلوب هنا هو الحق والحقيقة».

وأضاف قائلًا: «مع الأسف الشديد الكثير من المعارضة يهاجمون الدول العربية»، ويزيد: «إحالة الملف لمجلس الأمن سيحل الأزمة هذا ليس صحيحًا».

وشدّد العربي على أن «سيناريو ليبيا غير وارد هنا»، لكنه يردف قائلًا: «ربما مستقبلًا.. ولكن الآن لا، وكل الدول تؤيد خطوات الجامعة».

ثم أشار إلى أن «المعارضة قد تلد جوًّا عدائيًّا للبعثة».

وبعدها تحدث عن برنامج الجامعة العربية مع المعارضة السورية، وأكد أن هناك خلافات داخلية بين وجوه المعارضة، وأخرى بين المعارضة والسلطة.

كانت لكلمة «الحق» وأيضًا كلمة «الحقيقة» وقعها الخاص عندما رددها أمين عام الجامعة العربية، فقد قرعت سمعي وراح صداها يتردد في أعماقي كمن قذف حجرًا في بئر عميقة، دفعتني إلى التحمّس أكثر، وطمأنتني على أن مهمتنا لن تكون للباطل أو التلاعب أو لطمس الواقع المعيش أو الانتصار لجهة على حساب أخرى.

بعدها أحال الأمين العام نبيل العربي، الكلمة لنائبه السيد أحمد بن حلي، الذي بدوره لم يبتعد عما ذهب إليه الأمين العام في التركيز على الحق والحقيقة ومساعدة سوريا وإبعاد شبح التدخّل الأجنبي، على حدّ تعبيره. وتحال الكلمة أيضًا للسفير عدنان الخضير، رئيس غرفة المراقبين في القاهرة، الذي بدوره شدّد على أهمية الحياد والالتزام به، ثم تحدث عن بعض الأمور التقنية الخاصة بعمل الغرفة التي يترأسها في العاصمة المصرية، وبينها أنها مفتوحة على مدار الساعة. وأعلن أنه تم تخصيص طائرة خاصة تنقل الدفعة الأولى المكونة من خمسين مراقبًا إلى دمشق من مساء اليوم نفسه.

بعدها عادت الكلمة للسيد نبيل العربي الذي ذكر بالدول التي أرسلت وفودًا، وهي الجزائر، المغرب، تونس، موريتانيا، السعودية، مصر، السودان. وأخبرنا أنه سيصل وفد سوداني جديد يتكون من ١٦ عضوًا وآخر عراقي في الأيام القليلة القادمة.

ثم أحيلت الكلمة لعلاء شلبي، رئيس المنظمة العربية لحقوق الإنسان، وأيضًا لرئيس قسم حقوق الإنسان بالجامعة العربية السيدة إلهام الشجني، وأيضًا علي عرفان عضو في مكتب الأمين العام. وقد أعطى كل واحد منهم بعض المعلومات

عن الميدان، وخاصـــة أنه يوجد من المتحدثين من كانوا بدمشق في إطار عملية تحضيرية لعمل بعثة المراقبين على غرار علاء شلبي وإلهام الشجني.

رئيس المنظمة العربية لحقوق الإنســان، كشــف لنا أنه تمّ تقســيم العمل المبدئي إلى خمس مناطق، وهي «دمشــق وريفها، حمص، درعا، حماة، إدلب». وشــدّد على أمر مهم أن تحرك أعضــاء البعثة لا يكون إلا بحماية من الحكومة السورية، حيث قال بالحرف الواحد:

«لا تحرّك إلا مع الأمن السوري».

وأضاف: «مهمتنا حيادية وتقنية بالأساس».

أما الســيدة إلهام الشجني فأشارت إلى أن العالم كله ينتظر البعثة العربية، ولهذا يجب بذل كل الجهد من أجل إنجاحها في تحقيق الأهداف التي سطّرت لها.

وفتح المجال للأسـئلة التي تركزت حول جوانب كثيرة من عمل البعثة وما ينتظرها في الساحة السورية من عوائق واحتمالات ممكنة وغير ممكنة.

يعـود أحمد بن حلـي وينفي ما روج لــه بيان قيل: إنه صــدر عن المجلس الوطني الســوري، من أن ثلاثة مراقبين قد غادروا دمشــق بســبب مضــايقات النظــام الســوري، ليؤكد أن المعنيين بالأمر هم من كانوا يحضــرون الأرضــية وبينهم من سيعود معنا إلى دمشق مثل إلهام الشجني.

رُفع الاجتماع في حدود منتصف النهار، فغادرنا القاعة حيث وجدنا الكثير من الصــحفيين من مختلف القنوات الفضائية والوكالات والصحف، وقد التفّ حولي مراســل الجزيرة والعربية والمصــرية والحرة ورويترز والشرقية والكثير من الفضــائيات الدولية والإذاعات العالمية، وقد تحدثت لهم حينها أن مهمتنا هــي البحث عــن الحقيقة فقط، وأن الأمين العام للجامعــة العربية أكد على أن

لدينا مطلق الحرية في التنقل حيث نريد ونقرّر من أجل مراقبة التزام الحكومة السورية بالبروتوكول.

بعد نحو نصف ساعة من الحوارات الصحفية، ذهبنا مجدّدًا إلى الحافلات التي ستتوجه بنا إلى الفندق بالدقي، في الطريق كنت سعيدًا بما سمعته في اجتماع الجامعة العربية، فالكل أجمع على أن مهمتنا هي الحق والحقيقة وأننا لن ننحاز لأي أحد كان، وهذا الذي أريده وذاهب لأجله.

وصلنا الفندق، حيث توجهنا نحو المطعم وتناولنا وجبة الغداء، بعدها عدنا إلى غرفنا على موعد اللقاء في بهو الفندق في حدود الساعة الثالثة من أجل الانطلاق نحو المطار.

أخذت قسطًا من الراحة بغرفتي، حيث تابعت بعض الأخبار في القنوات الفضائية التي تتحدث في أغلبها عن لقائنا مع الأمين العام بمقرّ جامعة الدول العربية، التي لم أشاهد تقاريرها، أجد الإشارة للحدث عن ذلك في الشريط الخبري المكتوب أسفل الشاشة.

في حدود الساعة الثانية والنصف زوالًا جمعت أغراضي وحقيبتي ونزلت إلى بهو الفندق حيث وجدت السيد هيثم مناع، الناطق الرسمي باسم اللجنة العربية لحقوق الإنسان التي انتدبتني للمهمة، وهو أيضًا رئيس ما يسمى هيئة التنسيق الوطنية في الخارج والذي لديه أطروحته في شأن بلاده، وسبق أن شددت في بداية الأمر على أن ذهابي لسوريا في إطار البعثة لا يجب أن يخضع لأطروحات مناع، وهذا الذي رحبت به السيدة فيوليت داغر.

سلّمت عليه وجلسنا وكان معنا أعضاء آخرون من ممثلي اللجنة في البعثة، وراح يحدثنا في أمور سياسية مختلفة تناط بالمهمة الحاسمة والخطيرة التي

نحن مقبلون عليها. وطبعًا لم يتردد في توجيه نقده اللاذع للمجلس الوطني السوري الذي وصفه كما يفعل نظام بشار الأسد بأنه «مجلس إسطنبول». ذهب الآخرون لإحضار حقائبهم وبقيت وحيدًا برفقة هيثم مناع، حيث طلبت منه أن يوصيني بشيء يتعلق بمهمتنا، ففاجأني بما لم يخطر على بالي على الرغم من علاقتنا التي عمرها سنوات، حيث قال لي بالحرف الواحد:

«خذوا بالكم من تقديم أي شيء يكون في صالح مجلس إسطنبول».

فقلت له: «مهمتنا أكبر من ذلك بكثير نحن نريد الحق والحقيقة».

فعقب: «المهم هو تفويت الفرصة على من يتربّصون بسوريا لأجل التدخل الأجنبي وتدويل القضية».

فسألته: «ماذا لو يكون ذلك من مطالب الثورة والثوار في الداخل؟».

فردّ: «لا يمكن أن نطيع الصبيان والمراهقين أو من تدفعهم الظروف إلى طلب أي شيء ولو كان لا أساس له».

فقلت له: «يعني ثوّار الداخل صبيان يا دكتور، هل هذا هو قصدك؟».

فأجاب: «بالتأكيد بينهم من هم كذلك ليست لهم أدنى تجربة ولا يفقهون حال السياسة، مع الأسف صار مجلس إسطنبول أكثر منهم صبيانية ومراهقة».

وضّحت له الأمر:

«أنا يا دكتور هيثم، لا يهمني أمر الخلافات بينكم أو الصراعات التي تجري، ما يهمني في هذا الأمر هو الحقيقة التي هي على أرض الواقع، وسأتحدث عنها ولو تكون في صالح الشيطان».

ونحن نتحدث عن مراقبين سيمثلان اللجنة العربية وتأخر حضورهما من تونس، أذكر في هذا السياق أن هيثم مناع أشار إلى توقيف أحد المواطنين في مطار قرطاج الدولي بتونس العاصمة، وعلّق على ذلك قائلًا:

«أرسلت رسالة على الهاتف المحمول لمنصف المرزوقي قلت له فيها: يا منصف، كنا نناضل معًا ضد هذه الأشياء، فهل أنساك المنصب مبادئنا؟».

راح هيثم العودات يقدح في أعضاء المجلس الوطني الذين يعيشون في فنادق خمسة نجوم، على حساب الشعب السوري، ومما قاله لي:

«نحن أعضاء التنسيقية أجرنا شقة ضيقة هنا بالقاهرة حتى نوفر الأموال التي نرسلها للداخل باستمرار لتمويل المشافي الميدانية في حين مجلس إسطنبول يتلقى الملايين من قطر وأمريكا ويبذرونها على الفنادق الفخمة والسهرات الماجنة».

قلت له: «هم يقولون: إنهم يؤدون واجبهم مع الشعب السوري، ورأيت لافتات كثيرة في المسيرات تؤيد المجلس الوطني في حين تتهمكم يا دكتور، بأنكم تخدمون نظام بشار الأسد».

ردّ بلهجة فيها بعض الحنق:

«لا تصدق ما تراه في المسيرات التي تبثها الجزيرة ولا اللافتات التي ترفع، فهي شعارات بأمر من جهات ما، ولا يمكن أن نعطي كل الأهمية للغوغاء في الداخل».

من جانب آخر سألته: «هل لديكم مشافٍ ميدانية دكتور؟».

أجاب: «نعم، في كل المدن السورية لدينا مشافٍ، ونحن من نرسل لها الأموال والأدوية ونسهر على ذلك منذ أشهر».

أحسست من كلام هيثم مناع أنه لا يريدنا ممثلين للجنة العربية لحقوق الإنسان التي أسسها منذ سنوات برفقة زوجته فيوليت داغر، بل مجرد أن نصير بيادق أرسلها لتخدم أطروحاته فيما يخص الأزمة السورية، وخاصة أنه لما سلم علينا مودعًا في نهاية الحديث أوصانا بأنفسنا خيرًا والانتباه كثيرًا؛ لأننا في عشّ الدبابير، وأيضًا أكد أنه يجب الحرص على إنجاح مهمة المراقبين مهما كانت العراقيل والعوائق التي أكيد سنتعرض لها، وما علينا إلا الصبر حتى إن قضينا أشهرًا في هذه المهمة.

من جهة أخرى راح مناع يتحدث عن متابعاته لبعض البرامج الإعلامية التي تتعلق بالمجلس الوطني الذي قال: إنه يتلقى تمويلًا من هيئات دولية مشبوهة، ليشرع من خلال هاتفه «آيفون ٤» يظهر لنا رسالة وصلته من الإعلامي سامي كليب تتعلق بمعلومات عن محاولات بعض أعضاء المجلس الوطني مفاوضة النظام بطريقة سرية، وأنا أتابعه وهو يبحث عن الرسالة المعنية، لفت نظري اسم مذيعة الجزيرة السابقة لونا الشبل، التي بدورها أيضًا بعثت له رسائل على هاتفه لم أتمكن من معرفة محتواها، ولكن يظهر أنها حديثة، حيث يظهر تاريخها باللون الأزرق أنها في عام ٢٠١١ وبينها التي هي في الشهر الثامن وأخرى في الخامس، ولم أدقق في بقية الرسائل؛ لأنها كثيرة جدًّا، ما يؤكد أن التواصل عميق جدًّا.

فقلت له: «دكتور، لونا الشبل أيضًا على اتصال بها».

فردّ من دون أدنى تردد: «نعم، مع زوجها سامي كليب، وهما من أحبابي».

فسألته: «أين هي الآن؟».

أجابني: «بين لبنان ودمشق».

ثم أردف قائلاً: «سأوصيها إذا احتجت إلى أي شيء يمكنك الاتصال بها مباشرة، فهي لديها مكانتها في سوريا».

أعطاني هيثم مناع رقم محمول لونا الشبل، وأكّد أنه سيحدثها عنّا قبل وصولي إلى دمشق، في ذلك الحين ما أعرفه عن لونا الشبل أنها استقالت من قناة الجزيرة مع مجموعة من المذيعات، وزوجة الإعلامي سامي كليب الذي كان يقدم برنامج «زيارة خاصة» وبعده «الملف» على القناة نفسها، ولم أكن أعرف مطلقًا مكانتها في نظام بشار الأسد.

لنتوقف، ويقرأ لنا جانبًا من رسالة سامي كليب التي دعاه فيها إلى متابعة حلقة تبث على إحدى الفضائيات يجري فيها فضح المجلس الوطني الذي يفضل هيثم مناع تسميته بـ «مجلس إسطنبول»، ولم يقرأ لنا الرسالة المقصودة بسبب عامل الوقت.

وأذكر أنه لما كان يبحث في هاتفه، كانت رسائل كثيرة من سامي كليب أيضًا وأخرى من زوجته لونا الشبل كما سبق ذكره، غير أن رسائل سامي أضعاف مضاعفة، ما يؤكد التواصل الدائم بينهم.

الأمانة العامة
قطاع مجلس الجامعة
إدارة شؤون مجلس الجامعة

ملف وثائقي

بشأن
بعثة مراقبي جامعة الدول العربية إلى سورية

الصفحة الأولى من الملف الوثائقي الذي تسلمه المراقبون العرب في مقر الجامعة العربية بتاريخ ٢٠١١/١٢/٢٦

فهرس

الصفحة

1- قرار مجلس جامعة الدول العربية على المستوى الوزاري رقم 7436 بتاريخ 2011/11/2 بشأن الترحيب بموافقة الحكومة السورية على خطة العمل واعتمادها 2

2- خطة العمل 3

3- بروتوكول المركز القانوني ومهام بعثة مراقبي جامعة الدول العربية بين الجمهورية العربية السورية والأمانة العامة 4

4- بيان مجلس جامعة الدول العربية على مستوى المندوبين الدائمين رقم 161 بتاريخ 2011/12/20 بشأن الترحيب بالتوقيع على بروتوكول المركز القانوني ومهام بعثة مراقبي جامعة الدول العربية بين الجمهورية العربية السورية والأمانة العامة، والموافقة على تسمية الفريق أول ركن محمد مصطفى الدابي (من جمهورية السودان) رئيساً لبعثة مراقبي جامعة الدول العربية إلى سورية 9

5- ميثاق جامعة الدول العربية 10

6- الميثاق العربي لحقوق الإنسان 25

7- السيرة الذاتية للفريق أول ركن محمد أحمد مصطفى الدابي رئيس بعثة مراقبي جامعة الدول العربية إلى سورية 40

8- قائمة الاتصال الخاصة بغرفة العمليات بجامعة الدول العربية بشأن بعثة مراقبي الجامعة إلى سورية 43

9- قائمة بأسماء بعثة مراقبي جامعة الدول العربية إلى سورية 44

فهرس الملف الوثائقي الذي تسلمه المراقبون العرب في مقر الجامعة العربية بتاريخ ٢٠١١/١٢/٢٦

تطورات الأوضاع في الجمهورية العربية السورية

إن مجلس جامعة الدول العربية في دورته غير العادية المستأنفة على المستوى الوزاري المنعقدة بمقر الأمانة العامة بتاريخ 2011/11/2.

- انطلاقاً من حرص الدول الأعضاء على أمن واستقرار سورية ووحدتها وسلامتها الإقليمية، وسعياً من الدول العربية إلى المساهمة في إيجاد مخرج للأزمة السورية لوقف إراقة الدماء وتحقيق تطلعات الشعب السوري في الإصلاح المنشود، تجنباً لأي تدخلات خارجية.
- وتأسيساً على المبادرة العربية لحل الأزمة السورية،
- واستناداً إلى قرار مجلس الجامعة على المستوى الوزاري رقم 7534 د.غ.ع بتاريخ 2011/10/16.
- وبعد الاستماع إلى تقرير رئاسة اللجنة الوزارية العربية بشأن الوضع في سورية، ومداخلة رئيس وفد الجمهورية العربية السورية،

يقـــرر

1- الترحيب بموافقة الحكومة السورية على خطة العمل المرفقة واعتمادها، مع التأكيد على ضرورة التزامها بالتنفيذ الفوري والكامل لما جاء فيها من بنود.

2- قيام اللجنة الوزارية العربية بتقديم تقارير دورية إلى المجلس حول مدى التقدم الذي تم إحرازه في عملية التنفيذ.

3- تكليف اللجنة بمواصلة مهمتها في إجراء المشاورات والاتصالات اللازمة مع الحكومة والمعارضة السورية لضمان عملية التنفيذ.

4- رصد مبلغ مالي للأمانة العامة لتغطية الأنشطة ذات الصلة بالمهام الموكلة إليها بموجب هذه الخطة.

5- إبقاء المجلس في حالة انعقاد دائم لمتابعة الموقف وتطوراته.

(ق: رقم 7436 -د.غ.ع.م - 2011/11/2)

-2-

الصفحة الثانية من الملف الوثائقي الذي تسلمه المراقبون العرب في مقر الجامعة العربية بتاريخ ٢٠١١/١٢/٢٦

اجتماع في مقر الجامعة العربية

الطريق إلى الشام

انطلقت بنا الحافلات نحو مطار القاهرة الدولي في حدود الساعة الثالثة والنصف، فموعد طائرتنا سيكون في حدود الساعة السادسة، كما أخبرونا في مقرّ الجامعة العربية، وكان يجلس بجانبي المحامي المصري مصطفى الحسن طه، وهو بدوره يمثل اللجنة العربية لحقوق الإنسان، وقد كان يشرح لي في كل محطة نصلها ما حدث فيها إبان الثورة المصرية التي أطاحت بالرئيس السابق حسني مبارك. وقد كان حينها، موجودًا في القاهرة على الرغم من أنه من الصعيد المصري وعمله ومكتبه هناك، إلا أنه اضطر للانتقال نحو العاصمة بوصفه ناشطًا حقوقيًّا لمتابعة تطورات ثورة ٢٥ يناير المصرية.

روى لي صاحبي بعضًا من مشاهد موقعة الجمل التي عايشها، إذ كان حينها موجودًا في ميدان التحرير، والتي وقعت في ٢٠١١/٠٢/٠٢ عندما هجم مجرمون مأجورون من قبل الموالين للحزب الحاكم على المتظاهرين وهم يمتطون خيولًا وجمالًا وبغالًا على طريقة القرون الوسطى، وذلك من أجل إرغامهم على إخلاء ميدان التحرير، حيث كانوا يعتصمون. وحسب لجنة تقصي الحقائق، فإن عضو مجلس الشعب السابق عبدالناصر الجابري عن دائرة الهرم ومساعده يوسف خطاب عضو مجلس الشورى عن الدائرة نفسها قاما بالتحريض على قتل المتظاهرين في يوم موقعة الجمل، وقد اتهم صفوت الشريف أيضًا بذلك، وهو الأمين العام للحزب الحاكم حينها. العملية أدّت إلى سقوط ١١ قتيلًا و٢٠٠٠ جريح على الأقل. وقد أدانت الأمم المتحدة الحادثة،

وأدانها زعماء العالم والمنظمات الحقوقية الدولية وأحزاب المعارضة المصرية.

لما وصلنا بالقرب من تمثال طلعت حرب، أشار إلى بعض الشوارع التي تسرب منها بلطجية موقعة الجمل، ثم استرسل في بعض جوانب القصة التاريخية لهذا القائد العسكري إبان حروب مصر مع إسرائيل.

الحديث مع صاحبي كان ممتعًا،خاصة أن فيه تجليات كثيرة من عمق تاريخ حروب بعيدة، وبه أيضًا نكهة أخرى لثورة الشباب المصري التي لا تزال تصارع قوى خفية وأخرى معلنة من أجل تحقيق أهدافها في ظل تشابك مصالح جهات داخلية وأخرى خارجية.

أما الطريق فكان مزدحمًا جدًّا ما جعل رحلتنا للمطار طويلة، وقد أخبرني صاحبي بأن القاهرة دائمًا على هذه الحال، وخاصة في الساعات الصباحية التي يتوجه فيها الناس إلى أعمالهم أو في المساء حيث تكون عودتهم.

مررنا على حي العروبة حيث يقع القصر الرئاسي ورأيت قصورًا فخمة على قارعة الطريق وأخرى تظهر شاهقة من بعيد، وشاهدت أمام بواباتها البوابين، وأذكر أن أحدهم كان يجلس على كرسي قبالة بوابة ضخمة لفيلا فارهة، وكان يقرأ جريدة بين يديه، فعادت إلى ذهني مشاهد كنت أراها في الأفلام المصرية، ولما علقت على ذلك، قال لي صاحبي المحامي: «كل ما تراه في الأفلام أغلبه يعكس كثيرًا من أمور المصريين، سواء ما تعلق بالبوابين أو عادات الصعايدة».

قضينا نحو ساعتين في الطريق، حيث لم تتجاوز سرعة الحافلة الأربعين، وفي أغلب الأوقات تتحرك ثم تتوقف... وهكذا. وصلنا إلى المطار بعد السادسة بقليل، وهي من المفروض ساعة الانطلاق نحو دمشق، وليست ساعة الوصول

للمطـار. بدأنا فـي إجراءات التسـجيل، حيث تسـلم كل مراقـب بطاقة ركوبه وأعطانا المشـرفون على سـفرنا أوراقًـا أخرى يتم ملؤها تتعلـق بمعلومات عن شـخص المراقب، «الاسـم، اللقب، العنوان، مكان الإقامـة، الجهة التي ينتمي إليهـا، الخلفية المهنية، التجربة في ميدان المراقبة،...». وأيضًـا وثيقة أخرى للتأمين على حياة كل مراقب، فملأنا الخانات المحددة فيها.

قمت بملء الوثيقتين في أثناء انتظاري لحل مشكلة فوجئت بها تتعلق بعدم وجود اسـمي في قائمة الحجز نحو دمشق، غير أنه بعد دقائق اكتشفت الخطأ، حيث يتعلق الأمر بحروف كتابة الاسـم فقط، لأتحصـل على البطاقة، وتوجهنا نحو قاعة الركوب.

بعدها مباشرة امتطينا حافلات مخصصة لنقل المسافرين داخل المطار، وتوجهـت بنا نحـو الطائرة الخاصـة بالبعثة فقط، وبعد نحو نصـف سـاعة من التحضير، تحركت بنا الطائرة متوجهة إلى دمشق في حدود الساعة ٧:١٥.

في أثناء الرحلة كان يجلس بجانبي المراقب المغربي المصطفى صويليح الـذي بدوره يمثـل اللجنة العربيـة لحقوق الإنسـان، وقد تعارفنـا أول مرة في القاهرة، فلم يسبق لي أن التقيته من قبل، وإن كنت أطالع أحيانًا بعض كتاباته فـي مواقـع الإنترنت حول الشـأن الحقوقي المغربي. قضـيت وقتي في مطالعة الصـحف التي سلمت لنا، وهي (الأهرام)، (أخبار اليوم)، (الشروق)، (اليوم السابع)، وهي صحف مصـرية معروفة، وتهت في الشأن المصري حينها، وإن كنت من حين لآخر يشد انتباهي ما يكتب عن الشأن السوري، خاصة من ناحية ما يتعلق بالمراقبين، وآفاق المهمة التي وافق عليها نظام بشار الأسد.

وبعد تناولنا وجبة قدمت لنا، انشـغلت أيضًا بمطالعة (الملف الوثائقي) الذي سلم لنا في مقر الجامعة العربية، والذي يتعلق بشأن مراقبي جامعة الدول

العربية إلى سوريا، والذي أصدرته إدارة شؤون مجلس الجامعة. ويحتوي الملف على قرار مجلس جامعة الدول العربية على المستوى الوزاري رقم ٧٤٣٦ بتاريخ ٠٢/١١/٢٠١١ بشأن الترحيب بموافقة الحكومة السورية على خطة العمل واعتمادها. وأيضًا بين دفتيه بيانات مجلس الوزراء وميثاق الجامعة، والميثاق العربي لحقوق الإنسان، والسيرة الذاتية للفريق أول الركن محمد أحمد مصطفى الدابي رئيس بعثة مراقبي جامعة الدول العربية، وقائمة بأسماء بعثة المراقبين المكونة من ٦٩ اسمًا (٦ جزائريين، ٢ سعوديين، ٥ تونسيين، ١١ مغربيًا، ٥ موريتانيين، ١٦ سودانيًّا، ٣ عراقيين، ١ من سلطة عمان، ١١ آخرين من المنظمة العربية لحقوق الإنسان، ٥ من اللجنة العربية لحقوق الإنسان، موظفة من الجامعة العربية، ١ من لجنة حقوق الإنسان، ١ من الجمعية الوطنية لحقوق الانسان، ١ من لجنة الإغاثة واتحاد الأطباء العرب).

وطبعًا لم يسافر معنا كل المسجلين في القائمة، فيوجد من التحق بنا في اليوم الموالي مثل البعثة السودانية، بسبب تأخر في الوصول للقاهرة أو هناك من لم يتحصل على التأشيرة في الوقت المحدّد.

٦

في مطار دمشق

حلقت بنا الطائرة في سماء دمشق، وبدت من المصابيح التي تزينها أنها هادئــة، لكنها بالتأكيد تخفي في ســدول الليل التي تعانقهــا الكثير من الخفايا والأسرار تكفل المراقبون العرب بأن يكونوا شهودًا عليها، وبالتأكيد سيمارسون السباحة لأجلها حسب تصريح وزير الخارجية وليد المعلم، ودار في مخيلتي ما قاله أمير الشــعراء أحمد شــوقي، حتى رحت أردده بصوت مرتفع، وأنصت لي القريبون من مقعدي:

سلام من صبا بردى أرق ... ودمع لا يكفكف يا دمشق

لقد تهاطلت على ذاكرتي مشاهد كثيرة من عمق التاريخ وعبقه، وما قرأته عن دمشــق من ماضي العالم الإسلامي ســواء في العهد الأموي أو العباسي، أو حتى من خلال الفنتازيا الشــامية ومسلســلات الحارات الشعبية التي برزت في العشــرية الأخيرة، ووشمت لمســاتها في عمق الشــعوب العربية، بما جلبته من انتباه العاشقين لقيم الرجولة والمروءة والشهامة والكبرياء.

تمنّيــت وتطلعــت كثيرًا من قبــل أن أنال شــرف زيارة الشــام، وأســتمتع بالتجول في شــوارعها وحاراتها ومكتباتها ومتاحفها العظيمة ومساجدها وحتى بيــن مقابرها التي فيها ما يتلهــف الكثيرون لرؤيته. غير أن الظروف لم تتح لي علــى الرغم من تفكيري فــي ذلك مرارًا وتكرارًا، فمحــن الحياة حالت دون أن نكحّل عيوننا بسماء سوريا أو يعبق مشامي برائحتها الزكية.

نزلنا من الطائرة في حدود التاسـعة مسـاء بالتوقيـت المحلي، ومن دون حافـلات النقـل دخلنا مباشـرة إلى بهو مخصـص فـي المطار، ليتـمّ تفتيش حقائبنا من قبل مجموعة تابعة لجهاز المخابرات، حيث كان المفتشون يلبسون الزيّ المدني، ولم نَرَ أي عنصر تابع لشرطة المطار أو من الجمارك.

مررنـا على جهاز كشـف المعـادن، ونحن في طابور، ومنه مباشـرة على طاولات متراصـة يقف عليها نحو ثمانية ضباط فتشوا الحقائب التي في أيدينا وما فيها سوى أوراقنا وهواتفنا وكاميرات تصوير وأشياء أخرى شخصية.

وكان التفتيش دقيقًا للغاية كأنهم يبحثون عن أمور محددة، وتساءلت عن هذا الإجراء غير اللائق ونحن في بعثة رسـمية ولدينا حصانة يتمتع بها خبراء الأمم المتحدة المشـار إليهم في اتفاقية مزايا وحصانات الأمم المتحدة لعام ١٩٤٦ وأيضًا اتفاقية مزايا وحصانات الجامعة العربية. حسب ما ورد في البند الرابع من البروتوكول الموقع بين الجامعة والحكومة السورية.

علقـت على الأمر، فردّ علي أحـد المراقبين كان يقف أمامي في الطابور، قائـلاً: «البداية غيـر مطمئنة»، وقد ظهر الانزعاج علـى غيري من المراقبين، وخاصـة أن الأغلبية السـاحقة من الضـباط السـاميين، بينهم من يحمل رتبة عميـد مثـل المغربي محمد كرماني والتونسـيين عبد اللطيـف الجبالي ومحمد النفطـي، ويوجد من هـو برتبة وزير مفوض مثل التونسـيين محمد السـديري وجليل سنوسـي، فضلاً عن السـفراء أمثال الجزائريين سـاعد بلعابد، محمد يرقي، لحسن تهامي... إلخ.

إلا أنهم صـمتوا على مضض، وتعاملوا بجفاء مع عناصر الاستخبارات الذين فتشونا، والحقائب أيضًا تعرضت لتفتيش دقيق بالتأكيد ظهر ذلك لاحقًا لما دخلت غرفتي بمحل إقامتي، حيث وجدت محتوياتها غير مرتبة كما وضعتها أول مرة.

بعد التفتيش في قاعة عادية كما ذكرت، التي أفرغت خصيصًا لهذا الشأن، حيث لم نشاهد فيها غير المفتشين ونحن، اتجهوا بنا نحو القاعة الشرفية المخصصة لكبار الزوار، وهناك قدّموا لنا مشروبات وشايًا وحلويات، وقد كان عدد ضباط المخابرات كثيرًا وإن كان لم يدخل معنا القاعة غير عدد محدود، ووجدنا في القاعة أحد الضباط في الزيّ الرسمي، ويحمل على كتفيه رتبة عقيد.

كنا نتوقع جميعًا أن نجد الفريق أول الركن محمد أحمد مصطفى الدابي في انتظارنا، كما قيل لنا في اجتماع الجامعة العربية، غير أنني لاحظت غيابه وحضور موظفين من الجامعة لاستقبالنا، وهو الذي لم يعجب بعض المراقبين الذين اعتبروه تصرفًا غير لائق، فالذين وصلوا هم الطليعة الأولى للمراقبين وكان من الضروري أن يستقبلوا من قبل الدابي شخصيًّا، خاصة أنهم كلهم إطارات سواء في الدول التي انتدبتهم أو المنظمات الحقوقية الأخرى، وكما ذكرنا سابقًا أنه يوجد من هم برتبة وزير مفوض وجنرالات وعقداء وسفراء ومثقفون معروفون ومشهورون... إلخ.

لقد كان يجلس بجانبي أحد أعضاء البعثة التونسية، وهو يحمل رتبة عميد، الذي عَدّ تصرّف الدابي إهانة كبيرة، وقال لي بالحرف الواحد:

«عدم استقباله لنا سمح لهم بعدم احترامنا وتفتيشنا بطريقة غير لائقة».

ويوجد آخر قال: «من المفروض أن يستقبلنا الدابي شخصيًّا وأمام بوابة الطائرة».

شخصيًّا أزعجني بدوري عدم حضور الجنرال الدابي للمطار، فاستقبال البعثة من قبل موظفين بالجامعة العربية أمر غير مقبول، ولا يليق ببعثة مقبلة على مهمة كبيرة وصعبة، فكان من المفروض على الأقل أن يكلف الدابي، مساعد الأمين العام للجامعة العربية السفير سمير سيف اليزل بالمهمة.

سألت أحد المستقبلين عن سبب غياب الدابي؟ فأجابني:

«رئيس البعثة في اجتماع مع مسؤولين في الحكومة السورية، ولذلك لم يتمكن من الحضور للمطار».

فقلت له: «أظن أن استقباله للبعثة مهمّ من الناحية المعنوية على الأقل والاجتماع مع الحكومة كان يمكن أن يكون قبل الوصول أو حتى بعده مباشرة».

فرد بلهجة تعبّر عما يشبه امتعاضه من سؤالي: «إنه اجتماع مع وزارة الخارجية ومع مسؤولين كبار».

فقلت له معاتبًا: «أمر غير لائق بالمرّة مهما كان المانع».

ليردّ: «نحن نتأسف، ولكن غياب رئيس البعثة أمر فوق طاقته».

عدت إلى مقعدي حيث كنت جالسًا، وتجدر الإشارة إلى أن المقاعد لم تكن كافية للضيوف، فيوجد من تناول الشاي واقفًا، وكل هذه الأمور أزعجت المراقبين وخاصة أولئك الذين دأبوا على مثل هذه المناسبات الرسمية التي يفرش فيها السجّاد الأحمر، أما أنا وبعضهم وإن اعتبرنا عدم حضور الدابي مزعجًا لكن لم نعطِ الشكليات الأخرى أكثر مما تستحق، وإن عدّه الكثيرون مؤشرًا سلبيًّا على طريقة تعامل الفريق أول الدابي مع المراقبين العرب.

بعد نحو نصف ساعة من الجلوس في القاعة الشرفية، انطلقنا في حافلات حيث تحرسنا سيارات الشرطة والجيش وأخرى لأشخاص في الزي المدني على ما يبدو ينتمون لجهاز المخابرات، واتجهوا بنا نحو فندق إيبلا الشام Ebla Hotel، بدمشق الذي لا يبتعد كثيرًا عن المطار.

وصلنا محلّ إقامتنا في وقت قصير، وهناك شرع الموظفون بالجامعة العربية مع المسؤولين في الفندق، في الإشراف على توزيعنا على الغرف، وبعدها وُزعت الحقائب على الغرف بعد تسجيل الأرقام عليها من قبل العمال هناك.

٧

الاجتماع الأول

مع رئيس بعثة مراقبي الجامعة العربية

عند وصولنا إلى الفندق مباشرة أخبرنا من قبل مسؤولي الجامعة أنه سنكون في اجتماع مع رئيس البعثة الفريق أول الركن محمد أحمد مصطفى الدابي بعد نحو نصف ساعة، ثم توجّه كل واحد إلى غرفته؛ لتحضير نفسه.

لم أمكث كثيرًا في غرفتي، ونزلت إلى بهو الفندق حيث وجدت الكثير من المراقبين في انتظار الاجتماع، وجلست مع أعضاء البعثة الجزائرية الرسمية، وتبادلنا أطراف الحديث عن الملاحظات الأولية لوصولنا، وقد أبدى بعضهم امتعاضهم من عدم استقبال الفريق أول الركن محمد مصطفى الدابي للبعثة في المطار، وهذا الذي أشرنا إليه من قبل.

استغل الموظفون في الجامعة العربية انتظارنا للاجتماع، فشرعوا في توزيع متطلبات المهمة المتمثلة في سترة برتقالية وقبعة بيضاء اللون عليهما شعار الجامعة وبطاقة تعلق في الرقبة عليها اسم المراقب ورقمه وختم وزارة الخارجية والمغتربين السورية، وقد تسلمت أغراضي ومع الأسف لم أحصل على البطاقة، وأعطيت لي أخرى مؤقتة، أما الخاصة بي فلم أتسلمها إلا في اليوم الموالي مساء، وكنت أحمل رقم ٩٢.

بعدها نودي علينا لقاعة الاجتماعات الموجودة بالفندق طبعًا، حيث سمعت أحد الموظفين في الجامعة العربية يخبر زميلاً له بأن الفريق أول الركن محمد

أحمد مصطفى الدابي قد وصل توًّا، وهو ينتظر حضور المراقبين للقاعة. لبينا الطلب ولم نمكث سوى بعض الدقائق وإذا برئيس البعثة الدابي يدخل علينا وكان برفقته مساعد الأمين العام للجامعة العربية السفير سمير سيف اليزل ومدير مكتبه وهو ضابط في المخابرات السودانية يحمل رتبة عقيد واسمه أكرم محمد حسين طاهر. وقف الجميع للفريق الذي تقدم، وصافح الجميع معتذرًا عن التأخر، وذلك بسبب اجتماع عقده مع وزير الخارجية السورية.

بعدها فتحت الجلسة، حيث ألقى الدابي كلمة رحّب فيها بكل البعثة، شاكرًا الدول المشاركة، وقد تجاهل حينها المنظمات الحقوقية، وتحدّث عن المهمة والبروتوكول الذي وقعته الحكومة السورية مع الجامعة العربية، وردّد الكثير مما سمعناه في القاهرة على لسان الأمين العام نبيل العربي أو نائبه أحمد بن حلّي...إلخ.

ثم أحيلت الكلمة أيضًا إلى السفير سيف اليزل، ثم بعدها السيد غالب صالح رئيس مكتب المقاطعة للجامعة العربية في دمشق. ومما تمت الإشارة إليه في المداخلات الكثير من الجوانب التنظيمية الخاصة بالبعثة، كتوزيع الأفواج، وعدد العناصر في كل فوج، السيارات، أجهزة الإتصال، الإقامة، الأجر الذي حدد ١٤٠ دولارًا للمراقبين في المناطق الساخنة و١٠٠ دولار للماكثين في دمشق، التنسيق مع غرفة العمليات بدمشق والقاهرة، التنسيق مع السلطات السورية... إلخ.

أخبرنا الدابي أن ميزانية البعثة هي مليون دولار فقط، لذلك ليس بالإمكان توفير كل المتطلبات، وقد تحدث المراقبون عن الهواتف، فأخبرنا السفير سيف اليزل أنه تم توفير ٥ خطوط ثريا ستكون بحوزة رؤساء الأفواج، أما الهواتف الشخصية فهي على حساب المراقبين، وهو ما لم يعجب الحاضرين،

وظهر الامتعاض عليهم؛ لأنه من الضروري أن يكون في حوزة كل مراقب هاتف وكاميرا تصوير وكل متطلبات المراقبة.

لذلك اقترح المراقبون أن تتكفّل الجامعة بتزويدهم بشرائح؛ لأنه لا يمكننا مغادرة محالّ الإقامة لأجل تحصيلها، وهذا الذي وافق عليه الدابي فورًا، وقد أخبرنا المسؤولون أيضًا بأن المعدات التي تسلمناها عهدة، ولما سأل أحد المراقبين عن السترة والقبعة؟ يردّ سيف اليزل بأن الحديث يتعلق بهواتف الثريا والسيارات وأجهزة الكمبيوتر والطابعات والفاكسات، أما السترة والقبعة فهي ملك للمراقبين لتبقى ذكرى عندهم بعد العودة سالمين إلى بلادهم.

وما أشار إليه الجنرال الدابي بقلق شديد، ما سمي حينها بقضية المراقب المزيّف، ويتعلق الأمر بالمسمى مستشار محجوب الذي تفادى الدابي ذكره، وقد زعم أنه من المراقبين العرب، وتحدث لقناة العربية الفضائية، حيث أخبرهم بأنه أصيب بإطلاق ناري من قبل الأمن السوري، وهذا الذي تناقلته وكالات الأنباء العالمية.

سمعنا بقصة محجوب، ونحن في العاصمة المصرية، إلى جانب ما روي عن خبر انسحاب ثلاثة أعضاء من البعثة بسبب التضييق، وكان الأمر يتعلق بعناصر من مجموعة الطليعة التي ذهبت لتحضير عمل البعثة في دمشق ثم عادت للقاهرة وكان بينهم السيد علاء شلبي رئيس المنظمة العربية لحقوق الإنسان والسيدة إلهام الشجني وموظف آخر.

وبناء على تداعيات قضية محجوب طالبنا الجنرال الدابي بوجوب الامتناع عن التصريحات لأي وسيلة إعلامية مهما كانت، وأن الوحيد المخوّل للحديث مع الصحافة هو رئيس البعثة شخصيًّا. وقد حضّر لنا قسمًا لذلك الأمر، فطلب منا أداءه، حيث حلفنا بالله العليّ العظيم على ألا نصرّح لأي وسيلة إعلامية

ولا ننقل أي معلومات من داخل البعثة في أثناء مهمتنا سواء لوسائل الإعلام أو الجهات التي انتدبتنا للجامعة، وأن نلتزم بالحياد ونتمسك بالحقيقة وأن نكون نزهاء ونخلص في عملنا، ولا ولن ننحاز إلى أي طرف.

أشار الجنرال الدابي بعد القسم إلى قضية الضغوط التي ستسلّط علينا من قبل الإعلام والمعارضة والسلطات وكل الجوانب الأخرى، ولهذا تحدث عما روج إعلاميًّا حول حمص والأحياء الساخنة فيها وبينها بابا عمرو، وهو الحي الذي أفرده الدابي بالذكر، لما يشهده من أحداث وأنباء عن تحضير السلطات نفسها لاقتحامه بالجيش والدبابات والآليات الثقيلة حسب ما تداولته وسائل الإعلام حينها.

وأخبرنا أن المعارضة طالبت بضرورة المسارعة بالذهاب إلى حمص بوصف ذلك زيارة مبدئية، ولذلك سوف نقوم بذلك مباشرة في صباح اليوم الموالي، وأنه بعد العودة سيشرع في توزيع الأفواج عبر خمس محطات، وهي حمص وإدلب ودرعا وريف دمشق وحماة، وهي المناطق نفسها التي علمنا بها في أثناء اجتماعنا في مقرّ الجامعة العربية.

ثم طلب من المراقبين أن يتطوع عشرة منهم لمرافقته في هذه الزيارة الأولى والتاريخية، وكنت ثاني من وقف متطوعًا مباشرة بعد السيدة إلهام الشجني، أما الآخرون فبعد تردّد وقف عدد يفوق المطلوب، وقام الدابي بالاختيار على أساس الدول، وكنت أنا ممثلاً للجزائر. وقد تقرر أن يتم مرافقة الفريق أول ركن محمد مصطفى الدابي ومدير مكتبه السوداني العقيد أكرم محمد حسين طاهر، كل من الجزائري أنور مالك، والسعودي المقدم خالد الربيعان، والمصري إسلام أبوالعينين، واليمنية إلهام الشجني، والموريتاني العقيد البخاري ولد أحمدو، والعراقي محمد حسن الموسوي، والمغربي العميد

محمد كرماني، والسوداني الرائد الزاكي كوكو خالد الجاك، والموريتاني سيد عثمان والجيبوتي محمد حسين عمر.

رفعت الجلسة بعد منتصف الليل، وقد تقرر أن يكون الانطلاق مبكرًا قرابة الساعة السابعة، وطلبوا منا الاستيقاظ قبل ذلك الوقت من أجل تناول وجبة الإفطار. بعدها غادرنا قاعة الاجتماعات التي كانت مجهزة بكاميرا تصوير تابعة للجامعة العربية، حيث صورت كل حيثيات اللقاء.

توجهنا فورًا نحو المطعم لتناول وجبة العشاء، وبعدها إلى الغرف من أجل الراحة، فقد كان اليوم متعبًا جدًّا، فضلًا عن أنه ينتظرنا السفر مبكرًا نحو حمص التي تبتعد عن دمشق نحو ١٦٠ كم.

الطريق نحو حمص

تناولت وجبة خفيفة من العشاء بسرعة؛ لأنني كنت مرهقًا جدًّا وفي حاجة ماسّة إلى أن أركن للنوم، وفي المطعم جلست على طاولة واحدة مع البعثة الجزائرية الرسمية المكونة من ثلاثة سفراء وثلاثة ضباط من المخابرات، كما سبق وأن أشرنا.

بعدها اتجهت إلى غرفتي رقم ٥١٥ في الطابق الخامس طبعًا، حيث أخذت حمامًا وخلدت إلى النوم، غير أن موظفًا بالجامعة العربية أيقظني لما اتصل بي هاتفيًّا ليخبرني أن وقت الانطلاق نحو حمص سيكون نحو السادسة والنصف بدل السابعة، فطلبت منه أن يتصل لما يستيقظ أو يكلف الاستقبال بذلك.

لقد راودني التفكير عن رحلتي إلى حمص، وأنا تابعت من قبل ما يحدث فيها، وتأكدت أنني سأدخل الأماكن الساخنة وربما حي بابا عمرو، وباب السباع والخالدية، وتركز تفكيري في حي بابا عمرو بسبب ما تابعته من أخبار عن ذلك الحي الثائر، وما يتعرض له من إبادة حقيقية حسب وسائل الإعلام وما ينشر على الإنترنت من صور وفيديوهات مؤثرة ومخزية، وأحيانًا أتساءل بيني وبين نفسي عن حقيقة ما يجري، تُرى هل الأمر كما تروي الجزيرة والعربية وما يتم تداوله عبر اليوتيوب والفيس بوك والتويتر أم الأمر مجرد أجندة خفية كما تردد الأجنحة الموالية لبشار الأسد؟ بلا شكّ كنت مقتنعًا أن الأمور ستتضح لما أضع قدميّ لأول مرة في حياتي بحمص وأحيائها الثائرة.

كان خيالي يسبح في مؤثرات ذلك اليوم المتعب، حتى إنني أحيانًا أكاد أشك في الأمر، فلا يعقل أنني في دمشق وسأدخل حمص، فلم أصدّق نفسي أن ساعات قليلة تفصلني عن دخول حي بابا عمرو أو غيره.

نمت على وقع تلك الهواجس التي لاحقتني، وجعلتني موزعًا بين الواقع والخيال، بين الصدق والكذب، بين الحقيقة والوهم... وفي حدود الساعة السادسة رنّ الهاتف، ولم يكن سوى موظف الجامعة العربية الذي كلّف بتحضير شؤون الرحلة. نهضت مسرعًا، فأخذت حمامًا وبعده أديت صلاة الصبح. لبست ثيابي وحملت سترتي وقبعتي وبطاقتي الخاصة، ثم نزلت إلى بهو الفندق حيث وجدت بعض العناصر من البعثة يتّجهون نحو المطعم لتناول وجبة الإفطار. بدوري لحقت بهم، ولم أتأخر كثيرًا لأعود إلى المكان المتفق عليه حيث التقيت كل المراقبين المختارين باستثناء الفريق أول الركن محمد مصطفى الدابي الذي يقيم بفندق آخر وسط العاصمة دمشق.

تجمّعنا في بهو الفندق ولم نتأخر كثيرًا، وغادرنا بسيارتين ترافقنا حراسة أمنية مشدّدة مكونة من الشرطة والجيش وآخرين في الزيّ المدني يبدو أنهم من ضباط المخابرات السورية.

بعد نحو نصف ساعة وصلنا الفندق الذي يقيم به رئيس البعثة محمد مصطفى الدابي وأركان مكتبه، نزلنا من السيارات وهناك وجدناه في البهو برفقة السفير غالب صالح والسفير سيف اليزل والعقيد عفيفي عبد اللطيف والعقيد أكرم محمد حسين طاهر وعقيد آخر من المخابرات السورية مكلف بحماية الفريق وحراسته الشخصية.

ركبت سيارة واحدة برفقة كلّ من الدابي وإلهام الشجني وخالد الربيعان والزاكي والعقيد أكرم، هذا الأخير هو مدير مكتب الفريق أول ركن الدابي،

الجنرال الدابي والسفير سيف اليزل والمؤلف في دمشق قبل الانطلاق نحو حمص في يوم ٢٠١١/١٢/٢٧

أما السائق فيدعى أحمد بخيت أبومحمد، وقد أخبرنا بأنه مدني يعمل في الشركة التي أجّرت الجامعة العربية منها السيارات، وذلك بسبب تأخر وصول السيارات المخصصة للبعثة من الدول التي قررت التبرع بها مثل السعودية والعراق والأردن.

لم ننطلق مباشرة بسبب التأخر في تحضير الحراسة المرافقة لنا، وفي الطريق كان الدابي يجري اتصالات هاتفية مكثّفة مع جهات سورية وأخرى سودانية، وكان على اتصال دائم بمقر البعثة في دمشق والقاهرة أيضًا. وفي الوقت نفسه تلقى اتصالات عدة من وكالات أنباء متعددة وكان يتجاهل بعض الجهات الإعلامية مثل الجزيرة والعربية، في حين يفضل وكالات بعينها مثل رويترز ووكالة الأنباء الفرنسية التي أشاد بها مرات متعددة.

ومن حين لآخر يتحدث إلينا كلما لفت انتباهه شيء ما في الطريق، ومما أذكره في هذا السياق حديثه عما يروّج عنه بأنه مطلوب لمحكمة العدل الدولية التي يوجد مقرّها بلاهاي، وذلك بسبب ملف دارفور، حيث ذهبت بعض المصادر الإعلامية وأطراف من المعارضة السورية إلى الترويج لهذا الاتهام كثيرًا، وخاصة أن الجنرال الدابي يعدّ من أبرز رجال الرئيس السوداني عمر البشير، وقد تولى منصب مدير الاستخبارات العسكرية بداية حكم البشير (يونيو ١٩٨٩ – أغسطس ١٩٩٥)، ووزير دولة برئاسة الجمهورية (أغسطس ١٩٩٥ – نوفمبر ١٩٩٦)، إلى أن عينه ممثلًا لرئيس الجمهورية بدارفور (فبراير ١٩٩٩ – أغسطس ١٩٩٩)، ثم منسقًا وطنيًّا مع قوات الاتحاد الإفريقي بدارفور، ورئيس المنسقية الوطنية للقرار الأممي ١٥٩١ إلى يومنا هذا، وتولى أيضًا في دارفور دائمًا، منصب مساعد رئيس الجمهورية في أغسطس ٢٠٠٤، ثم مفوض الترتيبات الأمنية من يناير ٢٠٠٧ حتى الآن.

تعمدت حينها أن أخبره بكل صراحة أنني اطلعت على ذلك في كثير من المواقع، وأن محللين يقولون: إن الجنرال الدابي هو من ورّط الرئيس عمر البشير في قضية دارفور، حتى صار مطلوبًا في القضاء الدولي، وإن كان قد ظهر عليه الانزعاج إلا أنه أجابني قائلًا: «هذا كلام صحافة والصحافة لا يعتدّ بها».

ثم أردف قائلًا: «ما كان يجري في دارفور خطير والأجندات الأجنبية هي التي تقف وراء كل شيء».

بل يؤكد قائلًا: «الحل الأمني الذي اتخذه السودان كان منصفًا وعادلًا غير أن العملاء في دارفور يريدون بيع بلادهم وتقسيمها».

فقلت له: «التقسيم حدث الآن».

فرد: «جنوب السودان ارتحنا منه، فهو يخالفنا من حيث العادات والتقاليد، ولو أي واحد فيكم يذهب إليهم ويعيش بينهم لفضّل أن يموت بدل العيش وسط هؤلاء الذين بينهم من يعبد حتى عورات البشر وخصوصًا النساء».

أدركت أن الرجل لا يريد أن يسترسل كثيرًا في تفاصيل الأمر، خاصة أن حديثه جاء أصلاً في سياق نقاشنا عن الحملات المغرضة التي تستهدف البعثة قبل بداية عملها، خاصة أننا ونحن في الطريق اتصلت به جهة إعلامية، قائلة له: إن معلومات مسرّبة تتحدث عن منعنا من دخول حي بابا عمرو، فرد الجنرال الدابي قائلًا: «نحن لم نصل بعد إلى حمص حتى نمنع من الدخول إلى حي بابا عمرو».

وظلت السيدة إلهام الشجني، وهي رئيس مكتب حقوق الإنسان بالجامعة العربية، تتحدث عن الصعوبات التي تلقتها في إعداد الكثير من فصول البعثة ومهامها، وتشعب بنا النقاش مع السعودي المقدم الركن خالد الربيعان الذي عمل في باكستان، وزار أفغانستان ومناطق أخرى ساخنة في العالم.

في أثناء الطريق كنت ألاحظ وجود سيارات أمنية مكثفة، وعند مداخل المدن التي مررنا عليها مثل قارة وصدة وشمسين وغيرها، نجد سيارات الشرطة في المداخل حيث ترافقنا حتى نخرج من حدودها الإقليمية، وفي حدود الساعة التاسعة إلا عشرين دقيقة، خرجنا من محافظة دمشق، ودخلنا ريف حمص، ولم يبقَ لنا غير ٦٠ كم ونصل إلى المدينة.

لقد شاهدنا مظاهر مسلحة مختلفة، سواء كانت لعسكريين أو حواجز أو متاريس أو شاحنات ثقيلة لم يخلُ منها الطريق، وأيضًا آثار الرصاص في بعض البنايات.

أما الحراسة التي ترافقنا ونحن كنا في سيارتين، فقد كانت عبارة عن وحدة من أربع سيارات للجيش والمخابرات، أما الشرطة فترافقنا، وعندما

تنتهي الحدود الإقليمية نجد فرقة أخرى في انتظارنا، وهكذا إلى أن وصلنا إلى حمص في حدود الساعة العاشرة والنصف. وكان الانطباع الأول الذي ظهر لنا هو أن المدينة شبه خالية، فالمحالّ مقفلة والحركة محدودة، والمتاريس موجودة بكثرة في كل الزوايا، بينها التي يتمركز بها عسكريون وأخرى خاوية.

في بيت محافظ حمص

محافظ حمص هو غسان عبد العال، عيّن في منصبه خلال شهر إبريل ٢٠١١ خلفًا لسابقه الذي أثيرت حوله شبهات فساد مختلفة. والسيد غسان هو لواء سابق في الجيش السوري، في السبعينيات من عمره، وتولى مناصب قيادية مختلفة في المؤسسة العسكرية.

عندما وصلنا قصر المحافظ في حدود العاشرة صباحًا، وجدناه في البوابة ينتظرنا، وكان برفقته أعوانه في المحافظة ومسؤولون محليون وقائد الجيش في حمص وضباط سامون من مختلف الرتب.

دخلنا بهو القصر الذي به أرائك مميزة بألوانها ونوعيتها، وقد جهز المكان مسبقًا للاجتماع، حيث وضعت أمامنا شاشة ضخمة وأجهزة إلكترونية من كمبيوتر محمول ووسائل عرض وملفات مختلفة، وبعدما قدّمنا الفريق أول الركن الدابي إلى المحافظ، وهو بدوره قدم لنا مرافقيه، ليشرع في الحديث إلينا وبحضور أشخاص يحملون كاميرات صغيرة يوثّقون كل تفاصيل الجلسة، وقد تعرفنا على بعضهم لاحقًا لما عملنا في حمص، ويتعلق الأمر بمكلفين بالإعلام في مكتب المحافظ، وآخرين لم نلتقِهم مرة أخرى، ويبدو أنهم ينتمون إلى جهات ما.

أكد السيد غسان عبد العال أنهم في (أزمة حقيقية)، حيث يواجهون ما وصفوها بـ (العصابات المسلحة) التي تستهدف المواطنين والمنشآت وخطوط الغاز والسكك الحديدية والأحياء الشعبية والأسواق والأرياف والمزارع، حتى

إنه صادف في ذلك اليوم تفجير خط غاز قرابة الساعة الثانية فجرًا حسب قول المحافظ الذي أكّد أيضًا أن النفط الخام لا يزال موجودًا في منطقة الريّ.

المحافظ غسان عبد العال في مداخلته ترجّى مرارًا وتكرارًا المراقبين ورئيس البعثة، وهو يقول:

«أرجوكم أن تصلوا إلى الحقيقة».

وقدّم أرقامًا حول ما يجري في حمص، ومن بين ذلك عدد حالات الاختطاف التي بلغت ١٣٠ حالة، بينهم أب لديه ٣ أبناء مخطوفون وهو في حال يرثى لها وموجود قبالة قصر المحافظ منذ الصباح الباكر يترجّى، ويبكي علنا نوافق على التحدث إليه والاستماع لمأساته التي يعانيها بسبب (الجماعات الإرهابية).

الاغتيالات اليومية متواصلة، وذكر لنا على سبيل الاستدلال ما تعرض له طبيب يدعى هيثم يونس وهو متخصّص في طب النساء، إذ تمّ قتله بكاتم صوت، وترك أطفاله يتامى لا أحد لهم.

المحافظ تحدث عن ٨٠ سيارة مخطوفة لا تزال موجودة على التراب السوري أو (داخل الدولة) على حد تعبيره وتمّ استرجاع بعضها. وأكد أنه توجد حالات قتل طائفية، وأن الأماكن الساخنة اختيرت على أساس طائفي أو طبقي، وذلك بدعم من بعض رجال الدين الذين يعيشون في الخارج مثل الشيخ عدنان العرعور والشيخ محمد العريفي، ووجه أصابع الاتهام أيضًا لجماعة الإخوان المسلمين بصفة صريحة بأنها تشجّع على العنف والإرهاب ضد طائفة بعينها تفادى أن يذكرها بالاسم الصريح وإن كان قد أشار إليها بما يفيد بأنها الطائفة العلوية.

ثم قام بعرض خريطة حمص على الشاشة، وراح يشرح لنا حدود المدينة وأحياءها وركّز على الأحياء الساخنة، ثم أشار إلى البعد الخارجي من حيث

إن حمص لديها حدود مع لبنان والعراق، وأنه تمّ ضبط أسلحة كانت قادمة من لبنان، ليركّز كثيرًا على قضية تهريب الأسلحة من لبنان محاولًا أن يقنع الجنرال الدابي ورفاقه من المراقبين أن القضية تتعلق بمؤامرة خارجية، بل ألحّ على أن نساعدهم لتوقيف هذا التهريب الذي يدفع ثمنه الأبرياء من المدنيين على حدّ تعبيره.

اللواء السابق غسان عبد العال ركز حديثه حول حيّ بابا عمرو معتبرًا إياه مركزًا للمسلّحين، وقد صار يسيطر عليه إرهابيون بينهم أجانب من تنظيم القاعدة في بلاد الرافدين وجزيرة العرب، وفي هذا الخصوص قال:

«ثلاثة أشهر، وأنا أعاني من أجل التواصل مع أهالي بابا عمرو».

ليضيف:

«إننا تفادينا مواجهتهم حفاظًا على المدنيين المحتجزين هناك».

بعدها أحيلت الكلمة لرئيس بعثة مراقبي الجامعة العربية، الفريق أول الركن محمد أحمد مصطفى الدابي، الذي ركّز حديثه على مهمة البعثة والبروتوكول الموقع بين الحكومة والجامعة العربية، وما ينتظر المراقبين من دور مهمّ ومصيري لإخراج سوريا من الأزمة الخانقة التي تغرق فيها، حتى إنه قال: «نحن هنا لأجل مساعدة سوريا حتى تتعافى من هذه المصيبة».

في سياق الحديث وجّه الدابي سؤالًا للمحافظ حول أسباب تصيّد المسلحين للشرطة، هل بسبب القسوة أو ماذا؟

المحافظ أرجع سبب ذلك إلى وجود الشرطة في الأماكن الساخنة من أجل حماية المواطنين والمنشآت العامة وأملاك الدولة، وأن المتظاهرين بينهم مسلحون يتعرضون لأفراد الشرطة بإطلاق النار وقتل الكثيرين من رجال الأمن ومن دون أن يتعرضوا أصلًا للمتظاهرين حسب قوله.

لم أهضم كلامه أصلاً، خاصة أن ملامحه توحي بأن الجواب مجرّد مراوغة فقط، وهنا سألته: «ماذا عن القتلى الذين يسقطون يوميًّا من المدنيين والصور تتناقلها وسائل الإعلام؟».

أجاب المحافظ قائلًا: «أغلب ما يبثّ عبر الفضائيات والإنترنت صور مفبركة، وليست حقيقية».

ليؤكد مجددًا أن الشرطة لا يتعرضون للمظاهرات السلمية أبدًا، بل إنهم يدافعون عن أملاك الدولة التي تتعرض للنهب من قبل لصوص وقتلة على حدّ قوله.

ليسأله أحد المراقبين: «هل هناك تظاهرات سلمية الآن؟».

فرد المحافظ: «غير موجودة حاليًا، وكل المظاهرات مسلحة».

ثم بلهجة من يودّ أن نصدقه: «سترون بأعينكم أن ما يأتي على الفضائيات كذب، وأننا نعاني إرهابًا حقيقيًّا ومنظّمًا».

ليعود الدابي مجددًا للتحدث عن المظاهر المسلحة التي شاهدناها في طريقنا، حيث أكّد للمحافظ أن المتاريس والحواجز والعسكريين المدجّجين بأسلحتهم لا يزالون في المدينة، وأن البروتوكول يفرض إزالة كل هذه المظاهر.

غير أن المحافظ راح يبرر ذلك، بأن الحواجز فرضت عليهم من أجل التصدي للمسلحين الذين يرتكبون جرائم يندى لها الجبين، ولولاها لما بقي أحد على قيد الحياة في حمص، كما قال.

ومن الأمور التي راح المحافظ يؤكّدها قضية المسلحين الذين يختطفون ويقتلون وينهبون ويغتصبون ويسطون على البيوت، وأنه يوجد تواصل بينهم عبر وسائل اتصال مختلفة منها الهواتف الثريا التي تأتيهم من الخارج؛ وأيضًا

أجهزة الاتصال اللاسلكي، وهناك وسائل تقليدية أخرى مختلفة يلجأ إليها في مثل هذه الظروف.

سـألته عن عدد المسـلحين حسـب المعطيات المتوافـرة لديهم؟ فأجاب بـأن عددهم نحو ٣٠٠٠ مسـلح، وأن أسـلحتهم تطورت مقارنـة ببداية الأزمة، وأن جهات لبنانية لم يذكرها بالاسـم تساعدهم على ذلك، ويصل السلاح إلى معاقلهم بحمص عن طريق التهريب.

فسـألته ردًّا على جوابه: «لماذا تهمة التسـليح توجه للبنان فقط، في حين أن حمص لديها حدود مع العراق التي تعيش وضعًا غير مستقر، ولم توجه إليها الاتهامات؟».

بـدا التلعثـم والتردّد علـى المحافظ غسـان عبد العال، فقد أحسسـت أنه فوجئ بالسؤال، وراح يضرب يمينًا وشمالًا ما دفع قائدًا عسكريًّا يحمل رتبة عقيد إلى التدخل، وأكّد أنهم لا يملكون معطيات ثابتة فيما يخص تهريب السـلاح من العراق؛ لأنهم «ببسـاطة لم يقبضـوا على أي مهرب أو قطعة من السـلاح جاءت من العراق، حتى المقبوض عليهم في اعترافاتهم لا يذكرون غير لبنان».

فيعقب المحافظ الذي تهللت ملامحه كأنه وجد منقذًا له، وقال:

«نحن لا نتكلم إلا بالأشياء التي لدينا عليها أدلة مادية وإن كانت فرضيات تهريب السلاح من كل الحدود تبقى قائمة، والعراق بدوره تنشط فيه الجماعات الإرهابية، والمسلحون عندنا يتحالفون مع كل الجهات الإرهابية».

وحول ظاهرة الانشـقاق في صـفوف الجيش السـوري النظامـي، أخبرنا المحافـظ أن عددهـم قليل جدًّا، وهم فـي حكم الفارين مـن (الجيش العربي السـوري) وسـيتابعون وفق لوائح قانون القضاء العسـكري المعمول بها في كل جيوش العالم.

ليقـول: «هذا أمر عادي أن يفرّ عسـكري من ثكنتـه، ويلتحق بالمجرمين والإرهابيين».

ليضيف: «حدث هذا في دول عربية مختلفة، وليس في سوريا فقط».

بعدهـا طلـب الفريق أول الركن الدابي من المحافـظ أن نقوم بزيارة إلى حي بابا عمرو وباب السباع، وحينها أكّد المحافظ أن الوضع الأمني خطير، وقد نتعرض لـلأذى أو الاختطاف أو الاغتيال، إلا أن رئيس البعثة أصـرّ على ذلك، وأخبره بأننا سنتحمل عواقب ما قد نتعرض له.

فذكـره المحافظ أن حماية المراقبين حسـب البروتوكول من مسـؤوليات الحكومة السورية، والحراسة الأمنية لا يمكن أن ترافقنا إلى داخل حيّ بابا عمرو؛ لأنه مسيطر عليه من قبل مسلحين، وسوف يقتلونهم إن رافقونا إلى هناك.

فردّ عليه الدابي بلهجة الواثق من عمله: «سنذهب إلى بابا عمرو، ونتحمل المسؤولية».

وحينها التفت إلي المقدم خالد الربيعان الذي ظل جالسًـا بجانبي، وقال لي هامسًا: «يبدو أنهم لا يريدوننا الذهاب إلى بابا عمرو».

فقلت له: «أكيد لديهم خفايا كثيرة يودون طمسها».

وافق المحافظ غسان عبد العال على مضض أمام الكاميرات التي وثقت لكل كبيرة وصغيرة، وظل يذكرنا بأننا نتحمل مسؤولية ما قد ينجم عن مغامرتنا في الذهاب إلى الحيّ الشـهير، إلا أن الدابي أصـرّ على قراره الذي يخالف صراحة البروتوكـول الموقع بيـن الجامعة والحكومة، وكان ذلـك بالفعل أول عائق أظهر عيوب البروتوكول الذي لم يدرس جيدًا الواقع الموجود على الأرض.

قـام الدابي بتقسـيمنا إلى قسـمين، جزء يذهب برفقته إلـى بابا عمرو، والبقيـة إلى باب السـباع، وقد اختارني أنا والموريتاني سـيّد عثمان والسـيدة

إلهام الشجني والعقيد أكرم والمقدم خالد الربيعان لنكون معه في بابا عمرو، والبقية بقيادة العقيد الموريتاني البخاري يذهبون إلى باب السباع.

أذكر أنه في أثناء الاجتماع تردد علينا مرات متعدّدة أحد الموظفين في المحافظة ليخبر المحافظ أن والد الأبناء المختطفين يودّ التحدث للمراقبين، وقد وعده الدابي أنه سيتكلم معه في نهاية الاجتماع، وهذا الذي فعله قبل خروجنا نحو السيارات، فدخل علينا رجل يبدو في الخمسينيات من عمره قدم نفسه باسم أحمد محمد دوم، كان يرتعش ومعلق يده اليسرى في عنقه على أساس أنها صارت مشلولة بسبب ما تعرض له، وأنه مريض والفقر يظهر من ملابسه الرثّة.

كان يتحدث باكيًا وبصوت مبحوح لشخص يعاني أمراضًا مزمنة، ويرجونا مرتعشًا أن نساهم في عودة أبنائه الثلاث، ماهر أحمد عمره ٢٧ عامًا ومتزوج له طفلان، فؤاد أحمد عمره ٢٠ عامًا وهو مجنّد عسكري، رضا أحمد عمره ١٦ عامًا وطالب بالمدرسة. وحسب الوثيقة التي قدمها لنا أنهم خرجوا من منزله بحي البياضة بتاريخ ٢٠١١/٠٩/٠٧ ومنذ ذلك الحين لم يظهر عليهم أي خبر(١).

تعاطفنا معه، خاصة أن الرجل كان يتحدث ويبكي ومن الصعب على من فيه أدنى شعور إنساني أن يقابل ذلك بالتجاهل، وقد وعده الجنرال الدّابي بأن تبذل البعثة جهدها حتى تعيد له أولاده سالمين من دون أي أذى، ففرح كثيرًا واندفع ليقبل يده، لكن الدابي امتنع عن ذلك.

(١) وهو الشخص نفسه الذي التقيته فيما بعد بتاريخ ٢٠١٢/٠١/٠٢ بالقرب من حي بابا عمرو وفي منطقة يسيطر عليها قناصة النظام، وكان في وضعية جيدة، ويمتطي سيارة فارهة ومعه ابنته وقد نزل إلينا وتحدث لنا عن ابنته التي هجروها من بيتها في بابا عمرو، وسيطروا على محتوياته – ويقصد المسلحين – ولم يتحدث عن قصة أبنائه الثلاثة، ولما قلت له: إنني كنت حاضرًا في زيارته لنا بمبنى المحافظة راوغ وقال: سيأتينا غدًا إلى الفندق بالملف كاملًا، ثم غادرنا وهو لم يأتِ إلى الفندق ولا اتصل بنا مرة أخرى.

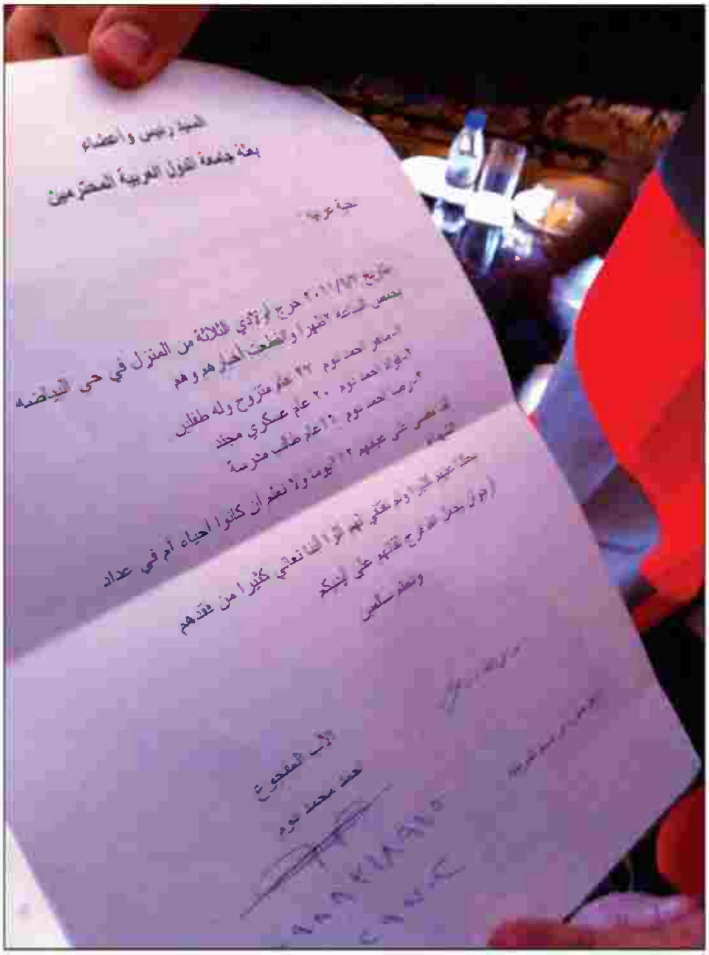

الوثيقة التي سلمها لنا أحد الأشخاص في قصر المحافظ في حمص بتاريخ ٢٠١١/١٢/٢٧

قامت مجموعة المحافظ بتسليمنا ملفًا به وثائق ومستندات قالوا: إنها تدين المعارضة والمسلحين، وتكشف حجم (المؤامرة) على سوريا، بعدها خرجنا من الاجتماع حيث وجدنا صحفيين ومراسلين لصحف حكومية والتلفزيون الرسمي ممثلًا في القناة الأولى والإخبارية السورية وقناة الدنيا الفضائية التي يمتلكها رامي مخلوف ابن خالة بشار الأسد وأهم رجل أعمال في البلاد.

وقـد هبّوا لأخذ تصـريحات من رئيـس البعثة وبقية المراقبيـن غير أننا امتنعنا عن ذلك، في حين أن الدابي أعطاهم تصـريحات مقتضبة عن المهمة التـي نحن بصـددها، ولكنهم كانوا مسـتعجلين جدًّا لمعرفة نيـات البعثة، وما نحمله من نظرة مسبقة حول الأزمة السورية والأوضاع التي تتخبّط فيها.

بعدها في حدود الساعة الحادية عشرة والربع، امتطينا السيارات وانطلقنا نحـو ما قرره رئيس البعثـة، الفوج الأول بقيادة الجنـرال الدابي توجه نحو حيّ بابا عمرو، في حين الفوج الثاني توجه برفقة الحراسة إلى باب السباع. وكانت السـيارات التي نمتطيها أُجِّريت من وكالة خاصـة في انتظار وصـول سـيارات الجامعة الخاصة بالبعثة.

المؤلف مع محافظ حمص غسان عبدالعال

الوصول إلى حيّ بابا عمرو الشهير

قبل ركوبنا السيارات بما يشبه التأكيد حدثنا أحد الموظفين في المحافظة، أنه لن يدخل معنا لحيّ بابا عمرو؛ لأنه سوف يقتلونه ويمثّلون به، غير أنه سيصل معنا إلى غاية حاجز عسكري بشارع البرازيل وبعدها نكمل وحدنا، وهو ما وافق عليه رئيس البعثة السيد محمد أحمد مصطفى الدابي.

توجهنا نحو غايتنا تحت حراسة أمنية مشدّدة، وما لفت انتباهنا هو كثرة المتاريس الموجودة في كل الزوايا ما دفع الجنرال الدابي إلى أن وصفها بدارفور أخرى، وتتمثل هذه المتاريس في أكياس مملوءة بالرمل، وبني بها ما يشبه الهلال يتمترس بداخله مسلحون يلبسون الزيّ العسكري، لا يمكننا التأكد من هويتهم.

الطرقات بدورها فيها ممهّلات وحواجز من الأسمنت المسلح التي تمنع السيارات من السرعة الفائقة، وتوجد فيها آثار العجلات المحروقة، فضلًا عن النظافة التي لا تعكس إلا مدى انهيار الوضع في حمص التي كانت من قبل محجًّا للسياح من كل أنحاء العالم.

كان رئيس البعثة مصطفى الدابي يرقب كل كبيرة وصغيرة، وقد علّق حينها، وهو يتحدث مع أحدهم هاتفيًّا: «نحن نتحرك نحو بابا عمرو غير أن المشاهدات الأولية في الطريق تؤكد أن الحكومة لم تلتزم ببند سحب المظاهر العسكرية من المدن».

وأضاف أيضًا في حديثه معنا بعدما طالبنا بتوثيق كل ما نشاهده: «الوضع سيئ للغاية والحكومة يظهر أنها لم تقدم للبرتوكول أي شيء».

سألته عن موقفه فيما يخص الكلام الذي سمعناه من طرف المحافظ؟ ردّ بحذر شديد وهو ينظر إلى السائق، ما فهمت منه أنه يشك في أنه ضابط مخابرات:

«نحن نسمع للجميع ولا نسجّل إلا ما نراه بأعيننا ولا يهمنا أي اعتبار آخر».

في مدخل شارع البرازيل توقفنا عند حاجز عسكري، وقد اقترب منا أحد العسكريين بحذر شديد وهو يشهر سلاحه في وجوهنا، ما يؤكد مدى تخوفه وأنه على أتمّ الاستعداد لإطلاق الرصاص على أي سيارة لمجرد الشك أو شبهة عابرة.

توقفت سيارات الحماية المكونة من عسكريين وشرطة وأيضًا سيارة مرافقنا من المحافظة، وطلبوا منا الحذر والحرص، فقد يتم إطلاق النار علينا من قبل المسلحين، الذين يتمركزون في أماكن خفية لا يمكن رؤيتهم على حدّ قولهم.

طمأنهم رئيس البعثة الفريق أول الركن محمد أحمد مصطفى الدابي، مؤكدًا أنه لا يمكن أن يتعرّض لنا أي أحد. ثم تحركت بنا السيارة ببطء في وسط شارع البرازيل الخالي من المارة، ولا يوجد به إلا آثار تدل على معارك شرسة وقعت به. كان إحساس غريب يراودني كأنني على موعد مع الموت، وتذكرت حينها أسرتي الصغيرة في فرنسا التي ودعتها والأخرى بالجزائر التي لم أرَها منذ سنوات بسبب جمر المنفى الاضطراري الذي أجبرت على تذوّقه.

توكلت على الله وقرأت أدعية ورددت الشهادة، كان السائق يتحرك ببطء وبحذر شديد، وإن كنا نلبس السترات البرتقالية والقبعات البيضاء وعلى

سيارتنا راية وملصقات الجامعة العربية، إلا أن الحذر كان واجبًا، وشخصيًّا لم يتسلل لي الخوف مطلقًا، بل زرع الله في نفسي طمأنينة على الرغم من ذلك الإحساس الغريب الذي راودني ونحن في الخطوات الأولى بشارع البرازيل.

الاطمئنان لمسته أيضًا في الجنرال الدابي وحتى الآخرين، وخاصة المراقب السعودي المقدم الركن خالد الربيعان الذي لم يتوقف عن الدعاء وقراءة آيات من القرآن الكريم.

على مسافة قصيرة وصلنا إلى مفترق طرق، فلاحظت أنه يوجد بالقرب من جسر (جورة العرايس) أو جسر (كلية الطب) كما يعرف أيضًا، وهو على جانب جامعة البعث متاريس عسكرية، وأن الشارع كله خالٍ، وتحسّ كأنك في بلاد حدث فيها زلزال ولا تسكنها غير الأشباح. دارت بنا السيارة على شارع بابا عمرو الرئيس فوجدناه مغلقًا بحواجز حديدية وبدوره عليه آثار حرب حقيقية، فتوقف السائق لنترجّل، وطلب الجنرال الدابي منه أن يبقى في السيارة حتى إشعار آخر.

كان المشهد صادمًا بمعنى الكلمة، فالبيوت مهدمة ومحروقة، وآثار الرصاص والقذائف بادية للعيان من أول وهلة، ولم تترك مكانًا إلا طالته، وآثار الدماء لا تزال واضحة من خلال بقع في الأرض وبعض الجدران. الحيّ ظهر خاليًا لا يوجد أحد به كأنه مقبرة، وتعجّب أحد المراقبين حتى شكّك في أن نكون بالفعل في الحيّ الذي يصنع الحدث الإعلامي في كل العالم.

ونحن نشاهد آثار الحرب التي شنّت على بابا عمرو، فجأة خرج إلينا مجموعة من الشبان ركضوا نحونا وهم يصرخون ويستنجدون ويطلبون المساعدة والحماية، كانوا يقولون بصوت عالٍ: «نحن نموت»، «نحن نقتل»، «نحن نذبح»، «أين أنتم كل هذا الوقت؟»، «جئتم الآن بعد فوات الأوان»، «بشار يبيدنا»، «بشار يقتلنا».

الكل يتحدث، وكان عددهم في البداية نحو عشرين شابًّا، وبينهم بعض الشيوخ لا يتجاوز عددهم أصابع اليد الواحدة، ولقد أحسست حينها أن هؤلاء كأنهم من الأجداث ينسلون، وليسوا من حيّ يسكنه بشر أحياء. كان يتقدّمهم رجل في الأربعينيات من عمره ملتحٍ وعيناه تبرقان بالإصرار والحكمة، وقد عرفت فيما بعد اسمه[1].

طلب هذا الرجل الذي اسمه أسامة إدريس ويرافقه الشيخ إدريس سويد وهو من قادة الحيّ[2] ألا يدخل معنا أي سوري، يجب أن يدخل المراقبون العرب فقط، ولهذا التفت الجنرال الدابي للسائق، وألحّ عليه أن يبقى بعيدًا ولا يغادر سيارته أبدًا مهما كان السبب.

أكّدنا لهم أننا نحن المراقبين العرب فقط، ولا يوجد بيننا أيّ سوري غير السائق الذي لن يغادر سيارته وهو مدني يعمل في شركة خاصة بتأجير السيارات، اضطررنا إلى ذلك قبل وصول السيارات التي ستخصص للبعثة.

كانوا يتحدثون ويصرخون جميعًا والتوافد متواصل علينا وعددهم يتضاعف بسرعة رهيبة وقياسية، وقد تهنا في وسط الطوفان البشري الغاضب والهائج والثائر، وتفرقنا نحن المراقبين عن بعضنا بعضًا، فلا أحد يرى أو يصل لزميله.

هذا يصرخ أن والده مختطف أو معتقل، وذاك أخوه قتل عن طريق القناصة، وهذا بيته مهدم بسبب القصف، وآخر زوجته أو ابنته أو أخته مختطفة ولا يعلم عنها أي شيء، ويوجد جرحى ومصابون وكل ما لا يمكن أن يخطر على بال بشر.

---

(١) الشهيد أسامة إدريس رحمه الله.

(٢) استشهد في ٢٣ / ٦ / ٢٠١٢م في أثناء محاولة تحرير بابا عمرو، وهو من قادة كتائب شهداء بابا عمرو.

لـم أسـتطع أن أتحدث، فالكل التـفّ من حولي، واندفعوا يشـكون حالهم، وأنا أرجوهم أن يعطونا فرصـة للعمل، وأننا في بابا عمرو من أجل الحقيقة ولن ندافع عن أي أحد. قلت لأحدهم الذي اتهمنا بأننا سنتواطأ مع بشار الأسد الذي وصـف بشتى النعوت القبيحة وما لا يمكن أن أردده في هذا المقام. ولكن بينهم من وصفه بالمجرم والقاتل والجلاد والشرير والديكتاتور والمستبدّ... إلخ.

لحظة الوصول الى بابا عمرو في ٢٠١١/١٢/٢٧

حيّ بابا عمرو في أثناء تحرّك المراقبين فيه في ٢٠١١/١٢/٢٧

يوم صعب في حيّ بابا عمرو

في ظل ذلك الطوفان البشـري الرهيب حاولنا الوصول إلى بعضنا بعضًا، ولـم نتمكن، فقد صـار عـدد المواطنين الغاضـبين بالآلاف في وقت قياسـي، والذين اقتربوا منا بدت من وجوههم كل المآسـي، فملامحهم شـاحبة من قلة الغـذاء والعلاج، وألبسـتهم رثة ولا أحد قد حلق لحيتـه، وتقرأ في عيونهم ما لا يمكن وصفه من الآلام والآمال.

وبصـوت مرتفـع لا يـكاد يظهـر في ظـل الأصـوات والصـراخ المتعالي، رحـت أطلب منهم أن ينتدبوا ممثلين لهم؛ حتى نسـتطيع التحدث إليهم بهدوء والاستماع لهم والاطلاع على الأوضاع بطريقة منظمة، ولا نضيع الوقت في هذه الفوضى العارمة، وبقيت أردد كلامي حتى بحّ صوتي:

«بهذه الطريقة لا نستطيع أن نعمل ولا يمكن أن نرى الأمور حتى ننقلها».

أصرخ فيهم: «ساعدونا حتى نساعدكم».

«أرجوكم... أرجوكم...».

ومن هناك أيضًـا الجنرال الدابي الذي ابتعد عني كان غارقًا في طوفان بشـري غاضـب على النظام وعلى الجامعة وكل الدول العربية التي لم تنتصـر لهـم وهم يقتلون ويذبحون على المباشـر، بل بينهم مـن لام الجزائر لما عرف أنني جزائري، وآخر يقول: إن بلادي متواطئة مع نظام بشار الأسد.

كنت أقول لهم وأنا أصرخ حتى كادت تتقطع حبالي الصوتية:

«لست أمثل أي نظام أنا هنا مراقب حيادي، ولن أنقل إلا الحقيقة التي أراها بعيني».

كانوا من شدة غضبهم من مأساتهم، لا يصدقون أن الجامعة العربية يمكن أن تكون محايدة، بل ظهر الارتياب منا في اللحظات الأولى، ولكنهم لا خيار لهم سوى الرضوخ للأمر الواقع علّه يجعل العالم والمجتمع الدولي يلتفت إليهم.

كما ذكرت من قبل أن المراقبين تشتت أمرهم في وسط هذا الطوفان البشري الذي حسب تقديري يعدّون بما يقارب خمسة آلاف، وكانوا يرددون شعارات ثورية مناوئة للنظام، ويطالبون بأمر واحد لن يتراجعوا عنه أبدًا وهو إسقاط بشار الأسد ومحاكمته على قتل ذويهم وتدمير بيوتهم وانتهاك أعراضهم واختطاف أهاليهم.

لقد تأكّد لي بما لا يدع مجالًا للشكّ أن حاجز الخوف الذي كان يحكم به النظام السوري عبر فروع الاستخبارات المتعددة التي لا مثيل لها في العالم سواء من حيث بطشها أو شبكاتها العنكبوتية، قد انتهى فعليًّا وتم رفسه تحت أقدام هؤلاء، ولا يمكن عودته مطلقًا، وأن هؤلاء صاروا يفضلون الموت على العيش تحت حكم بشار الأسد ونظامه البعثي ومهما كان الثمن الذي سوف يدفعونه مستقبلًا.

من دون اتفاق مسبق بين المراقبين، كان كل واحد في مكانه يطالب بأن نصل لأعيان الحي أو يتم انتداب أشخاص مؤهلين من خلالهم يمكننا أن نؤدي مهمتنا في أحسن وجه. لقد حوصرنا إلا أننا نحاول التحرك والالتحاق ببعضنا بعضًا؛ فالأمر صعب والتضييق الشديد قائم علينا من خلال اندفاع المواطنين من كل الأعمار، وبينهم من يحمل في يده ظروفًا فارغة للرصاص، وآخرون في

أيديهم بقايا قنابل وقذائف أُطلقت على بابا عمرو، منها التي سقطت عليه قبل وصولنا بدقائق فقط.

لقد بدا لنا أن أسامة إدريس لديه تأثيره المميز عليهم، فقد كان برفقة آخرين يصرخون في وجوه الشباب والمتظاهرين بأن يبتعدوا عنا ويفتحوا لنا الطريق حتى نزور بابا عمرو، ونطلع على الوضع، وإن الوقت لا يكفي أن نرى كل شيء في يوم واحد، فالحيّ كبير ومتضرر كاملًا، وخاصة أن كل واحد منهم يريدنا أن ندخل بيته المهدّم على رؤوس ذويه.

لقد أدى أسامة إدريس ورفاقه دورًا بارزًا، وتمكنوا من أن يفتحوا لنا الطريق، بعدما نجح المراقبون في الالتحاق بالجنرال الدابي الذي كانت تنهداته لا تتوقف بعد الاندفاع الكبير عليه الذي فاق بكثير ما تعرضنا له نحن، فبينهم من كان يعرف وآخرون عرفوا يومها أنه رئيس بعثة مراقبي الجامعة العربية.

بدأنا نجد متنفسًا بعدما نجح المنظمون في وضع حاجز يمنع استمرار المواطنين في متابعة مسيرنا والضغط علينا، وإن كانت كل الشوارع المفتوحة تهطل علينا بمواطنين آخرين لحقوا متأخرين بعدما تسلل لهم خبر وصول البعثة إلى الحي، إلا أن أسامة إدريس ورفاقه أقاموا علينا حاجزًا يمنع أن يقترب منا أي أحد إلا بموافقتهم. لقد كانت لكل واحد قصة ومأساة فظيعة، ولا يمكن في هذه الزيارة الاستطلاعية العابرة حصر كل الأمور أو الاستماع لكل الناس؛ لأن واقع بابا عمرو لا يمكن تخيله مطلقًا، وظهر لي من البداية أن حجم المأساة أقل بكثير مما كنت أراه في الفضائيات.

لقد كانت المحالّ الموجودة على شارع بابا عمرو الرئيس الذي تُوجد به، شبه مدمرة تدميرًا رهيبًا، والجدران والأبواب محطمة ومثقوبة بالرصاص الخفيف أو بمقنبلات ثقيلة أو صواريخ الأربجي٧ والدبابات والهاون، حتى مسجد الجوري طالت مئذنته القذائف حسبما ظهر لنا من بعيد.

ونحن في حيّ بابا عمرو كان إطلاق النار متواصلاً نسمعه أكثر كلما خفّ ضجيج المحتجين، وأحيانًا طلقات ثقيلة لسلاح الدبابات عرفناها من أول وهلة، وبينها التي رأيناها تقع على بيوت قريبة منا، ولا نرى غير تطاير الغبار الممزوج بالدخان. وكان المرافقون يؤكدون لنا أن الأمور الآن هدأت قليلًا لما وصلنا وستزداد عنفًا عند مغادرتنا، وعلمنا حينها أن قصفًا قد أدى إلى قتل مواطنين بينهم شقيقان والدماء لا تزال في مكانها، وطلبوا منا أن نذهب للبيت لرؤيتها.

كنا نمشي، وقد بدأنا نقترب من مكان يسيطر عليه عسكريون، وشاهدنا من بعيد دبابات عدة تحرسه، ولما سألناهم أخبرونا أنه حاجز عسكري يسيطر على المؤسسة الاستهلاكية الغذائية، ويقوم بقنص كل من يقف في ذلك الشارع أو يظهر من الأماكن القريبة منه، وأخبرنا الكثير منهم أنه لولا وجودنا ما تجرأ قط على الوقوف بالشارع المواجه للحاجز.

طلب منا الدابي أن نذهب إليهم، إلا أن بعض المواطنين عارضوا ذلك ملحّين علينا بزيارة العائلات التي تعرض أبناؤها للقتل في ذلك اليوم أولاً وقبل كل شيء، إلا أن رئيس البعثة أخبرهم أنه يجب أن نذهب إليهم حتى نطلب منهم المغادرة وفق البروتوكول الذي وقعته الحكومة مع الجامعة العربية، فاحتجّ بعضهم وآخرون سكتوا على مضض وبينهم من اتهمنا بالتعاطف مع النظام، لأننا سنزور حاجزهم قبل الوقوف على مأساة المواطنين المدنيين.

كان المصــورون من الهيئة الإعلامية لحيّ بابا عمرو، يحيطون بنا من كل جانب، فهذا يصــور وهو يتحدث، وذاك بعدمــا يذكر التاريخ يقول: «المراقبون العرب في حي بابا عمرو».

وآخر: «المراقبون يشاهدون الدمار».

«البعثة ترى الدبابات».

«رئيس البعثة يشاهد القناصة فوق المؤسسة الغذائية ببابا عمرو»

بين القنّاصة وجثث الحاجز عسكري

طلبنا من المواطنين ألا يتبعونا خوفًا على حياتهم، فقد ظهر في سطح المؤسسة قنّاصة متمركزون وجاهزون لأي طارئ، ورحنا نتحرك وحدنا، وإن كان المصورون يحاولون تتبع خطانا إلا أننا رفضنا ذهابهم معنا، وأننا لن نتحمل مسؤولية أي مكروه قد يحدث لهم.

المنظمون بدورهم يحاولون منع المواطنين من الاقتراب من الحاجز العسكري، وطبعًا كانت أول مرة منذ مدة يتجرأ هؤلاء على الوقوف في تلك الأماكن أو الشارع الرئيس لبابا عمرو؛ لأنه كان يُطلق الرصاص على أي أحد يظهر في المكان دون أدنى تردد.

تركنا جموع المنظّمين خلفنا يقفون بوصفهم حاجزًا لمنع المتظاهرين من الاقتراب منا، وتوجّهنا نحو المؤسسة الاستهلاكية، حيث تتحصّن مجموعة من العسكريين لا نعلم عددهم ولا هويتهم ولا وضعهم ولا طبيعة السلاح الذي بحوزتهم، وإن كان المواطنون قد قدروا عددهم في حدود الخمسين عنصرًا، وأخبرونا أنهم يتكونون من عسكريين وشرطة و(شبيحة)، وهي التسمية التي تطلق على المسلحين المدنيين من ذوي السوابق العدلية الذين أُخرجوا من السجون وجُندوا مقابل مبالغ مالية، لقتل المواطنين ويتصدون للمظاهرات عن طريق الهجوم أو القنص من أسطح العمارات.

بدأنا نقترب من الحاجز، وقد كنت برفقة رئيس البعثة مصطفى الدابي والسيدة إلهام الشجني والمقدم خالد الربيعان والمراقب الموريتاني سيّد عثمان، وكان في تلك اللحظات الرصاص لا يتوقف من جهات أخرى، حيث مرة طلقات تضرب في الأرض بالقرب منا ولكنها لا تستهدفنا، وأخرى بالمدفعية الثقيلة لا نرى حينها إلا الدخان يتصاعد من البيوت التي تطولها وبينها التي سقطت على بيت لا يبتعد عنا إلا أمتارا قليلة.

لم يتسرّب أدنى خوف لي ولا للمراقبين الآخرين، وقد كان الدابي يتمتع بجرأة لا يمكن وصفها، فهو من حين لآخر يشجعنا ويؤكد لنا أنه لا أحد يمكنه أن يستهدفنا، غير أن المقدم السعودي خالد الربيعان يذكرنا من لحظة إلى أخرى بالدعاء والتوكّل على الله وأنه لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.

في الحقيقة إن اللحظات التي عشناها في وسط الطوفان البشري الذي هجم علينا، وما سمعته شخصيًّا من أطفال وشيوخ وشبان، كلها جعلتني أكثر جرأة في المغامرة لأجل كشف أغوار الحقيقة التائهة في سورية الرائعة والشام الحزين.

عندما ترى طفلًا في الرابعة من عمره أو حتى أقل وهو ثائر ومنتفض لا يتردد في مواجهة القناصة، أو تسمعه يصرخ بأنه لن يهاب الموت ولا الرصاص ولا الصواريخ ولا المدافع، فبلا أدنى شك أن ذلك يزيدك قوة على القوة التي تكمن في أعماقك، فنحن كلنا نعرف الوضع الذي عليه شأن سوريا من خلال ما نراه ونسمعه، وعلى الرغم من كل ذلك فإننا قررنا خوض المغامرة وودّعنا أهلنا وأطفالنا وداع من لا تحتمل عودته إلا إذا كتب الله تعالى غير ذلك.

لقد سمعت من بعض المنظّمين أنه توجد ثلاث جثث لشهداء في الحاجز العسكري، وكنت اعتقدت أنها لمدنيين من الحيّ، فلما سألتهم عن كيفية

خطفهم أخبرني أحدهم أن الأمر يتعلق بعسكريين حاولوا الانشقاق وجرى إعدامهم بدم بارد من طرف قائد الحاجز في لحظة الفرار من المؤسسة.

اقتربنا من العربات المصفحة التي تقف قبالة البوابة الرئيسة، وإذا بعسكريين يلبسون الزيّ النظامي يحتمون خلفها، ويصرخون فينا، ويستنجدون بنا:

«أنقذونا من الموت الله يحميكم».

«لا نريد أن نموت».

«نريد العودة لأهلنا».

«رفاقنا قتلى هنا».

«إننا نتعذّب».

«الجرحى سيموتون إن لم يعالجوا».

«نحن في حصار منذ ثلاثة أشهر»... إلى آخر ذلك.

عسكري يطلب منا الحذر، فقد نتلقى رصاصات من قبل مسلحين يسيطرون على الحيّ على حدّ وصفهم، كان وضعهم مأساويًّا حقيقة، فآثار الرصاص موجودة في كل البناية وهي كلها ثقوب من أسلحة خفيفة ولم أَرَ في الجدران آثار أسلحة ثقيلة مطلقًا، وإن كان أحد العسكريين الذين استقبلونا قال لنا: إنهم يقصفونهم بأسلحة ثقيلة ودبابات وصواريخ وهاون، غير أن ملاحظاتي الأولية لم أجد فيها غير آثار الرصاص الكثيف الذي استهدف البناية، ما يوحي بالاشتباكات المكثفة التي تقع بين الطرفين، الجيش النظامي والجيش الحرّ.

ولاحظت وجود دبابة على الجانب الآخر تحجبها عنّا أكياس وصناديق خشبية وألواح وقطع حديدية ما يجعلها لا تظهر من بعيد، ولا أدري سبب ذلك

الإخفاء، وكنت أشكّ في أن ذلك الفعل من أجل تفادي تصويرها من قبل الناشطين الإعلاميين وتغدو حجة على النظام عند بثّ الصور عبر الفضائيات العالمية.

تجاوزنا بوابة البناية، وكانت حالتها لا يمكن وصفها، فالجدران مثقوبة بالرصاص الكثيف، وأيضًا الأرضية نتجاوزها بحذر شديد فالتراب والأحجار والمقذوفات لمختلف الأسلحة تملأ المكان، ما يؤكّد أن الحاجز قد استعمل كل ما يملك من قوة ضد الجانب الآخر.

سأل الجنرال الدابي أحد العسكريين الذين كانوا معنا عن رئيس المجموعة، فأخبرونا أنه في مكتبه وسيأتي بعد لحظات، أما أحدهم فقدم نفسه على أنه ضابط برتبة رائد، وهو يشغل منصب نائب قيادة الحاجز، أما رئيسهم فيحمل رتبة عقيد. وكان من حين لآخر يوجه أوامره بالانتباه والحذر إلى العسكريين المتمركزين في النوافذ وأماكن أعدت خصيصًا للحراسة والمراقبة، حيث يحتمون بأكياس رملية، ويطلّون من ثقوب صغيرة ومنها يراقبون الجهة الأخرى من حيّ بابا عمرو.

سمعنا من العسكريين شكاوى كثيرة ومختلفة وبينها التي تبدو متناقضة، ويوجد من بكى على حالهم، وقد أجمعوا على طلب مساعدتهم حتى يغادروا مركزهم وهم على قيد الحياة؛ لأن المسلحين ويقصدون الجيش الحر يحاصرونهم ويمنعون عنهم وصول الأغذية والأدوية، ولذلك يعيشون مما يتوافر لديهم من مخازن المؤسسة الغذائية. وتحدثوا عن الجوع الذي يقتلهم منذ أكثر من شهرين، وأن الحصار اشتد عليهم أكثر منذ ٢٠ يومًا، غير أنني لاحظت وجود بعض بقايا الأطعمة الخاصة بالعسكريين في أثناء الحروب من جبن وخبز وغيره، ولما سألتهم عنها أخبرني أحدهم أنها بحوزتهم منذ مدة وهي تشرف على النفاد الآن، ولا يمكن أن يستمرّ بقاؤهم أكثر من أسبوع.

شـرعنا في زيارة داخل المؤسسة الاسـتهلاكية بعدما حضر العقيد الذي كانـت معنوياته هـو بدوره ليسـت على ما يـرام، وكان رجلًا يبدو عليـه التكتّم ولا يتحـدث إلا بقدر السـؤال المطروح عليه وبجملة قصـيرة وموجزة إلى أبعد الحـدود، وبـدوره شـكا لنا حالهـم، وأنه يودّ مغـادرة المكان غير أن الحصـار المضروب عليهم لم يسمح لهم بذلك.

أخبرنا العقيد أن لديه جرحى وجثث عسكريين قتلوا في هجوم للمسلحين الذين وصـفهم بالإرهابيين والمتطرفين، صـعدنا للطابق الثاني من المؤسسة ووجدنـا ثـلاث جثث بـدأت في التعفـن من خلال رائحـة كريهة تنبعـث منها، وأخبرنا العقيد أنه تم قنصهم وهم في مراكز حراستهم لحماية المؤسسة التي هي (ملك الشعب الذي وجب الحفاظ عليه) على حدّ تعبيره.

تقدمـت من الجثث التي هي لشـبان في العشـرينيات مـن أعمارهم، وقد كانت في بداية التحلّل ورائحة كريهة تنبعث منها، والغريب أنها لم توضـع حتى بطريقة تحترم آدميتهم ولا بمكان فيه أدنى إشـارة تثبت أنهم من الشهداء كما وصـفهم العقيد. قام الدابي بالمعاينة وكذلك فعلت، وقد لاحظت أن الإصابات ليست من الأمام بل من الخلف بينها التي في العنق وأخرى في الرأس والصدر، وبحكم تجربتي العسـكرية بالجزائر فقد تأكد لي أن إصـابتهم من الخلف وفي الوقت نفسـه حسـبما قاله لنا العقيد أن وفاتهم كانت منذ ٥ أيام وفي الحادثة نفسها، يوحي بأن العملية غامضة حقًّا، خاصة أن تمركز العسكريين في البناية لا يمكن أن يصاب ثلاثة عسكريين في الوقت نفسه ومن الخلف.

قمت بتصـوير الجثث بل أخذت أيضًـا صـورًا معها؛ حتى تكون مؤكدة من أنها مع المراقبين وليست صورًا أخذت من الإنترنت كما قد يشكك البعض، وقد وجدنا في الغرفة نفسها التي يُوجد بها القتلى طاولة وقد أعدت خصيصًا عليها

بقايا من صواريخ آر بي جي ٧ وقنابل مستعملة وهاون، وهذا ما يعني أن الحاجز كان على علم مسبق بزيارتنا له، وقد أعدّ نفسه لذلك لكن بصفة مستعجلة، ما يدلّ بوضوح أن الخبر تلقاه الحاجز في ذلك الصباح فقط.

الدابي مكث مع العقيد في غرفة أخرى وأنا بدأت أتجول، والمراقبون الآخرون بدورهم كل ذهب في اتجاه داخل المؤسسة للاطلاع على الوضع، دخلت إلى المخازن ووجدت أطنانًا من الدقيق والسكر والأرز، وهي قد بدأت تتعرض للتلف، وأيضًا وجدت آثار قارورات الخمور على موائد من الكرتون حديثة يوحي بالحال الذي عليه شأن العسكريين في المكان، حتى إنني سألت الرائد الذي كان يرافقني عن الخمور التي يبدو أن أمرها حديث جدًّا، فالطعام لم يفسد بعد، فأجاب بما لا يمكن هضمه، بأنها قديمة وأن العسكريين لا يجدون ما يأكلون حتى يشتروا الخمور بمختلف أنواعها.

كانت جولتنا في حدود نصف ساعة، وقد وعد الجنرال الدابي هؤلاء العسكريين بأنه سيعمل كل ما في وسعه من أجل السماح لهم بمغادرة المكان وفكّ الحصار عنهم، وفي أثناء مغادرتنا كان بجانبي أحد العسكريين فاقترب مني حيث كنت واقفًا وحدي والآخرون قد التفوا على الجنرال الدابي وهو يحدثهم بضرورة مغادرتهم المكان لتمكين الجرحى من العلاج والجثث من الدفن، وكانوا يشكون له حزنهم؛ لأنهم ينامون في المكان نفسه، وجثث رفاقهم بدأت تتحلّل أمامهم، ولا يستطيعون فعل أي شيء لهم.

العسكري تحدث لي هامسًا في أذني بما لم أتصوره، وهو يقول لي:

«العقيد كذّاب... هو الذي قتلهم؛ لأنهم أرادوا الانشقاق وفي أثناء فرارهم أطلق الرصاص عليهم، فأرداهم قتلى ثم سحبهم إلى الغرفة كما رأيتهم...».

وقد أراد أن يحدثني في أمور أخرى إلا أن أحد الضباط رآه يهمس لي، فأمره بالمغادرة نحو مركز حراسته، ثم اقترب مني، وسألني بطريقة ماكرة قائلًا:

«أكيد استمعتم لشكاوى العسكريين ومعاناتهم».

فأدركت أن شكًّا ما راوده حول همس العسكري لي، فقلت له وأنا أشير بإصبعي له: «لقد آلمني كثيرًا هذا العسكري، فقد قال لي: إنه اشتاق إلى أهله وأمه مريضة ولم يَرَها منذ مدة».

فقال لي: «مساكين هم من المجنّدين، ولم ينالوا إجازات منذ أشهر، وظروفهم صعبة مع الجماعات الإرهابية».

فقلت له: «لقد أحسست بوجعه وصدقه، وأكيد أن الجنرال سيأخذ كل هذه الأمور في الحسبان».

فعلت ذلك حتى أبعد عنه الشبهات، وخاصة أن الأمور بدت لي تتعلق بالحياة والموت، ولا مرتبة وسطى بينهما، فكل من يطوله مجرّد الشكّ سينال جزاءه برصاصة طائشة أو مصوبة بإتقان تنهي عمره.

لقد أكّد لي ذلك العسكري ما راودني من شكوك لحظة معاينتي لجثث العسكريين القتلى الذين لا يزالون في زيّهم الرسمي وجثثهم مرمية على الأرض كما وصفنا سابقًا، وأعتقد أن إصابتهم من الخلف في الوقت نفسه والطريقة التي عوملت بها الجثث من دون أدنى احترام، تؤكد فرضية ما سمعته من العسكري الذي ظهر لي أنه بدوره يريد الانشقاق والالتحاق بالجهة الأخرى المعارضة، فضلًا عما قاله أحد النشطاء عن وجود جثث بالمؤسسة يسيطر عليها الحاجز، وتتعلّق بأفراد حاولوا الانشقاق وتمّ إعدامهم.

لقد قال لنا العقيد: إنه يجب علينا مساعدتهم لدفن الجثث وإسعاف الجرحى الذين بلغ عددهم العشرة، وأكّد أنه بمجرد تلقيه الأوامر من قيادته، إلى جانب ضمانات لسلامتهم في أثناء المغادرة نحن من نقدّمها بوصفها وسائط، فهو جاهز ولا يمكن أن يبقوا لحظة واحدة، لأن وضع العسكريين سيئ للغاية ومعنوياتهم منهارة إلى حدّ لا يمكن تصوّره، وهذا ما لمسناه بأنفسنا، والسبب حسب تحليل نائبه الرائد هو أن هؤلاء من المجنّدين الذين يؤدون الخدمة العسكرية الإجبارية وعملهم هو حراسة المؤسسة الغذائية، وليست لهم تجربة في القتال، أما الطرف الآخر فهو مكوّن من جماعات إرهابية متشدّدة تنتمي إلى تنظيم «القاعدة» وقادمة من الخارج، وتدربت على مثل هذه الحروب في أفغانستان واليمن والعراق ولبنان.

عسكري في حاجز المؤسسة الاستهلاكية في بابا عمرو وهو يطلب النجدة من الجنرال الدابي لحظة وصول أفراد البعثة في ٢٧/١٢/٢٠١١

المراقبون يتفقدون حاجز المؤسسة الاستهلاكية في بابا عمرو ويظهر في الصورة كل من الجنرال الدابي وسكرتيره العقيد أكرم والمراقب السعودي المقدم خالد الربيعان بتاريخ ٢٠١١/١٢/٢٧

عربة مصفحة في حاجز المؤسسة الاستهلاكية في بابا عمرو في ٢٠١١/١٢/٢٧

جانب من حاجز المؤسسة الاستهلاكية في حيّ بابا عمرو بتاريخ ٢٠١١/١٢/٢٧.

جثث عسكريين قتلى داخل المؤسسة الاستهلاكية في بابا عمرو ٢٠١١/١٢/٢٧.

جثث عسكريين قتلى داخل المؤسسة الاستهلاكية في بابا عمرو ٢٠١١/١٢/٢٧.

جثث عسكريين قتلى داخل المؤسسة الاستهلاكية في بابا عمرو ٢٠١١/١٢/٢٧.

المؤلف مع جثث عسكريين قتلى داخل المؤسسة الاستهلاكية في بابا عمرو ٢٠١١/١٢/٢٧.

المؤلف مع جثث عسكريين قتلى داخل المؤسسة الاستهلاكية في بابا عمرو ٢٠١١/١٢/٢٧.

١٣

اللّقاء الأول مع الهيئة الإعلامية في بابا عمرو

ودعناهـم على أمـل لقاء آخر، وقد طلب منهم الجنرال محمد مصـطفى الدابي ألا يسـتهدفوا أحدًا من الأهالي، فوعده العقيد بذلك، لكنه اشترط عدم هجوم المسلحين عليهم، فحسب قائد الحاجز أنهم في وضع دفاع، ولا يمكن ألا يردّ أي هجوم عليه. فأكّد له رئيس البعثة أنه سـيتحدث مع الطرف الآخر، ولن يحدث إلا الخير حسب تعبير الدابي.

توجهنـا نحـو المنظّمين الذين كانوا في انتظارنـا على الجهة الأخرى من الطريق، وقد ظهر عليهم الامتعاض، وراحوا يعبرون عن احتجاجهم أمام رئيس البعثـة، فقد بدأنا بزيارة الحاجز العسـكري، ووقفنا على ظروفهم في حين لم ندخل ولا بيتًا واحدًا، ولا حتى وقفنا على القصـف الذي يسـتهدفهم، وأسـقط ضحايا قبل وصولنا بوقت قليل.

الجنرال الدابي وجد مبرّرًا لما قمنا به، وهو سـعي من أجل الوقوف عليها وتسـجيلها في التقارير الخاصـة بالمراقبين؛ لأن الأمر يتعلق بمظاهر عسكرية لم يتم سحبها، وقد ظهرت لنا فيها عربات مصفّحة لنقل الجنود وآليات حربية ومدفعيـة ودبابة، وقال الدابي حينها للناشـطين والمواطنين الذين تمكّنوا من الالتفاف حولنا: «نحن ذهبنا إليهم لنطالبهم بضـرورة الرحيل لأجل حمايتكم، فأنتم تقولون: إن القنص يأتي منهم».

في تلك الأثناء وصل إلينا أحد الشباب يبدو في العشرينيات من عمره، عليه كل ملامح الجرأة والإقدام والحماس، ويظهر عليه كثيرًا عدم التردد في الدفاع عن المواطنين الذين راحوا يحيّونه. كانت عيناه تلمعان جسارة وقوة لم أرها إلا في قليل من الرجال الذين التقيتهم في حياتي، وعلى الرغم من أن الجميع الذين تحدثنا معهم، ورأيناهم في المكان لا يقلّون عنه فيما وصفنا، إلا أن الشاب يتميز عنهم، ويبدو أن الجميع يحترمه ويقدره وإذا أمر بشيء لا يردّ طلبه مطلقًا، فتساءلت بيني وبين نفسي عن هذا الفتى الذي لا يزال في بداية شبابه والكل يسمع له، ويطيعه حتى الشيوخ والكبار.

لقد بدا من أول وهلة أن الفتى محترم للغاية لدى الكل، وعندما وصل إلينا ونحن نقف بزاوية في أحد البيوت ومكشوفون على الحاجز العسكري، واحتمينا من الرصاص الذي يضرب غير بعيد عنا، خاصة في الحالات التي تظهر فيها سيارة تريد قطع طريق بشارع بحر قطينة أو جوبر كما يذكره آخرون، وقد رأينا بعضهم يقطعونه نحونا بسرعة فائقة ورهيبة وأحيانًا يضرب الرصاص غير بعيد منهم، والأمر يتعلق بقناصة يستهدفون المواطنين أمامنا، وصراحة تعجبت في فعل ما يدين النظام في حضورنا، غير أن أحد الناشطين أكّد لنا أن القناصة لا يرحمون أحدًا، وسوف تنكر السلطات الفعل.

سألته: «لماذا لا يأمرونهم بالتوقف حتى نغادر على الأقل؟».

فأجاب: «هم مجموعات إجرامية، ويفعلون ذلك حتى يحققوا هدف التخلص من المواطنين وترهيبهم، وأيضًا سوف يزعمون أننا نحن من نطلق النار لتشويه سمعة الحكومة».

كان الطريق الذي نقف قبالته يؤدي إلى حاجز كفرعايا، الذي يتوزع على ثلاثة فروع: الأول في الخط الفاصل بين السلطانية وبابا عمرو، والثاني على السكة الحديدية، ويفصل بابا عمرو عن كفرعايا، والثالث من جهة المساكن الشبابية.

كانت السلطانية بدورها تعاني ظروفًا سيئة ومزرية للغاية، وقد طالب أهالي بابا عمرو بالذهاب الفوري إليهم وفكّ الحصار عنهم؛ لأنه تتمّ إبادتهم من قبل جيش النظام الذي يسمونه (الجيش الأسدي)، ومنذ مدة لا تصلهم مؤونة ولا دواء ولا ماء ولا كهرباء ولا حليب للصغار ولا أي شيء.

نعود للفتى الذي التحق بنا، فعند وصوله سلم علينا، وقدم لنا نفسه بأن اسمه خالد أبو صلاح[1] وهو من الناشطين في حيّ بابا عمرو، وكان برفقته شبان آخرون من بينهم بلال الفرج، وعلي عثمان، ونادر الحسيني[2]، مجهزون بكاميرات مختلفة الأنواع، وشرعوا في تصويرنا بمجرد وصول خالد أبو صلاح إلى جانب المصورين الآخرين الذين كانوا معنا من قبل. قام أبو صلاح كأنه صحفي يشرح أمام المصورين ما يراه ويشاهده، حيث قال: إنه يقف مع بعثة المراقبين العرب الذين يقومون بزيارة أولى لحيّ بابا عمرو، وأن البعثة لاحظت الخراب الذي حلّ بهم، وأن البعثة بقيادة الدابي لم تتمكن من قطع الطريق بسبب قنّاصة يسيطرون على بعض البيوت المجاورة.

بقينا تحت ضغط كاميرات رفاق خالد أبو صلاح، وقد انزعج الدابي من ذلك، وطلب منهم أن يتوقفوا عن التصوير إلا أنهم رفضوا ذلك، وأكدوا أنهم يقومون بدور إعلامي وتوثيقي، لم نمكث دقائق معدودة وعاد إلينا العقيد أكرم وهو مدير مكتب الفريق أول ركن الدابي، حيث أرسله للاستطلاع على الوضع برفقة مراقب آخر، وعندما وصلنا سأله الدابي: «خلاص»، فردّ دون أن ينتبه للتصوير، من أنهما لم يتمكنا من قطع الطريق؛ لأن قناصة يطلقون النار عليهما، وأن الوضع الأمني سيئ للغاية، وقد نتعرض لمكروه.

تحدث عن ذلك وكان أبو صلاح يقف بجانب الدابي، ويرقب كل كبيرة وصغيرة، فنادى على أحد المصورين، وهو يصرخ: «وينك يا باسل[3] وينك».

---

(١) اسمه الحقيقي عدنان الحميد عمره ٢٤ عامًا، وطالب في قسم الآداب بجامعة البعث، وهو من حي الجورة.

(٢) اسمه الحقيقي منهل النادر.

(٣) باسل فؤاد.

سارع المصوّر وأدار كاميرته نحو خالد الذي استرسل يقول:

«تعالَ اسمع... هذه شهادة أحد المراقبين الدوليين».

العقيد أكرم كان يحدّث الفريق أول الركن الدابي عن الصعوبات، وكنت أمامه، فأوقف كلامه ورفض تصويره أو الحديث للكاميرا.

فقال له خالد أبو صلاح: «أنا من أهل الحيّ».

ردّ أكرم: «التصريح الإعلامي لرئيس البعثة».

فقال خالد أبو صلاح: «يا سيدي، احك ما رأيت».

ثم استدار لصاحبه باسل الذي يصوره، وراح يتحدث بصوت عالٍ:

«يا أخي، هو يقول: إن التصريح الإعلامي لرئيس البعثة، هو يحكي لرئيس البعثة بأنه لم يستطع العبور للشارع الثاني؛ لأن القناصة يطلقون علينا النار».

ويضيف: «هذا ليس تصريح إعلاميًّا، نحن نموت، هذا ليس بتصريح إعلامي، هذا واقع أنت رأيته، أنت حكيت لرئيس البعثة أنك لم تتمكن من العبور».

فعقّب أكرم: «نعم».

حينها يتدخّل ناشط آخر، وهو يقول: إنهم ذبحوهم، وهم يموتون، وراح يشير إلى الحاجز العسكري بالمؤسسة الاستهلاكية التي كنّا فيها.

كان الموقف ساخنًا ووقع ما يشبه التصادم والغضب ما بين جماعة أبو صلاح والعقيد أكرم، إلا أنه سرعان ما تمّ احتواء الأمر بتدخل منا جميعًا، وحتى الناشط أبو صلاح نفسه هدّأ الوضع؛ لأنه بلا شكّ سجّل موقفًا لمصلحته

أمام رئيس بعثة المراقبة وأكيد سيتم بثه إعلاميًّا عبر الفضائيات الكبرى، هذا ما دار في خلدي حينها[١].

طلب الجنرال الدابي من المنظّمين ورئيسهم خالد أبو صلاح أن نلتقي ضباط الجيش الحر، الأمر الذي لم يترددوا فيه، فراح أبو صلاح يتصل عبر الهاتف يطلب حضور بعض الضباط المنضوين تحت لواء الجيش الحر، وبعد دقائق قليلة ونحن نتحدث في شؤون الحيّ وصلت سيارة، حيث قطعت الطريق بسرعة البرق والسائق وشخصان معه قد أنزلوا رؤوسهم للأسفل؛ لتفادي القنص.

توقفت أمامنا ونزل حينها شاب في زيه العسكري يحمل رتبة ملازم أول وفي يده سلاح من نوع كلاشينكوف، وتقدم منا مسلّمًا، وبعدها طلب منه خالد أبو صلاح إظهار وثائق هويته العسكرية، وتأكدنا بالفعل أنه ضابط والأمر بالنسبة إلى مرافقه الذي كان صف ضابط في الجيش النظامي السوري قبل انشقاقه.

منذ البداية جرى الحديث عن الجيش الحر والأهالي يشيدون بهم؛ لأنهم يحمونهم من هجومات الجيش النظامي والمخابرات والشبّيحة، ولا أحد أنكر وجودهم، بل ظلوا يتحدثون عن فضائلهم في منع قوات الجيش والأمن من دخول بابا عمرو، وارتكاب ما يتوقعونه من مجازر مروعة في حقّ الأطفال والنساء والشيوخ والجرحى.

قسّمنا الجنرال الدابي إلى قسمين: جزء يتكون من المقدم خالد الربيعان وإلهام الشجني وسيّد عثمان، وكلّفهم باستطلاع الأمور في الجهة المؤدية إلى كفرعايا، أما أنا والدابي وأكرم في جهة أخرى من بابا عمرو، فطلب منا خالد أبوصلاح زيارة بعض أزقة الحيّ الداخلية، ونقف على مكان القصف الأخير الذي أدى إلى مقتل شبان كثيرين بينهم شقيقان. اتجهنا حيث تمت

(١) وهذا ما حدث بالفعل، فقد بثّ الفيديو عبر كل فضائيات العالم وبمختلف اللغات.

الإشـارة، وقد تكفل أسـامة إدريس مـع رفاقه بتنظيم الأمور ومنـع المواطنين من محاصـرتنا، وقد اضطر إلى اسـتعمال مكبّر صوت مطالبًا الأهالي بالهدوء وظل يعدهم بأن المراقبين سيطلعون على كل شيء، وأنهم سيبلغون انشغالاتهم للبعثة من دون استثناء أيّ فرد منهم.

كانت البيوت في وضـع سـيئ للغاية، فـلا يوجد أي منزل لم تتمّ إصـابته بشظايا أو قذائف أو أن جدرانه مثقوبة بالرصاص الكثيف، وإن القذائف حولت الطرقـات إلى حفر عميقة، وحتى الدمـاء بينها القديمة التي تجلطت، وتحولت إلى بقع سـوداء، وأخـرى حديثة لا تزال لم تجف نراها فـي أماكن مختلفة، بل أحيانًا نعثر على قطعة لحم صغيرة لم ينتبه إليها المواطنون.

دخلنا أحد البيوت التي اسـتهدفها القصف، فوجدناه قد طالته القذائف من كل جانب، فالغرف مهدّمة لم نستطع الدخول لبعضها، وآثار القذائف جعلت من غرف نوم الزوجين والأبناء مجرد ركام، فالخزائن محطّمة والمطبخ مكسر وألبسة الأبوين بينها المحروقة وأخرى مقطعة ولعب الأطفال تتناثر هنا وهناك، ويظهر أن القذيفة الأولى سقطت على غرفة الزوجين، فثقب كبير بسقفها، وقد أخبرنا الناشـطون أن العائلة أبيدت بكاملها، ولم ينجُ منهم أحد؛ لأن القصـف حدث في ساعة متأخرة من الليل، وكان الجميع يغطّون في نوم عميق.

بعدمـا دخلنـا بعض البيوت، وتحدثنـا مع الأهالي الذيـن بلغت أحزانهم عنان السـماء، التحـق بنا رفاقنا الآخـرون الذين لم يتمكنوا من المضـي نحو الضـفة الأخرى؛ لأن قناصة استهدفوهم فضلاً عن قذائف الدبابات التي تطلق بصفة عشوائية على الحيّ، وسقط بعضها غير بعيد منهم.

توجه بنا خالد أبو صـلاح نحو مكان آخر سـقط به قتلى في صـباح ذلك اليـوم، وقـد وجدنا والد أخوين وهو شـيخ مسـنّ في الثمانين مـن عمره، وكان

يتحدث إلينا باكيًا ومتأوهًا، ولما حاولت أن أشد من أزره على أن الموت حق ردّ بما لم أتوقعه قائلًا: «لا أبكي أولادي؛ لأنهم استشهدوا وهم أحياء عند ربّهم يرزقون، أنا أبكي لأنني فقدت كل أسرتي، ولم يبقَ لي ما أقدّمه لثورة الحرية».

ثم وقفنا على المكان الذي قصف قبل وصولنا، وقد قتل فيه سبعة مواطنين بينهم امرأة من جنسية عراقية والطفل تامر العاصي، والبنت مريم النهار ذات ١٥ عامًا، وقبض على أربعة إخوة من عائلة محيميد(١)، وأخذت صورًا للدماء التي لا تزال لم تتجلط بعد بينها لأحدهم يدعى «أبوحمزة»، وكانت منتشرة على الجدار والأرض. المشهد مؤثر للغاية، وخاصة أمام بكاء الآباء وأغلبهم شيوخ في سن متقدمة، أحسست في ذاتي بتأثر كبير تجاه ما أراه، فصعب للغاية أن تقف بجانب أب أو أم وقبالة دماء أبنائهم الذين تم قتلهم بقصف مدفعي رهيب، مهما بلغت بالإنسان درجة تحمّله وصبره فلا يمكن أبدًا أن يمرّ على تلك المشاهد من دون أن يتأوّه من أعماقه.

الجنرال الدابي يتحدث مع الأمين العام للجامعة العربية نبيل العربي بسبب استهداف بابا عمرو بحضور المراقبين في ٢٠١١/١٢/٢٧.

(١) وقد تمّ الإفراج عنهم في عملية مبادلة بتاريخ ٢٠١٢/٠١/٠٢ ثلاثة على قيد الحياة والرابع وهو فواز محمد عيد محيميد قتل تحت التعذيب، وتسلمت البعثة جثته من المشفى العسكري بحمص وفي ظروف صادمة (سيتم الحديث عن تفاصيل العملية لاحقًا).

المؤلف مع الجنرال الدابي في موقع سقوط قذائف ببباعمرو في ٢٠١١/١٢/٢٧.

المؤلف برفقة أحد العسكريين المنشقّين وهو يظهر وثائق هويته العسكرية بتاريخ ٢٠١١/١٢/٢٧

المؤلف مع آثار دماء بعد عملية قصف بالهاون في حيّ باباعمرو

١٤

الرضيع اليتيم الذي أبكاني

في تجوالنا ظل صوت الرصاص لم يتوقف، أما المدفعية الثقيلة فتشنف أسماعنا من حين لآخر، ولم تتوقف على الرغم من أن الجنرال الدابي اتصل بالمسؤولين في دمشق والجامعة العربية، بل إنه تحدث مع وزير الخارجية وليد المعلم شخصيًّا حول قصف حيّ بابا عمرو بالمدفعية الثقيلة، وقد طالبه بضرورة حثّ المسؤولين العسكريين بتوقيف ذلك؛ لأنه يعقد من مهمّة المراقبين، وعلى الرغم من إنكار السلطات إلا أنه بعد إلحاح منه تلقى وعدًا بالعمل على معرفة مصدر إطلاق النار وتوقيفه نهائيًّا، إلا أن الأمور بقيت على حالها، وإن خفت بعض الشيء على ما كانت عليه في البداية.

أخذنا خالد أبو صلاح ورفاقه إلى أحد البيوت التي يُوجد بها ثلاث نساء ثكالى وأطفال يتامى، البيت الذي وقفنا عليه لا يختلف عن باقي البيوت التي طالها الدمار، ففيه آثار الرصاص، ولما صعدنا إلى الطابق العلوي وجدنا ثقوبًا كبيرة في السقف بسبب سقوط قذائف عليه. وبعدها أدخلنا المنظمون إلى غرفة بدورها لحقتها الشظايا والآثار واضحة. أطلّ الجنرال الدابي على النساء وكان صوت النحيب مرتفعًا، فكلهن يبكين أزواجهن الذين قضوا في القصف والقنص الذي يستهدف بابا عمرو.

بمجرد أن أطلّ لحظات تنحّى الدابي وتراجع للخلف ليدخل المراقب الموريتاني سيّد عثمان، وبعده لحقته مباشرة، وكان المشهد يهزّ الوجدان،

فالأطفال يبكون لبكاء الأمهات والجوع الذي يمزق أحشاءهم؛ لأن الأغذية غير متوافرة وحليب الرضّع صار لا يتم الحصول عليه إلا بالتهريب، وقد قنص أحد المكلفين بالمهمة منذ أيام قليلة كما أخبرونا.

اقتربت من النساء والأطفال الذين صوتهم يهزّ وجداننا، وتتشقّق له جدران البيت المهترئة، حيث كانوا يبكون ويتأوهون ويستنجدون، قمت بتصوير المشهد المؤلم جدًّا، وبعدها مددت يدي لطفل كان يبكي في حضن أمه، التي بدورها كانت تبكي رحيل زوجها بعد قتله في قصف مدفعي، وتشكو لنا وضعها البائس من دون أن تنطق ببنت شفة، رضيعها لم يتجاوز السنة من عمره، كنت أريد أن أقبله أو ألمس رأسه غير أن الوضع لا يناسب، خاصة أن المنطقة محافظة والنساء يغطين وجوههن بوشاح، وفي حال لا يمكن أن أفعل أكثر من ملامسة يد الرضيع أو أمسح رأسه.

فاجأني الطفل بما ثقب رموشي، حيث اندفع الرضيع نحو يدي، وكان يعتقد أنني سأمده بشيء يأكله، فقد كان جائعًا بسبب ندرة الحليب والأغذية كما ذكرنا، وحاله الكئيب جدًّا والنحيف يوضح حقيقة وضع العائلة المزري.

كم تمنيت في تلك اللحظات أن تنشقق الأرض وتبلعني، فقد وجدت نفسي في وضع لا أحسد عليه، فأنا أقف أمام طفل رضيع قتل والده ويتضور جوعًا بما لا يمكن أن يعبّر عنه.

لقد اندفع نحوي علّه يجد في يدي ما يسدّ رمقه، إلا أنني خيبت رغبته، فقد فتش كفي بيده الصغيرة والنحيلة المرتعشة، ثم سحبها لفمه، وعندما لم يجد شيئًا بكى بصوت عالٍ، وهو ينظر إليّ بما لا يمكن أن يصبر عليه من في قلبه ذرة من الإنسانية، فوالله لقد قرأت في عينيه ما جعل عيوني تذرف دمعًا، ولم أستطع أن أتماسك أو أحافظ على استقلاليتي كما أوصانا رئيس البعثة،

خاصـة أمـام الكاميرات التي تحيط بنا مـن كل جانب، وأكيد أن صـورنا تنقل مباشرة عبر كبرى الفضائيات العربية والدولية.

حتـى المراقـب الموريتاني تألم كثيـرًا، وتجعدت ملامحه، وتأوه بصـوت مرتفـع، والوحيد الذي لـم يتأثر للمشـهد هو الجنرال محمد أحمد مصـطفى الدابي الذي علّق لنا لاحقًا بأن ما يراه لا يعني شـيئًا أمام ما عايشـه في دارفور السودانية.

وأنـا في المنزل على باب غرفة الثكالى واليتامى، تقدم مني أحدهم، وهو يحمل رغيفًا يابسًا، وقال لي:

«هذا الخبز الذي نأكله ألمسه بيدك».

فمددت يدي التي ما زالت ترتعش من لمسـة الصبي، لمسته فوجدته كأنه زجاج، ولا يمكن لأي بشر أن يمضغه، ولو يدخل بطنه سيقطع أحشاءه.

خرجنا من ذلك البيت ومشهد الرضيع لم يغادر مخيلتي فقد أسفت كثيرًا لعدم وجود أي شـيء بحوزتي أهديه له، وصـوت البكاء الذي سـمعته لم يغادر سـمعي ولا مشـهد اندفاعه نحو يدي مُحِي من مخيلتي إلى يومنا هذا، وخاصـة حين أعود إلى الإنترنت لأشـاهد الفيديو الذي تناقلته كل الفضائيات العالمية، أو حتى ما كتبته الكثير من وسائل الإعلام الدولية المختلفة.

تجوّلنا في شـوارع أخرى بحذر شـديد؛ لأنه لا أمان أبدًا، فقد تطولنا قذيفة في أي لحظة، وقد وجدناها لا تختلف عن بعضها بعضًا من حيث الدمار وصرخات النجدة التي تتهاطل علينا من كل جانب، فهذا يطلب منا مساعدته في العثور على أولاده أو بناتـه وآخـر يريدنا أن نعاين مـا طال بيته، وذاك يسـألنا بالله أن ننقذ زوجته المختطفة، وبينهم من يطلب مساعدتهم في دفن موتاهم، وآخرون يطلبون الدواء لجرحاهم من الأطفال والشيوخ والعجائز الذين يموتون في صمت.

بعد تلك المشاهد الفظيعة والكلام المحزن والبكاء المؤلم، قرر الجنرال الدابي أن نعود إلى قصر المحافظ غسان عبد العال من أجل إيجاد حلّ للحواجز العسكرية التي تقصف الحيّ بالدبابات بحضورنا، وقد طلب منا المواطنون أن نزور المشافي الميدانية لرؤية الجرحى وجثث القتلى إلا أن رئيس البعثة الذي كان غاضبًا مما يحدث، ألحّ على ضرورة الذهاب نحو المحافظة واعدًا إياهم بالعودة، وأكّد لهم أن بعثة تتكون من عشرين مراقبًا ستأتي وتقيم في حمص، وتتابع معهم كل الأمور عن كثب.

الخبز اليابس الذي يتغذّى به أهالي بابا عمرو

اليتيم الذي أبكى المؤلف وهو في حضن أمّه

جلسة عاصفة مع محافظ حمص

توجهنـا نحو السـيارات التـي توجد في مدخـل بابا عمرو، وفـي طريقنا كان الشـباب والنسـاء والأطفال يلتفون مـن حولنا، وهم يحملون شـظايا القذائف التي اسـتهدفتهم، ويوزعـون علينـا ظروفًا فارغـة من ذخائـر الأسـلحة المختلفة التي اسـتعملت ضـدهم. والنسـاء بدورهن يبكين لنا حال أبنائهن الذيـن اختطفوا، ولا يعلمون عنهم شـيئًا، وقد كانت عودتنا للسيارات ليست بالصعوبة التي تلقيناها لما وصلنا أول مرة، بسبب تفهم المواطنين ونجاح المنظمين في السيطرة على الوضع.

ورفعـوا شـعارات مناوئة للنظام منها «الشـعب يريد إعدامك يا بشـار»، وأيضًـا «اللّه محيي الجيش الحر»، «الشعب يريد إعدام الرئيس»، «الشعب يريد إسقاط النظام».

امتطينا السـيارات وتوجهنا سـريعًا نحو قصـر المحافـظ، وفي طريقنا سألت الجنرال الدابي عن ملاحظاته الأولية التي خرج بها من زيارتنا الخاطفة لحيّ بابا عمرو، فقال: «الوضـع مُزرٍ وصعب حقيقة، لكن لا يمكن أن نصدق كل ما يقولونه لنا».

فقلـت له: «سـيادة الفريـق، البيوت مهدمة علـى رؤوس النـاس والدماء موجودة، وكل ذلك واضح، بل إن الحيّ يقصف بحضورنا».

فردّ: «هذا صحيح، لكن أيضًا هناك مسلحون يسيطرون على الوضع».

فقلت له: «هم لم يخبئوا شأن مسلحيهم المنضوين تحت لواء الجيش السوري الحر».

فقال: «هؤلاء فارون من الجيش ومتمردون، وهو أمر مخالف للقانون».

فقلت له: «هم يقولون: إنهم أجبروا على ذلك؛ لأنهم لا يريدون قتل الشعب، وإن كان الفرار يخالف القانون، فكيف نقول عن قتل الناس وإبادتهم وقصف بيوتهم وتدميرها؟».

فقال الجنرال: «مهما كان المبرر يبقون دائمًا خارجين عن القانون، ومهمتنا صعبة في ظل هذا الوضع».

فقال له المقدم خالد الربيعان: «سيادة الفريق، وماذا عن القصف الذي يتعرض له الحي؟».

فأجابه: «بالنسبة إلى الرصاص الخفيف ممكن جدًّا أن المسلحين هم من يطلقون النار لتوجيهنا نحو ما يريدون، أما القصف الثقيل فسنتحدث في أمره الآن مع المسؤولين، وقد كلمت وزير الخارجية في الأمر، وأكيد تواصلوا مع المحافظ».

حقيقة أعجبتني بعض أجوبة الجنرال الدابي الذي ظهر لي أنه لا يريد أن ينحاز لأي طرف، ويتعامل مع بعض الأمور بمنطق رجل دولة سابق بلغ أعلى المراتب في السلطة، إلا أن رفضه لتبرير الانشقاق في ظل الجرائم التي تحدث أراه يجافي الصواب، ولكن قلت في قرارة نفسي: عله يغير رأيه مستقبلًا مع مرور الأيام عندما نطلع على الحقيقة ميدانيًّا.

وصلنا الحاجز العسكري في نهاية شارع البرازيل، حيث تركنا من قبل الحراسة وموظف المحافظة، فوجدناهم في انتظارنا، فامتطى معنا السيارة،

والغريب أن عسكري الحاجز أوقفنا، وأراد أن يطلب منا بطاقات الهوية وتجادل مـع مرافقنا الذي شـرح له أننـا بعثة الجامعـة العربية، الجنـدي كان يتحدث وينظر لنا بنظرات غريبة تشـع من عينيه ما يبدو أنه حقد علينا أو كأنه لا يريد أن يرانا، ولا يصدق ما يسمعه منّا.

على كل حال سـمح لنا بالمغادرة بعد جدل بينــه وبين موظف المحافظة، وتوجهنا مباشــرة إلى القصــر، حيث وجدنا اللواء غســان عبدالعال في البوابة برفقة عقيد في الجيش وبعض المسؤولين المحليين الذين سبق أن التقينا بهم، سلم علينا ودخلنا القاعة التي اجتمعنا فيها من قبل.

بادر بالســؤال عن أحــوال جولتنا، إلا أن الجنرال الدابــي ردّ بلهجة حادة قائلًا: «الأمور ليست على ما يرام مادام الرصاص لم يتوقف والقصف يستهدف الحي». المحافظ عبدالعال متعجبًا: «أي قصف سيادة الجنرال؟».

فأجاب الدابي: «العسكر يقصفون حيّ بابا عمرو بحضورنا».

المحافظ: «مستحيل أن يقصف الجيش، هذا لم يحدث مطلقًا».

الدابي: «بل حدث وأمامنا سيادة المحافظ».

المحافظ: «أكيد المسلحون هم من كانوا يطلقون النار لتغليطكم».

الدابي، وقد تجهمت ملامحه: «المسلحون لا يملكون دبابات».

فقاطعه المحافظ بلهجة التعجب: «دبابات... غريب».

الدابي: «نعم، دبابات شيلكا».

العقيد الذي كان يجلس بجانب المحافظ: «لو تسمح سيادة الجنرال، نحن لم نخرج الدبابات أبدًا من الثكنات».

فقال له الدابي: «دعنا من أنكم لم تخرجوا الدبابات، فهذا أمر ثابت، ووقفنا عليه، نحن نتحدث عن القصف الذي حدث، هو من دبابات شيلكا، وهذا الذي لا يمكن أن يشكك فيه أحد».

المحافظ: «هذا مستحيل سيادة الجنرال».

الدابي: «لا تقل مستحيل سيادة المحافظ، أنا جنرال، وأعرف من صوت الطلقة نوع السلاح الذي خرجت منه، وحتى المسافة التقريبية التي جاءت منها».

ثم يضيف: «القصف الذي حدث هو من دبابات ومن خارج حي بابا عمرو، لقد التقيت مسلحين وليس في أيديهم إلا كلاشينكوف، أما الدبابات فلا يملكونها».

المحافظ: «توجد دبابة سيطر عليها المسلحون منذ مدة، وهي بحوزتهم إلى الآن، ربما استعملوها».

الدابي: «لو سمحتم خلونا في الواقع، ودعونا من الفرضيات التي لا يمكن أن تقنع أحدًا». وكأنه يستدرك: «في رأيكم أين الدبابة الآن؟».

المحافظ: «المعلومات التي بحوزتنا تؤكد أنها في حي بابا عمرو».

الدابي: «هذا غير منطقي إذن؛ لأن القصف يأتي من مسافة تتراوح ما بين ١٠ كم و١٥ كم».

أحس المحافظ أن الجنرال الدابي قد غضب، فقال بما فسرته أنه يريد تهدئة الأمور: «لقد كلموني من وزارة الخارجية واتصلت بالقيادات العسكرية من أجل معرفة حقيقة الأمر، وإن كنا لا نملك دبابات خارج الثكنات».

فعقبت السيدة إلهام: «نحن وقفنا على دبابات في حاجز المؤسسة الغذائية».

فردّ عليها المحافظ: «تلك عربات لنقل الجنود، وليست دبابات».

فقالت له، وهي ليست لها خلفية عسكرية: «لكنها مزودة بمدافع تطلق النار منها».

رئيس البعثة مصطفى الدابي تحاشى الخوض في موضوع الدبابات، فقد كان على قناعة تامة بأن الجيش يستعملها في قصف الأحياء الثائرة، لكنه فضّل التأكيد للمرة الأخرى أن القصف يجب أن يتوقف فورًا وإلا لن يواصل عمله، وسيبلغ المسؤولين في الجامعة العربية من أجل اتخاذ التدابير والقرارات اللازمة، فطمأنه المحافظ بأنه سيتخذ كل الإجراءات لتفادي مثل هذه الأخطاء الطارئة وغير المتعمدة حتمًا كما وصفها، حتى يتم تسهيل مهمة البعثة وفقًا لتعهدات الحكومة السورية.

لقد أعجب المراقبون جميعًا وأنا أحدهم بصرامة الفريق أول الركن الدابي في حديثه مع المحافظ والمسؤولين، وتفاءلت بأن المهمة ستكون كما أريد لها، حيث ننجح في تنفيذ بنود البروتوكول بحيادية تامة، وننقذ سوريا من الحرب الأهلية المدمرة التي تتربص بها في ظل إصرار النظام على الحلول الأمنية وتصميم المعارضة على إسقاط بشار الأسد.

كانت مشكلة الاتصال بالفوج الثاني قائمة، فهم لا يملكون هواتف محلية، وكل واحد منهم عنده هاتفه الشخصي الدولي الذي شكّل لنا صعوبة في الاتصال بهم بسبب سوء الشبكة في حمص، وقد علمنا أن الحراسة المرافقة لهم أخذوهم إلى حيّ عكرمة الموالي، وأخبروهم أنه باب السباع، غير أن البعثة فطنت للأمر، ولذلك أنهوا عملهم هناك ثم زاروا حي الأرمن والعباسية،

وطبعًا لم يتمكنوا من الذهاب إلى حي باب السباع بسبب المظاهرات المؤيدة التي وجدوها في انتظارهم.

هذا ما أزعج الجنرال الدابي كثيرًا، وقدم احتجاجه لدى محافظ حمص، بل اتصل أمامنا بالخارجية السورية، حيث تحدث مع فيصل المقداد، نائب وزير الخارجية، واتصل بالجامعة العربية، وقد طلب أمامنا توصيله بالأمين العام نبيل العربي، ولكنهم أعلموه أنه في اجتماع حينها.

طبعًا محافظ حمص غسان عبدالعال أنكر ذلك، ولكنه في الوقت نفسه ذهب إلى خلق مبررات أهمها أن الحراسة ربما أخطأت، فبدل أن تأخذهم إلى حي باب السباع أخذتهم إلى جهة أخرى، وإن العقيد الذي يرافقه زعم أن الأمر بالتأكيد لديه أسباب أمنية فقط، وسوف يتابع الموضوع بصفته الشخصية.

الجنرال الدابي لم يهضم ما قيل له من تبريرات وتفادى حسبما فهمناه أن يعطي الموضوع أكثر مما يستحق، وإن كان بما يشبه قرص الأذن؛ حتى لا تتكرر مثل هذه الأفعال التي ستضر بمهام البعثة، ولكن «من الطبيعي أن تقع» كما علق بصوت منخفض لمدير مكتبه العقيد أكرم الذي كان يجلس بجانبي.

بعدها طلب رئيس البعثة من المحافظ أن يتصلوا بالحراسة المرافقة للفوج الثاني، وهو الذي قام به فورًا أحد الضبّاط المسؤولين والمرافقين لقائد الجيش في المنطقة، وأعلمنا أنهم في طريقهم إلى القصر.

لم نمكث إلا نحو نصف ساعة تقريبًا ووصل العقيد البخاري والمراقبون الذين كانوا يرافقونه، فأخبرونا بما جرى لهم، وقد كانت انطباعاتهم الأولية ليست جيدة، فقد تلقوا صعوبات في ظل اندفاع سكان الأحياء التي زاروها، ووجدوا أنفسهم في وسط مسيرات مؤيدة لبشار الأسد وطبعًا وصفوا تلك المسيرات بأنها عفوية على الرغم من أن لافتات ضخمة تطالب البعثة بالنزاهة وتحكيم

الضـمير، وترحب بها في حمص وموجود حتى تاريـخ اليوم ٢٠١١/١٢/٢٧، ولا يمكن إعداد ذلك الكم من اللافتات إلا في يوم كامل على الأقل.

الجنـرال الدابـي أمام المراقبيـن العائدين عاتب المحافظ غسّـان مرة أخـرى، على ما قامت به الحراسـة لمـا أخذت البعثة إلى حيّ مـوالٍ بدل الحي السـاخن والمضطرب باب السـباع الذي تم الاتفاق عليه في الاجتماع الأول، إلا أن المحافظ برّر الأمر مجدّدًا بأنه خطأ غير مقصود.

أحد الضـباط جاء بكلام جديـد، وأخبرنا بأنه وقع سـوء فهم، حيث كان يعتقـد أن المجموعة متوجهـة لحيّ عكرمة، وأنهم لما وصـلوا هناك غرقوا في تظاهرات شـعبية عقدت أمورهم، ولذلك «لم يتمكنوا من تغيير المسـار»، قال ذلك على الرغم من أنهم زاروا أيضًـا حي الأرمن وحي العباسية، وهذا يقتضي المـرور بأحيـاء عـدة منها النزهـة والزهـرة والمهاجرين ثم الأرمـن وبعدها العباسية، والمسافة تصل ما بين ٥ كم و٧ كم.

العقيد البخاري الذي عمل رئيسًا سابقًا للمخابرات العسكرية الموريتانية ومؤسسًـا لجريدة الجيش وصـار ملحقًا عسـكريًّا برئاسـة الجمهورية، أسرّ لي بأنهم وجدوا صـعوبات كبيرة، حيث تركتهم حراسـتهم فـي مواجهة جموع من المواطنين الغاضبين والناقمين، وهم من الموالين لبشار الأسد الذين تجمهروا يهتفون بدعم النظام.

وأذكـر أن العقيـد البخاري قال لـي بالحرف الواحد: «تعرضـنـا لمؤامرة حتـى نبقى هناك في الأحياء الموالية، ولا نذهب إلى باب السـباع، فالحراسـة تركتنا نواجه مصيرنا بين متظاهرين غاضبين».

وأضاف أيضًا بصوت أكثر خفوتًا: «ظهرت الأمور من البداية أن الحكومة لن تتركنا نعمل على راحتنا، بل يريدون إغراقنا في أمور لا علاقة لنا بها».

بعدها طلب المحافظ من موظفيه تحضير مائدة الغداء، حيث غادر مجلسنا بطلب من الدابي الذي أراد أن يجتمع بنا على انفراد، وقد أخبرنا بأنه قرر بقاء خمسة مراقبين أو أربعة يبيتون في حمص والبقية تغادر معه، فتقرر بقاء العقيد البخاري بوصفه مسؤولًا على المجموعة وبرفقته الجنرال المغربي كرمالي وآخرين، أما أنا والسيدة إلهام الشجني وخالد الربيعان والعقيد أكرم فتقررت عودتنا إلى دمشق.

طلبنا من المسؤولين في قصر المحافظ أن يحضروا لنا سجادة من أجل صلاة الظهر والعصر، وهو الذي وفروه في وقت قياسي، حيث توضأ المراقبون وأدوا الصلاة قصرًا وجمعًا كما هو معلوم.

بعدها جلسنا إلى مائدة الطعام التي فيها كل ما لذّ وطاب من الأكلات السورية المشهورة، وإن كنت لا أزال متأثرًا بما رأيته من مشاهد، وخاصة الرضيع الذي لم يغادر نحيبه مسمعي، إلا أنني جلست معهم وأخذت بعض ما قدرت عليه، فنفسي مسدودة وشهية الأكل قد فقدتها في غبار حيّ بابا عمرو المنكوب.

الجنرال الدابي ومحافظ حمص في لحظة غضب

العودة إلى الشام

المراقبون الآخرون الذين تقرر بقاؤهم، فامتطوا سيارتهم، واتجهت بهم نحو فندق السفير الذي سيقيمون به، وإن كنت تساءلت عن جدوى ترك عناصر مـن المراقبيـن، وهم لن يعملـوا شـيئًا إلا إذا رجعنا نحن إليهـم، وقد أجابني الدابي:

«هذا إجراء أريد به طمأنة الجهات التي تحتج وتضغط من الخارج، فبقاء مراقبيـن فـي حمصـ - ولو كانـوا لا يخرجون للميـدان هذه الليلـة - مهم من الناحية المعنوية، وأيضًا نريدهم أن يسجلوا لنا ما سيسمعونه من قصف ليلًا».

أما نحن برفقة رئيس البعثة فقد غادرنا قصر المحافظ في حدود الساعة السابعة مساءً، وتوجهنا إلى ثكنة تابعة للأمن بعدما تلقينا أخبارًا من المسؤولين في المحافظة عن اسـتهدافها بالرصـاص والقذائف، من قبل مسلّحين ينتمون للمعارضة، التي يسمونها الجماعات الإرهابية المسلّحة.

وصـلنا الثكنة العسكرية بوسـط المدينة في دقائق معدودة، لأنها لا تبتعد كثيـرًا عن مقرّ قصـر المحافـظ، ووقفنا على وجود أثر طلقـة نارية واحدة في جـدار لـم نتأكد من وقت إطلاقها، وقد التف حولنا المسـؤولون الأمنيون، وهم يشـتكون لنا معاناتهم من المسـلحين، الذين يستهدفونهم بالقذائف من بعيد. حقيقـة لم نهضـم رواياتهم حول ما حـدث في ذلك اليوم، فوجـود أثر طلقة لا يعنـي مطلقـا أن ما حكوه صـحيحًا، فقد يكـون أحدهم أطلقهـا متعمدًا، لأجل

توجيه البعثة في يومها الأول، فضـلًا عن أن موقعهم في وسط المدينة ليس من السهل وصول عناصر الجيش الحر إليهم.

بعدها طلب الدابي من الحراسـة أن نمرّ على سـاحة الساعة، بعدما تلقّى مكالمة هاتفية فيها خبر سقوط قتلى من المتظاهرين، بعد إطلاق النار عليهم من قبل سـلطات الأمن، غير أننا لم نجد شيئًا، فقد أخذونا إلى مكان غير بعيد مـن الثكنـة، وأخبرونا أنها السـاحة المعنية، فقـد كانت خالية ولا أثـر إلى أي مواجهـة أو تظاهرة، وقد تحدث الجنرال الدابي مع الحراسـة، وأكّدوا له بأنها المكان المطلوب.

تركنا سـاحة «السـاعة»، وقفلنا عائدين نحو العاصـمة السـورية دمشق، ومنـذ اللحظة التي غادرنا فيها وهاتف الجنـرال الدابي لم يتوقف عن الرنين، وقـد أخبرنا بأن الأغلبية السـاحقة إنما هي اتصـالات من قبـل وكالات الأنباء والصـحف والفضـائيات، وكان يتفـادى الردّ عليها، وخاصـة قناتـي الجزيرة والعربية، وقد وصفهما بأنهما قناتان لا تملكان مصداقية، وتريدان فقط إشعال الفتنة في البلاد العربية، على حدّ لفظه.

هكـذا كانت نظرة الجنرال الدابي، رئيـس بعثة مراقبي الجامعة العربية، للإعلام العربي المسـتقل، فهو حسـب مـا قاله لا يثق إلا في الإعلام الرسـمي العربـي أو وكالات الأنباء الدولية، مثل وكالة الأنباء الفرنسـية ورويترز، وبعض الفضائيات مثل البي بي سي.

كان رئيس البعثة الفريق أول الركن مصـطفى الدابي منشـغلًا باتصالات هاتفية مع جهات في الجامعة العربية، وأخرى في السـودان، وأيضًا مع أطراف في الحكومة السورية، ولذلك التزمنا الصمت ولم نتحدث إلا نادرًا.

الغريب أنه تلقى اتصالًا من جهة لم يخبرنا عن هويتها، وأكدوا له أن الساحة التي أخذونا إليها ليست ساحة «الساعة»، التي سقط فيها ضحايا، بل أخذونا لمكان آخر، وقد علّق الدابي على ذلك بالقول:

«إن تأكّد أنهم أخذونا لمكان آخر، فهذا مؤشر غير جيّد، سيقطع بين البعثة والحكومة كل أواصر الثقة».

فسألته: «ماذا سيكون ردّكم سيادة الفريق؟».

أجاب: «على كل لا نملك تأكيدًا على أنهم خدعونا، ولكن سنحاول معرفة الحقيقة، وبعدها نبلغ السلطات ونكتب للجامعة العربية».

فقلت له: «عندما يلتحق الفوج المعني بحمص يجب عليه أن يتعرف على الساحات، ويتأكد، وإذا ثبت ما قيل يجب ألا يمرّ الأمر بسهولة؛ لأن صمتنا سيجعلهم يزيدون من حجم الخداع».

فردّ الدابي: «طبيعي تقع مثل هذه الأمور، ويجب ألا نقف عند أخطاء بسيطة، ونتغاضى عن مهمتنا الأصلية، وهي المراقبة».

فقلت له: «المراقبة إذا استمرت تحت التضليل والمخادعة فلن تنجح».

فقال العقيد أكرم: «صحيح، ولكن يجب أن ننبه المراقبين إلى مثل هذه الأمور مستقبلًا، وكل خطأ نراه نسجله ونرسله في التقارير للجامعة العربية».

الاتصالات الهاتفية المتواصلة قطعت حبل النقاش بيننا، فيما يخص ساحة «الساعة»، ورحت أتابع ما يقوله الجنرال الدابي عن مهمتنا، وتعليقه عن الصعوبات الموجودة التي عايشناها في ذلك اليوم، حيث انتقى بعض الصحفيين، ومكّنهم من تصريحات حصرية حول أول زيارة لبعثة الجامعة العربية لحمص، التي تعدّ أسخن منطقة في سوريا.

مجمل ما قاله رئيس البعثة محمد أحمد مصطفى الدابي، في مكالماته الهاتفية مع وسائل الإعلام التي تحدث إليها: إنه لا يمكنه الحكم على المهمة في بداياتها، والزيارة التي قمنا بها لحمص هي مجرد زيارة استطلاعية لرئيس البعثة، ومن خلالها لا يمكن إصدار أي مواقف؛ لأن العمل يحتاج إلى بعض الوقت، حتى يمكنه أن يحكم على الوضع وتداعياته.

تركيز الدّابي كان حول قراره بالإبقاء على مراقبين في عين المكان بحمص، لمتابعة أي مستجدات أو تطورات قد تحدث، وبيني وبين نفسي كنت أرى الأمر مبالغًا فيه؛ لأن المراقبين الذين بقوا في حمص تركناهم، وقد ذهبوا إلى الفندق ولن يغادروه، والعمل سيكون عند عودتنا في اليوم اللاحق من أجل إكمال الزيارة في بابا عمرو، وأيضًا يتمكن الفوج الآخر من الذهاب إلى باب السباع.

رئيس البعثة أطلق أيضًا تصريحات حول الصعوبات المفترضة، التي نكون قد تلقيناها خلال زيارتنا، فأكَّد لهم أن السلطات السورية متعاونة جدًّا، كما وأن المعارضة أيضًا فتحت لنا الأبواب، مؤكدًا أن الأمور تسير في السياق الجيد المبشر بالخير، على حد تعبيره.

وأذكر أنه بعد كل نهاية تصريح وعندما يقفل الخط، يلتفت إلينا وهو يقول: «الصحفيون أمرهم عجيب، وخاصة صحافة الفتنة، يريدون أن نقول لهم ما يريدون هم، وليس ما هو موجود في أرض الواقع».

تحدث الدابي إلى وكالة رويترز، التي قال لها ونحن نستمع إليه: إن الوضع في حمص يدعو للاطمئنان وهادئ، ولم تحدث أي اشتباكات، وأشار في حديثه لرويترز: «إن الوضع في بعض المناطق المحدّدة غير جيد، ولكن لم يحصل أي شيء مخيف على الأقل عندما كنّا هناك، لقد كانت الأوضاع هادئة، ولم تحصل صدامات».

ويضيف أيضًا: «لم نَرَ دبابات، لكننا رأينا عددًا من العربات المصفّحة».

تعجبت من تجاهل الدابي للقصف العنيف لحيّ بابا عمرو، الذي كنّا شهودًا عليه، ولا حتى الدبابة التي وجدناها بجانب المؤسسة الغذائية، وقد سألته عن سبب ذلك لما أنهى مكالمته؟ فقال لنا: «نحن نريد أن نهدئ الأمور، لتسهل مهمتنا».

فقلت له: «لكن الأمور ليست هادئة يا سيادة الفريق، ومثل هذا الكلام سيغضب علينا الطرف المعارض».

فقال: «لا تقلقوا، أنا أدرك ما أقوم به».

كانت السيدة إلهام الشجني التي تجلس بجانب رئيس البعثة، منشغلة بكتابة ملاحظاتها على أجندتها، ومن حين لآخر لما يكون الجنرال الدابي غير مرتبط بمكالمة هاتفية تقرأ له بصوت خافت ما كتبته، حيث هو يتمعن فيها قليلاً، ثم أسمعه يشيد بملاحظاتها، ويطلب منها أن تحتفظ بها وتسجلها لأخذها في الحسبان لاحقًا.

طبعًا لم تطلعنا السيدة إلهام على تلك الملاحظات، التي أعجبت الدابي كثيرًا، حتى إنه قال لها: «أنت يجب أن تظلي معي حتى نهاية المهمة».

ولا أحد منا طالبها بذلك، فقد ظهر لي شخصيًّا أن الدابي لا يريد أن نجادله كثيرًا، وهذا طبع القادة العسكريين الذين ورثوه من خلال حياتهم في الثكنات والأجهزة الأمنية.

قبل الوصول أخبرنا الجنرال أنه سيجتمع مع وزير الخارجية وليد المعلّم، وبعدها يأتي لمحل إقامتنا في فندق إيبلا الشام، من أجل عقد اجتماع جديد، مؤكدًا عودتنا في اليوم اللاحق مع إضافة مراقبين آخرين معنا؛ حتى نتمكن من النجاح فيما ينتظرنا ببابا عمرو وباب السباع.

في طريق العودة إلى دمشق

١٧

الاجتماع الثاني بدمشق

وصـلنا دمشـق، فنـزل الجنـرال الدابي بالفنـدق، الذي يقيم به وسـط المدينـة، أما نحن فاتجهت بنا سـياراتنا مباشـرة إلى محـلّ إقامتنا، فقد كنا منهكيـن إلى درجة لا يمكن تصـورها، حتى إن مراقبين قد غرقوا في النوم في الطريق.

دخلنا بهو الفنـدق، فوجدنا الكثير من المراقبيـن الآخرين في انتظارنا، حيث التفّوا من حولنا للاطمئنان على أحوالنا بعد زيارتنا التاريخية لحمص في ذلك الظرف الحسّاس للغاية.

المراقبـون كانـوا متلهفين جـدًّا لمعرفة الأوضـاع وكل كبيرة وصـغيرة، فقد تابعوا في الشاشـات بعض صـورنا، التي بثها الناشطون، أو حتى تلك التي عرضها التلفزيون الحكومي السـوري، أو الآخر الموالي المسمى «الدنيا»، وهي تلك القناة التي يملكها رجل الأعمال رامي مخلوف، ابن خالة بشار الأسد.

بعد حديث عابر مع بعض أعضـاء البعثة التونسية والموريتانية والسعودية والسـودانية والمغربيـة، انزويـت إلـى ركن من بهـو الفندق مع عناصـر البعثة الجزائرية، الذين أخبروني بأنهم قضـوا يومهم في ضـيافة السفير الجزائري بمقر السفارة، وتناولوا وجبة الغداء هناك بمقرّ السفارة.

رحت أصف لهم الوضع ومشاهداتي الأولية عن الحقيقة وتعقيدات المهمة، سواء التي حدثت معنا أو تلك المحتملة مستقبلاً، وكان رئيس الوفد يتطلع إلى تدوين ما أتحدث به، ولما سألته عن ذلك، أخبرني بأنه سيرفع ملاحظاتي في تقارير يقدمها للخارجية الجزائرية، فكان ردّي عليه أن المعني الأول بتلك الانطباعات هو الجامعة العربية، فكان ردّه أن وزارتهم أيضًا في حاجة إليها.

من دون غوص في تفاصيل ذلك وإن كان لم يرقني ذلك، لأنني لست معنيًّا بالخارجية الجزائرية، ولا أنا من بين أعضائها، فاستأذنت منهم أن أصعد إلى غرفتي حتى أغير ملابسي وأستحم، فاليوم شاق وأنا متعب لأبعد الحدود، وسنعقد اجتماعًا مع رئيس البعثة الفريق أول الركن الدابّي، من أجل توزيع الأفواج وتمكيننا من تعليمات جديدة، حول مهمة بعثة المراقبين العرب، التي من خلال معاينتنا الأولى لحمص تأكد لنا أن هذه المهمة شاقة وليست سهلة، حتى إن كان الجنرال الدابّي ظل في الطريق يردد أنه متفائل جدًّا لنجاح البعثة في حلّ الأزمة السورية.

دخلت إلى غرفتي، وأخذت حمامًا، وأديت صلواتي، ثم أجريت اتصالات هاتفية مع عائلتي الصغيرة في فرنسا، ثم شغلت جهاز التلفزيون، وتمددت على فراشي، لأتابع قنوات الحكومة السورية، التي كانت مشاهد زيارتنا لحمص هي المسيطرة على الأخبار، وإن كنت لم أَرَ صور بابا عمرو، فقد ركزت (الدنيا) و(السورية) و(الإخبارية السورية) على تظاهرات قوبل بها المراقبون، الذين ذهبوا للمناطق الموالية بحمص، أما صورنا ونحن في بابا عمرو فقد أخبروني عبر الهاتف أنها تصدرت فضائيات عالمية على مدار نشرات أخبار اليوم.

بعدها نزلت إلى المطعم، حيث تناولت وجبة العشاء، وقد التقيت حينها السفير الجزائري السيد صالح بوشة الذي أخبرني بأنه سأل عني أفراد

البعثة بعدما طالع خبر وجودي ضمن اللجنة على جريدة الشروق[1]، وقد جلست إليهم، وتبادلنا أطراف الحديث عن الوضع في البلاد، وقد راح السفير الجزائري يؤكد لنا أن الوضع ليس بالخطورة التي يصوّرها الإعلام العربي والغربي، وأن هناك مبالغات كثيرة، على حدّ تعبيره.

وقد أخبرته أنني زرت حمص، والوضع هناك خطير للغاية، غير أنه راح يتحدث لنا: أن هناك جيوبًا ساخنة ومتأزمة، بسبب وجود مسلحين وجماعات متشدّدة، وصفها بالإرهابية، وقد تعجبت حينها من خطاب السفير الجزائري، الذي لا يختلف عن خطاب المسؤولين السوريين، الذين اجتمعنا بهم في حمص.

فضّلت ألا أخوض كثيرًا في الأمر، فقد أظهر سعادة السفير أن له رؤية معينة للأزمة، لكن ما يجب التأكيد عليه أن السفير اعترف بأن الوضع سيئ في حمص ودرعا وحماة وإدلب، وبعض الشيء في ريف دمشق، وبقدر ما تحدث عن بعض التجاوزات، كما وصفها في بداية الأزمة، إلا أنه ظلّ دائمًا يحمّل المسؤولية للجماعات المسلحة والمتشدّدة، كما يصفها، ومن دون أن يشير إلى مسؤولية الحكومة، ربما كان السفير متحفظًا بحكم منصبه أو تلك قناعته التامة، بخصوص ما يجري في هذه البلاد، التي يعيش فيها سفيرًا للجزائر.

تركت السفير مع عناصر البعثة الجزائرية، وغادرت إلى بهو الفندق، وهناك جلست مع مراقبين من البعثة الموريتانية، الذين بدورهم راحوا يسألونني عن الوضع في حمص، واستفسروا كثيرًا عن زميلهم ورئيس وفدهم العقيد البخاري، الذي تركناه في حمص برفقة المراقبين الآخرين.

بعدها نادى علينا أحد عناصر الجامعة العربية من أجل الدخول لقاعة الاجتماعات، ولبينا النداء فورًا، ولم نمكث إلا بعض الدقائق المعدودة، ودخل

(١) الشروق ٢٦/١٢/٢٠١٢.

علينا الجنرال الدابي برفقة السفير سيف اليزل. كان في ذلك اليوم قد التحق بنا نحو ٢٠ مراقبًا جديدًا، بينهم ١٦ مراقبًا سودانيًا، ولذلك كانت البداية بالتعرف عليهم من قبل رئيس البعثة، وشرح لهم الجنرال الدابي بعض الأمور التي سبق وحدثنا عنها في الاجتماع الأول، وبدورهم قاموا بأداء القسم الذي أديناه نحن من قبل، وبالصيغة نفسها.

افتتح الدابي مداخلته بقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ﴾.

وقال: «اليوم لحظة البداية الحقيقية لعمل البعثة».

ليعترف: «نعلم أن هناك الكثير من المشكلات الإدارية والشخصية والتقنية».

ومما جاء في كلامه:

- «معلومات مشوشة وإساءات وأكاذيب وأقاويل في وسائل الإعلام عن البعثة».
- «أنتم لا تتعاملون مع وسائل الإعلام، بل مع الجامعة العربية ورئاستها».
- «نحن علينا أن نؤدي رسالتنا بصدق».
- «لا تتحققوا في أشياء لا علاقة لها بالجامعة ولا البعثة».
- «لا نقبل الإزالة الصورية للمظاهر المسلحة».
- «يجب الاهتمام بإزالة المظاهر المسلّحة، وتوقيف العنف المتبادل بين الطرفين».

ودعا رئيس البعثة الفريق أول الركن محمد أحمد مصطفى الدابي إلى ترشيد الإنفاق؛ لأن الميزانية المخصصة محدودة.

ثم شرع بعدها في الحديث عن زيارة حمص، التي رآها بداية موفقة نحو أفق جديد في الأزمة السورية، كاشفًا بعض الملاحظات الأولية في الأمر، وأهمها قضية الكاميرات التي تبث مع الفضائيات مباشرة، لهذا أكّد الدابي على المراقبين تفادي التصريح أو التحدث في كل كبيرة وصغيرة يتم تسجيلها علانية أو بطريقة سرية، وتبثّ عبر الإنترنت والفضائيات التحريضية، على حدّ قوله.

ثم أحال الكلمة للسفير سمير سيف اليزل، الذي شرع في الحديث عن العمل في البعثة، الذي سيبدأ مباشرة يوم الخميس ٢٩/١٢/٢٠١١ بمجرّد التحاق الأفواج بمناطق عملهم المحددة بعد توزيع الأفواج الخمسة. ثم تكلم عن الأجهزة التي تم تحضيرها والفرق والسيارات القادمة من العراق والأردن، وأجهزة الاتصال وأشياء لوجستية مختلفة.

وقد أكّد أن كل فوج عندما يصل إلى المحافظة التي يرسل لها سيقابل من قبل المحافظ ومدير الأمن، ودعا للتنسيق مع المسؤولين المحليين، وأوصى بمجرد الوصول يجب إرسال اسم الفندق ورقم الهاتف والفاكس، وألحّ على أن الصور التي يتم أخذها بكاميرات البعثة يجب أن تكون للجامعة العربية، وليس لأي جهة أخرى. وبعدها قام السفير سيف اليزل بإعطائنا أرقام الهواتف الخاصة برئيس البعثة، وإطارات غرفة العمليات بدمشق.

بعدها فتح المجال للحديث والأسئلة، وقد فاجأنا المراقب المغربي الدكتور عبدالحميد الوالي الذي كان أول المتحدثين، حيث صب جام غضبه على البعثة بملاحظات مهمة، كانت تختمر في أعماقي، وقد رأى أن البعثة طغت عليها أخطاء كثيرة، وأن البداية غير موفقة مطلقًا، والإمكانيات المتاحة لا تصلح حتى لمراقبة فندق، فضلًا عن بلد يعيش أزمة قوية وخطيرة.

كان حديث الدكتور الوالي لاذعًا جدًّا في نقده، لما لاحظه ببداية العمل، وقد وضع مقارنات مع مهام شارك فيها من قبل في إطار الأمم المتحدة،

وأكّد أن الأمور إلى تلك اللحظة لا تبشّر بالخير أبدًا. وأكد في مداخلته القوية التي زلزلت كيان الدابي، حسب ما ظهر على ملامحه، أن العمل ارتجالي، والبروتوكول ضبابي، والأهداف كلها متناقضة، كما قال:

- «العمل لا يمكن أن يتمّ إلا بوقف إطلاق النار، ونحن نضيّع وقتنا ووقت الجميع».

- «الأساس هو وقف إطلاق النار».

- «لا توجد هيئة في العالم تُرسل من دون وقف إطلاق النار».

- «قلت للأمين العام: هل هناك خطة عمل؟ فقال: ستذهبون لدمشق، وتجدون خطة عمل»، ثم يعقب: «إطلاقًا لا توجد خطة عمل».

- «لا أقبل شخصيًّا لنفسي ولا لغيري أن أساق مثل الكبش إلى مسلخ».

ومما حدث أنه لما كان الدكتور الوالي يسترسل في ملاحظاته انشغل الدابي بهاتفه المحمول، وهذا الذي أزعجه كثيرًا، فتوقف هنيهة عن الكلام، علّ رئيس البعثة ينتبه له ويتابعه، غير أنه لم يهتم بالأمر، ما دفع الدكتور إلى القول وهو يخاطب الجنرال بلهجة غاضبة جدًّا وبصوت جهور:

«من قلة الأدب أن يتكلم أحد، والآخر لا يستمع له».

لينتبه الدابي للأمر، وقد تجهمت ملامحه أكثر مما كان عليه شأنه من قبل، لكنه كتم غيظه، وأظهر اهتمامه بكلام الدكتور الوالي، الذي عاد مجددًا للحديث، ووجه سؤالاً لرئيس البعثة:

«هل عندك سيدي الرئيس، خطة لإخراج البعثة لو حدث مكروه؟».

وبعدما أنهى الدكتور كلمته وغادر المنصّة، عقب الجنرال الدابي عليه معتذرًا عما ظهر أنه عدم اهتمام منه، وإن كان عكس ذلك تمامًا، فهو يسمع

للجميع، واعترف بالنقائص، وتأسف على عدم وقف إطلاق النار، الذي يجب أن تلتزم به السلطة والمعارضة على السواء.

طلبت التدخل أنا بدوري، فصعدت للمنصة المخصصة، وتحدثت من خلال تجربتنا الأولى في حمص، لخصت حينها الأخطار التي تعترض البعثة، وأكدت أنها تتحرك من دون خطة عمل ولا هدف محدد ولا معطيات كافية، ومما قلته: «البروتوكول غامض، والواقع الإنساني كارثي، ولا يمكن أن ندخل على عائلات بين أيديهم جثث أبنائهم، أو جرحى لا دواء لهم، وأطفال رضّع لا يملكون قطرة حليب، لنقول لهم: إننا جئنا من أجل تطبيق البروتوكول الميّت، هذا الذي من المستحيل تطبيقه في حمص على الأقل، بناء على ملاحظاتنا الأولية».

من جهة أخرى أضفت:

«رئيس البعثة يؤكد إطلاق النار بين الطرفين، في حين نحن دخلنا معًا حي بابا عمرو والجيش السوري يدكها بالقصف والرصاص من طرف واحد، فهل يمكن أن نعمل في مثل هذا المناخ؟».

وأيضًا: «في البداية صدمنا بأمر في غاية الأهمية، ويتعلق بحراستنا، فحسب البروتوكول أن الحكومة هي التي تتحملها، ولكن لما ذهبنا إلى حمص رفضوا مرافقتنا إلى حيّ بابا عمرو، وهنا وجدنا أنفسنا في مأزق: فإما أن نخرج عن البروتوكول، وهنا نتحمل المسؤولية لو يحدث لنا أي مكروه، أو نبقى في إطار البروتوكول، وفي هذه الحالة لا يمكننا أن نراقب أي بند من بنوده الأربعة».

لأعلق:

«يبدو أن البروتوكول حرّر في قاعة مكيّفة، لم تدرس أدنى شيء عن حقيقة الوضع القائم، الذي يؤكد وجود مناطق خارج سيطرة الحكومة، وهي المعنية أساسًا بعملنا».

وعاتبت رئيس البعثة أنه أعاد اجترار الكلام نفسه الذي قلناه البارحة، وكان من الأولى فتح المجال للذين عملوا في حمص لتقديم ملاحظاتهم للمراقبين الآخرين، الذين لم يخرجوا إلى الميدان بعد.

ونصحت المسؤولين في البعثة: أن يضعوا خطة عمل ميدانيًّا وإعلاميًّا، لأخاطب الدابي:

«التصريحات الإعلامية المرتجلة قد تضرّ بنا بوصفنا مراقبين في الميدان، لذلك أفضل أن تكون الأمور مضبوطة في هيئة تشرف وتتابع كل ذلك، أما الردود على الفضائيات عبر الهاتف ومن دون مناقشة ولا استشارة، فنحن من سندفع الثمن بالتأكيد؛ لأن الكل يريد منا ما يخدم أجندته، ونحن هنا لا أجندة لنا، سوى المراقبة بنزاهة وحق».

في أثناء مداخلتي لاحظت أن رئيس البعثة عاد مجدّدًا لما فعله مع المراقب المغربي، حيث لم يهتم بكلامي، بل انشغل بالتحدث مع العقيد أكرم مدير مكتبه، ولذلك أنهيت حديثي وأنا أخاطب الجنرال الدابي:

«على كل حال لقد بلغت، وشكرًا لمن استمع إليَّ، وشكرًا لك حتى أنت حضرة الفريق؛ لأنك لم تهتم بكلامي حتى بمجرد الاستماع، والأمر خطير يتعلق بمصير بشر، ولسنا هنا من أجل التسلية».

رفعت تصفيقات حارة ملأت القاعة، من قبل أغلب المراقبين، وخاصة البعثة الجزائرية والتونسية والمغربية، من صبّ حديثي في أقداحهم.

بعدها تدخل المراقب الأردني عاصم الربايعة، وبدوره وجّه نقدًا لاذعًا لطريقة عمل البعثة، التي ظهرت فيها الأمور غامضة، وإذ لا أحد يعرف حقيقة الدور المنوط به وكيفية العمل، وهدّد بالاستقالة من البعثة والعودة إلى بلاده

إن بقيت الأمور على ما هي عليه من عدم الوضوح والتذبذب وغياب كلي للإمكانيات.

ووصف بعض تصرفات الدابي بقلة الاحترام وتجاهله لكوادر البعثة، حيث تكررت مقاطعته لمراقب ما أمام مسؤولين حكوميين، وأحيانًا يتجاهلهم ولا يتحدث إليهم، ودخل في اجتماعات مع آخرين، وترك مرافقيه في الخارج من دون أدنى اعتذار لهم.

وطالب مراقب آخر بضرورة تمكين البعثة من شرائح هاتفية، فلا أحد يستطيع الذهاب إلى المحالّ التجارية، ومن الضروري جدًّا تمكين كل مراقب من رقم خاص يكون بحوزة غرفة العمليات بدمشق، ليسهل الاتصال في الحالات الضرورية والاستثنائية، وهذا الذي أيده الجميع، ووافق عليه رئيس البعثة والسفير سمير سيف اليزل.

في نهاية الاجتماع تم الاتفاق على العودة في صباح يوم الغد «الأربعاء ٢٠١١/١٢/٢٨» إلى حمص، وقد أضاف الدابي عناصر أخرى إلى جانب المجموعة التي عادت معه، ليلتحق بنا الأردني عاصم الربابعة وأيضًا الجزائري المقدم عاشور بوتوت والعراقي صلاح سعيد وثلاثة عناصر من البعثة السودانية.

وقد أخبرنا رئيس البعثة في نهاية الاجتماع أن لديه لقاءً في تلك الليلة مع وزير الخارجية السوري وليد المعلم، بعدما تحادث معه الأمين العام لجامعة الدول العربية، نبيل العربي، حول قضية قصف الأحياء في وجود المراقبين مثل ما جرى في حيّ بابا عمرو.

١٨

في حمص للمرة الثانية

عدت إلى غرفتي بعد نهاية الاجتماع مرهقًا لا أقوى على حمل أقدامي في أثناء المشــي، حيث خلدت إلى النوم مباشــرة، على أمل النهوض مبكرًا، لأجل يوم آخر في حمص، الذي كنت على يقين أنه ســيحمل مفاجآت جديدة تنســينا يومنا الأول الذي قضينا منه وقتًا حاسمًا في حيّ بابا عمرو.

لقد توسّــدت مخدتــي فاجتاحتني راحــة تامة، بعدما تحدثــت على مرأى المراقبيــن في مغالطات بدأت تطفو على ســطح البعثة، التي يراهن عليها لفك طلاســم أزمة بدت معقّدة، وكان يجب أن نبادر بكشفها، حتى يتم تداركها قبل فوات الأوان؛ لأن الأمر يتعلق بأرواح بشــر، ســواء من السوريين الذي يتعرضون للقتل أو حتى المراقبين الذين ربما سيتم استهدافهم.

وإن كانــت مشــاهد بابا عمرو لــم تهجر مخيلتي، وبكاء النســاء والأطفال وشــكاواهم لنا التي تزلزل الجبال، لم يهجر صوتهم مسمعي على الرغم التعب والإرهاق، ولا صــورهم قد غربت من بين رموشي، فالوضع بائس أكثر مما كنت أتخيــل، والحالــة خطيرة جدًّا أشــدّ مما كنا نراها عبر الفضــائيات من صــور وفيديوهات تتعلق بأخبار الثورة السورية.

يوم الأربعاء ٢٨/٠١/٢٠١١ اســتيقظت مبكرًا، حيث أديت صلاة الصبح، وبعدها قرأت شــيئًا مما تيسّــر من القرآن الكريم، وفي حدود الســاعة السابعة إلا الربــع نزلــت إلــى المطعم؛ حتــى أتناول فطوري الصــباحي، وقــد أعجبت

كثيرًا بالأطباق الســورية المكونة من الفلافل والزيتون المخلل والبيض والجبن الطبيعي بشــتى أنواعه... إلخ، حتى إن كانت شـهيتي ضـعيفة جدًّا بســبب تلك المشاهد المحزنة التي عايشتها.

بعد تناول وجبة الإفطار تجمعنا نحن المعنيين بالذهاب إلى حمص سواء من فوج أمس أو حتى الذين أضيفوا للقائمة مجددًا، وكالعادة امتطينا السيارات مع الحراســة الأمنية المشــددة، وقد كان سائق الســيارة غير الذي ذهب معنا أمس، وقد همست لي السيدة إلهام الشجني بأنه ضابط مخابرات، ولم تتح لي الفرصة أن أسألها، وإن كنت تعجبت من وجوده معنا، غير أن الأمر اعتقدت أنه يقتصر على توصيلنا إلى حمص فقط، ولا يمكن أن يذهب معنا إلى بابا عمرو.

طلبــت مني إلهام أن أبلــغ رفاقنا بالأمر؛ حتى يحترســوا من الحديث في الطريق، ولذلك كتبت على ورقة «الســائق ضابط مخابرات»، وأعطيتها للمقدم عاشور وللآخرين؛ حتى ينتبهوا.

كان الرجــل يلبس ثيابًا راقية ونظارات غالية الثمن، ولهذا ظهر لي بالفعل أنه ضــابط ســامٍ، لذلك ســألته أن نتعرف عليه، فقدم نفســه باســم: «مدين»، ولكن كان يتحدث بعجرفة غريبة، وقد كاد يشتبك مع غالب صالح رئيس مكتب مقاطعة دمشــق للجامعة العربية، وذلك عندمــا طلب منه ألا يتحرك حتى يأتي بقية المراقبين، فردّ عليه بخشونة.

تأكــدت من خلال كلامــه معنا أنه ضــابط، ولديه خلفية ســيئة تجاهنا، وخاصــة أن العقيد أكرم طلب منه أن يخفض من صــوت المذياع، فلم يستجب، فقام أكرم بغلقه، وهذا الذي لم يرق للســائق مديــن، وأظهر انزعاجه من دون أن يعبّر عن ذلك.

سألته: أنت مدني أم عسكري؟

استدار نحوي قائلًا: «وهل هذا يهم في الأمر؟».

أجبته: «أكيد يهمنا ذلك».

سألني: «كيف؟».

أجبته: «من حقنا أن نعرف من الشخص الذي يرافقنا في مهمتنا».

فقال لي: «لا... ليس من حقك».

رددت عليه بصوت عالٍ: «بل من حقنا، وإن لم أعرف هويتك لن تذهب معنا».

أحسّ أن كلامي في غاية الجدية، لذلك أجاب بهدوء:

«على كل حال أنا مدين، وأعمل سائقًا في الوكالة التي استأجرتم منها السيارات».

لم أهضم كلامه، فقلت له: «لباسك الغالي الثمن لا يوحي بأنك مجرد سائق يا سيد مدين».

ردّ عليَّ: «هذا تحقيق؟!».

فقلت له بكل جديّة وصرامة مرة أخرى: «يجب أن نعرف من يرافقنا، وإلا فسأرفض الذهاب إلى حمص».

فقال لي، وقد لان صوته بعض الشيء: «تأكد أنني مدني، واللباس الذي تراه غالي الثمن هدية من أخي المقيم في الخارج».

فقلت له: «والنظارات التي تساوي الكثير».

فقال: «كل شيء هدية من أخي، وهل حرام هذا؟».

لم أرد عليه إلا بالقول: «نصبر، وأكيد سنعرف الحقيقة اليومَ أو غدًا».

توجهنا إلى محلّ إقامة الجنرال الدابي بوسط مدينة دمشق، غير أننا هذه المرة لم ننزل من السيارات، فقد خرج إلينا الدابي مباشرة؛ لأنه كان في انتظارنا، وامتطى السيارة التي كنت فيها برفقة السيدة إلهام الشجني، والمقدم خالد الربيعان، والمقدم عاشور بوتوت، والعقيد أكرم.

ركب الدابي في المقعد نفسه، الذي كان يجلس عليه أمس، لم يلقِ علينا حتى السلام ولا أدنى تحيّة، فتعجبت من سلوكه، فبادرته قائلًا: «يظهر أنك خاصمتنا يا سيادة الفريق».

فاستدار نحوي، حيث كنت أجلس في المقعد الذي خلفه مباشرة، ومن دون أن ينتبه، وسألني: «لماذا؟».

أجبته: «لم نسمع منك لا سلامًا ولا تحية».

ردّ بلهجة الاعتذار: «والله آسف جدًّا دماغي كان منشغلًا... آسف».

قبل مغادرتنا نادى رئيس البعثة على العقيد أكرم، وسأله عن مراقب سوداني معنا، فأخبره بأنه في السيارة الأخرى التي خلفنا، فالتفت نحونا وطلب منا أن ينزل أحدنا من السيارة ويركب الأخرى، وكان موقفه مزعجًا للغاية، وخاصة أمام السائق والحراسة التي ترافقنا. بل ذهب إلى أبعد من ذلك، وطلب مني أنا النزول من السيارة وركوب الأخرى.

لم أستسغ تصرفه، فسألته: «لماذا؟».

أجاب: «وإن كان لا يجوز هذا السؤال، إلا أنني أخبركم بأنه يوجد سوداني في السيارة الأخرى أريده أن يكون معي».

سألته: «هل أنت من تحتاج إليه أو هو من يحتاج إليك؟».

أجاب: «أنا من أحتاج إليه في أمر مهم، وللمرة الأخرى لا أقبل مثل هذه الأسئلة».

فقلت له: «مادمت أنت من تريده، فاذهب واركب معه في سيارته، التي هي السيارة نفسها، ولا يليق أن تنزل أحدنا من السيارة لتأتي بمراقب آخر».

فرد عليّ بانزعاج: «أنا صاحب القرار هنا، وما أقوله يجب أن ينفّذ».

فقاطعته: «لسنا في ثكنة عسكرية يا سيادة الجنرال، حتى تتعامل معنا بهذه الطريقة».

فزاد إصراره: «أريد المراقب السوداني معي، ولا داعي لمثل هذا النقاش الفارغ».

رددت عليه بالقول: «مادمت أنت الذي تريده، فيمكن أن تذهب وتركب معه؛ لأن السيارات من النوع نفسه، ومن غير اللائق أن ننزل ليركب معك ابن بلدك تحتاجه في أمر ربما شخصي».

لم يعجب الدابي كلامي، واعتبره غير لبق، ولكنني في نفسي رأيت ذلك أحسن رد عليه، وخاصة أنه أظهر تعامله مع السودانيين فقط منذ وصولهم، وعمل على تقريبهم منه، وتكليفهم بكل الأمور، ومشاورتهم، في حين يستبعد الآخرين.

طريقنا إلى حمص لم يكن مثل أمس، فقد كان الدابي لا يتحدث معنا، فلم يعجبه أصلًا ما قلته له، فضلًا عن أنه انشغل مع السيدة إلهام، التي كانت تركب بجانبه، وقد حضّرت ملفات بها ملاحظات حول زيارة أمس، وقد تسلل لسمعي بعض منها، وفيه إدانة للمعارضة والتشكيك في كل شيء يأتي منها، وهناك جوانب أخرى تتعلق بألاعيب النظام السوري، التي اكتشفتها السيدة

إلهام، حيث وضعت ما يشبه التعليمات حول طريقة العمل والتأكد من هويات الأشخاص والشوارع. وأحيانًا تهمس له في أذنيه وهو كذلك ولا أسمع غير القهقهات، وإن كان ذلك لم يعجبني، إلا أنني بررته بوجود سائق مشكوك فيه أنه ضابط مخابرات.

كانت الاتصالات من وسائل الإعلام بالدابي لم تتوقف، فيوجد من لم يتم الردّ عليهم أصلًا، وآخرون طلب منهم العقيد أكرم أن يعيدوا الاتصال لاحقًا بعد نهاية مهمته في حمص، ويوجد من أخبرهم رئيس البعثة بنفسه: أنه لا يزال في الطريق ولم يصل بعد، وعندما ينهي جولته سيتحدث إليهم.

وصلنا قصر المحافظة، حيث وجدنا المحافظ في انتظارنا برفقة مسؤولين آخرين من دمشق، بينهم من هم إطارات في المخابرات وآخرون في الخارجية، لم أهتم بأمرهم ولا سجلت أسماءهم. لكن في هذه المرة دخل الجنرال الدابي وحده إلى مكتب المحافظ، في حين بقينا نحن في انتظاره ببهو القصر، وقد وصف بعض المراقبين تصرفه بغير اللائق وعدم الاحترام، وخاصة المراقب الأردني الذي سبق أن انتقد هذا الفعل في دمشق، حيث إن رئيس البعثة تركنا دون أن يستأذن، وتمّ إغلاق الباب في وجوهنا باجتماع سري مع المحافظ غسان عبد العال، وهو أمر لا يليق بالبعثة المكونة من إطارات عسكرية ودبلوماسية وحقوقية بارزة ومعروفة.

بقينا ننتظر خروج رئيس البعثة الفريق أول الركن مصطفى الدابي من اجتماعه المغلق مع محافظ حمص غسان عبد العال، وفي تلك الأثناء وصل رفاقنا الذين قضوا ليلتهم بحمص، فسلموا علينا ورحت أتحدث مع العقيد البخاري، الذي وصف ليلتهم بالجيدة، غير أن صوت الرصاص لم يتوقف إطلاقًا، وأحيانًا كانوا يسمعون أصوات مدفعية ثقيلة غير بعيدة من محلّ إقامتهم، ويعتقد أنها كانت تستهدف حيّ بابا عمرو.

بعد نحو أربعين دقيقة من الاجتماع المغلق الذي لا نعلم ما دار فيه بين المحافظ ورئيس البعثة، ولا ندري سبب الانفراد الذي ما توقعه أحد من المراقبين، خرج إلينا الجنرال الدابي برفقة محافظ حمص وعقيد في الجيش ومسؤول آخر من الخارجية، وأخبرنا أننا سننطلق مجددًا إلى بابا عمرو، في حين الفوج الثاني سيتوجه نحو باب السباع مباشرة.

التف من حولنا صحفيون يعملون لمصلحة قنوات رسمية، بينها فضائية (الدنيا) التي يملكها رامي مخلوف، ومراسلة الإخبارية السورية، ومراسل القناة السورية الأولى، وأيضًا صحفية من وكالة الأنباء الرسمية (سانا) وصحفيون آخرون من جرائد محلية بينها (الوطن) و(الثورة)، ولم نشاهد أي وسيلة إعلام أجنبية، على الرغم من أن البروتوكول الموقع بين الجامعة العربية والحكومة السورية أقرّ بذلك.

أجاب رئيس البعثة الدابي عن أسئلتهم، التي كانت كلها مركزة حول أمر واحد يتعلق بالمسلحين، فكلهم يسألونه بصوت عالٍ: «هل رأيت المسلحين بعينيك؟».

وقد أجاب الدابي: «يعني... عدد بسيط شفته».

ليؤكد: «أنهم قدموا لنا وثائق هوياتهم العسكرية».

وسألته أيضًا إحدى الصحفيات: «هل أخذتم لوائح بأسماء الشهداء والمخطوفين والمفقودين؟».

قال وهو يهمّ بركوب السيارة التي ركبتها قبله بلحظات: «نحن بدأنا أول يوم البارحة».

ورد على تساؤل الصحفية نفسها، التي قالت: «ما طلبتم ذلك؟».

أجابها: «مطلوب كله، وفيه تعاون لتوصيل هذه المعلومات من الأطراف كلها».

وكان الكل يريد أن يأخذ منه ما يدعم أطروحة النظام، وقد تلقفوا جملته «يعني... عدد بسيط شفته» في حين لم يبثّ بقية كلامه: «أنهم قدموا لنا وثائق هوياتهم العسكرية»، وحذفت جملة «من الأطراف كلها» من جوابه الآخر.

لا تخلو نشرة أو تقرير إلا وأعيد بثّ تلك الكلمات، وخاصة أن النظام عمل منذ اللحظة الأولى لوصولنا على إقناعنا نحن، وبعدها عبرنا كي نغدو شهودًا لمصلحته، من أن الأمر لا يتعلق إلا بمواجهة بين الدولة و(جماعات إرهابية مسلحة)، ولا يوجد مطلقًا على أرض الواقع ما تروج له الفضائيات العربية والدولية من إبادة للشعب، وقتل للمدنيين، وقصف للأحياء، وتعذيب بشع للمعتقلين، واختطاف المواطنين... إلخ.

لقد حاول الصحفيون التحدث إلينا، إلا أننا رفضنا التصريح لهم، بناء على التعليمات والقسم الذي أديناه، وأخبرناهم أن الوحيد المخول بالتحدث لوسائل الإعلام باسم البعثة هو رئيسها، الفريق أول الركن محمد أحمد مصطفى الدابي فقط.

بعدها امتطينا السيارات، وقد كنت مع الدابي وإلهام الشجني ومراقب سوداني والمقدم عاشور والعقيد أكرم، أما المجموعة الأخرى فتوجهت إلى باب السباع لاستطلاع الأمر، وخاصة أن المسؤولين في البعثة تلقوا نداءات استغاثة من مواطنين هناك، يقولون: إنهم يتعرضون للقتل من قبل قناصة النظام المتمركزين فوق أسطح عمارات وبيوت هجروا منها أهلها.

الجنرال الدابي يعاين آثار القذائف في حيّ باباعمرو

يوم دموي في حيّ بابا عمرو

أجرى الفريق أول الركن مصـــطفى الدابي اتصــالات عدة مع أطراف في المعارضــة، وقد جرى ربطنا مع أحد النشــطاء في مجال حقوق الإنسان، ووعد بمرافقتنا من أجل المساعدة، وتم الاتفاق على اللقاء في مدخل حيّ الإنشاءات، حيث كان ينتظرنا.

بعد نحو عشرين دقيقة، ومثل المرة الماضية، وعلى الطريقة نفسها، توجهنا إلى غايتنا، وكالعادة توقفت سيارات الحراسة المرافقة لنا في حاجز شارع البرازيل التابــع للجيش النظامــي، أما نحن فأكملنا طريقنا مــن دون حماية الحكومة، وفي منتصــف هذا الشارع الكبير، وبأحد الشــوارع الفرعية استدرنا يمينًا، عبر مخرج يؤدي إلى حي الإنشــاءات، وبه وجدنا الناشــط الحقوقي في انتظارنا، امتطى معنا ســيارتنا، ثم انطلقنا نحو بابا عمرو، وراح يخبرنا أن القَنّاصــة على أسطح البيوت المطلة على الشوارع التي نمر بها، وحاولت شخصيًّا أن أرمق أحدهم فلم أتمكن.

الشــيء الذي تغير هذه المرة عن زيارة أمس، أن الســائق مدين صمم أن يدخــل معنا إلى الحي، عكس الســائق الأول الذي بمجــرد ما أخبرنا الأهالي ألا ندخل إلا نحن، أعضاء البعثة، مكث في سيارته من دون أن يطلب شيئًا منّا، ولا من الناشطين في الحيّ، بل ظهرت عليه السعادة التامة لذلك القرار.

وصــلنا إلى مدخل الحيّ، حيث مركز مراقبة تابــع للجيش الحر، فيه نحو عشــرة مســلحين وآخرين من الناشــطين المدنيين، وكنا حينها في سيارتين،

وليس واحدة مثل المرة السابقة. اقترب منا المسلحون، وهجم علينا المواطنون الذين كانوا يصـرخون في وجوهنا، بسبب ما تعرضوا له في الليلة الماضية من قصـف عنيف وقنص، أدى إلى سـقوط أكثر من عشرة مواطنين كما أخبرونا، وراحوا يلحّون علينا أن نذهب معهم، لرؤية الجثث بالمشفى الميداني.

أحد ضـباط الجيش الحر طلب من السـائق مدين أن ينزل من السـيارة، إلا أن الدابـي رفض ذلك، وأمره بإغلاق بابه، وهناك استشـاطوا غضـبًا منا، وهم يصـرخون فينا: إن السـائق سوري وينتمي للمخابرات، غير أن الدابي راح يتحـدث إليهم، ويعلمهم أن الرجل سـائق يشـتغل في وكالة خاصـة، ولا علاقة له بالمخابرات ولا بالجيش. وسـمعت بعضـهم يعبر عن غضبه من تصريحات الدابـي، التـي تناقلتها الفضـائيات من أن الوضـع في حمص هـادئ ولا يدعو للقلق، وبينهم من اتهموه بالتواطؤ مع النظام الذي يقتلهم.

المواطنون اندفعوا يريدون إجبار المدعو مدين على النزول من السـيارة بالقوة، الدابي وإلهام وعاشور والعبد الضعيف والناشط الحقوقي الذي يرافقنا، رحنا نترجاهم بصوت واحد: ألاَّ يفعلوا شيئًا، ولا يظلموا الرجل الذي هو مجرّد سائق مدني، غير أن إصرارهم صعّد الأمور، وجعل السائق يرتعش وتظهر عليه علامات الخوف، ووجهه احمرّ، وصار لا يقوى على التحدث بكلمة واحدة.

ظل إصـرارهم على إنزاله هو سـيد الموقف، وعندما لم نجد حلاًّ لإنقاذه من أي مكروه قد يتعرض له في حال تمكنهم منه، أمره الدابي أن يعيد السيارة إلى الخلف حتى ننسحب من المكان، ماداموا قد رفضوا دخولنا للحيّ، وأخبرهم رئيس البعثة أننا سنعود للمحافظة، ونأتي من دون سائق أو أي مرافق سوري.

وكأنه لم يصدّق نجاته، اندفع بالسيارة راجعًا، فارتطم بالسيارة الأخرى، التي كانت تقف وراءنا، وقام بعض الأطفال برمينا بالحجارة والفضـلات، وهم

يصـــرخون فينا بالسب والشتم، لأننا صرنا مخترقين من طرف مخابرات بشار الأسد، الذي وصفوه بشتّى النعوت.

بعد صـعوبات كبيرة حقيقية، وقد تخوفنا من التعرض لإطلاق الرصـاص بسبب ذلك السائق، بل بينهم من يرانا متواطئين مع النظام؛ لأننا حاولنا إدخال ضـباط مخابرات للحيّ، الذي يعاني حصارًا فظيعًا وقصـفًا وقنصًا متواصلًا، نجحنا في مغادرة المكان، وقد كان السـائق يرتعش، ولم يتمكن من السـيطرة على السـيارة أو على نفسه، فقد تبوّل في مكانه، وبعدما غادرنا حيّ بابا عمرو، ووصلنا إلى الحاجز العسكري، قلت للدابي:

«هذا خطأ كبير وقعنا فيه، فلا يعقل أن نحاول الدخول للحيّ ومعنا ضابط مخابرات».

فردّ الدابي، وقد اكفهر وجهه مما حدث: «لم نكن نعرف».

فقلت له: «السيدة إلهام تعرف، وأخبرتنا».

فـردت إلهـام قائلة: «كان مجرد شـك منـي، وليس بناء علـى معلومات، والخطأ كبير عندما خدعنا بهذه الطريقة».

السـائق كان لا يـزال تحت وقع الصـدمة، فسـألته: «لمـاذا كذبت علينا: وقلت: إنك مدني؟».

فأجاب بصـوت منكسـر غير لهجـة العنجهية، التـي كان يتحدث بها في دمشق: «حقيقة أنا مقدم في الفرقة الرابعة، وجئت معكم لأجل سلامتكم».

فقال له الدابي: «من المفروض أن نكون على علم بذلك، فقد كدت تموت، ونصبح نحن في ورطة كبيرة».

الغريب في الأمر أن السائق أعطيت له سترة الجامعة وقبعة بطاقة علقها في صدره، لا ندري من أعطاها له، عكس السائق الذي رافقنا أمس، بقي في زيّه المدني، لذلك سألت الدابي:

«من أعطاه سترة المراقبين والقبعة حتى يخادع سكان الحي؟».

فسكت الجميع من دون ردّ، فتأكدت أن جهة ما متواطئة في محاولة إدخال ضابط للحيّ، ربما كان مجهزًا بمعدات إلكترونية وكاميرات سرية.

لذلك سألت الضابط: «كيف غامرت هذه المغامرة من دون حساب للعواقب؟».

أجاب: «ما ظننت أنهم سيتعرفون عليّ، ولقد سألت البارحة، وأخبروني أنهم لا يطلبون هوية أي مراقب».

فقاطعته: «من سألت؟».

أجاب: «أحد المراقبين».

فاستدرت نحو الدابي، وقلت له: «يجب التحدث في الأمر، فلا يجوز مطلقًا للمراقبين أن يتحدثوا عن أمور العمل إلا إليكم فقط؛ لأن ذلك قد يضر بنا أو يعرض الآخرين لأشياء غير محمودة».

ونحن نقترب من قصر المحافظة، توزعت فجأة بملامح الضابط مدين مسحة من الغضب، الذي دفن كل الخوف الذي سكنه من قبل، وقال بصوت عالٍ:

«من واجبي أن أستغل أي فرصة ووسيلة تدخلني هذا الحيّ، ولا أحد له الحق في محاسبتي».

الضابط مدين لحظة مغادرة باباعمرو (الصورة من فيديو بثه الناشطون).

فقلت له: «ليس على حساب مهمتنا النبيلة، كن رجلًا، واستغلّ فرصًا أخرى».

فردّ عليَّ: «أنا رجل أساوي آلاف الرجال».

فقلت له: «لهذا كنت ترتجف، وترتعش من الجبن، وتبولت على نفسك، دعك من العنتريات الفارغة».

فتدخّل الدابي: «خلاص سنعالج الأمر مع المسؤولين».

عدنا على جناح السرعة إلى قصر المحافظ، حيث وجدناه عند البوابة في انتظارنا، وعندما وصلنا قمنا بالاحتجاج لديه على مخادعتنا بسائق هو في الأصل ضابط، وكدنا نجد أنفسنا في موقف يخلط علينا كل الأوراق.

غير أن المحافظ فاجأنا بقوله: «المسؤولون عندكم يعلمون هويته الحقيقية».

ليردف: «حصل خير».

فالتفت للجنرال الدابي قائلاً: «هل كنت تعلم سيادة الفريق وأنت المسؤول الوحيد؟».

فـردّ بجواب يدينه، ويناقض كلامه السـابق، زاد في تعقيد الأمور لدينا: «هذا الأمر لا يهم الآن، الحمد لله تمكنا من إنقاذه».

فقـال أحد المراقبين: «لكن سـيادة الفريق، هذا يفقدنا المصـداقية مع المعارضة».

أضفت أنا: «ولم تخبرنا أنك كنت تعلم هويته الحقيقية».

فأجاب الدابي: «هذا الأمر لا يعنيكم، سننظر فيه لاحقًا».

فقلت له: «كيف لا يعنينا، ونحن من سنكون في الميدان؟».

تجاهل الدابي كلامي، وأدركت أنه لا يريد تصـعيد الأمور، وخاصـة أمام المحافظ والمسـؤولين الحكوميين وضـباط المخابرات، ففضلت الصمت إلى أن تحين فرصـة أخرى، نتمكن فيها من طرح هذه المشـكلة الخطيرة، التي قد تعرضنا إلى مواقف غير لائقة في أثناء أداء مهمتنا، وخاصة أننا في حاجة إلى كسب الثقة من الطرفين.

رئيس البعثة الفريق أول الركن مصـطفى الدابّي، أمر المراقبين بركوب السيارات، وكلف أحد السودانيين بقيادة السيارة بدل المقدم مدين، وقد فوجئ ببلل في المقعد، اضطر إلى أن يضع فراشًا عليه؛ حتى لا تبتل سراويله أيضًا.

تركـت المجموعة وتقدمت نحو المقدم مدين، الذي كان يقف مذهولًا من أثر الصـدمة، على الرغم من محاولته الظهـور عكس ذلك، بالقرب من إحدى سـيارات البعثة، وقد ظلّ صـامتًا لا ينطق ببنت شـفة، وبلهجة الآمر طلبت منه تسـليمي السـترة البرتقالية والقبعـة والبطاقة، فنفـذ الأمـر دون أدنى تردّد، تسلمت منه العهدة، ووضـعتها في محفظتي، فقد كنت أخشى استغلالها لاحقًا فـي أمور أخرى. والأمر نفسـه فعلته مع السـائق الثاني، الذي لـم يتعرض لأي

مضـايقات، غيـر أن الدابـي رأى مـن الضـروري ألا يذهب معنـا، تفاديًا لأي تطورات غير محسـوبة العواقب، وخاصـة أن المحافظ غسان عبدالعال أخبرنا بأن الفضائيات العالمية تناولت الحادثة، وضخّمتها كثيرًا على حدّ تعبيره.

انطلقنا مجددًا نحو حيّ بابا عمرو، وقد كنت غاضـبًا مما حدث؛ لأنه غير مقبول مهنيًّا أصلاً، وبلا شك سيكون له تأثيره البالغ على صورتنا وقيمتنا لدى الأحيـاء الثائرة، وهو الذي وافقني عليه الزملاء والجنرال الدابي نفسـه، على الرغم من رفضـه التعليـق على ما باح به المحافظ حول علم المسـؤولين هوية الضـابط مديـن، إلا أنه اعتبر ذلك خطأً كبيرًا، ولكن أكّد لنا أنه سـيتم تفادي مثل هذه الأخطاء مسـتقبلاً، لكنني كنت ملحًّا علـى معرفة الجهة التي تورطت في دسّ ضـابط بيننا، على أساس أنه سائق، فأخبرنا الدابي أن الوقت لا يكفي حتى نحقق في هوية السائقين، واعدًا أن السيارات الرسمية ستصل قريبًا، ولن نكون في حاجة إلى وكالات الكراء، ولا سائقين أجانب عن البعثة.

وصلنا إلى المكان نفسه الذي كنّا فيه بمدخل الحيّ، حيث تتمركز عناصر الجيش الحر بحاجز مراقبة، وقبل نزولنا من السيارة التفوا حولنا للتدقيق من هويتنا، ولم يطلبوا أي وثيقة من المراقبين، غير أن أحد عناصـر الجيش الحرّ ويدعى «أبو أحمد صبوح» شك في شخصي، فأخبر الدابي بأنهم يريدون التأكد من هويتي، فقلت لهم: «البارحة كنت هنا في الحيّ».

إلا أن أحدهـم رأيتـه لأول مرة، صـمم علـى الأمر، فقدمت جواز سـفري للدابـي، الذي رفض أن يسـلمه لـه، وجعله يراه من زجـاج النافذة فقط من دون أن يمسـكه بيديـه، وفي تلك الأثنـاء تدخل أسـامة إدريس، وأكّد لصـاحبه أنني اشتغلت البارحة معهم، وأنني جزائري، فاعتذر لي «أبوأحمد» على موقفه، مبررًا ذلك بحرصـهم على حياتهم وحياة الناس الذين يحمونهم من تسلل المخابرات للإضرار بهم، ثم نزلنا من السيارة ليحيط بنا الأهالي الذين كانوا في انتظارنا.

الملازم الأول مهند الخطيب والمكنى «أبوبكر»، هو أحد ضباط الجيش الحر، أخبرنا أنه يوجد بينهم من كان يعمل في الوحدة نفسها مع السائق السوري المزعوم، وقد كان الضابط مهنّد في يده قصاصة ورقية صغيرة، فيها كل المعلومات الشخصية عن مرافقنا السابق، الذي تخفّى تحت قناع سائق مدني، وأخبرنا أن الأمر يتعلق بالمقدم مدين بدّة من الفوج ٥٥٥ التابع للفرقة الرابعة التي يقودها ماهر الأسد، وقد كان مدين يشرف مباشرة على العمليات التي استهدفت حمص عمومًا وبابا عمرو بصفة خاصة.

حقيقة تعجّبت من مغامرة ذلك الضابط، التي كادت تودي بحياته أو تعرضه لمكروه، ولكن سجلت نقطة خطيرة في إطار مهمتنا، تؤكد بما لا يدع مجالًا للشكّ: أن النظام السوري يريد استغلال البعثة لتحقيق أهدافه فقط، ومن بينها اختراقنا لأجل دخول الأحياء والاطلاع على الأوضاع وتجميع المعلومات عن مواقع عناصر الجيش الحر وهويات الناشطين وخاصة المصورين، ممن يتكفلون بنشر فيديوهات وصور الأحداث وتوثيقها عبر القنوات الدولية وشبكة الإنترنت.

حضر الناشط خالد أبوصلاح، ومعه رفاقه من المركز الإعلامي في بابا عمرو، وقد نقل للدابي احتجاج الأهالي على محاولة تسلل الضابط عبر البعثة، واستنكروا تصريحاته الصحفية عن الوضع في حمص، وقد ردّ عليه رئيس البعثة أن كلامه أخرج من سياقه، حيث سئل عن الصعوبات التي نكون قد تلقيناها في الحي من قبل المعارضة، لم تعجبني مراوغة الدابي، التي لا تبشر بالنزاهة في التعامل مع الموقف.

طالبه ناشط آخر بضرورة التوضيح؛ لأن ذلك أزعج المواطنين كثيرًا، وقد يدفعهم إلى اتخاذ قرارهم بعدم التعامل مع بعثة مراقبي الجامعة العربية مستقبلًا، ووعدهم الجنرال محمد الدابي بالنظر في ذلك.

شرعنا في التوغّل داخل الحيّ، وفي شوارع أخرى لم نَرَها من قبل، حيث التقينا عزاء أسرة فقدت ابنها، وقد تقدمنا من الأب الذي كان موظفًا ساميًا في الدولة وأحيل إلى التقاعد، وقد قتل ابنه على يد أحد القناصة، وكان الجوّ مهيبًا بالفعل، فلم نَرَ بيتًا لم تطله قذيفة أو رصاصة.

بعدها توجهنا إلى البيوت التي بالقرب من حاجز المؤسسة الاستهلاكية الغذائية. حيث دخلنا مسجد عمرو بن معدي كرب الزبيدي، الذي يقع بمحاذاة المؤسسة من الجهة الخلفية، وجدناه قد تم تدميره وتخريبه من الخارج، حيث تظهر آثار القذائف التي كسرت الجدران والمئذنة.

دخلت المسجد من جدار مهدم تمامًا، حيث دمرته قذائف ضخمة، وكنت برفقة المراقب الجزائري المقدم عاشور، وقمنا بتصوير مشاهد من قلب المسجد لمصلحة الجامعة العربية، والغريب العجيب أننا وجدنا آثار الرصاص ليس على جدرانه الخارجية، بل في الداخل أيضًا، حيث تم تدمير المحراب والمنبر، وآثار الرصاص على خزائن الكتب والمصاحف، التي تعرضت لما يمكن تسميته بالإعدام الميداني للمصحف الشريف، ورأيت آثار الدماء التي تجلّطت وصارت سوداء على الجدران الداخلية، وعلى بعض السجاجيد الممزقة، وأخرى محروقة تحولت إلى رماد.

علمنا من الناشطين أنه تم اقتحامه من قبل الدبابات في أول عملية ضد بابا عمرو، ما يوحي بأن عملية التدمير لها دلالاتها العقدية الخاصة لدى الجيش النظامي بالنظر إلى تسمية الجامع والحيّ. فالتسمية تعود إلى الصحابي الجليل عمرو بن معدي كرب الزبيدي، الذي سمّي عليه حيّ بابا عمرو، وهو فارس شجاع شارك في معارك كثيرة عبر التاريخ الإسلامي: كالقادسية واليرموك، وشارك في فتح الشام والعراق، وكان سيفه يسمى الصمصامة، يعتقد أنه موجود في حيّ بابا عمرو.

وقد كشف ذلك الدمار عن الانتقام من الجامع لدلالته التاريخية والعقدية للأهالي، الذين ينتمون للطائفة السنّية، والحيّ أيضًا الذي تسمى به، ويستلهم الثوار منه الكثير، وخاصة أن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قبيل معركة القادسية: «إني أمددتك بألفي رجل»، وذلك ردًّا على طلبه بإمداده بمقاتلين، فأرسل له كلًّا من عمرو بن معدي كرب الزبيدي وطليحة بن خويلد.

ما لفت انتباهي أنه لم أَرَ قطًّا ولا كلبًا يتردد على أكوام الزبالة، التي تملأ شوارع بابا عمرو، فسألت أحد الناشطين عن ذلك، فقال لي: «القناصة يطلقون النار عليها، فمن نجا من الموت هرب إلى خارج المدينة».

فقلت في قرارة نفسي: إن الحيّ الذي هجرته حتى الحيوانات الضالة خوفًا على حياتها، لا يمكن أن يعيش فيه بنو البشر أبدًا.

بعدها مشيت أنا والدابي وعاشور وإلهام وأكرم في شارع يتوجّه نحو ملعب الباسل، في حين يوجد مراقبون آخرون ذهبوا في وجهة أخرى ببابا عمرو، وفي تلك الأثناء نسمع صوت رصاص، يضرب أحيانًا بالقرب منا، غير أن المدفعية الثقيلة لم تحدث مثل ما جرى أمس، فيبدو أن المسؤولين أمروا بوقف ذلك تفاديًا للمواجهة مع الجامعة العربية، وخاصة أن الدابي أخبرنا أن الأمين العام للجامعة العربية نبيل العربي تحدث مع وزير الخارجية وليد المعلم في شأن القصف الذي حدث على بابا عمرو، وبحضورنا في زيارتنا الأولى أمس.

الطريق كان مدمرًا، وآثار التفجيرات والقذائف والرصاص في كل مكان، أما البيوت فقد تحولت إلى خراب، كنا نمشي ونتفادى القذائف وآثار الدماء التي تملأ الشارع، لقد كان المشهد مرعبًا جدًّا، وكأننا نمشي في مدينة طالها زلزال عنيف.

كان الناشطون يتبعون أثرنا، ونحن نترجاهم بالعودة من حيث أتوا، ولذلك تكفل خالد أبوصلاح وأسامة إدريس ورفاقهم بإعادة الأهالي؛ حتى لا يتعرضوا لمكروه، لما بدأنا نقترب من جهة الملعب تلقينا طلقات نارية بينها التي مرت فوق رؤوسنا، وقد كان رئيس البعثة يشجعنا على ألا نخاف؛ لأن الذين يطلقون النار يودّون تخويفنا فقط، وثنينا على الاقتراب من منطقة محرمة ولا يودوننا الاطلاع عليها.

وصلنا إحدى العمارات التي جدرانها كلها مثقوبة بالرصاص، وعليها آثار القذائف الثقيلة، وإذا بنا نفاجأ بشخص يحمل في يده كيسًا به بعض المقتنيات، سلّم علينا، وبادلناه التحية والسلام.

بادره الدابي بالسؤال: «كيف أحوالكم؟».

أجاب: «والله بخير الأمور جيدة».

سأله: «أنت من سكان هذا الحيّ؟».

أجابه: «نعم».

ثم أشار إلى العمارة التي نقف بجانبها، وأضاف قائلًا: «بيتي وأسرتي هنا».

فسألته: «كيف بقيتم هنا، والوضع كما نرى آثاره، هو سيئ للغاية».

فرد عليّ ضاحكًا: «الوضع ممتاز، ولا يوجد أي شيء».

الغريب أن الرجل يتحدث والعمارة التي يقول: إنه يسكنها لا توجد أي علامات تبين أنه يوجد بها سكان، وعلى جدرانها آثار الرصاص، بل الأظرف الفارغة لمختلف الأسلحة، وشظايا قنابل، تملأ الأرضية التي حولها، وصرنا نتفاداها كمن يتنقل بين حقول الألغام.

سألته: «هل يوجد هنا فرع للأمن السياسي؟».

فرد مباشرة وبلهجة من هو في وضع اتهام: «لا يوجد. من قال لكم ذلك؟».

فقلت له: «المعلومات التي عندنا أن فرعًا للأمن السياسي يتمركز في الملعب».

وقد كانت بوابة الملعب تبعد عنا نحو ١٠٠ متر فقط، وبوابته الرئيسة في الشارع نفسه، ولكنها موصدة بإحكام، ولا توجد أي دلائل يمكن أن نراها من تلك المسافة تشير إلى وجود جهات أمنية داخله.

فأكّد الرجل قائلًا: «أنا أسكن في هذا البيت منذ سنوات، ولا يوجد أي فرع للأمن هنا».

الغريب قوله: إنه يسكن في بيته منذ سنوات، والعمارة على ما يبدو حديثة، ولم يتم طلاؤها بعد.

طلب منا أن نصعد معه إلى بيته لتناول الغداء أو الشاي، إلا أن رئيس البعثة مصطفى الدابي رفض، وودّعه قائلًا له:

«شكرًا لك، ولكن لدينا أعمال تنتظرنا».

أما أنا فهممت أن أصعد معه؛ للتأكد من تلك الادعاءات والتمثيليات، لكن رئيسنا رفض ذلك، ولما غادرناه التفت إلينا الدابي، وقال:

«هذا شخص من فرع الأمن السياسي يريد مغالطتنا فقط».

ثم أردف: «لا يهمنا أمره مطلقًا».

فقلت له: «يجب التأكد من أمر القناصة، الذين ينتمون للأمن السياسي».

فقال: «سنرى ذلك لاحقًا».

لم نبتعد كثيرًا عن صاحبنا الأول، وإذا بشخص ثانٍ يتوقف بسيارته قبالة عمارة أخرى، فسلمنا عليه دون أن نتوقف عنده، فقد ظهر من متابعته لنا أنه مجرد موظف في الأمن السياسي ممن يتابعون خطواتنا، فالمكان الذي نحن فيه (حي الملعب) حسبما أخبرنا به الناشطون، مسيطر عليه من قبل القناصة ومحمي، لا يطاوله عناصر الجيش الحرّ، ولذلك نجد الموالين للنظام يتحركون من دون أدنى حرج أو خوف.

بعدها مررنا بجانب مبنى، يبدو أنه كان عبارة عن مشفى، حيث لاحظنا سيارات إسعاف محروقة وأخرى متفجرة، ثم تقدمنا إلى الجهة الموالية، حيث حقول فيها أشجار لا يمكن أن ندخلها، وقد أخبرنا مواطنون من بابا عمرو: أنه يتمركز بها عناصر الجيش النظامي، ومنها يطلقون القذائف على المدنيين.

عند عودتنا رأيت في عمارة قبالتنا وجود أشخاص مسلحين في سطحها، فأخبرت رئيس البعثة مصطفى الدابي بذلك، فقال لي: «أكيد هم قناصة»، والغريب أنه بعد لحظات وفي الطابق السفلي بدأ يطل علينا من باب العمارة عسكريون مسلحون، ويلبسون الزيّ النظامي، وقد احتموا بمتاريس عبارة عن أكياس من التراب أو الرمل.

رفعت يدي أطلب منهم أن يأتوا عندنا، إلا أنهم أشاروا بالرفض، ودخلوا العمارة، في حين بقي أحدهم موجهًا سلاحه للجهة التي نحن فيها، وظلّ يتابعنا إلى أن ابتعدنا عنهم، وقد طلبت من الدابي أن نذهب إليهم.

فردّ عليَّ: «لا داعي لذلك، يبدو أن الموقف حسّاس».

سألته: «كيف حسّاس؟».

أجاب: «هؤلاء قناصة ونتفاداهم لسلامتنا، والأفضل أن نؤكد ذلك في تقاريرنا، وينتهي الأمر».

فتحدث المقدم عاشور: «نحن رأيناهم فوق العمارة، التي أخبرونا في بابا عمرو أن قناصة يطلقون النار عليهم منها».

فقلت له: «وجود عسكريين في الطابق السفلي معناه أن القناصة الذين في السطح هم من النظام، إضافة إلى أن العمارة أمام الملعب، الذي يسيطر عليه الأمن السياسي».

فقالت إلهام: «واضح أنهم من قناصة الجيش».

يعقب الدابي: «سجّلوا هذا الأمر، وسأتحدث فيه مع المسؤولين هنا وفي الجامعة العربية».

عدنا إلى حيث كنا، ووجدنا خالد أبوصلاح ومصورين لا يزالون في انتظارنا، فقمنا بدخول بعض البيوت المدمرة بالمدفعية الثقيلة، حيث وجدناها تحولت، إلى خراب وبيوت أخرى لا يمكن دخولها، وقد غادرها أصحابها الأحياء، ومن ماتوا تحت الأنقاض تم استخراجهم بمغامرة من الأهالي، ثم دفنهم لاحقًا في مظاهرات، تعرّضت أغلبها للقصف والقنص.

وصلنا إلى المؤسسة الاستهلاكية الغذائية، وقد رأيت عسكريًّا في سطح المؤسسة متحصنًا، يشير بالذبح إلى بعض الشباب الذين يرافقوننا، فأخبرت الدابي بذلك، فطلب من المواطنين المرافقين لنا المغادرة والابتعاد عن الحاجز؛ حتى لا يحدث أي مكروه، في ظل هذه التحرّشات المتبادلة، فقد سمعت أيضًا شتائم من المواطنين موجهة إلى عناصر الجيش.

من أثار القذائف على حيّ بابا عمرو

قنص الطفل محمد أحمد الراعي وآخرين

بقينـا واقفيـن بالقـرب مـن العربـات المصـفّحة التـي أمام المؤسسـة الاستهلاكية، أما رئيس البعثة الفريق أول الركن محمد أحمد مصطفى الدابي فراح يجري اتصـالات هاتفية مع الحكومة السـورية والجامعة العربية، وبعدها دخل المبنى الذي يتحصـن به العسـكريون لملاقاة قائدهم، لأجل ترتيب شأن مغادرتهم المكان وسحب الآليات العسكرية.

اتجهت نحو مجموعة من الشباب كانوا يحملون كاميرات وآخرين يصوّرون بهواتفهم النقالة تحركات عناصـر البعثة، وهم ممن ينتمون لما عرف بالمركز الإعلامي لحيّ بابا عمرو، والذين كانوا يوثقون كل كبيرة وصغيرة ويبثّونها عبر الإنترنت والفضائيات الكبرى.

فجأة سـمعت صوت طلقات نارية غير بعيدة منّي، فإذا بمواطنين يهربون مـن المـكان بالشـارع الرئيس في اتجاهـات مختلفـة، وكان الأمـر عبارة عن رصاصـات قنص، ومن خلال صوتها تأكدت أن مصدرها هو العمارة، التي كنّا بمحاذاتها، وتطلّ مباشـرة على بابا عمـرو، فركزت نظري نحو العمارة، لكنني لم أتمكن من الرؤية بوضوح، وقد كان أحد الشبان بقربي يحمل منظارًا متطورًا فسـلمه لي، وقد شـاهدت من خلاله ثلاثة قناصـة ملثمين، يصوبون أسلحتهم نحو المواطنين ويطلقون عليهم الرصاص، وكانوا يلبسون الزيّ الأسود.

عاد الدابي مسـرعًا من داخل مبنى المؤسسة الاستهلاكية، ووقف بجانبي حيث كنت أرقب ما يحدث في ظل الصـراخ المنتشـر، وتمركز عناصر الحاجز

الذي كنا أمامه، وتجهزوا بدورهم للمواجهة والاشتباك، وأحسست حينها أن نهايتنا قد قربت، ورحت بيني وبين نفسي أتشهد، غير أن الرصاص سرعان ما توقف ولم نسمع شيئًا، وقد حاولت للمرة الثانية بالمنظار أن أرى القناصة غير أنهم اختفوا من سطح العمارة.

دققت النظر في المكان الذي وقع فيه الرصاص، فإذا بي أرى فتًى يتخبط كالديك المذبوح، يبدو أن الرصاصات التي أطلقها القناصة قد طالته، وسرعان ما التف الناس حوله وحجبوه عني بعدما توقف القناصة عن إطلاق النار.

استدرت نحو رئيس البعثة، وقلت له: «قناصة أطلقوا النار على المواطنين، ويبدو أنهم قتلوا طفلًا».

فردّ: «نعم، كنت أشاهد ذلك».

بعد دقائق معدودة، فإذا بأحدهم جاء يجري نحونا، وهو يحمل بين يديه ذلك الصبي، وكان يصرخ ويبكي، وآخرون يقتفون أثره، وهم يهتفون ويكبّرون، وبينهم من يشتمون النظام، ويصفونه بشتى النعوت والأوصاف، ركضت نحوه ومعي المقدم الجزائري عاشور بوتوت.

عندما وصلنا إلى حامل الضحية راح يصرخ بصوت عالٍ، وهو يقول لنا:

«لقد قتل القناص هذا الطفل... ما ذنبه؟! حرام، والله حرام».

كان الرجل يصرخ غاضبًا في وجوهنا، دموعه تهطل من مقلتيه، وقد جفّ حلقه من الكلام، الذي ظل يرفعه وهو يركض نحونا، وبين يديه جثة الطفل الذي أخبرنا أن اسمه أحمد محمد الراعي.

كنت أحمل كاميرا تابعة للجامعة العربية أوثق بها الأحداث، فقد أحسست أن الأرض ترتعش من تحت أقدامي، بل السماء انطبقت عليّ، وقلبي كاد يخرج

من بين ضلوعي، فمشهد الطفل أحمد محمد الراعي صعب ومتعب لأصحاب القلوب الرهيفة، غير أنني تجلدت حينها، وحاولت أن أهدئ الأمر، وخاصة أن خوفي على المواطنين من قناصة الحاجز العسكري الذين بمجرد ما شاهدوا الطفل الراعي بين يدي حامله، سارعوا للتمركز في وضعية الرمي - كما ذكرنا سابقًا - تحسبًا لأي ردّ فعل قد يأتي من قبل عناصر الجيش الحر.

لقد شدّ انتباهي وجه محمد أحمد الراعي الذي كان يشعّ نورًا، حتى خلته يفتح عينيه رافضًا أن يغمضهما من دون النظر إلينا، وربما تحميلنا صرخته إلى العالم، لذلك كنت سأنحني وأقبله أمام الناس، غير أنني عدلت عن ذلك خوفًا أن يثير المشهد نفوسًا حانقة تدفعهم إلى ما قد يضرنا جميعًا، وتفاديًا لما سينجرّ عن ذلك من تداعيات.

لذلك لما رأيته كأن عينيه مفتوحتان مددت يدي وأغمضتهما، وأنا أقول: «الله يرحمه... الله يرحمه»، غير أن العجب أنه بمجرد ما رفعت يدي عنه خيّل إلي أنه فتحهما من جديد، لذلك رحت أترجى الشاب الذي كان يحمله بين ذراعيه أن يذهب به، فبيني وبين نفسي صرت أرى قلبي قد بلغ حلقي، أخرج من جلدي حنقًا على براءة تم قطف براعمها بطريقة همجية، لا يمكن أن تمت بصلة لأدنى القيم الإنسانية.

رحت أنا والمقدم عاشور نترجاهم أن يتعاونوا معنا ويساعدونا، وهم يطلبون منا أن نتأكد من هويات عناصر الحاجز، فأغلبيتهم من الشبيحة، وناشط آخر[1] راح يؤكد أنه يجب التثبت من الصور؛ لأنهم قد يمررون بطاقاتهم لبعضهم بعضًا، وعدناهم بأننا سنقوم بواجبنا، وإن كان المقدم عاشور قال لهم: إن التأكد من الهوية ليس من مصلحتنا، ربما كان يقصد أنه ليس من

---

(١) عرفت لاحقًا أن اسمه حمود خالد الزغيب، وقد انضم للجيش الحر، واستشهد في ٢٠١٣/٠٢/١٠.

صلاحياتنا، وأنا أناشدهم أن يثقوا بنا، وأننا سنوثق كل ما رأيناه، ومنه قضية هذا الفتى محمد أحمد الراعي.

غير أن الجنرال الدابي توجه إلى بوابة المؤسسة، وبقي مع رئيس الحاجز، ولم يكلف نفسه عناء المجيء نحو هؤلاء المواطنين الغاضبين، من أجل تهدئة روعهم وهو الذي طرح في نفسي تساؤلات.

أخذوا الطفل الشهيد محمد أحمد الراعي إلى حيث يريدون، وقد علمت لاحقًا من خلال الصور التي وثقت بكاميرتي الخاصة، التي أعطيتها للمراقب الجيبوتي محمد حسين عمر، أنهم ذهبوا به للمسجد، حيث تمّ تصوير موضع الرصاصة التي أصابته من الخلف تحت لوح كتفه الأيسر، وخرجت الرصاصة من الأمام، وقد حطمت قلبه وضلوعه الضعيفة.

توجهت نحو الدابي الذي كان واقفًا قبالة بوابة المؤسسة برفقة قائد الحاجز، وأخبرته بما حدث، بل كتبت له المعلومات عن الطفل الذي تعرّض للقنص، وسلمته ورقة من أجل أن يتم توثيق الحادثة، غير أنه فاجأني برميها على الأرض، ولما سألته عن سبب ذلك التصرف غير المقبول بالمرّة، رد عليَّ قائلًا: «ومن يدريك أن قناصة تابعين للحكومة هم من قتلوه».

قلت: «سيادة الفريق، ليست من صلاحيتنا معرفة الجهة التي قتلت، ولكن من صميم عملنا توثيق الحادثة التي وقعت أمامنا».

أظهر اللامبالاة، لذلك رحت أؤكد له بالقول والحنق قد بلغ مني مبلغًا كبيرًا:

«كنا قبل مشوار تحت العمارة التي جاء منها الرصاص، ورأيت بنفسك أنه في طابقها الأرضي يوجد عساكر تابعون للنظام، فلا يعقل أن يكون في سطحها قناصة يتبعون للمعارضة».

أضـفت له وهو لم ينطق ببنت شـفة: «لو كان قناصـة سـطح العمارة من المعارضـة والعسـكر المتمركز في طابقها الأرضـي من النظام، فهذا يعني أن السوريين يعبثون بنا، والأفضل لنا أن نغادر البلاد».

ختم الدابي حديثنا قائلاً: «سننظر في الأمر حين نرجع إلى دمشق».

رأيـت تصـرف الدابـي غير لائـق إطلاقًـا، ومع الأسـف كان أمـام قائد الحاجـز، لذلك هممت بالمغادرة نحو المراقبيـن الآخرين، فقلت له: «يبدو أن الأمور ستسير في غير ما أقسمنا عليه يا سيادة الفريق».

لم يقتصـر الأمر على الطفل أحمد محمد الراعي، فقد تمّ أيضًا في اليوم نفسـه قنص البنت ريمة فوزي المحيميد (١٦ سـنة)، وأصيبت أمها فاطمة في رقبتها، وهي تصـارع قدرها في المشـفى الميداني، وقنصـوا أيضًـا المواطن عدنان رسلان البالغ من العمر ٢٨ عامًا، وهو يشتغل موزع حليب أطفال، العملية وقعت بالقرب من مسجد الحمزة، وجرحت أيضًا السيدة أم نادر.

دعانا النـاشـطون والمواطنون لزيارة المشـفى الميدانـي، الذي توجد به الجريحتـان فاطمة وأم نادر وجثمان كل من ريمة وعدنان، غير أن رئيس البعثة اعتذر لهم عن ذلك، واعدًا إياهم أن الفريق الذي سيستقر في حمص بداية من الغد سيقوم بكل ما يريدونه ويطلبونه.

أيضًـا ما تجدر الإشـارة إليه، أن السـيّد مرزوق النـاصـر وهو أب لخمسة أطفال، أصـيب في قدمـه، وهو لا علاقة لـه بالتظاهرات، وقد حملوه لمشـفى الحكمـة في ذلك الصـباح، غيـر أن الأمن داهم المشـفى ونحـن ببابا عمرو، واعتـدوا على الجرحى، ثم اختطفوه بعد ضـربه ضـربًا مبرحًـا، وأخذوه لجهة مجهولة.

بعد ذلك الجو المشحون بسبب الدماء التي سالت، وعلى الرغم من حزن الأهالي على ما أصابهم ولا يزال يلاحقهم، تمكنا من تهدئة الأمور بعض الشيء وبوعود أطلقها رئيس البعثة محمد أحمد مصطفى الدابي، حيث أكّد لهم أن المراقبين سيمكثون في حمص لمتابعة كل الأحداث والتطورات.

عندها هدأت النفوس بعض الشيء، فهم قد تعوّدوا على رائحة الدم، شرعنا في مفاوضات مع الأعيان بحيّ بابا عمرو من أجل السماح للحاجز العسكري المتمركز في المؤسسة الاستهلاكية، بمغادرة الحيّ من دون مواجهة أو التعرّض له، وقد تحدث لنا خالد أبوصلاح باسم الثوار، وأكد لنا موافقتهم على ذلك مقابل إطلاق سراح سيدتين معتقلتين لدى المخابرات منذ مدة.

لقد ظهر مطلبهم بسيطًا جدًّا، فقد تخيلت قبلها أن يطلبوا إطلاق سراح العشرات أو المئات من المعتقلين أو أشياء أخرى، لكن تفهمت وضعهم؛ لأن الحاجز سبّب لهم المتاعب كثيرًا ويتعرض الأطفال والنساء والمدنيون للقنص والقتل، وسحبه سيكون في مصلحتهم كثيرًا جدًّا، هكذا كان تقديري في ذلك الوقت.

كنت في قرارة نفسي أرى أن المبادرة التي شرع فيها رئيس البعثة هي خرق واضح للبروتوكول، لأنه ليس من صلاحياتنا هذه المفاوضات والمبادلات، فالحكومة تعهدت بسحب الآليات العسكرية وإطلاق سراح المساجين من دون مثل هذه الأمور، وفضّلت أن أؤجل الحديث في ذلك إلى وقت لاحق.

تلقّى رئيس البعثة الفريق أول ركن أحمد محمد مصطفى الدابي عبر الهاتف خبرًا من قبل المحافظ غسان عبدالعال، عن اختطاف مجموعة من المراقبين في حيّ باب السباع، وأن الاتصال معهم قد انقطع نهائيًّا، واختفوا في الحيّ الذي زاروه، ولم تعد غير سيارتهم إلى قصر المحافظ، ويجهل السائق مصير رفاقه؛ لأنهم توغلوا في حيّ باب السباع، أما هو فمكث في سيارته.

تسرب القلق إلينا عن مصير رفاقنا، وخاصة أن الاتصال بهم صار من المستحيلات، فنحن لليوم الثاني نذهب لحمص ولا نملك هواتف ولا شرائح محلية، فكل واحد منا يستعمل هاتفه الشخصي الدولي، والشبكة صعبة للغاية بسبب التعطيل الذي تتعرض له من قبل السلطات، من أجل إعاقة تواصل النشطاء مع الفضائيات ووسائل الإعلام وحسابات أمنية مختلفة.

طلب رئيس البعثة الجنرال الدابي من الناشط الإعلامي خالد أبوصلاح أن يقتفي لنا أثر المراقبين الآخرين في حي باب السباع، ممن تقول الأخبار الرائجة: إنه تمّ اختطافهم من طرف الثوار هناك، غير أن خالدًا طمأننا أن ذلك من المستحيل أن يحدث، وقد اتفق مجلس الثورة في حمص على تقديم كل المساعدات للبعثة حتى تطلع على الأمور وتنقل الصورة الصحيحة والكاملة عن الوضع في سوريا.

كان الجنرال الدابي قلقًا على مصير البعثة، والأمر نفسه بالنسبة إلينا جميعًا، وقد تبين ذلك من ملامحنا، فرحنا نضغط على جماعة بابا عمرو لكي يتصلوا برفاقهم هناك، ويضمنوا لنا عودتهم سالمين، بل إن رئيس البعثة أكد لهم أنه في حال حدوث أي مكروه للمراقبين لن تمر الأمور بخير، ولن تكون في مصلحتهم أبدًا؛ لأن هؤلاء جاؤوا من بلادهم وتركوا أسرهم من أجل الحقيقة، وهم لا ينتمون إلى النظام ولا يناصرون المعارضة، ولا يحسبون على أي طرف مهما كان.

ظل خالد أبوصلاح يؤكد لنا أنه لا يمكن أن يحدث ما سمعناه، وهذه مجرد إشاعات من قبل النظام السوري، حتى يسيء لصورة الثوار لدى بعثة المراقبة والجامعة العربية، وراح يجري اتصالات مع ثوار باب السباع الذين أكّدوا له أن المراقبين بخير.

بعد اتصالات عدة عاد إلينا، وأكّد أن المراقبين بألف خير، وسيعودون إلينا سالمين، إلا أن الدابي أصرّ على أن نذهب نحن إليهم. أخبرونا أن الطريق صعب

والقناصــة قد يســتهدفوننا، من أجل أن يتهم الجيش الحر، إلا أن رئيس البعثة لم يقبل النقاش في الأمر، وقال لنا: «سنذهب، ولن نعود إلا ومعنا المراقبون أو نموت».

وافقناه على هذا القرار، أما الناشــط الحقوقي الذي يرافقنا بدوره فأكد من خلال اتصــالات هاتفية أجراها أن الأمور جيدة، وسنذهب للحيّ من طريق يعرفه، «ولن نتعرض لأي مكروه بإذن الله» على حدّ تعبيره.

في تلك الأثناء، ونحن نتحدث بالقرب من سياراتنا إذا بصوت انفجارات تستهدف بابا عمرو، وكأنهم علموا أننا نهمّ بالذهاب إلى حيّ باب السباع، على حدّ مداعبة أحد المراقبين.

أما ناشط في الثورة السورية فقد قال معلقًا على التفجيرات:

«هكذا نحن دومًا يوميًّا لا يتوقف القصف ولا القنص».

الجنرال الدابي بعدما ركّز سمعه قليلًا، قال: «هذا الهاون».

فردّ عليه خالد أبوصلاح: «هذا القصف من وحدة قرب المصفاة بمنطقة المزرعة، التي تســكنها أغلبية شيعية، وتبتعد بنحو ٤ كم، ويأتي القصف أيضًا من منطقة عيصون، التي تبتعد بنحو ٢ كم، وهي علوية».

وأذكر أنه في أثناء القصــف ترتفع أصــوات التكبير من المسجد كأنه يوم عيد، وحتى المواطنين الذين بقربنا راحوا يكبّرون، وأيضــا صــدحت أصــوات أخــرى بالتهليل والدعاء من ميدان بقلب بابا عمرو، حيث يعتصــم المواطنون، ويتظاهرون منذ أشهر ضــد النظام السوري، الذي يطالبون بسقوطه ومحاكمة بشار الأسد.

مواطنون يظهرون اصابة الطفل أحمد محمد الراعي في باباعمرو بتاريخ ٢٨/١٢/٢٠١١.

الطفل أحمد محمد الراعي وهو بين يدي أحد الأهالي بعد قنصه في باباعمرو بتاريخ ٢٨/١٢/٢٠١١

المؤلف وهو يغمض عيني الطفل أحمد محمد الراعي بعد قنصه في باباعمرو بتاريخ ٢٨/١٢/٢٠١١.

في حي باب السباع
بين إشاعة الاختطاف ورصاص القناصة

امتطينا السيارات سريعًا وانطلقنا قافلين في اتجاه حي باب السباع، وراح رئيس البعثة الفريق أول الركن مصطفى الدابي يتحدث لمحافظ حمص عبر الهاتف، ويخبره أننا في طريقنا إلى الحيّ من أجل البحث عن زملائنا المراقبين، الذين لا نعلم عنهم شيئًا، واتصل بمسؤولين في دمشق والجامعة العربية من بينهم نائب وزير الخارجية السوري فيصل المقداد، ونائب الأمين العام للجامعة العربيةأحمد بن حلي.

أما العقيد أكرم الذي بين يديه هاتف الثريا، فقد حاول مرارًا وتكرارًا الاتصال بالمراقبين عبر أرقامهم الدولية، وبدوري حاولت الاتصال بالمقدم خالد الربيعان رئيس المجموعة، غير أننا فشلنا في ذلك، فالشبكة عندنا شبه معطلة وهاتف الثريا لا يشتغل، وفي الحالات التي يصل فيها للرقم المطلوب يجده خارج نطاق الخدمة، فأجمعنا على احتمالين لا ثالث لهما:

هواتفهم تمت مصادرتها من قبل الذين يحتجزونهم، وأغلقوها حتى لا يتمّ التواصل بهم أو تحديد مواقعهم، إن صحت رواية الاختطاف التي سارع المحافظ للترويج لها، ما طرح علامات استفهام لدينا جميعًا.

إنهم بمكان لا توجد به تغطية بسبب رداءة الاتصالات في حمص، التي وصلت لدرجة لا يمكن وصفها. وهذا ما ظل يرجحه الناشط الحقوقي الذي

يرافقنا، ويؤكد لنا أنه من رابع المستحيلات أن يتعرض المراقبون للاختطاف من قبل الثوّار.

في طريقنا عبر شوارع خالية بدت لنا الأمور سيئة للغاية، فحال البيوت لا يختلف عما عليه شأن بابا عمرو، ولم نتأخر كثيرًا؛ لأن المسافة بين حي باب السباع ونقطة انطلاقنا ليست طويلة.

عندما وصلنا إلى عمق الحيّ وغير بعيدين من مسجد المريجة، ركن السائق السيارة جانبًا تحت بناية، وقد كان الرصاص لا يتوقف يستهدف كل من يقطع الشارع نحو المسجد، وأخبرنا الأهالي الذين التفوا من حولنا: أن الأمر يتعلق بقناصة فوق البنايات المقابلة للمسجد، حيث تمنع المواطنين من الصلاة، أو قطع الشارع، لأجل جلب أغراضهم.

اضطررنا أن نحتمي بين البيوت، فالقناصة على ما يبدو لا يميزون بين شيخ أو طفل أو مراقب، ونزلنا بين الأهالي الذين هبّوا يشكون حالهم البائس، ويبلغوننا ما يعانونه. وقد فوجئنا بوجود عائلات من الطائفة المسيحية بدورها تعرضت للأذى من قبل القناصة، وهم يناصرون الثورة ويدفعون الثمن غاليًا لأجلها، على عكس ما يروّج له من أن الأمور تسير في استقطاب طائفي.

أيضًا تحدثت مع عوائل من الطائفة العلوية التي بدورها تنتصر للثورة، وتطالب برحيل النظام ومحاكمة بشار الأسد، بل إن شيخًا من هذه الطائفة أخبرنا أن عمره ٧٦ عامًا قضى منها الكثير في حي باب السباع، وقد قال لي بالحرف الواحد: «أنا ابن هذا الحيّ، ومن المستحيل أن أغادره إلا وأنا ميت».

وأضاف: «أنا علوي، وأتبرأ من جرائم بشار الأسد وعائلته وشبيحته».

سألته: «وأنت من الطائفة العلوية هل تعرضت لتمييز من قبل الثوار هنا؟».

أجاب بصوت عالٍ: «كلنا شعب سوري وإخوة ونريد الحرية، فلا فرق بين مسيحي أو علوي أو سنّي».

بل أضاف قائلًا: «كل جيراني من السنّة، ولما أسافر أترك بيتي وبناتي وزوجتي في ذمّتهم وعلى مدار سنوات طويلة لم نَرَ من بعضنا إلا الخير، المشكلة في عائلة الأسد، التي أضرّت بنا وبكل الشعب وسوريا».

كان رئيس البعثة الفريق أول الركن مصطفى الدابي، قلقًا جدًّا على زملائنا الذين نجهل مصيرهم، ولهذا لم يتوقف عن محاولات الاتصال الهاتفي مرة مع خالد أبوصلاح في بابا عمرو، وأخرى مع الجامعة العربية بدمشق، التي غالبًا ما تبوء بالفشل بسبب رداءة الشبكة في باب السباع، وقد حضر إلينا في تلك الأثناء أحد النشيطين في الثورة، وقد أكّد لنا أن المراقبين في مكان آمن سيحضرون، فلا نقلق عليهم أبدًا.

بقينا في وسط الأهالي نتلقى شكواهم، وصار عددهم يتزايد، وما حملوه لنا من قضايا لا تختلف عما سمعناه في بابا عمرو، فهم يشكون من القناصة الذين يقتلون أطفالهم، وأيضًا يوجد حاجز عسكري قرب المشفى يختطف أي جريح يصل هناك للعلاج، ويعترضون سبيل النساء ويختطفونهن، وبينهن من رجعن جثثًا هامدة، عليهن آثار الاغتصاب والتعذيب، وأخريات في ذمّة المجهول، ولا يملكون إلا الدعاء لهم على حدّ قول أحدهم.

تأخر مجيء المراقبين جعل قلقنا يزداد أكثر فأكثر، ولهذا ظل الجنرال الدابي يلحّ على ذلك الناشط أن يعجّل أمر وصولهم إلينا، ويذكره من حين إلى آخر أن أي مكروه يحدث لهم ستكون نتائجه سيئة للغاية، ولن يكون في مصلحتهم أبدًا، غير أن ذلك الناشط واسمه - أبومحمد - يرد على الدابي بالقول وعلى

ملامحه تتوزع ابتسامة: «اصبر يا سيادة الفريق، سيأتون ويخبرونك بأنفسهم ما حدث بالضبط».

ويزيد: «والله العظيم هم في أمان».

فسألته: «لماذا لا تريد أن تطمئننا عليهم أو تتركنا نتواصل معهم هاتفيًّا؟».

يجيبني: «اصبر يا أستاذ، قريبًا ستسمع منهم أفضل، أما الهواتف فصعبة كما ترى هذا المساء».

الأهالي الذين راحوا يهتفون بسقوط النظام، وبلغ عددهم في ذلك الشارع على الرغم من ضيقه المئات في وجودنا، كانوا يحملون راية الثورة وشعاراتهم وأغانيهم وأناشيدهم كلها تطالب بإعدام بشار الأسد بعد محاكمته على ما وصفوه بجرائم إبادة يقترفها شبيحته ضد المواطنين الأبرياء العزّل.

أما نحن فكنا نتلقى شكاوى المواطنين، وكانت تتعلق بالمختطفين لدى سلطات المخابرات، والمقدر عددهم بالمئات، فهذه عجوز تريد أن تعرف مصير أبنائها، وتلك تودّ أن نعيد لها زوجها، وذاك الأب يطالب بتحرير أبنائه أو بناته... إلخ. لذلك رحت أطالبهم بتحضير قائمة بأسماء المعتقلين حتى نقدمها للسلطات، ونطالب بالإفراج عنهم، وهذا يسهل لنا مهمتنا؛ لأن تسجيل الأسماء بهذه الطريقة سيجعلنا نقضي الأسابيع من دون إتمام الأمر، الذي يحتاج إلى السرعة في التنفيذ.

تأخر المراقبون عن العودة إلينا، فأصابنا القلق الذي بلغ ذروته، وخاصة الدابي الذي تمكّن من الاتصال بخالد أبوصلاح، وطالبه بالمسارعة في الأمر، وخاصة أن الليل أرخى سدوله، ونحن لا نزال ننتظر رحلة العودة إلى دمشق.

إلا أن الناشط أبومحمد يهدئ من روع رئيس البعثة، ويخبره أن المراقبين في طريقهم إلينا، والأمر يتعلق بوقت فقط من أجل أمنهم وسلامتهم.

بقينا ننتظر ونحن في حمّى القلق على مصير رفاقنا، وتحت ضغط الشارع الثائر والمتظاهر، وعلى أنغام رصاص القناصة الذي لم يتوقف، وأحيانًا نرى الغبار يطير من جدران مسجد المريجة، وأتعجب من أسباب استهداف المسجد من قبل هؤلاء القناصة، الذين يسيطرون على ذلك الشارع.

أحد الأهالي أكد لنا أن القناصة يستهدفون المواطنين، ولا يفرقون بين الطفل والشاب والشيخ والفتاة والعجوز، وأضاف آخر: «عندما نكون في بيوتنا لا يتوقفون عن إطلاق النار من أجل ترهيب الناس، وجعلهم لا ينامون الليل، ويعيشون في كابوس كبير».

وبينما نحن في ذلك الجوّ المشحون، فإذا برفاقنا يطلّون علينا من أحد الشوارع الفرعية الضيقة، وكان يتقدّمهم المراقب السعودي المقدم خالد الربيعان، ويرافقهم أبوحمزة، وهو من أشهر المحاربين للقناصة[1]، اندفعنا نحوهم وسلمنا عليهم، وحمدنا الله بعودتهم سالمين، رحنا نسألهم عما حدث لهم، وحقيقة الأخبار التي راجت عن اختطافهم من قبل ثوّار مسلحين؟

فردّ خالد الربيعان: «لم نختطف، بل أنقذنا الثوار، وحمونا في بيوتهم».

طلب منا الدابي أن نركب السيارة لنغادر المكان بسرعة، وسنتحدث في الطريق، وهو الذي استجبنا له بعدما أخبرنا المواطنون أننا سنعود إليهم لاحقًا ونشتغل معهم، بل إن رئيس البعثة طمأنهم بأن فريقًا سيعين رسميًّا في حمص، وسيهتمّ بكل مطالبهم، ويراقب وضعهم عن كثب.

---

(١) اسمه الحقيقي رضوان أحمد نحيلي، استشهد في ٢٠١٣/٠٢/٠٨ وقد اشتهر في باب السباع بالقناص.

وأذكر في تلك اللحظة ما قاله لنا الناشط أبومحمد، الذي كان يسهر على عودتهم إلينا: «اسمعوا منهم، وتأكدوا أننا لا يمكن أن نسيء لكم مطلقًا».

امتطينا السيارة ذات السبعة مقاعد، غير أننا ركبنا فيها أكثر من عشرة أفراد، حيث تداخلنا بعضنا في بعض وتحولت سيارة التويوتا كأنها علبة سردين، وفي الطريق أخبرنا رفاقنا بأنهم لم يتمكنوا في البداية من دخول الحيّ، وبقوا في حاجز مستوصف باب الدريب، وذلك بسبب الرصاص الذي لم يتوقف، ولهذا طلب منهم الضابط الذي يقود الحاجز البقاء عندهم، ولما سمع المواطنون أن البعثة لن تتقدم نحوهم اجتمع أهالي باب السباع وباب الدريب، وتنقلوا على شكل مسيرة نحو البعثة، فتعرضوا لإطلاق النار عليهم من قبل قناصة، أدّى ذلك إلى هروبهم وسقوط قتلى وجرحى.

بعدما عاد الهدوء بعض الشيء، صممت البعثة على الدخول للحيّ من أجل الاطلاع على الأمور، وهناك وفي أثناء تأدية عملهم استغل المواطنون الفرصة، وتظاهروا مندّدين بما يجري في حقهم، وطالبوا بمحاكمة بشار الأسد، وهذا الذي حرّك الحنق على ما يبدو في القنّاصة لتشتعل الأمور، وصار إطلاق الرصاص كثيفًا، لذلك اضطر الناشطون إلى تهريب المراقبين نحو بيت آمن من أجل حمايتهم، وكان المكان الذي تحصّنوا فيه تحت الأرض، فلا توجد تغطية هاتفية، ولم يتمكنوا من الاتصال برئيس البعثة.

فسألهم الدابي: «هل تعرضتم لمضايقات؟».

يجيبه خالد الربيعان: «أبدًا، لقد أكرمونا وقدموا لنا كل ما نريد، بل راحوا يحموننا بأنفسهم؛ لأنهم تأكدوا أن أي ضرر سيحدث لنا يحسب عليهم، ولو كان السبب هم قناصة النظام».

وعن الوضع تحدث المراقب العراقي الموسوي:

«الحالة سيئة للغاية، واليوم سقط قتلى وجرحى، والرصاص لم يتوقف، بل زاد في حضورنا، فلا يمكن أن تشتغل البعثة في مثل هذا الوضع، نحن نخاطر بأنفسنا، ولا أحد من الطرفين يمكن أن يستجيب لنا».

علمنا منهم أن الفضائيات تداولت أخبارًا عن اختطاف مراقبين، وخاصة قناة (الدنيا) والتلفزيون الرسمي السوري، الذي أورد أنباء عن تعرض مراقبين في باب السباع للمضايقات والاختطاف. وهذا الذي لم يحدث، بل إن الثوار هم من قاموا بإنقاذ المراقبين من القنّاصة، وأدخلوهم بيتًا آمنًا، وقاموا بحمايتهم حتى عودتهم إلينا.

أما عن سبب تأخرهم، فأكدوا أن المكان الذي كانوا فيه يبتعد قليلاً عن موقعنا، وخروجهم احتاج إلى بعض الإجراءات الأمنية وبينها قيام شبان بتمشيط الطريق من أجل الاستطلاع، ولهذا تسلّلوا من بيت إلى آخر، وخاصة في الشوارع التي يوجد على أسطح بيوتها قناصة لا يرحمون أحدًا.

٢٢

على مائدة محافظ حمص

وصلنا القصر في وقت قياسي، فقد كانت السيارة تسير بسرعة فائقة، ووجدنا المحافظ غسان عبدالعال برفقة مسؤولين مدنيين وعسكريين في انتظارنا، حيث جاؤوا للاطمئنان على مصير المراقبين المختطفين على حد تعبيرهم، وكان بعض الصحفيين التابعين للقنوات الرسمية أمام البوابة، وكلهم لهفة لتأكيد ما أذاعوه، على لسان البعثة أو رئيسها طبعًا.

وقد قال المحافظ لنا: «الخبر وصل لأعلى المستويات».

فرد عليه الدابي: «بلغنا أن تلفزيوناتكم تحدثت عن الأمر من دون التأكد، فالمراقبون لم يختطفوا، بل تعرض لهم القناصة، فاضطر المواطنون إلى حمايتهم في بيوت آمنة».

يرد المحافظ متعجبًا: «القناصة !!!».

أحد المراقبين ممن كانوا في باب السباع يقول له: «نعم، القناصة كانوا يطلقون النار على المواطنين وعلينا أيضًا».

فردّ المحافظ: «أكيد من المسلحين الإرهابيين، يريدون التشويش علينا وعلى الحكومة».

ويضيف: «نحن لا نملك قناصة، وكل ذلك من اختراع القنوات المضللة فقط».

ثم يستدير نحو الجنرال الدابي، ويزيد: «أنت تأكدت بنفسك سيادة الفريق».

فيقاطعه الدابي: «لم أتأكد من شيء سيادة المحافظ».

يردّ المحافظ: «أنتم أديتم عملكم على أحسن وجه ومن دون عراقيل، ولو يوجد قناصة لكشفتم أمرهم».

الدابي: «اليوم حدثت عمليات قتل وقنص، وأطلق النار أمامنا لإعاقتنا عن المسير».

فيردّ المحافظ: «هذا من عمل الجماعات الإرهابية؛ حتى تضللكم».

فسألته: «هل من المعقول يا سيادة المحافظ، أن هذه الجماعات تقتل أهلها حتى تضللنا؟».

فيرد: «الجماعات الإرهابية ليست من حمص، هي من مدن مجاورة من الخارج، وصارت تسيطر على الحيّ بمساعدة وهابيين ومتطرفين محليين».

ضحكت من أجوبته في أعماقي، فلا يعقل أبدًا أن المواطنين يجندون قناصة ليقتلوا أبناءهم وبناتهم، ولا يمكن أن المسلحين الذين التقيناهم يتمكنون من السيطرة على عشرات الآلاف من المواطنين، وأكثر من ذلك أننا لم نلمس غير حب الناس لعناصر الجيش الحر، ووجدناهم يتحركون براحة تامة ومن دون خشية، فلو كانوا يعتقلون الحيّ على حدّ مزاعم المحافظ لكان سلوكهم فيه الحذر الشديد.

كتمت غيظي على ما أسمعه من كلام محشو بنبرة استغباء وطائفية، لا يصدقه حتى الأحمق، فضلاً عن أن مشهد الطفل محمد أحمد الراعي لم يغادر مخيلتي.

أمـر آخـر لفـت انتباهـي أن الدابي لم يتناول قضـية هذا الطفـل الذي تم قنصـه، وقد ظننـت خيرًا على الرغم مما جـرى بيننا لما رمـى الورقة التي فيها معلومات، فربما سيرسـل ذلك في تقريـره للجامعة العربية وينتهي الأمر، فاللواء السـابق غسـان عبدالعال سـيكذّب كل شـيء، وينكر مـا رأيناه جملة وتفصـيلًا، وينسبه للطرف الآخر، لذلك لا فائدة مرجوة من النقاش معه في مثل هذه الأمور.

أذكر أن الجنرال الدابي قام نحو مراقبين سـودانيين كانوا يجلسـون غير بعيـد منا، وطلب منهم أن يتحدث إليهم على انفراد، وما لفت انتباه المراقبين أن رئيس البعثة اقتصر في جلسته على كل العناصر السودانية، التي كانت معنا دون الآخريـن من الـدول الأخرى، وهذا الذي لم يستسـغه أحـد، بل يوجد من اعتبر رئيس البعثة يحابي أبناء بلده على حساب المراقبين الآخرين المنحدرين من دول عربية مختلفة، أما أنا فاعتبرته في قرارة نفسـي بداية انحراف البعثة العربيـة عن مسـارها؛ لأن كل المراقبين في مسـتوى واحد، ويجـب أن يتعامل معهم رئيسهم من مسافة واحدة.

طلـب منـا المحافظ أن نتفضـل للغداء على مائـدة وثيرة، بهـا كل ما لذّ وطاب على غرار مائدة أمس، وقد نهض الحاضـرون وجلسـوا على الكراسـي، غير أنني بقيت جالسًـا على الأريكة، فتقدم مني أحد المسؤولين في المحافظة ليدعوني إلى الطعام، فاعتذرت؛ لأنه لا شـهية لي بعد الذي شـاهدته اليوم من مشـهد فظيع عن قتل طفل في الخامسـة من عمره، ومشاهد اليتامى والأطفال الجائعين من قلة الخبز والحليب.

فوقـف المحافظ، وجـاء عندي وترجانـي أن أجلس معهم علـى المائدة، فقلت له: «والله لن تكون لي شـهية بعد الذي رأيت، وكيف تنفتح نفسي لكل هذا الأكل وأنا تركت خلفي من لم يجد خبزًا يابسًا؟».

فردّ علي: «والله نحن نتألم أكثر منك على مدار أشهر، ولكن ماذا سنفعل، والإرهابيون يسيطرون على هذه الأحياء؛ لو كان بمقدوري لأوصلت لهم كل ما يريدون الآن».

قلت له: «القضية أعمق مما ذكرت سيادة المحافظ، فالقناصة يقتلون الأطفال ويجوعون الأهالي».

قال لي: «هم قناصة من المسلحين».

فقلت له: «لقد رأيت قناصة في سطح عمارة وفي طابقها الأرضي يوجد جيش نظامي».

قال: «مستحيل، هم إرهابيون يلبسون الزي العسكري».

ضحكت، وقلت له: «يا سيادة المحافظ، نحن كنا هناك وأمام العمارة ملعب به فرع للأمن السياسي، والمكان لا يمكن أن يقترب منه الطرف المعارض».

فقال لي: «سأتصل بالمسؤولين؛ حتى نطلعكم على الحقيقة، والآن أرجوك أن تجلس معنا».

ناداني الجنرال الدابي بدوره الذي كان على المائدة، فاستجبت، وجلست معهم، وقد تذوقت من الطعام، لكنه كان يمر في حلقي مرًّا كالعلقم، ولذلك فضلت أن آخذ بعض حبات الزيتون والفلفل المخلل فقط.

لقد كان مشهد الطفل محمد أحمد الراعي وقبله الطفل اليتيم والرغيف اليابس وبكاء الثكالى وصرخات الأهالي واستنجاد الأمهات بنا لا يغادر سمعي ولا خاطري؛ لذلك لم أستطع أن أهضم ما أسمعه على المائدة من حديث المحافظ عن الإرهابيين، الذين يقتلون ويختطفون ويقنصون في بابا عمرو وباب السباع وباب الدريب والخالدية والبياضة... إلخ.

على الرغم من أن الحقيقة واضحة كالشمس في رابعة النهار، فلا يمكن أن يجمع كل هؤلاء السكان على كلمة واحدة، وهي أن النظام يبيدهم، مصادفة أو خوفًا من جهة ما، في حين أن المسؤولين يريدون أن يقنعونا أن الجماعات المسلحة هي من تفعل بأهلهم ذلك، ونحن رأيناهم في الحي والتقيناهم، وهم من عناصر الجيش الحر الذين انشقوا من الجيش النظامي، ويقومون بحماية أرواح الناس وأعراضهم، ويدافعون عنهم حتى آخر رمق، ووجوههم ليست عليها أدنى مسحة يمكن أن تجعل أي عابر يشكّ في نبلهم وطيبتهم وأخلاقهم العالية.

همس لي أحد المراقبين أنه يجب عليّ أن أكتم غيظي وحنقي؛ حتى لا ألفت انتباه هؤلاء المسؤولين، الذين إن أحسّوا بخطر ما مني قد يستهدفونني بأي وسيلة لطمس ما يريدون دفنه. وجدت كلامه صائبًا، فقد غلبتني مشاعري إلى حدّ بعيد في تلك الأثناء، وكان عليّ أن أصمت وأتابع، وأسجل، وأرفع للجنة كل مشاهداتي ورؤيتي، أفضل من مثل هذه المواقف التي قد تسيء لي، ولن تنفع هؤلاء الضحايا في شيء.

بعد تناول وجبة الغداء التي جاءت بعد صلاة المغرب، قرر الدابي أن يبقى بعض المراقبين في حمص، واختار بعضهم مكلفًا السوداني الزاكي كوكو خالد الجاك برئاستهم، أما نحن وزملاؤنا الآخرون ممن باتوا البارحة فقد قررنا العودة إلى دمشق. واختار الدابي العناصر الذين يسهل إحضار حقائبهم مع الفوج الذي سيتقرر تعيينه في حمص، وأوصانا المراقبون الماكثون بأن نبلغ رفاقهم ما يريدون حول أغراضهم التي في الفندق بدمشق وأشياء أخرى تتعلق بهم.

٢٣

في دمشق مرة أخرى

انطلقنـا نحو دمشـق على وقع ما جرى في يومنا الدامـي من قتل في بابا عمرو وباب السباع، وتحت ضوضاء ضجة مفتعلة عن اختطاف عناصر من بعثة المراقبين في باب السباع من قبل جهات مجهولة، حيث زعم التلفزيون السوري الحكومي وقناة (الدنيا) أن العملية قام بها مسـلحون تمّ وصفهم بالإرهابيين، وهذا الذي أشرنا إليه من قبل.

كانت الاتصـالات من قبل الفضائيات ووكالات الأنباء تتهاطل على رئيس البعثة محمد أحمد مصـطفى الدابي، الذي ظل يردّ باللغة نفسـها بأن الوضـع هـادئ ولا يدعو للقلق، وأننا في بداية عملنا، ولا يمكننا الحكم على الأمور بهذه السـرعة الفائقة، بل نحتاج إلى وقت أكبر من أجل بلورة تصـورات واضحة عن الواقع السوري.

لم يعجبني تقديره للأمور، ولا طريقة تصـريحاته الإعلامية، التي تتنافى مع الحقيقة التي لمسـناها وعايشـناها وموجودة على أرض الواقع، خاصـة أنه لم يتحدث عن حالات القنص التي حدثت بحضـورنا، بل إن ما تحدّث به رأيته يحلب في إناء الحكومة السورية، لذلك قلت له:

«سـيادة الفريق، مـرة أخرى أؤكد لـك أن التصـريحات الارتجالية بهذه الطريقة قد تكون لها ارتدادات سيئة على البعثة، وأنصح بتفاديها».

سألني وملامحه يظهر عليها ما يشبه الانزعاج: «كيف؟».

فأجبته: «عندما تقول: إن الوضع في حمص مطمئن وهادئ، فأنت تكذّب ما يجري ويتناقله العالم عبر الفضائيات، وتظهر أنك انحزت لأطروحة النظام السوري، وهذا يعقّد مهمتنا مع المعارضة».

فردّ قائلًا: «هناك حملة قذرة علينا، وأنا سألوني عن قضية الصعوبات التي تعرضنا لها في بابا عمرو وباب السباع، ففندت الأمر بكلامي، وهذا يخدم المعارضة أيضًا».

فقلت له: «الكلام إذا ورد في غير سياقه الطبيعي الواضح قد تكون له تأثيرات سلبية، وأنت تعرف أنه تم قنص طفل أمامنا، ورأينا قناصة، ووقفنا على عربات مصفحة ومجهزة بسلاح ثقيل، ووجدنا دبابة تبدو معطلة أيضًا، ومن جهة أخرى أن ما راج عن اختطاف المراقبين تقف خلفه الفضائيات السورية».

قال لي بلا مبالاة ولا تقدير للعواقب: «هذه الأمور ستكتب في التقارير إن شاء الله».

قلت له: «لذلك لدي اقتراح مهم للموضوع، حتى يكون عملنا مستقلًّا وناجحًا، فقد رأيت أن الإعلام الحكومي يريد أن يخطف أي تصريح منا، لأجل تأكيد قضية الإرهاب والمسلحين، والمعارضة أيضًا تصوب كاميراتها نحونا من أجل أن تنال منا ما يخدم قضيتها، ولهذا أرى الأخذ باقتراحي في الموضوع».

فرد: «ماذا تقترح؟».

أجبته: «أقترح تأسيس خلية إعلامية لديها رئيسها، والحمد لله بيننا من له تجربة صحفية كبيرة، تتكفل هذه الخلية بمتابعة وسائل الإعلام، وعندما

تقتضـــي الضرورة توضيح شيء تقوم الخلية بتحرير البيان، توقعه أنت أو باسم الخلية التي نسميها، مثلًا الهيئة الإعلامية لبعثة المراقبين في سوريا».

ثم مضيت أقول: «وأنت تتفادى التصريحات الإعلامية الارتجالية التي قد تؤدي إلى مسار سيئ، أما الخلية الإعلامية فيحرّر البيان جماعيًّا ويقرأ ويناقش وبعده يرســل للجامعة العربية التي لديها مراســلون ووكالات تستطيع في لحظة أن توصله لكل العالم».

أحسســت من ملامحه أنه لم يعجبه كلامي، وخصوصًا لما قال لي: «لدي تجربة في التعامل مع وسائل الإعلام، فلا تقلق».

أحسســت بأن الأمور تتجه نحو العبثية، لذلك رددت عليه: «ليست القضية في التجربة يا ســيادة الفريق، الأمر يتعلق بأمــن مراقبين يكونون في الميدان، ولا يجب أن يكشفوا شيئًا قد يعرّضهم للخطر، خاصة أن الوضع غير هادئ، كما تقول أنت».

وأضفت: «حتى إصدار تقارير والمراقبون في الميدان أمر خاطئ جدًّا، وبهذه الطريقة أرى أن الجامعة ســتغامر بحياة أفراد البعثة، أو قد تؤدي إلى نتائج سلبية كتصــاعد طردي للعنف والمواجهات، فأنا أتمنى منكم ســيادة الفريق، أن تطلبوا مــن الأمين العام إعادة النظر في قضــية التقرير الذي سيصــدر، والمراقبون في الميدان، فإن قلنا شيئًا لمصلحة المعارضة فلن نأمن مكر النظام والعكس أيضًا».

ثم اســتدركت شــيئًا: «هناك أمر مهم لا يجب أن نتجاهله سيادة الفريق، وهو مرافقة الصــحافة المســتقلة لنــا، فالأحياء الثائرة ترفضــ وجود الإعلام الرسمي السوري، وتطالب بالإعلام المستقل، ومرافقة صحفيين لنا مهم جدًّا، وقد يبعد الكثير من الشبهات والأكاذيب التي يروج لها».

مـن جهة أخـرى فيما يخص موضـوع سـحب الآليات العسـكرية، مقابل إطلاق سراح سيدتين، قلت للجنرال الدابي: «بالنسبة إلى مفاوضات اليوم من أجل سحب الآليات العسـكرية أليس ذلك خرقًا واضحًا للبروتوكول، ولو يحدث مكروه لا قدر اللّه سـتحملنا الحكومة السـورية المسـؤولية؛ لأنه لا يوجد اتفاق موقع بيننا أو مع الجامعة العربية».

فردّ الدابي: «هذا أمر إنساني لا يمكن أن نتأخر فيه».

فقلت له: «ماذا لو تحدث مواجهة في أثناء الانسـحاب، ويصـاب أحدنا أو أحد المواطنين، فمن يتحمل المسؤولية؟».

فقال: «لن يحدث ذلك، وسنأخذ ضمانات من الطرفين».

قالـت إلهام: «الحاجز محاصـر، ولا يمكن أن يغادر من دون اتفاق، ونحن نريد أن يُسحب؛ حتى يرتاح الناس في بابا عمرو منه».

فقلت: «نحن هنا في إطار مهمة محددة، وقد تحملنا المسؤولية لما دخلنا بابا عمرو، والآن النظام السـوري يريد اسـتغلالنا لنخرج له العسـكريين ربما لحسـابات تتعلق باقتحـام الحيّ لاحقًا أو تحويلهم لجهـة أخرى، يجب ألا نبقى نتنازل بهذه الطريقة، الصرامة مع كل الأطراف مهمة جدًّا سيادة الفريق».

كنـت أتحدث مع الجنـرال الدابي ورنيـن هاتفه لم يتوقـف، ولكنه ينظر لشاشته ولا يرد، وفي آخر ما قلته رنّ هاتفه ربما للمرة الخمسين، فقطع الحديث في الموضـوع ليرد على المتصل، الذي لم يكن إلا صحفيًّا كان الدابي وعده من قبل وعلى ما أذكر أنه من وكالة الأنباء الفرنسية، فواصل تصريحاته بالطريقة نفسـها، على أن الوضـع هادئ ومطمئـن، على الرغم من أنه قتـل أمامنا طفل وقنص آخرون، وجرت محاولة الاعتداء على البعثة في باب السباع، وهذا الذي

رأيته بداية انحراف عملي للبعثة، التي من المفروض أن تؤدي عملها، ولا تكشف شيئًا إلا بعد نهاية المهمة ومغادرة المراقبين؛ لأن الوضع ليس هادئًا كما ادعى الجنرال الدابي، بل سخونته بلغت منتهاها، واللقمة السائغة ربما للطرفين هي بعثتنا، التي هي محل نظر ما في ظل ضجيج إعلامي يرافق خطواتنا حسبما نراه ونلمسه في الاتصالات الكثيفة بالرئيس الدابي.

وصلنا العاصمة دمشق، ونحن على أمل اجتماع ثالث لأجل توزيع نهائي للأفواج، وكعادتنا تركنا رئيس البعثة في مقر إقامته بوسط المدينة، أما نحن فتوجهنا إلى فندقنا، وقد كنا مرهقين إلى أبعد الحدود بسبب ذلك اليوم المتعب ما بين بابا عمرو وباب السباع.

لما دخلت الفندق وجدنا مراقبين في انتظارنا والقلق الكبير بادٍ عليهم، خاصة أنهم شاهدوا في القنوات الحكومية أخبارًا عن اختطاف فوج من البعثة في حي باب السباع. فما إن شاهدونا هرعوا نحونا بسرعة أمام الباب، فأخبرناهم بأن ما نقلته وسائل الإعلام السورية خصوصًا لا أساس له من الصحة، وأن المراقبين الذين قيل: إنهم تعرضوا للاختطاف حمتهم المعارضة بعدما جرى استهدافهم من قبل القناصة.

حمدوا الله على عودتنا سالمين من هذه الرحلة الخطيرة للغاية، وأخبرونا بأن الجامعة قامت بتوزيع الأفواج وتعيين الرؤساء، وأنه تمّ الإبقاء عليّ في حمص، وتسلموا شرائح هاتفية، لتفادي ما حصل من صعوبات في الاتصال بين المراقبين في زيارتهم الميدانية الأولى إلى حمص.

استأذنت زملائي المراقبين الذين كنت معهم، حتى أذهب لغرفتي من أجل تغيير ملابسي والاغتسال من غبار اليوم المتعب. صعدت إلى غرفتي، حيث شغلت جهاز التلفزيون، الذي لا يوجد فيه إلا قنوات سورية رسمية وبعض

القنوات اللبنانية الموالية. وقد قرأت في الشريط المكتوب أسفل شاشة قناة الإخبارية السورية، أن المراقبين تعرضوا لاختطاف من قبل «إرهابيين مسلحين» بحيّ باب السباع في حمص.

في ظل بداية الشعور بتخلخل في القناعة بطريقة العمل وما عليه شأن البعثة في اليومين اللذين قضيتهما ما بين دمشق وحمص، قمت بتشغيل جهاز الكمبيوتر، وفتحت بريدي الإلكتروني، إذ قررت مراسلة «اللجنة العربية لحقوق الإنسان» التي انتدبتني ضمن المراقبين العرب، على الرغم من أن علاقتنا بها انتهت بمجرد التحاقنا بالبعثة، ولا يعنيها أمرنا، إلا أنه بحكم الصداقة التي بيننا، آثرت أن أطلعهم على الحقيقة، ظنًّا مني أنها هي الجهة الوحيدة التي يهمها من خلال مشاركتنا بالبعثة، وأيضًا أبرئ ذمتي من هذه الأخطاء الفادحة، التي بدأت تطفو على السطح.

راسلت الدكتورة فيوليت داغر، رئيسة اللجنة العربية لحقوق الإنسان، وأخبرتها بأن العمل تشوبه الفوضى والارتجالية والمغامرة بحياتنا، وكأنهم يريدوننا أن نكون مجرّد كبش فداء لتعفين الوضع، وأكدت لها أنني عملت يومين في حمص، وزرت الأحياء الساخنة والرصاص فوق رؤوسنا من طرف قناصة، وذلك يمنعنا من المضي قدمًا إلى الأمام. ووجهت نقدي لعملية اختيار المشاركين التي لم تراعِ بعض الشروط، فيوجد بينهم من لا علاقة له بمجال حقوق الإنسان، وآخرون لا يهمهم إلا إكمال مهمتهم في الصورة التي كلفوا بها من طرف حكوماتهم، في إطار أمر بمهمة يتلقى عليها الأجر فقط.

أعلمت (اللجنة العربية لحقوق الإنسان) أنني سأعود إلى حمص، وأن الأمور إن بقيت على هذه الطريقة فالمهمة مآلها الفشل الذريع وتعفين الوضع، ما يجعل من الآلية مجرد وسيلة لذر الرماد في العيون، لأجل مخطط آخر معدّ

مسبقًا، وأشرت إلى أن ذلك سيدفعني إلى أن أفكّر في الانسحاب؛ لأنني لا أقبل أن أكون شاهد زور أو على كتفي تمرّ مخططات أخرى أجهل فحواها وغاياتها.

بعدما قضيت حاجاتي في غرفتي نزلت إلى بهو الفندق، حيث هناك تسلمت شريحتي الهاتفية، وبعدها نادى موظف الجامعة العربية، وأخبرنا بأنه تمّ إلغاء الاجتماع على الرغم من أهميته، وأن انطلاق المراقبين سيكون غدًا صباحًا ٢٠١١/١٢/٢٩ نحو المواقع الخمس التي تم اختيارها، وهي حمص وإدلب ودرعا وحماة وريف دمشق.

ذهبت أسأل عن الفوج الذي أنتمي إليه، فعلمت أنني ضمن الفريق الثاني من الفوج «ب» الخاص بحمص، وأن رئيس الفوج هو المراقب العراقي عمار سلمان جابر عباس، وكان معي في الفوج كل من زيد محمد عبد اللطيف محمد علي، والكريماني مولاي محمد، صالح ولد سيد محمود، محمد البشير ولد سيدي حمادي، إسلام محمد أبوالعينين سلطان، مصطفى صويليح، محمد حسين إدريس، وأخيرًا إلهام الشجني.

في الحقيقة لم يعجبني تعيين الشاب العراقي الذي يصغرنا سنًّا، ويوجد بين الفوج من يحمل رتبة عميد وآخر مقدم، ويوجد سفراء، ولهذا قررت عندما أذهب إلى حمص أن أقوم بتغيير الفوج، حيث إن حمص هي الوحيدة التي عين فيها الفوج «أ» والفوج «ب»، خاصة أن ذلك مسموح به، فقد قبل الدابي انضمام المقدم الجزائري عاشور الذي عين في حمص إلا أنه فضل أن يكون ضمن فوج درعا الذي يترأسه السفير الجزائري محمد يرقي.

عدت إلى غرفتي وبعد وقت قصير نزلت للقاء السيدة إلهام الشجني، حيث تواعدت معها، برفقة المقدم خالد الربيعان، فتحدثنا معها في أمور البعثة

والإشكاليات القائمة بصفتها موظفة ومسؤولة في الجامعة العربية، وصارت مقربة جدًّا من محمد أحمد مصطفى الدابي.

وأذكر أنني حدثتها عن الوضع الذي عليه شأن سوريا ومحاولات النظام استغلال المراقبين فيما يخدم أجندته، فأكدت هي بدورها الملاحظات نفسها، وقالت: إنها ليست مقتنعة تمامًا بالأمور، بل ذهبت إلى أن النظام السوري لم يلتزم بشيء وأهم بند هو وقف إطلاق النار، الذي يساعد المراقبين على أداء مهمتهم، ويسهل عملهم. فأخبرتها أيضًا بأن قيادة البعثة أراها ترتكب أخطاء عدة جسيمة ستعرضنا للخطر، وهي تخدم الحكومة من حيث تدري أو لا تدري، وهذه كارثة حقيقية تجعلنا قد نتورط في تعفين الوضع؛ لأن بوادر الفشل الذريع ظهرت من اللحظة الأولى التي وطئت فيها أقدامنا حمص.

إلهام الشجني بدورها كانت لديها تقريبًا الملاحظات نفسها، وأيدتني كثيرًا في ضرورة استدراك بعض الأمور، وأهمها العلاقة مع الإعلام والفضائيات، ونصحتني بأن أتحدث لرئيس البعثة الجنرال الدابي بذلك.

فقلت لها: «أنت كنت معنا في السيارة، ورأيت بنفسك كيف تجاهل اقتراحي على الرغم من أنه مهم للغاية، فكل طرف من الأزمة يريد أن يسمع من البعثة ما يرضيه، ولو الدابي يقول: إن الوضع في حمص سيئ سيغضب الحكومة، وإن قال العكس فسيغضب المعارضة، وعندما نكون في أحياء المعارضة ليست لنا حماية سواهم، الرجل لا يريد أن ينفذ إلا ما يريد وأن الأمور أراها تتجه للسوء».

وأضيف لها: «لو تبقى الأمور على هذا الحال، ولا يتم استدراك الأخطاء سأنسحب، ولن أسكت أبدًا».

فقالت لي: «أستاذ أنور، أنصحك بالتريّث والتحدّث مع الرئيس، وإن اقتضى الأمر فاتصل بالجامعة العربية، أما الانسحاب فسيقضي على البعثة نهائيًّا، وهذا الذي لا نريده نحن في الجامعة مهما طالت المدّة، وتأخرت النتائج».

فقلت لها: «أمنيتي أن ننجح في المهمة، ونساعد سوريا على الخروج من هذه الأزمة الدموية، ولكن لا يمكن أن تنجح بعثة المراقبة والعمل يسير بهذه الطريقة، ولا يمكن أبدًا أن نفكر في البقاء والناس تموت، يجب أن تلتزم الحكومة بالبروتوكول وإلا فلنغادر أفضل».

ثم أكدت لها: «هناك أخطاء كبيرة ترتكب، ولو يحدث مكروه لا قدر الله سنتحمل المسؤولية، والحكومة السورية بريئة من ذلك، فلا شيء يلزمها حسب البروتوكول».

طمأنتها بأنني سأحاول التحدث مع رئيس البعثة الجنرال الدابي مرة أخرى، وإن لم يسمعني فسوف أحاول الاتصال بالجامعة العربية؛ لأشرح لهم الأمور، ولكن إذا باءت المساعي بالفشل سأغادر مهما كان الثمن؛ لأنني لا أقبل فوضى مثل التي أراها، والأمر لا يتعلق برحلة سياحة، بل بمهمة نبيلة وخطيرة تتعلق بأرواح بشر يقتلون، ويذبحون، ويعذّبون.

فقالت: «علينا الصبر أستاذ أنور، ربما مع مرور الوقت تتحسن الظروف، ونتدارك الأخطاء، فهذه أول تجربة للجامعة العربية، وأكيد ستبدأ بأخطاء».

قلت لها: «نحن هنا لنراقب مدى التزام الحكومة بالبروتوكول، فرأيت معنا ما يحدث في بابا عمرو من قتل وقصف والوضع الإنساني الكارثي. أيضًا الفوج الآخر وجد نفسه في وسط مسيرات مؤيدة تطالبه بكتابة قصص وأساطير عما يجري، وهذا خارج مهمتنا».

قالت: «والله معك حق، وسأحاول التحدّث مع رئيس البعثة أنا أيضًا».

أضفت لها: «صراحة البرتوكول ميّت، لا يمكن تطبيقه في وضع إنساني مُزْرٍ بين نيران الجيش».

ثم سألتها: «أنت في الجامعة العربية ومسؤولة حقوق الإنسان كيف تمّ تحرير البروتوكول من دون دراسة حقيقية للواقع؟».

وهي تظهر لي من حاسوبها الشخصي التقارير والاقتراحات التي أعدتها من أجل نجاح المهمة، وهي كثيرة جدًّا، قالت: «قدمت لهم اقتراحات مهمة، ولكن لا أحد اهتم بها».

قلت: «وصلنا هنا، ولم نجد خطة عمل، والأمور تخضع للعشوائية والارتجالية، وتسير حسب المفاجآت، اقتنعت جدًّا بأن الجامعة العربية تريد أن تفعل شيئا ولا يهم النجاح في حلّ الأزمة أو إنقاذ أرواح الناس».

ضحكت، وقالت: «دعها لله، فما خفي كان أعظم».

وشرعنا برفقة المراقب السعودي المقدم خالد الربيعان في تحرير نماذج عمل المراقبين الموجهة للجامعة العربية في القاهرة، وأخرى داخلية خاصة برئيس البعثة ويوميات غرفة العمليات ورؤساء الأفواج ومعاينات المراقبين عن عملهم وملاحظاتهم اليومية في المحافظات التي يتمركزون فيها.

وقد أعددنا ذلك سويًّا نحن الثلاثة على أمل توزيعها عبر البريد الإلكتروني، ثم طباعتها من طرف كل فوج. وقد كنا في أثناء الإعداد نتناقش في أمور البعثة، وقد لاحظت أن المقدم الربيعان لم يكن مقتنعًا بالأمور، وأكّد بدوره قضية الارتجالية في التسيير، وما يقوم به النظام السوري من تصرفات تعيق المهمة، وتعجل بفشلها، وأعدت على مسمعه بعض ملاحظاتي،

فوافقني عليها من دون أدنى نقد، وبدوره نصــح بضــرورة أن نبلغ رئيس البعثة الدابي بكل ملاحظاتنا قبل فوات الأوان.

قبـل نهاية الاجتماع سـألتها عن ذهابها معنا إلــى حمص، فهي في الفوج الــذي أنــا بــه، فأخبرتني بـأن رئيس البعثـة الفريـق أول الركن محمـد أحمد مصطفى الدابي يلحّ عليها بأن تبقى معه في دمشق لتكون معه في مكتبه، ولكن القرار النهائي لم يصدر بعد.

أحسســت بأنها قد حسمت أمرها، ولكن لا تريد أن تبوح لنا بذلك لأسباب نجهلها، ولا نحن فكرنا في معرفتها؛ لأن الحديث كان عابرًا، ولا يعني لي شـيئًا أن تبقى في دمشق، أو تذهب معنا إلى حمص، وما يهمّني فقط هو نزاهة البعثة ونجاحها في مهمتها التاريخية.

بعدمـا أكملنا إعداد الوثائق اللازمة غادرت أنـا والربيعان إلى غرفنا في انتظـار اليوم الموالي، الذي سنشـهد فيه توزيعنا الرسـمي عبـر المحافظات. عندما فتحت حاسـوبي وجدت رسـالة ردّ من «اللجنة العربية لحقوق الإنسان»، حيـث تحدثت في أمـور مختلفة، وأعطت تحليلات كثيرة للأزمة السـورية، وما جـاء فيها قول الدكتورة فوليت داغر: «... الانسـحاب الآن لن يخدم إلا أعداء أوطاننا، الذين يتربّصـون بنا الدوائر، ويحرّضون على إحباط هذه الخطوات، ويضعونكم تحت ضغوط وتهويلات لها أول وليس لها آخر، ليكون رد فعلكم على هذا الشـكل. أما تعفين الأوضـاع فهي ليست بصـدد التعفن بوجودكم، بل منذ البداية، وسـيكتب لها أن تطول هكذا لو لم يكن من حلّ صـارم وسريع. أنت لن تكون شاهد زور، بل شاهدًا لتقول بعدما تعود كل ما لديك. فأرجوك اصبر لترى وتسجّل وتظهر جانبًا من الحقيقة على الأقل إن لم يكن الحقيقة كلها».

ثم تضيف: «إما أن تقول: إن قسمًا من الناس لا علاقة لهم بالمهمة، فهذا القول لن يخدم الا الأبواق التي استمعت لها هذين اليومين، وكان فيها أقوال تشيّب شعر الرأس، وكأن السيناريو المعدّ هو لتشويه صورة البعثة قبل أن تبدأ عملها، وليمشي السيناريو الذي أعدّ على الرغم عن أنف الجميع. فلا تكن أنت إحدى أدوات هذا السيناريو بهذا الموقف وهذه الأقوال، وتنبه إلى أن البريد قد يقرأ في مكان آخر، ومن غير الجدير بك أن يسجل هذا الكلام على لسانك، مهما كان صحيحًا وواقعيًّا».

وإن كنت أدرك أن رئيسة اللجنة العربية لحقوق الإنسان لم تفهم مقصدي جيدًا، وأنها لا تريد أي شيء يفشل المهمة، ومن جهة أخرى واضح من خلال كلامها أن لديها أجندتها الخاصة في القضية السورية، التي تبينت لاحقًا وهو الذي سوف نتحدث عنه.

وما لفت انتباهي هو تنبيهها لي من أن بريدي قد يقرأ في مكان آخر، ما أوجس في نفسي خيفة من المراقبة التي تعدت الهواتف إلى البريد الإلكتروني، وربما أشياء أخرى لا نعلم بها إلى هذه اللحظة.

فقبل أن أخلد للنوم كتبت ردًّا مختصرًا أكّدت لها فيه أنني لن أنسحب في ذلك الوقت، وسأعمل ما في وسعي لإكمال المهمة حسب قدرتي والمتاح لي، من أجل إنقاذ سوريا مما يحاك لها، وحاولت أن أكون حذرًا وشديد الاختصار، بعد الذي سمعته منها عن احتمال اطلاع أطراف ما على محتوى مراسلاتنا.

٢٤

توزيع الأفواج عبر المحافظات

في صباح الخميس ٢٩ ديسمبر ٢٠١١ نهضت مبكرًا، وجمعت أغراضي، ثم نزلت كي أتناول وجبة الإفطار، وبعدها شرع المراقبون يجتمعون في البهو، وكان الموظفون بالجامعة العربية يجمعون حقائب كل مجموعة في جهة، حيث إن الأفواج ستتوزع عبر حمص ودرعا وإدلب وحماة وريف دمشق.

في انتظار موعد الانطلاق جلست في الصالون ببهو الفندق مع أحد المراقبين من موريتانيا، الذي كان يجلس معه عميد في المخابرات مكلف بالحماية الشخصية للجنرال الدابي، وقد رحت أتناقش معه عن الوضع العام في البلاد، وما شاهدناه في حمص، حيث ردد الأسطوانة المعهودة حول معاناتهم من الجماعات الإرهابية المسلحة وتنظيم القاعدة والسلفيين الجهاديين، الذين يتمّ تهريبهم من دول عربية لم يذكرها، فسألته حينها: «هل الجماعات المسلحة تسمح للسلطات بقصف بيوت المدنيين بطرق عشوائية؟».

فرد عليَّ: «لم يحدث مطلقًا أن تم قصف الأحياء».

فقلت له: «أيها العميد، كنت ببابا عمرو، وقذائف الدبابات تسقط عليه».

قال لي: «ليست دبابات، هي قذائف هاون، يطلقها مسلحون حتى يغالطوكم».

فقلت: «بل هي دبابات، فبيننا خبراء وضباط سامون وجنرالات يعرفون نوع السلاح من صوته».

ثم أضفت: «هل يعقل أن هؤلاء يقصفون بيوتهم، ويقتلون أهاليهم، حتى يقنعونا أن الجيش يقتل، هذا لا يمكن تصديقه».

فقال: «هم إرهابيون يعادون الكل».

فضحكت، ثم قلت له: «أنا رأيت عناصر ينضوون تحت ما سموه الجيش الحر وبسلاحهم وسط الأهالي ويحبونهم ويرفعونهم فوق رؤوسهم».

فرد غاضبًا: «لا يوجد جيش حر، هؤلاء فارون، هربوا من الخدمة، مثل ما كان يحدث عندكم في الجزائر».

فقلت له: «لكل بلد وأزمة خصوصيتها، ولكن ما نراه في سوريا لا يطمئن مطلقًا، وجيشكم يمارس قتل الشعب بطريقة قذرة، على الأقل هذا الذي شاهدته مبدئيًّا في حمص».

فقال لي: «أودّ أن أسألك؟».

قلت له: «تفضل».

فسألني: «هل تحب سوريا؟».

أجبته: «بالتأكيد، فسوريا قرة أعيننا، وتعرف مكانتها لدينا بوصفنا جزائريين، ولولا حبي لهذا البلد ما كنت بينكم».

ضحك وتهلل وجهه، وقال: «لذلك أرجو منكم مساعدة سوريا؛ حتى تتعافى من هذه الأزمة».

فقلت له: «بالتأكيد، والمطلوب منكم التعاون فقط».

أومأ برأسه، وغزت ملامحه تباشير ابتسامة عريضة، ربت على ركبتي، وقال: «نحن تحت أمركم في أي شيء تريدونه».

قلت له: «مطلبي الأول: أن يتم وقف قتل الناس، وسحب المظاهر العسكرية والقناصة، وإن شاء الله سنبذل كل ما في وسعنا لمساعدة البلد».

قال العميد: «إن شاء الله».

فقلت له: «لدي سؤال، وأتمنى أن تجيبني ليس بوصفك عميدًا، بل بصفتك مواطنًا سوريًّا يحب بلده».

قال: «تفضل».

قلت له: «من الأهم البلد أم الرئيس؟».

تلعثم بعض الشيء، وخفض رأسه، فقد وجد نفسه في موقف محرج، وبين خيارين خطيرين، وبعد هنيهة من التفكير أجاب: «البلد والرئيس».

ابتسمت، وقلت له: «أنا أكلمك بوصفي مواطنًا وليس بصفتي مراقبًا، الآن حسب رأيي أن الأمور وصلت منعطفًا لا يمكن الجمع بين الاثنين، فمن تختار يا ترى؟».

قال لي: «أعفني من الإجابة رجاء».

فقلت له: «عندما تجد الخيار الذي يجب أن يكون، فتأكد أن سوريا ستخرج من أزمتها».

تحرّج من الحديث الذي دار بيننا، لذلك هبّ لتغييره عن طريق طلب الإذن، حتى يقوم ببعض الإجراءات الخاصة بسفرنا، وهو يهم بالمغادرة خاطبني قائلًا:

«أتمنى أن يتفهم كل المراقبين وضع سوريا، ويساعدونا في تجاوز ما نحن عليه من مؤامرة كبرى».

غادرني نحو عسكريين تابعين له، وراح يتحدث إليهم، في حين أنا استأذنت من المراقب الموريتاني الذي كان يتابع حديثنا من دون أن ينطق ببنت شفة، ثم اتجهت عند مراقبين جزائريين كانوا يجلسون غير بعيدين منا، وتبادلنا بعض أطراف الحديث عن العمل الذي ينتظرنا في هذه المهمة الصعبة والمعقدة، التي هي أكبر من البروتوكول الذي جئنا نحمله، كما قلت لهم بناء على عمل يومين في حمص.

تأخر تحضير السيارات وتجهيزها بشعارات الجامعة العربية، وإن فرق الحراسة بدورها لم تكن حاضرة جميعها، ولهذا لم ننطلق في الموعد المحدد وهو العاشرة صباحًا. وكان كل فوج يتم وضع حقائبه في السيارات، ويتجهز للانطلاق يأخذ صورًا تذكارية مع رئيس البعثة الفريق أول الركن محمد أحمد مصطفى الدابي، وذلك في ساحة الفندق حيث تتوقف السيارات.

على الرغم مما حدث معنا في حمص، إلا أن المراقبين رأيتهم تحمّسوا لبداية عملهم، فمنهم من يريد أن يصل ليطلع على مكان عمله، ويطمئن على حاله، وآخرون لديهم حماس لبداية المهمة لأسباب تتعلق بأجنداتهم، ويوجد بلا شك بينهم من يريد المساهمة في إنقاذ سوريا من الكارثة، التي هي فيها وبالتأكيد مقبلة على الأخطر مستقبلًا إن لم يتم تدارك الوضع.

انطلق في بداية الأمر فوج درعا، ثم بعده فوج حماة، ليأتي دورنا نحن، حيث قمنا بأخذ صور تذكارية مع رئيس البعثة، وقامت الجامعة العربية بتوثيق العملية بمصور خاص كان يحمل على كتفه كاميرا متطورة.

كنّا في أربع سيارات من نوع تويوتا، تم تجهيزها بلافتات خاصة بالجامعة العربية، ولم يتأخر من فوجنا المكون من عشرة أفراد غير إلهام الشجني التي أمرها الرئيس الدابي بالبقاء معه وعدم الذهاب معنا إلى حمص حسب توزيع

الأفواج، فقد سمعته من قبل يقول: إنه يحتاج إليها كثيرًا في العمل معه، ويعول عليها كثيرًا، فضلًا عما قالته لي إلهام نفسها.

توجهنا على الطريق المعتاد نحو حمص، وكانت سيارات الحراسة ترافقنا، وقد كان حديثنا عمّا ينتظرنا في حمص من مصاعب ومتاعب، وكان المراقبون يأملون في نجاح المهمة في أسرع وقت ممكن.

بعد نحو ساعتين تقريبًا وصلنا إلى قصر المحافظ، حيث وجدنا رفاقنا في انتظارنا هناك، وقد أخبرونا بأنهم اشتغلوا ذلك الصباح في حيّ بابا عمرو. فاتفقنا مع المحافظ على أن نكمل ما قام به زملاؤنا في الغد، وبعده نعقد اجتماعًا لوضع بنود خطة وطريقة العمل ورسم آليات خاصة نتفق عليها جميعًا، وخاصة أن تعليمات رئيس البعثة حفزت على التنسيق مع المسؤولين المحليين في كل كبيرة وصغيرة.

توجهنا إلى فندق السفير، الذي لا يبتعد كثيرًا عن قصر المحافظ، وفيه تم توزيعنا على الغرف، حيث تسلمت غرفة في الطابق الرابع تحمل رقم ٤١٣، ولكن لما أردت مغادرتها وجدت خللاً في برمجة المغلاق، فنزلت إلى الاستقبال وطلبت منه إصلاح الغرفة أو تغييرها، فأرسل معي من سيصلحها، غير أنه وجد الخلل يحتاج إلى وقت طويل، فتم تغيير غرفتي في الطابق نفسه إلى غرفة حمل الرقم ٤١٩.

بعدما رتبت أغراضي في الغرفة وأخذت حمامًا، رحت أبحث في الفراش وكل الزوايا، فقد كانت لدي شكوك بوجود أجهزة تنصت، فقلبت الفراش وفتشت الخزانة والحمام، ولم أعثر على أي شيء يمكن أن يثير انتباهي، غير أن ظني الكبير هو استعمال كاميرات سرية وصغيرة الحجم لا يمكن العثور عليها، لذلك مسحت كل مكان تمكنت من الوصول إليه، ويراودني فيه شكّ، وباء تفتيشي بفشل ذريع، ولم أعثر على أي شيء.

نزلت بعدها إلى الاستقبال، حيث يوجد صالون للشاي ومطعم، وهناك التقيت المراقبين وتعرّفت على رئيس فوجنا العراقي، فأخبرته بأنني سألتحق بالفوج الآخر، فوافق على ذلك؛ لأنه كان يودّ أن يأتي معه صديقه العراقي أيضًا الذي كان يقف معه، ورحب بالفكرة كثيرًا، فانتهت العملية بسهولة تامة، وخاصة أن السوداني العقيد عبدالله الطاهر رئيس الفوج لم يمانع في ذلك، وقال بالحرف الواحد: «نحن هنا أسرة واحدة، ولا توجد أي مشكلة».

صور تذكارية لرئيس البعثة مع الأفواج التي ستغادر دمشق نحو مراكزها

٢٥

في فندق السفير بحمص

توجهت إلى مطعم الفندق لتناول وجبة الغداء، وقد لاحظت الحراسة المشدّدة وكذلك العمال الذين أحسست أنهم ليسوا عاديين، فرئيس عمال المطبخ مجهز بجهاز اتصال لاسلكي، فضلاً عن أشخاص في الزيّ العسكري، سواء ينتمون لمجموعة الحماية التي رافقتنا من المحافظة لمحلّ إقامتنا، أو آخرين يبدو أنهم من حماية أخرى لا نعرف عنها شيئًا.

بعدما أنهيت الأكل خرجت من المطعم، وبقيت برفقة بعض المراقبين الذين أعرفهم، وآخرين لم يسبق لي أن التقيتهم، حيث تعارفنا وتبادلنا بعض الحديث عن وضع بلداننا، وجلس معنا المقدم صالح ولد سيدي محمود والسفير الموريتاني محمد ولد بشيري ولد سيدي حمادي، وهما من البعثة الموريتانية.

رحنا نتبادل أطراف الحديث عن مهمة بعثة المراقبين في سوريا ومقتضياتها المختلفة، وكانوا يستمعون لي بنهم شديد عن الصعوبات التي تلقيناها في اليومين الماضيين، وأول شيء تحدثنا فيه قضية مقر البعثة بحمص، فحسب البروتوكول أن الحكومة السورية تعهدت بتوفير مقار للمراقبين في دمشق وكل المواقع الأخرى التي تقررها رئاسة البعثة. لكن حسب ما علمناه عند وصولنا أنه لا يمكن توفير مقر لنا لأسباب قيل: إنها أمنية.

لقد تكفل كل رئيس فوج بتحويل غرفته إلى مكتب مؤقت، منه يتمّ تحرير التقارير اليومية وإرسالها عبر البريد الإلكتروني، في حين لا يتوافر فاكس أو

هاتف ثابت خاص بنا، ولا يمكن أن يصل إلينا أحد من الطرف الآخر المعارض للنظام، فحسب الملاحظات الأولية عند دخولنا رأينا أن الفندق محاصر بقوات الأمن من كل جهة، وقد أوحى لنا المشهد بوجود شخصية مهمة فيه، وخاصة أن الحراسة جدّ مشددة في الطوابق والاستقبال والحديقة ومن كل جهة، ولا يعتقد أن يكون ذلك من أجل المراقبين، فقد كنّا في دمشق ولم تصل الأمور إلى تلك الدرجة.

أبدى رفاقي رفضهم القاطع لهذه البداية غير الموفقة من كل النواحي والحيثيات، فلا يمكن ألا يكون لدينا مقر يمكّننا من التواصل مع كل الأطراف بحرية وراحة تامّة، ولا يمكن أن نعمل في الغرف وفي فندق من المستحيل وصول الطرف المعارض لنا بسبب الحراسة الأمنية المشدّدة، أو أن نستعمل هواتف محلّ الإقامة التي بلا شكّ ستخضع للمراقبة الصارمة.

النقطة الأخرى التي تحدثنا عنها، وتتعلق بأمن المراقبين، حيث إن الحكومة طبقًا للبروتوكول هي التي تقوم بـ «تأمين سبل الوصول وحرية التحرك الآمن لجميع أعضاء البعثة، في جميع أنحاء أراضي الجمهورية العربية السورية في الوقت الذي تحدّده البعثة، وذلك بالتنسيق مع الحكومة السورية»، ونحن ندخل بعض الأحياء من دون الحماية التي تتكفل بها السلطات.

قال لنا السفير الموريتاني محمد ولد بشيري معلقًا على ذلك: «يجب ألا نذهب إلى أي مكان من دون الحماية».

قلت له: «الحماية لا يمكن أن تدخل الأحياء الساخنة».

فردّ: «لا نذهب لها، لأنه لو يحدث لنا أي مكروه فنحن من يتحمّل المسؤولية؛ لأننا خالفنا البروتوكول».

أضــاف الموريتاني المقدم صالح ولد ســيدي محمود: «أنا أيضًا على هذا الــرأي، لا يمكــن أن نثق في أي طرف، الحكومة تعهــدت بالحماية، وهي تتحمل المسؤولية. أما الطرف الآخر فغير معترف به، ولم يتعهد بشيء».

فقلت: «هذه هي المفارقة في شــأن البروتوكــول الذي تم تحريره من دون دراســة للواقع، والحكومة الســورية تعرف جيدًا مثل هذه الإشــكاليات، وتكتمت عليها حتى نصدم بها، ولا نعرف كيفية العمل».

وأنا أســحب من جيبي البروتوكول أضــفت لهم: جاء في الفقرة الأولى من البنــد الثالث مــن البروتوكول «المراقبة والرصــد لمدى التنفيــذ الكامل لوقف جميع أعمال العنف، ومن أي مصدر كان في المدن والأحياء السكنية السورية»، وفي الفقرة الثانية «التأكد من عدم تعرض أجهزة الأمن الســورية فضــلًا عما يسمى (عصابات الشبّيحة) للمظاهرات السلمية».

ثــم تســاءلت: «كيف يمكن أن نتأكد مما ورد فــي البروتوكول، وأغلب العنف يستهدف الأحياء الساخنة، التي لا تدخلها السلطات وأيضًا المظاهرات هناك؟».

ثــم أقــرأ لهم الفقــرة الرابعــة التي تقــول: «التأكــد من ســحب وإخلاء جميع المظاهر المســلحة من المدن والأحياء الســكنية، التي شــهدت أو تشهد المظاهرات وحركات الاحتجاجات».

وعلّقــت قائــلًا: «بالله عليكم كيــف يمكــن أن نتأكد من ســحب المظاهر المســلحة فــي بابا عمــرو وباب الســباع والخالديــة والأحياء الأخــرى من دون الدخول إليها؟».

فقال الســفير محمد ولد بشيري ولد ســيدي حمادي: «شخصيًّا لن أدخل إلى أيّ حيّ من دون الأمن السوري».

فقلت له: «شخصيًّا سأذهب لكل الأحياء من أجل الحقيقة، وإن كتب الله لي الموت فلا راد لقدره».

تفرقنا بعد حديثنا الذي وصلنا فيه إلى قناعة أن البروتوكول لا يمكن تطبيقه أبدًا في ظل مشكلة الحماية، فإما أن نتجاوزه، وهذا لن يكون فيه الخير لنا، ففي حالة تناغم الأمر مع مصالح النظام السوري، فالأكيد لن يكون هناك أي مانع أو إشكال، أما غير ذلك فسنجد أنفسنا في مفارقة تتعلق أساسًا بخرق البروتوكول الموقع بين الحكومة والجامعة العربية.

صعدت إلى غرفتي من أجل أن أرتاح قليلًا، غير أنني بدل أن أضغط في المصعد على زر الطابق الرابع ضغطت على زر الطابق الخامس، ولما توقف المصعد ودون أن أنتبه وفُتح الباب وجدت نفسي أمام مسلحين في الزيّ المدني يسيطرون على الطابق، فوقفوا جميعًا كأنهم يستعدون لمعركة أو حدث طارئ، واقترب مني أحدهم، وسألني: «إلى أين أنت ذاهب؟».

أجبته: «إلى غرفتي».

فقال: «أنت مخطئ، أرجو التأكد من رقم غرفتك».

سحبت البطاقة من جيبي وفيها الرقم، وقلت له: «ها هو رقم الغرفة».

فردّ: «غرفتك في الطابق الرابع، وأنت في الطابق الخامس».

اعتذرت لهم عن الخطأ غير المقصود، ونزلت عبر المدرجات إلى الطابق الرابع الذي تقع فيه غرفتي، وقد كانت المدرجات محروسة من قبل ثلاثة أشخاص في الزيّ المدني، وبجانبهم كراسي، يبدو أنهم يقضون الوقت الطويل في موقعهم، فتساءلت بيني وبين نفسي عن سبب كل هذه الإجراءات الأمنية في ذلك الطابق على عكس الطوابق الأخرى؟ وقد تيقنت أن شخصية مهمة من النظام في الفندق بلا أدنى شكّ.

دخلت غرفتي وشغّلت جهاز التلفزيون، ففوجئت أنه لا يوجد لدينا غير قناة الدنيا والإخبارية السورية والقناة السورية وروسيا اليوم والعالم وتلفزيون الجديد والمنار وبعض القنوات الغنائية والفنية فقط، حيث لا أثر للفضائيات الإخبارية مثل الجزيرة والعربية والبي بي سي وغيرهم.

أحسست بانزعاج كبير؛ لأنه ليس من عادتي متابعة تلك القنوات، وعلقت بيني وبين نفسي ساخرًا:

«لا أثر للإعلام المستقل والحيادي في تلفزيونات الفندق، فكيف سيسمحون لها بالتنقل في جميع أنحاء سوريا طبقًا للبروتوكول».

تمدّدت على سريري، ورحت أتابع ما تبثه القنوات السورية، ووجدتها تقوم بتضليل كبير ليس له نظير، بل راحت تعيد تصريحات الفريق أول الركن محمد مصطفى الدابي الذي أكّد فيها على وجود مسلحين وزعم أن الوضع هادئ ومطمئن، وراح المحللون يمجدون هذه التطورات، التي تثبت حسبهم أن رئيس البعثة أكد وجود الجماعات الإرهابية، وأنه فضح المعارضة والفضائيات التي تتحدث عن وضع خطير في حمص.

عندما حان وقت وجبة العشاء نزلت إلى المطعم الذي كان يخضع لإجراءات أمنية مشدّدة، عكس ما كان عليه شأنه في أثناء الغداء، وهناك وجدت مراقبين في المطعم يتناولون الوجبة أيضًا، فجلست إليهم وطلبت ما أريد، وقد لفت انتباهي وجود شخصيات مهمة في المائدة القريبة منا، وفجأة يأتي رئيس الفوج ألا وهو العقيد السوداني عبدالله الطاهر، الذي توجه نحو هؤلاء وسلم عليهم، ثم جالسهم دقائق. وبعدها عاد إلينا وأخبرنا بأنه كان مع وزير الداخلية ومسؤولين أمنيين كبار لا يعرفهم، ولهذا تبين لي سبب تلك الإجراءات الأمنية، سواء في داخل الفندق أو من حوله أو حتى في الطابق الخامس.

مـن خلال الحديث الـذي دار بيننا علـى مائدة الطعام، علمـت أن بعض المراقبيـن عثـروا على أجهـزة تسـجيل مخبأة فـي زاوية تحت السـرير، وقد صـادروها ولـم يعيدوها إلـى إدارة الفندق، وقد أخبرتهم أنني فتشـت غرفتي جيدًا، ولم أعثر على أيّ شيء، ولذلك نصحنا العقيد عبدالله الطاهر وهو رجل اسـتخبارات متمرسـ، وله تجربة طويلة في المهام السـرية على حـدّ قوله، أن نحترس في سـلوكنا وكلامنا وتصـرفاتنا؛ لأن المكان مجهـز بأجهزة متطورة للغايـة، وحركاتنـا كلها تحت المراقبـة في أي مكان نحلّ بـه، وهواتفنا بدورها تخضـع للتنصّـت من قبل المخابرات السورية، وهو أمر طبيعي ومتوقع جدًّا في مثل هذه المهام الخطيرة كما قال.

٢٦

لقاء استثنائي مع وزير الداخلية

اللواء محمد الشعار

بعدما أكملنا وجبة العشاء، خرجت إلى بهو الفندق، حيث جلست على أريكة مع أحد المراقبين العراقيين، الذي انهمك في الرد على اتصالات هاتفية تهاطلت عليه، أما أنا فحاولت من خلال هاتفي المحمول فتح صفحتي عبر الفيس بوك، غير أنني لم أتمكن لصعوبة ذلك. وفجأة يقترب مني ذلك المسؤول، وهو وزير الداخلية وبرفقته أحدهم، وتحيط بهم الحراسة الشخصية المشدّدة، وقفت وسلمت عليهما، وقدمه لي مرافقه: إنه السيد وزير الداخلية اللواء محمد إبراهيم الشعار، فحييتهم ووجدتها فرصة للحديث مع الرجل، الذي أدرج على القائمة الأوروبية والأمريكية والعربية، التي تشمل منع السفر وحظر الأموال ومنع التعامل معه ضمن ١٢ وزيرًا آخر.

وقد تولّى محمد الشعار منصب وزير الداخلية في شهر إبريل ٢٠١١، في حكومة عادل سفر خلفًا لسعيد سمور، الذي تولى المنصب منذ ٢٠٠٣، وسبق أن كان رئيسًا للشرطة العسكرية، وأيضًا رئيسًا للمخابرات العسكرية بمحافظة حلب. ويتهم الشعار بأنه مهندس مجزرة سجن صيدنايا العسكري، التي حدثت في ٥ يوليو/تموز ٢٠٠٨، وأدت إلى مقتل أكثر من ٢٥ معتقلًا، حسب بيان صادر عن المرصد السوري لحقوق الإنسان.

أما مرافقه فوجهه ليس غريبًا علي، فقد سبق أن رأيته، سواء عبر الفضائيات، أو ربما في صحيفة أو في مواقع الإنترنت، ولكن لم أتذكر مطلقًا المكان الذي رأيته فيه، ولم أجد إلا أن أقول له: «ممكن أن أتعرف على سيادتك».

فرد عليّ: «أنا مسؤول عسكري، والبركة في سيادة وزير الداخلية».

اعتقدت أن الرجل أحد القيادات العسكرية البارزة بلا شكّ، مادام قاسمه مائدة الطعام، ولكنه لا يريد أن يبرز نفسه على حساب مسؤول حكومي، يتمثل أساسًا في وزير الداخلية اللواء محمد الشعّار.

لذلك قلت له: «نتشرف بكم جميعًا».

سألوني عن وطني؟ فأخبرتهم بأنني جزائري، فراحوا يشيدون بالأمير عبدالقادر والعلاقات الجزائرية السورية عبر التاريخ، بل إن وزير الداخلية ذكر طيبًا مواقف حكومة بلادي التي تدافع عن عروبة سوريا في الجامعة وكل المواقع على حد تعبيره.

بعدها سألني الوزير الذي يبدو من ملامحه القلق والإحباط: «كيف كانت بدايتكم في سوريا؟».

فقلت له: «سيادة الوزير، أولًا سوريا عزيزة علينا وغالية، ولا يمكن أن نريد لها إلا الخير».

الوزير: «نشكركم على شعوركم الطيب، الذي ليس بالغريب عن إخواننا الجزائريين».

ويردف: «كيف رأى أصحابكم زياراتهم لبابا عمرو وباب السباع؟».

أجبته: «أنا زرت في يومين بابا عمرو، وزرت باب السباع».

فتهلـل وجهه كمن يريد أن يسـمع مني شـيئًا يسـره، فقـال: «كيف الأمور هناك؟».

أجبتـه: «الوضـع الإنسـاني صـعب للغايـة، والعائلات محاصـرة، والقتل متواصل، وهذا شيء غير جيد بتاتًا».

لم يبالِ بالأمر، وسألني: «هل رأيتم المسلحين؟».

قلت له: «بل التقيناهم».

صـاحبه هزّ رأسـه مشـيدًا بذلك، أمـا الوزير فقال: «الحمـد لله تأكدتم بأنفسكم من وجود جماعات إرهابية مارقة».

قلت له: «سـيادة الوزير، لم أقل: إنها جماعات إرهابية، بل مسـلحون من المنشقين من الجيش، فلديهم بطاقاتهم المهنية».

فـردّ الوزيـر: «هـم يغالطونكـم، فتوجـد حـالات محـدودة مـن الفارين الخارجيـن عن القانون، الذين كانـوا في الجيش، لكن أغلبهـم من الجماعات المتشدّدة، ويوجد حتى أجانب تسلّلوا من الحدود مع شبكات تهريب الأسلحة».

قلت له: «الذين التقيتهم لديهم بطاقاتهم المهنية، أما الأجانب فلم أَرَ أي أحد منهم».

فقـال الوزيـر: «هم يختفون عندمـا تذهبون، ولما تغـادرون يظهرون بين الناس، أما البطاقات المهنية فهي مزوّرة، تأتيهم من قطر وتركيا».

ويضـيف: «نحن نعاني الوضـع نفسـه الذي عاشـته الجزائر، وهي تواجه الجماعات الإرهابية المتشدّدة».

ثم سألني: «كيف تعاملتم معهم، ومن كان يمثلهم؟».

فقلت له: «يوجد شباب يبدو أنهم أصحاب القرار، وهم من يتعاملون معنا».

فسألني مرافقه: «هل من الممكن أن تذكر لنا أسماءهم؛ حتى نعطيكم صورة عن حقيقة هؤلاء؟».

أجبته: «حاليًا لا أعرف أسماءهم، ولا يمكن أن أعطيك أيّ اسم من دون إذن من صاحبه، فقد يتعرض للخطر هو أو أحد من أهله».

فقال الوزير: «نحن نعرفهم جميعًا، ولدينا معلومات كافية، ولا يمكن أن نسيء لعوائلهم، فنحن نريد أن نجد حلًّا معهم من أجل البلاد؛ لأننا على يقين أنهم ضحايا أجندات خارجية».

فقلت له: «هناك أمر مهم سيادة الوزير، يتعلق بقضية القصف الذي يتعرض له الحيّ ونحن فيه، وهذا لا يساعدنا على العمل من أجل إخراج سوريا من هذه الأزمة الخطيرة».

فردّ: «نحن لا نقصف الأحياء، والجماعات الإرهابية هي من تقوم بذلك، ولكن لا يعني أنه لا توجد تجاوزات فردية من بعض العسكريين، الذين يتعرضون لإطلاق النار من طرف المسلحين، فأحيانًا يردون بعنف من دون الرجوع للقيادة، وعاقبنا كل من يبلغنا خبر تجاوزه للقرارات والتعليمات».

فسألته: «ماذا عن المعتقلين في السجون؟».

أجاب: «نحن نقوم بكل ما يلزم من أجل الإفراج عن أي معتقل لم تتلطخ يداه بدماء المواطنين».

قلت له أيضًا: «أرى أنكم تغلّبون الخيار الأمني، وقد أثبتت التجارب في دول كثيرة أنه دائمًا يفشل، وانعكاساته سلبية، فلماذا لا تجربون حلولًا أخرى؟».

رد: «من قال لك: إننا نفضّل الخيار الأمني؟».

قاطعته مستأذنًا: «تسمح سيادة الوزير، أنا زرت في يومين بابا عمرو، وباب السباع، ولم أجد غير الرصاص والقنص والقصف».

ابتسم، وقال: «ليس صحيحًا يجب أن تعلم أنه توجد جماعات إرهابية مسلحة، هي التي تقوم بالقتل والاختطاف، نحن الآن بصدد خيارات أخرى بينها: وجودكم أنتم بيننا، وأتمنى تعاونكم من أجل خروجنا من هذه الأزمة، ومن جهة ثانية إنني هنا لأجل ذلك، ونقوم باتصالات مع أعيان هذه المناطق وشيوخها، لإيجاد حلّ سلمي في إطار الإصلاحات التي أعلن عنها بشار الأسد».

قلت: «أولًا إن وجود وزير داخلية في مثل هذه الأمور يعطي انطباعًا عن الخيار الأمني فقط، وأمر آخر أن المعارضة ترفض أي تجاوب معكم، فما الحل في نظركم؟».

أجاب: «نحن نتساهل ونتنازل في إطار القانون وسيادة الدولة، وهؤلاء أولادنا ضلوا الطريق، يجب أن ننقذهم، ولكن إذا استمروا في عنادهم وجرائمهم، فواجبنا يفرض علينا حماية الشعب والبلاد من العصابات الإجرامية، التي تريد فرض منطقها على الدولة».

سألته: «كيف سيتم استعمال السلاح ضدهم، هل بالقصف أو القناصة أو الهجوم والاقتحام، وفي كل الحالات يوجد مدنيون بينهم من أطفال ونساء وشيوخ؟».

أجاب: «نحن نجمع الأعيان والشيوخ والأئمة ونعمل من أجل أن يخرج المدنيون من هذه المناطق، أو يقومون بواجبهم ويقبضون على المسلحين ويسلّمونهم، وفي حال عدم فعلهم لأي مبادرة سيتحملون نتائج ذلك».

قلت له: «سيادة الوزير أعتقد أن مدنيًّا يتجرأ ويقبض على مسلح ليسلمه لكم أمر صعب وغير منطقي».

ردّ: «ممكن جدًّا، فهم ينامون بينهم ويحمونهم، ويقدمون لهم الخدمات اللازمة».

قلت: «سيادة الوزير، هذا يعني أن المواطنين يرون فيهم نصيرًا لهم، وقد تحدثت إليهم، وهم يجمعون على أن ما يسمونه الجيش الحر، وأنتم تسمونهم إرهابيين، يحمونهم من بطشكم - وعذرًا على هذا اللفظ - فهو كما يتحدثون به، وأنا ناقل فقط».

قال الوزير: «رجاء ألا تصدقوهم، فهم يريدون مغالطة البعثة، لأجل أجندات خارجية في إطار المؤامرة على سوريا العروبة والمقاومة».

قلت له: «أؤكد لكم سيادة الوزير، أنني جئت إلى سوريا لست معكم ولا ضدكم، ولست معهم ولا ضدهم، أنا مع الحقيقة التي هي على أرض الواقع، ومن كانت الحقيقة معه فسأكون منتصرًا له».

ضحك، وقال: «هذا ما نريده منكم، وأتمنى أن يكون كل المراقبين على تصورك».

قلت: «تأكد أننا أقسمنا على الحقيقة».

عقب الوزير: «سوريا رمز العروبة والمقاومة، ويجب أن تكونوا معها في هذه الأزمة، فقد وقفت مع كل العرب في أزماتهم».

أردت أن أجسّ النبض، فقلت له: «والله لدي سؤال وهو خارج عن مهمتي بوصفي مراقبًا، بل أتحدث لك بصفتي الشخصية: جزائري يتابع الأحداث: لماذا لا تتفاوضون معهم من دون سلاح حول مطالبهم مهما كان نوعها؟».

بدت على ملامحه علامات الحرج من سؤالي، غير أنه أجاب بأبعد مما فكرت فيه: «سوريا هي الأسد، والأسد هو سوريا، ومن يريد أن يفرض منطقه على دولتنا نقطع لسانه قبل رأسه».

قلت له ضاحكًا: «أنا أسأل فقط سيادة الوزير، وأحتاج إلى لساني ورأسي معًا، ولا أملك غيرهما».

فسألني: «هل أنت عسكري أم دبلوماسي أم حقوقي؟».

أجبته: «أنا عسكري سابق، وحقوقي حاليًا».

ضحك، وقال: «أنتم جماعة حقوق الإنسان تكرهون دائمًا وزارات الداخلية».

فقلت له ضاحكًا: «وهل أنتم تحبون الحقوقيين، الحال من بعضه».

قال صاحبه الذي كان يتابع حديثنا بنهم: «شيء جيد عسكري يصير حقوقيًّا».

فقلت له: «لكن الحقوقي مستحيل أن يصير عسكريًّا، إلا إذا تخلى عن مبادئه».

ثم أردفت: «أتمنى سيادة الوزير، أنني ما عطلتكم عن أعمالكم والتزاماتكم، والحديث بيننا أخوي، وتأكد أن سوريا الآن وطني، وسأدافع عنها ما حييت».

مدّ يده وهو يصافحني قائلًا: «أشكرك ونحن هنا معكم، وأي شيء تريده لا تتأخر بالتواصل معي مباشرة، فأنت من بلد عزيز علينا».

صافحني مرافقه أيضًا، الذي شدّ انتباهي من خلال ملامحه كما ذكرت، ولم أتمكن من معرفته، ولا هو كشف لي عن هويته، حتى بدأ الشك يتسرب إلى نفسي: هل هذا الرجل هو آصف شوكت صهر بشار الأسد، حيث تزوج شقيقته الكبرى بشرى الأسد، وهو رئيس المخابرات، ونائب قائد الأركان، وأحد أبرز صناع القرار في هذا النظام.

غادرني الوزير ومن معه وحراسته الشخصية المشدّدة، إلى المصعد غير بعيد من مكان حديثنا، ليصعد إلى جناحه الخاص، حيث كان يقيم في الطابق الخامس من الفندق، كما سبق أن أشرنا إلى ذلك.

أما أنا فجلست مع المراقب العراقي صلاح سعيد، الذي قضى ليلة البارحة في حمص، وقد صرنا معًا في الفوج نفسه. بعد الحديث عن الأحوال، سألته عن يومه في حمص؟ فأخبرني بأنه ذهب مع رفاقه إلى حيّ بابا عمرو، وجرى الاتفاق على سحب الحاجز العسكري المتمركز في المؤسسة الغذائية غدًا، وأخبرني بأنه سيتم الإفراج عن السيدتين الموقوفتين أيضًا في اليوم نفسه.

تبادلنا بعض أطراف الحديث عن الصعوبات التي قد تنتظرنا في الغد في أثناء عملية الانسحاب، فأخبرني بأنه تمّ وضع كل الترتيبات مع الناشط الميداني والإعلامي خالد أبو صلاح والجماعة في بابا عمرو، وأيضًا جرى الاتفاق على كل الحيثيات مع المحافظ، وأن «كل شيء تمام التمام» كما نطق لسانه.

عدت إلى غرفتي وأول ما قمت به بحثت في الإنترنت وبصعوبة كبيرة ولحسن حظي تمكنت من فتح محرك البحث غوغل، فشبكة الإنترنت بالغرف ضعيفة، ولا يمكن تحصيلها إلا في حالات قليلة، ولا يتجاوز الاتصال دقائق معدودة.

وضعت اسم آصف شوكت وبحثت عن صورته، فعثرت على صورتين فقط، ووجدته هو الشخص نفسه الذي كان يرافق وزير الداخلية، وإن كان هناك تغير في الملامح بسبب عامل السن، حيث يظهر عليه بعض الشيب في شاربه وشعر رأسه، فضلًا عن أن وجهه صار نحيلًا بعض الشيء، مقارنة بالصورة المنشورة.

قررت أن أظلّ على تواصل معه، حتى أسمع منه أكثر وأكثر، لأنه هو العلبة السوداء الحقيقية لنظام بشار الأسد ومن قبل والده، على الرغم من يقيني أنه من الصعب دخول دهاليز شخص مثل العماد آصف شوكت، لكن قلت حديثي معه وكل ما أسمعه منه مهم بلا شك، مهما كانت طبيعته، خاصة أن هذا الأخير رئيس المخابرات العسكرية منذ فبراير/شباط ٢٠٠٥، ثم نائب رئيس أركان الجيش منذ ٢٠٠٩. إلى جانب علاقة المصاهرة التي تربطه بعائلة الأسد، حيث تزوج بشرى شقيقة بشار الكبرى عام ١٩٩٥، وتشير معلومات متوافرة أن عائلة الأسد رفضت علاقة ابنتهم المدللة من آصف شوكت التي بدأت منتصف الثمانينيات، بسبب أنه كان متزوجًا ولديه أطفال، إلى جانب فارق السن بينهما، حيث إنها من مواليد أكتوبر/تشرين الأول ١٩٦٠ وهو من مواليد ١٩٥٠. وكان أبرز من عارض العلاقة باسل الأسد، وهو شقيق بشرى الأكبر، حيث اعتبر أن الرجل يطمع في الجاه والنفوذ بتقربه من شقيقته.

غير أن بشرى صممت على موقفها، وهربت إلى حيّ المزة بالعاصمة دمشق، حيث تزوجت من آصف شوكت سرًّا، كان ذلك بعد وفاة شقيقها باسل عام ١٩٩٤ في حادث مرور. بعدما بدأت الإشاعات تروج عن هذه العلاقة اضطر الرئيس السوري الراحل حافظ الأسد إلى مباركة زواج ابنته ومدللته، وتصالحت الأمور بين شوكت وأصهاره.

أردت أن أبحث أكثر في الإنترنت، علني أعرف الكثير عن شخصية آصف شوكت وتاريخه العسكري والسياسي، إلا أن حظي سيئ، فقد انقطعت الشبكة، ولم أتمكن من الارتباط بها مرة أخرى.

أديت واجباتي الدينية كعادتي، ثم أجريت اتصالًا هاتفيًّا مع عائلتي في فرنسا؛ حتى أطمئن عليهم، كم كان جميلًا أن أسمع صوت ابنتي أريج ،الذي شنف مسمعي مثل الموسيقا العذبة، وخاصة وهي تعبر لي عن شوقها لي، ما جعلني أذرف دمعًا، وجالت في خاطري مشاهد تلك العائلات التي رأيت أطفالها يتضورون جوعًا، وأخرى قضت ليلتها تبكي صغيرها الذي تمّ قنصه، ولا يمكن أن نحسّ بحجم المصيبة إلا إذا تخيل أحدنا أن فلذات أكباده تعرضت لمكروه مشابه، حينها سيعرف مدى مصيبة هؤلاء، الذين يدفعون الثمن غاليًا، لأجل الحرية والعيش الكريم.

بعدها تمددت على فراشي أتابع التلفزيون، وكانت البرامج مزعجة جدًّا، غير أنني كنت مضطرًّا إلى متابعتها، حتى أرتاح بعض الوقت، وآخذ صورة على سريان الأمور من الناحية الإعلامية في البلد الذي نحن فيه.

غلبني النعاس من دون أن أغلق جهاز التلفزيون، وبينما أنا أغطّ في نومي العميق، فإذا بصوت الرصاص والقذائف كأنها تسقط بالقرب منّي، فخيّل لي أنه يجري الهجوم على الفندق، فنهضت مفزوعًا لأطل بحذر على النافذة، فلم أجد شيئًا، بل سيارات الحراسة في مكانها والعسكريون داخلها.

أدركت أن ما أسمعه يستهدف الأحياء الثائرة، وبالخصوص حيّ بابا عمرو الذي لا يبتعد كثيرًا عن محلّ إقامتنا، وبقي الأمر على حاله من منتصف الليل تقريبًا إلى الخامسة صباحًا، حيث كان القصف شديدًا والرصاص لم يتوقف، فمنه ما يُسمع قريبًا وآخر بعيد بعض الشيء، لذلك كان نومي متقطعًا بسبب

هذه الأصــوات التي تزلزل الكيان، فضــلًا عن أنني قلقت كثيرًا على المدنيين، الذيــن يطولهــم الموت في مثــل هذه الأوقات، التــي تجد فيها الــكل على فُرُش نومهــم، وأكثر ما يشــغل بالي الأطفال، الذين يســتيقظون علــى نيران المدافع ودخان الدمار، فأنا رجل لدي تجربة عســكرية، وقد أصابني الهلع، فكيف يكون حال الصغار، وما يجري يهطل على رؤوسهم؟!

سحب حاجز عسكري وإطلاق سراح سيدتين

نمت في اضطراب وبصفة متقطّعة، فالرصاص الذي ظل على مدى ساعات حال دون راحتي، إلى جانب ما ذكرت، فقد ذكّرني بسنوات الجمر، التي عشناها في الجزائر، حيث نبيت على صهيل الرشاشات، ونستيقظ على عواء المدفع، كما كان يصفها أحد الزملاء في الجيش الجزائري.

في حدود الساعة السادسة من صباح الجمعة ٢٠١٢/١٢/٣٠ نهضت من فراشي بعدما أتعبني الأرق بسبب الرصاص، الذي لم يتوقف لأكثر من خمس ساعات، وبقدر ما كان صوته مزعجًا بقدر ما كان قلبي يتوجّع، ويخفق قلقًا على الضحايا، الذين سيسقطون تحت هذا الجحيم، وكنت على يقين من أن النيران كانت تستهدف الأحياء الثائرة كبابا عمرو وباب السباع والخالدية والبياضة وغيرها.

لقد هاجمني القلق، وهو الذي سرق النوم من أهدابي، وجعلني أقضي ليلة متعبة فعلًا، وكنت مستعجلًا طلوع النهار حتى نعرف حقيقة ما حدث. أخذت حمامًا ساخنًا، وأدّيت واجباتي الدينية من صلاة وقراءة آيات من القرآن الكريم.

بعدها حاولت الارتباط بشبكة الإنترنت ولم أفلح، فشغّلت جهاز التلفزيون الذي لم أجد فيه ما يفيد، وفي حدود الساعة السابعة والنصف نزلت إلى الاستقبال، فالتقيت بعض المراقبين الذين استيقظوا مبكّرًا، وقد لاحظت

عسكريين بأسلحتهم قد أعياهم التعب، وناموا على الكراسي، وفي حال لا يعجب أبدًا، ويوجد من هم من فوج حراسة وزير الداخلية والعماد آصف شوكت، وطبعًا لكل واحد منهما جناحه الخاص، ولا يهمهما شأن هذا أو ذاك، بقدر ما يهتمان بأمور الحكم والحفاظ على امتيازاته، كدأب الأنظمة القائمة ببلادنا العربية، خصوصًا التي طالتها انتفاضات شعبية، كان هذا ما دار في ذهني، وأنا أرى العسكريين قد غلبهم النوم في وضعيات تجعلك تشفق عليهم.

مع المراقبين الذين التقيتهم في بهو الفندق، توجهنا نحو المطعم من أجل تناول وجبة الإفطار، وقد كنت في أعماقي مستعجلًا للخروج نحو الميدان، ومعرفة تطورات الوضع، وخاصة بعد عنف البارحة، ولمست لدى زملائي الآخرين تعبهم من قلة النوم أيضًا، بسبب ما سمعوه في تلك الليلة من إطلاق نار أسلحة خفيفة وأخرى ثقيلة.

كان حديثنا على مائدة الإفطار حول ما جرى من قصف، وقد أخبرنا أحد المراقبين أن الليلة التي قبلها كانت على الحال نفسه، وفي تلك الأثناء التحق بنا رئيس الفوج «أ»، الذي صرت أنتمي إليه، وهو العقيد عبدالله الطاهر، وأخبرنا في أثناء الإفطار بأنه في حدود التاسعة سنتوجه إلى قصر المحافظ غسان عبدالعال، ومنه نبدأ عملنا في حيّ بابا عمرو، حيث سنقوم بالإشراف على سحب حاجز المؤسسة الاستهلاكية، مقابل الإفراج عن السيدتين المعتقلتين لدى الحكومة.

سألت العقيد عبدالله عن كيفية التبادل، فأخبرني بأنه جرى الاتفاق مع المراقبين، الذين باتوا أول أمس بحمص، وعملوا في بابا عمرو، على أنه سيبدأ أولاً إخراج العسكريين القتلى والجرحى وبعدها الآليات العسكرية، ثم يتمّ انسحاب الأفراد المقدر عددهم بنحو ستين عنصرًا، وحين ننتهي من الأمر سنقوم بتسلم المعتقلتين، وأخذهما لأهلهما، فقلت له:

«لماذا لا يتم الإفراج عنهما أولاً؟».

أجـاب: «يظهـر أن المحافظ خائـف من حـدوث انفلات، وأيضًـا هناك إجراءات لازمة لأجل إحضارهما».

قلت له: «ماذا لو لم يتم تسليم المعتقلتين بعد سحب الحاجز؟».

أجاب: «حسـب الأخ صـلاح أن المحافظ تعهد بالأمر، ولا أظن أنه يخلف وعده، ويسبب لنا مشكلات».

فقلـت له: «أنا في رأيي تحمل هذه المسـؤولية من قبل البعثة، هي مغامرة غيـر مضـمونة العواقـب، فإخراج عسـكريين مسـلحين في وسـط ملغوم ليس بالسهل».

فقال لي: «تلقينا ضمانات من الطرفين».

فقلت: «اللّه يجيب الخير».

أكملنا فطورنا، وقد لحق بنا مراقبون آخرون، وكانوا كلهم يتسـاءلون عمًّا حدث البارحة، وكل واحد يعتقد أنه سيجد عند غيره جوابًا. بعدها عدت لغرفتي حتى أعد نفسي للخروج نحو عملنا لتنفيذ ما ينتظرنا من عمل، فقد كنت متلهفًا لأن أغوص في خبايا حمص وجيوبها الخفية والمعلنة، حتـى أحيط بالحقيقة كاملة التي غامرت من أجلها.

بعدما لبست بذلتي، ووضـعت السترة البرتقالية والقبّعة البيضاء، ونزلت حيث الاسـتقبال، فوجدت المراقبين يتجمعون هناك، وقد حضـر موظفون من المحافظة بينهم السـيدة علا، التي تعمل في مكتب المحافظ، وصـارت مكلفة بشؤون البعثة، برفقة آخرين يتابعون كل كبيرة وصغيرة تخصّنا.

توجهنا برفقة السيدة علا وزملائها والحراسة المخصصة لنا نحو قصر المحافظ، حيث وجدنا المحافظ غسان عبدالعال في انتظارنا، سلمنا عليه وأخبرناه بأننا سنبدأ عملنا بحي بابا عمرو، في حين الفوج الآخر سيتوجه نحو حي باب السباع. بقي المراقب العراقي صلاح سعيد في المحافظة، ليقوم بالتنسيق بيننا وبين المسؤولين، حيث علمنا أننا سنقوم بإدخال سيارات إسعاف تبدأ أولًا بإجلاء الجثث والجرحى، وبعدها تدخل شاحنات ذات الوزن الثقيل لسحب العتاد، وستأتي آليات عسكرية أخرى لتسحب العربات المصفحة الأخرى، التي صارت معطلة بعدما تمّ استهدافها من قبل عناصر الجيش الحر، كما روي لنا.

أمر آخر أنه تمّ الاتفاق على تكفل المراقبين بقيادة سيارات البعثة، تفاديًا لأي تجاوزات أو مفاجآت، كما جرى من قبل مع المقدم مدين الذي زعم أنه سائق في وكالة تأجير السيارات، وتبين لاحقًا كذبه، وخطة الاختراق التي كان بصدد تنفيذها، لذلك تقرر أن يتكفل بقيادة سيارتنا المراقب السوداني الجيلي البشير محمد سعيد، توجهنا نحو بابا عمرو من طريق آخر على غير عادتنا، حيث يمر أمام مقر الأمن السياسي، وهناك تركنا الحراسة على مقربة من جسر جورة العرايس، الذي يوجد به حاجز عسكري تابع للجيش النظامي، وإن البيوت المطلة على الشارع يسيطر عليها قناصة، وقد شاهدنا بعضهم يطل علينا بحذر من أسطح هذه البيوت.

أعطاني النقيب فادي، وهو مسؤول الحماية رقم هاتفه لكي أتصل به، لما نكمل مهمتنا، ونريد العودة لمحلّ إقامتنا، فهم سيعودون إلى الفندق، ويبقون هناك في انتظار اتصال منا.

وصلنا إلى مدخل حيّ بابا عمرو، حيث يتمركز حاجز تابع للجيش الحر. فوجدنا في انتظارنا كلاًّ من خالد أبو صلاح، وبعض من رفاقه الناشطين

ميدانيًّا في الهيئة الإعلامية للحيّ؛ لأن العقيد عبدالله الطاهر اتصل به قبل انطلاقنا من المحافظة.

والتفّت حولنا مجموعات من الأهالي، يرفعون لنا احتجاجاتهم، وأخبرونا بأنهم قضوا ليلتهم تحت القصف الذي استهدف بابا عمرو، وأكّد لنا الناشطون أنه تمّ قصف البياضة والسلطانية والخالدية بالمدفعية الثقيلة، وأدى إلى سقوط جرحى وقتلى.

سألناهم عن عدد الضحايا في بابا عمرو، فأكدوا لنا أنه لحسن حظهم لم يسقط غير ثلاثة شهداء وخمسة جرحى، يعالجون في المشفى الميداني، وطالبوا أن نقوم بزيارتهم، إلا أن العقيد عبدالله الطاهر ترجّاهم أن ننهي مهمتنا وبعدها نزورهم، وقد خفنا أن يؤثر ذلك على عملنا، إلا أنهم وافقوا على طلب العقيد، وأكدوا على التزامهم بالمتفق عليه، أما ما يجري من قصف فقد اعتادوا عليه، وهم على يقين أن النظام لا ولن يلتزم مع المراقبين بوقف إطلاق النار.

توجهنا بسيارتنا نحو حاجز المؤسسة الاستهلاكية، الذي كان لا يبتعد كثيرًا من الموقع الذي كنّا فيه، وقد كنت حينها برفقة رئيس الفوج العقيد عبدالله الطاهر، والمراقب الجيبوتي محمد حسين عمر، والمستشار السوداني محمد حسين إدريس، والسوداني الجيلي البشير محمد سعيد، والمصري كريم عبدالمحسن حسن، والسوداني الزاكي كوكو خالد الجاك.

دخلت برفقة العقيد عبدالله الطاهر إلى المؤسسة، وطلبنا منهم تحضير أنفسهم للمغادرة، في حين بقي المراقبون في الخارج، بينهم من تقدم إلى مدخل الشارع، ينتظر وصول سيارات الإسعاف، التي ستقوم بإجلاء جثث القتلى الثلاثة، والعسكريين الجرحى، الذين يتجاوز عددهم ٧ أفراد، وآخرون

يمنعون المواطنين من الاقتراب من المؤسسة، تفاديًا للانزلاقات التي ستؤدي إلى كارثة حتمًا، وطبعًا كان ذلك بتعاون محكم من خالد أبو صلاح ورفاقه.

وجدنا العميد قائد الحاجز على علم بالموعد؛ لأنه تلقى أوامر من قيادته بتنفيذ ما نطلبه منهم، وقد جهزوا عتادهم وأغراضهم لذلك قبل وصولنا، ولاحظت أن جنودًا في الداخل يقومون بإعداد أنفسهم في حين يوجد آخرون يتمركزون في أعلى البناية تحسبًا لأي طارئ، فطلبنا منه أن يأمرهم بتفادي الاستفزاز أو الانجرار له إن جاء من الطرف الآخر وعدم إطلاق النار، حتى ننجح في إخراجهم سالمين من المكان.

ومما قلت له: «يجب أن نبتعد عن أي موقف قد يستفزّ الطرف الآخر، ونخسر العملية».

فرد عليَّ العميد الذي كان سعيدًا بالمبادرة: «ليس في ذلك مشكلة، لكن أرجو أن يلتزم الطرف الآخر».

فقاطعه العقيد عبدالله: «لقد أوصيناهم، واتفقنا معهم، فلا تقلق».

العميد: «لدينا ثلاث جثث لمجندين عندهم، نرجو أن يعطوها لنا».

سأله العقيد: «أعطِني أسماءهم».

استدار إلى أحد الضباط، وطلب منه أن يحضر لنا أسماء المجندين الذين جثثهم عند المسلحين، فتقدم منا، وهو يقول لقائده: «أنا أحفظ أسماءهم».

ثم التفت نحونا، وهو يقول: «المجنّد محمد صبحي، والمجند جمال اللحام، والمجند جمال عز الدين».

سجل العقيد أسماءهم، وطمأنهم أنه سوف يسأل عنهم الجهة الأخرى، وتمنى العميد أن تحل المشكلة قبل المغادرة النهائية.

بدأ العسكريون الذين أغلبهم في زيّ عسكري باستثناء العميد والجرحى، وعدد قليل لا يتجاوز الخمسة، ممن كانوا في الزيّ المدني ولا يحملون أسلحة، وقد ظهرت عليهم سعادة كبيرة لمغادرة المكان، أما الجرحى فكادوا يطيرون فرحًا، فبينهم من هو مصاب في عينه وآخر في ذراعه ويوجد من فخذه مجروح، ولا يستطيع المشي، بل يوجد جريح آخر في وضع صحي سيئ جدًّا.

لقد كان المراقب العراقي صلاح سعيد المتمركز في المحافظة، على تواصل دائم معنا، حيث يتابع برفقة إدارة المحافظة تطورات عملية الانسحاب، وخاصة أن الحاجز العسكري هذا كان يؤرق المحافظ والقيادة العسكرية؛ لأنه معرض لأخطار كبيرة، وظهر لي من خلال تجربتي العسكرية أن المسارعة في سحب الحاجز ستعقبه حتمًا عمليات عسكرية مستقبلًا، منها القصف العشوائي بالأسلحة الثقيلة والدبابات حتمًا.

لم نمكث طويلًا حتى وصلت سيارتان للإسعاف وأخرى للنقل، وبدأ الجنود في حمل الجثث، وقد كانت رائحتها كريهة جدًّا، ولاحظت العسكريين يتعاملون بسوء مع هذه الجثث، التي يصفها المحافظ والعميد وآخرون بأنهم شهداء الواجب الوطني، فقد حملت الجثث كأنها جيف، وليست لزملائهم، الذين قتلوا أمامهم، وتربطهم بهم عشرة على الأقل تلك الأشهر التي قضوها في بابا عمرو، يواجهون الموت على حدّ وصفهم.

حيث يضعون الجثة على بطانية قذرة جدًّا، ويحملون الميت وهو منكب على وجهه، وبسرعة، وهم يقهقهون من دون أدنى توقير للقتيل، وعندما يصلون إلى سيارة الإسعاف يرمونه كما يرمى كيس الزبالة، وقد وضعت الجثث بعضها فوق بعض، وفي حال متأكد أن عائلاتهم لو يشاهدون ذلك سيثورون ضد هؤلاء الذين لم يحترموا أبناءهم، وعاملوهم معاملة سيئة وقذرة، مهما أصفها، فإنني أعجز عن تبليغ الصورة كاملة.

مما أكّد لي أطروحة العسكري والمعارضة، الذين أخبروني من قبل أنه تمّ إعدامهم بسبب محاولتهم الفرار نحو الجيش الحر، لذلك تقدمت من الجنود الذين يخرجون الجثث من داخل المؤسسة، وطلبت منهم ضرورة التعامل بأدنى احترام للجثث؛ لأن هؤلاء بشر موتى، والواجب يقتضي معاملتهم بالحسنى ولو أنهم كانوا أعداء، فلا يليق مطلقًا أن ترمى هذه الجثث في السيارة، وتتراكم بعضها فوق بعض، غير أنهم لم يهتموا بكلامي، ولا أحد منهم تقدم نحوهم لترتيبهم، على الرغم أنه من الممكن وضعهم بجانب بعض، وليس كما ذكرت.

كان المئات من المواطنين يقفون قبالة المؤسسة، والمنظّمون منهم يحملون مكبر صوت، ويطالبونهم بالابتعاد، بل أقاموا حاجزًا، حيث يربط كل واحد يده في الآخر، لمنعهم من التقدم نحو العسكريين، لتفادي أي تجاوز، وخاصة أن الجو مكهرب، والحاجز متهم بقتل الأهالي وقنصهم.

أذكر أنه على الرغم من الشعارات التي هتف بها السكان ضد النظام والجيش السوري النظامي، إلا أن بعض المواطنين تمكّنوا من تجاوز الحاجز الذي أقامه الناشطون، واقتربوا من العسكريين، حيث راحوا يسلّمون عليهم، ويحمدون الله لهم أنهم سيعودون أحياء لذويهم، بل أعطوهم علب السجائر وقارورات الماء، وصل الأمر حدّ تبادل العناق فيما يشبه المصالحة، وكانت لحظة دفعت أحد الضباط إلى أن قال وهو يقف بجانبي مخاطبًا هؤلاء الشبان:

«والله أنتم ضحايا، ونحن ضحايا، والمستفيد هو طرف آخر».

ثم صمت، وكان متأثرًا جدًّا، ومن دون أن يحدد الجهة المستفيدة، فقلت له:

«شعب رائع لو أدرك المسؤولون روعته، وخدموه بإخلاص ونزاهة ما وصل الحال إلى كل هذا القتل».

فردّ بصوت مبحوح: «حسبنا الله فيمن كان السبب».

ورددها ثلاث مرات أو أكثر، ثم غادرني نحو داخل المؤسسة من دون أن يضيف شيئًا.

خالد أبو صلاح قام بدوره كما ينبغي، بل كان يقترب ويتحدث مع العميد بكلام طيب، حتى إنه قال له: «نحن أبناء الشعب السوري، ولا يعقل أن نتقاتل فيما بيننا».

فرد عليه العميد: «هذا ما حدث مع الأسف الشديد».

ويقول له أبو صلاح: «أنتم جيش بلادنا وأبناء الشعب، وأنتم تحموننا، وتحمون وطننا، وليس النظام أو أي طرف آخر».

فردّ العميد: «نحن لا نحمي أحدًا».

فقال له أبو صلاح: «ليس الوقت لأي حديث آخر، لكن تأكد أن المستقبل للشعب، والسعيد من وقف مع المواطنين».

تدخلت برفقة العقيد عبدالله الطاهر لقطع الحوار، خوفًا من تطوره على الرغم من أن الحوار جاء في سياق ودّي، فقد كنّا نتفادى أي كلمة، حتى ننهي مهمتنا، التي كلفنا بها من قبل رئيس البعثة، على الرغم من أنها خارج إطار البروتوكول.

تقدمت من الجرحى الذين كانوا في سيارة النقل ورحت أتحدث معهم عن شعورهم وهم يغادرون المؤسسة، وقد كانوا سعداء جدًّا، وخاصة أولئك المتضررين الذين تنتظرهم عمليات جراحية عاجلة، وأخذت صورًا لهم ومعهم.

بعد نهاية العملية تحرّكت السيارات للمغادرة، فقمت مع مراقبين آخرين بمرافقتهم، وقد قام مواطنون بالتكبير عليهم، إلا أن الناشطين أمروهم بالسكوت والذهاب نحو ساحة التظاهر والاعتصام في وسط بابا عمرو. وصلنا إلى نهاية الشارع تقريبًا، حيث يتم تفتيش السيارات والسائقين من قبل حاجز الجيش الحر.

وأذكر أن الملازم الأول مهنّد الخطيب «أبوبكر» خاطب الجرحى قائلاً:

«والله الذي لا إله إلا هو، لولا أننا أعطينا العهد للمراقبين ما خرجتم أحياء من بابا عمرو، فاحمدوا الله كثيرًا، وتوبوا إليه قبل فوات الأوان».

ولم ينطق أي واحد منهم ببنت شفة، فهم أصلًا ما صدّقوا أنهم سيغادرون المكان بتلك السهولة، التي ما تخيلوها حتى في أحلامهم، كما قال لي أحد الجرحى، الذي لم يتمكن من رؤية أولاده منذ أشهر.

بقيت هناك برفقة أحد المسلحين في انتظار إبلاغنا بوصول الشاحنات الثقيلة، التي ستقوم بإجلاء العربات المدرعة المعطوبة، أما العقيد عبدالله الطاهر فبقي برفقة العميد، يتابع التحضيرات، ويراقب سريان الأمور، حتى لا يحدث أي تجاوز من الطرفين.

اتصل بي المراقب العراقي صلاح سعيد، وأخبرني بأن الشاحنات قد وصلت، وهي في الطريق الذي يحاذي جسر جورة العرايس أو جسر كلية الطب، كما يطلق عليه أيضًا، فامتطيت السيارة برفقة «أبوأحمد صبوح»، وهو ناشط مدني يعمل في الجيش الحر، وكان معه سلاح من نوع كلاشينكوف.

فقلت له: «ألا تخاف وأنت ستذهب معي إلى مكان يسيطر عليه النظام، وتقف في شارع على كل أسطح البيوت المحاذية تجد القناصة».

فردّ عليّ: «لن يفعلوا شيئًا؛ لأنهم يدركون أن الجيش الحر سيقضي على حاجزهم، الذين هم في حاجة إلى سحبه».

سألته: «ما فائدتهم من ذلك في رأيك؟».

أجاب: «يعرفون أنهم لا يستطيعون سحبه من دون موافقتنا، ولا يريدون المغامرة في إيصال الأغذية إليهم، والأكثر أنهم في أثناء عمليات القصف العشوائي يجدون حرجًا في قتل جيشهم، ولذلك يريدون سحبه، ليبقى حي بابا عمرو خاليًا منهم، يستطيعون محوه بلا أدنى تردد».

وإن كنت لم أستبعد ما طرحه، إلا أنني قلت له متعجبًا: «كيف إذًا سمحتم لهم بالانسحاب؟».

أجابني أبوأحمد: «لدينا أخوات أسيرات مستعدون أن نفديهن بأرواحنا، وإن المواطنين يعانون من قناصة الحاجز، وإبعادهم من ذلك المكان يريحهم، ولو مؤقتًا في وجودكم أنتم».

ويضيف: «يا أستاذ، لو تسمع بكاء أبنائهما منذ الاعتقال لفعلت المستحيل من أجل تحريرهما».

وقد اغتنمت الفرصة، وسألته عن المدنيين الذين يحملون السلاح، فأجابني:

«نحن من المدنيين المتطوعين مع الجيش الحرّ؛ لأنه أمر ضروري، فأغلب العسكريين غرباء عن الأحياء، ولا يعرفون الناس، ويحتاجون إلينا نحن كي نعمل معهم، ولا يمكن أن نبقى مدنيين من دون سلاح، لذلك يتم تسليحنا، ونخضع لقيادة الجيش الحر، وبعد الاستقلال إن شاء الله سيعود كل واحد منا إلى بيته وعمله الأصلي».

فسألته: «ألا تخافون من التجربة الليبية؟».

أجاب: «مشكلة ليبيا أن التسليح كان في إطار ميليشيات، كل واحدة تخضع لفكرها وسياستها، أما نحن فكلنا تحت قيادة الجيش الحر، فهو البديل للجيش الأسدي، ولا نقبل بوجود ميليشيات أبدًا».

كنت أريد بالفعل أن أسمع منه، لذلك قلت له: «يردد المسؤولون في المحافظة وغيرها أنه يوجد إسلاميون يحملون السلاح، ويشكلون تنظيمًا متحالفًا بصفة مؤقتة مع الجيش الحر».

سألني: «هذه أكاذيب النظام، وما دليلهم؟».

قلت له: «يقولون فيه ملتحون وإسلاميون سابقون معروفون لديهم».

ضحك، وقال: «هل ينتظرون من شعب يقتل صباح مساء أن يتزين، وهو يدفن يوميًّا أفرادًا من أسرته».

ثم أردف: «هذا كلام لا أساس له، نحن شعب مسلم بالتأكيد، لكن لسنا إرهابيين، ولا طائفيين، ولا مجرمين، بل نحن سوريون، نحب بلدنا بكل طوائفه، ولا تهمنا غير الحرية، ومحاسبة نظام استعبدنا ٤٠ عامًا».

اغتنمت الفرصة، وسألته عن المجندين الذين طلبهم العميد، فأخبرني بأنهم انشقوا وهم مع الجيش الحرّ، ولكن لا نستطيع إخبارهم بذلك، خوفًا على عائلاتهم.

وصلنا حينها إلى المكان المقصود، حيث وجدنا ثلاث شاحنات ثقيلة، ومعها ثلاث سيارات عسكرية، بها مجندون مسلحون، فنزل مرافقي، ولكنه ترك سلاحه بالسيارة، فطلبت منه أن يبقى بعيدًا بجانب سيارته، وتقدمت أنا

من ضابط برتبة نقيب، وأخبرني بأنه ستأتي دبابة لتقوم بسحب دبابة أخرى معطلة بجانب المؤسسة، فلا يمكن حملها في الشاحنات.

اتصلت بالمراقب صلاح الموجود بمقرّ المحافظة، لأسأله عن شأن هذه الدبابة، التي ستدخل الحيّ، فأخبرني بأنه تمّ الاتفاق على ذلك، فلا يمكن شحن الدبابة المعطلة، بل يجب سحبها بدبابة أخرى، وأعلمني بأن خالد أبو صلاح ورفاقه لديهم خبر بذلك وموافقون عليه، غير أنهم اشترطوا تفتيش الشاحنات والدبابة وكل شيء يعبر، ولا يجب أن يدخل معهم سلاح أو ذخيرة.

تحركت شاحنتان من الوزن الثقيل، وانطلقت مع مرافقي بسيارته، حيث توقفنا في المكان المخصص للتفتيش، الذي فيه حواجز حديدية أقامها الجيش الحر منذ مدة، لمنع اختراقهم بآليات عسكرية.

وبينما كان عناصر الجيش الحر بقيادة الملازم أول مهند الخطيب «أبوبكر» يقومون بالتفتيش، حيث عثروا على أكل وزجاجات خمر أيضًا، وإذا بصراخ مرتفع خلف الشاحنة الثانية، ركضت مسرعًا للمكان الذي التفّ حوله مواطنون ما يوحي بشجار قد حدث، فوجدت أحد المواطنين ينزف، وقد أصيب بسكين في ذراعه، في حين رأيت شاحنة من الحجم الصغير معنا أيضًا، ولا أعرف عنها شيئًا.

سألت الجريح عما يجري، فقال لي: «سائق هذه الشاحنة أردت تفتيشه، فضربني بحربة سلاح كانت معه».

التفت إلى أحد عناصر الجيش الحر، وسألته: «لمن هذه الشاحنة؟».

أجابني: «هي تابعة للجيش الأسدي، أراد صاحبها أن يتسلل بسلاحه للحي».

وأنا أشاهد شخصًا يقومون بسحبه على الأرض، ويضربونه، وهو يقاوم بيديه، قلت لهم: «أنا لا أعرف شيئًا عنه ولا عنها، معي هاتان الشاحنتان فقط».

كان السائق من ثكنة الأمن السياسي، وقد تعرض لضرب شديد، وسمعت صراخه الذي بلغ عنان السماء، وتم إدخاله إلى بيت مهدّم ومهجور، لذلك طلبت من عناصر الجيش الحر عدم قتله، ورجوتهم تنفيذ طلبي، حتى تمر العملية بسلام، فالتفت إليَّ أحدهم قائلاً: «لن يقتلوه، اطمئن يا أستاذ، لكن سلاحه لن نرجعه له».

لم أعلق على أمر السلاح، فالشخص الذي استغل الفرصة في لحظة حساسة، هو من يتحمل المسؤولية، ولسنا نحن الذين لم نعلم به ولا شاورنا أو استأذن منّا، ولكن ما يهمّ هو إنقاذ هذا الموقوف من مصير سيئ، وخاصة أن الأمور بين الطرفين لا تبشر بأدنى خير، إضافة إلى أن أغلب سكان الحيّ دفعوا ثمنًا غاليًا، سواء بمقتل أحد أفراد العائلة أو اعتقال أو جراح... إلخ.

وقد اتضح جليًّا إلى جانب ما سبق مع المقدم مدين بدّة، أن الأمن السوري يريد اختراق بابا عمرو بأي طريقة كانت، ووجد فرصته في البعثة التي ربما يستعملها غطاء، ويغالط أهالي هذه الأحياء الثائرة.

بقيت أحاول إنقاذ هذا الرجل من القتل، وخاصة أن الجميع غضبوا أشد الغضب من اعتدائه على مواطنهم باستعمال حربة، فأجريت اتصالاً هاتفيًّا مع خالد أبو صلاح، ووعدني بأن يأمر بما طلبته منه، وللتاريخ أنه لم يعلق على ما قام به العون الأمني بقدر ما أكّد أنه لن يردّ طلبنا مهما كان الأمر.

في تلك الأثناء التحق بنا إمام مسجد عبدالله بن الزبير، الشيخ رائد الجوري[1] الذي علم بما حدث، فطلبت منه أن يأمرهم بعدم قتل الموقوف

---

(١) صار فيما بعد قائد كتائب شهداء بابا عمرو بعد سقوط الحيّ والاستيلاء عليه من قبل الجيش النظامي.

الذي ينتمي إلى جهاز الأمن السياسي، فوعدني بذلك، واتجه إلى البيت الذي تمّ إدخاله فيه.

كادت الحادثة تؤدي إلى تطورات أخرى غير أن الشيخ رائد الجوري وعناصر أخرى من الجيش الحر استدركوا كل شيء، وأنقذوا الأمور من الانفلات، وقد كان الكثيرون جدًّا من المواطنين، رجال ونساء وأطفال وشيوخ وعجائز يقفون على قارعة الطريق، وأؤكد أنهم أحيانًا فقط يهللون باقتراب نهاية النظام وبشار الأسد، لكنهم التزموا بما أمرهم أعيانهم بضرورة الابتعاد عن الاستفزاز مهما كان نوعه.

بعد نهاية تفتيش الشاحنتين، حيث لم يعثر فيهما على أي شيء، سوى قارورات مياه معدنية وخمور وبعض الأكل، ليسمح لهما بالدخول للحيّ والتوجه مباشرة نحو المؤسسة الاستهلاكية، امتطيت السيارة مع مرافقي «أبوأحمد»، وهو من عناصر الجيش الحر كما سبقت الإشارة، وتوجهنا بدورنا نحو موقع الحاجز، تحت أهازيج بعض الأطفال، الذين يندّدون بالجيش ونظام بشار الأسد.

شرعوا في شحن العربات المدرعة على متن الشاحنتين، أما أنا فقد أخبرت العقيد عبد الله الطاهر برجل الأمن، الذي حاول التسلل من خلالنا، ومن دون أن نعرف عنه شيئًا، حكيت له بعضًا مما حدث، وطلبت منه أن نتحرك حتى لا يتمّ قتله أو تعذيبه؛ لأنني تركت الرجل وقد أدخلوه لأحد البيوت المهجورة، ويتعرض للضرب المبرح، فوافق على اقتراحي، وقال لي: «عندما نكمل الشحن وينسحب الحاجز سنتحدث مع خالد أبو صلاح والآخرين».

أخبرته بأنني حدثت خالد أبو صلاح والإمام الشيخ رائد الجوري، ووعداني بذلك، لأضيف له: «الأمر لا يقبل التأجيل أبدًا، ورجل الأمن بين أيديهم الآن، وقد يقتل، فالشبان غاضبون جدًّا».

حينها تقدم منا أسـامة إدريس الذي كان يقوم مع رفاقه بمنع المواطنين من التقدّم من المكان، حيث ظل بمكبر الصوت يؤدي واجبه في أحسن صورته، وينـادي على المواطنيـن آمرًا إياهم بالالتزام بالهدوء والابتعاد عن المؤسسـة والحاجز.

فوجدهـا العقيد عبدالله فرصـة ليحدثـه بالأمر، فتركتهمـا معًا، ورحت أنـا لأقف مع المراقبين، الذين يشـرفون على الانسـحاب، ويقفون حاجزًا بين العسكر والمواطنين، تحسبًا لأي طارئ أو تجاوزات.

أكملنا شـحن العربـات المدرعة، وقبل مغادرتها طلب منا الناشـطون أنه يجب إنزال أعلام النظام منها، وهو الذي تمّ تنفيذه فورًا من دون تردد، وبأمر من العميد قائد الحاجز، فالكلّ يريدون مرور المهمة في أحسن الظروف.

بعد الاسـتجابة لمطالب الأهالي، شـرعت الشـاحنتان في الانسحاب من المـكان، ولا نعلم طبعًا الاتجاه الذي سـتذهب نحوه وإليـه، وكان بعض الأطفال من بعيد يهتفون بسـقوط النظام، وما يسمونه بالجيش الأسدي، واهتم بشأنهم أسامة إدريس، حيث قام برفقة آخرين بطردهم، وأمروهم بالتوجّه نحو ساحة الاعتصام والتظاهر وعدم البقاء في الشارع بمحاذاة المؤسسة الاستهلاكية.

برفقة المراقب الجيبوتي محمد حسـين عمر، والمراقب الرائد السوداني الجيلـي البشـير، توجهنا نحـو موقع التفتيش فـي مدخل الحيّ، ننتظر وصـول الدبابـة التي أخبرنا المراقب العراقي صـلاح سـعيد الموجود بمقر المحافظة للتنسـيق بيننـا وبين المسـؤولين هنـاك، أنها فـي طريقها إلينـا، ويجب علينا انتظارها في المكان المحدّد المتفق عليه.

مكثنا هناك نحو عشرين دقيقة، حتى بدأنا نسمع ضجيج محرك الدبابة، ولم تتأخر وظهرت من جهة جسر كلية الطب، توقفت عند مفترق الطرق، لذلك رفعت يدي أشير إلى سائقها أن يتقدم، ففعل ذلك.

وصلت عندنا، وكان يقف معي المراقبون الآخرون، وأيضًا عناصر من الجيش الحر الذين كانت أسلحتهم في أيديهم، يتهيؤون لتفتيش الدبابة تفتيشًا دقيقًا، وخوفهم الشديد من أن تكون ملغومة أو بها أسلحة أو أي شيء آخر. وطبعًا لا نستبعد الجانب النفسي والتنظيمي في القضية، حيث يريد الجيش الحرّ أن يبرز مدى سيطرته على الوضع في حيّ بابا عمرو.

كان عسكري الجيش الحر، شابًّا في العشرينيات من عمره، يقوم بالتفتيش وإذا به يعثر على حربة وعدد من الذخيرة لسلاح كلاشينكوف، فسحبها وصرخ في وجهي، وخاطبني بلهجة خشنة وصوت عالٍ: «ما هذا؟! يظهر أنكم متورطون معهم...».

اقتربت منه، وأنا أرفع سبابتي في وجهه، وقلت له محذّرًا: «لن أسمح لك أن تحدثني بهذه اللهجة، ولو تفعلها مرة أخرى سيكون لي تصرف آخر معك».

سكت العسكري، وواصل تفتيشه الدقيق للدبابة، في حين اقترب مني ضابط من ضباط الجيش الحر، ومسكني من يدي، وطلب مني ألا أزعل مما قاله لي زميله، معتذرًا لنا عما بدر منه، ثم قال: «يكمل عمله، وسيكون لي معه شأن آخر، فنحن لا نسمح لأي عسكري أن يتجاوز حدوده مع المراقبين أبدًا».

شكرته على ماقاله لي، وأخبرته بأنه لا يمكنني أن أغضب منه، فهو شاب ومتحمّس، والظروف التي يعيش فيها تجعلني مضطرًا إلى أن ألتمس له أعذارًا كثيرة.

وأنا أتابع التفتيش تقدم مني أحد المواطنين وكان ملتحيًا، سلّم عليَّ، فرددت عليه السلام، فقال لي: «هل تسمح بكلمة إن أمكن؟».

أجبته: «تفضل».

قال لي: «هل أنت الكاتب الجزائري أنور مالك».

قلت له: «نعم، أنا هو».

فقال لي: «لقد نصحوني بأن ألجأ إليك شخصيًّا».

فقلت له: «أنا هنا بصفتي مراقبًا لأجل الجميع، ولا تحتاج إلى وساطة أي أحد كان».

فقال لي: «بل معارفي في المعارضة السورية نصحوني أن أتحدث إليك، بعدما أكّدوا على أنك نزيه، وستكون أمينًا على الحقيقة».

فقلت له: «بارك الله فيك وفيهم على هذه الثقة، لكن إن شاء الله كلنا هنا من أجل الحقيقة، ولا أظن أنه يوجد من سيرد طلبك إن كان في حدود صلاحياتنا».

في ذلك الحين تمّ تفتيش الدبابة، فطلب مني رقم هاتفي حتى يتواصل معي في أمور تتعلق بحي بابا عمرو، وأخبرني بأنه يعمل في المشفى الميداني، ويشرف على معالجة الجرحى، فأعطيته رقمي، وأكدت له أنني في انتظار اتصال منه.

تحركت الدبابة، فرحت أمشي على يسارها، وأمامها كان المراقب الجيبوتي محمد حسين عمر، فمحركها يطلق دخانًا أسود جعل سترتي البرتقالية بدأت تظهر فيها البقع السوداء، فضلاً عن محركها الذي يصمّ الآذان. لاحظت أن الناشطين الإعلاميين في شرفة أحد البيوت، وهم بكاميراتهم يصورون

الدبابة في أثناء تقدّمها نحو المؤسسة الغذائية، وكان يرافقنا آخرون يصورون بدورهم كل كبيرة وصغيرة.

وصلنا للموقع حيث شرع العسكريون في تجهيز الدبابة الأخرى، وقد تلقّوا صعوبة في إخراجها من المكان الذي كانت فيه، ولكن بعد محاولات عدة وإصرار تمكنوا من جرها وإخراجها، لتغادر المكان، حيث رافقها بعض المراقبين إلى أن تجاوزت حاجز الجيش الحرّ.

وبعد دقائق عاد المراقبون ومعهم شاحنتان لنقل الجنود، فتم خروجهم وأخذ كل واحد مكانه، وبدت عليهم علامات السعادة والفرح، وعندما تمّ ركوب كل العسكريين ولم يبقَ منهم أحد، وقبل انطلاقهم تقدم منّي خالد أبو صلاح، وطلب أن تكون أسلحتهم من دون ذخيرة، ولا تظهر للناس، وهذا لتفادي أي مظهر يمكن أن يستفزّ المواطنين أو حتى الجيش الحر، خاصة أنهم ناقمون عليهم كثيرًا جدًّا، بسبب ما تعرض له الحيّ من هذا الحاجز على مدار أشهر.

فنقلت ذلك فورًا إلى العقيد الذي كان يتحدث مع ضباطه، فأمرهم بتنفيذ المطلوب، وبعدها قال لي: «ننفّذ لهم ما يريدون، المهم نغادر هذا المكان أحياء».

فردّ عليه «أبوأحمد» الذي كان غير بعيد منا: «لولا بعثة المراقبين ما خرج منكم أحد، فقد قتلتم أطفالنا، والله تعالى شاهد على جرائمكم».

فضّل العقيد الصمت، وغادر نحو الشاحنة التي أمامنا، في حين قمت بسحب «أبوأحمد» من ذراعه، وهمست له بألا يصعّد الأمور، ويكون سببًا لاحتقان في اللحظات الأخيرة، فقال لي: «هذا كلام فقط، قلته له حتى يعرف فضلنا عليهم، ويقدّروا قيمتكم».

ركب الجميع وتمّ الانطلاق، تحت وابل من الشتم والسبّ من قبل الأطفال والشبان، بل قذفوهم بالحجارة والأحذية، وهم يهتفون «الجيش السوري خائن»، «خائن خائن»... إلخ. إلى جانب شعارات أخرى معروفة منها «الشعب يريد إعدامك يا بشار»، «الشعب يريد إسقاط النظام»... إلخ.

لم يتوقف رميهم بالحجارة والزبالة وقارورات الماء الفارغة والأحذية على مدار الطريق إلى أن تجاوزوا حاجز الجيش الحر، فحمدنا الله أن الأمور انتهت بخير ومن دون أي حادث قد يخلط أوراقنا، وأكيد سنتحمل المسؤولية؛ لأن ما قمنا به خارج إطار البروتوكول.

أما المواطنون فهرعوا نحو المؤسسة حيث رفعوا راية الاستقلال عليها، وكانت مظاهرة كبيرة بدأت بالمئات في موقع الحاجز، وراح الناس يتدفقون نحوها، قد يصير عددهم بالآلاف، في حين قام آخرون بتهيئة أنفسهم لترميم المؤسسة وحراستها؛ حتى لا يتمّ أخذ أي شيء منها، وخاصة أن فيها مئات الأطنان من السكر والدقيق والأرز وأشياء أخرى.

توجهنا نحن مع خالد أبو صلاح ورفاقه نحو سيارتنا، التي كانت متوقفة بمحاذاة مركز مراقبة تابع للجيش الحر، فوقف النسوة على الرصيف وهن يزغردن لنا، وآخرون يهتفون باسمنا، وحاول بعضهم حملي على الأكتاف، غير أنني رفضت ذلك، في حين تمكّنوا من رفع مراقب آخر، وهتفوا طبعًا بإسقاط النظام ومحاكمة بشار الأسد.

الذين أرادوا حملي على أكتافهم ورفضت ذلك راحوا يهتفون أمامي بالجزائر؛ لأن بعضهم يعرف، وآخرون سألوا عن جنسيتي، فسمعت منهم: «الله محيّي الجزائر»، «عاشت بلد المليون شهيد»، «عاشت بلاد الأمير عبد القادر»...

وكانــت لحظات رهيبة لنا جميعًا، وخاصــة لما شــاهدنا تلك الأفراح لدى هؤلاء المواطنين، الذين عانوا الأمرّين من هذا الحاجز وقناصته، الذين كانوا لا يرحمون صــغيرًا ولا كبيرًا ولم تنجُ منهم حتى القطط والكلاب الضــالة، على حسب ما سمعناه، وأجمع عليه أهل الحيّ كبارًا وصغارًا.

المؤلف أمام دبابة تابعة للنظام في أثناء عمليات سحب حاجز المؤسسة الاستهلاكية بتاريخ ٢٠١١/١٢/٣٠

المؤلف مع أحد قناصة الحاجز العسكري للمؤسسة الاستهلاكية في باباعمرو في أثناء عملية الانسحاب بتاريخ ٣٠/١٢/٢٠١١.

عسكريون يحملون جثث قتلى عسكريين في المؤسسة الاستهلاكية بتاريخ ٣٠/١٢/٢٠١١

جثث قتلى الجيش في سيارة الإسعاف بتاريخ ٢٠١١/١٢/٣٠

المؤلف في الحاجز العسكري بالمؤسسة الاستهلاكية في باباعمرو ٢٠١١/١٢/٣٠

المؤلف مع جرحى الحاجز العسكري في المؤسسة الاستهلاكية ببابا عمرو ٢٠١١/١٢/٣٠

المؤلف مع ناشطين في أثناء مراقبة السيارات في مدخل باباعمرو ويظهر في الصورة كل من الشهيدين الملازم الأول مهند الخطيب «أبوبكر» والمصور أحمد حمادة والأسير عثمان الجدّ والناشط أبوأحمد صبوح وآخرين ٢٠١١/١٢/٣٠

في ضيافة أحد ضحايا القناصة

بعد ذلك المهرجان الثوري الذي أقامه أهالي بابا عمرو بعدما تمّ سحب الحاجز العسكري، الذي كان يؤرق حياتهم على مدار أشهر عدة، أعلمنا الناشطون أنه يجب علينا الآن تناول وجبة الغداء عندهم، حاولنا الاعتذار عن ذلك، إلا أنهم أقسموا علينا بأن يكرمونا في بيوتهم، وسيغضبون منّا إن تجاهلنا دعوتهم.

استدار الناشط خالد أبو صلاح إلى أحد الناشطين في الحيّ، ويدعى «أبومحسن»، وسأله عن أخبار الغداء، الذي تكفل بتحضيره للمراقبين، فأخبره بأن كل شيء جاهز، وما علينا إلا التحرك الفوري نحو بيته. وأبومحسن هو مواطن من حيّ بابا عمرو، وصار من الناشطين البارزين في حيّ بابا عمرو، تعرض لإصابة على وجهه بطلقة رصاص من قناص، وكادت تودي بحياته غير أن عمره لا يزال طويلًا. وبسبب تلك الإصابة صار لا يستطيع أن يفتح فمه، ويتحدث من دون أن يحرك أسنانه، وإن طعامه هو السوائل فقط.

كانت الساعة حينها في حدود الثالثة زوالًا، فلم نتمكن نحن ولا الناشطون أيضًا الذين انشغلوا معنا من أداء صلاة الجمعة، فمهمة سحب الحاجز العسكري كانت في غاية الأهمية والخطورة أيضًا، لذلك ساهم الجميع في الإشراف عليها لتفادي أي انزلاق قد يحدث.

توجهنا نحو البيت المعني بالأمر، الذي لا يبتعد كثيرًا عن موقعنا، وكان في أحد أزقة بابا عمرو، التي طالها الرصاص والقذائف. عندما وصلنا التفّ من حولنا السكان، وكانوا يهتفون بسقوط النظام ومحاكمته، وآخرون يحيّوننا على ما قمنا به، لأجل سحب حاجز المؤسسة، الذي حول حياتهم إلى جحيم، صعدنا إلى الطابق الأول، وهناك جلسنا في صالون به جهاز تلفزيون، وكان شيخًا يبدو في الثمانين من عمره يشاهد قناة «الجزيرة مباشر»، التي تبث حينها صورًا عن مظاهرات من درعا وربوع أخرى من سوريا.

سلّمنا عليه، وجلسنا في صالون البيت، وكان معنا بعض الناشطين في الهيئة الإعلامية للثورة، منهم الناشط علي محمود عثمان الحراكي المدعو الجدّ فراس، وآخرون يتقدمهم خالد أبو صلاح، حينها طلبنا من أهل البيت أن يسمحوا لنا بالوضوء، حتى نؤدي صلاة الظهر بعدما ضاعت منا صلاة الجمعة.

عدنا للصالون حيث تابعنا بعض ما تبثه قناة الجزيرة من أخبار، وراح الحاضرون يشيدون بالقناة التي لولاها ما سمع العالم بثورتهم ولا بتضحياتهم الجسيمة في هذا العالم، وتم إحضار الطعام من قبل صاحب البيت، وكانت وجبة رائعة، تخللها الحديث المختلف عن الوضع وعمل اليوم وعما اعترضنا في أثناء انسحاب حاجز المؤسسة. وقد حدثونا عن ارتياح الأهالي لهذا العمل، فقد ارتكب الحاجز ما يندى له الجبين في حق المواطنين، كما قال الشيخ الجالس بيننا.

وتناولنا قضية عون الأمن (المخبر) الذي حاول التسلل إلى الحيّ باستغلال انشغال الناس بعملية سحب الحاجز العسكري المحاصر، حيث ربما يريد أن يستكشف الأمر أو عله يخطط لعملية ما لخلط الأوراق. وقد أكّد لنا خالد أبو صلاح أن الرجل لم يقتل، وهو في أمان، وسوف يسلمونه لنا عند مغادرتنا الحيّ مباشرة.

الإمام الشيخ رائد الجوري الذي التحق بنا بعد عودته من المسجد، حيث صلّى الجمعة، هو بدوره أكّد ما رواه خالد أبو صلاح، وأعلمنا أن عون الأمن (المخبر) مصاب بكدمات وجراح في رأسه ووجهه، بسبب الضرب الذي تعرض له من طرف الشباب الغاضب، وقد تمّ إسعافه وهو موجود في مكان آمن، سوف نتسلمه عند مغادرتنا فورًا، ومما قاله في هذا السياق: «الشباب هناك أخبروني بأنه لولا المراقبون لاحتجزوه أسيرًا، ولن يسلموه أبدًا، إلا مقابل أسرى لدى النظام الأسدي».

أعطانا الناشطون معلومات عن الأحياء الساخنة في حمص، وطالبونا بضرورة زيارتها؛ لأنها تعاني مأساة حقيقية، فقد ذكروا لنا إلى جانب بابا عمرو وباب السباع كل من السلطانية وتل الشور والصفصافة وباب تدمر والبياضة ودير بعلبة والخالدية وباب هود والقرابيص وجورة الشياح وجب الجندلي وباب هود والنازحين وباب الدريب وشارع الزير. سجّلنا كل ما ذكروه لنا، ووعدناهم بأننا سنزور كل المناطق، ولن نتأخر في الوقوف على كل حمص من أجل إنجاح مهمتنا وعلى أحسن وجه.

بعد تلك الوجبة الرائعة والجلسة الحميمية جدًّا مع بعض الأهالي في بيت «أبومحسن»، وبعد أن تلقينا مكالمة من المراقب صلاح سعيد، وأخبرنا بأن الأمور كلها ممتازة، وسوف نتسلم المعتقلتين بعد ساعة على الأكثر، لذلك استعجلنا العقيد عبدالله الطاهر على أن نذهب حتى نكمل الاتفاق، ونعيد السيدتين إلى الحيّ بعدما التزموا بسحب الحاجز من دون مشكلات.

تعهد خالد أبو صلاح على أن الأمور ستسير على أحسن ما يرام إذا التزم المحافظ بما تعهد به، وأكد أنه لن يتم أخذ أي شيء مما هو موجود في المؤسسة الاستهلاكية، وقد تمّ الاتفاق بيننا على أن يأخذ أهالي الحي ما

يكفيهم من سكر ودقيق وأرز وزيت وكل المتطلبات الأخرى الموجودة، في حين يتم شحن البقية نحو مخازن أخرى في حمص ستحددها المحافظة لاحقًا.

اعتذر لهم رئيس الفوج، العقيد عبدالله الطاهر، على عدم زيارة المشفى الميداني لمعاينة جثث ضحايا القصف من قتلى وجرحى، حتى إن كان ذلك من الأولويات في مهمتنا، إلا أنه رأى سحب الآليات وتحرير الأسيرتين أولى الأولويات، وأنا في قرارة نفسي كنت أرى توثيق جثث الضحايا مهمًّا للغاية بوصفه دليلاً ماديًا على استمرار العنف من قبل النظام، وهو بند أساسي في البروتوكول الموقع بين الجامعة العربية والحكومة السورية، ففضلت السكوت مؤجلًا مناقشة ذلك لحين عودتنا إلى الفندق، ونكون وحدنا بعيدًا عن عيون الناشطين وكاميراتهم.

غادرنا منزل «أبومحسن» وقد رافقنا حينها الشيخ رائد الجوري حتى نتسلّم عون الأمن (المخبر) المحتجز لدى عناصر من الجيش الحر، الذي سبق أن اتفقنا عليه من قبل كما ذكرنا. وصلنا إلى المكان المحدد وتوقفنا على قارعة الطريق في مخرج بابا عمرو، ولم نمكث إلا بعض الدقائق المعدودة حتى أحضروه في سيارة، أنزلوه إلينا وكان في حال سيئة جدًّا، فقد تملكه الخوف والرعب إلى حدّ الارتعاش، أركبه أحد عناصر الجيش الحر في سيارتنا، وهو يقول له: «احمد الله يا قذر، لولا المراقبون ما خرجت من هنا حيًّا أبدًا».

كان الرجل يبكي وينتحب بصوت مرتفع، وفمه ينزف وكدمات على وجهه وعلى حاجبيه، عيناه منتفختان، و يوجد بعض الجروح في رأسه، إلا أنه تمت إخاطتها في المشفى الميداني الذي نقلوه إليه.

عندما جلس بجانبي التفت إليَّ، وتحدث بصعوبة قائلاً: «أرجوكم احموني، لا تتركوهم يقتلونني».

فردّ عليه الشيخ رائد الجوري: «لا تخف، أنت الآن مع المراقبين، وسيذهبون بك إلى حيث تريد... أنت أخطأت، واحمد الله أن الأمور انتهت هكذا».

أما أنا فقلت له: «أنت ارتكبت حماقة كبيرة، لكن الآن صرت في أمان... لا تخف».

العقيد عبدالله الطاهر بدوره راح يطمئنه، ومما قاله له: «احمد الله... احمد الله... لقد أنقذناك بصعوبة».

وهو يجول بنظراته بيننا، وجسده يرتعش، ثم تحدث متلعثمًا: «أنا أخطأت نعم، لكن أرجوكم أنا في حمايتكم».

شكرنا الإمام الشيخ رائد الجوري على ما بذله من جهد، ثم غادرناه نحو وجهتنا، أما عون الأمن (المخبر) فلم يتوقف عن البكاء والصراخ وطلب النجدة منا، فقد كان في حالة معنوية سيئة جدًّا، وطلب منا أن نعيد له سلاحه؛ لأنه ستتم محاكمته عسكريًّا.

فقلت له: «نحن لا نستطيع أن نفعل لك شيئًا، المهم الآن هو نجاحنا في إنقاذك على الرغم من أنك ارتكبت خطأً كبيرًا».

فالتفت له العقيد، وسأله: «لماذا حاولت دخول الحيّ من دون إذن منا؟».

فأجاب وهو يتأوه، وبجمل متقطعة: «لم أكن أعرف، طلبوا مني في الإدارة أن أحضر الشاحنة الصغيرة لكي أدخل بابا عمرو، ولما قمت بذلك قالوا لي: اذهب إلى جانب جسر كلية الطب، وعندما وصلت هناك وجدت شاحنات وقفت خلفها، ولما انطلقت، انطلقت أنا معها».

فقلت له: «لماذا ضربت ذلك الشاب؟ كيف تأتي بسلاح معك إلى حيّ ساخن؟».

ثم أضفت له بعدما أحسست من نبرة صوته مدى مراوغته: «أنت تكذب، ولكن المهم أننا أنقذناك».

هزّ رأسه وعلامات الندم غزت ملامحه، ولم يجد ما يجيب به سوى القول: «الحمد لله على كل حال».

ازداد الرجل في التأوه لما وصلنا إلى بوابة الأمن السياسي، حيث تنتظرنا الحراسة، وهناك أنزلوه، وأمروا بالمسارعة لنقله إلى المشفى، فقد كانت حالته سيئة، ويبدو أنه خائف كثيرًا من ردة فعل قيادته على السلاح، الذي أخذ منه من قبل عناصر الجيش الحر.

وسمعت من أحد الضباط يحمله مسؤولية ما حدث، فردّ عليه، وهو يتوجع بصوت مرتفع: «المراقبون هم السبب».

فنزلت من السيارة، وتوجهت نحو الضابط، وقلت له: «كيف يقول لك نحن السبب، ولا نعرف أصلاً أنه سيدخل الحيّ، ولم يستأذن منا، بل نحن الذين أنقذناه من الموت».

ثم أردفت: «لا نتحمل مسؤوليته مطلقًا».

فقال الضابط: «نعرف ذلك، وهو يبرر خطأه فقط».

بعدها توجهنا مباشرة نحو قصر المحافظة، حيث كان المحافظ اللواء غسان عبد العال في انتظارنا من أجل إتمام ما تبقى من الصفقة، فتحدث إلينا بمكتبه على عجل، وعلمنا منه أن المعتقلتين ستكونان معنا خلال وقت لا يتجاوز

الساعة، وأوصى بضرورة أن نبذل جهدنا حتى يتمّ شحن محتوى المؤسسة الغذائية الاستهلاكية، وفق الاتفاق الذي جرى إبرامه بين الطرفين، وبقرار من رئيس البعثة، وبوساطة المراقبين، الذين أشرفوا على التنفيذ وفق ما روينا سابقًا.

توجهنا من عند المحافظ إلى فندق السفير في انتظار إحضار المعتقلتين إلى الفندق، ولما وصلنا وجدنا العقيد أكرم محمد حسين طاهر، رئيس مكتب الفريق أول الركن محمد مصطفى الدابي، ومعه إلهام الشجني، التي بدورها تعمل في مكتب رئاسة البعثة بدمشق، بعدما تمّ سحبها من فوجنا «ب». بعد تبادل التحية والسلام بيننا، بقينا نتحدث مع العقيد أكرم حول ما قمنا به في ذلك اليوم من سحب لحاجز المؤسسة الغذائية ببابا عمرو، الذي يعرفه، وسبق أن زاره معنا، وأعلمنا أن الجنرال الدابي أرسله للاطمئنان على مجرى الأمور، وأيضًا قاموا بإحضار سيارتين مصفحتين من نوع مرسيدس، وهما من بين السيارات التي أرسلتها حكومة نوري المالكي في العراق، وأحضروا بعض لوازم العمل من دفاتر ومال وكاميرا وأقلام وأشياء أخرى.

لم نلبث طويلًا، وإذا بأحد الضباط السوريين جاء عندنا، وأخبرنا أنه تمّ إحضار السيدتين في سيارة المحافظ الشخصية على حدّ قوله، فأسرعنا عندهما، وكنت أول من وصل، فتح أحد العسكريين باب السيارة فنزلتا، وهما في وضع معنوي منهار.

كانتا متعانقتين وتمسكان بعضهما بعضًا، وترتجفان من شدة الخوف، الذي وصل إلى درجة لا يمكن تخيلها، طلبت منهما أن يذهبا نحو سيارتنا، من أجل أن نعيدهما إلى بابا عمرو، غير أن البكاء سبق كل شيء، فترجتني إحداهما أن لا آخذهما، ولا أفعل بهما أي شيء.

بصـوت منكسـر تحدثـت إحداهما: «نرجـوك نقبل يديـك أن لا تفعل بنا شيئًا... نرجوك».

الأخرى: «لن نذهب... لن نذهب... تريدون قتلنا... ذبحنا...».

قلـت لهما: «نحـن من بعثـة الجامعة العربيـة، وها نحن بالزيّ الرسـمي للبعثة... لا خوف عليكما... ستعودان إلى بيتكما مباشرة».

لا يعرفان أي شـيء عن الجامعة العربية ولا بعثة المراقبين العرب؛ لأنهما منذ أكثر من شـهرين وهما في السجن، ويبدو أيضًا أن ثقافتهما محدودة جدًّا، لذلك حاولت أن أقنعهما بما اسـتطعت، إلا أن الدموع ظلت تنهمر من عيونهما لدرجة كبيرة، والخوف في تصاعد، حتى كدت أبكي، وخاصة أن مظهر امرأتين ترتعشـان في مثل هذه الصـورة التي رأيتها لا يمكن لأي بشر فيه أدنى إحساس أن يسيطر على مشاعره، ويكبح جماح دموعه وأحزانه.

التحقـت بنا إلهام الشـجني التي ضـمتهما إلـى صـدرها، وراحت تربّت عليهما، وتؤكد لهما أننا بعثة الجامعة العربية، ونحن من قام بدور مهم للإفراج عنهما، والآن سيذهبان إلى بيتهما مباشرة، غير أنه على الرغم من كل ذلك لم يطمئنـا لنا مطلقًا، وظلتا تترجيان ألا نفعل بهما أي سـوء، وأنهما لم يقترفا أي ذنب في حياتهما، وربما يعود ذلك إلى ما عاشـتاه في مدة السـجن من ألاعيب وأشياء أخرى.

سألتهما: «هل تعرفان خالد أبو صلاح؟».

بصرخة عالية وبلهجة من يريد أن يدفع عن نفسه تهمة ما، كان ردهما:

«لا نعرف أحدًا... لا نعرف أحدًا...».

لقد كانت الثياب رثة، وحالهما توحي بالوضع السيئ في المعتقل، وعندما سألتهما عن خالد أبو صلاح كان هدفي أن أتصل به هاتفيًّا حتى يطمئنهما، لكن إنكارهما يؤكد تطورات التحقيق، فخوفهما أن مجرّد الإقرار بمعرفة فلان أو فلانة قد يورطهما في تهمة ما، لذلك قلت لهما: «نحن لا علاقة لنا بالحكومة... نحن هيئة مستقلة هنا لمساعدتكم ومساعدة كل الشعب السوري...».

ردت إحداهما، وهي تنظر لإلهام الشجني: «أنتم تكذبون علينا وتريدون أن تحققوا معنا... لا نعرف أحدًا... لم نفعل شيئًا... بالله عليكم اتركوني حتى أعود لأطفالي».

تحدث صلاح سعيد بما زاد في خوفهما أكثر فأكثر: «إذا كنتما تعرفان أحدًا وتريدان التأكد منا، فنحن تحت أمركما».

ظل الإنكار هو سيد الموقف، لذلك التفت للعقيد عبدالله الطاهر، وقلت له:

«الأفضل أن ننطلق بهما إلى حيّ بابا عمرو، وسوف يقع التأكد، فوضعهما سيئ للغاية، والحديث الكثير لا يزيد إلا في حدّة خوفهما».

أقنعتهما إلهام الشجني بركوب السيارة، وانطلقنا بهما، وفي الطريق فضلنا الصمت، وتركنا إلهام تتحدث إليهما، وقد سألتهما عمَّا وقع عليهما من تعذيب، غير أن الخوف ألجم ألسنتهما، ولم تجنِ منهما ما يفيد، سوى بعض الإيحاءات من أن وضعهما كان سيئًا، ويبدو أيضًا من خلال الخجل الذي سيطر عليهما عندما ألحت إلهام بالسؤال: «هل تعرضتما للاغتصاب؟»[1].

ظلت الدموع تنهمر من عيونهما، إلا أن إلهام حاولت أن تكسر جدار الخوف بأسئلة مختلفة، لكن عندما تجاوزنا مقر الأمن السياسي رأيتهما مشدودتين

---

(١) أتحفّظ في نقل جوابهما عن ذلك في هذا الكتاب، وتفاصيل ما قيل.

للتعرّف على الطريق من النافذة ومتلهفتين لاستجلاء ملامح مصيرهما، الذي بدا مجهولًا لديهما، وعندما تجاوزنا حاجز الجيش الحر، ودخلنا إلى بابا عمرو حيث وجدنا الكثير من الأشخاص ينتظروننا، سألتهما إلهام قبل أن تتوقف سيارتنا: «أنتما الآن في بابا عمرو، هل تعرفانه؟».

مسحتا الدموع، وتوزعت فجأة فرحة عارمة في ملامحهما، وصرخت إحداهما: «توقفوا... توقفوا... من فضلكم توقفوا... إنه زوجي... زوجي».

ركن السائق السيارة جانبًا، وتجمهر من حولنا العشرات من أهالي الحي، أنزلناهما، حيث هرع زوج إحداهما وهو يسلم عليها، ويقول: «حسبي الله ونعم الوكيل... حسبي الله ونعم الوكيل...».

كانت تبكي، وتسأل عن أولادها، أما الرجل فحين رأى حال زوجته لم يجد ما يقول غير: «ما لنا غيرك يا إلهي...» وظل يرددها، وهو يمسك رأسه بيديه.

لم يشرح لنا زوجها أسباب صراخه، لكن فهمنا أن الرجل رأى زوجته في حال بائس، وملامحها تغيرت كثيرًا، ولم تكن كما كانت من قبل.

شكرنا الأهالي على ما قمنا به، وتقدمت من زوج السيدة المحررة، وهمست في أذنه قائلًا: «أوصيك بها خيرًا، فهي لا ذنب لها في كل ما قد حدث لها».

استدار نحوي، ثم أمسك يدها وقبلها، وهو يقول لها: «حتى إن اغتصبوك فأنت أشرف امرأة في هذه الدنيا».

بعدما سلّمنا السيدتين إلى أهلهما في بابا عمرو، وحمدنا الله أن الأمور مضت كما أردنا، حيث نجحنا في سحب الحاجز من دون أي انفلات أمني، وقمنا بتحرير معتقلتين، وأسعدناهما برؤية ذويهما، حتى إن كان ذلك خارج

إطار مهمتنا الرسمية، وإيماني أن ذلك سيفتح علينا أبوابًا أخرى، وسيغرقنا النظام في مثل هذه المهام التي خارج إطار البروتوكول الموقع عليه بين الجامعة والحكومة.

في الطريق قلت للعقيد عبدالله: «الحمدلله أن الأمور مرّت بخير، ولكن من المفروض أن الإفراج عن المعتقلين أو سحب الآليات العسكرية لا يكون في إطار صفقات تبادل بين الطرفين؛ لأن الحكومة السورية تعهدت بتنفيذ ذلك».

فرد العقيد: «هذه أوامر رئيس البعثة ونحن نفذناها».

أضافت إلهام: «لا يمكن سحب الحاجز إلا إذا سمح له المسلحون في بابا عمرو».

قلت لها: «أيضًا من المفروض أن يتم الإفراج عن المساجين من دون مقابل ولا شروط، ولو بادروا بذلك منذ اليوم الأول لسهلوا كثيرًا من الأمور».

فقال العقيد: «هذه أمور تخصهم، وليست من مهامنا».

قاطعته:«أيها العقيد، ما قمنا به اليوم ليس من مهامنا، ولكن ساعدت في ذلك حتى نريح أهل الحيّ، ونسمح بدفن العسكريين القتلى وعلاج الجرحى، هي مهمة إنسانية، ومن المفروض أن الجامعة العربية كانت تدرج في البروتوكول بندًا يتعلق بالمهام الإنسانية...».

قال صلاح في هذا السياق: «الحمد لله أن الأمور سارت بخير».

ليضيف الجيبوتي محمد حسين عمر: «الحمد لله، وإن شاء الله يتم تنفيذ البروتوكول بصدق؛ حتى تكون مهمتنا ناجحة».

المؤلف برفقة مراقبين في أثناء وجبة غداء لدى أهالي باباعمرو ٢٠١١/١٢/٣٠

المؤلف في أثناء عملية تسليم الأسيرتين لأهالي باباعمرو ٢٠١١/١٢/٣٠

المؤلف في أثناء عملية تسليم الأسيرتين لأهالي باباعمرو ٢٠١١/١٢/٣٠

٢٩

مع وزير الداخلية الشعار والعماد آصف شوكت واللواء هشام بختيار

عدنـا إلـى فندق السـفير، وسـارع كل مراقب إلـى غرفته، ليأخذ قسـطًا مـن الراحة بعد يوم متعب وشـاق جدًّا، وقد وجدنا عناصـر الفوج الآخر الذين بدورهم تجولوا في بعض أحياء حمص، وإن كنا لا نتابع نشاطهم ولا تحركاتهم، فقد أظهر رئيسـهم العراقي عمار سـلمان جابر عباس منذ وصولنا عدم رغبته في التحدث إلينا عن عمله، وهو الذي لم يعجب العقيد عبدالله الطاهر ولا بقية المراقبين، حتى إنهم اعتبروا قرار الدابي بإرسال فوجين كل واحد مستقل عن الآخـر وفـي منطقة واحدة خاطئًـا، ويتنافى مع طبيعة المهمة التي تقتضـي أن نكون أسرة واحدة تنسق فيما بينها.

اغتسلت وتوضأت وأديت فروضي الدينية، ثم تمددت على فراشي، ورحت أتجـول بين ما توافر لدينا من قنوات تلفزيونية، حيث وجدتها في وضـع الدفاع عن أطروحات النظام السوري، وتهاجم كل جهة، وتطلق النار على كل الأطراف، وأجريت اتصـالات هاتفية مع عائلتي بفرنسـا والجزائر أيضًـا؛ حتى أطمئنهم على حالي، وأطمئن على حالهم.

أخبرونـي بأنهـم شـاهدوني فـي فضـائيات مختلفـة، أعـادت مشـاهد بابا عمرو منذ اليوم الأول، وظلت تتردد صورتي وأنا أقوم بتصوير الطفل محمد أحمـد الراعـي بعدما تمّ قتله من قبل قناصـة فـي ٢٠١١/١٢/٢٨، وهذا الذي رويناه سابقًا.

الغريب العجيب أنني شاهدت في تلك الأثناء تقريرًا صحفيًّا في قناة (الدنيا) عن عون الأمن (المخبر) الذي حاول التسلل لحي بابا عمرو، وقبض عليه بعدما أصيب بسكينة أحد الشباب هناك، وقد صرح لهم بأنه تعرض للضرب أمام المراقبين، ولم يتدخل أحد منّا، بل اتهمني شخصيًّا بالتحريض عليه، لما قال:

«يوجد مراقب جزائري كان يحرض عليّ، ويطلب منهم قتلي؛ لأنني دخلت بابا عمرو من دون إذنه».

تعجبت كثيرًا مما نسبه لي هذا المخبر، فقد فعلت الكثير من أجل إنقاذه من القتل، ولولا بعثة المراقبين ما أطلقوا سراحه، وبقي أسيرًا لديهم في أقل الأحوال.

قناة (الدنيا) التي يملكها رجل الأعمال رامي مخلوف، ابن خالة بشار الأسد، هبّت تردد أسطوانته أن المراقبين يشاهدون أمورًا خطيرة، ولا يبالون بها، بل يحرضون على رجال الأمن، كما ورد على لسان الشخص المشار إليه، بينما لم يتحدث ذلك العون عن كيفية إنقاذه، وتدخلنا وما بذلناه من جهد، بل اتهم البعثة بأنها هي التي ورطته، لما طلبت منه أن يذهب معهم لحاجز المؤسسة، وبعدها تخلت عنه وتبرأت منه، عكس ما قاله في الأول عن المسؤولين الأمنيين.

لما حان وقت العشاء نزلت من غرفتي، وتوجهت إلى المطعم، حيث وجدت مراقبين هناك، ليحدثني العقيد عبد الله الطاهر عن رئيس البعثة مصطفى الدابي، الذي نقل لنا تحياته وشكره على ما بذلناه في إنجاح مهمة سحب حاجز المؤسسة الاستهلاكية.

وأذكر أنني شاهدت في زاوية المطعم كلاًّ من وزير الداخلية محمد الشعار، والعماد آصف شوكت، والمحافظ غسان عبد العال، واللواء هشام

بختيار، الذي يبدو أنه قدم حديثًا إلى حمص مع آخرين لا أعرفهم، وإن كانت ملامحهم ليست غريبة عني، فيبدو أنني شاهدتها في وسائل الإعلام، وكانوا يتناولون وجبة العشاء، وفي الوقت نفسه يظهر أنه لقاء مهم جدًّا.

أكملنا وجبة العشاء، وغادرت نحو بهو الفندق حيث الاستقبال، وتوجد به أرائك للضيوف والنزلاء، جلست وحاولت أن أتجول عبر الإنترنت من خلال هاتفي «الأيفون»، وعلى الرغم من صعوبة الاتصال إلا أنني تمكنت من الاطلاع على بريدي الإلكتروني وصفحتي على الفيس بوك، حيث وجدت الكثير من الرسائل التي في أغلبها من صحفيين جزائريين أصدقاء، يعملون في فضائيات مختلفة بين روسيا والإمارات وقطر وفرنسا وبريطانيا، وآخرين من صحف في الجزائر وخارجها.

ووجدت رسائل من قراء ومتابعين يسألون عن أحوالي، ويخبرونني بأنهم تابعوني في الفضائيات الكثيرة، منهم من يفتخر، وآخر يثق في نزاهتي، وذاك يوصيني بنفسي خيرًا، ويوجد من يلومني على أن قبلت هذه المهمة في إطار جامعة عربية تتآمر على سوريا، وحتى من شتمني وكال لي ما يندى له الجبين من كلام قبيح وقذر.

أجبت على بعض الرسائل بما هو متاح من الوقت، واعتذرت للصحفيين وبينهم أصدقائي، الذين كانوا يودون تصريحات مني، وأخبرتهم بأننا قد أقسمنا اليمين على عدم الإدلاء بأي شيء لوسائل الإعلام مادمنا في المهمة، ولا يمكن أن أكشف لهم أي شيء عن عمل البعثة العربية، ومن يريد شيئًا، ما عليه إلا الاتصال برئيس البعثة الفريق أول الركن محمد مصطفى الدابي، فهو صاحب الصلاحيات في كل ذلك.

بينما كنت أجيب عن رسائل الأصدقاء والصحفيين والأقارب، فإذا بوزير الداخلية، والعماد آصف شوكت، واللواء هشام بختيار، والمحافظ غسان

عبدالعال، يمرون أمامي، فلما التقى نظري بنظر الوزير سلّم عليّ، وقفت وسلمت عليهم جميعًا.

سألني الوزير: «كيف الحال؟».

أجبته: «الحمد لله، وقد تعبنا اليوم في شأن سحب الحاجز».

الوزير كان وجهه متهللًا عكس ما كان عليه من قبل، وقد بادرني بالشكر الجزيل على ما قمنا به في بابا عمرو، بعد نجاحنا في إتمام العملية من دون أي حادث.

فقلت له: «على الرغم من أنه خارج نطاق مهمتنا، إلا أننا لن نتأخر في شيء يكون في مصلحة سوريا العزيزة وشعبها العظيم».

فقال الوزير: «أشكركم باسم الحكومة، فالمهمة صعبة جدًّا، والجيش كان محاصرًا من قبل جماعات إرهابية».

فسألته: «كيف لم يتم سحبهم من قبل؟».

أجاب الوزير: «لا يمكن سحبهم، فهم يحرسون مؤسسة ستتعرض للتخريب لو تركوها».

قلت له: «ولماذا تم سحبهم الآن، ألا يهمكم أمر المؤسسة الغذائية؟».

أجاب: «نحن نلتزم بالبروتوكول، ويجب سحب كل الآليات العسكرية، وبأنفسكم سترون كيف يخربون مؤسسات الدولة عندما يتركها الجيش».

يضيف العماد آصف شوكت: «سحبناهم حتى نثبت التزامنا، وإنهم هناك دائما يصورون عربات نقل الجنود، ويبثونها عبر القنوات المغرضة على أساس أنها دبابات تريد مهاجمة المواطنين».

فقلت له: «وجدنا دبابة معطلة، يعني أنها كانت تقوم بعملها، وإلا كيف وصلت إلى هناك؟».

فرد: «هذا صحيح، ولكن لم تفعل ما يروجونه من كذب وافتراءات، وقد أمرنا بإخفائها؛ تفاديًا للصور التي تنقلها الفضائيات».

ويضيف الوزير: «الدولة يجب أن تفرض على الجميع منطق القانون، ويجب أن تحمي مؤسساتها».

فقلت: «المؤسف في كل ذلك هو تلك الجثث التي لو تأخرت أكثر لتعفنت، وهي ملقاة في غرفة، وفي ظروف سيئة وغير لائقة، وأيضًا يوجد جرحى بينهم من وضعهم في حاجة إلى علاج سريع».

فردّ الوزير: «نعم، الحمد لله، والفضل لكم في ذلك».

سألت: «ما يحيرني كيف عجزت الدولة في سحب حاجزها إلا بوساطة وتبادل؟».

أجاب الوزير: «الدولة السورية لن تعجز أبدًا، ولكن لديها أسبابها الموضوعية في ذلك».

فقلت: «نتحدث بصراحة سيادة الوزير، عندما تلجأ الدولة إلى وسيط، وتخضع لصفقة مبادلة، فهذا يعني أنها عاجزة».

ظهرت على ملامحه ما يوحي بعدم رضاه عن كلامي، وقال: «منطق الدولة يختلف عن منطق الأفراد، والأيام وحدها ستثبت مدى نجاعة خيارات الدولة في مثل هذه المواقف، وفي وقت يحتاج إلى صبر وتأنٍّ وهدوء».

يتدخل اللواء هشام بختيار، الذي كان يراقب حديثنا من دون أن ينبس ببنت شفة: «البروتوكول الذي وافقنا عليه يطالب بسحب الآليات، وستكونون شهودًا بأنفسكم على التخريب الذي ستقوم به العصابات الإرهابية».

ويضيف آصف شوكت: «المشكلة ليست في سحب الحاجز الذي لا يكلفنا شيئًا».

فقاطعته متسائلًا: «وما المشكلة سيادة العماد؟».

استرسل مجيبًا: «نعرف أنه توجد جماعات مسلحة إرهابية يُهرَّب لها السلاح من لبنان، تسيطر على بابا عمرو، ونحن نحسب للمؤامرة التي تحاك ضد سوريا، لدينا كل الإمكانيات للتدخل والقضاء على مسلحين يتحصنون بين السكان، أو لسحب الحاجز، أو تأمينه بالدعم اللوجستي، لكن نخاف من شيء خطير ومهم؟».

ثم بلهجة أكثر دقة وحدّة، وتأكيدًا قال: «بإمكاننا نسف ومسح حي بابا عمرو في ١٥ دقيقة، ولكن خوفنا من شيء واحد فقط».

سألته، وكنت أتوقع أن الجواب سيكون بسبب خوفهم على المدنيين من أطفال ونساء وشيوخ وعجزة ومرضى: «وما هذا السبب سيادة العماد؟».

أجاب بما كان مفاجئًا لي لأبعد الحدود: «أنتم رأيتم مسلحين، ويقومون بتصويركم سرًّا وعلنًا، لديهم أجهزة متطورة تبث مباشرة مع قناتي الجزيرة والعربية، ولو يتدخل الجيش في إطار مهامه القانونية أو حتى لتأمين الأغذية للجيش الموجود هناك، لبثت الصور مباشرة، وقالوا إن الحكومة تبيد الشعب».

فسألته متعجبًا: «المدنيون من أطفال ونساء وشيوخ وعجزة لا يهم أمرهم».

فقال بتعجرف لا نظير له: «هم رفضوا كل النداءات التي وجهت لهم، بل يقومون بإيواء المسلحين والإرهابيين وحمايتهم».

كنت سمعت من قبل أن النداءات التي يعنيها العماد تتعلق بتسليم المسلحين والقبض عليهم أو مقاومتهم، فقلت: «والله سيادة العماد، لا يمكن أن نحمل مدنيًّا مسؤولية عسكري مسلح، ولو يدخل معه للبيت».

فقال: «ليست لديكم المعلومات الكافية، فهم يحمونهم، ويدافعون عنهم، ويتظاهرون معهم، وأشياء كثيرة لا يمكن التحدث عنها».

ثم أردف قائلًا: «أنتم في الجزائر عشتم مثل هذه المرحلة، واضطر الجيش الجزائري إلى التدخل في حالات تشبه حي بابا عمرو، وسقط ضحايا كثيرون في منطقة ابن طلحة وأماكن أخرى».

فقلت له: «أنا ضابط سابق، وأعرف ما تحدثت عنه سيادة العماد، أما بالنسبة إلى حيّ ابن طلحة فيختلف عن بابا عمرو، والجيش الجزائري اتهم بالتواطؤ؛ لأنه لم يتدخل».

فرد العماد آصف شوكت: «ليس كذلك، هناك مناطق تدخل فيها الجيش، وقتل المدنيين لأجل القبض على الجماعات الإرهابية، وابن طلحة مجرد مثال، ولو كان صحيحًا ما ترويه، فأنا سمعت من مسؤولين أمنيين جزائريين يؤكدون لي أن الجيش تدخل في مناطق، وقتل الكثيرين من المدنيين والإرهابيين».

فسألته: «أعطني مثالًا واحدًا، يشبه بابا عمرو في الجزائر».

رد شوكت: «لا تحضرني الأسماء الآن، لكن أؤكد أنني سمعت من مسؤولين كبار أمثلة تشبه كثيرًا وضع بابا عمرو».

فقلت له: «سيادة العماد، معرفتي الشخصية للوضع في بلادي، ومن خلال ما وقفت عليه في الحيّ المذكور أؤكد أنني لم أقف على ما يشبهه مطلقًا في الجزائر».

فقلت له: «سيادة العماد، نحن نتحدث عن بابا عمرو الآن، وأؤكد لك أن مثله لم يحدث في الجزائر».

فردّ: «لكن الجماعات الإرهابية واحدة، وعقيدتها واحدة، ومنهجها واحد، والدولة يجب أن تحافظ على هيبتها مهما كان الثمن».

ويعلّق هشام بختيار قائلاً: «الإرهاب ملة وهابية واحدة».

المحافظ غسان عبد العال كان يراقب من دون أن ينطق ببنت شفة، غير أن الوزير الذي ظهر عليه أنه يودّ المغادرة، أضاف بلهجة من يختم الحوار: «إن شاء الله بفضلكم تهدأ الأمور، وتتعافى البلاد».

قلت: «إن شاء الله».

ثم تذكرت أمر عون الأمن (المخبر)، فأردت أن أغتنم الفرصة، وقلت للوزير: «كنت أشاهد التلفزيون، وسمعت عون الأمن (المخبر) الذي حاول التسلل من دون علمنا، وقد أنقذناه من الموت، وهو يحملنا مسؤولية ما حدث له، ويتهمني شخصيًّا بالتحريض عليه، وهذا خطأ، وأؤكد لكم سيادة الوزير أن ما يردده لا أساس له».

سألني آصف شوكت: «أي قناة؟».

أجبته: «قناة الدنيا».

قال شوكت: «سنتحدث معهم، فلا تنزعج».

ويردّ الوزير قائلًا: «لا تهتموا بالأمر، نحن نعلم بكل شيء».

فقلت له: «هناك أمر آخر، حتى إن عطلتك سيادة الوزير».

سألني: «ما هو؟».

أجبته: «البارحة طول الليل لم يتوقف القصف. وقد أخبرونا بأنه استهدف بابا عمرو وأحياء أخرى».

ضحك الوزير، وقال: «القصف استهدف تكتلات عسكرية ومواقع إستراتيجية، وحتى بعض الأحياء، وهو من فعل الجماعات الإرهابية».

فقلت له: «لكن سقط ضحايا في بابا عمرو».

ردّ: «هل رأيتم الجثث بأنفسكم؟».

قلت له: «هم طلبوا منا ذلك، ولكن انشغلنا مع الحاجز، ولم نتمكن من ذلك».

فردّ العماد آصف شوكت: «لو كان فيه حقيقة ضحايا لألحّوا عليكم، لا تصدقوهم، إنهم يكذبون».

تمنيت أننا زرنا المشفى الميداني، ووثقنا الأمر، حتى لا أسمع هذا الحديث، ولكن على الرغم من كل ذلك تيقنت لو فعلنا ذلك، وأظهرت لهم الصور لزعموا أن من يسمونهم بالجماعات الإرهابية المسلحة هي التي قامت بذلك، وقد ظهر جليًّا في ردّ وزير الداخلية الشعار.

ودعت الوزير والمحافظ ونائب وزير الدفاع ورئيس مكتب الأمن القومي، الذين أكدوا لي للمرة الأخرى وبإلحاح شديد أنهم يشرعون كل الأبواب لنا، حتى لي شخصيًّا إن أردنا أي شيء منهم، فهم أحرص الناس على إنجاح مهمة المراقبين العرب على حد قولهم.

مراقبون ناقمون على واقع البعثة العربية

بعدما غادروني توجهت نحو العقيد عبدالله الطاهر، الذي كان مجتمعًا مع عناصر من فوجنا، فجلست إليهم، وعلمت أن غدًا سنقوم في الصباح بإدخال سيارات بها مواد غذائية لحيّ بابا عمرو، وبعدها نقوم بزيارة لحيّ السلطانية، ونقف على الحاجز العسكري هناك بكفرعايا، من أجل النظر في إمكانيات سحبه إلى خارج المدينة. كما أخبرنا المراقب العراقي صلاح سعيد، الذي ظل همزة الوصل بيننا وبين المسؤولين في حمص، أنه تحدث مع المحافظ في الأمر، ووعده بالنظر في ذلك مع السلطات العسكرية والحكومية. وأشار أيضًا إلى أنه سنتفق غدًا مع أهالي بابا عمرو حول كيفية شحن الأغذية الموجودة بالمؤسسة لإكمال الاتفاق.

عدت إلى غرفتي، وبعد تجهيز نفسي للنوم، تمددت على فراشي، ورحت أتابع التلفزيون بعدما حاولت أن أبحر في الإنترنت، إلا أنني لم أنجح في ذلك، لاحظت أن قناة (الدنيا) التي يملكها رجل الأعمال رامي مخلوف، ابن خالة بشار الأسد، قد أعادت مرات ما قاله عون الأمن (المخبر) بخصوص ما حدث له في بابا عمرو.

كما تابعت أيضًا تقريرًا للإخبارية السورية، التي تنقلت في المشفى، وتحدثت معه، وأعاد الأسطوانة نفسها، وكانت مفاجأتي الكبرى هي ما يتعلق بجرحى الحاجز العسكري، حيث تحدثت القناة لبعضهم، وقدمتهم بأنهم غير ما كنا نعرف. فهذا شرطي، وآخر من الأمن السياسي، وذاك مدني كان محتجزًا

مع العسكريين، وتأكد لي ما قاله أهالي بابا عمرو من أنهم ليسوا عسكريين، فبينهم (الشبيحة)، الذين ينحدر أغلبهم من مجرمين سابقين ومساجين، تمّ تجنيدهم مقابل الأموال.

في حدود الساعة الحادية عشرة وقبل النعاس بدأت أسمع طلقات نارية، ولكنها راحت تتزايد وتقترب منا، وبعد بضع دقائق هدأت الأمور، فخلدت للنوم، غير أنه في حدود الساعة الثالثة استيقظت بسبب قصف مدفعي عنيف وإطلاق نار كثيف غير بعيد من الفندق، وسمعت أصوات أشخاص ينادون بعضهم بعضًا، فتقدمت بحذر من النافذة فلم أَرَ شيئًا، غير أن الرصاص راح يزداد كثافة، والمدفعية لم تتوقف عن إطلاق نيرانها، ومن حين إلى آخر أسمع أصوات انفجارات، لا أدري هل هي بسبب القصف، أو أنها لأسباب أخرى أجهلها.

على الرغم من النعاس الشديد الذي هجم عليَّ إلا أنني لم أتمكن من النوم بسبب ما أسمعه، وبعد أكثر من ساعة هدأت الأمور بعض الشيء، فتمكنت حينها من النوم العميق، ولم أستيقظ إلا مع أذان الفجر، فقد هدّني التعب إلى درجة كبيرة.

في حدود الساعة السابعة والنصف غادرت غرفتي نحو المطعم؛ لتناول وجبة الإفطار، ولم أجد هناك سوى العميد المغربي محمد كرماني، الذي تعرض لوعكة زكام بسبب الأحوال الجوية المتقلبة والبرودة، التي تصل أحيانًا إلى درجات تحت الصفر، وهو دائمًا رجل يحب النهوض مبكرًا، ولا يتأخر في الاطلاع على الصحافة المغربية، ومتابعة ما يجري في بلاده.

كان العميد كرماني ينتمي إلى جهاز المخابرات المغربية، وهو رجل هادئ وطيب جدًّا، حتى إنه لما التقينا أول مرة، وأظهر بعض عناصر البعثة المغربية مدى انزعاجهم مني، بسبب التحقيق الذي أنجزته عن الصحراء الغربية في

رحلتي الشهيرة إلى مدينة الداخلة الصحراوية في جويلية ٢٠١٠، وهو ما لم يعجب السلطات المغربية، وتعرضت لهجوم كبير من قبل صحافتها، إلا أن الرجل كان على عكسهم تمامًا، حيث كان يعرفني وتابع تحقيقاتي، ويعرف تفاصيلها، ومما قاله لي: «موقفك من قضية الصحراء معادٍ لبلدي، لكن نحن هنا في مهمة أخرى لا تتعلق بالصحراء، وواجبي أن أكون معك في السراء والضراء، فنحن من شعب واحد ومنطقة واحدة، نختلف هناك ونتفق هنا».

جلست معه على مائدة الإفطار، وكان مستاء من طريقة العمل، حيث صبّ جام غضبه على الأخطاء التي يراها تطفو على السطح كثيرًا، ففوجهم لم يتمكن من متابعة أي شيء، يخرجون ويذهبون إلى الأحياء، يسجلون شكاوى الناس، وعندما يعودون لا يعلمون شيئًا عن مصير التقارير، ولا ما ستقرره السلطات، فقد أخبرني أنهم يضيعون وقتهم في وسط مظاهرات مؤيدة لبشار الأسد، وأغلب وقتهم في تلك الأحياء الموالية، وانتقد رئيس فوجهم الذي لا يريد أن يشتغل في الأحياء الساخنة، ويفضل الذهاب إلى الأماكن الموالية والآمنة مثل المشافي والسجون والإدارات الأمنية... إلخ.

سألته: «هل تمّ سحب الآليات العسكرية من الأماكن التي قمتم بزيارتها؟».

أجاب: «لا نذهب إلا حسب ما يخطط له رئيس الفوج وضباط المخابرات، ولم نشاهد سحب آليات ولا الإفراج عن معتقلين ولا أي شيء».

ضحك، وتحدث لي بصوت خافت، كمن يتفادى أن تسمعه الحيطان: «نحن هنا نضيع وقتنا ووقت الناس الذين يموتون».

فقلت له: «هذا الذي لاحظناه جميعًا، فنحن لم نستطع زيارة الأماكن التي تتمركز فيها الآليات العسكرية، ولا عندنا معلومات عنها. والمعتقلون الذين أفرج عنهم بحضورنا كان مقابل سحب آليات عسكرية من بابا عمرو».

فقاطعني: «هذا عمل تافه ومسخرة حقيقية».

ويضيف: «الرصاص لم يتوقف في النهار ولا الليل، فكيف يمكن أن يشتغل المراقبون تحت النيران، وحياتهم مهددة بالخطر؟».

قلت له: «مستحيل... لكن السؤال الذي يحيرني ما هدفنا هنا؟».

ضحك بسخرية: «لا أعرف، من المفروض أن نتحقق من تنفيذ البروتوكول، الذي لا يمكن تنفيذه».

التحق بنا حينها المراقبان الموريتانيان: السفير محمد ولد بشيري، والمقدم صالح ولد سيدي محمود، فبعد أن رددت التحية أكملت حديثي للعميد: «كيف سنتحقق؟ وقتنا يضيع في أمور خارج نطاق مهمتنا، وصرنا نترجى الحكومة أن تسحب الآليات، وتطلق سراح المعتقلين، ومن المفروض أن الحكومة هي التي تسحب كل المظاهر العسكرية، وتطلق سراح المساجين، ونحن ما علينا إلا أن نراقب ذلك، ولا يسمح لنا بالتحقق».

فعقب السفير محمد ولد بشيري قائلاً: «خلّيها على الله فقط، الأمور ليست على ما يرام».

فقلت: «الجامعة العربية أصدرت البروتوكول في قاعات مكيّفة، لم تدرس حقيقة الوضع، ولا لديها دراية بآليات المراقبة، هذا البروتوكول ميّت، والحكومة السورية توجه الأمور بما يخدمها فقط».

استدرت نحو المقدم صالح، وقلت: «صاروا يخدمون بنا فقط، البارحة قمنا بعمل خارج مهمتنا، ولا ندري ما ينتظرنا، في حين لم يتوقف القتل والرصاص والمدفعية طول الليل وحتى النهار».

كان الجميع منزعجين من عملنا، ومن سلوك الحكومة السورية، التي أفرغت البعثة من دورها الحقيقي، عن طريق الزجّ بها في أمور أخرى ليست من صميم دورها؛ لأن المراقبة لا يمكن أن تتحقق في ظل إطلاق النار. نحن لا نستطيع التأكد من سحب الآليات العسكرية إذا لم نعرف مكان تمركزها السابق، ولدينا مكتب مستقل وخرائط وكل المعلومات الميدانية، وواقعنا أننا لا نملك مكتبًا ولا مقرًّا، والخرائط التي بحوزتنا سلمت من طرف الحكومة، وبالتأكيد أنها تصب في أقداح ما يريدونه للبعثة.

من جهة أخرى أن قضية المعتقلين لا نستطيع الحكم على التزام السلطات بإطلاق سراحهم، إلا إذا كنا نملك الأسماء، ونتحقق من عودتهم لأهاليهم، وهذا خارج عن مهمتنا؛ لأن الدابي رئيس البعثة قال: إن مهمتنا هي المراقبة، وليست التحقق.

بالنسبة إلى توقف العنف ضد المتظاهرين لا يمكن أيضًا أن نتحقق منه، إلا إذا وقفنا على المظاهرات، وهذا الذي لم يحدث. فيما يخص الصحافة لم نشاهد إلا صحافة الحكومة السورية من قنوات تلفزيونية ووكالة الأنباء الرسمية وصحف معروفة بموالاتها، وما دون ذلك لم نَرَ شيئًا يثبت السماح لوسائل الإعلام المستقل بالتحرك على التراب السوري، وفق ما يقرّه أحد بنود بروتوكول الجامعة العربية.

هذه النقاط التي أشرت إليها لقيت استحسانًا من قبل المراقبين الذين يجلسون معنا، سواء أولئك الذي ذكرتهم، أو الذين التحقوا بنا في أثناء وجبة الإفطار، وكان من بينهم رئيس فوجنا العقيد عبد الله الطاهر، الذي لم يعلق بل اقتصر موقفه على هزّ رأسه بالإيجاب، في حين أبدى رئيس الفوج الآخر انزعاجه من كلامنا، من خلال ملامحه التي تجعّدت، وفضل المغادرة من دون أدنى تعليق منه.

في حدود الساعة التاسعة والربع من صباح يوم السبت ٢٠١١/١٢/٣١ كنا قد تجمّعنا وركبنا السيارات، وكنت على متن سيارة المرسيدس المصفحة الجديدة التي كانت فخمة للغاية، وقد تعرفنا على سائقها العراقي، وهو شاب في العشرينيات من عمره، وقد أخبرنا أن لكل سيارة سائقها، لأن السلطات العراقية اشترطت على الجامعة العربية أن سيارات المرسيدس المصفحة لا يقودها غير العراقيين الذين سيأتون معها، وقد برر لنا ذلك الشاب السائق أن السيارة متطورة، وقد قضى ثلاثة أشهر في معهد خاص للتكوين في القيادة، فهي تتمتع بخصائص متطورة ودقيقة جدًّا ليست في متناول أي كان.

طلبت منه حمل جواز سفره معه؛ لأنهم لا يعرفونه في بابا عمرو، وقد يشكّون فيه مثل ما حدث من قبل مع السائق الذي كشفوا أمره بأنه ضابط برتبة مقدم، كما قلت لرئيس الفوج العقيد عبدالله الطاهر: إنه يجب توفير سترة برتقالية وقبعة له، فأخبرني بعدم توافر سترات إضافية، فأعلمته أنه لا تزال بحوزتي في غرفتي سترة السائق الضابط مدين الذي رافقنا من قبل، وسبق أن روينا قصته.

نزلت من السيارة وتوجهت مسرعًا نحو غرفتي، وكان يرافقني السائق العراقي، حيث أعطيته السترة والقبعة الإضافية، ثم عدنا مجددًا من حيث انطلقنا، كي نتوجه مجدّدًا نحو حيّ بابا عمرو.

٣١

أهالي بابا عمرو والمساعدات الإنسانية

لم نتوجّه جميعًا نحو قصـر المحافظ، بل ذهب المراقب العراقي صلاح سـعيد برفقـة مراقب آخـر، وجرى الاتفـاق على اللقـاء بعدما يقـوم بمرافقة السـيارات، التي بها أغذية ومساعدات إنسـانية مختلفة، في حين نحن توجهنا نحو حي بابا عمرو مباشرة، لأجل تهيئة الأمور مع الناشطين هناك.

لما وصلنا إلى مدخل شارع البرازيل وقبل التوقف عند الحاجز بدأنا نسمع أصـوات إطلاق النار غير بعيد من موقعنا، لذلك رجعت سـيارة الحراسة التي كانـت أمامنا، وطلبوا منا العودة للخلف سـريعًا، حيث غيروا وجهتهم، واتجهنا نحو بابا عمرو من طريق الأمن السياسي على الكورنيش، كما يطلقون عليه.

تركنـا الحراسـة المرافقـة غير بعيـدة من مقرّ الأمـن السياسـي، وأكملنا طريقنا وحدنا، وصلنا حيث حاجز الجيش الحر، فسلمنا عليهم، وقد التقينا خالد أبوصـلاح ورفاقه، وأعلمونا أن أهالي الحيّ يرفضـون الحصول على المساعدات مجانًا، بل صمموا على دفع ثمنها كاملًا، فهم لا يريدون أي شيء من نظام يقتلهم ويحاصرهم ويدمر بيوتهم، وصار غير شرعي في نظرهم بعد ثورتهم عليه.

اتصل العقيد عبدالله الطاهر بالمراقب صلاح سعيد، وأخبره بقرار سكان بابا عمرو، الذين لم يقبلوا المساعدات مجانًا، فقام بنقل ذلك للمحافظ غسان عبدالعـال، ثم أعاد الاتصـال بي بعدمـا وجد هاتف العقيد مشـغولاً، وأخبرني بأن المحافظ قال له بالحرف الواحد: «هي مسـاعدات منا، وإذا أرادوا تسديد ثمنها فلهم ما يريدون».

حتى لا نضيع الوقت توجهنا نحو المؤسسة الغذائية للاطلاع على حالها، فوجدناهم قد رمموا جدرانها المدمرة، وأصلحوا أبوابها المحطّمة، ووفروا لها حراسة خاصة من بعض عناصر الجيش الحرّ، وعندما دخلنا وجدنا الأمور كما كانت، ولم يتم أخذ أي شيء منها، وأكّد لنا الناشط خالد أبوصلاح أنه لن يتم توزيع حبة أرز إلا باتفاق معنا.

بعدها عدنا مجددًا إلى حيث حاجز الجيش الحرّ، وبقينا نتبادل أطراف الحديث مع العسكريين المنشقين والناشطين الإعلاميين وبعض الأهالي الذين ينقلون لنا شكاواهم ومآسيهم، ولم نمكث طويلًا حتى اتصل بنا المراقب العراقي صلاح سعيد، وأخبرنا بأنه في طريقه إلينا وسيصل بعد دقائق، أعلمنا خالد أبوصلاح بذلك، فقام مع رفاقه بينهم أسامة إدريس بإبعاد المواطنين، ولم تتأخر السيارات، ووصلت إلينا حيث كانت محملة بقارورات الزيت والخبز والسكر والقهوة والعدس واللوبياء... إلخ، والغريب أنه لما وصلت هبّ الأهالي يطالبون بضرورة نقلها إلى أهل السلطانية المحاصرين، وهم أحوج الناس إلى المساعدات الغذائية، فقد كانوا يؤثرون بعضهم على بعض بطريقة عجيبة، على الرغم من أن الكل ظروفهم سيئة جدًّا، ولا يمكن التفريق بين هذا وذاك.

فشلنا في توزيع المساعدات الإنسانية بسبب إيثار الناس بعضهم بعضًا، ولم يتقدم أحد ليأخذ شيئًا، لذلك قررنا أن نسلمها للناشطين، وهم سيتكفلون بذلك، فتحركت السيارات التي نقلت المساعدات وهي مدنية مستأجرة، نحو أحد البيوت لتفريغها هناك، ثم تعود من حيث أتت، أما نحن فقررنا أن نتوجه إلى حاجز كفرعايا الذي يفصل السلطانية عن بابا عمرو، وهو نفسه من كان يطلق الرصاص علينا في زيارتنا الأولى إلى بابا عمرو مع رئيس البعثة الفريق الأول الركن مصطفى الدابي، وهو ما دفعه للاتصال بوزارة الخارجية والأمين العام للجامعة العربية السيد نبيل العربي.

مع حاجز كفرعايا ودموع في حيّ السلطانية

امتطينا السيارات، وتوجهت بنا إلى المؤسسة الغذائية، وهناك نزلنا منها وتحركنا مشيًا على الأقدام، كنت برفقة العقيد عبدالله الطاهر في الطليعة، وكان يتبعنا على بعد مسافة تقدر بنحو ٢٠٠ متر كل من المراقب الجيبوتي محمد حسين عمر وسودانيين ومراقب مصري.

الطريق الذي تحركنا فيه هو نفسه الذي منعنا منه في الزيارة الأولى مع الفريق أول الركن الدابي، حيث كان يطلق علينا النار، ولم نتمكن أن نتجاوزه، بسبب الرصاص الذي يسقط غير بعيد منا، ومن حاجز كفرعايا على ما ظهر لنا حينها.

رحنا نمشي بخطوات هادئة وحذرة جدًّا، وفي قرارة نفسي أنني لم أستبعد أبدًا رصاصة قد تصوّب نحونا، غير أنني توكلت على الله، وفوّضت له أمري وأمرنا جميعًا، كان المواطنون يطلّون من الشوارع الفرعية من دون أن يقتربوا، طالبين منا أن نذهب إليهم لرؤية الخراب الذي حلّ بهم من جراء القصف والقنص.

لأول مرّة أسير في ذلك الشارع، ومظهره يوحي بأن زلزالًا حلّ به، فالبيوت مهدمة، وأخرى تحولت إلى رماد بسبب حرقها، أو سقوط قذائف عليها أدت إلى نشوب حرائق، وما تبقى من الحيطان تحولت إلى غرابيل من آثار الرصاص الذي طالها، سواء من حاجز كفرعايا أو من قصف مدفعي من جهات أخرى بعيدة.

لقد كان المشهد مرعبًا حقيقة، وكلما توغلنا في حيّ بابا عمرو أكثر وجدنا أنفسنا في مأساة حقيقية، تنسينا ما رأيناه من قبل، ولا يمكن لأصحاب القلوب والمشاعر الرقيقة أن يصمدوا أمام حجم الدمار الذي حلّ بالسكان من جراء القصف العشوائي والمدفعية والدبابات والقناصة.

أحيانًا يلتفّ من حولنا بعض الأهالي، الذين يتجرؤون على القدوم نحونا، فنضطر إلى الوقوف عندهم، وكانوا يترجوننا بالذهاب معهم، لرؤية ما حلّ بهم من خراب، وآخرون يناشدوننا أن نطالب بسحب الحاجز العسكري المكون من (الشبيحة)، الذين حولوا حياتهم إلى جحيم فعلي، واستمعت إلى بعض الأمهات والآباء عن اغتيال أبنائهم واختطاف آخرين.

غير أن أسامة إدريس وأصحابه الذين رافقونا يطلبون منهم الرجوع؛ لأن لدينا هدفًا نودّ الوصول إليه، وبعدها سندخل للأحياء، ونقف على ما يرغبون كشفه لنا، وكانوا يستجيبون لنداءات أسامة إدريس الذي يحمل معه مكبر صوت، وخاصة لما يخبرهم أننا نقصد السلطانية حتى نفكّ الحصار عنهم، فتراهم يؤثرونهم على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة شديدة؛ لأنهم يعلمون أن مأساتهم كبيرة بسبب الحصار المضروب عليهم منذ أكثر من شهر.

كان المصورون يقتفون آثارنا بينهم أبوعدي ورامي السيد وعلي عثمان وباسل وأحمد حمادة[1] وآخرون، حيث يوثقون ما نقوم به، ويشهدوننا عبر الكاميرات على مآسي الشعب في بابا عمرو أو حتى السلطانية، التي نحن في طريقنا إليها، وعملهم هذا هو الذي فضح الكثير من جرائم القتل والإبادة التي يتعرضون لها، وهؤلاء الذين ذكرت لم يسبق لهم العمل في مجال الإعلام والصحافة، ولا كانوا أصحاب أعمدة وصفحات ومراسلين لكبرى الصحف

(١) استشهد في ٢٠١٢/٠٦/١٦ وهو يحاول انتشال أحد ضحايا القناصة، واسمه معاذ الأنصاري، وهو من مواليد حماة - قرية قمحانة ١٩٨٦.

الدوليـة ووكالات الأنبـاء، غيـر أنـه بعد الحصـار المضـروب عليهـم من قبل النظام الحاكم، تحولوا إلى صـحفيين ميدانيين، يغامرون بحياتهم بين الجثث والأشلاء والخراب واللهيب، لأجل نقل مآسيهم للعالم كله، على الرغم من الثمن الباهظ الذي دفعوه، إلا أنهم أصرّوا على ذلك في انتظار وصول وسائل الإعلام المستقلة التي من المفروض أن ترافقنا في مهمتنا، إلا أنـه إلى هذه اللحظة لم نَرَ إعلاميًّا واحدًا، ولا قناة فضـائية سوى التلفزيون الرسمي السوري، ولكن للأحيـاء الموالية فقط، أما الأحياء السـاخنة فلا يتحدثـون عنها إلا بما يخدم أطروحتهم عن الجماعات الإرهابية المسلحة.

الحاجـز يتمركـز على السـكة الحديديـة، ويحتلّ الممرّ الـذي يربط بين السـلطانية وبابا عمرو، حيث المرور ذهابًا وإيابًا، سواء بالنسبة إلى السيارات أو المشـي على الأقدام صار يخضع للحاجز العسكري، وقد علمنا من جهة بابا عمرو أنه تمّ منع المرور بصـفة مطلقة منذ مدة لذلك ظل أهل السـلطانية في حصار خانق لا يصلهم أي شيء من التموين والأغذية والأدوية.

اقتربنـا من حاجز كفرعايا، وعندما تجاوزنا حواجز الأسـمنت المسـلح شـاهدت دبابتين وثلاث عربات مصـفحة وعددًا من سيارات نقل الجنود. كان عسـكريون متمركزون خلف متاريسـ من أكياس رملية قد جهزوا أنفسـهم في هيئة الاستعداد للمواجهة أو أي طارئ قد يحدث. وقد قام المصور أحمد حمادة باختـراق المنطقة المحرمة، لذلك هرعـت نحوه طالبًا منه الرجوع إلى الخلف خشية قتله، فردّ عليّ قائلًا:

«لا تقـل أقتـل، بـل أستشـهد، وهـؤلاء الجبنـاء لـو يعرفون مـا يمنحونه لضحاياهم عند القنص ما قتلونا من شدة كرههم لنا».

ألححـت عليه أن يغادر المكان فاسـتجاب لطلبي، ثم أمر العقيد عبدالله الطاهر بقية المراقبين أن يبقوا خارج منطقة الحاجز؛ حتى يمنعوا المواطنين

والمصــورين من الاقتراب، في حين أكملنا ســويًا نحو الداخل، ولما صــرنا في وســط الســكة الحديدية خرج إلينا قائد الحاجز ومعه أحدهم في لباس مدني وثلاثة ضبّاط. ســلموا علينا مرحبيــن بقدومنا، وقد طلب منا ذلك الشــخص الــذي يلبس الزيّ المدني أن يمنــع المراقبون المواطنين مــن تجاوز الحواجز الأســمنتية وأي أحد لا يلتزم، فلا يضــمن عدم إطلاق النار عليه؛ لأن الحراسة لديها تعليمات صارمة.

كان يتحــدّث كثيرًا بلهجــة حاقدة عن الطرف الآخر، وينبعث الشــرر من عينيــه، لدرجــة لا يمكــن تخيلها، حتى خلتــه يتحدث عن قوم مــن دولة أجنبية معاديــة وليس عــن مواطنين ســوريين مثله، لذلــك نادى العقيــد عبدالله على المراقب السوداني الزاكي، وأخبره بالمطلوب، وأكّد على منع التصوير لتفادي الاحتكاك، الذي قد يصل للمواجهة المسلحة ما يخلط أوراقنا جميعًا.

دخلنا إلى غرفة يظهر أنها مكتب وبه سرير قائد الحاجز، وأيضًا به لوازم الطبخ وشــحن وسائل الاتصــال من هواتف وأجهزة الاتصال اللاسلكي... إلخ. رحّب بنا قائد الحاجز ترحيبًا كبيرًا، حيث أمر أحد عناصــره بتحضير الشاي، غير أننا اعتذرنا له، وأخبرناه بأنه لا يوجد لدينا وقت كافٍ للشاي، أو لأي تكريم آخر، وشكرناه على ذلك.

التحق بنا ذلك الشخص الذي يلبس الزيّ المدني، وكان بيده جهاز اتصال لاســلكي، وبدوره رحّب بنا، وقدمــه لنا الرائد بأنه النقيــب (أبوعلي)، فراودني الشــكّ أن الرجــل مدني وربما ينتمي إلى ما يســمى (الشــبيحة)، وخاصــة أننا سمعنا من أهالي بابا عمرو الكثير عن سيطرة الشبيحة والقناصة على الحاجز.

راح (أبوعلــي) يتحدث عن معاناتهم الكبيرة مع الجماعات، التي ســماها إرهابية مســلّحة، حيث قــال: «يوميًّا نفقد جنودنا؛ لأنهم يســتهدفوننا بالهاون، ونحن لا نردّ عليهم، إلا عند الضرورة، فلا نريد أن نقتل مدنيين».

فسألته: «الأهالي يشتكون حاجزكم، فقد قتل منهم الكثير، وخرّبتم بيوتهم بالقصف العشوائي».

فردّ: «تخيلوا أن الإرهابيين يتحصّنون في وسط الناس، ويطلقون النار على العسكريين فيقتلون، ماذا سيكون ردّ فعلهم؟ أكيد سيطلقون النار أيضًا».

فقلت له: «منذ قليل فقط قلت: إننا لا نطلق عليهم النار، خوفًا من قتل المدنيين».

فقال: «هذا صحيح، ولكن التجاوزات تحدث، ولا يمكن أن نتحكم فيها».

فقلت له: «حضرة النقيب، عندما وصلنا حذّرت من تجاوز الحاجز الأسمنتي، ومن يفعل فسيتعرض لإطلاق النار، وكل من كنت ترى معنا هم من المدنيين».

ردّ: «هذا صحيح... ذلك الحاجز هو الخط الأحمر، وضعناه لحماية أنفسنا، ولا نسمح لأي كان تجاوزه».

فقلت له: «أظن هذا الممرّ الوحيد ما بين بابا عمرو والسلطانية، وبهذه الطريقة أنتم تحاصرون السلطانية حصارًا قاتلًا».

ما لفت انتباهي أن الرجل كان يتحدث بصفة صاحب القرار، وبحضور قائد الحاجز الذي لم ينبس ببنت شفة، ما راح يؤكد فرضية أن الرجل ليس عسكريًّا، ولا يحمل رتبة نقيب، بل له شأن آخر نجهله.

ردّ على كلامي قائلًا: «نحن أوقفنا حركة المرور بعد مقتل عسكريين كثيرين، حيث يتسلل الإرهابيون في لباس النساء، ويغتالون جنودنا».

الحقيقة لم تقنعني روايته، والرغم من ذلك سألته: «منذ متى وأنت تغلقون الممرّ؟».

أجاب، وهو ينظر إلى الرائد: «خمسة أيام أو ستة ليس أكثر».

في حين الأهالي ببابا عمرو أخبرونا بأن السلطانية محاصرة والممرّ مغلق منذ أكثر من شهر.

تدخّل العقيد عبدالله الطاهر، قائلًا:

«نحن الآن نريد أن نعرف إمكانية مغادرتكم المكان، وفكّ الحصار عن الحيّ، ونقل الأغذية للسلطانية».

الرائد قائد الحاجز يظهر على ملامحه التعب المعنوي على عكس (أبوعلي)، الذي يتباهى بعمله، ومتحمس إلى أبعد الحدود، وقال الرائد: «أنا مستعدّ أن أرحل الآن بمجرّد أن يأتيني أمر من القيادة».

يتدخّل أبوعلي: «لن نفكّ الحصار، إلا إذا سلّم لنا الأهالي المسلحين الذين بينهم».

فقلت له: «يا رجل، أنت تصفهم بالإرهابيين الذين يقصفونكم بالقذائف، وعجزتم عن القبض عليهم أو قتلهم، كيف تنتظر من مواطنين مدنيين أن يسلموهم لكم؟».

ثم أضفت: «أنتم تقتلون المدنيين وتحاصرونهم، وتنتظرون أن يتعاطفوا معكم، هذا مستحيل».

فردّ الرائد: «والله معكم حق، لكن الأمور معقدة كثيرًا جدًّا».

بعدها سمعنا الضجيج، فأسرعنا إلى الخارج؛ خوفًا من حدوث مواجهة، ولدينا مراقبون يقفون بينهم، فأخبرنا أحد الضباط الذي يحمل على كتفيه ما يوحي بأن رتبته ملازم، بان أهالي السلطانية يتجمعون ويريدون الهجوم على

الحاجز، فأسرعنا نحو الجهة الثانية، فرأيت حينها ما لا يقل عن مئة مواطن، والعدد في تزايد مستمر، يتجمهرون ويحملون لافتات تطالب بإسقاط النظام، ويرفعون رايات الثورة والاستقلال.

نادى العقيد عبدالله على المراقب الجيبوتي ومعه آخر سوداني، ثم طلب منا أن نذهب نحو هؤلاء المتظاهرين والغاضبين كثيرًا، فتقدمنا منهم وكان صراخهم يزلزل الجبال وهم يشكون مآسيهم والقتل الذي يتعرضون له يوميًّا، الكل يتكلم وقد أعاد إلى ذهني مشاهد اليوم الأول، عندما دخلنا بابا عمرو برفقة رئيس البعثة الجنرال مصطفى الدابي.

طلبنا منهم ألا يقتربوا من الحاجز، فنحن نقوم بإجراءات لأجل سحبه من المكان، حتى يجدوا حريتهم في التحرّك والتنقل والتظاهر، فتقدم بعضهم ويبدو أنهم من أعيان الحيّ، وراحوا ينادون على المواطنين بضرورة الابتعاد ومساعدة المراقبين حتى يؤدوا عملهم.

راح الكثيرون منهم يلوموننا على عدم زيارتهم، ولدينا أيام ونحن في حمص، فأخبرناهم بأن عددنا قليل، وكنا مشغولين ببابا عمرو، وجاء دورهم الآن، وسوف نراقب كل ما يتعلق بهم. وأشار آخرون إلى بيوتهم، التي تطلّ على الحاجز، وسيطر عليها (شبيحة) يتمركزون على الأسطح، ويقنصون الناس من دون تمييز، فرفعت بصري وشاهدت بالفعل ملثمين وآخرين لا تظهر ملامحهم بسبب بعدهم عنّا، وكان القريبون منا بأيديهم أسلحة، وبينهم من يلوّحون بتحذير المواطنين، وبينهم من يلوّح بإشارات الذبح والقتل.

طلب منا أحد الأعيان ضرورة التحرّك الفوري لرؤية الدبابات، التي تمّ تهريبها ليلًا، وهي مخبأة وراء مسجد البيطار في السلطانية، فقد كانوا على علم مسبق بقدوم المراقبين، لذلك هرّبوا الدبابات حتى لا نراها، وحين نغادر ستعود إلى أماكنها وتمارس قصف المباني وقتل الأبرياء.

ترجاني آخر بلهجة حزينة للغاية، جعلت قلبي يخفق بسرعة رهيبة، قائلًا:

«نرجوكم... نرجوكم... نرجوكم... بـالله عليكم... نرجوكم زيارة عائلة أم أحمد لويس المكونة من خمس بنات من الصـم البكم، وقد اقتحم الشـبيحة بيتهم، وتمركزوا فيه ومنعوهم من الخروج منذ مدة».

وهو يصـرخ بصـوت عـالٍ: «أنتم مـن العرب والمسـلمين، فـلا يمكن أن تصمتوا على اعتقال بنات معوقات وأكيد يقومون باغتصابهن».

قال آخر، والدموع تنهمر من عينيه: «حرام، والله حرام».

كان ردّنـا عليهم أننا سـننفّذ كل ما يطلبونه في إطـار مهمتنا، وما يخوله لنا البروتوكول من صلاحيات، والذي نرجوه منهم هو المساعدة فقط، لأنه في ظل الفوضـى لا يمكننا فعل أي شـيء يفيد الناس، في ظل مأساة كبيرة لا يمكن وصفها أو معرفة منتهاها.

أمـر العقيد عبدالله الطاهر بعض المراقبين بالبقاء فـي المكان، لمنع المواطنيـن مـن التقدم نحـو الحاجز العسـكري، وبعدها عـدت برفقة العقيد للضبـاط الذين كانوا يقفـون قبالة مكتبهم، وحينها تقدم منـا (أبوعلي)، وهو يشـير بيده نحو جهة بابـا عمرو، وقال: «يجب أن يتوقفوا عـن التظاهر وترديد شعاراتهم ضد الرئيس والجيش هذا استفزاز نرفضه».

فقلت له: «اتركهم يتظاهروا؛ لأنهم مواطنون سـوريون كانوا محاصـرين، وبيوتهم مدمرة، فماذا تنتظر منهم، هل تريدهم أن يغنوا ويرقصوا؟».

فردّ بعنجهية: «إنهم يشتمون رموزنا ومقدساتنا، ولا نسمح بذلك، ولا نلوم أي عسكري يطلق عليهم النار بسبب الاستفزاز».

فقلت له: «منذ قليل كنت تقول: إننا لا نطلق النار من أجل المدنيين، والآن تهدّد بقتلهم، وهم يتظاهرون فقط».

ثم أردفت: «على كل حال، أي اعتداء على المواطنين ستتحملون مسؤوليته».

فتدخّل الرائد: «اتركهم يتظاهروا، المهم لا يكون إطلاق نار من طرفهم».

فقال له العقيد عبدالله: «نريد تعهدًا منكم بعدم إطلاق النار عليهم».

فردّ الرائد: «أتعهد بذلك، ولكن في حالة توقف الطرف الآخر، فأنا سأصدر أمرًا بعدم إطلاق النار، ولكن حين يهجمون علينا، فلا يمكن أن نصمت، أو نمنع العسكريين من الدفاع عن أنفسهم».

فقال العقيد: «نذهب إلى الجهة الأخرى، ونتفق معهم، ولو تسمحون نجمع بينكم».

فقال الرائد: «ليس في ذلك أي مشكلة، فقد تلقينا أوامر من القيادة بتسهيل عملكم».

ويضيف (أبوعلي): «شرطنا هو توقف النار من جهتهم، وأيّ رصاصة تطلق منهم ستقابل برصاص منا، وفي حال التزامهم ليس لدينا أي مشكلة».

طريقة كلامه كانت مستفزّة للغاية، فهو يتحدث كأنني موظف عنده، إلا أنني تماسكت، وقلت له بهدوء: «أنت تتناقض كثيرًا، ولكن في كل الحالات نحن مهمتنا المراقبة، فقد وجدنا هنا في المدينة حاجزًا وآليات عسكرية سنوثقها. أما الأمور الأخرى فهي خارج مهمتنا».

فعقب العقيد عبدالله، وكأنه يريد تهدئتي: «هذه أعمال إنسانية نقوم بها لمساعدة سورية».

ثم خاطب (أبوعلي) قائلًا: «ساعدونا أنتم أيضًا إذا أردتم أن نساعدكم نحن».

فلانت ملامح (أبوعلي) بعض الشيء، وردّ: «نحن تحت أمركم، فيما تريدون، ونتمنى من الطرف المعادي الالتزام».

فقلت له: «الطرف الذي وصفته بالمعادي هم شعبكم، ولا يجب أن تتعاملوا معهم بوصفهم أعداء».

فطلبنا منهم ألا يتعرضوا لأي شخص نأتي به، فتعهدوا بذلك، وأقسم الرائد إنهم لن يجدوا عندهم إلا الخير، وتعهد (أبوعلي) بعدم توقيف أي شخص يأتي معنا، وأعطاهم الأمان المطلق.

تحرّكت برفقة الرائد والعقيد عبدالله، أما أبوعلي ومن معه فراحوا نحو اتجاه آخر، في تلك الأثناء تقدم أحد العسكريين، وهو يحمل رتبة رقيب، يبدو أنه وصل توًّا من مكان ما، فسلّم علينا، وقال: «تحت أمركم هل تريدون شيئًا؟».

قلت له: «ما نريده تحدثنا فيه مع قائد الحاجز».

فردّ بما لم أتوقعه: «أنا صاحب القرار هنا، ولا يوجد غيري».

ضحكت، وقلت: «أعتقد أن رتبتك العسكرية هي رقيب والقائد الذي تحدثت معه يحمل رتبة رائد، وما أعرفه في كل جيوش العالم أنه أكبر رتبة منك».

فقال بعنجهية: «لا يهمّ ذلك... أؤكد لكم أنني صاحب القرار».

كان العقيد عبدالله والرائد يراقبان حديثنا من دون أن ينطقا بكلمة واحدة، فقلت له ردًّا على طريقة كلامه المستفزّة: «أنا تحدثت مع القائد، وانتهى الأمر».

وهو يهمّ بالمغادرة: «أنت حرّ، ولكن تأكد أنه لا يستطيع أن يفعل شيئًا دون إذني، فأنا صاحب القرار هنا».

غادرنا من دون أن يسلم، فاستدرت نحو الرائد، وسألته: «ماذا يحدث عندكم حضرة الرائد؟».

فقال بصراحة رهيبة لم أتوقعها: «ما قاله صحيح، فهو علوي».

سكت من دون أن يضيف شيئًا، ففهمت ما يجري، لذلك قلت له: «لو كنت مكانك ما بقيت يومًا واحدًا في الجيش، أو لرميت رتبتي مع النفايات».

العقيد عبدالله سحبني من ذراعي؛ حتى لا أمضي بعيدًا في كلامي، وتوجهنا إلى ناحية بابا عمرو، حيث كان يقف خالد أبو صلاح والشيخ الإمام رائد الجوري وآخرون، ولما وصلنا أخبرنا الشيخ رائد بوجود قنّاصة في البيوت المحيطة وهم غير تابعين للحاجز، ولا يخضعون لأوامر قادته، ويجب علينا أن نتعرف على هوياتهم.

أعلمناه أننا شاهدنا ذلك، وسنوثق الأمر في تقاريرنا، وطلب العقيد عبدالله من الشيخ رائد وخالد أبو صلاح أن يذهبا معنا للتحدث مع قيادة الحاجز العسكري، فهبّ رفاقهم يمنعونهما من ذلك؛ خوفًا من اعتقالهما أو التعرض لهما، خاصة أن خالد أبو صلاح رأسه مطلوب في كل سوريا بسبب نشاطه الإعلامي المكثّف عبر كبرى الفضائيات العالمية.

طمأناهم على ضمان عودتهما سالمين، وهما في عهدتنا نحن، ولا يمكن أن نتخلّى عنهما أبدًا مهما كلفنا الأمر، فخاطب خالد أبو صلاح رفاقه قائلًا:

«لا تخافوا، فلن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، ويجب أن نتعاون مع البعثة، ولو كان ذلك يشكل خطرًا على حياتنا».

تقدمنـا من الرائد والضبّاط الذين معه، فسلموا على خالد أبو صلاح والشيخ رائد بحميمية لم يبدُ لنا حينها سوى رغبتهم في إنهاء الأزمة ومغادرة المكان الذي يتمركزون فيه، ويحيط بهم الموت من كل جانب، في حين كان (أبوعلي) يظهر من ملامحه الرغبة في افتراسهما والانتقام منهما، ولكن الظروف لا تسمح له بذلك، ويبدو أن قيادته أمرته بالتعاون المطلق معنا، وتسهيل مهمتنا التي تهدف أساسًا إلى فكّ الحصار عن السلطانية وزيارتها والتحدث لأهلها، ولن يتحقق ذلك إلا بسحب الحاجز العسكري في كفرعايا.

في حين يراها قادة الحاجز فرصة، لكي يؤكدوا لنا أنهم لا يقتلون الناس، ويبينوا مدى معاناتهم ممن يسمونهم (الجماعات الإرهابية المسلحة)، ولذلك رأيناهم منذ البداية يحاولون إقناعنا بما نسمعه، منذ وصولنا من قبل المسؤولين وضباط المخابرات ووسائل الإعلام الرسمية والموالية بمختلف أنواعها.

بدأ الحوار بين الطرفين حول قضية إطلاق النار، وقد ظهرت كل جهة تحاول أن تحمّل الأخرى المسؤولية في كل ما حدث، وكنت مع العقيد عبدالله الطاهر نتدخل من حين إلى آخر لتهدئة الأمور، وخاصة أن الشيخ رائد الجوري كان صريحًا جدًّا مع قيادة الحاجز حول قتلهم للناس بصفة عشوائية، وقد كان الرائد قائد الحاجز متساهلًا جدًّا في حواره، بلغ الأمر حتى إنه قال لخالد أبو صلاح:

«إن كان قتلي يهدئ الأمور أذهب معك الآن، وافعلوا فيّ ما تريدون، المهم أن تخرج سوريا من الأزمة».

فردّ عليه أبو صلاح: «نحن لا نقتل، نحن ندافع عن أنفسنا بعدما ذبحتمونا ذبحًا».

قال (أبوعلي): «من يطلق النار من عندكم علينا؟».

فأجابه أبو صلاح: «أنتم من تهاجموننا يوميًّا، نحن لم نستهدفكم».

فأصرّ أن يسأل: «يوجد بينكم مسلحون أم لا؟».

أجابه الشيخ رائد الجوري: «ماذا تنتظر من شعب يقتل ويذبح وتغتصب بناته؟».

أبوعلي: «يجب أن تجيبني بصراحة، هل يوجد بينكم مسلحون؟».

خالد أبو صلاح: «لدينا الجيش الحرّ، ولكن أنتم من يقصفنا بكل أنواع الأسلحة».

التفت إلينا أبوعلي، وقال: «اعترفوا أمامكم بشأن المسلحين».

فقلت له: «يا أبا علي، شأن المسلحين الذين تتحدث عنهم التقيناهم وكلمناهم، ورأينا أسلحتهم وبطاقاتهم المهنية، نحن في شأن آخر».

يتدخّل العقيد عبدالله: «يا جماعة، الذي حدث قد حدث، وانتهى الأمر نحن نريد تعهدًا من الطرفين بتوقيف إطلاق النار حتى نتمكن من سحب الحاجز».

الشيخ رائد: «نحن نتعهد بذلك».

يؤكّد خالد أبو صلاح: «نحن نتعهد بأنه لن يردّ عليكم أحد، حتى لو أطلقتم أنتم النار، هذا عهد منا».

قال قائد الحاجز: «أنا أتعهد أيضًا بعدم إطلاق النار».

ليضيف ضابط آخر: «نحن لو نغادر سوف يتم تفجير أنبوب غاز يمرّ تحت السكّة الحديدية، يجب أن يتعهدوا أيضًا بعدم التعرّض له».

فقال له الشيخ رائد: «لا أحد يمكن أن يستهدف أنبوب غاز يا رجل».

فرد عليه الضابط: «منذ يومين فقط قام المسلحون بتفجيره».

الشيخ رائد: «الجيش الحر لا علاقة له بذلك».

فقال الضابط: «من قام بتفجيره إذن؟».

الشيخ رائد: «من جهتنا أنا متأكد من الأمر اسأل قيادتك».

فقال له الضابط بلهجة غضب: «تتهمنا نحن بتفجير الأنبوب، هذا كلام فارغ».

الشيخ رائد: «لم أتهمك أنت أو غيرك، لكن أؤكد لك أن الجيش الحرّ لا علاقة له بذلك، وانتهى الأمر».

فتدخل حينها العقيد عبدالله طالبًا منهم عدم التحدث في أمور لا تفيد، ليقول: «عملنا يفرض علينا التعهد من الطرفين، أما قضية أنبوب الغاز فسنناقشها مع المحافظ والقيادة العسكرية لاحقًا».

عرف الحوار بين الطرفين تشنجات ومنعطفات، كادت تنزلق نحو أشياء أخرى، غير أننا نتدخل دائمًا في الوقت المناسب لتهدئة الأمور، وقد كان الشيخ رائد الجوري صارمًا وصريحًا إلى أبعد الحدود، في حين خالد أبو صلاح أثبت قدرته على التحكم في أعصابه في أثناء الحوار، وأكّد رغبته الملحة في تنفيذ هدنة من أجل توصيل الأغذية والأدوية للسلطانية وفكّ الحصار القاتل المضروب عليهم.

جرى الاتفاق بصفة نهائية على وقف إطلاق النار، مقابل فكّ الحصار والسماح بمرور المواطنين بين بابا عمرو والسلطانية، ووافقت قيادة الحاجز على إدخال فوري للمساعدات الإنسانية للحيّ.

أذكر أنه كادت تحدث مواجهة بين (أبوعلي) وخالد أبو صــلاح، في نهاية المفاوضات، ونحن نستعد للمغادرة من أجل تنفيذ بنود الاتفاق الشفهي المبرم بين الطرفين، تقدم مني (أبوعلي) وقال لي بالحرف الواحد:

«يـا أسـتاذ، هم يسـتفزوننا دائمًـا، أنتم لم تشـاهدوا شـيئًا، تخيل أنهم يرفعون علم إسرائيل في بابا عمرو».

ثم أشـار بسبابته إلى الشـارع الذي أمامنا، وزاد في القول: «يصلون إلى هناك، وهم يحملون علم إسـرائيل، فكيف يمكن أن نمسـك أنفسنا وعلم العدو يرفع في أرضنا الطاهرة؟».

كان خالد أبو صــلاح يقف بالقرب مني، وقد سـمع كلامـه، فالتفت إليه، وبصـوت عـالٍ: «اخرس يا هـذا... اخرس تبًّا لـك يا حقير... نحـن نرفع علم إسرائيل».

ثم اسـتدار نحوي: «نحن نرفع علم الصهاينة يا أستاذ أنور... كذَّاب والله كذّاب، ابن ستين كذّابًا».

مسكته من ذراعه لأهدئ الأمر، غير أنه استرسل: «هذا كذب، لا داعي أن يكذب علينا».

فقال أبوعلي: «أنا لسـت كذَّابًا اسألوا كل العسكريين، سيؤكدون لكم أنهم يرفعون علم إسرائيل».

فخاطبه خالد أبو صلاح، وهو يرفع سبابته في وجهه محذّرًا: «أحذّرك من الكذب علينا».

تدخلت لتفادي التصـعيد: «يا جماعة، هذه الأمور ليست من اختصاصنا، فلا داعي أن تغرقونا في أشياء ليست من صلاحياتنا».

تدخل ملازم كان يتابع الحديث، وهو يخاطب خالد أبو صلاح: «أنا رأيت شبانًا رفعوا علم إسرائيل، وصرخوا فينا: اليهود أفضل منكم... شتمونا».

فقال أبو صلاح: «كل ذلك كذب نحن سوريون أحرار، يا هذا، لا يمكن أن نرفع علم الصهاينة، أما أن اليهود أفضل منكم، فهذا صحيح؛ لأنكم فعلتم في شعبكم ما لم يفعله الصهاينة في الفلسطينيين».

حينها تدخّلت بسرعة، وطلبت من خالد أبو صلاح أن ينسحب من المكان، ويتوجه نحو رفاقه الذين كانوا ينتظرونه لأنهي ذلك الحديث المتشنج، الذي قد يصل إلى ما لا تحمد عقباه، وكان خوفي على خالد أكثر؛ لأنه أعزل في وسط حاجز عسكري، وهمست له وأنا أسحبه من ذراعه: «خالد، أرجوك يجب أن تغادر أفضل، لا تزيد في تعقيد الأمور، قد تتعرض إلى مكروه، فنحن نريد فكّ الحصار عن أهالي السلطانية».

فقال لي: «لا أخافهم أبدًا، ولا أسمح لأيّ كان أن يسيء لثورتنا، ولو كان الثمن حياتي».

ومما قلته له أيضًا، وهو يستجيب للذهاب معي: «نريد الآن الهدوء خالد، تفاديًا لأي تجاوز».

فقال لي: «هذا الشبّيح كذّاب، وأؤكد لك أنه ليس عسكريًّا، هو قائد الشبيحة الموجودين على أسطح البيوت».

فسألته: «كيف عرفت ذلك؟».

أجاب: «عندنا في الجيش الحرّ من كانوا في هذا الحاجز وانشقوا، ويعرفونه جيّدًا وهو صاحب القرار، أما قائد العسكريين فلا يتحكم في أي شيء».

وقد ذكر من بينهم أحد العسكريين المنشقّين من الحاجز واسمه أحمد مغلاج من جبل الزاوية، الذي يوجد قريبًا منا، وهو مستعدّ للإدلاء بشهادته، وقد تحدّث لاحقًا في أثناء وجودنا بعين المكان إلى رئيس الفوج العقيد عبدالله الطاهر عن مشاهداته في أثناء عمله بالحاجز، حيث أشار إلى أنهم كانوا يتلقون الأوامر بقتل المتظاهرين وقصف بيوتهم بالقذائف.

غادر أبو صلاح نحو رفاقه، وقد أوصلته بنفسي إليهم، حيث استقبله رفاقه بالأحضان، وحمدوا الله على عودته سالمًا. وآخرون راحوا يسألونه عما حدث بعدما ظهر لهم متجهم الملامح، وعليه علامات الغضب، والأمر نفسه بالنسبة إلى الشيخ رائد الجوري.

ثم عدت إلى المكان الذي كنت فيه، بمجرد وقوفي بجانب العقيد عبدالله الطاهر، وصل إمام مسجد السلطانية، وكان يرافقه المراقب الجيبوتي محمد حسين عمر، وراح يتحدث إلينا أمام الضبّاط عن مآسي أهالي الحيّ الذي يسكنه، ووصف ما يندى له الجبين عن معاناتهم، حيث تنعدم عندهم الأغذية والأدوية والماء والكهرباء والغاز، وأشار إلى قضية البيوت التي يسيطر عليها القناصة وأمور كثيرة.

فوعدناه أننا سنبذل قصارى جهدنا وكل ما نقدر عليه، حتى لو يكون ذلك خارج إطار البروتوكول الموقع بين الحكومة السورية والجامعة العربية، فالأساس هو مساعدة الأهالي في تلك الظروف الإنسانية المزرية.

وصلت في تلك الأثناء سيارات تابعة لأهل بابا عمرو، بها مساعدات غذائية وصحية، وقد قرروا السماح لها بالمرور نحو السلطانية، لكن اشترطوا تفتيشها؛ حتى لا يتم تهريب الأسلحة والذخيرة والمتفجرات والمطلوبين حسب قولهم، فقلنا لهم: اتخذوا ما ترونه مناسبًا من الإجراءات الأمنية. توجهت السيارات

بعد تفتيشها إلى الحيّ، حيث شرع الأهالي باستقبالها، والتفوا من حولها، وهم يهتفون بسقوط النظام ومحاكمة بشار الأسد وإعدامه على الجرائم التي اقترفها في حقهم.

بحضورنا وتحت مراقبتنا سمح الحاجز للمواطنين بالتنقل ما بين السلطانية وبابا عمرو، وقد مرّت سيارات عدة، فلم يضيع الراكبون الفرصة، وتوقفوا عندنا، حيث اشتكوا لنا جميعهم بلا أدنى خوف من العسكريين الذين معنا، ومن قناصة يتمركزون على أسطح البيوت المحاذية للحاجز، الذي نوجد فيه، وبينهم من طلب منا مساعدته على العودة إلى منزله، حتى لو كان مقصوفًا.

وقفنا نحو نصف ساعة نراقب سريان الأمور، وبعدها قررنا العودة إلى حيّ بابا عمرو من أجل الإشراف على شحن الأغذية من المؤسسة الاستهلاكية، ووعدنا سكان السلطانية بالعودة إليهم مرة ثانية؛ كي نستمع ونطّلع على ظروفهم، ونوثق كل ما تعرضوا له، ولا يزالون يتعرضون له، وإن كانت مهمتنا ألا ننبش في الماضي، بل يجب أن نراقب ما يحدث في وجودنا، وذلك حسب تعليمات رئيس البعثة الفريق أول الركن محمد أحمد مصطفى الدابي، ولكن الظروف التي يعايشها المواطنون تفرض علينا الغوص معهم في ماضيهم، وخاصة أن بيوتهم مهدمة وأبناءهم مخطوفون أو جرحى أو قتلى وبناتهم تعرضن للاغتصاب.

الشبيح أبوعلي في نقاش ساخن مع الشيخ رائد الجوري في حاجز كفرعايا وبحضور المؤلف

حكاية فتاة اغتصبت أمام والديها قبل إعدامهما ميدانيًّا

فضلنا المشي على الأقدام نحو المؤسسة الاستهلاكية الغذائية، وكالعادة كان المواطنــون يلتفون من حولنا، ويرفعون لنا شــكاواهم ومعاناتهم وأحزانهم وخوفهم، مما ســيحدث لهم عندما نغادر الحيّ، والناشــطون يحاولون إبعادهم عنّــا بقــدر الممكن، وفــي منتصــف الطريق أوقفنــي أحدهــم، وكان رجلًا في الخمســينيات من عمره، وطلب مني الدخول معه أحد البيوت على بعد خطوات قليلــة منّا، وراح يترجاني بشــدّة؛ لأن الأمر مهم للغاية، مفضــلًا أن أذهب معه وحدي، ولن يحدث لي أي مكروه.

قال لي: «أرجوك يا أستاذ، أن تذهب معي لتشاهد أمرًا خطيرًا».

فقلت له: «لماذا وحدي؟».

أجاب: «القضية تتعلق بالعرض سيدي».

فهمت قصده، وقلت له: «لو نؤجل الأمر إلى وقت لاحق، ونأتيك خصيصًا؛ لأنه لدينا ما ينتظرنا الآن».

ألــحّ علــى طلبه، قائلاً: «بــل يجب الآن، فأنــا أعرف أن هذه الفرصــة لن تتكرر».

كان الرجل يدرك أن الظروف لاحقًا لن تسمح لنا بمثل هذه الفرصة، وأيقنت أن الأمر يحتاج مني إلى أن أذهب معه، خاصة أنه يبدو حساسًا للغاية، ويتعلق بعرض امرأة أو بشيء ما في هذا الإطار.

طلبت من العقيد عبدالله الطاهر وبقيّة المراقبين الذين كانوا معنا، أن ينتظروني حيث أتركهم، فقال لي العقيد: «ننتظرك، وخذ بالك على حالك».

فردّ عليه أحد المرافقين: «لا تقلق هذا الرجل منا، ونحن نعرف أنه لا يريد إلا الحقّ».

رافقته في اتجاه شارع متفرّع من ذلك الذي كنا فيه، ولم نبتعد كثيرًا، وأدخلني بيتًا يظهر منه أنه بدوره قد طاله القصف، لكن ليس في حالة سيئة مثل البيوت المجاورة، أو الأخرى التي على واجهة الطريق الرئيس.

بعدها صعدنا عبر مدرجات نحو غرفة، فتح بابها الخشبي المغلق بسلك من خارجه، وقد شممت رائحة كريهة تنبعث منه، وقد فوجئت بفتاة في ظروف سيئة للغاية شعثاء الشعر، ورثّة اللباس ومقطعة ووسخة، وتظهر بعضًا من جسمها العاري.

تقدمت نحوها، وقد صدمت من مظهرها السيئ للغاية، فراحت تهرب نحو زاوية الغرفة، وتصرخ فيَّ أن أغادر. ثم تمتمت بكلام لا أفهمه، حاولت أن أهدئ من روعها، إلا أنها كلما أقترب منها تمسك رأسها وتصرخ وتبكي، وتطلب النجدة، وتقول كلامًا لا أفهمه، وأحيانًا تقول: «بابا... بابا... ماما...».

كان مظهرها يقطع القلب... التفت إلى مرافقي، وسألته عن قصة هذه الفتاة، قبل أن يجيبني سحبني من ذراعي، لنخرج من الغرفة، ثم أجابني: «إنها بنت من بنات الحي عمرها ١٤ سنة، اقتحم الشبيحة بيتهم ليلًا منذ نحو شهرين، حيث لم يجدوا في البيت سواها ووالديها، أما شقيقها الوحيد

فقد استشــهد من قبل وعمره ١٩ عامًا، الشــبيحة اعتدوا عليهم وفتشــوا البيت وســرقوا ونهبوا وعروهم كما ولدتهــم أمهاتهم، وكان والدهــا يحاول أن يحمي ابنته وزوجته، فتعرض إلى ضــرب مبرح على رأسه، ثم ربطوا أطرافه وأطراف زوجته على حائط، وكانت الأم تبكي بصوت عالٍ، وتترجاهم أن يصفحوا عنهم، ولا يفعلوا بهم شيئًا، إلا أنهم ما زادهم البكاء غير وحشية وهمجية.

بعدهــا قاموا باغتصــاب هذه الفتــاة على مــرأى من والديهــا اللذين لم يســتطيعا فعل أي شــيء، وقــد كان هذا الاغتصــاب جماعيًّا، حتــى أغمي على البنــت، وفقدت وعيها وهــي تنزف. ونكاية في والدها الذي لم يجد من وســيلة للدفاع عن عرضه المستباح سوى شتمهم وسبهم، قاموا باغتصاب زوجته على الطريقة نفسها، ثم أعدموا الزوجين وغادروا...».

اقشــعرّ جسدي مما أســمعه، ولم أجد ما أقوله أمام هول قصة هذه الفتاة البريئة سوى: «لا حول ولا قوة إلا بالله».

ثم سألته: «كيف عرفتم القصة؟».

أجاب: «لقد كان الجيران يسمعون صراخهم، وإن البنت لما عاد لها وعيها خرجــت للشــارع عارية، فهب الناس بســترها، وراحت تتحدث بالقصــة وتبكي وتصــرخ، إنهم قتلوا والديها، وقد ظهر عليها آثار الاغتصــاب، وبعدها أصيبت بأزمة نفسية وعصبية كما تراها».

ثــم يــردف: «كنت من بيــن الأوائل الذيــن دخلوا البيــت، فوجدنا الزوجة عارية رحمها الله، وقد أفرغ في صــدرها أكثر من عشــرين طلقة، والأمر نفسه بالنسبة إلى الزوج، الله يرحمه، فقد ذبحوه بطريقة شنيعة».

ويتذكــر شــيئًا فاجأني به، فقال: «لقد كانت الفتاة فــي الأيام الأولى تذكر اسم أبوعلي».

فسألته وملامح (أبوعلي) الذي التقيته في الحاجز، وكان يلبس الزي المدني تتجلى في خيالي: «من هو أبوعلي؟».

أجاب: «هو أحد الشبيحة، الذين يعملون مع الجيش في كفرعايا، كان يداهم البيوت، ويقتل بطريقة وحشية».

فسألته: «هل تعرف ملامحه؟».

أجاب: «أنا لم أَرَه، ولكن الشباب خاصة عناصر الجيش الحرّ يعرفونه، اسأل عنه».

فضلت ألا أحدثه عن الشخص الذي التقيته، وطلبت منه أن ندخل مجدّدًا إلى الفتاة، فدفع الباب، ووجدتها لا تزال جالسة، وترتعش في ركن الغرفة، فرحت أحاول أن أهدئ من روعها، وقد قطّعت قلبي بحالها البائس، إلا أنها ظلت تبكي وخائفة مني، وتعمدت أن أسألها عن المدعو (أبوعلي)، فراحت تصرخ أكثر من قبل، وتريد الهروب منا في اتجاه الباب، بل صرخت في وجهي، وهي تقول: «تريد أن تغتصبني»، ورددتها مرارًا وبصوت عالٍ، وقد كانت تتحدث حينها باللهجة السورية.

تأكّد لي أن اسم (أبوعلي) يعني الكثير في مأساتها ومأساة أهلها الذين فقدتهم بطريقة بشعة، لم يتحمله قلب الصغيرة الماثلة أمامي، ففضل مرافقي الخروج، حتى يعود لها الهدوء، الذي سيستغرق وقتًا؛ لأنها ستبقى تبكي وتصرخ إلى وقت يتجاوز الساعة حسب ما رواه لي.

قال لي: «بالله عليك أردت فقط أن ترى البنت بعينيك التي صارت شبه مجنونة».

أعطاني اسمها بالكامل بعدما طلب منّي عدم نشره في الصحافة، وتعهدت له ألا يخرج للناس، لكن أكّدت له أن أتحدث عن قصتها، سواء في

تقارير الجامعة العربية أو غير ذلك، فوافق على ذلك، ولكنه ألحّ للمرة الأخرى ألا أتحدث عن قصتها علانية، فقد تشفى هذه الفتاة، ولا نريد أن يلاحقها أي شيء من هذه الأمور، ولهذا أتحفظ عن ذكر اسمها هنا في هذا الكتاب، فهي ضحية وليست مذنبة، ولكن حساسية قضايا الاغتصاب في سوريا لها مداها غير الطبيعي.

تأملت كثيرًا وأشفقت على حال الفتاة التي تعرضت لما لا يتخيله بشر، ولا يمكن أن يصبر عليه إنسان مهما أوتي من قوة الصبر والتحمّل والجلد، عدت بخطايا المثقلة، وفي عمقي أحس بألم ومرارة شديدة على هذا الحال، الذي وصلت إليه سوريا، وهي بلد محافظ جدًّا، ومثل هذه الأمور ما تزيد الوضع إلا تعقيدًا وانفجارًا، وتضع البلاد على حافة الانهيار، إذا لم تتّخذ قرارات جريئة من قبل السلطة الحاكمة.

لما رجعت إلى العقيد عبدالله الطاهر حكيت له بعضًا مما رأيت وباختصار شديد لم يسمح به المقام، غير أنه تساءل عن سبب اختياره لي، فأعلمته بأنني لا أدري سبب ذلك، ولا أنا سألته عن الأمر، غير أنني أظن معرفته لي من قبل عبر القنوات الفضائية، وخصوصًا «الجزيرة» التي يتابعونها كثيرًا.

ثم سألت خالد أبو صلاح الذي كان يرافقنا: «أريد أن أتحدث لعنصر من الجيش الحرّ كان يعمل في حاجز كفرعايا».

فرد: «يوجد معنا هنا».

ثم راح ينادي على أحدهم، ولم يتأخر كثيرًا وحضر، حيث كان ضمن المواطنين غير البعيدين عنا، فلما جاء عندي أخذته جانبًا، وسألته: «هل تعرف أبوعلي؟».

أجاب: «هو قائد الشبيحة في كفرعايا».

فقلت: «لقد رأيت فتاة قيل إنه يقف وراء ما حدث لها».

أجاب: «نعم، هو من كان يقوم باقتحام البيوت هنا في بابا عمرو والسلطانية».

قلت: «قدّموه لنا على أنه نقيب في الجيش».

قال: «كذب.. كذب.. ليس نقيبًا، ولا علاقة له بالجيش أصلًا، هو شبّيح كان في السجن متورطًا في جرائم قتل، وأُخرج منذ أشهر».

قلت: «حسبما يبدو أنه صاحب قرار في حاجز كفرعايا».

قال: «هكذا هم الشبيحة والعلويون دائمًا هم أصحاب القرار، أما الضباط الآخرون فلا يملكون أدنى سلطة، حتى لو كانت رتبهم عالية».

٣٤

قنص امرأة وغليان في بابا عمرو

توجّهنا نحو المؤسسة على أساس إكمال مهمة شحن الأغذية، كما جرى الاتفاق مع الطرفين، وفي طريقنا كان مشهد الفتاة لا يغادرني، ورحت أتخيل لو كانت هذه البنت قريبتي، فأكيد لن أتأخر عن القيام بأكثر مما يفعله الأهالي من ثورة على الغاصبين والمجرمين، بل اقتنعت أكثر بأن هؤلاء الناس صار من حقهم بصفة مطلقة حمل السلاح والدفاع عن أنفسهم وأعراضهم وشرفهم وبيوتهم وممتلكاتهم.

راح خالد أبو صلاح يتحدث معنا ومع رئيس الفوج العقيد عبد الله الطاهر عن بعض الأمور التي تتعلق بالحيّ، مثل ضرورة تمكينهم من سيارة إطفاء، وإعادة الكهرباء التي قُطعت عنهم منذ البارحة، والغاز صار شبه منعدم. وتحدث عن أزمة المدارس التي أغلقت منذ أشهر في وجوه التلاميذ وبعضها تحولت إلى مراكز اعتقال وتعذيب، وذكر مدارس بحي بابا عمرو والإنشاءات والخالدية والبياضة وبعلبة... إلخ. معاناة أخرى تتعلق بالقمامات التي تنتشر في كل مكان، وصارت مصدر روائح كريهة، وتخوف كبير بين الناس من انتشار الأمراض والأوبئة المعدية، وخاصة بعد ظهور ما يشبه الجرب في بعض الأطفال.

وصلنا قبالة المؤسسة الاستهلاكية، حيث التف حولنا المواطنون بدورهم يروون لنا ما ظل يجري في حقهم، وأجمعوا فيما بينهم على أننا حين نغادر

سوف يتعرضون للانتقام قصفًا وقنصًا كالعادة، بل أكثر وبصفة يومية، فضلًا عما تواجهه مناطق أخرى مثل الخالدية وباب السباع من قصف مدفعي، يؤدي إلى سقوط ضحايا كل يوم.

في تلك الأثناء، ونحن نواجه شكاوى المواطنين الغاضبين من الشبيحة ونظام بشار الأسد، حضر أحد الناشطين في سيارة ومعه شاب يبدو في الثلاثينيات من عمره، اسمه رامز محمد بكور، تعرض للاعتقال بعدما أصابه قناص في رجله اليسرى، ولم يفرج عنه، ويغادر السجن إلا منذ أسبوع فقط.

وذكر لنا الرجل أنهم نوّموه بأدوية قوية المفعول في المشفى العسكري، وعندما عاد له وعيه وجدهم قد بتروا رجله اليسرى من الفخذ، فقاموا بضربه على ظهره حتى أغمي عليه، ولما استفاق مجددًا وجد آثار عملية جراحية في فخذه الأيمن الذي لا توجد فيه أي إصابة، ولا يشتكي من شيء فيه بالمرّة، وقد رأيت ذلك بنفسي حيث أثر العملية التي تمتد من أعلى فخذه إلى رأس ركبته من الجهة الداخلية.

يؤكد السجين السابق رامز محمد بكور أن رجله اليسرى قد بترت على الرغم من أن الجرح يمكن أن يعالج، ونقل لنا ما قاله له طبيب بالمشفى: إنه يستطيع معالجته بصورة عادية جدًّا؛ لأن ما يعانيه ليس بالخطير، غير أنه اختفى مباشرة بعدما قاله له حسبما رواه لي.

أما فيما يخص العملية التي أجريت لفخذه الأيمن، فهو يتهم المشفى العسكري بسرقة أشياء منه مثل العروق أو عصب ما، فلا يعقل أن تجرى عملية لفخذه وهو غير مصاب، وما زرعوا شيئًا في الرجل اليسرى يمكن أن يشك أنهم فعلوا ذلك لمصلحته، ليضيف إن أطباء يعرفهم أخبروه بوجود عرق احتياطي مهم في ذلك الموضع تم سرقته منه.

الأمـر الآخر أن الرجل أظهر لنا آثار التعذيـب الذي تعرض له، حيث آثار السـياط في ذراعه وظهره، وتظهـر علامات اسـتعمال أدوات حادة في لحمه. وأعلمنـا أنـه بعد بتر رجلـه اليسـرى راحوا يرفسـونها بأقدامهـم وهي تنزف دمًـا، والأدهى والأعجب أن العسـكريين العاملين في المشـفى يبولون في أفواه المرضـى والجرحـى عندما يطلبـون الماء ومنهم من كان في حال سـيئة، وقد أعدموا لاحقًا.

السجين الأسبق رامز بكور يروي للمؤلف قصة اعتقاله وبتر رجله ٢٠١١/١٢/٣١

ونحن في انتظار وصول شاحنات لنقل الأغذية من المؤسسة الاستهلاكية، آثرنا أن نستمع إلى المواطنين الذين هبّوا ينقلون لنا قصصهم ومآسيهم، وهذا يعطيني صـورة ابنه المختطف، وذاك والده مسـجون، ويوجد من أعطانا صور أبنائه الشـهداء الذين قتلهم القناصـة، وغرقنا في آهـات الناس وتوجعاتهم، التي تفتت الصـخر، وتنـزف لها الأعماق، فلا يوجد في حـيّ بابا عمرو من لم يفقد فردًا من أفراد أسـرته أو قريبه، سـواء بالقنص أو القصف أو الاختطاف أو الاعتقال.

بينما نحن كذلك تسلّل إلى سمعنا صوت الرصاص في حدود الساعة الواحدة زوالًا، فصرخوا كلهم يكبرون ويؤكدون أنه رصاص قنّاص، حيث تجده يطلق النار بطريقة طلقات متقطعة فيما بينها، لم نتأخر كثيرًا، وعلمنا من خلال الاتصالات الهاتفية المتسارعة، أن سيدة تدعى فادية غالي قد أصيبت برصاصة في رأسها صوَّبها نحوها قناص متمركز في إحدى العمارات، وقد توفيت في مشفى الحكمة الذي يقع بحيّ الإنشاءات، وهو مشفى خاص سبق أن تعرض للقصف من قبل الجيش النظامي، غير أن القائمين عليه ظلوا يتحدون من أجل الإبقاء عليه ملجأ للجرحى والجثث التي تتساقط يوميًّا.

ألحّوا علينا بضرورة الوقوف على الجثة وتوثيقها، غير أن العقيد عبدالله الطاهر -رئيس الفوج- أكّد لهم أنهم سيسجلون الحادثة، ولا داعي لرؤية جثة امرأة، فضلًا عن أنه ينتظرنا عمل آخر، وحقيقة لم يعجبني موقف رئيس الفوج؛ لأنني كنت أودّ أن تنتقل للمعاينة؛ حتى يكون لذلك مصداقية كاملة عبر الصور التي سنأخذها، ونوثق بها تقريرنا اليومي.

أخذت العقيد عبدالله جانبًا، وهمست له حتى لا يسمعني أحد، وطالبته بضرورة الذهاب لمعاينة الجثة، إلا أنه ردّ عليّ بلباقة رافضًا مقترحي، وعندما سألته عن السبب، برر ذلك بعامل الوقت الذي لا يكون في مصلحتنا بسبب التزامات أخرى، فضلًا عن أنه لو كل حادثة تقع يجب أن نقف عليها فلا نستطيع أن نفعل شيئًا، ونحن ينتظرنا عمل يتعلق بالمؤسسة، حسب قوله، فكان ردّي عليه: «ما يخصّ المؤسسة خارج عن مهمتنا، لكن سقوط ضحية يدخل في إطار بنود البروتوكول، فيجب أن نذهب لرؤية الجثة وتأكيد الحادثة».

قال: «سنكتب للبعثة في دمشق عن المرأة، وما حدث لها».

قلت: «نحن لا نسجّل إلا ما نراه بأعيننا، ولو كل ما يحكى لنا نكتبه فلن ننتهي، ولو نبقى سنوات».

ثم سألته: «ماذا لو كانوا يكذبون مثلًا؟».

فردّ: «سأتصل برئيس البعثة، وأرى ما يقوله».

سحب هاتفه من جيبه، وراح يتصل بالفريق أول الركن محمد أحمد مصطفى الدابي، وراح يروي له ما حدث، ويبدو أن الجنرال سأله عن مهمتنا في كفرعايا والمؤسسة الغذائية والمساعدات الإنسانية، فراح يحدثه بما جرى، وبعدما أنهى الاتصال استدار نحوي وقال: «رئيس البعثة قال لي: لا داعي لأن تذهبوا لمعاينة الجثة».

فسألته: «لماذا؟».

أجاب: «حسب سيادة الجنرال أنه لا يجب أن ننتقل لكل خبر نسمعه، وإلا فسنتحول إلى مجرد لعبة، يتبارى بنا هؤلاء الذين لن يترددوا في فبركة الأحداث من أجل غاياتهم».

فقلت له: «هذا ليس منطقيًّا، وهو ضد البروتوكول... لا أدري على أي أساس يريدنا الدابي أن نشتغل؟ حولنا إلى منظمة إغاثة في حين يرفض توثيق عمليات قنص المواطنين التي تتعلق ببند أساسي في مهمتنا».

ردّ بصوت خافت، وهو يلتفت يمينًا وشمالًا: «لا يجب أن نتحدث في هذه الأمور أمامهم، عندما نعود للفندق نجتمع هناك، ونناقش كل شيء».

قلت: «إذا لم يتم ذكر هذه الحوادث في التقرير سيكون غضبي عليكم كبيرًا جدًّا؛ لأنني لا أسمح بتجاوز يمس مصداقيتنا».

بسبب مقتل السيدة فادية قرر الأهالي تجميد كل شيء، وعدم السماح لشاحنات المحافظة بدخول الحيّ، وقد فضل خالد أبو صلاح تأجيل ذلك

تفاديًا لانزلاقات قد تحدث بسبب الاحتقان، الذي ظهر على المواطنين بسبب الحادثة.

راج بين الناس في تلك الأثناء خبر قيام حاجز كفرعايا باعتقال ثلاثة مواطنين، بعد مغادرتنا مباشرة، وهم بصدد المرور على الحاجز، الذي فتح الممر بناء على اتفاق بيننا، فزاد الغليان بين الناس، وظهر الغضب علينا، فقد صرنا كأننا متهمون لديهم، حسبما يقولون: إننا أعطيناهم أمان التنقل بين السلطانية وبابا عمرو، غير أن الحاجز لم يحترم الاتفاق بيننا، وقام باعتقال شبان، وإن لم يطلق سراحهم فسيكون مصيرهم القتل أو التعذيب في أقلّ الأحوال.

مما دفعنا إلى العودة مجددًا للحاجز، لكن فضّلنا التحرك بالسيارات تفاديًا لاندفاع المواطنين الغاضبين، ولربح الوقت أيضًا، ولما وصلنا، وسألنا عن الحادثة أخبرنا قائد الحاجز أن ذلك مجرّد إشاعة، فهم لم يعتقلوا أي أحد، كل ما جرى أنهم قاموا بتفتيش ثلاثة شبان في المكتب بعدما رفضوا الانصياع لأوامر الجنود في الحاجز، وقد أطلق سراحهم مباشرة بعد ذلك.

لم نتمكن من التأكد من صحة أقوال قائد الحاجز؛ لأننا لا نملك صلاحيات التحقيق أو التفتيش، وكذلك المواطنون الثائرون بالمئات لم يصدّقوا ما نقله لنا، بل راحوا يؤكدون أمرًا آخر، يتعلق بتوقيف مرور الأهالي بعد مغادرتنا، ولا يفلح في الذهاب للضفة الأخرى أو العودة إلا العدد القليل، لأن الجيش مارس انتقائية كبيرة، ويوجد من لم يتمكن من العودة إلى السلطانية وقد مرّ لبابا عمرو أو العكس، وهو الذي نفاه ضباط الحاجز العسكري جملةً وتفصيلًا، على الرغم من أنه عند وصولنا المفاجئ وجدنا أهالي السلطانية ابتعدوا كثيرًا عن الحاجز، ولم نشاهد مرور أي شخص ما يوحي بأن الحاجز منع ذلك فعلًا.

اتصل العقيد عبدالله الطاهر بالمراقب العراقي صلاح سعيد المتمركز بقصر المحافظة، وأخبره بالتطورات حيث قام بدوره بإعلام المحافظ بما حدث، ليعلمنا بعد ذلك أنه قد جرى الاتفاق بعقد اجتماع مع المحافظ على الساعة السابعة من مساء ذلك اليوم، لوضع النقاط على الحروف، والاتفاق على ما تبقى من خطة العمل.

اجتماع مع المحافظ
وأخبار من مراقبين في مناطق أخرى

عدنا إلى فندق السفير في حدود الساعة الثالثة والنصف، ووجدنا عناصر الفوج الآخر وهم يستقبلون مواطنين، ويتحدثون إليهم في أحد صالونات الفندق، وعلمنا من أحد الضباط الذين يرافقوننا أنهم من أهالي حمص، تعرض لهم المسلحون باختطاف أبنائهم وذويهم ودمّروا بيوتهم، وطبعًا لا يمكن التأكد من صحة الروايات ولا تقديم أي إثباتات على ذلك، سوى تلك القصص التي دأبنا على سماعها منذ اليوم الأول.

تناولنا وجبة الغداء التي تفرض علينا، وليس لنا أي خيار في نوعها ولا شكلها ولا طعمها، كأننا في ثكنة عسكرية وليس في مطعم في فندق خمس نجوم، وهو الذي سبب متاعب صحية لبعض المراقبين، الذين لم يتعوّدوا على الأكل السوري. وبعد نهاية الوجبة توجه كل واحد منا إلى غرفته من أجل أخذ قسطه من الراحة، على أمل اللقاء قبل موعدنا مع المحافظ بربع ساعة، أي في حدود الساعة السابعة إلا الربع من ذلك المساء.

دخلت غرفتي وبعد الاستحمام مثل عادتي، أديت واجباتي الدينية من الصلوات المفروضة جمعًا وقصرًا كالعادة منذ وصولنا لسوريا، ثم تمددت على سريري محاولًا الإبحار في الشبكة العنكبوتية، غير أنني لم أوفق في ذلك، نظرًا للصعوبة الشديدة التي تعانيها شبكة الاتصالات، فضلًا عن إدارة الفندق

التي يبدو أنها تعمدت ذلك، حتى تفرض على من يريد الإنترنت أن ينزل إلى بهو الاستقبال، وهناك يخضع لمراقبة ما، كما توقعت في ذلك الوقت.

اتصلت بأسرتي في فرنسا حتى أطمئنهم على حالي وأطمئن عليهم، وبعدها شغلت جهاز التلفزيون علّني أجد ما يمكن مشاهدته، ولكن كل ما رأيته هو هجوم القنوات الحكومية على من تسمّيهم أعداء سوريا والمتآمرين عليها من صهاينة ومتصهينين، ولاحظت رد فعل قوي تجاه بعض الدعوات، التي أطلقت تطالب بسحب المراقبين؛ لأن الحكومة السورية لم تلتزم ببنود البروتوكول.

ظل التلفزيون السوري في ذلك اليوم كعادته يعيد مشاهد للمراقبين، وهم يجوبون الشوارع، ويدخلون البيوت في كل من درعا وإدلب وحماة وحمص وريف دمشق، وأعتبر ذلك أكبر دليل قاطع على ما سموه ببهتان هؤلاء ممن يتحاملون على البعثة العربية، ويرونها غير مجدية مطلقًا.

بيني وبين نفسي رأيت ما يقال من طرف المعارضة صحيحًا، حسب التلفزيون الحكومي أو بعض الفضائيات المؤيدة والداعمة كالمنار والعالم والجديد وغيرهم؛ لأنه إلى تلك اللحظة لم يتم سحب أي مظهر عسكري، سوى ذلك الحاجز الذي جاء مقابل صفقة بين الطرفين، ورأت الحكومة من مصلحتها أن تبعده من ذلك المكان، لحسابات أشرنا إلى بعضها من قبل.

تساءلت بيني وبين نفسي عن المظاهر العسكرية التي لا تزال في أماكنها، إذ لم يتوقف العنف، فيوميًّا يسقط قتلى، ونسمع القصف المتواصل ليلًا، وغالبًا ما يستهدف الأحياء الثائرة والساخنة، حيث يدمر البيوت على رؤوس السكان من المدنيين. من جهة أخرى لم نشهد إطلاق سراح أي معتقل غير السيدتين اللتين أطلق سراحهما مقابل سحب الحاجز العسكري. بالنسبة إلى الصحافة

المستقلة فلم نَرَ أحدًا، وكل ما نشاهده هو الإعلام الرسمي والموالي، بل إن القنوات الدولية الإخبارية منعت عنا مشاهدتها حتى في الفندق، فضلاً من عن ترافقنا في مهمتنا، حيث العجب العجاب من الدمار الناتج عن القصف العشوائي للأحياء.

بالنسبة إلى أمر إغراقنا في أمور هامشية خارج نطاق مهمّتنا، الذي تتحدث به المعارضة السورية، فهذه حقيقة واضحة للعيان، ونحن بوصفنا مراقبين بدأنا نشتكي منها، وقد تجلى ذلك من خلال ما رويته سابقًا، فنحن منذ وصولنا لم نوثّق شيئًا في إطار البروتوكول، في حين وجدنا أنفسنا نعمل بصفتنا وسائط للحكومة من أجل تحقيق بعض مطالبها مثل سحب حاجز بابا عمرو.

بقيت أصول وأجول في تفكيري بهذه المهمّة، التي حادت عن الطريق، بل تاهت في منحنيات متناقضة ومختلفة، فلم نجد أدنى مخطط عمل من خلاله يمكن بعثة المراقبة من توفير آليات تطبيق البروتوكول، ومعرفة حدود التزام الحكومة السورية به. وبينما أنا في شجوني هذا، إذا بالهاتف يرنّ، ولم يكن المتصل سوى المراقب الموريتاني العقيد البخاري، الذي يوجد ضمن الفوج العامل بحماة، راح يسأل عن أحوالنا بحمص، التي قضى بها يومين من قبل، وقد تناقشت معه حول طريقة عمل فوجهم هناك، حيث أكّد لي أن الأمور ليست على ما يرام، فقد غرقوا بدورهم في هوامش لا أساس لها، بل ذهب إلى وصف ما يجري معهم، بأنه مسخرة حقيقية، وجدوا أنفسهم فيها، حيث يتمّ تضليلهم، ويؤخذون إلى أماكن مغلوطة، ويجري تغيير أسماء الشوارع، ويتعمد إعاقتهم، سواء بإطلاق الرصاص أمامهم أو بتخويفهم بأنباء وهمية، وهذا حتى لا يصلوا إلى الأماكن التي توجد بها الدبابات والمدرعات والحواجز والقنّاصة، أو حتى مراكز سرية للاعتقال والتعذيب والإعدامات خارج القانون والقضاء.

وجدت في كلام العقيد البخاري ما نراه نحن في حمص، لذلك قررت سماع جهة أخرى، فاتصلت بالمراقب الجزائري المقدم عاشور، الموجود بدرعا، وسبق أن عمل معنا بحمص يومًا واحدًا، وشهد معي قنص الطفل محمد أحمد الراعي، وقد كان الرجل يتحدث بحذر عندما سألته عن الوضع، فأشار بجملة واحدة فهمت منها قصده: «لا تختلف عما عشناه في بابا عمرو من قبل، وربما تواصل معكم الآن بحمص».

من جهة أخرى نذكر أيضًا المراقب السعودي الدكتور إبراهيم عبدالله السليمان بحماة، الذي وجّه نقدًا لاذعًا للسلطات السورية، التي لم تكن متعاونة مطلقًا، ولم تلتزم بالبروتوكول، وأعطى إشارات وإن كانت مختصرة، إلا أنها تتطابق على ماهو عليه شأننا في حمص أو المناطق الأخرى.

لقد أدركت أن الوضع مثل ما هو عليه أمرنا في حمص، حيث القتل متواصل، والقصف لا يزال يستهدف الأحياء، والأبعد من ذلك هو الزجّ بالبعثة في متاهات أخرى، تضيّع عليها الوقت، ولا تجعلها تؤدي مهمتها كما يراد لها، وفق البروتوكول الموقع بين الحكومة السورية والجامعة العربية في ٢٠١١/١٢/١٩ بالقاهرة.

بل لا نذهب إلى الأماكن التي تريدها الحكومة وتوافق عليها مسبقًا بساعات، ولديها غاية في ذلك، بعدما تقوم بترتيب الأمور قبل وصولنا إلى المكان عينه وفق ما يخدم أطروحتها، وصرت متيقنًا أن الموافقة على ذهابنا إلى حيّ بابا عمرو في أول يوم لنا بحمص مع الفريق أول الركن محمد أحمد مصطفى الدابي، كان الهدف منه هو رؤية العسكريين المنشقّين الذين تسمّيهم الحكومة بالعصابات المسلّحة أو الإرهابيين، وتحصيل تصريحات رسمية من البعثة عبر وسائل إعلامها المختلفة بما يعزّز أطروحاتها القائمة منذ اندلاع الثورة على نظام بشار الأسد.

أما الخراب والقتل والتدمير والاختطاف والاغتصاب والأشياء الأخرى، فتحميلها للطرف الآخر مادام يوجد من يحمل السلاح أمر هيّن، ولا يحتاج إلا إلى بعض الفبركات أو السيناريوهات، التي تتقن الأجهزة الاستخباراتية إعدادها في العالم العربي، الذي تحكمه أنظمة شمولية مستبدّة.

غرقت في التفكير حول مصير هذه البعثة إن استمر الحال على ما هو عليه شأننا، فاستولى عليّ النعاس، ولم أستيقظ إلا على رنين الهاتف، حيث اتصل بي المراقب العراقي صلاح سعيد، وقد أخبرني بأنهم ينتظرونني في الاستقبال من أجل الذهاب إلى قصر المحافظ. فنظرت إلى الساعة ووجدتها تشير إلى السابعة إلا عشرين دقيقة، جهّزت نفسي بسرعة ونزلت إليهم، حيث وجدت أيضًا عناصر من الفوج الآخر قد تجهّزوا بسيارتهم للقاء المحافظ، ومنها توجهنا مباشرة نحو القصر برفقة الحراسة وموظفين على غرار السيدة علا، وآخرين ظلّوا يرافقونها، فمنهم من يشتغلون إداريين، وآخرين نجهل وظيفتهم.

وصلنا جميعًا بعد دقائق معدودة إلى القصر الذي لا يبتعد كثيرًا عن فندق السفير الذي نقيم فيه، في ذلك الجو الشتوي الذي خيّم على حمص فجأة، زادها حزنًا أكثر مما كانت عليه من قبل، ووجدنا المحافظ اللواء غسان عبدالعال في انتظارنا بمكتبه، سلمنا عليه ورحّب بنا ثم جلسنا، وكان معنا السيدة علا وموظف آخر يسجلان محتوى اللقاء، أو يتابعان النقاط التي أرادها المحافظ في الاجتماع معنا.

بدأ العقيد عبدالله الطاهر بالحديث عن زيارتنا لحاجز كفرعايا، وقد أشاد بتفهّم قيادته العسكرية، ومدح كثيرًا مدى استجابتهم لكل مطالبنا، وقد تهلّل وجه المحافظ غسّان عبدالعال كثيرًا لتلك الإشادة، التي يريدها في تقرير

بعثة المراقبين للجامعة العربية، فهي تعني الكثير لهم، وقد لمست ذلك في ملامحه، وهو يهزّ رأسه بالإيجاب على ما كان ينطق به لسان رئيس الفوج.

لما أنهى العقيد عبدالله كلامه فيما يخص حاجز كفرعايا، جاء دور المحافظ غسان عبدالعال الذي أشاد بدوره بما تبذله البعثة من جهود مضنية لمساعدة بلاده، وأشار إلى أنهم تحت الأمر في تنفيذ كل ما يطلب منهم، وفيما يخصّ سحب حاجز كفرعايا راح المحافظ يطلعنا على موقع السلطانية، حيث يوجد بها خطّ نفطي وسكّة القطار، وتحدّث عمَّا تعرضت له من تخريب وتفجير من قبل المسلحين، ولهذا اضطرت السلطات العسكرية - حسب قوله - إلى وضع ذلك الحاجز من أجل التصدّي للتخريب الممنهج كما سماه.

وحول قضية سحب الحاجز العسكري، فقد أشار إلى أنه لا يمكن ذلك إلا في حالة واحدة، هي تعهد أهالي بابا عمرو بالحفاظ على خط النفط والسكة الحديدية من أي تخريب وإساءة، فتدخلت حينها، وقلت له: «سيادة المحافظ، قرار السحب يتعلق بكم، فنحن مهمتنا المراقبة، ومادام الحاجز وآلياته العسكرية موجودة سنكتب في تقريرنا. أما الضمانات فليست من صلاحياتنا».

فعقب المراقب صلاح سعيد على كلامي: «هذا صحيح، لكن نحن نريد التعاون».

فقاطعته: «لا نتحمل أي مسؤولية، فقد يتعرض خط النفط للتخريب، ونجد أنفسنا في مسؤولية خارج نطاق مهامنا».

المحافظ، وقد ظهر بأن كلامي لم يعجبه: «نحن كلنا عرب، وسوريا وطنكم أيضًا، ومساعدتها واجب عليكم».

فقلت له: «نحن هنا في مهمة محددة، وإذا كانت السلطات السورية تريد المساعدة فلتطلبها من الجامعة العربية بصفة رسمية، وإن أضيفت قضية

الوسـاطة والمعونات الإنسانية للبروتوكول، فلا مانع لدينا أن نقضي ليالينا في الشوارع لأجل استقرار البلد».

المحافظ: «نحن على يقين أنكم تحبّون سوريا، ونحن نريد سحب الحاجز العسـكري، ولكن أيضًـا يجب أن نضمن أمن المنشـآت الحكومية، ونريد منكم أداء دور معنا في ذلك».

يتدخّـل العقيد عبدالله: «بنـاء على تعليمات من رئيسـ البعثة، نحن على استعداد لأداء أي دور يكون في المصلحة العامة».

سـكتّ على مضض بعدما صـرت أرى البعثة تاهت في أشياء خارج الإطار الرسـمي والقانوني، ومـادام الأمر بموافقة وأمر من الرئيس محمد مصـطفى الدابي فقد انتهى بالنسبة إلي، وكل واحد سيتحمل مسؤولياته، وقد كنت أحترق فـي داخلـي، وأنـا أرى المراقبين في نقاشـهم يترجّون المحافظ سـحب ذلك الحاجـز، على الرغم من أنه يجب عليه ذلـك وفقًا لتعهدات حكومته من خلال البروتوكول، الذي وقعته في مقرّ الجامعة العربية.

اشـترط المحافظ غسـان عبدالعال تعهد أهالي بابا عمرو بالحفاظ على خط النفط والسـكة الحديدية من أي تخريب مقابل سـحب الحاجز العسكري، ليأتـي الرد من رئيس الفوج بأنه سـيتم أخذ تعهد متلفـز بمطلبه، وأنه في حال نقض العهد وحدوث أي شيء سوف يرسل ذلك الفيديو إلى الجامعة العربية.

تعجبت صـراحة مما أسمع، ولذلك قلت لهم: «أنا لا أوافق على هذا الأمر مطلقًا، ولا يلزمني في شيء؛ لأنه خارج عن بنود مهمتنا».

ثم التفت للعقيد عبدالله، وخاطبته: «أنت من يتحمل مسؤولية أي تداعيات لما ذكرت».

الغريب أن المحافظ راح يتحدث عن دور الشيخ عدنان العرعور في تخريب خطوط النفط والسكك الحديدية، حيث راح يخبرنا بأنه أفتى لهم بذلك، وبعدها استرسل في الإساءة للشيخ العرعور، وكال له ما يندى له الجبين من تهم غير أخلاقية.

ليقاطعه المراقب العراقي صلاح سعيد قائلًا بحماس شديد: «هل من الممكن تزويدنا بصور ووثائق تدين هذا العرعور، فرئيس البعثة ألحّ على هذا الأمر؟».

غرابة أخرى: أنه قد أيّده رئيس الفوج الآخر العراقي عمار سلمان جابر عباس وصاحبه العراقي محمد حسن الموسوي، وطلبا بدورهما نسخة من هذا الملف، فتعجّبت من هذه المصادفة الغريبة، أن الذين اهتموا بشأن الشيخ عدنان العرعور هم من العراقيين الذين ينتمون لطائفة رئيس الوزراء نوري المالكي، وفوجئت بأن الجنرال الدابي طلب منهم ذلك، ومن دون أن يعلم بقية المراقبين عن هذا الأمر شيئًا.

أجابه: «سأقوم شخصيًّا بتأمين الملفّ لكم، وأرجو أن تنقلوه للجامعة العربية».

ثم التفت نحو موظفيه، وخاطبهم قائلًا: «سجلوا لي هذه النقطة، حتى نؤمن للبعثة ما طلبته».

كنت أرى أن الأمور خرجت عن الصواب بالمرة، فليس من صلاحياتنا البحث في تهم الأشخاص ولا التحقيق، فالبروتوكول واضح وصريح، وكل ما أسمعه لا علاقة له بمهمة بعثة مراقبي الجامعة العربية مطلقًا.

فاستأذنت في الحديث، وقلت لهم: «يا جماعة، نحن نضحك على أنفسنا، مهمتنا هي المراقبة، وليس البحث في ملف فلان أو علان، ولهذا أطلب منكم أن نلتزم بالبروتوكول؛ حتى لا نغرق في هوامش تريدها الحكومة السورية».

يقاطعني المحافظ: «أنت مخطئ، فكل ما نقوم به هو من أجل معرفة الحقيقة».

فقلت له: «سيادة المحافظ، نحن هنا لمراقبة الحكومة، وليس في البحث عن قضايا تتعلق بالمعارضين، اليوم عملنا وسجلنا عدم التزامكم بالبروتوكول، فآليات عسكرية لم تسحب بكفرعايا، وقد وقفنا عليها وصورناها، العنف لم يتوقف، فقد تم قنص امرأة وماتت في مشفى الحكمة، الصحافة المستقلة لم نَرَها، والإفراج عن المعتقلين لم نشهده، ويوميًّا نتلقى شكاوى وأسماء عن مختفين في السجون، هذا الذي يهمنا، وليس الشيخ العرعور أو غيره».

ثم أضفت: «يبدو أننا لسنا بعثة مراقبة عربية لأجل تنفيذ بروتوكول موقع بين الحكومة والجامعة، بل بعثة خاصة بالعرعور».

ليقاطعني العقيد عبدالله الطاهر: «صحيح اليوم تمّ قنص امرأة».

المحافظ متعجبًا: «قنص»!

فقلت له: «نعم، وكان ذلك سببًا في توقيف عملية شحن الأغذية من مخازن المؤسسة».

قهقه المحافظ، وقال: «هل رأيتم الجثة بأنفسكم وصورتموها؟».

أجابه العقيد: «لا، لم نذهب؛ لأن الجنرال أمرنا بذلك».

فردّ المحافظ: «أؤكّد لكم أنها قصة مفبركة، يريدون منها نقض العهد فقط».

فسألته: «يعني أنه لم تقتل السيدة فادية غالي؟».

قال المحافظ: «لم أقل: إنها لم تقتل، لكن لا يجب أن تصدقوهم، فإما أنها قصة مفبركة، أو أن المسلحين هم الذين قتلوها؛ حتى ينقضوا العهد».

التفتّ للعقيد عبد الله، وقلت له بلهجة عتاب: «أنا طلبت منك أن نذهب ونوثق الأمر؛ لأنه من واجب مهمتنا، وأنتم تريدوننا أن نشتغل في الشحن الذي لا علاقة لنا به».

كنت أتوقع هذه القراءة، التي جاءت على لسان المحافظ اللواء غسان عبد العال، وحتى لو وقفنا على الجثة فقد سبق أن اتهم أهالي الحيّ بقتل أبنائهم من أجل الإساءة للحكومة، لكن مهمتنا التحقّق وليس التحقيق، كما قال لنا رئيس البعثة، وأكّده البروتوكول، وكان من المفروض أن نذهب ونرى الجثة ونوثق مقتلها، أما الجوانب الأخرى فلا تعنينا، بقدر ما يهم أنه يوجد من قتل، وأزهقت روحه في ظل تعهد الحكومة بوقف العنف.

قلت للمحافظ: «كيف قتلها المسلحون؟».

أجاب: «يفعلونها منذ مدة، قد تكون أرادت الهروب من بابا عمرو، أو رصاصات طائشة أطلقها أحدهم».

فقلت له: «والأطفال الذين يقتلون في بيوتهم أو يقنصون بالشارع مثل أحمد محمد الراعي».

قال: «أهاليهم من يفعلون بهم ذلك، حتى يسيئون للحكومة لدى بعثتكم».

وقد استفزني الاستهزاء بنا والاستخفاف بعقولنا، لذلك قلت له: «ما رأيك أنت أيضًا تقتل أولادك، وتتهم الجماعات المسلحة، حتى تسيء لها أمامنا، وأنا مستعدّ لتصويرهم، ونقل الصور للقاهرة أو نيويورك، أو أي مكان آخر في العالم».

تجهمت ملامحه، وظهر عليه الغضب الكبير، لكنه كتم حنقه، وردّ قائلًا: «كيف أقتل أولادي؟».

يستدير نحو رئيس الفوج العقيد عبدالله، وأضاف: «ما هذا الكلام الفارغ؟».

فقلت له: «أولاً: لا داعي للإساءة، ولا أقبلها منك أو من غيرك، ثانيًا: الإحساس الأبوي واحد هنا أو هناك، فأنت لم تقبل أن تقتل أولادك؛ لأنهم فلذات أكبادك، هم أيضًا لا يمكن أن يقتلوا أولادهم كما تدّعي».

قال المحافظ: «يبدو أنك لم تفهمني جيدًا، أو أنك ضدنا فقط».

قلت له: «لست معكم ولست ضدكم، ولست معهم ولست ضدهم، وما يهمني هو الحق والحقيقة التي أنا لأجلها، فلديّ بروتوكول أتقيّد به وانتهى الأمر».

ثم وقفت، وأنا أقول: «ما دام عملي لا يعجبكم، وكلامي فارغ، سأغادر إلى الفندق، ومنه إلى دمشق، لا يمكنني أن أعمل لأرضي أي جهة، هذا ضد ضميري».

وقف بعض المراقبين، وأقسموا عليّ أن أبقى ولا أغادر، أما المحافظ غسان عبدالعال فبدوره تقدم مني، وهو يقول: «أستاذ، نحن هنا نتعاون، فلا تغضب منا، وإن أسأت لك من حيث لا أدري، فأعتذر».

جلست في مكاني مجددًا على مضض، وفضّلت أن ألتزم الصمت، وأتابع ما صرت مقتنعًا به: إنها مهزلة حقيقية، وقع فيها المراقبون، الذين يجهلون طبيعة المهمة، التي هم بصدد تنفيذها، ليتواصل اجتماع العمل بصفة عادية. ومن الأمور التي طالب بها المحافظ عربة عسكرية محتجزة في بابا عمرو

لدى المسلحين، وقد قال: إنه كان على متنها ثلاثة من المجندين، وهم جمال اللحام ومحمد صبح وعلاء عزالدين، وطالب بالعربة وجثث من كان فيها، حيث يعتقد أنهم قتلوا من طرف الجماعات المسلحة.

ردّ العقيد: «لقد سبق أن طلب منّي عميد حاجز المؤسسة الغذائية، وقد سألت عنهم، وعلمت أنهم انشقوا، وصاروا مع عناصر الجيش الحرّ».

المحافظ: «هل رأيتهم بنفسك؟».

ردّ العقيد: «لا، لم ألتقِهم، ويبدو أنهم ينشطون في مكان بعيد، حسبما قيل لي».

المحافظ: «لقد قتلوهم، وجثثهم عندهم في الحيّ».

العقيد عبدالله: «لقد أكّدوا لي ما نقلته لكم، ولا يمكن التحقق من الأمر».

المحافظ: «يجب أن يظهروا حسن النية، وما داموا يزعمون أنهم انشقوا، يوجد لدينا مفقودون، وهم المساعد إدريس، والمجنّد رامي خليفة، ونريد معرفة مصيرهما».

قام المراقب صلاح سعيد بتسجيل الاسمين، ثم قال للمحافظ: «سنناقش الأمر مع الجماعة في بابا عمرو، ونرجع لك بالجواب».

ثم أضاف صلاح سعيد: «بالنسبة إلى سحب الآلية العسكرية المحتجزة لدى المسلحين، فقد تحدثت مع خالد أبو صلاح، ووافقوا على الأمر مقابل الإفراج عن المعتقلين، وهم إخوة من عائلة محيميد».

وهو يقرأ في كراسته راح يسرد الأسماء: «فواز محمد عيد محيميد، فوزي محمد عيد محيميد، جاسم محمد عيد محيميد، معتز محمد عيد محيميد».

ويستدرك: «هم طلبوا الإفراج عنهم من باب إنساني؛ لأن والدتهم مريضة، ومعتز طالب جامعي».

الحقيقة لم أكن أعلم بهذا الاتفاق، الذي يبدو أنه جرى هاتفيًّا بين صلاح سعيد وخالد أبو صلاح، وانتهى حديثنا بمتابعة الموضوع، وجرى الاتفاق أن فوجنا سيزور غدًا الأحياء الموالية، وجرى تحديد حيّ العباسية وحيّ الأرمن.

أحسست بحرارة تجتاح جسدي بسبب ارتفاع درجتها في مكتب المحافظ، لذلك طلبت منهم أن أغادر لبهو القصر، غير أن العقيد عبدالله طلب مغادرتنا جميعًا، وتركنا الفوج الآخر يتفق مع المحافظ على برنامج عملهم، الذي لا نسمع عنه إلا القليل جدًّا. تقوم السيدة علا، وطلبت منا انتظارها ثواني فقط، كي تحضر لنا نسخة مما تم تحريره عن جلستنا، ولم تتأخر كثيرًا، وسلمت كل واحد منا ورقة، كتب فيها ما جرى الاتفاق عليه في لقائنا مع المحافظ غسان عبدالعال.

- طلبت اللجنة حضور وتأمين مصابين إلى شارع العرعور
(ويستوم المسعف لهم تأمينهم) .
- اجتمعت اللجنة مع مدير السلطانية الذي وجدنا خط النفط وسكة القطار
والاطلاع على عملية تخريب السكة وتفجير خط النفط من قبل المسلحين
- تقدم أهالي بابا عمرو بالخطاب إلى حفظ النفط و السكة الحديدية من [illegible]
و إشارة [illegible] حسب الحاجز العسكري [illegible] .
- وجدت اللجنة بابا عمرو باختصار تفريغ (تلفزيون) لعدم [illegible] النفط [illegible]
وانفجار النفط [illegible] [illegible] التعرض [illegible] الجامعة العربية
- وجود [illegible] عسكرية محتجزة لدى المسلحين في بابا عمرو وكان مع عناصر ثلاثة
مجندين (جمال اللحام - محمد صبيح - علاء عبد الرحمن)
مطلوب لعائدتهم إلى الخدمة (الأولوية حسب قائمة الأمن المسلحين)
ومعرفة مصير المفقودين (السادة هاني ادريس - المقدم أبو خليفة)
- سيتم في المكالمة حسب الحاجز إلى المكان [illegible] السكة [illegible]
إذا تعرضت للتخريب . وإذا تأكد [illegible] [illegible] سيتم [illegible]
- راقبت الإعلام التلفزيون مع الجرحى التي [illegible] من الأحياء التي تعرضت
من أعمال المسلحين (قنص - اختطاف - تعذيب - خطف) .
- طلب أهالي بابا عمرو الإفراج عن المعتقلين :

فواز محمد عبد الحميد
[illegible] " " "
[illegible] " " "
[illegible] " " "

كما أضاف [illegible] [illegible] مرافقة [illegible] ونتمنى المساعدة [illegible]
المستودع [illegible] [illegible] المواد الغذائية [illegible] .

محضر اجتماع المراقبين مع محافظ حمص ٢٠١١/١٢/٣١

٣٦

ديكتاتورية رئيس البعثة الدابي

غادرنا قصر المحافظ، وفي طريقنا للفندق رحت أنتقد طريقة العمل من خلال ما جرى في الاجتماع من مهازل، لا تمت بأدنى صلة للبروتوكول، وأكدت لهم للمرة الأخرى أن ما نقوم به يتنافى وبنود البروتوكول الموقع بين الحكومة السورية والجامعة العربية، وعبرت لهم عن خشيتي من أن تحدث تجاوزات تسجل علينا، وتحملنا حينها الحكومة المسؤولية، فكان ردّ العقيد عبدالله الطاهر والمراقب العراقي صلاح سعيد أن رئيس البعثة الفريق أول الركن محمد أحمد مصطفى الدابي هو الذي أمر بهذا العمل، الذي نقوم به.

وكان ردّي عليه بالقول: «هذه الأمور ما المانع من إضافتها بوصفها ملحقًا لبروتوكول، يوقع بين الطرفين، لتفادي أي مفاجآت؛ لأننا في حقل ألغام، ويجب علينا الحذر الشديد».

فقال العقيد عبدالله: «نحن هنا ننفّذ الأوامر، والأمور التي تتحدث عنها تعني رئاسة البعثة في دمشق والقاهرة».

فقلت: «هذا ليس منطقًا، ولن أكون مجرّد بيدق يحركني الدابي أو المحافظ، كما يريد، مادمنا لا نملك خطة عمل نحتكم للبروتوكول، ولو كنت أراه ميتًا».

فرد صلاح سعيد ضاحكًا: «لا تتعب نفسك، كثيرًا نفعل ما يقال لنا قدر الممكن، ولا يهم أي شيء آخر».

قلت: «ليس كذلك، ونحن هنا نؤدي أمانة، وأقسمنا عليها، والأمر يتعلق بدماء شعب، فالتهاون أو العبث بها لا أقبله، ولن أشارك فيها مطلقًا».

العقيد عبدالله: «سنتناقش لاحقًا في الموضوع».

قلت: «سأتصل بالدابي، وأسمع منه مبرراته، التي يريد من خلالها إغراقنا في ألاعيب الحكومة».

سكت الجميع على مضض، وإن كانت ملامح العقيد عبدالله أوحت لي: بأنه لا يرغب في التواصل المباشر مع رئيس البعثة، ويجب أن يبقى هو الواسطة الوحيدة بصفته رئيس الفوج، غير أنني لم أهتم بذلك، وكنت أرى نفسي مراقبًا حرًّا ولست في ثكنة أخضع للأوامر بطريقة عسكرية.

وصلنا فندق السفير بسرعة؛ لأن المسافة غير بعيدة بينه وبين قصر المحافظ، وتوجهنا مباشرة إلى المطعم من أجل تناول وجبة العشاء، وقد كنت غير راضٍ مطلقًا عن عمل البعثة التي إلى تلك اللحظة لم تقدم شيئًا، بل تاهت في غياهب هامشية خارج ما رسم لها، وكنت مصممًا جدًّا على الاتصال بالجنرال الدابي، لأتحدّث معه في هذه الأمور التي يثقل كاهلنا بها، وهي خارجة عن نطاق مهمتنا أصلًا.

بعد وجبة العشاء السريعة برفقة بعض أفراد البعثة، عدت إلى غرفتي وأول شيء قمت به هو الاتصال برئيس البعثة الدابي، وقد ردّ عليّ، وعرفني لما قدمت له نفسي، فقلت له: «سيادة الفريق، أنا لست راضٍ عن عملنا».

سألني: «لماذا؟».

أجبته: «نحن نتجاوز البروتوكول، والحكومة السورية تغرقنا في متاهات ثانوية».

قال: «مثل ماذا؟».

فقلت له: «الوساطة للتبادل من أجل سحب الآليات العسكرية، والإفراج عن المساجين، وتوزيع الأغذية، والمساعدات الإنسانية، وهي أمور خارج البروتوكول، ولو تحدث تجاوزات سنتحمل مسؤوليتها».

قاطعني: «أنا من أمر بذلك».

فقلت له: «يجب أن تكون هذه الأمور مرخصة باتفاق موقع بين الطرفين، وليس بأوامر وموافقة شفهية، قد نتضرر منها لاحقًا، والحكومة تتفادى أي شيء رسمي يتعلق بالوضع الإنساني، حتى لا تحرج نفسها بنفسها».

فردّ: «إذا رأيت أمرًا لا يناسبك امكث في الفندق، ولا تشارك فيه».

فقلت: «هذا منطق لا يجوز سيادة الفريق، والأمر لا يتعلّق بشخصي، بل بمهمة البعثة كلها».

قال: «لا تتعب نفسك كثيرًا، فأنا على اتفاق مع المسؤولين، وإذا حدث شيء سأتحمل مسؤوليته».

قلت له، وقد هالني مستوى تفكير الرجل: «لكن هناك أشياء من صميم مهمتنا ونتجاوزها، وندخل في متاهات أخرى، لن تحقق شيئًا لمهام البعثة وبنود البروتوكول».

قال: «أعطِني مثالًا واحدًا».

فقلت له: «أمور عدة، وأبسط شيء أنك رفضت مثلًا ذهابنا لتوثيق مقتل امرأة على الرغم من أن ذلك بند في البروتوكول».

بلهجة من لم يعجبه كلامي، ردّ عليَّ: «الآن لدي عمل، وإذا عندك ملاحظات بلغها للعقيد رئيس الفوج[1]، وهو له صلاحية التواصل معي».

فقلت له بلهجة غاضبة: «يعني البعثة تحولت إلى ثكنة، نحن كلفنا بوصفها مراقبين جميعًا، ومن يرى الخطأ من حقه أن يتواصل معك».

قاطعني بعنجهية: «تكلم مع العقيد عبدالله، وهو لديه كل التعليمات».

رددت عليه: «ما دمت لم تسمع كلامي سأتكلم مع نبيل العربي وكل العالم».

قطع الخط في وجهي من دون أن يردّ، وهو الذي أزعجني كثيرًا، وزاد حنقي أن رأيت مراقبين سودانيين ليسوا رؤساء أفواج، يتواصلون معه بصفة عادية، ولم أسمع أن أحدًا منهم روى تجاهل الجنرال السوداني له، في حين كرر تصرفه هذا مع مراقبين آخرين من غير بلده الذي ينحدر منه.

عاودت الاتصال به، ولم يرد إلا عند الاتصال الرابع، فقلت له بحنق كبير:

«ليس من الأدب أن تغلق في وجهي الخط».

فردّ: «قلت لك التعليمات مع رئيس الفوج، وانتهى الأمر».

قلت له: «أنا لست عسكريًّا في ثكنة أبيك، حتى تتعامل معي بهذه الطريقة غير الأخلاقية، أنا مراقب، ومن حقي أن أتحدث معك أو مع نبيل العربي أو حتى مجلس الأمن».

قال: «ماذا تريد بالضبط؟».

أجبته: «يجب أن تأتي إلى حمص ونجلس معًا، ونضع النقاط على الحروف، وإلا فسأستقيل من البعثة، وأفضحها أمام العالم».

---

(١) الذي يسميه دوما «التين».

تغيرت لهجته بعض الشـــيء، وقال كأنه يريد تهدئتي: «حاليًا لدي اجتماع، وسأنظر في ملاحظاتك بجدية إن شاء الله».

انتهت المكالمة بيننا، وخرجت غاضـبًا من غرفتي مباشرة، وتوجهت نحو غرفـة العقيد عبدالله التـي تحمل رقم ٤١٢، فلم أجده، فاتصـلت بـه هاتفيًّا، فأخبرني بأنه بغرفة المراقب السـوداني الزاكي بالطابق الثالث التي حوّلها إلى مكتـب به تحرر تقاريـر البعثة، فتوجهت نحوها، ووجدت معـه مراقبين آخرين سوادنيين، أخبرته بأن ينقل رسميًّا للدابي احتجاجي الشديد على الطريقة التي تعامل بها معي في الهاتف، وإن واصـل هذا التصـرف فسأنسـحب من البعثة، وأغادر، وأفضح على مرأى العالم كل شيء.

وقد حاول العقيد عبدالله تهدئتي، كما وعدني بنقل كل انشغالاتي لرئيس البعثة الجنرال الدابي، ولن يكون إلا ما أريد.

ولقد وجدته يقوم بتحضير التقرير اليومي، وعندما دخلت فإذا بالمراقب السوداني الذي كلف بمهمة الرقن على جهاز الكمبيوتر توقف عن العمل، ووضع الحاسوب في حالة شبه مغلقة، كأنه يتفادى اطلاعي على محتواه، فقلت للعقيد:

«مـن المفروضـ أنه بعد كتابة كل تقرير أن نطلع عليه قبل إرسـاله، حتى نعطي ملاحظاتنا، كما تمّ الاتفاق في اجتماعنا الأول بدمشق مع رئاسة البعثة».

فقال لي: «كل ما نجده أكتبه في التقرير».

وأنا أهم بالمغادرة قلت له: «يجب أن نطالع التقارير».

قال لي الزاكي: «ليسـت مشـكلة أحضـر لنا مفتاح usb، وسـوف نعطيك نسخة من تلك التي أرسلناها».

فقلت: «جيد، وإن كان المهم الاطلاع عليها قبل إرسالها وليس بعده».

واستدرت نحو العقيد، وقلت: «تأكد جيّدًا أنني لن أصمت إن وجدت التقارير السابقة مخالفة لما عايشناه في الميدان».

عدت إلى غرفتي، وقد هدأت بعض الشيء من تصرّف الفريق أول الدابي، الذي لم يكلف نفسه عناء سماعي على الرغم من أن ملاحظاتي في مصلحة البعثة العربية، وقد تسلل الشكّ في التقارير التي يرسلها الفوج إلى دمشق، وصممت أن أطلع عليها جميعًا، وقررت أنه في حال بقاء الوضع على ما هو عليه، فسوف أتصل برئيس غرفة عمليات بعثة مراقبي الجامعة العربية بالقاهرة السفير عدنان الخضير، وإن اقتضى الأمر فلن أتردد في التحدث مع الأمين العام السيد نبيل العربي، لأكشف له حقيقة ما يجري على أرض الواقع، وخاصة أنني بدأت أشكّ كثيرًا في تواطؤ البعثة مع الحكومة السورية.

وبينما أنا في غرفتي أتابع ما بحوزتنا من قنوات على شاشة التلفزيون، بعد إخفاقي في الإبحار عبر شبكة الإنترنت، وإذا بالمراقب العراقي صلاح سعيد يدق باب غرفتي، فتحت له ليدخل وجلس معي، وقد حدثني أننا في ليلة السنة الجديدة، ومن المفروض أن إدارة الفندق تفتح لنا قاعة نحتفل فيها، فأعلمته أنني لا أهتمّ بهذه الأمور، خاصة أننا الآن في مهمة تتعلق بأشلاء بشر يقتلون بدم بارد.

أظهر بعد ما قلته له أنه يداعبني فقط، ثمّ تحدثنا في بعض أمور البعثة، وقد بدأ يبدي الملل من الذهاب إلى حيّ بابا عمرو والأحياء الأخرى الثائرة، بحجة أن مشكلاتهم كثيرة ومتعبة، وأنهم يراوغوننا ويكذبون علينا.

فسألته عن أدلة هذه الاتهامات، وكان جوابه أنه يحسّ بذلك خاصة بعد قصة المرأة التي قيل: إنها قتلت، فأكدت له أنه لا يمكن تكذيبهم ولا

تصـــديقهم، ما دمنا لــم نر بأعيننا، ثــم ذكرته بأن الجنــرال الدابي رفض أن نتأكد من الحادثة، في حين يدخلنا في أمور ليســت من اختصاصــنا، ولا تخدم غير الحكومة السورية فقط.

ثم رويت له ما جرى بيني وبين الدابي، فعبّر لي عن مدى امتعاضــه أيضًــا مــن قضــية تعامله وثقته إلا في الســودانيين، حيث إنه وظفهــم معه في مكتبه، ثــم ختمت له كلامي بأننا هنا لأجل هؤلاء، ويجب علينا أن نصــبر، وإن كان قد أيدني في نقدي لعمل البعثة والمراقبين ورئيسهم الدابي.

لم يمكث معي كثيرًا وغادر بعدما أخبرني بأنه سيســافر غدًا إلى دمشــق، فســألته عن مشاركته معنا في زيارة العباســية والأرمن، فأكد أنه سيذهب بعد عودتنا مباشــرة، وذلك من أجل توصــيل الملفات والصــور التي حصلنا عليها، وسيحضر متطلبات أخرى للبعثة.

في تلك الليلة رحت أجري اتصالات مع هواتف بعض النشطاء في حي بابا عمرو وباب السباع، غير أنني وجدت أرقامًا معطلة، وقد علمت من الشيخ أحمد الحمد «أبوبري» أن أي شريحة تستعمل في الاتصال بالمراقبين يتم توقيفها من قبل المخابرات السورية، وقد ألحّ عليّ برفقة آخرين على ضرورة توفير هواتف ثريا، حتى يستطيعوا التواصل معنا خارج التصنّت والمراقبة.

أخبرتهــم بأننــا نمتلك هاتفًا واحــدًا من نوع الثريا، لكننــي لا أعرف عنه شــيئًا، فقد ظل يحتفــظ به رئيس الفوج العقيد عبــد الله الطاهر في غرفته من دون استعماله.

بعدمــا أكملت حديثي مع الشــيخ أحمد الحمد «أبوبري»، اتصــلت بالعقيد أكرم رئيس مكتب الفريق أول الركن مصــطفى الدابي عن الأمر، فوعدني بنقل الانشغال لرئيس البعثة.

ثم اتصلت بالعقيد عبدالله؛ لأسأله عن عدم استعمال الثريا، فقال لي: إنه لا توجد به تغطية، ويحتاج إلى أن نكون دومًا في مكان عالٍ، ونقلت له ما يحدث مع الأحياء المعارضة، التي يتواصل معنا الناشطون فيها، حيث يفقدون خطوطهم وشرائحهم الهاتفية بمجرد الاتصال بنا، ما يعني أن هواتفنا تحت المراقبة، وهذا يتنافى مع تعهدات الحكومة السورية.

غير أن العقيد عبدالله قال لي: «أمر طبيعي أن تتم مراقبتنا، ولا يمكن أن نفعل لهم شيئًا... لا دليل بين أيدينا».

قلت له: «يجب ألا نصمت، علينا أن نحرجهم».

فقال: «لا نوجع رؤوسنا؛ لأنه لن يتغير أي شيء».

قاطعته: «مادمت مقتنعًا بهذا الحال، فعلينا أن نغادر أفضل من المشاركة في مهزلة».

ظهر تخوفه من كلامي عبر الهاتف، فقال:«هذه الأمور لا نتحدث فيها بالهاتف، حين نجتمع غدًا نناقشها».

قلت: «نحن تحت المراقبة في أي مكان، ودعهم يسمعوا كلامنا، لا نهتم بهم، ولا نخافهم».

أنهى الحديث متلعثمًا: «خلاص... غدًا نناقش الأمر أفضل».

كان العقيد عبدالله خائفًا جدًّا من مناقشة هذه الأمور، أو اتهام النظام السوري بأي شيء، ولهذا أنهى المكالمة بتلك السرعة.

رحلة ضائعة بين العباسية والأرمن

استيقظت مبكرًا من صباح يوم الأحد ٢٠١٢/٠١/٠١ وهو اليوم الأول من السنة الجديدة، وكلي إرادة في بذل ما أستطيع من الجهد لتصحيح المسار، وخاصة أن الضحايا لا يزالون يسقطون تباعًا، تحت رعاية البعثة العربية بطريقة غير مباشرة.

بعد قيامي بما صرنا معتادين عليه، حيث ننزل للمطعم، ونتناول وجبة الإفطار، ثم بعدها نعود إلى غرفنا ونتجهز للعمل، وأخيرًا نتجمّع في حدود الساعة التاسعة قبالة الاستقبال، وهناك يتمّ توزيع فرق الحراسة من قبل الضبّاط المكلفين بشؤون البعثة وأمنها، ثم ننطلق نحو برنامجنا المحدد والمتفق عليه مسبقًا بين المراقبين والمحافظ.

كالعادة تأخرت الحراسة في تجهيز نفسها، أكثر من ساعة، وصار المراقبون يشكّون في أنهم يخططون لأشياء ما في الأماكن التي سنزورها، ومنهم من يراهم قد يستهدفوننا بالقتل، وآخرون يرون أن الأمر مجرّد ربح وقت، لأجل تحضير المظاهرات المؤيدة التي تواجه البعثة، عندما تحطّ رحالها في الأحياء المؤيدة للنظام السوري، أو ما تعرف بأحياء (الموالاة).

تقدمت من العقيد المكلف بأمن المراقبين؛ لأعرف منه سبب التأخر في الانطلاق على الرغم من ركوب المراقبين للسيارات والبقاء في الانتظار كل

هـذا الوقـت، فأخبرني بأن الأمر يحتاج فقط إلى بعضـ الإجراءات الأمنية في الأحياء، التي سنزورها، فسألته قائلًا: «ما هذه الإجراءات الأمنية؟».

فأجاب ضـاحكًا: «تعرف أننا نتحمّل مسـؤولية أمنكم، وقبل أن نذهب إلى هناك نرسل عناصرنا في الزيّ المدني لأجل سلامتكم، فقد يتسلل عناصر من الجماعات الإرهابية، ويغتالون أحدكم، وحينها سيتّهمون الحكومة بذلك».

فسألته: «وهل الأمر يحدث أيضًا مع الأحياء المعارضة؟».

أجاب: «لا يمكن ذلك، وأنتم تعرفون الأمر».

قلت: «ماذا لو نقتل هناك؟».

أجاب: «تتحملون المسـؤولية أنتـم والجماعات الإرهابيـة، فقيادة البعثة تعرف أننا لا نستطيع الدخول للأحياء التي يسيطر عليها المسلحون».

في الحقيقة أن الأمر ما كان يحتاج إلى جواب منه، فقد سـمعناه من قبل من المحافظ غسـان عبدالعال في أول زيارة لنا لحيّ بابا عمرو، لما كنّا برفقة رئيسـ البعثـة الفريق أول الركن محمد أحمد مصـطفى الدابـي، ولكن تكراره بهذه الجرأة والصـراحة بدأ يطرح علامات اسـتفهام وشـكوكًا لديّ على الأقل حول ما تخطط له السـلطات السورية تجاه بعثة المراقبين، لذلك قلت له: «وإن كنت أحمّل الخطأ للجامعة العربية التي لم تدرس الوضع جيدًا في البروتوكول، إلا أنني شخصيًّا سأواصل العمل ببابا عمرو وغيره، مهما كانت النتيجة».

فردّ: «المشكلة أن الجماعات الإرهابية تحضّر لشيء ما ضد المراقبين».

قلت له: «هل هذه معلومات موثّقة أم مجرد تكهنات».

أجاب: «لو تتابعون ما يقولونه في الفضائيات لعرفتم مدى نقمتهم عليكم، وأن الأجهزة الأمنية تنشط ولديها معطيات في أن المسلحين يخططون لاستهداف البعثة من أجل خلط الأوراق وتدويل الأزمة».

في تلك الأثناء حضرت سيارة مدنية حمراء اللون، فيها خمسة أفراد من الحراسة، ولذلك التحقت فورًا بالسيارة التي أمتطيها برفقة رئيس الفوج العقيد عبدالله الطاهر من دون أن أكمل حديثي معه، وصدى ما سمعته من الضابط يتردد في عمقي، وحينها لم نتوقف إلا دقائق، وجاء الأمر بالمغادرة في اتجاه حيّ العباسية، الذي تقيم فيه الطائفة العلوية والشيعية الموالية للنظام.

كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة صباحًا تقريبًا، انطلقت بنا السيارات وسط المدينة في اتجاه حيّ العباسية، وقد كنا في الطريق نشاهد المحالّ مغلقة، إلا في بعض الشوارع التي يوجد بها حواجز الجيش والأمن، ويقوم شبان أحيانًا بحركات سيئة تجاهنا، فهذا يبصق في وجوهنا، وآخر يرفع يده بإشارات مهينة، وفي الوقت نفسه يحيّون سيارات الحراسة التي ترافقنا، بل منهم من يهتف للنظام مثل: «بالروح بالدم نفديك يابشار»، و«سوريا الأسد»... إلخ. وهو ما يؤكد أنهم بلا أدنى شكّ من المؤيدين للنظام، والغريب أن السيارة التي تسير أمامنا تبطئ سيرها عند هؤلاء المؤيدين، وهم أعداد قليلة جدًّا، ما يضطر سيارتنا إلى أن تخفض سرعتها، فنجد أنفسنا أمامهم، نسمع شتائمهم وشعاراتهم وحركاتهم المسيئة وغير الأخلاقية، التي نقابلها بالصمت وصرف النظر عنهم، ولم نَرَ أي موقف من الحراسة تجاههم، كأنهم يستمتعون بتصرفاتهم تجاهنا.

توقفت بنا السيارات قبالة مركز العباسية الصحّي، الذي تحول إلى مركز عسكري، يحرسه جنود أقاموا متاريس أمامه، وهو أول ملاحظة لي عن عدم

سحب المظاهر العسكرية من المدن، كان يرافقنا أحدهم يدعى أحمد حسن صطوف، قدم لنا نفسه على أنه إعلامي مستقل في مؤسسة إعلانية وإعلامية اسمها «آدم برس» إلى جانب كل من قناة الدنيا والإخبارية السورية والقناة السورية الرسمية، وصحفي آخر يعمل بوكالة الأنباء «سانا». لم نمكث كثيرًا، وإذا بعشرات «المواطنين» يهجمون علينا، وهم يحملون لافتات وصور بشار الأسد، وكانوا يهتفون له بشعارات مختلفة، ويبدو أنهم كانوا ينتظروننا في جهة أخرى، ولما علموا بتوقفنا في المكان الذي نحن فيه هرعوا نحونا.

لم يقتصر الأمر على الشعارات المؤيدة، بل راحوا يتهموننا بأننا نتواطأ ضد (سوريا العروبة)، وأننا نمثل أنظمة عميلة وخائنة وصهيونية وأشياء أخرى مختلفة، لا يمكن أن نسردها جميعًا، والغريب أنهم راحوا يتحدثون عن عفوية مظاهراتهم، التي جاءت من دون إيعاز من أي أحد، دافعوا عن أنفسهم من دون أن نتهمهم بشيء، ما يضعهم في خانة الشبهات أكثر. بل الأدهى أنهم يحملون لافتات فيها مطالبهم وبينها التي بها تاريخ ذلك اليوم، فسألت أحدهم الذي يحمل لافتة بها التاريخ: «كيف عرفتم أننا سنأتي إليكم هذا اليوم؟».

أجاب، وبعد تلعثم: «لدينا لافتات لكل الأيام».

فسألته: «من أي حيّ أنت؟».

أجاب: «من هذا الحيّ».

سألته: «أين اللافتات الخاصة بيوم الغد؟».

أجاب: «موجودة ببيتي».

قلت له ضاحكًا: «مستعد أن أذهب معك إلى رؤيتها الآن».

حينها تدخل بعض من يقفون بجانبه، وقطعوا علينا حديثنا، وهم يصرخون في وجوهنا، ويتّهموننا بأننا في مؤامرة ضد سوريا الأسد والمقاومة والممانعة على حدّ أقوالهم. أدركت أنها مجرّد حركة، وخاصة أن الشخص الذي كان يتحدث معي قد أبعدوه بطريقة مفضوحة، لا تحتاج إلى أدنى تعليق.

طلب منا مرافقنا أحمد حسن صطوف أن نتوجّه نحو شارع آخر، حيث نتوقف على بيوت قال: إنه تم استهدافها من قبل المسلحين وممن وصفهم بالإرهابيين، وأيضًا نستقبل ضحاياهم من الأهالي الذين قتل ذووهم أو اختطفوا أو طردوا من بيوتهم.

نحن في طريقنا، فإذا بأشخاص كثيرين يصرخون فينا، أن نتوقف عندهم لأمر خطير، فاضطررنا إلى تنفيذ ما يطلبونه، فراحوا يتحدثون جميعًا على لسان واحد: «يجب أن تسجلوا قضية الحلاق».

طلبت منهم الهدوء حتى أفهم الكلام، بل يجب أن يتحدث واحد منهم فقط، ماداموا جميعًا بصدد أمر واحد، فسكت بعضهم، أما الآخرون فراحوا يحكون لنا قصة حلاق بالحيّ كان في سيارته، فاعترضت سبيله مجموعة إرهابية، تسللت من بابا عمرو عبر البياضة، وقامت بإعدامه ذبحًا، فسألتهم عن اسم هذا الحلاق، فصرخوا جميعًا: «خضر علي العيسى».

سألتهم: «متى كانت الحادثة».

أجابوا: «منذ يومين قط».

على الرغم من وجودنا بحمص في أثناء الحادثة حسب التاريخ الذي صرّحوا به، إلا أن المحافظ غسان عبدالعال لم يخبرنا بقصته، وهذا الذي

جـال بخاطري فـي تلك اللحظـة، كتمتها في نفســي، وقلت لهم: «لقد ســجّلت اسمه، وسوف أنقله لقيادة البعثة، ومنه إلى الجامعة العربية».

بينهم من شـكرني، وآخر يحفّزنـي على الحقيقة، التـي مفادها أنهم في صـراع مـع الإرهاب، ويوجـد من تحدث لمرافقيه بصـوت غير مرتفـع أنهم لا يصـدقوننا أبدًا؛ لأننا بعثة نمثل ما ســموه (الجامعة العبرية)، ولدينا أجندتنا التآمرية على سوريا الأسد حسب قولهم.

طلـب آخـرون أن نتكلم إليهـم، ونأخذ منهم شـكاواهم، إلا أن صـطوف ترجاهم أن يؤجلوا ذلك؛ لأننا بصـدد الذهـاب إلى مكان آخر مهم حدده لهم، وهناك سنأخذ منهم ما يريدون، غادرناهم، وفي شارع آخر استوقفتنا مجموعة أخرى، وكانت تصـرخ بصـوت مرتفع، والغريب أنهم جميعًا يتحدثون عن قصة الحلاق، اضـطررنا مرة أخرى إلى التوقف عندهم، وتقدموا منا، وهم يطلبون أن نهتم بقضية الحلاق، لكن لما سألته عما حدث له ربما الأمر يتعلق بشخص آخر، وإذا بهم يحكون لي قصته التي تختلف عن الذي سبق، حيث إن الرجل كان في محلّه الذي يقتات منه، فدخلت عليه مجموعة إرهابية تسللت من بابا عمرو وأعدموه، وكنت أعتقد أن الأمر يتعلق بحلاق آخر، فطلبت منهم اســمه، وكانت المفاجأة أنه الحلاق المدعو خضـر علي العيســى الذي ســبق أن سجلت اسمه بقصة مختلفة عن التي أسمعها، لذلك سألتهم عن تاريخ الحادثة، فترددوا بين من قال: إنها حدثت أمس صـباحًا وآخر قال: في المســاء، فيتدخل آخر، ويؤكد أن الحلاق قتل بعد ظهر أمس، فسألتهم: «لماذا لم تطلبونا لمعاينة الجثة؟».

أجاب أحدهم: «اتصلنا، فأخبرونا بأنكم ستأتون اليوم، لذلك لم نلح عليكم».

فسألته: «أين جثة الحلاق حتى نعاينها ونصورها؟».

التفت الذي يتحدث إلى يمينه ثم يساره، كأنه يبحث عمن يساعده في الجواب، لكنه يبدو أن فكرة خطرت بباله، فقال: «الجثة تشوهت وأهله أصروا على دفنه».

في تلك اللحظات كان المواطنون يتوافدون تباعًا، وكل واحد في يده وثيقة أو صورة، زعم أنها لأحد أفراد عائلته الذين قتلهم المسلّحون أو الإرهابيون أو يوجد من يسميهم بـ (العرعريون) نسبة إلى الشيخ عدنان العرعور. إلا أن صطوف ألحّ عليهم أن يلتحقوا بنا إلى (المكان المتفق عليه)، وقال لهم، وهو ما يدل على أن برنامج زيارتنا تمّ الاتفاق عليه مسبقًا، وهناك سنستقبلهم جميعًا، وننظر في شكاواهم، وقد كان من قبل ذكر شارعًا آخر، غير أنه يبدو أن الأمر تغير من دون مشاورتنا، المهم غادرناهم، وفي أحد الشوارع التي مررنا بها، أوقفتنا مجموعة كانت تحمل رايات مساندة لبشار الأسد، ويرددون شعاراتهم المعتادة التي تؤيد النظام، وتندد بالمعارضة، الذين يصفونهم بشتى النعوت القبيحة، التي لا يمكن أن نعيد ذكرها، وبينهم من يكيل الاتهامات للمراقبين وبعثة الجامعة العربية.

مرة أخرى نضطر إلى التوقف عندهم، وكانوا يصرخون فينا كأننا أعداء، ومنهم من يغمزنا بكلمات جارحة، لم نهتم بالأمر بقدر ما أردنا أن نعرف أسباب غضبهم المبالغ فيه، فطلبت منهم أن ينتدبوا أحدهم للتحدّث إلينا في الأمر الذي يشغلهم، فتقدم أحدهم، وعلى الرغم من ذلك لم يتوقف صراخهم، وهم يشيرون عليه بأن يبدأ بقصة الحلاق الذي تمّ اغتياله.

اعتقدت مرة أخرى أن الأمر ربما يتعلق بحلاق ثانٍ، فراح يحكي أن هذا الحلاق كان في بيته نائمًا مع زوجته، وإذا بقذيفة تسقط عليه، فمات ونجت

زوجته بأعجوبة، ولما سألته عن اسم الحلاق، فإذا بالمفاجأة الكبرى أنه خضر علي العيسى الذي سبق التحدث عنه بقصص مختلفة.

هممت بمغادرتهم، وكانوا يتدافعون من أجل تسليمي محاضر وأوراق وصور، إلا أن صطوف طلب منهم أن يلحقوا بنا إلى المدرسة، وقد قرأ في ملامحي انزعاجًا من قصة الحلاق التي تتردد بروايات مختلفة، المهم في وسط ذلك الاندفاع فتح لنا الطريق من قبل بعض الأشخاص في الزي المدني، في حين حراستنا تركتنا لحالنا في مواجهة هؤلاء الغاضبين، وفي الطريق بقيت تتكرر قصة الحلاق مع حكايات أخرى متعددة تتشابه في مجملها.

وصلنا للشارع الذي توجد به مدرسة، حيث وجدنا الأهالي يحتشدون أمامها، بما يتجاوز المئة شخص في أكثر تقدير، وقبل دخولنا اندفع أحد الأشخاص، وهو يصرخ بصوت عالٍ، ويطلب منا أن نعاين بيته، الذي تعرض للقصف من قبل من سماهم بالجماعات الإرهابية.

لم نجد من خيار أمام صراخه وإلحاحه سوى الرضوخ، فتوجهت معه برفقة مراقبين آخرين، تحت عدسات كاميرات تابعة لقنوات فضائية للحكومة السورية، وفي ظل التفاف الرجال والنساء من حولنا، غير أن المرافقين فتحوا لنا الطريق بصعوبة كبيرة. وأمام بيت يتكون من ثلاثة طوابق لم يبتعد كثيرًا عن بوابة المدرسة سوى مسافة قصيرة، وصلنا إليه، وكنت أعتقد أن أراه مدمرًا مثل ما شاهدناه ببابا عمرو وباب السباع.

فتح صاحب البيت الباب، وطلب منا أن نتبعه، وسبقتنا كاميرا تابعة لقناة الدنيا الفضائية، التي لا تترك كبيرة وصغيرة إلا تلتقطها، وصلنا إلى الطابق الأخير ولم أجد شيئًا، فتوقفت وسألته عن أثر القصف الذي تحدث عنه، فطلب منا أن نتبعه إلى سطح المسكن، فواصلت المشي خلفه، حتى وجدت

نفسي ومن معي في السطح وتظهر لنا مدينة حمص، ولم يلفت انتباهي أي أثر يوحي بوجود ما حكاه الرجل وصرخ لأجله، فسألته: «أين أثر القصف الذي تحدثت عنه؟».

فقال لي: «تعالَ معي».

توجه نحو هوائي مقعر، وفيه ثقب صغير، فأشار إليه بإصبعه، وقال لي: «هذا أثر رصاصة أطلقوها علينا».

دهشت لما رأيت، فقد وصف بالقصف ثقبًا صغيرًا لا يدل على رصاصة قد طالت الصحن المقعر، فقلت له متعجبًا: «كل ذلك الصراخ من أجل هذا الثقب».

فقال: «نعم، وكان فيه ثقوب عدة في السطح وقد أصلحتها».

التفت يمينًا وشمالًا ولم أجد ما يوحي بأن تصليحًا ما قد جرى، فقلت له: «يا رجل، أصعدتنا كل هذه المدرجات لترينا ثقبًا في هوائي مقعر، الله أعلم بمصدره، وتزعم أن قصفًا طال بيتك».

فرد: «لا تستهن به، فتخيل أن ابني يلعب هنا».

قاطعته: «لست هنا من أجل التخيّلات، نحن هنا لتوثيق أمور محددة، وليس لتضييع الوقت في هذه التفاهات».

فقال بانزعاج: «ليست تفاهات، دائمًا أبنائي يلعبون في السطح، والحمد لله في ذلك اليوم لم نكن بالبيت».

قلت له: «خلاص انتهى الأمر، لنغادر».

فتدخل أحد المرافقين له: «يجب أن تسجلها يا أستاذ، لو ابنه هنا لقتل».

استدرت نحوه: «هل ابنه ينام في الهوائي المقعر؟».

فقال: «لا ينام، لكنه يلعب هنا، فيجب أن تتخيل».

قلت له: «الأفضل أن أتخيل أن الرصاصة قد تصل إلى هنا، وعندما لا تجد أولاده تفتح الباب، وتنزل من المدرجات، وتفتش عن غرف النوم، وتفتحها، وبعد ذلك تقتل أطفاله، دعونا من هذه الخزعبلات».

وأضفت: «هل تريد أن أريك صور الدمار ببابا عمرو مثلًا؟ حتى تعرف القصف الحقيقي، وليس ثقبًا صغيرًا تقيم عليه الدنيا».

ثم طلبت من المراقبين ومرافقنا صطوف أن نغادر المكان، لاستقبال المواطنين، ورؤية أشياء جدية، وليست هذه المسخرة التي نضيّع وقتنا فيها، وقد حاول صاحب البيت أن يبرر قوله بشروح أخرى، إلا أنني قلت له: «نحن رأينا ما أردته، ونحن الآن أحرار في الموقف الذي سنتخذه، ولا نريد تفاصيل أخرى، فليس لدينا وقت نضيعه».

لقد أحسست بانزعاج، وهو ما شعر به حتى صاحب البيت، فحاول صطوف أن يبرر ذلك بقصة جديدة، مفادها أن الرجل قد فقد شقيقته في عملية وصفها بالإرهابية ومنذ ذلك الحين وهو في وضع عصبي ونفسي سيئ، وصار مجرد شيء بسيط يراه كبيرًا، ضحكت في قرارة نفسي من هذا التبرير المفاجئ، الذي ما خطر في ذهن صاحبه، بل مجرد محاولة فقط للتغطية على ما حدث.

توجهنا مشيًا على الأقدام نحو إحدى المدارس، وكالعادة التف حولنا المواطنون من الرجال والنساء وهم يصرخون، فهذا يقول: إن بيته استولى

عليه مسلحون في بابا عمرو أو الخالدية أو باب السباع، وآخر ابنه قتل، وذاك مختطف، وكل واحد يحمل في يده وثيقة، سواء تتعلق بإثبات ملكية أو تقرير طبي لإثبات وفاة، وقد حاولت بمعية المراقبين أن نهدّئ من حالهم، حتى نتمكن من التحدث إليهم، ولذلك طلبت من صطوف أن يجمع لنا الوثائق منهم، وسوف نطلع عليها، فلا يمكن أن نسمع من أكثر من مئة شخص، وكل واحد يريد أن نسترسل في قصته نصف ساعة على الأقل، لكن بينهم من سلمني ما بيده، وآخرون أعطوها صطوف، ويوجد من رفض، ويريد أن يتحدث إلينا مباشرة.

دخلنا المدرسة، ووجدنا مديرتها تنتظرنا، فأخبرتنا أنها تتعرض لقذائف الآر بي جي والهاون والرصاص، وأرادت أن تتجول بنا لمشاهدة آثار الرصاص الذي استهدفهم، فقام مراقبون بمرافقتها، أما أنا والعقيد عبدالله طاهر والمراقب الجيبوتي محمد حسين عمر فقد طلب منا صطوف أن نغادر نحو روضة أطفال للاطلاع على ظروفها، وفيها نستقبل الأهالي؛ لأن المكان غير مناسب بالمدرسة.

ويبدو أن الرجل في تلك الأثناء شرح لرئيس الفوج العقيد السوداني عبدالله الطاهر مبرراته الجديدة، عند خروجنا من البوابة وجدنا سياراتنا في انتظارنا، وكان الناس يصرخون بدورهم، إلا أن صطوف أخبرهم بأننا سنستقبلهم في روضة الرضا، وهناك ركض الأهالي في الاتجاه المشار إليه، امتطينا سيارة المرسيدس وانطلق بنا السائق، وهو يتبع أثر سيارة الحراسة، وأخرى بها طاقم صحفي يقودهم المسمى صطوف، وكانت الهتافات المؤيدة للنظام من حولنا تتهاطل.

وصلنا بعد دقائق قليلة إلى المكان المحدد، فوجدنا أمام روضة الرضا ما يتجاوز مئة شخص من الرجال والنساء، وهم يحملون صورًا لبشار الأسد

أو لذويهم القتلى، وكانوا يهتفون بهتافات مؤيدة، وأخرى جارحة لبعض الدول العربية وزعمائها، وعلى رأسها قطر والسعودية، بل أيضًا سبّ وشتم للجامعة العربية التي يسمونها (العبرية)، وللمراقبين، وسمعت حتى من يشتم الصحابة عمومًا وعائشة أم المؤمنين ﵂ بصفة أخصّ.

أذكر أن أحدهم كان يقف بجانبي، وتطاول على أم المؤمنين عائشة ﵂ فاستدرت إليه، وحذرته من تكرار ذلك، فلم أحتمل مثل هذه الأمور، وكان ردّه بما يريد أن يجرني من خلاله لجدل طائفي أمام كاميرا قناة الدنيا والإخبارية السورية، فتفطنت للفخ، وقلت له:

«لو لم تكن مهمتي محددة ببروتوكول واضح لكان لي شأن آخر معك»، فقال: «أنت تهددني».

فقلت له: «لا أهددك، ولا يهمني أمرك، ولا أقبل منك أن تشتم أمامي أمّي عائشة ﵂ أو غيرها إذا أردت ذلك فعد إلى بيتك، وافعل ما يحلو لك، فربها هو ربك، وسيتكفل بك».

فقال لي: «هي ليست أمّي».

فقلت له: «أعرف ذلك».

ثم غادرته حتى لا أغرق في جدال عقيم، وخاصة أنه تعالت أصوات الشتم من جهات أخرى، تعمدت استفزازنا؛ علنا نتصرّف أيّ تصرف حتى يجد الإعلام الموالي فيها ضالّته...

دخلنا بصعوبة كبيرة لا يمكن تصورها، وتحت وابل من شتائم بعضهم، ممن أرادوا التحدث إلينا في الشارع، وآخرون يتهموننا بالتواطؤ مع أعداء

سوريا وعروبتها، وفي أثناء ذلك الازدحام لمست في جيد بعض الأشخاص ما يؤكد أنهم من المسلحين، والغريبة أن بأيديهم أوراقًا تتعلق بتظلماتهم، ما جعلني أراهم مجرد (كومبارس) يقومون بأدوار ما، لتضليل المراقبين والبعثة العربية، وإغراقها في قضايا لا يأتي منها إلا تضييع الوقت فقط.

في بهو المكتب تحدث لنا المواطنون والمواطنات، فسيدة راحت تصرخ: إنهم يريدون بشار الأسد، الذي وصفته بأنه لا يقتل شعبه، وأحدهم أحضر لنا طفلًا به خدوش يدعى بلال نظام الأمير وعمره ١٣ عامًا ليخبرنا بأنه تعرض للاعتداء برصاص، ووالده قتلوه، وأخوه عاجز بسبب إصابة في بطنه، وذاك يحمل صورة ابنه الذي قتلوه، وكتبوا على جبينه مخبر. وامرأة راحت تبكي والدها، الذي فجروه ومزقوا جسده، وأمهات أخريات تحدثن بأمور لا تختلف بعضها عن بعض، لكنها تصبّ أغلبها في إطار محاولات إثبات وجود جماعات إرهابية، وأنهم لا يريدون رئيسًا سوى بشار الأسد.

ألحّ المنظمون والمستقبلون على دخولنا للمكتب أفضل من أجل استقبال المواطنين، حيث وجدنا أشخاصًا لا نعرفهم في انتظارنا، وقامت مجموعة منهم ومن الذين رافقونا بتنظيم الدخول إلينا، أما أنا فجلست خلف مكتب مدير روضة الرضا، وأول ما تسلمته من قبل أحد الموجودين بالمكتب عدة قوائم هي:

١- القائمة الأولى تتكون من ١١ اسمًا، وهم من ضحايا مرتبات فرع الأمن السياسي بحمص، الذي يترأسه العقيد محمد إبراهيم عبدالله، والقائمة تتكون من الرتبة التي بها ستة ممن يحملون رتبة مساعد أول وخمسة آخرين برتبة شرطي. وتم ذكر الرقم العسكري والإقامة الحالية لأسرة الضحية ورقم الهاتف، وخانة أخرى للصورة لا توجد بها صورة أي واحد منهم.

٢- القائمة الثانية تتعلق بأسماء المصابين من عناصر فرع الأمن السياسي بحمص، وتتكون من ٦٤ اسمًا فيها مختلف الرتب، أعلاها المقدم منذر ناصيف العلي. وفي القائمة نجد ذكر الرتبة والاسم الثلاثي واسم الأم وتاريخ المولد والرقم العسكري، منها ثلاثة أسماء، وهي الأعلى رتبة، وتعلق الأمر بكل من المقدم منذر ناصيف العلي، والرائد عمار محمد حشمة، والنقيب أحمد محمد جمعة. وأيضًا نوع الإصابة ومكانها، حيث تتوزع بين طلق ناري وشظايا وتمزقات... إلخ.

ثم شرع أحدهم يقول: إن اسمه حيدر، وراح يحدثنا عن تهجير نحو ٣٠٠ عائلة من شارع اسمه وادي إيران، ثم استدرك بالقول: إنه وادي العرب، كما تحدّث عن مهجرين من حي بابا عمرو، ويريدون أن نلتقيهم، كي يزودنا بالوثائق عن ممتلكاتهم، التي قالوا: إن الجماعات المسلحة قامت بمصادرتها والاستحواذ عليها ظلمًا وعدوانًا على حسب قولهم، ومن دون أي إثبات يمكن أن نستند عليه.

بعدها قاطعه أحد الأشخاص، لم يقدم نفسه، وراح يحدثنا عن معاناتهم في مواجهة ما سماه الجماعات الإرهابية، التي تقتل وتختطف وتهاجم بيوتهم، كنت أسمعه وأتعجب لأنني لم أَرَ ما يثبت وجود هجومات مسلحة على الحيّ، سوى ذلك البيت الذي أخذونا إليه، وفيه ثقب بالهوائي المقعر.

حدثونا عن المسمى حيدر عزالدين، وهو مخطوف من محله التجاري بحارتهم، وآخر اسمه أحمد علي العسان اشتكى أنه لم ينزل لعمله بالمشفى الوطني منذ ثلاثة أشهر.

ورحت أستقبل المواطنين، حيث تحدث إليَّ أشخاص، وقدموا أنفسهم بأسماء منهم من رأيت هويته وآخرون لم يظهروها، حيث سجلت أسماء عدة

من المهجرين بينهم ستة أشخاص، قالوا: إنهم من البياضة: حسين إبراهيم المر أخبرنا أن بيته قرب جامع المصطفى، وثائر أحمد من البياضة أيضًا، ومحمد المر، وحسين درم، ورحيل مستو، ومحمد درم.

في تلك الأثناء سمعت صراخًا خارج الباب، ولما سألت عن ذلك أخبروني بأنه والد فقد ابنه، ويريد التحدث إلينا، فدخل وكان مظهره حزينًا جدًّا، ويحمل بين يديه صورة كبيرة الحجم لنجله، وقال: إنه ملازم أول في الجيش واسمه محمد نجيب رياض علوش، قتل في حماة في ٢٠١١/١٠/٠٨، وهو ابنه البكر.

ثم استرسل في سبّ وشتم أمير قطر ووزير خارجيته والسعودية والشيخ القرضاوي وحتى الجامعة العربية. حاولت أن أهدئ من روعه، إلا أنه راح يصرخ في وجهي: أن أتركه يعبّر عن حزنه، بل وصل إلى اتهامي بالتواطؤ مع قتلة ابنه، وهو الذي رفضته، والتفت إلى العقيد عبدالله الطاهر، وقلت له: «إذا بقي التعامل معنا بالسب والشتم والاتهام سأغادر إلى الفندق، ولا أقبل مثل هذه التصرفات».

فتدخل مدير الروضة الذي كان معنا، وأجلس ذلك الرجل في كرسي غير بعيد مني، واعتذر لي شخصيًّا، وراح يبرر ما يعانيه الأب بسبب فقدان ابنه البكر، فأخبرته بأنني أتألم لكل الضحايا السوريين وأهاليهم سواء في العباسية أو بابا عمرو، فلا فرق عندي بينهم، لكن لا أريد أسلوب الشتم والقذف والإهانة، فنحن في مهمة البحث عن الحقيقة وتدوينها في تقارير، ويوجد من له سلطة القرار، ولسنا نحن.

لقد أحسست بأن وجودنا تحت عدسات كاميرات القنوات الفضائية الحكومية يراد منه التسويق لأمور وشعارات فقط، فمهمتنا تتعلق ببنود محددة

في بروتوكول، وليس حلّ مشكلات الناس والاستماع إلى شكاواهم المختلفة، لذلك التفت إلى رئيس الفوج العقيد عبدالله الطاهر وأشرت إليه بأنني أريد أن أتحدث إليه في أذنه، فاقترب مني غير أن مصور قناة الدنيا قرب ميكرفون إلى فمي وركز الكاميرا في وجهي، فطلبت منه أن يتوقف عن ذلك، فالأمر خاص بيني وبين المراقب، ولا يهم فضائيتهم في شيء، فأدرك العقيد عبدالله ما أودّ قوله له، فهمس لي نكمل المشوار بأي طريقة كانت، وحين نعود إلى الفندق سنتحدث في الموضوع.

واصلنا الحديث مع المواطنين، حيث قام المنظمون بإدخالهم بالدور، فاستقبلت سيدة قالت: إن اسمها رجاء قطان ومن البياضة ولديها خمسة أطفال، تمّ تهجيرها وإطلاق النار عليهم وحرق بيتهم ونهب محتوياته، ولما سألتها عن الفاعلين، أجابت بأنها لا تعرفهم، وكل ما تذكره عنهم أنهم بالزيّ العسكري للجيش العربي السوري كما قالت، فتدخل أحدهم لينبهها بأنهم من الإرهابيين ويلبسون بذلات عسكرية سرقوها أو قتلوا أصحابها، فهزت رأسها بما لم تفهم شيئًا، فتقدم منها وأخذ الأوراق التي بحوزتها، ثم طلب منها المغادرة، فنبهته بألا يتدخل مرة أخرى إلا بعدما أنهي كلامي مع أي شخص، كان الأمر واضحًا أن المرأة لا تعرف شيئًا عن الذين اعتدوا عليها، لكن ذلك الرجل أرادها أن توجه اتهاماتها بوضوح لجهة معينة، المتمثلة في المعارضة، التي يفضلون تسميتها بالجماعات الإرهابية المسلحة.

بعدها دخلت امرأة أخرى تدعى نادية أحمد حمشو من البياضة أيضًا، قالت: إنها مهجّرة، وقدمت لنا صورًا طبق الأصل لوثائق تتحدث عن ملكيتها لبيتٍ لم يتسنَّ لنا التأكد من صحّتها في ذلك اليوم أو بعده، وليس من صلاحياتنا ذلك. مواطن آخر قدم لنا نفسه باسم ياسر حمود بن حسين ومعه سيدة، وكان يحمل صورة شقيقه هاني الذي قتل في ٢٠١١/٠٥/٢٩ بتلبيسة، وهو يحمل رتبة

ملازم أول ولديه أربعة أطفال، وكانت السيدة التي ترافقه هي زوجة شقيقه، وقدمت لنا اسمها، وهو سميرة درباج.

سيدة أخرى قالت: إنها هيام مستو من دير بعلبة مهجّرة، وقتلوا شقيقها أمين مستو بتفجير، حتى دفنوه أشلاء مفحمة، وهي تدرس في البكالوريا، وانقطعت عن الدراسة بسبب خوفها من المسلحين على حدّ تعبيرها.

آخر يدعى هيثم عبدالكريم الحسين، يحمل صورة شقيقه يدعى صالح، يعمل مستخدمًا في ورشة، واختطف من أمام مدرسة من قبل مسلحين يقودهم أحدهم يدعى بلال الجن، وبعدها وجدوه بسوق الحشيش مقتولًا، وقد قطعت أوصاله وأصابع يديه وبه طعنات في عموده الفقري.

استقبلت أيضًا طفلًا جريحًا يدعى محمد دربالة، أخبرنا بأن والده قتل بعد خطفه في دير بعلبة، وأيضًا عائلة قالت: إن لهم شخصًا يدعى العقيد الركن المظلي أسامة محمد العبدالله، الذي كانت جنازته في ٢٠١١/١٢/٣١، وأيضًا ذوو المدعو شريف مصطفى شقير.

المفاجأة هي استقبال امرأة في حال يرثى لها، قدمت نفسها بأنها شقيقة الحلاق خضر علي العيسى الذي سبق الحديث عنه من قبل مواطنين بقصص مختلفة، حيث روت أن شقيقها قتل منذ شهر بـ ١٥ رصاصة في أثناء زيارته لشقيقها بحاجز عسكري يبتعد نحو ٢٠ كم عن حمص، وفي طريقه وقعت مواجهة بين من سمتهم بالمسلحين والجيش، فأصيب شقيقها الذي كان يعول عشرة إخوة وبينهم شقيقها المجند في الجيش. ولما سألتها عن زوجته وأولاده، أخبرتني بأنه غير متزوج، وهو عكس ما سمعته من قبل، خاصة أنه يوجد من أخبرني بقتل زوجته معه في غرفة نومه.

جمعنا الكثير من الوثائق والقوائم والشكاوى الكثيرة من قبل الأهالي، ووعدناهم بأن نعود إليهم مرة أخرى، وذلك بصعوبة كبيرة بسبب تجمع الأهالي، وخاصة حولي أنا شخصيًا، فقد وقفت وسطهم لم أستطع التحرك، بل أحدهم دفع باب السيارة كي يغلقه على فخذي وأنا أهمّ بالركوب، ولو لا تدخل مراقب كان بالداخل أوقف الباب برجله لحدث لي مكروه.

بعد معاناة كبيرة غادرنا متوجهين نحو حيّ الأرمن، الذي لا يبتعد كثيرًا عن المكان الذي كنّا فيه، وكانت محطتنا الأولى بمدرسة للتعليم الأساسي، حيث وجدنا في استقبالنا ببوابتها إدارة المدرسة برفقة آخرين لم نهتم بشأنهم، ولا تعنينا هوياتهم.

دخلنا المدرسة التي بدت لنا عادية، فلا يوجد آثار التفجيرات من مدخلها أو الجدران المقابلة، فقام جزء من المراقبين بالتجوال فيها لمشاهدة آثار الرصاص على النوافذ، في حين دخلت إلى مكتب المدير برفقة ثلاثة مراقبين، وهناك شرعنا في استقبال الأهالي الذين منهم من كان في انتظارنا وآخرون لحقوا بنا.

البداية كانت مع أحدهم يدعى عماد النيساني، وهو مجاز في علم الاجتماع حسب قوله، تم تهجيره من جوزة العرائس ببابا عمرو، وراح يكشف لنا عن رجله اليمنى المصابة وبها صفائح، وكانت الواقعة في ٢٠١١/٠٤/٠٢ أي بداية الأحداث. واستقبلت كلاًّ من المدعو هيثم راغب غزال الذي حدثنا عن ابنة أخيه التي عمرها ٢٨ عامًا واختفت منذ أربعة أشهر، وتعمل في مشغل خياطة وقد اختطفت من جانب مطعم كريش في حمص.

واستقبلت أيضًا كلاًّ من حسن ماجد الخضر، الذي كان يحمل صورة صهره المدعو محمد أديب الحلاق وهو أب لطفلين وقتل في إبريل ٢٠١١.

والمدعو عبدالعزيز خليل عباس الذي اشتكى لنا فقدان شقيقه عبدالجبار منذ ٢٠١١/١٢/١١، وقد خطف من الفرن، وهو أب لستة أولاد من حي جب الجندلي.

امرأة تدعى وفاء حسين العلي بدورها كانت تحمل صورة قالت لشقيقها نبيل، وهو سائق وأب لخمسة أطفال، تم قتله يوم وصول البعثة العربية إلى دمشق، أي في ٢٠١١/١٢/٢٦ بمنطقة النازحين جنب مسجد رياض الصالحين.

وهذا يدعى عبدالكريم الحيدري حدثنا عن ابن أخيه، ويدعى حسان عمره ٣٥ سنة وأب لطفلين، تم قنصه حسب روايته في حارة كرم شمشم بتاريخ ٢٠١١/١١/٠٧، ولما سألته عن الجهة التي قنصته أجاب بأنها الجماعات المسلحة التي تأتي من بابا عمرو، فسألته مرة أخرى: «كيف عرفت؟»، التفت يمينًا وشمالًا، وتجهمت ملامحه ثم احمرت، وأجاب: «الجيش لا يقتل، فقناة الجزيرة تكذب».

تدافع المواطنون وكل واحد يروي قصته، فتحدث لي كل من المدعو علي السليمان، وهو موظف خطوط الحديد بكفرعايا منذ سنوات، الذي راح يكيل كل شر لما يسميه بالعصابات المسلحة في بابا عمرو، حيث فجرت السكك الحديدية، ولما سألته: «ألا توجد حماية عسكرية للسكك الحديدية في كفرعايا؟».

أجاب من دون تفكير: «لا يوجد عسكر أصلًا؛ لأن الحكومة أمرت بمغادرتهم في إطار البروتوكول معكم».

قلت له: «لكن لا يزال هناك حاجز عسكري يسيطر على المنطقة، ونحن على تواصل معه».

اضطرب وردّ: «ربما رجع مرة أخرى».

قلت له: «لم يغادر أصلًا، وهذا الذي حدثنا به المحافظ وقيادة الجيش».

عندها اندفع مواطن في الوقت المناسب، وهو يصرخ، ويريد أن يتحدث للمراقبين، فغادر موظف السكك الحديدية من دون أن يكمل الحديث معي، ويبدو أن تدخل ذلك الشخص متعمد، طلبت منه أن يتحدث، فقدم نفسه على أن اسمه شادي أندراوس وله ابنة اسمها سالي عمرها عامان كانت في شرفة البيت بحضن أمها، فقنصت من طرف مسلح إرهابي، وذلك بتاريخ ٣٠/١٠/٢٠١١ بحيّ الأرمن.

فسألته: «وماذا حدث لأمها؟».

أجاب: «هي بخير لم يحدث لها أي مكروه».

فسألته: «كيف في حضنها والطفلة صغيرة والأم لم تصب؟».

أجاب: «أقصد في حضنها أنها أمام أمها».

سألته: «من قنصها؟».

أجاب مندفعًا: «الجيش العربي السوري الباسل لا يقتل الشعب».

فقلت له: «أنا لم أتهم أي طرف، وقد سألتك».

فردّ: «المسلحون هم من قتلوا ابنتي».

بعده دخلت علينا امرأة قالت: إن اسمها نجدية ملاطو، وزوجها نديم محمود حسن، وهو مفقود منذ شهرين وعشرة أيام، وخلف لها ثلاثة أطفال، ولما سألتها عن مكان خطفه، أجابت: «خطفوه ما بين الكراج والحامدية».

وردًّا على سؤال حول هوية الخاطفين أجابت: «الجماعات المسلحة».

فقلت لها: «كيف عرفت؟».

أجابت: «اتصلوا على الهاتف يطلبون فدية، وقالوا: إنهم من بابا عمرو».

سألتها: «ماذا يشتغل زوجك؟».

أجابت: «عامل بسيارة أجرة».

في تلك الأثناء تقدم أحدهم، وقدم نفسه على أن اسمه محمود ديبة، وأنه مهندس متقاعد، حيث راح يسترسل في التحدث عن الوضع الذي وصفه بالخطير من قتل وخطف وذبح، وتحدث عن امرأة حامل ضربت، فسقط جنينها، وأنه راح يمدح عروبة سوريا، ويحملنا المسؤولية الأخلاقية تجاهها، وقال: «لا يمكن لعربي أبدًا أن يساعد أعداء سوريا الذين يتربصون بها».

ثم التفت إلى كل المراقبين، وقال: «كلكم عرب، أكيد عرب».

واستدار نحوي، وقال: «أنت أيضًا ستحكم ضميرك، ولن تظلم سوريا، أنت أيضًا عربي وأكيد عربي».

أجبته: «لا، لست عربيًّا».

فاجأته إجابتي، وردّ: «كيف لست عربيًّا؟».

قلت له باسمًا: «أنا أمازيغي جزائري».

ضحك الحاضرون، فقلت لهم: «لست أنكّت، ولا أنا هنا من أجل أن أسمع محاضرات في العروبة والقوميات والأعراق، أنا هنا في إطار بروتوكول محدّد، ولا يمكنني أن أتجاوزه».

فقال الرجل: «أنا هنا أشكو لك الوضع».

قلت له: «لدينا بروتوكول محدّد من أربع نقاط، وما تحكيه أنت عن العروبة والمؤامرات الخارجية لا يعنيني في شيء».

طلب منه الحاضـرون المغادرة ليفتح المجال لغيره، فدخل علينا أحدهم، قدم نفسه بأنه يدعى سامي الجندي، وراح يروي قصة دهان مقتول يدعى رامز نخورة، وأيضًـا ضـحية آخر يدعى عامر الجمعي، وسـليمان يوسف جنيد الذي قتل في مفرق العشـيرة في ٢٨/١١/٢٠١١، من قبل مجموعة مسلحة تتكون من خمسـة أفراد، أيضًا اسـتقبلنا وعد السـليمان العلي وعماد بدرالدين الحبيب، وهيثم محمد سعيد الحسن، ودلال سعد عزيزي، ورامي أبوعيد، وسلامة يوسف سلام... إلخ، وطبعًا لم نستطع التأكد من القصص أو هويات الأشخاص الذين تحدثوا إلينا، وقد وقعت أخطاء تؤكد كذب بعضـهم، مثل أحدهم الذي حدثني بأن شـقيقه يدعى محسـن كاسـر العلي أحرقوه في بيته، وبعدهـا لما زرنا بيتًا محروقًا قدم لنا أحد الأشـخاص هوية باسـم محسن كاسـر العلي، وتحدث لنا عن بيته الذي أحرقوه وهو غائب عنه، وهذا الذي سنتحدث عنه لاحقًا.

بعدها خرجنا من المكتب الذي كنا نسـتقبل فيه الأهالي، وقد شـبعنا من قصـص وحكايات ليس لهـا مكان في مهمتنا، ولمسـت متناقضـات كثيرة، بل تأكدت أن ما جاء على ألسنة المشتكين لنا الكثير منهم يحفظ قصته عن ظهر قلب، وقد أمليت عليهم من أطراف ما أو يتفنّنون في اختلاقها.

توجـه بنا المشـرفون على جولتنا، نحو أحد الأشـخاص وهو عقيد سـابق فـي الجيش، ويدعى إلياس حراشـي، وبيتـه لا يبتعد كثيرًا عـن موقعنا؛ لذلك مشـينا على الأقدام في وسـط المواطنين الذين يحملون لافتات مؤيدة لبشـار الأسـد، وآخرون يصرخون بمختلف الشـعارات وبينهم أيضًا من يلمز الجامعة العربية وبعض الدول مثل قطر والسعودية وتركيا وأمريكا بكلام فاحش وبذيء،

والأدهى أنني سمعت مرة أخرى تطاولًا على الله تعالى والصحابة، وخاصة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وأحدهم كان يقف بجانبي وتجاوز كل الخطوط الحمراء لذلك التفت إليه، وطلبت منه أن يبتعد عني؛ لأنني لا أريد الاستماع إلى كلامه غير الأخلاقي، فراح يقول لي: «أنت مراقب وهابي».

لذلك لم أهتمّ به، وأكملت طريقي، وعندما وصلنا البيت المقصود وجدنا مجموعة من الشبان يلتفون حول سيارة قد أحرقت بكاملها، حيث تحدث إلينا شاب في أواخر العشرينيات من عمره، وأخبرنا بأنه يدعى إلياس حراشي، والحادثة وقعت في ٢٠١١/١١/٠٩ ليلًا، من قبل مجهولين، لكنه أصرّ على أنهم ينتمون إلى الجماعات المسلحة، وعندما سألته:«كيف عرفت؟».

أجاب: «أكيد المسلحون هم من أحرقوا السيارة، فلا يوجد سواهم».

بعدها أخبرنا مواطنون عن بيت في الشارع الخلفي من مكان وجودنا، وفيه بيت تعرض للحرق أيضًا، فتوجهت برفقة المراقبين الذين معي، ووجدنا صاحب البيت في انتظارنا، وقدم لنا نفسه بأنه يدعى محسن كاسر العلي، وأنه في فجر ٢٠١١/١٢/٠٦ هاجمته مجموعة مسلحة تريد اختطافه، و صراخ الجيران أجبرهم على الهروب نحو عشيرة، فاضطر إلى مغادرة منزله برفقة زوجته وأولاده الثلاثة، ولكن بعد يومين أُحرق البيت كاملًا.

دخلت البيت برفقة العقيد عبدالله الطاهر ومراقبين آخرين، ووجدناه محروقاً بالكامل، وما لفت انتباهي أنه لا يوجد بالغرف أي شيء من الأثاث، ولذلك سألت صاحب البيت عن الأمر، فأخبرني بما لم يحكِه من قبل، أنه بعد محاولة اختطافه استأجر بيتًا آخر، ونقل له كل شيء، فسألته:«ماذا تشتغل؟».

أجاب: «مواطن عادي، وأعمل في التجارة».

فقلت: «لماذا إذن يخططون لاختطافك؟».

أجاب: «لا أعرف عن ذلك شيئًا».

الغريب أن البيت المجاور له يملكه عقيد في الجيش لا يزال في الخدمة، ولم يتم استهدافه بالحرق، أو بأي شيء، لذلك سألت ضابطًا معنا عن سبب مهاجمة هذا البيت دون البيوت الأخرى، فهو يقع في زاوية داخلية ومن ثم تُعدّ مهاجمته مغامرة كبيرة عبر رواية صاحبه، فكان ردّه: «لا أعرف».

لم نجد جوابًا مقنعًا عن أسباب مهاجمة البيت وحرقه، ولا صاحبه أقنعني شخصيًّا برواية نقل محتوياته في ظرف قياسي، ولا قدّم لنا أسباب استهدافه من قبل من وصفهم بالإرهابيين والمسلحين.

بعدها غادرنا المكان نحو حي إكرز، وصعدنا إلى أحد البيوت، فوجدنا فيه آثار طلقات نارية، لكن ما لفت انتباهي أن الرمي حدث من الداخل؛ لأنه لا يوجد أي أثر من الخارج، على الرغم من أن صاحب المسكن روى لنا أن الرصاص والقذائف تأتي من جهة بابا عمرو، وإن كنا لم نجد أي أثر للقذائف سوى مكان تم إصلاحه، ادعى أنه من آثار قذيفة الآر بي جي ٧.

وتحدثنا مع مواطنين في الشارع التفوا من حولنا وراحوا يهتفون للنظام وبشار الأسد بشعارات التقديس والتأليه أحيانًا، وكل واحد يسرد علينا قصصًا عن الإرهاب والقتل والذبح من دون أدنى دليل يثبت كلامهم.

بعدها تمكنا من مغادرة المكان عائدين إلى فندق السفير الذي نقيم فيه، وقد أرهقنا ما سمعناه، وما لمسناه من تناقضات وروايات لا يهدف أصحابها إلا إلى تشويه المعارضة والإساءة إليها، ولكن وضع الأحياء الموالية التي وقفنا فيها كانت ممتازة جدًّا عكس ما عليه الأحياء الثائرة ضد نظام بشار الأسد.

وصلنا الفندق، حيث وجدنا عناصر الفوج الثاني من بعثة المراقبين العرب التي يقودها العراقي عمار سلمان عباس جابر قد رجعوا توًّا بعدما زاروا المشفى العسكري، وأصيبت سيارتهم برصاصة طائشة يجهل مصدرها، هولوا لها كثيرًا عبر قنوات الحكومة، وزاروا مصنع الأسمنت بالرستن الذي تعرض لهجوم قبل وصول المراقبين حسبما رواه لي المراقب المغربي الجنرال الكريماني مولاي محمد، وطبعًا نقل ما قيل لهم من قبل المسؤولين في المصنع.

مركز العباسية الصحي ٢٠١٢/٠١/٠١

الحراسة التي رافقت المراقبين الى حيّ العباسية في ٢٠١٢/٠١/٠١

المؤلف مع الأهالي في العباسية ويظهر في الصورة المدعو صطوف الذي رافق البعثة ٢٠١٢/٠١/٠١

المؤلف مع الأهالي في العباسية ويظهر في الصورة المدعو صطوف الذي رافق البعثة ٢٠١٢/٠١/٠١

المؤلف مع الأهالي في العباسية ٢٠١٢/٠١/٠١

المؤلف مع الأهالي في العباسية ٢٠١٢/٠١/٠١

المؤلف مع الأهالي في العباسية ٢٠١٢/٠١/٠١

من داخل مدرسة ٢٠١٢/٠١/٠١

زجاج نافذة في العباسية ٢٠١٢/٠١/٠١

المؤلف مع مدير روضة الأطفال ٢٠١٢/٠١/٠١

مراقب جزائري يرى القناصة

والدابي في ولائم رامي مخلوف

بعدما صعدت إلى غرفتي وغيرت ملابسي عدت إلى المطعم؛ لتناول وجبة الغداء المتأخرة، وهناك تبادلنا أطراف الحديث عن ملاحظاتنا الأولية عن زيارتنا للأحياء الموالية للنظام، وقد كان انطباع غالبية المراقبين أن الروايات التي سمعوها تتناقض، ولا يمكن تصديقها، ولا يوجد أي دليل عليها، غير أن الغضب ظهر على المراقب العراقي صلاح سعيد، ورفض الحكم عليها بهذه الطريقة، حتى إنه قال: «الكذب الكبير في بابا عمرو».

فقال له: «ما هو؟».

ردّ: «هم يمثّلون علينا فقط، وهم من يقومون بالتفجيرات والقتل».

فقلت له: «ما دليلك؟».

أجاب: «الأمر واضح لا يحتاج إلى أي دليل».

ردّ عليه مراقبون بأن القصف من قبل النظام، وهذه الاتهامات يسوّقها المحافظ وضباط المخابرات، ولا يعقل أبدًا أن يدمروا بيوتهم، ويقتلوا أطفالهم، غير أن المراقب العراقي ألحّ على رأيه وصب جام غضبه على المعارضة، في حين دافع عن أحياء الموالاة التي لم نجد فيها أي شيء.

في ذلك الوقت تحدثت إليهم عن مشاهداتي بعد زيارتي إلى الأحياء الموالية وقبلها الأخرى الثائرة، ومما قلته لهم حينها: «أرى أن أهل السنّة في حمص يتعرضون إلى إبادة حقيقية».

وفجأة انتفض المراقب العراقي محمد حسن الموسوي، وخاطبني قائلًا: «أنت طائفي.. طائفي...».

تعجبت من غضبه الجامح الذي بلغ درجة رفع صوته بتلك الطريقة الفجّة، وقلت له: «لماذا كل هذا الغضب؟ اكتب أنت بأن الشيعة في حمص يتعرضون للإبادة، وقدم ما تملك من أدلة، ولن أعلّق عليك، ولا يهمني رأيك، فأنت حرّ فيه».

فرد بعنجهية أخرى: «ليكن في علمك أنني سنّي، ولست شيعيًّا».

وقد بدأ الدم يغلي في عروقي من طريقة كلامه ورفعه لأصابعه في وجوهنا، فقلت له: «أنت كذّاب»!

ردّ: «أنا كذاب... والله عيب...».

قلت له: «نعم، أنت كذّاب... تزعم أنك سنّي... أتحدّاك أن تظهر لنا كيفية وضوء أهل السنّة وصلاتهم».

ثم أضفت، وهو ينظر إلي، وقد غزت ملامحه صدمة: «لو تفعلها أمامنا الآن سأعتذر لك عما قلته في حقك أمام الجميع».

غضب وحمل أوراقه، وغادرنا مباشرة، وهو يتمتم بكلام لم نفهم معناه ولا سمعنا فحواه، فتأكد لي أنه كان يراوغ فقط لأجل حسابات لم تجل في خاطري قط لمّا تحدّثت عن أهل السنّة، وما يتعرضون له في الأحياء المنتفضة.

تركت المراقبين بعدما اتفقنا على موعد في حدود السادسة والنصف مساء؛ لأنه لدينا اجتماع نحو الساعة السابعة مع المحافظ غسان عبد العال، وغادرت نحو غرفتي حتى آخذ قسطي من الراحة، ولما شغّلت التلفزيون فوجئت بالشريط الإخباري لإحدى القنوات فيها حديث عن مراقب بدرعا نقلت الجزيرة والفضائيات العربية شهادته عن رؤية القناصة، دون أن يذكر اسمه.

أول ما قمت به هو الاتصال بالمراقب الجزائري المقدم عاشور بوتوت على هاتفه السوري، فلم يردّ إلا بعد محاولات عدة؛ حتى أعرف منه حقيقة ما تردد وهوية المراقب الذي نقل الكلام، وقد كان صوته مبحوحًا، ويظهر منه القلق، ولما سألته عن الأخبار التي تتناقلها الفضائيات، فاجأني بأنه هو المراقب المعني بالأمر، وأخبرني بأنه بالفعل شاهد قناصة، ولكنه لم يعتقد أن تلك الكلمة التي قالها بخصوصهم ستنقل بتلك الطريقة، وتثير هذه الضجة العارمة، وقد كان غاضبًا من المعارضة التي استغلت كلمة خرجت منه في موقف محدد، واقتطفتها وروجت لها، من دون أدنى حساب لطبيعة مهمته أو للإحراج الذي قد تسبّبه له مع حكومته.

بقيت أتابع القنوات المتاحة لنا، وكلها موالية للنظام السوري ومناهضة للمعارضة بينها الحكومية وأخرى لبنانية وروسية أيضًا، وتابعت تقارير عن المراقبين في مناطق عدة من سوريا، واستمعت إلى تحاليل لبعض المحللين الذين يرون في بعثة الجامعة العربية الحلّ الوحيد للأزمة السورية، ويوجد آخرون يسيئون لها على قناة (الدنيا) و(الإخبارية السورية) وباقي القنوات الحكومية، وهو الذي صرنا نسمعه من أيام حيث يتهموننا بالعمالة والتآمر، وهو تحريض صريح وواضح علينا.

لما اقترب موعد الذهاب إلى قصر المحافظ، غادرت غرفتي نحو الاستقبال، وهناك وجدت العقيد عبدالله الطاهر والمراقب صلاح سعيد

وآخرين في انتظاري، فامتطينا سيارة المرسيدس المصفحة، وتوجهنا إلى محافظ حمص الذي كان بقصره، وطبعًا في الطريق اتفقنا على بعض النقاط التي سنتناولها في الاجتماع.

شرع المحافظ يتحدّث في شؤون فوجنا، وأول ما بدأنا الخوض فيه هو قضية الإساءات المتكررة إلى بعثة المراقبين من قبل القنوات الحكومية، حيث تأتي بمحللين تابعين للنظام، ويحرضون بطرق غير مقبولة، وتحاول القنوات نفسها عبر مراسليها الذين يقيمون معنا بالفندق إحراج المراقبين بتصريحات تعقّد من مهمتهم، وأحيانًا لما يرفض المراقب التصريح بكلمة، حيث يقول لهم مثلًا: «لا أصرح بشيء»، «لن أقول أي كلمة»، «ما عندي ستجدونه بالتقرير»، «الوحيد المخول بالحديث للإعلام هو رئيس البعثة»... إلخ، يتم بث هذه المقاطع وترافقها تعاليق تسيء للمراقبين أو تقرأ في إطار ما لا يخدم البعثة أصلًا، التي مهمتها الأولى والأساسية هي حلّ الأزمة وحقن الدماء وإيجاد مخرج للبلاد.

تحدّث العقيد عبدالله الطاهر، وشرحت أنا كل التفاصيل والملاحظات، وشارك في النقاش مراقبون آخرون سواء من فوجنا أو الفوج الثاني الذين بدورهم التحقوا بنا، وقد استمع لنا المحافظ بنهم، وبعدما أنهينا كلامنا، ومن دون أن ينبس ببنت شفة أخذ سماعة الهاتف واتصل بوزير الإعلام مباشرة، ونقل له أمامنا كل الانشغالات التي طرحناها عليه، وصارت تؤرق المراقبين، سواء في أثناء عملهم أو في محلّ إقامتهم.

ومما قاله اللواء السابق غسان عبد العال لوزير الإعلام: «المراقبون معي الآن في اجتماع عمل، ويشتكون ومتذمّرون مما يقال عنهم في التلفزيون».

يصمت، ويبدو أن الوزير سأله عن أي تلفزيون، ليضيف: «تلفزيون الدنيا وأيضًا الإخبارية السورية».

ويقول له أيضًا: «المراقبون يعدُّون النقد اللاذع لهم نوعاً من التحريض عليهم».

يصغي إلى الوزير الذي لا نسمع ما يقول له، ثم يرد: «أعرف تحريض الجزيرة والقنوات المعادية الأخرى، لكن المراقبين لا يتابعونها، وهم يتحدثون عن قنواتنا».

أنهى حديثه مع وزير الإعلام، ثم استدار نحونا ليخبرنا بأنه تلقى وعدًا منه باتخاذ كل التدابير اللازمة، فوجدتها فرصة لما ذكر الجزيرة، فقلت له:

«سيادة المحافظ، نحن لا نملك في الفندق غير قنوات موالية لكم، ونحن أيضًا في حاجة إلى متابعة القنوات الأخرى مثل الجزيرة والعربية».

فقاطعني: «هذه قنوات كذابة لا فائدة فيها».

فقلت: «ليست المشكلة أن هذا يكذب أو لا، المهم نحن نريد أيضًا متابعة ما يقال عنا في الرأي الآخر».

فقال: «الأمر واضح، يقولون: إن مهمتكم فاشلة، ولا يريدون غير التدويل».

فقلت: «يجب أن أسمع بنفسي، وأرى بعيني أنا، وليس بعين غيري أو سمعه».

قال المحافظ: «لو تتابعون ما يقال في الجزيرة والعربية لتوقفتم عن العمل، فلا يوجد فيها غير الإشاعات والأكاذيب، واليوم فقط راحوا يروّجون لمراقب مغربي في درعا زعموا أنه رأى قناصة، وهذا غير صحيح؛ لأن المراقب أكّد أنه لم يَرَ قناصة».

فضلت ألا أبوح له بما دار بيني وبين المراقب الجزائري، وليس المغربي، لذلك قلت له: «السيد المحافظ، لو سمحت إن متابعتنا للجزيرة والعربية مهمة

أيضًا، فعندما ينشرون علينا الكذب سنتدخل، وننفي ذلك، وهذا لا يمكن أن يحدث إلا إذا تابعنا القنوات».

أيدني بعض المراقبين أيضًا، وطالبوا بضرورة متابعة هذه القنوات، وقد قال المراقب العراقي الموسوي: «نعرف كذب الجزيرة والعربية، لكن جيد ما اقترحه الزميل، فمتابعتنا لها تسمح لنا بفضح الأكاذيب المتعلقة بالبعثة».

تهلل وجه المحافظ غسان عبدالعال، وأشاد بفكرة متابعة هذه القنوات لفضح الأكاذيب، ومن قبل المراقبين أنفسهم، ووعد بأن ينظر في الأمر قائلًا:

«أعدكم بالنظر في الموضوع مع المعنيين، ونتخذ القرار المناسب».

تعجبت من حديثه، حيث إن مشاهدة قنوات فضائية تقتضي مشاورات مع المعنيين من المسؤولين، وفضلت الصمت في انتظار ما ستسفر عنه هذه الوعود.

بعدها شرعنا في الحديث عن النقاط الأخرى من الاجتماع، وقد أبدى المحافظ ما يشبه المرونة والتساهل للإفراج عن معتقلين، لكنه اشترط ألا يكونوا قد تورطوا في حمل السلاح أو أيديهم ملطخة بالدماء على حدّ تعبيره، لذلك طلب منا أن نحضر له قائمة الموقوفين الذين يطالب بهم السكان في بابا عمرو أو غيره، وبعدها سيبحث أمرهم مع السلطات الأمنية.

العقيد عبدالله الطاهر طرح عليه مطالب الأهالي الخاصة بتوفير الأدوية لمعالجة الجرحى الذين يرقدون في المشافي الميدانية، فوافق المحافظ بعد تردّد على تزويد مشفى بابا عمرو، وباب السباع بالأدوية، وطالبنا بإعداد دراسة عن المشفيين ومطالبهم.

وقد قال بهذا الخصوص: «على الرغم من أنهم سيعالجون مسلحين وإرهابيين بينهم أجانب إلا أنني أوافق على الاقتراح خدمة للبعثة».

أما النقطة الأخرى التي تناقشنا حولها، فهي ما يتعلق بسحب حاجز كفرعايا الذي يشتكي منه المواطنون كثيرًا، فأكّد المحافظ غسان عبد العال أنه سيبحث عملية نقله إلى نقطة أخرى بعيدة بشرط التزامهم بحماية السكة الحديدية وأنابيب الغاز التي تمرّ من هناك. ويتواصل الحديث مع عناصر الفوج الآخر في أمور تخصّ عملهم التي تركزت في مشكلات تقنية تتعلق أساسًا بالأحياء الموالية، وأيضًا حدثوه عن الحاجز العسكري الذي يتمركز بالغرب من مشفى باب السباع، ووعدهم بمناقشة ذلك مع القيادة العسكرية واتخاذ القرار المناسب في شأنه.

وبعدها تواصل الحديث الجماعي معنا عن أمور عدة لأجل إنجاح مهمة بعثة المراقبين العرب، وقد أبدى المحافظ مرونة مطلقة في إطلاق الوعود، لكن يربطها دومًا بشروط وتنازلات تأتي من المعارضة.

وصل به الأمر إلى طلب لا صلة له بمهمتنا، وهو أن يقترح المراقبون على سكان الأحياء الثائرة تسليم المسلحين للحكومة، وهو ما رفضنا التوسط فيه؛ لأنه سيضعنا في دائرة الاتهام والانتقام أيضًا، وإن كان المراقب العراقي صلاح سعيد لم يمانع في التحدث إلى بعض الأهالي الذين يمكن الثقة بهم في هذا الأمر، لكن ذلك رفضناه أنا ورئيس فوجنا وحتى المراقبين الذين يرافقوننا، بحجة أنه خارج عن نطاق البروتوكول.

ويضيف المحافظ اقتراحًا آخر يتمثل في تسهيل دخول أحد الضباط معنا في زي المراقبين؛ للإشراف على كل الاتفاقات بيننا وبين الناشطين في بابا عمرو وغيره، ولكن رفضنا ذلك أيضًا رفضًا مطلقًا، ونذكر جميعًا ما حدث مع

المقدم مدين الذي دخل معنا دون علمنا على أساس أنه سائق، وتبين لاحقًا أن الأمر عكس ذلك تمامًا، وقد أنقذنا حياته بأعجوبة.

أنهينا الاجتماع بحديث المحافظ عن بعض الأرقام المتعلقة بتعويض المتضررين ممن سماهم بالجماعات الإرهابية المسلحة، حيث قال: إنه تم تعويض ٣٠٪ منهم ماليًا، ويوجد من تحصل على سكن، وقال: إن بحوزته الآن ١٧ مسكنًا شاغرًا مستعد أن يمنحها فورًا، وهو بصدد دراسة قائمة للمتضررين، وسيتخذ القرار قريبًا جدًّا وبحضور المراقبين.

بعدها عدنا إلى الفندق، وقد أحسست بحمى تجتاح جسدي بسبب الحرارة المرتفعة بمكتب المحافظ، حيث تناولت وجبة العشاء بسرعة، وغادرت إلى غرفتي كعادتي، والصداع بدأ يتسلل لجسدي، وأحسست بأنها أعراض الزكام.

شغلت جهاز التلفزيون، ورحت أتابع تقارير قناة «الإخبارية السورية» عن المراقبين العرب في درعا وريف دمشق وحماة وإدلب وحمص، لأفاجأ بتقرير من المشفى العسكري بحمص، حيث راح الصحفي يتحدث للجرحى العسكريين الذين تم سحبهم من المؤسسة الاستهلاكية ببابا عمرو بوساطة من البعثة، وقد راح يقدم الجرحى الذين لم يكونوا عسكريين كما ادعى لنا المحافظ من قبل، بل بينهم مدنيون وشرطة، والمفاجأة الأخرى أنهم أخبرونا في أثناء زيارتنا لهم بأنهم محتجزون منذ ثلاثة أشهر، لكن الشرطي حسن بدران روى للإخبارية السورية أنهم حوصروا مدة ١٥ يومًا فقط.

وتابعت نشرة أخبار القناة السورية التي تحدثت عن تصريحات لرئيس البعثة الفريق أول الركن محمد مصطفى الدابي، الذي أنكر فيه تصريحات المراقب الجزائري عاشور بوتوت، والغريب أنه ردّد ما حكاه لنا المحافظ من

قبل من أن المراقب لم يقل: إنه شاهد قناصة، بل قال: لو يشاهد قناصة، وإن الجهة التي نشرت الفيديو حذفت كلمة «لو»، وهذا كله لا أساس له، فقد أكّد لي المراقب الجزائري أنه رأى قناصة، والغريب أن كل وسائل الإعلام حسبما قيل لي عبر الهاتف قد راحت تتحدث عن أن المراقب الذي ظهر في الفيديو هو مغربي يدعى سعود الأطلسي، وهذا غير صحيح مطلقًا.

من جهة أخرى أجريت اتصالات هاتفية عدة مع الأهل وبعدها مع الأصدقاء من المراقبين في الأفواج الأخرى، ومما سمعته من بعض المراقبين في دمشق، أن رجل الأعمال رامي مخلوف، وهو ابن خالة بشار الأسد، قد أقام موائد عشاء كثيرة لرئيس بعثة المراقبين، الفريق أول الركن محمد أحمد مصطفى الدابي، وذلك في نادي الشرق، وهو ما أكّدته لي كثيرًا السيدة إلهام الشجني التي كانت حاضرة في أحد المواعيد، وقد حدثتها بشأن ما يشاع عنا في الفضائيات السورية من أكاذيب وتحريض، ولما ذكرت لها قناة الدنيا التي هي من أكبر المحرّضين على البعثة، سألتني: «من صاحب القناة؟».

أجبتها: «هي خاصة، وصاحبها رجل أعمال يدعى رامي مخلوف».

وبصوت متهلل: «لو كنّا نعرف ذلك لتحدثنا إليه، فقد التقيناه مرات عدة».

وبشغف لمعرفة تفاصيل أكثر، سألتها: «أين التقيتم به؟».

أجابت: «أقام للرئيس الدابي وليمة عشاء في نادي الشرق».

سألتها: «هل كنت معه؟».

أجابت: «حضرت معهم مرّة واحدة».

فقلت لها: «يعني أن اللقاءات تعدّدت».

أجابت: «بالتأكيد».

وبلهجة الاستدراك: «هي لقاءات مهمة لمصلحة البعثة مع رجل هو ابن خالة بشار، ولديه نفوذ كبير معه».

فقلت لها متهكمًا: «جيد، وهذه الأخبار تبشر بالخير».

فقالت، وهي تهمّ بتوديعي: «سأنقل للجنرال قضية هجوم قناة الدنيا على البعثة، وفي المساء لديه موعد مع السيد رامي مخلوف، حتى يستغل الفرصة، ويطرح عليه ذلك».

وفي تلك الليلة اتصل بي الناشطون من بينهم خالد أبو صلاح وغيره، أما الناشط أحمد الحمد «أبوبري» الذي يملك مشفى ميدانيًّا في بابا عمرو، فقد اتصل بي، وطلب مني أن ألتقيه في الغد؛ لزيارة امرأة أسيرة عنده، والاستماع لقصتها الخطيرة، فوعدته بذلك.

٣٩

لقاء مع أسيرة في بابا عمرو

صباح يوم الإثنين ٠٢ جانفي (كانون الثاني / يناير ٢٠١٢ م) استيقظت مبكرًا كالعادة بعد ليلة أخرى قضيتها ما بين الحمى وأصوات الرصاص والمقنبلات التي تتهاطل على بعض الأحياء في حمص، وهي دائمًا تطول الأحياء الثائرة مثل بابا عمرو والخالدية وباب السباع وغيرها. التقيت المراقبين في بهو الفندق، واتفقنا على أن برنامجنا يتعلق بسحب الدبابة المحتجزة لدى حيّ بابا عمرو مقابل الإفراج عن خمسة معتقلين، وهو الاتفاق الذي ضبط مع محافظ حمص، وقرر العقيد عبدالله الطاهر أن يبقي على المراقب العراقي صلاح سعيد برفقة السوداني الزاكي ليكونا همزة وصل بيننا وبين السلطات في حالة أي طارئ ما.

في حدود العاشرة إلا الربع انطلقنا نحو حيّ بابا عمرو، وسبب التأخر في مواعيد الانطلاق يعود غالبًا إلى الحراسة التي ترافقنا، فهي لا تكون جاهزة في الوقت الذي نحدّده، وكل مرة يقدمون أعذارًا، سواء تعلق الأمر بتأخر إحدى السيارات أو البنزين أو أنهم تلقّوا معلومات أمنية تجبرهم على التأخر بعض الشيء، لتفادي أي مكروه قد يطول البعثة.

وصلنا كالعادة إلى حيّ بابا عمرو، ووجدنا عددًا من الناشطين في انتظارنا، ومن هناك تفرقنا إلى فوجين، فوج رافق خالد أبو صلاح لزيارة بعض المرافق في بابا عمرو، أما أنا والعقيد عبدالله الطاهر والمراقب الجيبوتي محمد حسين عمر فقد توجهنا برفقة الناشط (أبوبرّي) إلى المكان الذي تُوجد

بـه الأسـيرة، وكنّا نعتقد أنها في معتقل خاص بالجيش الحرّ غير أن المفاجأة هي وجودها ببيت (أبوبري) ومع والدته وزوجته وأهله.

أدخلنا (أبوبرّي) صالون البيت الذي يقع بوسط حيّ بابا عمرو، وبعد نحو خمس دقائق حضرت فتاة، وهي تلبس الحجاب، كانت هادئة ولا تظهر من ملامحها أي حيرة أو خوف أو قلق، بل بدت في قمة الاطمئنان والراحة، ليس لي فقط بل حتى للمراقبين الآخرين اللذين كانا معي.

جلست الفتاة عن يميني وهي ساكتة لم تتحدّث بأي شيء، وبادر صاحب البيت وهو الناشط (أبوبري) بالحديث إليها، حيث أخبرها بأنها مع مراقبين من بعثة الجامعة العربية إلى سوريا، وأنه يمكنها أن تتحدث إلينا على انفراد، وتحكي كل ما تريده وترغب فيه من دون ضغط أو أي شيء آخر، وحينها تدخلت وقلت للرجل وقد أشفقت عليها وهي بعيدة عن أهلها وأسرتها:

«قبل أن تحكي لنا أريد أن أطلب منك شيئًا».

فهزّ رأسه بالإيجاب قائلًا: «تفضل... لك ما تريد».

فقلت له: «أريد أن أعيد الفتاة لأهلها، فهل تسلمونها لي».

نظر إلي (أبوبري) وقال: «أقسم بالله العلي العظيم من هذه اللحظة هي لك، وبإمكانها أن تغادر معكم وتأخذوها حيث تريدون على الرغم من أنها اقترفت جرائم سوف تحكيها لكم وحكمها الشرعي معروف، لكن أعتبرها هدية لكم بوصفكم بعثة عربية».

شكرت (أبوبري) على لطفه وكرمه.. استدرت نحوها، وفوجئت أن ملامحها بقيت عادية، ولم يظهر عليها أي فرح أو سرور، حيث كنا نعتقد أنها أسيرة وبالتأكيد سيفرحها مثل هذا القرار، فقلت لها: «يبدو أنك غير سعيدة بالعودة إلى أهلك».

بصوت خافت وهادئ ردّت: «لا، لن أذهب معكم إلى أهلي».

تدخل العقيد عبدالله الطاهر متسائلًا: «لماذا؟».

يضيف محمد حسين عمر: «هل أنت خائفة من شيء؟».

قالت بكل إصرار، وبما لم نفكر فيه بالمرّة: «لا، لن أعود أنا هنا مرتاحة والحمد لله صرت مسلمة، ولا يمكنني أن أعود للكفر بعد أن هداني الله».

ظهرت الشابة أن قصتها عميقة، وتحتاج قبل مناقشة قضية إعادتها لأهلها إلى أن نعرف حكايتها التي أوصلتها للأسر، وحينها وقف (أبوبري) قائلًا:

«أترككم معها وحدكم حتى تحكي قصتها على راحتها».

غادرنا (أبوبري) وأوصد الباب خلفه، فقام العقيد عبدالله بتفتيش بسيط في البيت كأنه يخشى وجود أجهزة تصوير أو تسجيل، حيث إنه كانت لديه حساسية مفرطة من الكاميرات والفيديوهات التي تبثّ على الإنترنت أو تتناقلها الفضائيات.

راحت الفتاة التي سبق أن ظهرت بعض اعترافاتها على قنوات فضائية دولية، تحكي لنا قصتها الطويلة، وقد طلب منها العقيد عبدالله أن تختصر قدر الممكن؛ لأن لدينا ارتباطات أخرى في حيّ بابا عمرو وأماكن أخرى.

الفتاة اسمها ألفت آصف فنتور من مواليد ١٩٨٦، والدها يدعى آصف فنتور، وأمها اكتمال دبب، وهي من بنات الطائفة العلوية، كانت تعمل راقصة استعراض في علب ليلية، وسبق أن تمّ توقيفها بتهمة الزنا، وتعرفت على مساعد أول في الشرطة يدعى أبوعلي منذر، الذي اتصل بها قبل ثلاثة أشهر من توقيفها من قبل الجيش الحر، حيث كلّفها بأمر من عميد الأمن الداخلي بمهمة عملية في حيّ باب السباع.

كانت تتنقل إلى بعض الأماكن، وتستدرج الفتيات من محطات انتظار الحافلات إلى ركوب سيارة أجرة (تاكسي) خصصت للمهمة. وأكّدت أنها أمرت باستهداف البنات السنّيات فقط، اللواتي يتمّ أخذهن إلى السكن الشبابي وهناك يتم اغتصابهن، وتتلقى أجرًا عن كل بنت يقدر بـ ٥٠٠٠ ليرة سورية.

كانت تتنقل بين الأحياء في حمص بهوية مزورة أعطيت لها من قبل الشرطة تحمل اسم حميدة المحمد، على أساس أنها مستخدمة في مشفى، وبمساعدة امرأة أخرى تدعى (أم مصعب) وهي لا تعرف اسمها الحقيقي، وقد أخبرتنا أن هذه الأخيرة تمكنت من اختطاف أربع فتيات. أما ألفت فقد تورطت في اختطاف خمس بنات (ثلاث من الخالدية، واثنتان من باب السباع)، ومن بينهن اثنتان في حالة حمل حسبما أكّدته المعنية بنفسها.

عن أول عملية خطف قامت بها، روت لنا الفتاة ألفت، أنها حدثت بالسوق، وكان ثلاث بنات يشترين أغراضهن، فراحت تراقبهن، وتترصّد لهن إلى أن تحركن في اتجاه محطة انتظار المواصلات، وكانت ألفت واقفة أمام الشارع وهن ينتظرن وصول أي سيارة أجرة في يوم يشهد إقبالًا واسعًا، فجاء مرافقها وعرض عليهن سيارة تاكسي، فصعدن دون تردّد، وصعدت هي معهن، وفي الطريق قامت ألفت بتمثيلية أنها تلقّت مكالمة هاتفية عن سقوط ابنها الصغير وانكسار ذراعه، فاستأذن السائق منهن أن يوصلها أولاً، ثم يكمل طريقه بهن إلى حيث مبتغاهن، لكنه ذهب بهنّ إلى سكن أعدّ خصيصًا لعمليات الاختطاف.

أما بنتا باب السباع، ففي أثناء خروجهما من شارع في الحيّ، صادفاهما وهما في حاجة إلى سيارة تاكسي، فدعتهما للركوب وأن مشوارها قريب وستنزل، لكن تم الاتجاه بهما نحو السكن الشبابي الذي يقع بمحاذاة بابا عمرو، ووفق الخدعة نفسها التي جرت من قبل، لكنهما ارتابتا في الأمر، فأغلق السائق السيارة من الداخل، وهددهما بالسلاح.

تم توقيفها في أثناء وجودها في حيّ باب السباع، ولكن السائق الذي كان يرافقها هرب، وتمّ استنطاقها، واعترفت بكل شيء، وقد تعرضت لضرب من قبل بعض عناصر (الجيش الحر) ولكن (أبوبري) تدخل ومنعهم من الإساءة إليها وأخذها فيما بعد لتعيش مع أسرته وزوجته ووالدته إلى أن يتّخذ قرار بحقها.

روت ألفت أن عناصر الجيش الحرّ اتصلوا هاتفيًّا بالمسؤول عنها المدعو أبوعلي منذر، لكنه طلب منهم قتلها، ولو يعيدونها له سيتولى أمر قطع رأسها بنفسه؛ لأنها لا تستحق الحياة، واسترسل في وصفها بالعاهرة وكلام فاحش آخر. وذكرت لنا الفتاة أسماء المختطفات وهن: آمنة مغمومة، وخديجة مغمومة، وفاطمة الرجوب، ونور المحمد، والخامسة ضحى الشوا.

فاجأتنا لما أخبرتنا بأنها أم لثلاث بنات هنّ مع أهلها، الذين يعتقدون أنها ماتت، لتؤكد مرّة أخرى بقولها حرفيًّا: «لست علوية الآن لقد كنت كافرة ومنّ الله عليّ بالدخول في الإسلام، ولو أعود لأهلي سيقتلونني؛ لأنهم لن يسمحوا لي أن أكون سنّية بينهم، وأنا مستحيل أرجع علوية كافرة».

تتنهد بصوت عالٍ، واغرورقت عيناها بقطرات من الدمع، لتضيف: «سيقتلونني، أنا لا يهم، لكن أنا متأكدة سينتقمون من بناتي ويقتلونهن أيضًا».

فسألها العقيد عبدالله عن قرارها النهائي، فأجابت: «أنا أعيش هنا بينهم كأنهم أهلي يعاملونني أحسن معاملة ومستحيل ألقاها حتى بين أهلي، ولذلك لن أعود معكم».

طلب منا العقيد عبدالله أن نسرع بإنهاء عملنا؛ حتى نلتحق بالمجموعة الأخرى، فينتظرنا عمل كبير هناك. نادينا على (أبوبري) الذي حضر إلينا، وكانت ترافقه والدته التي سلمت علينا، ووضعت أمامنا صينية شاي وحلويات،

والتي بدورها أكدت أن ألفت مثل بناتها، وستبقى معهم إلى أن يفتح الله عليهم جميعًا على حدّ تعبيرها.

غادرتنا ألفت بعدما شكرتنا على جهودنا، مؤكدة أن قرارها ليس لضغط، وهنا تدخل (أبوبري) للمرة الأخرى قائلًا: «إذا كنت تريدين الذهاب فأنت معهم الآن وسيارتهم أمام البيت ولا تخافي شيئًا». إلا أنها رفضت وغادرت مع والدة (أبوبري) في اتجاه غرفة أخرى بالمنزل.

الشيخ (أبوبري) طلب منا أن نبقى دقائق حتى نتحدث مع أحد أطباء المشفى الميداني، فوافقنا، واتصل به هاتفيًّا ولم يلبث سوى دقائق معدودة وحضر إلينا، حيث قبل أن يدخل أكد عدم تصويره؛ لأنه يعمل في أماكن عدة ولا أحد يعرف علاقته بالمشافي الميدانية، وروى لنا الكثير من مآسي الجرحى والقتلى ونقص الأدوية ومعاناة الأهالي في معالجة أبنائهم الذين يقعون ضحايا القنص والقصف العشوائي.

المؤلف مع الفتاة ألفت ٢٠١٢/٠١/٠٢

المؤلف مع الفتاة ألفت ٢٠١٢/٠١/٠٢

معاينة جثث لبعض ضحايا التعذيب

غادرنا منزل (أبوبري)، والتحقنا بباقي المراقبين الذين كانوا بمدخل حيّ بابا عمرو في انتظار عودتنا، وهناك شرعنا في الاتصالات مع محافظ حمص من أجل تسلّم الإخوة الأربعة من عائلة محيميد مقابل السماح بسحب الدبابة التي أسرها الجيش الحر، ويحتفظ بها داخل حيّ بابا عمرو يلعب عليها الأطفال، ويتعلق الأمر بكل من فواز محمد محيميد، وفوزي محمد محيميد، وجاسم محمد محيميد، ومعتز محمد محيميد، والسجين الخامس من عائلة الدرويش ويدعى عبدالكريم الدرويش.

بقينا نتحدث لمواطنين التفوا حولنا، وكل واحد ينقل لنا شكواه، ويحدثنا عن وضعه البائس، حيث تحدث لي بعضهم، وسجلت أسماء عدة أذكر منهم زوجة تدعى ندى السقا وعائلتها المكوّنة من علي المصري وبدوي المصري وعبدالواحد المصري، الذين اختطفوا منذ أشهر، ويجهلون مصيرهم. أيضًا تحدث لي رسلان عقيل عن عمه الدكتور محمد علي نايف عقيل الذي اختطف من جامعة البعث، وتم اغتياله بدوار المهندس في حمص بتاريخ ٢٦/٠٩/٢٠١١ وهو أب لثمانية أطفال (٧ بنات وولد)، وقد عثروا على جثته مشوّهة وعليها آثار الرصاص.

أيضًا حدثتني سيدة عن زوجها بسام صلاح الدين الدلاتي الذي اعتقل بتاريخ ٠٧/١١/٢٠١٢. وتلقيت شكوى عن طلال عبدالمتين الكردة الذي اعتقل

بتاريخ ٢٠١١/١٢/٠٦ وهو موجود حسب معلوماتهم بمركز الأمن السياسي. وأيضًا الطالب الجامعي هاني محمد الدود (٢٠ سنة) وقد كسّرت يداه وأصابعه واعتقل منذ شهرين و١٠ أيام، وتشير معلومات تتوافر لدى أهله أنه يقبع في مقر الأمن الجوي في دمشق.

كذلك التقينا مواطنًا أخبرنا بأنه سعودي يدعى سعود الوهيبي الكوكبي ومصاب برصاصة في بطنه حسبما رأيته لما قام بالكشف عن مكان الجرح، وقد جاء لزيارة أمه السورية ولم يتمكن من العودة إلى بلاده بسبب الحصار المضروب على حيّ بابا عمرو.

في تلك الأثناء يتصل بي المراقب العراقي صلاح سعيد، ويخبرني بأن المعتقل الرابع وهو فواز عيد محيميد مقتول وتوجد جثته بالمشفى العسكري، وأيضًا بالنسبة إلى عبدالكريم الدرويش الذي بدوره مات منذ أشهر عدة. وكانت مفاجأة لنا حقيقة لأننا لم نعلم بذلك إلا في تلك اللحظة، وأهالي بابا عمرو أخبرونا بأن الإخوة الأربعة تم اعتقالهم أحياء من قبل المخابرات، وهم رهن الاعتقال.

أخبرني صلاح سعيد بأنه في طريقه برفقة سيارتين للإسعاف نحو المشفى لإحضار جثتي فواز محيميد وعبدالكريم الدرويش، ويجب علينا أن نخبر أهالي الحي بذلك؛ حتى يستعدوا للتسلم، وقد كان بجانبي الشيخ رائد الجوري، فأخذته على جنب وأخبرته بذلك، وقد كان للخبر وقعه في نفسيته، حتى دمعت عيناه، إلا أنه سرعان ما فوّض أمره لله تعالى. ونادى على خالد أبوصلاح وناشطين آخرين من بينهم علي عثمان المكنّى (الجد)، ونقل لهم الخبر السيئ، ولكنهم أظهروا صلابة على الرغم من الحزن الذي توزع بالملامح، وصمّموا على إتمام صفقة التبادل، وقد قال أحدهم: «تعودنا على ذلك وحسبنا الله في بشار وعصابته».

لم نمكث كثيرًا حتى شاهدنا مسلحين من الحاجز العسكري الذي يفصل بابا عمرو عن جامعة البعث وهم يقودون ثلاثة أشخاص حفاة نحو سيارة المراقبين التي كانت متوقفة في مفترق الطرق، في منتهى شارع البرازيل الكبير. فصرخ أحدهم قائلًا لنا: إنه يرى (شبيحة) يختطفون مدنيين، فهرعت نحوهم مع بعض الناشطين، غير أننا لما اقتربنا منهم وجدناهم قد سلموهم لمراقبين آخرين كانا بجانب السيارة، وغادرا نحو الحاجز الذي يتمركزون فيه، وكان المقاتلون التابعون للنظام في أيديهم رشاشات من نوع كلاشينكوف، وكلهم يلبسون الزيّ العسكري النظامي.

كان الأمر يتعلق بالإخوة المساجين الثلاثة، ولقد كانت حالتهم سيئة للغاية، حفاة، ألبستهم خفيفة وكنا في جو بارد جدًّا، وقد التفّ حولهم بعض الناشطين والمواطنين، وراحوا يحتضنونهم بشدّة، وفي تلك اللحظات لما بلغهم خبر قتل شقيقهم الرابع فواز، صدموا حتى كادوا يسقطون على الأرض، وراحوا يصرخون ويبكون وينتحبون لدرجة مؤثرة تهزّ الوجدان، وأحدهم يبكي ويقول: إنه كان معهم في زنزانتهم وتمّ تحويله إلى زنزانة أخرى في كامل صحّته، لكنهم كانوا أحيانًا يسمعون صراخه وصراخ غيره من المعتقلين الذين يتعرضون للتعذيب، وبعدها اختفى نهائيًّا من مقرّ المخابرات الجوية، حيث قبعوا مدة خمسة أشهر ونيف، وبلغهم أنه تمّ الإفراج عنه.

حاولنا أن نشدّ من أزرهم إلا أن بكاءهم لم يتوقف، وطلبت منهم أن يبتعدوا عن المكان المكشوف أمام أعين قنّاصة الحاجز العسكري المتمركز ما بين حيّ بابا عمرو وجامعة البعث، وأيضًا قناصة آخرين يتمركزون على أسطح بيوت بشارع البرازيل. تقدمنا نحو مدخل الحيّ حيث حاجز تابع لعناصر الجيش الحرّ، وفي تلك الأثناء يتصل بي صلاح سعيد، ويخبرني بأنه مع سيارتين للإسعاف على طريق الكورنيش، وصاروا بالقرب من مقرّ الأمن السياسي.

بقينـا ننتظر في آخر الشـارع الذي بـه مركز مراقبة للجيش الحر، ولم نمكث كثيرًا حتى حضـرت سيارة الإسـعاف الأولى التي كانت بها جثة فواز عيد محيميـد والتي توقفت حيث نقف، أما الثانية التي بها جثة عبدالكريم الدرويش فلم تصـل حينها، حيث فضل سائقها أن ينتظر مغادرة الأولى من باب الحرص الأمني على ما يبدو.

توقفت سيارة الإسعاف، ففتح الباب فركب خالد أبو صلاح، وبعدها لحقته حيث وضـعت رجلـي في الباب والأخرى في الأسـفل، وقد كان مشـهد جثة فواز محيميد مرعبًا، حيث كانت الجثة مجمّدة، وتبدو على وجهه وبطنه آثار التعذيب وكانت عبارة عن كدمات عميقة، وأيضًـا كسـر في عنقه، إلى جانب رصاصـات اخترقت كتفه ما يؤكد أنه بعد التعذيب جرى إعدامه ميدانيًا، والتمثيل به أيضًا.

فـي تلك الأثنـاء كان المواطنون يتوافـدون على عين المـكان من حارات بابا عمرو، وراحـوا يحتجّون بمظاهرات فيها مئات الأشـخاص هتفوا جميعهم بإسـقاط النظام ومحاكمة بشـار الأسـد الذي وصـفوه بالمجرم والقاتل، ولن يتراجعـوا حتى يقتصـوا منـه، بل لن يهنأ بالهـم حتى يحققـوا أمنيتهم، ويروا القتلة في السجون يتلقون جزاء إجرامهم على حدّ وصفهم.

بعدما غادرت سـيارة الإسـعاف الأولـى دخلت الثانية، وتوجهت مباشـرة نحو المشـفى الميداني لتفادي الفوضـى، وتوجهنا نحن مباشرة خلفها لمعاينة جثـة المواطن عبدالكريـم الدرويش البالغ مـن العمر ٣٩ عامًـا، متزوج وليس عنـده أطفال، كان يشـتغل مزارعًا في الغوطة بحمص. لم يكن موقع المشـفى الميداني بعيدًا عنا، حيث وصلناه في دقائق معدودة. أوقفنا السيارة في الشارع المقابل للبوابة، ووجدنا عشـرات المواطنين قد تجمهروا، وكان الوضع محتقنًا

إلى درجة كبيرة، فقد هبّوا يرفعون ويهتفون بشعارات تطالب بإسقاط النظام، وتدعو للاستمرار في ثورتهم حتى آخر رمق منهم.

دخلنا من الباب وعبر رواق قصير وقفنا في بهو مساحته ليست كبيرة، ووجدنا مجموعة من المواطنين والناشطين بينهم (أبوبري) الذي بدوره يملك مشفى ميدانيًّا، وكانوا ينتحبون ويبكون وبينهم من يصرخ أيضًا في وجوهنا ويطالبنا بتوثيق ما جرى للدرويش، ما يصفونه بجرائم ضد الإنسانية يقترفها بشار الأسد في حق المواطنين الأبرياء والعزّل.

كانت الرائحة كريهة جدًّا تنبعث من الجثة الملفوفة في رداء أبيض وموضوعة على طاولة لنقل الجرحى. اقتربت منها وهالني المشهد حيث إن الجثة عليها آثار تعذيب وواضح للعيان بشاعة ما تعرّض له الرجل، والعجيب الذي تقشعر له الأبدان أن الضحية قد تعرض لسلخ الجلد بطريقة لا يمكن تخيلها، فقد ظهر لي كالشاة التي ذبحت وسلخ جلدها، ولكن الفرق أن ذلك حدث قبل وفاته، وهو على قيد الحياة. أمر آخر أن بطنه قد فتحت وتم إخاطتها بالكبّاسة وأسلاك معدنية صدئة، وهو ما يمكن أن يندرج ضمن سرقة الأعضاء، وهذا الذي قاله لنا الطبيب الذي كان واقفًا على الجثة.

الناشط خالد أبو صلاح راح يتحدّث أمام كاميرات من المركز الإعلامي لحيّ بابا عمرو، كانت توثق مشهد معاينة المراقبين العرب لجثة السجين عبدالكريم الدرويش، راح يشرح الموقف الرهيب الذي وقفنا عليه، وقد تألمت ما بيني وبين نفسي حتى ما تخيلت أنه سيأتي علي يوم أرى بشرًا يفعل ببشر مثله ما رأيته في ذلك الموقف الرهيب.

دبابة معطوبة في حيّ باباعمرو يلعب عليها الأطفال ٢٠١٢/٠١/٠٢

المؤلف مع المعتقلين المفرج عنهم ويظهر في الصورة الناشط خالد أبوصلاح ٢٠١٢/٠١/٠٢

أحد المفرج عنه يبكي لما بلغه استشهاد شقيقه الذي كان معهم في السجن ٢٠١٢/٠١/٠٢

جثة عبدالكريم الدرويش وتظهر عليها علامات التعذيب وسلخ الجلد ٢٠١٢/٠١/٠٢

المؤلف يعاين جثة عبدالكريم الدرويش في باباعمرو ٢٠١٢/٠١/٠٢

المؤلف يقف مع سيارة الإسعاف في أثناء إنزال جثة فواز محيميد بباباعمرو ويظهر في الصورة الشيخ رائد الجوري ٢٠١٢/٠١/٠٢

جثة فواز محيميد وتظهر عليها آثار التعذيب ٢٠١٢/٠١/٠٢

٤١

مشاهد باكية مع ثكلى ضريرة

كانت جثة الدرويش مؤثرة جدًّا، وأكدت لنا بوصفنا مراقبين بما لا يدع مجالًا للشكّ أو التردّد مدى حجم البشاعة التي يتعامل بها النظام السوري مع المعتقلين والمختطفين والمشتبه فيهم، وفي تلك الأثناء وأنا أتأمل ما تعرض له ذلك المواطن المسكين والفقير، وأقوم بتصويره أحيانًا من جوانب مختلفة، وإذا بناشطين يدخلون ومعهم عجوز ظهرت من أول وهلة أنها فاقدة تمامًا لبصرها، فأحدهم كان يمسكها من ذراعها، كانت المرأة تبدو قد تجاوزت السبعينيات من عمرها، تلبس حجابًا أسود، ووجهها تظهر عليه كل علامات البؤس.

بمجرد أن اقتربت من المكان الذي فيه الجثة، اندفعت نحوها وهي تبكي وتصرخ وتولول بصوت يهزّ الجبال، راحت تقبله وتحتضن رأسه اليابس لصدرها، وتتحسس أنفه ورقبته بيديها؛ لأنها ضريرة لا ترى شيئًا. وكنت على يقين في تلك اللحظات الصعبة والحزينة لو أن هذه الأم الثكلى شاهدت ببصرها حال جثة ابنها لتوقف قلبها عن النبض فورًا؛ لأنها كانت في صورة لا يمكن لأي أحد كان أن يصفها في سطور عابرة ولو ملك ناصية التعبير، وأجاد كل لغات الدنيا.

أم عبد الكريم كانت تبكي وتنتحب وتلطم رأسها، وتدعو على القتلة بما قدرت عليه، لقد كانت مفجوعة إلى حدّ لا يطاق، ويظهر أن لواعج أخرى قد عادت لذاكرتها مجددًا، كنت واقفًا أشاهد هذه الأم وكبدي يتفتت، لم أتخيّل يومًا أن يصل الحال بنظام حاكم في بلد عربي إلى هذا المستوى من القذارة

والبشاعة في حق مواطنين عزّل، ويقترف مثلما رأيت في هؤلاء المسحوقين ممن دفعهم الظلم المسلّط على رقابهم إلى أن يطالبوا ببعض حقوقهم بوصفهم بشرًا عبر مظاهرات سلمية ما فيها غير أهازيج الحرية والعدالة.

حسبما رواه لنا الناشطون، ومن بينهم الناشط الميداني خالد أبو صلاح، من أن الأم قد فقدت بصرها بكاء وكمدًا كما فقد يعقوب عليه السلام بصره حزنًا على ابنه يوسف عليه السلام، وذلك بسبب مقتل ابنيها رمضان الدرويش، ثم حمدان الدرويش الذي قتل في سجن صدنايا العسكري يوم السبت ٠٥ تموز/ يوليو ٢٠٠٨ بدمشق، في المجزرة الشهيرة التي اقترفت في حق المساجين على إثر عصيان قاموا به، فاستقدمت حينها السلطات السورية كتيبة من الشرطة العسكرية لتفتيش السجن، وبدأ الجنود التفتيش بطريقة مستفزة، ووضعوا القرآن على الأرض، وقاموا بالدوس عليه، ما استفز مشاعر المساجين الإسلاميين. ثم حصلت مشادات بينهم والشرطة العسكرية قتل فيها ٩ أشخاص، ما أدى إلى اندلاع أعمال احتجاجية داخل السجن، فقامت قوى الأمن بإطلاق النار عليهم، وقتلت منهم ٧ أو ٨ أشخاص بينهم رمضان الدرويش، وأخذت ١٠٠ من المساجين رهائن.

ومنذ ذلك الحين لم تتوقف عن البكاء والنحيب على فلذّتي كبدها اللذين لم تَرهما حيين، ولا كفّنتهما ولا شاركت في دفنهما، حتى ابيضت عيناها من الحزن وصارت لا تبصر شيئًا. وها هي الأم التي بكت ابنيها سنوات بعد قتل أحدهما في السجن تحتضن ابنها الثالث الذي بدوره تسلمته جثّة هامدة بعدما قتل تحت تعذيب بشع لدى جهاز المخابرات، الذي اختطفه من مزرعة دون أي ذنب، ليعود على الحال التي وصفت القليل منها.

لم أتمالك نفسي في تلك اللحظة، وذرفت دموعي الساخنة، فمشهد الأم يحرك الحجر، ويذيب الصخر، ويزعزع وجدان بني البشر مهما كانت قوة

تحملهم وصبرهم وجلدهم. لم أستطع أن أمسك نفسي من هول ما أرى وأيضًا أثّرت في نفسي تلك الرائحة الكريهة جدًّا التي كانت في تصاعد مع مرور الوقت، واندفعت بعيدًا لأتقيأ فاضطر الناشطون، وحملوا لي عطرًا شممته؛ كي أستعيد بعضًا من أنفاسي.

عدت مجدّدًا لأقف على جثّة عبد الكريم الدرويش، وأمه التي ظلت تحتضنه ولم تتوقف عن البكاء بصوت يشقق الجدران، وفجأة تندفع لتغادر، ومسكها أحدهم من ذراعها، وراحت في اتجاه باب الخروج، وهي تزغرد بصوت عالٍ، وتقول: «الله يريني فيك يومًا أسود يا بشار».

وأيضًا راحت تتمتم بكلام لم أفهم معناه، حتى خيّل لي أنها أصيبت بمسّ.

تعجّبت من وحشية القتلة الذين يفعلون بأبناء بلدهم ما رأيته في جثة الدرويش، وبسبب ما رأيته في مشهد الأم الثكلى والمفجوعة على فلذّة كبدها، صارت أقدامي لا تقوى على حملي، وشعرت بحمى مفاجئة تسري في جسدي ودوار برأسي، فقد أوجع قلبي ما رأيت، وإن ما جرى لهذا المعتقل لم أسمع به من قبل حتى في قصص الخيال العلمي أو البوليسي، حتى ما قرأته عن التعذيب في كل سجون العالم لم أجد فيه ما حدث للدرويش، تبدل لون وجهي وتجهمت ملامحي، فأحسّ رئيس الفوج، العقيد عبدالله الطاهر بما ظهر عليّ؛ لذلك طلب من السائق أن يعود بي إلى فندق السفير فورًا، وهو الذي وافقت عليه بدوري؛ لأنني لم أعد أحتمل الوقوف، وصارت الأرض تدور بجسدي المرتعش، وكنت في حاجة إلى أن أختلي بنفسي، وأبكي بعض الوقت؛ حتى أرفع تلك الأحزان التي زرعتها في أعماقي أم عبد الكريم الدرويش.

عدت إلى الفندق ومشهد الأم المفجوعة لم يغادر بصري ولا صوتها ذهب من مسمعي، فصعدت مباشرة لغرفتي، فارتميت على فراشي وأجهشت

بالبكاء، فقد كنت في أمس الحاجة إلى ذلك ولو لم أفعل لانفجرت، وبعدها أخذت حمامًا وشربت أقراصًا من دواء الحمى، لكنها ظلت في تصاعد مستمر، لذلك هتفت لصلاح سعيد، وأخبرته لينقل الأمر للمحافظ الذي طلب من كاتبته علا أن تحضر لي طبيبًا.. لم يتأخر الأمر كثيرًا وحضر الدكتور مازن دري الرفاعي برفقة علا وصلاح سعيد، وهو اختصاصي في الأمراض الصدرية الداخلية، ورئيس الشعبة الصدرية في المشفى الوطني بحمص. فحقن فخذي بحقنة أخبرني أنها خاصة بالحمى، وأحضر لي أدوية من مشروب وأقراص وفيتامينات، وقد وجد ضغطي الدموي ١٦/٠٨ ولذلك أمرني بالراحة التامة وعدم الخروج حتى أتعافى نهائيًّا، وبعد مغادرتهم غلبني النعاس، فنمت على وقع مشاهد الأم الثكلى التي زعزعت كياني وكيان بقية المراقبين، وفجرت في حيّ بابا عمرو غضبًا لا يمكن وصفه.

أم عبدالكريم الدرويش تحتضن جثة ابنها وتبكي ٢٠١٢/٠١/٠٢

أم عبدالكريم الدرويش تحتضن جثة ابنها وتبكي بحضور المؤلف ٢٠١٢/٠١/٠٢

أم عبدالكريم الدرويش تحتضن جثة ابنها وتبكي بحضور المؤلف ٢٠١٢/٠١/٠٢

٤٢

قضية معتقلة بين يدي محمد الشعار وآصف شوكت

بعد نحو ساعتين من نوم بسبب تأثير تلك الحقنة التي كانت منومة في الوقت نفسه كما أخبرني الطبيب، أيقظني دقّ خفيف على الباب، ولم يكن سوى المراقب الجيبوتي محمد حسين عمر، الذي جاء ليطمئن علي بعد عودته من بابا عمرو، حيث أكملوا عملية إخراج الدبابة المعطلة وتسليمها لمسؤولين عسكريين.

أحسست أن حالي قد تحسّنت، وانخفضت درجة الحمّي إلى مستواها الطبيعي؛ لذلك جلست معه وراح يحكي لي عن العملية التي تمت بسهولة تامة، وبدوره عبّر لي عن سخطه مما حدث للجثتين من تعذيب فاق كل حدود الوحشية التي قد يتخيلها بشر.

بعدها غادرني محمد حسين عمر ليرتاح في غرفته بعض الشيء، وأوصاني إن احتجت إلى شيء ما علي إلا الاتصال به على هاتفه، وزارني في تلك اللحظات أيضًا مراقبون آخرون من بينهم العقيد عبدالله الطاهر والمحامي إسلام أبوالعينين والجنرال الكريماني مولاي محمد والسفير محمد البشير ولد سيدي حمادي والمقدم صالح ولد سيد محمود وغيرهم.

تمددت على الفراش مرة أخرى لمتابعة التلفزيون، وإذا بأخبار عن تصريحات للأمين العام للجامعة العربية، نبيل العربي، الذي تحدث فيها عن دور بعثة المراقبين العرب في تبادل الجثث، وتحدث أيضًا عن القناصة وإطلاق

النار المتواصل حسبما جاء على لسانه. لكن الغريب أنه ذهب إلى التصريح بسحب الحكومة السورية للآليات العسكرية من المدن، على الرغم من أنه منذ وصولنا إلى حمص لم يتم سحب سوى الوحدة المتمركزة في المؤسسة الاستهلاكية بحيّ بابا عمرو؛ لأنها كانت محاصرة من قبل الجيش الحرّ، وفي إطار صفقة متبادلة بين الطرفين، وليس بسبب الالتزام الحكومي ببنود البروتوكول الموقع مع جامعة الدول العربية في ٢٠١١/١٢/١٩.

وأنا أتابع الأخبار التي أثارت حنقي، فإذا بالهاتف يرن، وكانت المتصلة امرأة أخبرتني أن اسمها السيدة إبتسام، وهي والدة المخرجة ريم الغزّي التي تُوجد رهن الاعتقال، وراحت تتكلم بحسرة كبيرة على ابنتها وكنت أسمع شهيق بكائها، فزادت في وجعي؛ لأنني لم أتمكن بعد من نسيان ما رأيت مع أم عبدالكريم الدرويش في بابا عمرو، وأدت بي إلى المرض بالحمّى.

أخبرتني السيّدة إبتسام أن ريم الغزّي في السجن منذ مدة دون أي جرم اقترفته، وتريد أن نساعدها على الإفراج عنها، وفوجئت بأن أخبرتني بأنها في الشام، وليست بحمص حيث كنت أعتقد، غير أن ذلك لم يمنعني تعاطفًا معها أن أقرر بذل جهدي لأجل الإفراج عنها وخاصة أن ذلك في إطار اختصاصنا، وقد اعتقلت بسبب الأحداث الجارية، وهو أحد بنود البروتوكول الذي وجب على الحكومة الالتزام به وتنفيذه.

وعدتها بذلك، ففرحت كثيرًا، وراحت تدعو لي بالخير، وأن يستر اللّٰه أهلي وأبنائي، وقد تأثرت بنبرة صوتها الحزينة التي أكّدت لي أن المرأة صادقة وليست لعبة استخباراتية أو من جهة ما لتضييع وقتنا، وحفزتني على النشاط كي أتصرف بما قد يسعد قلبها المفجوع، ولا يصل بها الحال إلى ما جرى مع غيرها، ودعتني وهي تشكرني على أمل الاتصال بيننا مرة أخرى لأخبرها بما

سيستجدّ معي بخصوص المعتقلة ريم الغزّي التي قصتها مثل باقي المعتقلين بسبب الأحداث الجارية بالبلاد.

حان وقت وجبة العشاء، ففضلت أن أنزل على الرغم من أن المراقب العراقي صلاح سعيد طلب مني البقاء، وسوف يحضرون لي العشاء إلى غرفتي، لكنني فضلت مغادرة الغرفة علني ألتقي وزير الداخلية أو غيره حتى أحدثه بشأن المخرجة ريم الغزّي، وعندما نزلت إلى الاستقبال حيث وجدت عددًا من المراقبين، فوجئت بوجود نساء لم يسبق لي رؤيتهن، ولما سألت عنهن أخبرني العقيد عبدالله أنهن ناشطات حقوقيات ينتمين إلى إحدى المنظمات، ولم نتأخر إلا لحظات حتى التحق بهن أحد الشباب كان يلبس سترة خضراء ومكتوب على ظهره «المرصد السوري لضحايا العنف والإرهاب».

أخذت شيئًا خفيفًا من الطعام، فقد كانت بفمي مرارة كبيرة بسبب الحمّى التي تعرضت لها، ثم غادرت المطعم وانزويت بأريكة أنتظر مجيء وزير الداخلية اللواء محمد الشعار، حيث حاولت أن أستطلع الأخبار عبر شبكة الإنترنت، وقد كانت صعوبة كبيرة، ولا يمكن فتح حسابي بالفيس بوك أو الإيميل بسهولة، لكنني نجحت في البحث عن ريم الغزّي، ووجدت أخبارًا عنها في بعض المواقع، ما أكّد لي أن الأمر جدّي وليس لعبة من جهة ما للتلاعب بالبعثة(١).

لم أمكث كثيرًا، حتى بدأت الإجراءات الأمنية التي ترافق دائمًا لحظات نزول محمد الشعار وآصف شوكت، فيقومون بتفتيش المطعم عبر أفواج ومعهم جهاز كشف المتفجّرات، حيث يقوم نحو ١٢ ضابطًا عبر أربعة أفواج بتفتيش متتالٍ، وبعدها يأتي آخرون ويأمرون الجالسين ببهو الفندق بإنزال كاميراتهم

---

(١) في أثناء زيارتي للعاصمة السعودية الرياض في المدة الممتدة من ٢٠١٣/٠١/١٠ إلى ٢٠١٣/٠١/٣٠ التقيت شقيق ريم الغزّي ونقل لي سلام والدته السيّدة ابتسام وتحياتها، مؤكدًا لي أنها بالفعل تواصلت معي شخصيًّا.

لمنع التصـوير أو أي شـيء آخر، وقد كانت الإجراءات مشـددة تفاديًا لاختراق قد يستهدف الوزير الشعار وصهر الرئيس وأبرز صقور النظام السوري، العماد آصف شوكت.

لـم يتأخر وزيـر الداخلية محمد الشـعار، وحضـر لتناول وجبة العشـاء، ولما رأيته توجهت نحوه قبل أن يدخل للمطعم، وكان معه العماد آصـف شـوكت ومجموعـة من طاقم الحراسـة التي تعتـاد على مراقبة كل كبيرة وصـغيرة في أثنـاء نزولهم من الغرف، حيث يقفون أمام المصـاعد والمدرجات، ويحكمون الحصـار علـى كل الأبـواب، ويفتشـون المطعـم بأجهـزة كشـف المتفجرات، ويحضرون حتى من يتذوق الطعام قبل أن يشرعوا هم في الأكل.

والغريب أن الحراسـة الملتصقة مباشرة بالعماد آصف شوكت تتكون من أربعـة أشـخاص لديهم قوة بدنية رهيبة وأجسـام ضـخمة، لا يتكلمون العربية وطالما سـمعتهم يتحدثون بالفارسـية فقط، وهو ما أكده لـي مراقبون آخرون يعرفون اللغة جيدًا، وحتى شـوكت نفسـه رأيته يتحدث معهم بلغتهم، ما جعلني أشكّ في أنهم إيرانيون، وليسوا سوريين.

سـلمت على الوزير مصـافحًا والأمر نفسـه بالنسـبة إلى العماد آصـف شـوكت، وقد بادرني الوزير بالسـؤال عن حالنا وأحوالنا وظروف إقامتنا، وقد أجبتـه بأننا بخير، ونتمنى نجاح مهمتنا، ليبادرني قائلاً: «الحكومة تشـكركم، وحتى سيادة الرئيس أشاد بما تبذلونها من جهود لأجل سوريا».

شكرته على ما تفضّل به، وإن كنت في قرارة نفسي رأيت ما جاء به الوزير يـدلّ علـى أن البعثة تحلب في إنـاء الحكومة، ثم قلت له: «لـديّ طلب منكم إن أمكن سيادة الوزير».

فردّ بلهجة الترحيب: «تفضل نحن في خدمتك».

في تلك اللحظات قررت ألا أذكر والدة المعتقلة؛ حتى أتفادى أيّ مكروه قد يلحقها بسبب تواصلها مع البعثة، فقلت له: «اتصل بي أحد أقارب فتاة معتقلة، وراح يرجوني لمساعدتها على الإفراج عنها».

سألني: «ما سبب اعتقالها؟».

أجبته: «قال لي: إن الأمر يتعلق بالأحداث الجارية، وهذا طبعًا من بنود البروتوكول».

استدار نحو آصف شوكت، وقال له بلهجة التكرّم، وليس الأمر: «يجب النظر في قضية هذه البنت».

فسألني شوكت: «ما اسم السجينة؟».

أجبته: «ريم الغزّي».

قال: «اطمئن سنرد عليك بشأنها في القريب العاجل».

أما وزير الداخلية الشعار فقال: «إذا لم تكن متورطة في الدماء، ليست مشكلة سنطلب من القضاء تسريع النظر في قضيتها والإفراج عنها».

قلت له: «حسب كلام الشخص المتصل أن الفتاة تعمل مخرجة سينمائية».

ابتسم، وقال: «يوجد فنانون صاروا مجرمين، المهم سنسأل الجهة القضائية، ونعرف وضعها وبعدها نردّ عليك».

ليسألني حينها آصف شوكت: «لم تذكر لنا هوية المتصل وعلاقته بها».

أجبته: «أخبرني أنه قريبها، ورفض أن يعطيني اسمه، يبدو أنه يخاف من جهة ما».

فقال: «أنتم بوصفكم بعثة تثقون في أي متصل بكم تجهلون هويته».

أجبته: «ليس من صلاحياتنا التحقق من هوية المتصلين بنا، نحن تصلنا الشكاوى، وننقلها للسلطات وانتهى الأمر».

ثم استدركت: «أعتقد أن هؤلاء الذين يخفون هوياتهم يخافون من شيء ما».

ردّ وزير الداخلية: «لا يخافون، بل يتوهمون أو يكذبون فقط».

فقلت: «توجد بالفعل فتاة اسمها ريم الغزّي معتقلة، وقد عثرت على أخبارها في الإنترنت».

ضحك الوزير، وقال: «الإنترنت... حقل الكذب الذي أدى إلى ما نعيشه حاليًا».

شكرت الوزير محمد الشعار على الوقت الذي منحه لي، وغادروني، متوجهين إلى داخل المطعم لتناول وجبة العشاء، أما أنا فذهبت إلى صالون ببهو الفندق.

جلست على أريكة، والتحق بي بعض المراقبين، ولم يتأخر أيضًا رئيس الفوج العقيد عبدالله الطاهر الذي أكمل وجبته، وجلس إلينا، فسألني المراقبون عن أحوال الحمّى معي فطمأنتهم، وراحوا يلومونني على النزول، وكان بإمكانهم أن يحضروا لي الطعام في غرفتي، فأخبرتهم أنني نزلت خصيصًا لملاقاة وزير الداخلية من أجل قضية إحدى المعتقلات.

فسألت رئيس الفوج عن شأن التقرير اليومي، فأخبرني أنهم حرّروه وأرسلوه، فقلت له: كان من الأولى أن نراه قبل ذلك ونوافق عليه جماعيًّا، وسألته عن تسجيل ما شاهدناه من شأن الجثتين المعذبتين، فأخبرني بما صدمني: «لم نسجل الأسماء، ولكن تحدثنا عن الأمر بصفة عامة».

فقلت له بلهجة غاضبة: «ماذا كتبتم إذن؟».

رد علي قائلًا: «الزاكي هو الذي كتب التقرير».

ثم استدار نحوه، حيث كان واقفًا غير بعيد منا، ونادى عليه، وسأله في الأمر ليرد قائلًا: «لم أكتب الأسماء، ولكن قلت: تم تسليم معتقلين لحيّ بابا عمرو، وبينهم جثتان».

فسألته: «هل كتبت أن الجثتين عليهما علامات التعذيب البشع؟».

فأجاب: «لا!».

بصوت غاضب ومرتفع يسمعه كل من في الاستقبال: «لماذا لم تفعل ذلك؟».

أجاب: «لست طبيبًا، حتى أحكم عليهما».

قلت للعقيد: «لقد رأيت بنفسك آثار التعذيب والرصاص في عنق أحدهم، على الأقل يصف ما عليه شأن الجثتين».

فقال: «نعم، حقيقة، ولكن ذلك يقتضي عرض الجثة على طبيب شرعي لمعرفة حالها، وهذا ليس من صلاحياتنا».

قلت له: «هذا غير معقول التعذيب واضح، ويعرفه حتى الأغبياء».

فرد الزاكي: «أستاذ أنور، نحن نكتب ما رأينا، ولا يمكن أن نكتب ما يقوله أهل بابا عمرو».

قلت له: «اكتب في التقرير أن المراقب أنور مالك يؤكد أن الجثتين تعرضتا للتعذيب وأتحمل المسؤولية الأخلاقية والقانونية في ذلك».

كنت أتحدث بصوت مرتفع وعيون رجال الأمن ترقبنا لذلك طلب مني المراقبون أن نؤجل مناقشة الأمر إلى أن نلتقي في الغرفة أفضل. فوقفت لأغادر نحو غرفتي، وأنا أقول لهم: «أنتظركم في غرفتي، وهذا الأمر لا يمكن

أن يمرّ، ونحن أقسمنا على قول الحق، وننقل ما نراه، وأنتظر أن تأتوا بالتقرير معكم؛ حتى أحكم عليه بنفسي».

لقد غضبت غضبًا شديدًا، وكدت أنفجر من الغيظ مما يحدث، فعدم الحديث عن الجثث التي تعرضت للتعذيب رأيته يدخل في خانة تزوير الحقائق والانحياز المفضوح لجهة على حساب أخرى، وبسبب ذلك عاودت الحمّى لتجتاح جسدي، وارتفعت مرة أخرى حتى صرت أرتعش. لم أمكث كثيرًا، والتحق بي المراقب الجيبوتي عمر، وأيضًا وصل بعده المراقب صلاح سعيد الذي اتصل فورا بمحافظ حمص، فأرسل لي الطبيب مازن دري الرفاعي الذي كتب لي أدوية، وتمّ إحضارها من قبل دورية الأمن من صيدلانية لا تبتعد كثيرًا عن الفندق.

بعدما تناولت الأدوية ونمت قليلًا أحسست بانخفاض في الحمى، أيقظني اتصال من (أبوبري) في حدود منتصف الليل ليخبرني أنه تمّ اختطاف ثلاثة أفراد من حيّ بابا عمرو، وهم عبدالكافي المصيطف (أبوحسام)، وعبدالمجيد الأشقر وزياد زكريا، وقد تواصلوا مع الخاطفين الذين طلبوا فدية مقابل الإفراج عنهم، وذكروا لهم أنهم من جماعة المدعو وائل الملحم الذين ينتمون للطائفة العلوية على حسب قولهم.

خلدت بعد المكالمة للنوم مرة أخرى، غير أنه في حدود الثالثة صباحًا أفقت على وقع إطلاق نار كثيف وأصوات تفجيرات تبدو أنها من قذائف تسقط على أحد الأحياء القريبة، ولم أستبعد أنها استهدفت حيّ بابا عمرو الذي لا يبتعد كثيرًا عن فندق السفير، كما أشرت إلى ذلك من قبل.

المراقبون يصابون بالإسهال المفاجئ

فـي تلك الليلة كان نومي متقطعًا ومضـطربًا بسـبب أصـوات الرصـاص والقذائف التي كانت قوية جدًّا تجاوزت ما كان عليه الأمر في الليالي السـابقة، جعلتني أحسّ أن سريري يهتزّ من مكانه، أما بالنسبة إلى الحمّى فقد انخفضت، وأحسست براحة عكس ما كنت عليه من قبل.

مع أذان الفجر اسـتيقظت، وأخذت حمّامًا دافئًا ثم أدّيت صـلاة الصبح، قـرأت بعض آيات من القـرآن الكريم، وفي حدود السـابعة والنصـف غادرت غرفتي متوجهًا نحو المطعم لتناول وجبة الفطور، وقد وجدت المراقب العراقي محمد حسن الموسوي في إحدى الزوايا، ولم ينتبه لي وكان يتحدث في الهاتف باللغة الفارسـية، ولما تفطّن لوجودي غير بعيد قطع باضطراب اتصاله بكلام لم أفهمه، ثم دنا مني مسـلّمًا، ومن دون أن أسأله أخبرني أنه كان يخابر جدّته الكردية، ويتحدّث معها بلغتها؛ لأنها لا تعرف العربية ولا اللهجة العراقية.

أحسست أن الرجل أراد أن يبعد عن نفسه تهمة ما من دون أن أوجهها له؛ لأنه رأى نفسـه في موضـع اتهام، لكنني فضلت ألا أخوض معه في الأمر، وكأنه لم يحدث.. دردشـنا سـويًّا عن عمل فوجهم، وتطوّرات الأوضـاع معهم، فأبدى لـي مدى انزعاجه من المعارضـة التي تكذب عليهم كثيـرًا على حدّ قوله، وراح يتّهـم أهالي باب السـباع بالإرهاب، وأنه توجد جماعـات إرهابية تابعة لتنظيم القاعدة تقتل المواطنين وتنكّل بهم، وهم يخافون من التحدّث خشية تصفيتهم والانتقام منهم أيضًا.

كلامــه كان خطيرًا للغاية وفيه انحياز مفضــوح وبيّــن لأطروحات النظام التــي كنّا نســمعها منذ وصــولنا أول يوم إلى ســوريا، ولذلك اهتممــت بأقواله، وســألته عن أدلّته فيما ذهب إليه من اتهامات خطيرة، ردّ بأنهم تحصّــلوا على بعض الأدلة وهي بحوزة رئيس البعثة، الفريق أول الركن محمد أحمد مصطفى الدابــي، الذي اتصــل برئيس فوجهم، وأكّد لهم صــحة المعلومات، وأمرهم أن يقتصــر عملهم علــى المناطق الآمنة التــي يعملون فيها تحــت حماية الحكومة فقط، وتعجّبت من هذا الكلام المنسوب إلى الدابي الذي لم نسمعه في فوجنا، وكأننا لســنا في بعثة واحدة وبمنطقة واحدة وننام في فندق واحد، لذلك سألته من دون خوض في التفاصيل:

«لماذا لم يقل لنا الدابي هذا الكلام، ونحن نعمل في الأحياء الساخنة؟».

أجــاب: «لا أدري.. ربمــا قال لرئيس فوجكــم أو أن الأخطار تتعلق بفوجنا نحن فقط».

لم أصــدّق ما جاء على لسان المراقب الموســوي الذي منذ زيارته الأولى معنا إلى حمص، حيث كان ضــمن مجموعة باب السباع، وهو يظهر مدى حقده على المعارضة وتوجيه الاتهامات الجزافية لها من دون أدنى أدلة تذكر.

التحــق بنا في تلــك الأثناء بعض المراقبيــن، ودخلنا ســويًّا للمطعم؛ كي نتنــاول وجبــة الإفطار، كعادتنا أحضــر لنــا الطبّاخ ما نطلبه مــن حليب وقهوة وشــاي من داخل المطبــخ، أما الحلويات والجبن والمربّى والعســل والمتطلبات الأخــرى فهــي موجودة فــي إطار الخدمة الذاتيــة كما هو معمول بــه في فنادق العالم. بعدما أكملت وجبتي برفقة بعض الزملاء، غادرت نحو غرفتي من أجل الاســتعداد ليوم آخر من عمل المراقبة، وأنا في المصعد أحسست بآلام غريبة بدأت تتحرك في أحشائي، ولم أصل الغرفة حتى وجدت نفسي في أمس الحاجة إلى دخول الحمام.

أحسست أن الوضع غير طبيعي، خاصة أنّني مكثت في الحمّام مدة ليست بالعادية، ولكن حينها شككت في الجبن الذي أكلته، أو أن معدتي لم تتقبّل فطور ذلك اليوم، ولم أكن أتصوّر أن الأمر بعيد عن تكهناتي.

نزلت إلى الاستقبال، حيث نجتمع كعادتنا من أجل الانطلاق إلى الوجهة المتفق عليها مع محافظ حمص، اللواء السابق غسان عبدالعال، لكنني لم ألتقِ إلا بعض المراقبين من الفوج الثاني، في حين لم أجد من فوجي سوى رئيسه السوداني العقيد عبدالله الطاهر، ولما سألته عن المجموعة أخبرني بأنهم لم يحضروا بعد من غرفهم، فشككت بيني وبين نفسي أن بينهم من يعاني الإسهال المفاجئ الذي تعرضت له، وما زلت في تلك اللحظة أحسّ بألم في بطني.

بدأ ينزل بعض المراقبين من غرفهم، وأوحت ملامحهم أنهم في وضع غير طبيعي، فسألت أحدهم، فأخبرني أنه يحسّ بآلام فظيعة في بطنه منذ الفطور، أعلمته أنا أيضًا بما أعانيه، وقلت له: إنني أشك في الجبن أو شيء ما يحتمل أننا أكلناه مع الوجبة الصباحية.

في تلك الأثناء سمعنا إطلاق نار كثيف لا ندري مصدره، على وقع ذلك اضطررت في تلك اللحظات إلى أن أعود لغرفتي والأمر نفسه لمراقبين آخرين، فقد كانت الأوجاع لا يمكن تصورها، وبدأت أشك في أن الأمر لم يتوقف على جبن فاسد أو أكل غير صحّي، بل ربما حالة تسمّم، وخاصة أن الحمّى بدأت ترتفع وأشعر أيضًا بدوار في رأسي.

اتصل بي عبر الهاتف العقيد عبدالله الطاهر، وأخبرني أنه بسبب حالة صحّية لدى بعض المراقبين، فقد ألغى خروجنا إلى الأحياء، وسوف يقتصر الأمر على استقبال الأهالي في الفندق والاستماع إليهم، فأخبرته بأنني أعاني حالة إسهال شديدة، وأن الحمّى في ارتفاع، بل أكدت له شكوكي في تعرضنا لحالة تسمّم.

فورًا اتصـل رئيس الفوج العقيد عبد الله الطاهر هاتفيًا بالمحافظ غسان عبد العال وطلب منه أن يستدعي طبيبًا للمراقبين، وهو ما لبّاه في وقت قصير جدًّا، ولم يتأخر إلا نحو نصف ساعة، وحضر الطبيب إلى غرفتي، فأجرى فحصًا لي ووجد حرارتي مرتفعة بعض الشيء، والأمر نفسه بالنسبة إلى الضغط الشرياني، فأعطاني بعض الأدوية من أقراص وفيتامينات وسوائل طبية، ولما أخبرته بما أعانيه من ألم في معدتي بعد تناولي فطور الصباح، طمأنني الطبيب أن الأمر طبيعي، فأنا لم أتعوّد على الطعام السوري، ولذلك أصابني الإسهال الذي لن يطول حتمًا على حدّ تعبيره.

تردّد الطبيب على بعض المراقبين الآخرين من فوجنا الذي أصيبوا بالحالة نفسها، وأدركت حينها أن ما جرى غير طبيعي بالمرّة؛ لأنه لم يستهدف إلا بعض العناصر من الفوج الذي أنتمي إليه في حين الفوج الآخر الذي يترأسه المراقب العراقي سلمان، لم يحدث لهم أيّ شيء؛ لأن عملهم يقتصر على الأحياء الموالية فقط.

اتصل بي في ذلك الوقت، وأنا بغرفتي الشيخ أبوبري ليحدثني عن مواطن من بابا عمرو، ويدعى أحمد خرسان، والده عطية وأمه حياة، الذي اعتقل منذ شهر وستة أيام، وأخبرني أنه قد تمّ نقله إلى السجن يوم وصولنا إلى حمص أول مرة، أي في ٢٧/١٢/٢٠١١ حسب المعلومات التي يحصلون عليها. ليقترح عليّ أنه على استعداد لعقد لقاء يجمعني بوصفي مراقبًا مع من أختار من المراقبين، مع عناصر وصفها بالمهمة كانت تعمل في الدولة من قبل، ولديها معلومات خطيرة عن جرائم النظام والسجون السرية بصفة أخص، وذكر لي على سبيل المثال مدرسة للأطفال تسمى (طلائع البعث) بطريق حماة عند قيادة الشرطة صارت معتقلًا سريًّا يمارس فيه أبشع أنواع التعذيب والقتل والإعدامات الميدانية.

أخبرتـه بأنني أعانـي مع بعض المراقبين مرضًـا، وقد تقـرّر مكوثنا في الفنـدق، ولـن نخرج إلى الميدان فـي ذلك اليوم، ووعدته أنـه بمجرد الذهاب إلى حيّ بابا عمرو سأتصل به من أجل الوقوف على كل ما يريد إطلاعنا عليه.

بقيت أتابع الأخبار من شاشـة التلفزيون، ولم أجد في القنوات المتوافرة لدينـا ما يفيد، وفوجئـت بوجود القناة الجزائرية الثالثـة، ولا جديد عن طلبنا فيما يتعلق بالفضـائيات الأخرى كالجزيرة والعربية الذي طرحناه من قبل على المحافظ، ووعدنا بالنظر في الموضوع.

تلقيـت اتصـالًا هاتفيًّا من الناشـط عمـر التلّاوي الذي يُوجـد بحيّ باب السباع، وقد نقل لي معلومات خطيرة ومهمة للغاية، ودعاني إلى ضرورة التحقق منها، وذلك التحرّك نحو الأماكن التي يشير إليها. حيث أعطاني بعض المراكز التي بها الشبّيحة والأمن والقناصة، وذكر لي على سبيل المثال:

وجود شبّيحة وأمن يتمركزون بمدرسة المثنّى في باب السباع.

مستوصف باب الدريب يتمركز على سطحه قنّاصة، ويوجد به أيضًا وحدة تابعة للجيش ودبابات ومتاريس.

وُجد الأمن والشبيحة والدبابات بحاجز القلعة التي يتمركز على سطحها أكثر من ٣٠ قناصًا، يراقبون كل المنطقة، ويقنصون كل هدف يرونه.

أما أسوأ حاجز يعانيه الأهالي في باب السباع خصوصًا هو حاجز الفارابي الذي فيه ستّة متاريس على أبواب الحيّ، وأغلقوا الشوارع الفرعية، ويتم إطلاق النار منه بسلاح الآر بي جي ٧.

مخبز الفاربي لا يمكن الوصـول إليه، حيث إن الحاجز يعتقل كل من يذهب إليها من أجل شراء الخبز، ومن لا يتمكّنون من اعتقاله يقومون بقنصه وقتله.

شارع المصري فيه قنّاص خطير للغاية يطارد الأطفال والنساء والشيوخ.

ونقل لي الناشط عمر التلاّوي خبرًا عن قنص مواطن يدعى محمود صواف بحاجز باب الدريب في صباح ذلك اليوم، وقد أعلمته بأننا سمعنا الرصاص الكثيف في حدود التاسعة صباحًا، ليؤكد لي أن ذلك في حيّ باب السباع الذي يتعرض لهجمة شرسة من قبل الشبيحة وقوات الجيش والأمن. ليحدثني أيضًا هذا الناشط عن قطع الكهرباء بكل الشوارع الرئيسة والفرعية، ولذلك اضطرت المحالّ التي يتجاوز عددها الـ ٢٠٠ محل إلى غلق أبوابها، ما صعّد من أزمة المواطنين أكثر فأكثر.

قبل أن أخلد إلى النوم تلقيت اتصالًا من أحد الأصدقاء، فأخبرني بأنه يتابع حملة قذرة على شخصي من قبل الصحافة المغربية، حيث يدّعون أنني ضابط مخابرات ومتهم بجرائم ضد الإنسانية وأشارك في مهمة المراقبة بسوريا بإيعاز من النظام الجزائري لخدمة النظام السوري، ضحكت من هذه الاتهامات السخيفة التي تعودت عليها من قبل المخزن، فالنظام الجزائري الذي يتحدّثون عنه قد أرسل ضباط مخابرات حقيقيين وبرتب سامية وأيضًا سفراء، ولا يحتاج إلى كل هذا الوهم الذي يروّج له هؤلاء لحسابات معروفة سبق الحديث عنها.

لقاء مع ضباط الجيش الحر في بابا عمرو

قضيت ليلة صعبة مع الإسهال على الرغم من الأدوية التي بحوزتي، وكانت الأوجاع تتماوج بين الصعود والهبوط. ومرت الليلة على وقع أصوات القذائف والرصاص، وغالبًا ما تنطلق في حدود منتصف الليل ولا تتوقف إلا مع تباشير الصبح.

نزلت في صباح ذلك اليوم الأربعاء ٢٠١٢/٠١/٠٤ للمطعم من أجل تناول وجبة الفطور، وقد تفاديت هذه المرة الأجبان ذات الأنواع المختلفة التي شككت بدورها فيما حدث لي مع بعض المراقبين.

تناولت فطورًا خفيفًا؛ خوفًا على معدتي وتطورات الإسهال الذي سيفسد عليّ عملي، ولكنني صممت مهما كانت الظروف أن أخرج، وخاصة أن العقيد عبدالله الطاهر أخبرني بأننا سنغادر نحو حيّ بابا عمرو، ولدينا لقاء مع ضباط من الجيش الحرّ، وقلت في قرارة نفسي: إنه في حالة تفاقم الآلام واضطررت إلى الحمام لن أتأخر في طلب ذلك من الناشطين الذين سيرافقوننا، أو أقضي حاجتي في أي بيت من البيوت المهدمة في حيّ بابا عمرو، وما أكثرها.

كعادتها تأخرت الحراسة المكونة من عسكريين وضباط مخابرات ورجال أمن من قطاعات أخرى، ولم ننطلق إلى بابا عمرو إلا في حدود العاشرة، وكان من المفروض أن موعدنا نحو التاسعة والربع مع الناشطين وبينهم خالد أبوصلاح وعلي عثمان (الجد) ورامي السيّد وغيرهم.

وصـلنا إلـى مدخل بابا عمـرو، حيث المكان الذي اعتدنـا التوقّف فيه مع عناصـر من الجيشـ الحرّ التي ترابط فيـه دائمًا، فالتفّ مـن حولنا مواطنون غاضـبون، وراحوا ينقلون لنا ما يتعرضـون له في كل ليلة من قصـف عشـوائي وقتل بالهاون وسلاح الدبابات، وأكّدوا لنا أن ما نسمعه كل ليلة كان يستهدفهم، ويجبرهم على المبيت في أقبية مع صغارهم. وألحّوا علينا أن نطالب السلطات بإبعاد عناصـر الجيش من شـارع البرازيل والإنشـاءات وباب السباع وكفرعايا وباب الدريب وغير ذلك، فهم يتعرضـون للمواطنين بالقتل والقنص والقصف المدفعي.

سجّلنا ما سمعنا من شكاوى، وكانت كلها مؤثرة وحزينة للغاية، وخاصة من طرف بعض الأمهات اللواتي بينهن من لم يترددن في تقبيل أيدينا لمساعدتهن فـي إطـلاق سـراح بناتهن خصوصًـا، وذلك بسـبب خوفهن على أعراضـهن، فالشـبّيحة لـن يترددوا في فعل ما لا يخطر على البـال، وأخذت إحدى الأمهات تبكي على مصـير ابنتها الوحيدة المختطفة منذ أشـهر عدة، ولا تعلم شيئًا عن مصيرها.

طلبنـا من الناشـطين أن يحضـروا لنا قائمـة فيها أسـماء كل المعتقلين والمعتقلات والمعلومات التي بحوزتهم حول مصـيرهم، فأكدوا لنا أنها صارت جاهزة، وسـوف يسـلمونها لنا خلال هـذا اليوم، وهو ما سيسـهل علينا متابعة شأن الإفراج عنهم مع السلطات المعنية.

بعدها أخبرنا خالد أبوصـلاح أن موعدنا قد حان والضـباط في انتظارنا فـي مكان محـدّد لا نعرف نحن عنه شـيئًا، لذلك امتطينا سـياراتهم في إطار إجراءات أمنية حرصـوا عليها، وبالتأكيد أن ذلك يدخل في إطار الحرص على حيـاة هؤلاء العسـكريين المنشـقّين من الجيشـ النظامي، وصـار لهم دورهم

البارز والأساسي في حماية الأهالي من الشبّيحة، الذين يتسللون إلى الأحياء، فيقتلون، وينهبون، ويغتصبون، ويعذّبون، ويختطفون من دون أدنى رادع أخلاقي ولا إنساني ولا وطني، وذلك أجمع عليه كل من تحدثنا إليهم من شيوخ وعجائز وأطفال وشبان.

تحركنا ما بين الحارات، ويبدو أن السائق يعرف المكان المقصود، فلا أحد يشير عليه وظل يتفادى أيضًا بعض الطرق الرئيسة حيث أخطار القصف والقنص، وقد كنا برفقته أنا وخالد أبوصلاح والعقيد عبدالله والمراقب العراقي صلاح سعيد. أما السيارة الثانية ففيها بقية المراقبين الذين يرافقوننا من فوجنا بينهم الجيبوتي محمد حسين عمر والسوداني الزاكي وسائق السيارة المرسيدس وهو عراقي يدعى ياسين ومراقب سوداني آخر.

وصلنا أحد البيوت، فنزلنا وصعدنا للطابق الأول، حيث وجدنا بصالون البيت خمسة ضباط بالزيّ العسكري ومعهم ثلاثة في الزيّ المدني، سلّمنا عليهم ثم جلسنا، وشرع الناشطون في تصوير اللقاء، فطلب منهم العقيد عبدالله الطاهر ألا يتمّ تصوير الحديث الذي سيدور بيننا، وإن كنت أرى ذلك الشرط لا معنى له، إلا أن خالد أبوصلاح وافق على ذلك من دون أدنى تردّد، لكنه طلب توثيق اللقاء بتصوير مشهد خفيف قبل الشروع في الحديث، حتى يبثّ عبر الفضائيات لتبيان مدى تعاونهم مع بعثة المراقبين العرب، وهو الذي حدث حيث تم تصوير مشهد من ١٨ ثانية كان خالد أبوصلاح يتحدث فيه وهو يتوسط الضباط قائلًا: «الآن أجلس في منطقة ما في مدينة حمص مع الضباط الأحرار داخل مدينة حمص، ونروي لبعثة المراقبين العرب أنه لا وجود للعصابات المسلّحة، إنما هم ضبّاط عسكريون انشقوا عن نظام بشّار الأسد».

بعدها شرعنا في التعرّف على هؤلاء الضبّاط، وكانت البداية بالملازم الأول مهنّد الخطيب (أبوبكر)[1] الذي كان يجلس بعيدًا، ولم يظهر في الصور، وبعدها الملازم الأول محمد أبوالسل، الذي انشق عندما كان ببعثة في اليونان والتحق بكتائب الفاروق، وهو أحد المؤسسين لها[2]، ثم الملازم أول عبدالرزاق طلاس الذي من أوائل المنشقّين، وصار من أشهر العسكريين المنشقّين عن النظام في سوريا، والملازم الأول وليد العبدالله (أبوعرب)، والنقيب فدعوس.

قدمنا أنفسنا إلى الضباط، وكل مراقب يذكر اسمه والبلدة التي جاء منها ومهنته سواء كان حقوقيًّا أو ضابطًا أو دبلوماسيًّا، بعدها شرع العقيد عبدالله الطاهر في الحديث، حيث أخبرهم أن البعثة أرادت أن تتواصل مع الضباط مباشرة لتسمع منهم، وتنقل آراءهم إلى الطرف الآخر المتمثل في السلطات من أجل خلق أرضية لتسوية الأزمة بما يفيد البلد، ويحقن الدماء.

بعدها شرع الملازم أول عبدالرزاق طلاس في الحديث، وأشار بداية إلى أنه يوجد ضباط أعلى رتبة منهم، ولكن يتفادون إظهارهم خوفًا عليهم من الأسر والانتقام، وراح أيضًا يشرح لنا أسباب انشقاقهم التي لخصها في رفضهم قتل شعبهم الذي خرج سلميًّا يطالب بالحريّة كباقي الشعوب الأخرى في العالم على حدّ قوله. أما عن دورهم فهو دفاعي فقط، حيث يقاتلون الشبّيحة والأمن الذين يحاولون اقتحام الأحياء مثل بابا عمرو، كفرعايا، السلطانية، جوبر، البساتين... إلخ، كما يقومون بعمليات الإغارة على القوات المتمركزة في مداخل الأحياء أو أماكن تموقع القناصة الذين يترصدون لكل من يدبّ أمامهم، ويقتلونه.

(١) استشهد في أثناء الحملة على بابا عمرو بعد مغادرة بعثة المراقبين مباشرة.
(٢) تعرض إلى كمين لاحقًا وهو في طريقه إلى بلدته نوى التابعة إداريًّا لدرعا، وتمّ اعتقاله وهو وحيد أهله ولا يزال أسيرًا، حسب الناشط عبدالباسط الساروت.

بعدها أتيح المجال لي، حيث أكّدت لهم أننا بعثة مستقلّة، فلسنا معهم ولا ضدهم، ولسنا مع النظام ولا ضده، وعملنا يقتضي توثيق الحقائق التي تجري على الأرض، وهذا لا يمكننا تنفيذه على الوجه الحسن إلا في ظل هدنة معلنة بوضوح والتزام من الطرفين، حينها تدخل الملازم أول وليد العبدالله، مؤكدًا مرة أخرى أن الجيش الحرّ في وضع الدفاع فقط وليس الهجوم، وأنهم لا يغيرون على أي موقع إلا إذا كان متمركزًا في أحد الأحياء، ويقوم بالقنص وقتل الأبرياء، ويرون من الضرورة الملحّة إبعاده بالقوّة.

ليقاطعه الملازم أول مهنّد الخطيب، قائلاً: «الهدنة يجب أن تأتي من طرف النظام الأسدي المجرم، وليس منّا نحن، فعندما يتوقف عن مهاجمتنا ومهاجمة المدنيين والمتظاهرين فسوف نتوقف نحن عن عملياتنا الدفاعية دائمًا».

يتدخل مجددًا الملازم أول عبدالرزاق طلاس قائلًا: «على الرغم من أن شعبنا يقتل أمام العالم والجامعة العربية خذلتنا ولم تتدخّل بجدية إلا بعد أشهر من الموت والدماء، وحتى دوركم بوصفكم مراقبين لم يقدّم شيئًا للشعب فهو يقتل يوميًّا وكل ليلة يعيش جحيم القصف بالدبابات».

ليضيف: «على الرغم من كل ذلك فالجيش الحرّ منذ وصولكم إلى حمص لم نقم بأي عملية إغارة، واقتصر عملنا على منع الشبيحة والجيش من اقتحام الأحياء واختطاف الناس والتنكيل بالعوائل».

ليؤكد: «الجيش الحرّ يلتزم بعدم القيام بأي عمليات إذا تمّ سحب الآليات العسكرية وتوقيف القنص طبقًا للبروتوكول الذي تراقبون أنتم تنفيذه».

يتدخل خالد أبوصلاح قائلًا: «لا يمكن للجيش الحرّ أن يتوقف عن الدفاع إلا إذا التزم الطرف الآخر بالهدنة نهائيًّا وبصفة رسمية وليس مجرّد كذب على المراقبين».

فيضيف العقيد عبدالله الطاهر قائلًا: «المحافظ يطرح فكرة لقاء معكم للتشاور وحلّ الأزمة».

يتدخل حينها النقيب فدعوس الذي ظل صامتًا: «لا أمان لهم أبدًا... أبدًا... أبدًا».

ليضيف طلاس: «نرفض اللقاء معهم مهما كان الأمر».

فسألته: «لماذا؟».

يجيب بلهجة غاضبة: «هذا النظام المجرم قتل الشعب، ونحن نطالب بمحاكمته على جرائمه ومجرد الجلوس معه هو تنازل عن حق دماء الشهداء، ولا نقبل ذلك أبدًا».

ليتدخل المراقب العراقي صلاح سعيد: «هذا غير ممكن أبدًا، فنحن لا نستطيع أن نؤدي مهمتنا وأنتم ترفضون مبادرة الحوار والتفاهم مع الحكومة».

يجيبه عبدالرزاق طلاس: «نحن نقبل بالهدنة لنتيح لكم فرصة الاطلاع على الأوضاع بأنفسكم، وسوف تتأكدون أن النظام كذّاب، ولا يلتزم بأي هدنة، وسيواصل القتل والتلاعب بكم بوصفكم بعثة عربية».

يضيف مهنّد الخطيب: «حتى الهدنة نشترط التهدئة في كل المناطق، فلا يمكن أن نقبل بتهدئة في بابا عمرو ويبقى أهلنا في باب السباع يقتلون أو محاصرين بالسلطانية، التهدئة يجب أن تكون شاملة وكاملة».

ليستدرك: «النظام لن يقبل بذلك أبدًا؛ لأنه إن تحدث التهدئة فسيخرج كل الشعب السوري للتظاهر في كل مكان للمطالبة بسقوط العصابة الأسدية».

يضيف طلاس: «ما قاله أخونا صحيح، فهم يسحبون شبيحتهم من مكان، ويأخذونهم إلى مكان آخر، مثلًا سحبوا لواء من الفرقة السابعة وركزوه في إدلب، لذلك نحن نطالب طبقًا للبروتوكول الذي وقعته الحكومة الأسدية بسحب الجيش وإعادته للثكنات».

يضيف فدعوس: «الأمر يا جماعة، لا يقتصر على التهدئة العسكرية أيضًا يوجد لدينا مختطفون ومعتقلون يتعرضون للتعذيب في السجون العامة والسرية».

يضيف طلاس: «الفرقة الرابعة تقوم باعتقال الناس ووضعهم في الفوج ٥٥٥ ويُنقل المساجين وإخفاؤهم في الأماكن العسكرية الحساسة».

كنت أتابع وأسجل الحوار الذي يدور في دفتري، فتدخل المراقب صلاح سعيد: «النظام يتهمكم بوجود إرهابيين معكم».

يظهر بعض الغضب على ملامح طلاس، ويجيبه بلهجة من لم يتقبّل هذه الاتهامات: «النظام الأسدي يقول أكثر من ذلك، ونحن لا نهتمّ بما يزرع من أكاذيب؛ لأنها تصدر من كذّاب يقتل شعبه».

سألته: «لاحظت وجود مدنيين معكم، فهل يا ترى يخضعون لقيادتكم أم لا؟».

يجيب طلاس: «لدينا عناصر محدّدة تساعد الجيش الحرّ، ونضطرّ إلى أن نسلّحها في أثناء عملها، فالكثير من الضباط ليسوا أبناء المنطقة وهم في حاجة لأبنائها من السكان، وطبعًا هؤلاء من المتطوّعين الذين يخضعون لأوامر الضباط الأحرار».

يتدخل أبوبكر بالقول: «لا يوجد سلاح لدى المدنيين خارج سلطة الجيش الحرّ، ولا توجد جماعات مسلّحة متطرّفة».

في تلك الأثناء دخل أحد الشبان وفي يده الهاتف المحمول ليخبرنا أنه في اللحظات التي نحن فيها مع الضباط، قد تمّ قنص المواطن مهاب المصري في حاجز المعهد من طرف قناصة، وجثمانه يُوجد بالمشفى الميداني.

حينها استدار نحونا الملازم أول عبدالرزاق طلاس غاضبًا: «هل يمكن الحوار أو الهدنة مع هؤلاء المجرمين؟».

ليضيف خالد أبوصلاح: «لن يلتزم النظام الأسدي بأي شيء هو يكذب عليكم، ويريد استغلالكم فقط».

فقلت له: «خالد لا يوجد من يستطيع استغلالنا، تأكّد من ذلك».

فقال: «لم أقصد الإساءة إليكم أستاذ أنور».

هدأنا الوضع بعض الشيء، وأكملنا حديثنا، وقد وعدهم العقيد عبدالله الطاهر بأن نجتمع مع المحافظ اللواء السابق غسان عبدالعال مباشرة بعد مغادرتنا بابا عمرو، وسوف ننقل كل ما توصلنا إليه بوضوح وصراحة.

أنهينا اللقاء مع الجيش الحرّ، وسلمنا على الضباط ثم رحنا نودعهم على أمل لقاء آخر في ظروف أحسن وأفضل مما عليه الوضع. وأذكر أن الملازم أول مهند الخطيب (أبوبكر) أخذني جانبًا، وقال لي: «يا أستاذ، أنتم تضيعون وقتكم ووقتنا، هؤلاء القوم لا حلّ معهم إلا السلاح والرصاص».

فقلت له: «لكن ذلك سيكلف الشعب والبلاد الكثير من الدماء والخراب».

فقال: «التكلفة سندفعها بالحوار أو بالسلاح، فالنظام غادر ومجرم ولا أمان له، وسينتقم منا جميعًا».

وأنا أهمّ بالمغادرة قال لي أبوبكر بعيون دامعة ومسحة من الحزن العميق اجتاحت ملامحه: «سأستشهد، وألقاك يوم القيامة عند الله تعالى، ولن أسامحك إن ظلمت هؤلاء المساكين الذين يقتلهم النظام الأسدي المجرم».

أحسست أن أقدامي عجزت عن حملي، فكلماته نفذت إلى أعماقي مباشرة، وهزّت وجداني من جراء ذلك الحمل الثقيل الذي رماه على عاتقي في لحظة بدت لي أنها بلغت منتهى الصدق، لذلك قلت له: «تأكد أنني لن أخون ضميري وسأقف مع الحق، ولو يكون الثمن حياتي».

استأذنتهم في الدخول إلى الحمام، فقد عاودني الألم مرة أخرى، والأمر نفسه لبعض المراقبين الذين كانوا معنا، فلبّوا الطلب فورًا ومررنا تباعًا.

تسلّل لسمعي، ونحن نهمّ بالمغادرة أن المراقب العراقي صلاح سعيد يكلّم أحدهم بهاتفه الدولي الذي لم يغير شريحته، وأخبره بأننا مع الضباط المنشقّين في بابا عمرو، فاقتربت منه، وقلت له هامسًا: «لا تتكلم بهذا الكلام الخطير، فالهواتف تحت المراقبة، وقد يعرفون مكاننا، ويقصفوننا جميعًا».

قال: «شريحتي عراقية، وأنا أتكلم مع زوجتي».

قلت له: «ما يجب أن تخبر زوجتك بمكاننا، احترس في مثل هذه الأمور، فالوضع كما ترى معقد للغاية، وقد نتعرض لمكروه».

فسألني: «هل تعتقد أن طلاس وجماعته يقيمون بهذا البيت؟».

حيّرنـي سـؤاله، ولكن أجبته: «لا أظن ذلك ومن الغبـاء أن يأخذونا للبيت الذي يقيمون فيه»[١].

ودّعنـا ضـباط الجيش الحـرّ، وتوجه بنا خالد أبوصـلاح نحـو بيت أحد الناشـطين، وأمام كاميرات نشـطاء المكتـب الإعلامي الذين يحرصـون على توثيق كل شـيء، تمّ تسـليمنا دفترًا به أسـماء المعتقلين الذين يتجاوز عددهم ٢٠٠٠ شـخص، حيـث سـجلت بطريقـة منظمـة الأسـماء الثلاثيـة للمعتقلين والصـور الشمسـية للكثيرين منهم، وتمنّوا من البعثة أن تعمل كل ما في وسعها من أجل إطلاق سـراحهم وعودتهم لذويهم الذيـن يعانون الأمرَّين من أجلهم. وقد قام الناشط أبوصـلاح بتسليم الدفتر إلى العقيد عبدالله الطاهر مباشرة أمام عدسات الكاميرات.

غادر مراقبون نحو فندق السـفير، أما أنا برفقـة العقيد عبدالله الطاهر والمراقب العراقي صلاح سعيد فقد توجهنا مباشرة إلى مبنى المحافظة للقاء مع المحافظ غسّان عبدالعال بمكتبه؛ كي نناقش معه ما تحدثنا فيه مع ضباط الجيشـ الحـرّ. وفي الطريق عبّر لنا صـلاح سـعيد عن مدى تذمّـره من هؤلاء (الضباط الفارّين من الجيش العربي السوري) وقال بالحرف الواحد: إنه يبدو عليهم الإجرام والإرهاب ولا أمان لهم. وذهب أبعد من ذلك لما اتهمهم بالكذب والتلفيـق والغـرور، وأنهم يقتلـون المواطنيـن ويختطفونهم وينكّلون بالنسـاء، فسـألته عن أدلته التي من خلالها حكم عليهم بتلك الأحكام القاسية والجائرة كمـا بدت لي حينها، فأرجع ذلك إلى إحساسـه الذي لا يخيب وتجربته العميقة فـي العـراق؛ لذلك قلت له: إن عملنـا في البعثة يجب ألا يبنى على الأحاسـيس والمشاعر، بل على المعطيات والبراهين والأدلة فقط.

---

(١) في الحملة الأخيرة التي اسـتهدفت بابا عمرو بعد مغادرة المراقبين مباشـرة، كان ذلك البيت أول ما تم قصفه ونسفه بصواريخ عدة، وهو ما أكده لي ناشطون ميدانيون من الحيّ.

وصلنا إلى مبنى المحافظة، حيث وجدنا اللواء السابق غسان عبد العال في انتظارنا بمكتبه، فقام العقيد عبد الله الطاهر بطرح كل ما قاله الضبّاط بخصوص الهدنة، غير أنه فاجأنا بقراره القاضي بعدم التحاور أو التحدّث مع هؤلاء؛ لأنهم كما وصفهم (قتلة)، وأنه يرفض أي هدنة مع مجرمين وقطّاع طرق وإرهابيين وهاربين من القانون على حدّ وصفه، وقال: «لا يمكن الخضوع لهم بإبعاد الجيش والأمن حتى يتمكّنوا من السيطرة على الوضع، وتتاح لهم فرصة لاقتراف جرائمهم».

طلب منا المحافظ أن ننقل للضباط دعوته - وهي فرصتهم الأخيرة - بأن يسلّموا أنفسهم وأسلحتهم للقضاء، وسوف يقف معهم، ويساعدهم على نيل أحكام مخففة وربما يصدر عفو عنهم لاحقًا إذا أظهروا حسن النيات والتوبة، حينها قلت له: «ليس دورنا هذا سيادة المحافظ، فأنت تعرف جيدًا البروتوكول وما فيه، ولو ننقل ذلك سنحسب عليكم، وهذا في غير مصلحتنا، أما عدم سحب الجيش فهو شأنكم، وسوف نسجّله في تقاريرنا، وينتهي الأمر».

فردّ: «لا يمكن أن نضحّي بأمن البلد لأجل تقرير أي جهة مهما كانت، أنتم هنا ورأيتم المسلحين بأنفسكم، وهذا يجب أن توثّقوه للجامعة العربية؛ حتى يعلم إخواننا أن سوريا تواجه إرهابًا منظمًا ومع الأسف تورطت فيه بعض الدول الصديقة والجارة».

لم يعجبني مطلقًا كلام المحافظ وعدم استعداده لأي هدنة، ووجدت أن ما قاله الضباط عن عدم استعداد النظام لأي حلّ سوى تصفيتهم، هو صحيح إلى أن أكّده اللواء السابق غسان عبد العال بكلامه ورفضه للتجاوب مع أي حوار معهم، سكتّ على مضض من دون أن أبدي أي تعليق سوى ما ذكرت، في حين تحدث المراقب العراقي صلاح سعيد عن هؤلاء الضباط، وراح يسيء إليهم

على الطريقة نفسها التي سبق ذكرها، ولاحظت مدى الانبساط الذي ظهر على ملامح المحافظ وهو يستمع إلى مراقب محايد، وهو يحلب في إنائه بتلك الطريقة، وهذا بدوره لم يعجبني لذلك سارعت في التحدث مع العقيد عبدالله الطاهر بضرورة المغادرة أفضل؛ حتى لا تصل الأمور إلى أشياء أخرى، فاستجاب من دون تردّد، وخاصة أن المحافظ أيضًا لديه التزامات.

فاجأني المحافظ، وهو يودعنا بالقول: «لقد استجبنا لطلبك فيما يخص القنوات الفضائية».

تعجبت من كلامه، وقلت له: «لم تطلق أي قناة».

قال: «غريبة لقد أكدوا لي أنهم أطلقوا لكم قنوات جديدة».

فقلت له: «هناك قناة جديدة فعلًا، وهي الفضائية الجزائرية الثالثة مع قنوات رقص وغناء وأشياء أخرى تظهر، وتختفي أحيانًا».

قال: «أليس هذا طلبك؟!».

قلت له: «نحن قلنا: الجزيرة والعربية والقنوات الأخرى».

وهو يضع كفه على جبهته قال: «اعتقدت أنك حدثتني عن القنوات الجزائرية؛ كي تتابع أخبار بلدك».

فقلت له: «نحن لا نزال فيها ننتظر القنوات التي ذكرتها لك».

وهو يصافحني قال: «سأنظر في الأمر».

ضحكت مما يجري، وكأنني أطلب منه أشياء ممنوعة تقتضي كل هذه المفاوضات والنظر، على الرغم من أن البروتوكول الذي وقعته الحكومة مع الأمانة العامة للجامعة العربية يفرض في أحد بنوده وجود الإعلام المستقل مع

المراقبين في عملهم الميداني، لذلك قلت له: «سـيادة المحافظ، الإعلام من بنود البروتوكول، ويبدو أنه لا يمكننا أن نراه حتى عبر الشاشة».

غادرنـا مكتب المحافظ في اتجاه مقرّ إقامتنا في فندق السـفير، وعبرت للمراقب العراقي صـلاح سـعيد عن انزعاجي مـن كلامه، وأخبرتـه أننا بعثة مسـتقلة ويجب ألا ننتقـد أي طرف إلا إذا تعلق الأمـر بمهمتنا فقط، أما تقييم الناس وسياسـتهم وشـأنهم الداخلي فهو لا يتماشـى مع بعثة الجامعة العربية، وأظهـر انزعاجه منـي ورفض التدخّل فـي طريقة كلامه وخصوصـياته، وكاد الأمر يتطور بيننا لولا تدخل العقيد عبدالله الطاهر الذي هدأ الأمر.

فـي تلك الأثناء، ونحن في طريقنا اتصـل بي الناشـط الميداني أبوبري، وأخبرني بأمر قنص المواطن مهاب المصري في حاجز المعهد، فأخبرته بأننا علمنا بذلك من قبل، ليضـيف أيضًـا أنهم تسـلّموا جثـة المواطن خالد محمد سـويد، وهي مقلوعـة العينين من جـرّاء التعذيـب وكلتا الجثتين في المشـفى الميدانـي، فقلـت لـه: إننا سـوف ننتقـل إليهـم للمعاينة؛ حتى نثبـت ذلك في التقريـر، وبمجـرّد أن أغلقت الخـط عاتبني العقيد عبـدالله الطاهر على هذا الوعد من دون الرجوع إليه بصفته رئيس الفوج، فقلت له: «أمر طبيعي أن ننتقل لمعاينة جثّة شخص تعرّض للقنص هذا اليوم، وهو داخل في صميم مهمتنا».

كان ردّه: «لا نسـتطيع أن نذهب إلى أيّ مـكان إلا بإذن من المحافظ، وأنا منذ قليل ذكرت له أن عملنا اليومي انتهى».

فقلـت لـه: «نحن ليسـ لنا وقت لبدايـة العمـل أو نهايته، فكلمـا نرى من الضروري أن نخرج نفعل ذلك ومن دون العودة إلى أي كان».

ظل صلاح سعيد ملتزمًا الصمت بسبب الغضب مما قلته له، إلا أن العقيد عبدالله طلب مني ناصـحًا ألا أندفع كثيرًا في العمل؛ حتى لا أتعرض إلى انتقام

ما من جهة ما، فالمعارضة مسلحة، ولا تريدنا إلا كما تشتهي، أما النظام فلن يسمح لأي أحد كان أن يشوّش عليه مخططاته، وصراحة وجدت حينها بعض الموضوعية في كلامه. وتأكّد لي أن مهمة المراقبة لا يمكن أن تمضي بعيدًا في ظل خوف المراقب على حياته من ردّ فعل سيئ مثل الذي أشار إليه العقيد عبدالله.

وصلنا الفندق، فسارعت نحو غرفتي لأتصل بالشيخ أبوبري، واعتذرت له بأنه لا يمكننا زيارة المشفى الميداني، وحاول أن يعرف مني السبب إلا أنني فضلت عدم التحدث إليه بأي شيء سوى أن الظروف الحالية لا تسمح لنا بمغادرة محلّ إقامتنا.

واتصلت بي السيدة إبتسام والدة المخرجة ريم الغزّي التي اعتقلت في ٢٠١١/١١/٢٦ ولا تزال في سجن العدرا بدمشق، وقد سبق أن حدّثت وزير الداخلية محمد الشعار والعماد آصف شوكت عنها.

المؤلف يتوسط ضباط الجيش الحر ويظهر كل من الملازم الاول محمد أبوالسل والملازم أول عبدالرزاق طلاس والملازم أول وليد العبدالله والنقيب فدعوس ٢٠١٢/٠١/٠٤

المؤلف يتوسط كلًا من الملازم أول محمد أبوالسل والملازم أول عبدالرزاق طلاس
والملازم أول وليد العبدالله والنقيب فدعوس ٢٠١٢/٠١/٠٤

جانب من اجتماع المراقبين مع ضباط الجيش الحر ٢٠١٢/٠١/٠٤

لحظة استلام دفتر به قوائم المعتقلين ٢٠١٢/٠١/٠٤

٤٥

تحرش نسوي وفياغرا في طعام المراقبين

نزلـت إلى المطعم لتناول وجبة الغداء، فوجـدت بعض الموظفين في بهو الاستقبال، وكان برفقتهم أفراد من المراقبين، وقد راحت السيدة علا تحدثنا عن أمورنا، وما ينقصنا وحاجتنا إلى رصيد بهواتفنا المحمولة كما ظلت دائمًا تفعل، حيث نعطيها المبلغ الذي نريد، وهي تطلب ذلك من جهة خاصة تعرفها، فتقوم بتعبئة رصيدنا.

وكان بعض الموظفين بالمحافظة يريدون أن يعبئوا لنا الأرصـدة من دون أن ندفع، غير أنني رفضـت ذلك رفضًـا قاطعًا، وكان بعض المراقبين من يعبأ لهـم بمبالـغ كبيرة، ولم أَرَهم يومًـا قد دفعوا ليرة واحـدة، ولا أعرف هل ذلك يدخل في إطار الرشوة أو شيء آخر لا أعلمه.

كنـت أتحدث مع العقيد عبدالله الطاهر عـن المخرجة ريم الغزّي، وكان بيننا أحد الضباط من الحماية، وفي سياق الحديث ذكرت المذيعة لونا الشبل، فسألني الضابط:

«هل تعرف السيدة لونا الشبل؟».

قلت له: «أعرفها كانت مذيعة سابقة في الجزيرة، ثم استقالت».

فقال لي: «هل تعلم ماذا تشتغل الآن؟».

قلـت له: «الـذي أعطاني هاتفها أخبرنـي أنها تعيش متـرددة بين بيروت ودمشق، ولم يخبرني بشغلها».

فقال لي: «هي حاليًا المستشارة الإعلامية لسيادة الرئيس».

لما سمعت كلامه الذي فاجأني كثيرًا، قلت له: «هل أنت متأكد؟».

أجاب: «نعم، متأكد جدًّا كما أراك أمامي الآن».

ثم استدار نحو علا التي تقف غير بعيدة منا، وطلبها للتحدث، فاقتربت منا، ولما سألها عن لونا الشبل، أجابت بالجواب نفسه، فتعجبت حينها عن طبيعة العلاقة التي تربط مستشارة إعلامية للرئيس بشار الأسد مع معارض بحجم هيثم مناع، وزادت حيرتي أكثر أن هذا الأخير لم يخبرني بعملها الحقيقي.

لم أهتمّ كثيرًا بالأمر، فقد ظهر واضحًا من خلال مواقف الدكتور هيثم مناع والاتهامات الكثيرة التي توجه له. تناولت وجبة الغداء حسبما أتيح لي، فقد صرت أتفادى بعض الأكلات خوفًا من تداعياتها على معدتي التي تعاني إسهالاً متقلّبًا. شاهدت في تلك الأثناء كثرة البنات على غير العادة، ولما سألت عنهن أخبروني بأنهن ناشطات فيما يسمى (المرصد السوري لضحايا العنف والإرهاب) وبينهن أيضًا صحفيات ومراسلات لصحف وقنوات حكومية.

جلست بعض الشيء في صالون الاستقبال لأبحر بقدر المتاح في الإنترنت؛ علّني أجد أخبارًا جديرة بالاهتمام، وقد لاحظت فتيات أخريات يجلسن في كافتيريا داخل الفندق، ورحن يظهرن مفاتنهن، ويقمن بإشارات لإغراء بعض المراقبين الذين كانوا يجلسون غير بعيد منهن.

أحسست أن الأمور في تطور غريب ومتسارع نحو أفق سيئ وصل إلى حد فتح الفندق لبغايا يتحرشن علنًا بالمراقبين عبر لباسهن الفاضح والزينة التي يتحلين بها، ورأيت أنهن أرسلن خصيصًا ربما لتوريط البعثة في أمور غير

أخلاقية ستستغلّ لاحقًا ضدهم، وكنت متأكدًا أنهن تلقين موافقة من جهات عليا، فلا يمكن لأي أحد كان أن يدخل الفندق دون ضوء أخضر، فضلاً عن أن يقيم مع المراقبين العرب ووزير الداخلية والعماد آصف شوكت.

لأتفادى تلك المواقف السيئة غادرت نحو غرفتي لأرتاح قليلاً، وأتابع القنوات التلفزيونية أفضل من تلك المشاهد القذرة. بقيت أتلقّى الكثير من المكالمات الهاتفية من أشخاص أخبروني بأنهم مواطنون سوريون بينهم من يقيمون في الداخل وآخرون في الخارج، وقد قام ناشطون بنشر أرقام هواتف بعض المراقبين على صفحات الثورة السورية، وقد تلقيت بسبب ذلك آلاف المكالمات من أنحاء العالم شتى، وكلها تطالب بمعرفة مصير معتقلين أو تبليغنا بمعلومات مهمة عن تحركات الجيش وسلطات الأمن والشبّيحة.

لما حان وقت وجبة العشاء خرجت من غرفتي، فبمجرد أن فتحت الباب إذا بباب الغرفة المقابلة يفتح كأن من فيها يترصّد لي، وكانت به فتاة بلباس نومها الشفاف، وقد ابتسمت لي، وهمّت بالتحدّث لي غير أنني غادرتها من دون أن أتكلم معها أو أعطيها فرصة، وأنا في اتجاه المصعد الذي لا يبتعد كثيرًا عن غرفتي، سمعتها تدعوني إلى سهرة ساخنة إن كنت في حاجة إلى ذلك، وراحت تتحدث بكلام لا يمكن أن نرويه في هذا المقام الطيب.

نزلت إلى بهو الاستقبال، وقد وجدت المراقب العراقي صلاح سعيد، وهو يجلس مع فتيات، وفي الحانة المقابلة مراقبون آخرون يحتسون الخمور مع بنات ممن يسمى (المرصد السوري لضحايا العنف والإرهاب). تيقّنت حينها أن الأمور تجاوزت مداها، وانحرفت أكثر من اللازم، وخصوصًا أن البنات في قمة الإغراء والعري، ولا يمكن أن تكون العلاقة تقتصر على حديث عابر مادامت الأمور وصلت إلى احتساء الخمور بمختلف أنواعها.

فـــي أثنـــاء تناول وجبة العشـــاء التي لم نكـــن نعرف أنه قد دســـت لنا فيها أمور جديدة ظهرت أعراضـها لاحقًا، أخبرني العقيد عبدالله الطاهر أنه اتفق مع المحافظ غســان عبدالعال على أن نزور غدًا مقرّ الأمن السياســي، ونلتقي المســاجين، ونعاين الأوضاع فيه، فوافقته على الأمر حتى لا يقتصر عملنا على الأحياء الســاخنة، وســألته عن قوائم المســاجين، فأكد لي أنها صارت بحوزة المحافظ ووعده بالردّ قريبًا.

٤٦

مراقب يعقد زواج المتعة في الفندق

بعـد وجبة العشـاء توجهت نحو غرفتـي بالطابق الرابع؛ لأننـي لم أحتمل رؤية تلك المشـاهد غيـر الأخلاقية التي غرق فيها بعض المراقبين، فبدل أن نسهر على مهمة جسيمة غرقت السفينة في مستنقعات لم أتوقعها مطلقًا. ولما خرجت من المصعد لفت انتباهي المراقب العراقي الموسوي، وهو يقبّل إحدى الفتيات من فريق ما يسـمّى (المرصد السوري لضحايا العنف والإرهاب) أمام بـاب غرفتها، ويبدو أنـه كان عندها، فوقفت مشـدوهًا ومصـدومًا، ولما انتبه لوجودي تركها وتوجه نحوي حيث كنت أقف قبالة المصعد.

لما وصل عندي سلم، فسألته: (ماذا يحدث أيها المراقب؟).

أجاب: «لا شيء».

قلت له: «ما علاقتك بهذه الفتاة؟».

ردّ بلهجة من يريد أن يدفع التهمة عن نفسه: «لا داعي أن تذهب بخاطرك بعيدًا».

فقلت له: «رأيتك تقبّلها».

ردّ: «قبّلتها بصـفتها صديقة، وأنت تعيش في أوروبا، وتعرف كيفية التحيّة مع النساء».

قلت له غاضبًا: «هذه ليست قبلة التحية على الخدود، ما رأيته قبلات العشّاق».

كأنه يريد أن ينهي الحوار الذي يدور بيننا: «كل واحد حرّ في نفسه».

قلت له: «أنت حرّ في نفسك، لكن عليك نزع لباس المراقبين، وقدم استقالتك من البعثة، وافعل ما يحلو لك، بهذه الطريقة أنت تسيء لنا جميعًا».

قال: «أقول لك بكل صراحة: إن علاقتي بها شرعية، ولا توجد أي إساءة».

متعجّبًا: «كيف شرعية؟».

أجاب: «تزوجتها منذ يومين».

كنت أعرف أن هذا المراقب العراقي من الطائفة الشيعية، والزواج الذي يقصده هو ما يسمّى عندهم بالمتعة، ولكن أردت أن أستدرجه لحديث أعمق، لذلك قلت له: «لم نشهد زفافًا، ولا أي شيء، فعن أي زواج تتحدّث؟».

قال: «تزوجتها متعة».

فقلت له: «هذا الأمر مباح عند الشيعة، وسبق أن قلت لي: إنك سنّي».

فقال: «بل مباح عند السنّة أيضًا، فأنت فقط لا تعرف الدين».

قلت له: «أعطني دليلًا واحدًا من كتب أهل السنّة والجماعة يثبت أن المتعة حلال، وسأستمتع من الآن».

أومأ برأسه، وأضاف: «لست رجل فقه، أنا رجل مخابرات، فاسأل العلماء، وليس أنا».

سألته: «لماذا تستمتع؟».

أجاب: «لا أستطيع أن أبقى دون امرأة، وأنا بعيد عن زوجتي».

قلت له: «إذًا زوجتك أيضًا ستمارس المتعة مادمت بعيدًا عنها».

فانتفض، وتجهمت ملامحه، وغزاه غضب جامح، وردّ: «كيف تهينني بهذا الكلام، فزوجتي تحبّني، ولا يمكن أن تكون مع رجل غريب».

قلت له: «أنا لا أهينك، لكن بنيت على كلامك الذي قلته».

قال، وهو يرفع سبابته كأنه يحذّرني: «بل هذه إهانة».

ضحكت سخرية منه، وقلت: «هل زواج المتعة إهانة، وفي كتب الشيعة الكثير من النصوص تحثّ عليه، وتجعل فيه البركة الكبيرة؟».

ردّ: «هذا صحيح، ولكن ذكرك لزوجتي إهانة».

قلت له: «هذا ليس بالعيب في الحياة الأوروبية التي تقلّدها، وأيضًا ماذا قلت عنها يا رجل؟».

قال: «قلت إنها تستمتع».

فقلت: «نعم، قلت ذلك؛ لأنك بررت متعتك ببعدك عن أهلك، والمتعة من حق الذكر والأنثى».

قال محذّرًا: «لن أسمح لك مرّة أخرى أن تتدخل في شأني، فأنت مراقب مثلي، وكل واحد حرّ في تصرفاته».

فقلت له: «ليس كذلك، فنحن في سفينة واحدة، وكل تصرف من أيّ مراقب يسيء لنا جميعًا».

ثم عدت: «دعنا من ذلك خلينا في موضوع المتعة».

قال: «أنا حرّ أستمتع مع من أريد».

قلت له: «مادامت المتعة حلالًا سأدعو بالمتعة لك ولزوجتك وبناتك وأخواتك، وحتى والدتك».

قال بلهجة رجل لو كان بين يديه سكين لذبحني به: «أنت مستمر في الإهانة».

في تلك اللحظة أحسست بغضب من تحذيراته، وهو يرفع إصبعه في وجهي، فقلت له: «تحدّث بهدوء، ولا داعي أن ترفع صوتك في وجهي، وما تقوم به جريمة في حقّنا جميعًا بوصفنا مراقبين، ولن أصمت عليها، وإذا لم تتوقف عن الأمر من الآن سأفضحك لدى رئيس البعثة والجامعة العربية».

وهو يغادرني قال: «لا يهمّني أي أحد».

فقلت له: «سنرى إذا فعلتها مرّة أخرى».

٤٧

في زنازين الأمن السياسي

قضيت ليلتي، وأنا أفكّر في الحال الذي آلت إليه أمور البعثة، فعلى مستوى العمل قد انحرفت نهائيًّا عن البروتوكول، وأدخلتها الحكومة في متاهات أخرى تريد الاستفادة منها وصلت إلى حدّ متابعة هواتفنا واختراقنا. وعلى المستوى الأخلاقي غرقت فيما يندى له الجبين من علاقات مع بغايا أرسلن خصيصًا لتوريط المراقبين، وخاصّة أنني كنت على يقين بوجود كاميرات سريّة في الغرف والأروقة والمطعم والمقاهي والحانات، وإن كنت فشلت في العثور عليها بغرفتي نظرًا لصعوبة ذلك؛ إذ الكاميرات تكون صغيرة الحجم جدًّا لا يقدر أي أحد كان على الوصول إليها.

اتصلت ببعض المراقبين في كل من درعا وحماة وإدلب وريف دمشق، ووجدت أيضًا أن التذمر بلغ مداه مما يجري من عمل خارج نطاق المهمة الحقيقية، وأدركت أن الوضع لا يختلف كثيرًا عما عليه أمرنا في حمص، وتأكدت مما لا يدع مجالًا للشكّ أن البعثة تاهت في سراديب النظام، وأن السبب يعود أساسًا إلى رئيسها الفريق أول الركن محمد أحمد مصطفى الدابي، الذي صار لا يتقيّد بالبروتوكول، ويوافق على كل ما يطلب منه، ولو يكون غير قانوني، ويعود بالسوء على البعثة، وفكرت جدّيًّا أن أتصل بالجامعة العربية، وأتحدث مباشرة مع الأمين العام نبيل العربي.

كالعادة مرّت الليلة على وقع أصوات الرصاص والتفجيرات والقذائف التي أحيانًا نحسّ بسقوطها غير بعيدة من الفندق، حتى أشعر بالسرير، وهو يتحرّك

ويهتـزّ في مكانه، بسـبب قوة التفجير الذي يزعزع حمص برمّتها. وأيضًـا ظلّ أمر الإسهال يفسد عليّ نومي على الرغم من الأدوية المختلفة التي أحوز عليها.

نزلت في الصـباح إلـى المطعم كعادتي؛ كـي أتناول وجبـة الفطور، وقد وجـدت بعض المراقبيـن ومن بينهم العميـد المغربي محمـد كرماني والعقيد عبدالله الطاهر والعراقي محمد حســن الموسوي، هذا الأخير الذي بمجرّد أن رآنــي من بعيد غادر نحــو جهة أخرى لتفادي التحدّث معــي بعد الذي دار بيننا بسبب ما سماه (زواج المتعة).

كما هو يجري دائمًا بعد الإفطار عدت لغرفتي، وجهزت نفسي، وفي حدود التاسـعة من صباح يوم الخميس ٢٠١٢/٠١/٠٥ تجمعنا في بهو الاستقبال على أساس الانطلاق نحو مبنى الأمن السياسي، فقد كان موعدنا مع المسؤولين فيه نحو التاسـعة والنصـف، غير أن التأخر هو سـيّد الموقف بسبب الحراسة التي ظل رئيسـهم العقيد صفوان يتعلّل بالأسـباب الأمنية التي أجبرتهم على تأخير الانطلاق، على الرغم من أن مبنى الأمن السياسي يقع في الكورنيش في الجهة الخلفية من شــارع البرازيل، ولا يكلفنا الوصــول إليــه إلا دقائق معدودة، وحتى العقيد عبدالله الطاهر اتصـل مرات عدة بالمحافظ غسان عبدالعال، فأخبره أن التأخيــر يرجع لإجراءات أمنية وفي إطار الحفاظ على ســلامة المراقبين، فهنــاك تخوّفات جدّية من اسـتهدافنا بقذائف من بعيد، بــل أخبره بأن ما كنا نسمعه طول الليل كان بسبب هجوم وصفه بالإرهابي على الأحياء الموالية.

انطلقنا على السـاعة الحادية عشـرة في اتجاه الأمن السياسـي، وخلال دقائق معدودة كنّا قبالة مبنى المقرّ الذي كان محصّنًا ببراميل ضخمة ومتاريس فــي كل زوايــاه والطريق الــذي أمامه مقطــوع نهائيًّا على المارة بالســيارات أو الراجلين، ولا يجتازه سوى التابعين لهم، ووجدنا رئيس الأمن السياسي العميد حسام لوقا في انتظارنا أمام الباب.

كان الاستقبال حارًّا من قبل رئيس الأمن السياسي وهيئة أركانه، وتوجّه بنا مباشرة إلى مكتبه الوثير الموجود في الطابق الثاني من البناية، حيث راح يقدّم لنا الحلويات المختلفة والكثيرة جدًّا وشتى أنواع العصائر، وقد كنت حينها متلهفًا لزيارة الزنازين، فأنا أعرف أساليب الأجهزة الأمنية في التعامل مع المنظمات الحقوقية والإنسانية حين تزورهم، حيث يتمّ تهريب المعتقلين المتضرّرين إلى أماكن خفية ومجهولة، ويضعون بدلهم العناصر الأمنية من حراس وضباط وجلادين على أساس أنهم مساجين ليعطوا الصورة الخاطئة والمزيّفة عن الوضع الحقيقي.

استمعنا للعميد لوقا، وهو يتحدث عمن سماهم شهداء الأمن السياسي الذين تزين جدار الرواق المؤدي لمكتبه بصورهم، واسترسل فيما تقوم به الجماعات المسلحة التي يصفها بالإرهابية من جرائم ضد الجيش وقوات الأمن والمدنيين، كان ذهني يفكر في الطريقة التي سوف يتمّ التلاعب بنا عند دخولنا الزنازين، بل كنت على يقين بحدوث ذلك.

وسألناه عن التعذيب الذي تتحدث التقارير عنه كثيرًا، وتناقلت الفضائيات والإنترنت صورًا مأسوية عن أشخاص تعرضوا لتعذيب بشع في مقرات الأمن السياسي، فأنكر تمامًا وجوده ولا يسمح أبدًا باستعمال العنف ولو يبلغه خبر أي تجاوز من أعوان الأمن سيتخذون كل الإجراءات القانونية تجاههم، بل ذهب إلى أن المعتقلين عنده تقدم لهم وجبات كأنهم في فنادق خمس نجوم، وطبعًا لم أصدّق ما أسمعه، فهي أسطوانة مشروخة ترددها كل الأجهزة الأمنية وإدارات السجون في العالم العربي على الرغم من أن ما يحدث في الدهاليز لا يخطر على عقل بشر. وأكثر أنه في تلك الأثناء التي يتحدث فيها العميد لوقا عاد لمخيلتي ما سمعته في برنامج (الاتجاه المعاكس) لما تناظرت مع اللواء

المصري فؤاد علام بتاريخ ٢٠٠٩/٠٩/٠٩، لما وصف سجون العالم العربي بفنادق ذات النجوم الخمسة.

وسألت العميد عن فروع الأمن السياسي الموجودة في حمص، فنفى بشدّة تمامًا وجود أي فرع، حتى ذلك الذي يتمركز في ملعب الباسل بمحاذاة بابا عمرو، فقد أنكر تمامًا وجوده، على الرغم من أنني وقفت على آثارهم بداية عملنا في حمص، وكنت برفقة رئيس البعثة الفريق أول الركن محمد أحمد مصطفى الدابي والمقدم بوتوت عاشور والسيدة إلهام الشجني.

طال بنا الأمر، ونحن مع الشاي والعصائر والحلويات بمختلف أنواعها، التي وزعها علينا موظفون بالتداول، لذلك تحدثت مع العميد لوقا على ضرورة أن ننزل للزنازين، ونزور المعتقلين القابعين عندهم، إلا أنه طلب منّا أن نعطيهم الفرصة كي يكرمونا بما يليق بمقام بعثة الجامعة العربية، فأكدت له أن التكريم ننتظره بعدما تخرج سوريا من أزمتها، وتتعافى مما تغرق فيه من مستنقعات.

بعد أكثر من ساعة جاء الإيعاز بموعد التحرّك نحو الزنازين عبر الهاتف، حيث تلقّى العميد اتصالًا لم يرد على ما سمعه من المتحدث إلا بكلمة «نعم» وقطع الخط، وبعد دقيقتين طلب منا أن ننزل للزنازين، وهو ما قمنا به فورًا، وكنت على يقين أن المكالمة الهاتفية جاءت من أحد الضباط الذين كانوا يحضرون الأمور وفق ما يريدون أن نرى واقع المعتقلين في الأمن السياسي الذي سمعته سيئة جدًّا في العالم الحقوقي العربي والدولي، حيث كنت أعرف مسبقًا أنه من أقذر أوكار التعذيب، وترتكب فيه شتى الانتهاكات والجرائم التي تقترف في حق الإنسان.

نزلنا عبر أدراج صعدنا منها عند دخولنا مكتب العميد، وبعد وصولنا إلى الطابق الأرضي شرعنا في النزول نحو قبو حتى وصلنا للطابق الثالث منه

تحت الأرض. كانت كاميرات قناة (الدنيا) و(الإخبارية السورية) والقناة (السورية) برفقتنا تقوم بتصويرنا، ونحن نتّجه نحو القبو الذي تُوجد به الزنازين، غير أنه بمجرد وصولنا إلى الطابق المحدّد وقف أحد الضباط، وقام بإخراج المصورين، ولم يسمح لهم بتصوير الزنازين من الخارج أو الوصول إلى المعتقلين، حيث ترجاهم بأن الأمر يتعلق بالقانون وحق المساجين الذين يرفضون التشهير بهم على حدّ قوله.

في المكان الذي وصلنا إليه توجد به زنزانتان فقط: واحدة على اليمين قبالة المدرجات مباشرة والأخرى على اليسار. الأبواب التي فتحت لنا حتى وصلنا إليهما كلها سوداء اللون، تثير الرعب في النفوس، وخاصة مع ذلك الضوء الخافت الذي حوّل القبو إلى قبر يدفن فيه الناس أحياء. وجدنا نحو سبعة من عناصر الأمن ينتظروننا إلى جانب الذين رافقونا وبينهم موظفون من المحافظة، فتحت لنا الزنزانة الأولى، فوجدت فيها نحو خمسين سجينًا يجلسون على شكل دائري مستندة ظهورهم جميعًا إلى حيطان الزنزانة، الأفرشة تظهر حديثة ونظيفة وتمّ تغييرها على ما يبدو قبل وصولنا بلحظات.. دخلت أنا الأول وخلفي البقية من الزملاء ومن معنا، حيث سلمت عليهم، فردّوا جميعًا السلام كأولئك الذين لقنوا كل شيء، حتى درجة مستوى رفع الأصوات، فسألتهم قائلًا: «هل أنتم بخير؟».

أجابوني بلسان واحد ذكّرني بأيام طفولتي في المدارس الابتدائية، حين يلقننا المعلم شيئًا، ونبقى نردّده معًا كلما جاء الإيعاز بذلك: «نحن بخير ولا ينقصنا أي شيء أبدًا».

مباشرة استدرت نحو العميد لوقا الذي كان يقف على يساري، وهمست له ضاحكًا قائلًا: «إذا دخلت على مجموعة، وسألتهم سؤالًا، وكان جوابهم نفسه وفي اللحظة نفسها ويضاف له ما لم يسألوا عنه، فتأكد أن الجواب أمروا به مسبقًا من جهة أخرى محدّدة».

هـزّ رأسـه، ونظر إليّ، وقال: «هم أمامكم، فتحدثـوا معهم كما تريدون لا شيء عندي أخفيه».

ثم سألهم: «هل أكرهتم على شيء من طرفنا؟».

كان الجواب على الطريقة نفسها: «لا، يا سيدي».

وقف المساجين واضعين أيديهم إلى الخلف، ورحت أقترب منهم، وبحكم تجربتي كسجين سياسي سابق في السجون الجزائرية، فأنا أعرف أن المساجين حيـن يكونون في زنزانة أو قاعة واحدة مدة معينة تكون رائحتهم نفسـها، وإذا التحق بهم أيّ وافد جديد فهو يعرف مباشـرة من رائحته المميزة عنهم أو من خلال ملامحه أيضًـا، فقد كنت على يقين أنه يوجد بينهم عناصـر أمنية دسّت خصيصًا لتضليل البعثة ومراقبة ما قد يبوح لنا به هؤلاء المعتقلون، حين يقوم المسؤولون بمسـرحية الخروج، وتركنا وحدنا مع هؤلاء، وهذا الذي يفعلونه في غالبية السجون.

كنت أقترب من السـجين، وأتحدّث إليه في أذنه، وأغتنم الفرصـة لأشـم رائحته، وكل واحد أسأله سؤالين عن حالته وعن التعذيب، فيكون الأول بصوت مرتفع والثاني عن التعذيب بما يشـبه الهمس؛ حتى لا يسـمعه الضـباط الذين يرافقوننـا أو الآخـرون المندسّـون بينهـم، كان المراقبـون الآخـرون يقومون بالتحـدث مـع المعتقليـن، ووقفـت بعض الوقت عنـد أحدهم الـذي يبدو في الخمسين من عمره، وتوجد بقع الدماء على ملابسه، ولما سألته عن ذلك رفض الإجابة، ولكنه همس لي بأنهم سـيذبحونهم لو تحدّثوا لنا بأي شـيء، وذكر لي أنه يدعى محمد أحمد خالد جمعة وله ٥١ يومًا وهو رهن الاعتقال بتهمة تشابه الأسماء مع أحد المطلوبين بتهمة (الإرهاب).

وصـلت لأحد المعتقلين، وشـممت رائحـة غريبة فيه تختلف عـن الآخرين، أدركـت أنه التحق حديثًا بهم، ولما سـألته عن مدة اعتقاله أخبرني بأنها خمسـة

أيـام على ذمّة التحرّي، والغريب أنه حليق اللحيـة، ويختلف عن الآخرين، والأمر نفسه بالنسبة إلى شخص آخر يقف بجانبه، ووجدت شخصًا ثالثًا غير بعيد منهما وفيه عطر نساء على الرغم من أنه أخبرني بوجوده رهن الاعتقال مدة أسبوع.

أدركت حينها أن هؤلاء الثلاثة مدسوسون من طرف قيادة الأمن السياسي، فطلبت من العميد حسام لوقا أن يخرجهم من الزنزانة، وتدخل أحد الضباط، فأراد أن يعرف السبب، فأخبرته بأنني سأتحدث معهم لاحقًا على انفراد، فأمر العميـد أن يأخذوهـم إلى مكتب التحقيق غير البعيد مـن الزنزانة، ثم قلت له: «سيادة العميد، نريد أن يبقى المراقبون وحدهم مع المعتقلين فقط».

فقال دون أدنى تردّد: «لكم ذلك».

أمر الضـباط الآخرين أن يخرجوا معه، وكانوا يلتفتون لبعضـهم بعضًـا، وظهر عليهم الانزعاج من موقفي الذي دعمني فيه بقية المراقبين وخصوصًـا المراقب العراقي صـلاح سـعيد والعقيد عبدالله الطاهـر والمراقب الجيبوتي محمد حسين عمر.

غادروا جميعًا وبقي معنا أحد الموظفين في المحافظة، فطلبت منه أيضًا أن يغادر المكان؛ لأنه لا يبقى سـوى أفـراد البعثة فقط، فنفّذ ما طلب منه دون أدنـى تردّد، ولم يظهر عليه حينها أي انزعاج، ومباشـرة لما أغلق الباب علينا برفقة المسـاجين تحدّثوا جميعًا كأنهم يسـابقون الزمن، وبينهم من شكروني على ما قمت به حتى اكتشـفت أولئك العسـكريين الذين وصـفوهم بالجلادين الذين يمارسـون عليهم أبشـع صور التعذيب الذي أدى إلى احتضار معتقلين تمّ إخفاؤهـم، وأنهـم حذروهم من التحدث بأي أمر، وإن تحدث أحدهم فسـيقتل مباشرة بعد مغادرة المراقبين.

راحوا يشتكون لنا حالهم البائس، ويصرخون بما يملكون من قوة، فبينهم من اعتقل من الشارع، ولا يدري سبب ذلك، وخاصة أحد الشيوخ الذي عمره بلغ السبعين، ويسمى صالح محمد الزعبي، وآخرون أكّدوا لنا أنه يوجد مساجين في ظروف سيئة قد تمّ نقلهم قبل وصولنا، ولا يدرون الوجهة التي أخذوهم إليها. وعلمنا منهم أن الكثير من المعتقلين يقتلون تحت التعذيب وبينهم من أعدموا بالرصاص في الرأس، وهشمت ضلوعهم، ولما سألناهم عن عدد الزنازين لأنه لا يعقل أن ذلك المبنى الكبير فيه زنزانتين فقط، أكدوا لنا وجود زنازين كثيرة تتجاوز العشرة.

كان الموقف محزنًا جدًّا لنا حتى إن أحد المراقبين ذرفت عيناه دمعًا، وخاصة أن الكثيرين منهم بكوا على حالهم، وآخرون راحوا يرجوننا أن نساعدهم كي يفرج عنهم، فقد تركوا أطفالهم من دون طعام ولا شراب ولا خبز ولا دواء ولا مأوى، كما علمنا منهم أنهم يتعرضون لتجويع ممنهج، ولا يقدم لهم في اليوم إلا قطعة خبز يابس مع جرعات من الماء القذر، ولا يسمح لهم بالذهاب إلى الحمام، بل أحيانًا يضطرون إلى قضاء الحاجة بزاوية الزنزانة في ثقب مخصص لذلك؛ حتى يتعذّبوا مع الروائح الكريهة، وأكدوا لنا أن عملية تنظيف كبيرة قاموا بها قبل دخولنا.

أما عن أساليب التعذيب التي يتعرّضون لها فهي الضرب بالعصي على كفوف الأقدام والكهرباء وغطس الرأس في أحواض الماء، ومساجين آخرون يسلخون جلودهم، ويقتلعون لهم أظافرهم ولحمهم بالكلاليب ويقتلعون عيون بعضهم قبل موتهم، وهم يحكون لنا عن الأساليب أحسست أن جسدي يقشعر منه، فأنا بدوري تعرضت للتعذيب في سجون الجزائر مدة من الزمن خلال السنوات التي خلت.

سجّلنا الأسماء والمعلومات الخاصة بكل معتقل، وقد ساهمنا جميعًا في ذلك، وطمأناهم على أننا سنبذل قصارى جهودنا حتى يفرج عنهم قريبًا ويعودوا لأهاليهم من دون أن يتعرضوا لأي ضرر أو مكروه.

غادرناهم، حيث طرقنا باب الزنزانة التي لفتت انتباهي بما كتب عليها، حيث حفر أحدهم اسم بابا عمرو، ففتحوا الباب، ووجدت العميد حسام لوقا ومعه ضباطه ورجال إدارته في انتظارنا، ويبدو عليه القلق بسبب الأصوات التي تسربت إليه، وهو غير بعيد من الباب.

بعدها مباشرة دخلنا الزنزانة الثانية ومن دون أن يرافقنا أيّ أحد منهم عكس ما كان عليه الأمر في الزنزانة الأولى، وقد وجدنا نحو ثلاثين معتقلًا، وقد تأكدت بيني وبين نفسي أن خطة الزجّ بعناصر أمنية بينهم لن تتكرر، بل سيلجؤون لحيلة أخرى، ربما يتم تجنيد أحد المعتقلين مقابل وعد مغرٍ بالإفراج عنه.

على الطريقة نفسها التي مرّت علينا في الزنزانة الأولى غير أنه لم يلفت انتباهي أي شيء، فأحوال المعتقلين سيئة، ويبدو أن الجوع أهلكهم مثلهم مثل زملائهم الآخرين ممن لا يتلقون في اليوم إلا قطعة خبز يابس مع الماء، كما سبقت الإشارة، وكل واحد يخبرني بمدة اعتقاله وتهمته، فهذا قال: إنه متهم بالعصيان المسلح، وآخر موقوف لأنه لا يملك هوية، وذاك بتشابه أسماء، ومظاهرة وتحرٍّ وعنف مسلّح وتحريض على الإرهاب، وإذاعة أخبار كاذبة تهدّد أمن الدولة، وغير ذلك من التهم.

من بين الأسماء التي سجّلتها على ألسنة المعتقلين، ولم تتح لنا فرصة التأكد من صحتها أو رؤية أوراق هويتهم، أذكر كلًّا من: عبد الكريم شحادة، أحمد الكردي، حسين طلال الكردة، صالح جابر، مؤيد عوض خالد، خالد الحسين، زياد محمد، موسى البنش... وغيرهم ممن سجلهم المراقبون الآخرون أيضًا.

وصلت لأحدهم كان يلبس سترة سوداء وملتحيًا، ولما هممت بالتحدث إليه راح يبكي بصوت مرتفع ودموعه تهطل كالودق، حاولت أن أخفف عنه مصابه فأنا أعرف معاناة السجين التي لا يمكن أن يشعر بها إلا من عايشها في الحال نفسه، وتذوق من مرارتها.

راح السجين الذي أخبرني أن اسمه أحمد محمود يحدثني عن ندمه على ما اقترفه في حقّ بلده، حيث كان يتردّد على مواقع الإنترنت، فتأثر بالجهاديين والسلفية الجهادية كما سماها، وصار يحب القاعدة وأفكارها وعقيدتها، ويكفّر الناس، بعدها وجد فرصته فالتحق بـ (تنظيم القاعدة ببلاد الرافدين) حيث قاتل مع (أبومصعب الزرقاوي) وكان يجالسه، ويسمع منه، ولما اندلعت الأزمة في سوريا رجع برفقة مقاتلين آخرين من مختلف الجنسيات بينهم عراقيون وسعوديون وجزائريون وتونسيون وليبيون ومصريون وغيرهم، وقام بعدة عمليات لقنص المتظاهرين واختطاف المدنيين واغتيالات لرجال الأمن والجيش، بل زرع سيارات مفخخة في مناطق عدة، وقد تسبّب في قتل ما يقارب المئة بريء من أبناء بلده كما قال.

كان يتحدث، ويبكي، وراح يعبّر عن ندمه على ما اقترفه في حق وطنه سوريا، وهو يريد أن يكفّر عن ذنبه، ويطلب الصفح من (فخامة بشار الأسد) كما ورد حرفيًّا على لسانه. ناديت على العميد حسام لوقا الذي كان يقف في الرواق، ولم يدخل معنا إلى الزنزانة، فجاء فورًا، ولما وقف بجانبه سألته عن هذا السجين، فأخبرني أنه إرهابي خطير من تنظيم القاعدة وقبض عليه في مواجهة عسكرية ومعه كمية كبيرة من الأسلحة، وسوف نرى بأنفسنا كل شيء حين نكمل عملنا معهم، وقدم لي العميد متهمًا آخر يبدو في العشرينيات، من عمره وقال: إنه كان إرهابيًّا معه أيضًا.

استمعنا لكل المساجين الذين اختلفت رواياتهم وقصصهم ومآسيهم، ثم غادرنا نحو مكتب التحقيق لمعاينته ووجدناه عبارة عن غرفة صغيرة بها مكتب

وجهاز كمبيوتر وخزانة بها ملفات المتهمين، ونادى رئيس الأمن السياسي العميد حسام لوقا على ضابطين، وطلب منهما أن يحضرا العتاد الذي صادروه مع المتهم أحمد محمود ومن معه، والغريب أن إحضار العتاد اقتضى تعاونًا بين عنصرين من رجال الأمن وتم الاتيان بأدلة الاتهام على دفعتين، وكان عبارة عن قطعتين من سلاح كلاشينكوف وهاون ومتفجرات ومولوتوف وذخائر ومواد مختلفة لصناعة المتفجرات وقارورات غازية صغيرة الحجم، وأكياس أخرى مشمعة باللون الأحمر لم نتعرف على محتواها.

حتى إنني حدثت العميد ساخرًا:«كل هذا العتاد كان مع شخصين».

أجاب: «نعم، وقد قبض عليهما في أحد المنازل وبحوزتهما ثلاث سيارات مفخخة ومعدّة للتفجير، والحمد لله تمّ التفكيك قبل أن تحدث كارثة».

طلبت منه أن يحضر لي أحد المتهمين، فراح ضابط وجلب لي ذلك الشاب، في حين أن أحمد محمود لم يأتِ به، ووقفت معه أمام جانب من العتاد والأكياس التي وضعت في أماكن مختلفة من المكتب، وسألته:«هل هذه عثروا عليها معك؟».

أجاب بتلعثم:«نعم».

فسألته: «أين قبض عليك؟».

التفت يمينًا وشمالًا وبتردد قال:«في محلي التجاري بحي الإنشاءات».

فسألته: «كم عدد قطع الكلاشينكوف التي كانت بحوزتك؟».

سكت، وتردّد، فاندفع أحد الضباط وهو يحمل وهو يشير إلى قطعتين، ويقول له:«هل تنكر أن هذه القطع كانت معك».

فهزّ رأسه بأنه لا ينكر ذلك، وأجابني قائلًا: «كانت معي روسيتان[١]».

أدركت أن ما قام به ذلك الضابط مجرّد حركة؛ حتى يبين له عدد القطع التي كانت بحوزته، لذلك اقتنعت أكثر أن يومنا قضيناه في مسرحية فقط قام بها الأمن السياسي بالتواطؤ مع المحافظ، ولن نخرج منها بأي شيء مفيد.

غادرني ذلك الشاب الذي قال لي: إن اسمه خالد مروان، وأما أنا فبقيت مع العميد وبعض الضباط الذين يقومون بالتحقيق، وراحوا يشرحون لنا مراحل التحقيق مع المتهمين، وكيفية الاستماع إليهم وتحرير المحاضر، وتجري كل الأمور تحت رعاية القضاء حسب زعمهم. في تلك الأثناء أخبرنا العميد حسام لوقا أنهم قرروا الإفراج عن الشيخ صالح محمد الزعبي ونجله ماهر صالح الزعبي اللذين جرى اعتقالهما لأجل التحري فقط، وسعدنا بذلك حقيقة، وطلبت منه أن يفرج أيضًا عن المتهمين الآخرين إن كانت تهمهم خفيفة مثل تشابه الأسماء أو فقدان الهوية أو غير ذلك، فأكد لنا أنه سيتم ذلك قريبًا، فقد رفع تقريره للقاضي، وينتظر أمره، في حين لا يمكنه الإفراج عن الآخرين المتورطين في الإرهاب وجرائم القتل والتفجيرات والاغتيالات مثل ذلك الذي بكى كثيرًا حيث أشار له.

قمنا بتوثيق الإفراج عن الأب ونجله وقد فرحا كثيرًا بذلك، وقد أعطيت للوالد مبلغًا من المال؛ حتى يأخذ سيارة وأغراضًا لأسرته، وحاول أحد الضباط منعي من ذلك، حيث سحب من جيبه مبلغًا آخر، غير أنني أصريت على أن يأخذ مني ما كتب له، وأضاف المراقب العراقي صلاح سعيد مبلغاً جديدًا، وأعطاه لابنه، ثم غادرا بوابة الأمن السياسي، ولا ندري مصيرهما لاحقًا.

---

(١) يقصد قطعتين من سلاح الكلاشينكوف.

اجتماع مع رئيس الأمن السياسي في حمص ويظهر في الصورة كل من المؤلف والمراقب العراقي صلاح سعيد والعميد حسام لوقا ٢٠١٢/٠١/٠٥

المؤلف مع مساجين في زنزانتهم بمبنى الأمن السياسي ٢٠١٢/٠١/٠٥

مساجين في زنزانتهم بمبنى الأمن السياسي ٢٠١٢/٠١/٠٥

المؤلف مع مساجين في زنزانتهم بمبنى الأمن السياسي ٢٠١٢/٠١/٠٥

المؤلف مع مساجين في زنزانتهم بمبنى الأمن السياسي ٢٠١٢/٠١/٠٥

المؤلف مع مساجين في زنزانتهم بمبنى الأمن السياسي ٢٠١٢/٠١/٠٥

في زنزانة الأمن السياسي، ويظهر على اليسار شخصان هم من ضباط الأمن وتم دسهما بين المساجين ٢٠١٢/٠١/٠٥

المؤلف مع مساجين في زنزانتهم بمبنى الأمن السياسي ٢٠١٢/٠١/٠٥

المؤلف مع مساجين في زنزانتهم بمبنى الأمن السياسي ٢٠١٢/٠١/٠٥

مساجين الأمن السياسي ٥ / ١ / ٢٠١٢م

مساجين الأمن السياسي ٥ / ١ / ٢٠١٢م

المؤلف مع ثلاثة مساجين، ويظهر في الوسط معتقل وهو يبكي ويعلن ندمه على الإرهاب الذي اقترفه في حق المواطنين ٢٠١٢/٠١/٠٥

المؤلف مع مساجين الأمن السياسي ٠٥/٠١/٢٠١٢

المؤلف مع مساجين الأمن السياسي ٠٥/٠١/٢٠١٢

المؤلف يستمع لشكاوى المساجين، وأحدهم يبكي ويعلن ندمه عن الإرهاب الذي اقترفه في حق المواطنين ٥ / ١ / ٢٠١٢م

المؤلف مع مساجين الأمن السياسي ٢٠١٢/٠١/٠٥

المؤلف وهو يسجل أقوال أحد المعتقلين ٢٠١٢/٠١/٠٥

المؤلف يعاين أسلحة ومعدات كانت بحوزة السجين الذي معه والآخر الذي بكى في زنزانته ٢٠١٢/٠١/٠٥

المؤلف مع السجين صالح محمد الزعبي أمام مبنى الأمن السياسي في حمص لحظة الإفراج عنه ٢٠١٢/٠١/٠٥.

باب الزنزانة في مبنى الأمن السياسي بحمص

فضيحة اغتيال طال الطائفة المسيحية

رجعنا إلى مكتب رئيس الأمن السياسي العميد حسام لوقا، واستقبلنا الضباط بالشاي والماء والعصير والحلويات، وفي تلك الأثناء رنّ الهاتف ليتلقى العميد خبرًا عن اغتيال عقيد سابق في الجيش السوري ونجله الذي يحمل رتبة ملازم أول في الجيش أيضًا، فطلب منا أن نذهب للمشفى الأهلي لتوثيق الحادثة، وأخبروه أن الأهالي في غضب شديد أمام المشفى، ويهتفون بضرورة حضور المراقبين وإلا ستتطور الأمور إلى ما لا تحمد عقباه.

واتصل المحافظ غسان عبدالعال بالعقيد عبدالله الطاهر، وأخبره بما جرى مع العقيد السابق، فكان رد رئيس الفوج بأننا سنتنقل فورًا إلى المشفى لمعاينة الجثتين وتوثيقهما في تقرير خاص على حدّ وعده.

توجهنا نحو المشفى الأهلي بسرعة رفقة حراستنا وسيارات أخرى انضمت لنا من مبنى الأمن السياسي على متنها ضباط وآخرون لا نعرفهم، ويوجد طاقم صحفي من قنوات الدنيا والإخبارية السورية والسورية والصحافة المكتوبة التابعة للنظام ووكالة (سانا) للأنباء وغير ذلك... ولما وصلنا وجدنا أكثر من مئة شخص يغلقون باب المشفى، ولما فتحت لنا الحراسة الطريق كنا نسمع منهم عبارات شتم وإساءة، وآخرون يتهموننا بالعمالة لإسرائيل، إلى جانب هتافات ولاء للرئيس بشار الأسد ونظامه.

استقبلنا أطباء وممرضــون ومواطنون في الرواق الداخلي للمشفى، ومنه انطلق طبيب ومعه آخرون يلبسون المآزر نحو المشرحة، حيث توجد جثة العقيد الأســبق أمير روجيــه وجثة ابنه هاني روجيه، اللذين تعرضــا للاغتيال صــباح اليوم نفسه وبأقل من ساعتين فقط كما قيل لنا.

دخلنا المشــرحة، فســحب ممرض الدرج الأول حيث جثة الأب، وقد كانت مضــرجة بالدمــاء ولا تزال تنزف، ولكن ما لفت انتباهــي في تلك اللحظات أن رأسه أصيب بالرصاص المتفجّر الذي أعرفه بحكم خبرتي وتجربتي العسكرية، حيث إن الرصاصة بمجرد أن تخترق الهدف تنفجر داخله فتمزّقه، وهذا الذي ظهر خصوصًا على مؤخرة رأس العقيد أمير روجيه وجهازه التناسلي.

اســتدرت نحو طبيب كان يقف بجانبي وعلى صــدره شارة فيها هويته التي تؤكد أنه يعمل بالمشــفى الذي نوجد به، وســألته عن الطريقة التي قتل بها هذا الرجل، فأجابني قائلًا: «قتل بالسلاح».

فقلت له:«أعرف أنه قتل بالسلاح، وليس بملعقة أكل، ولكن سؤالي عن نوع هذا الرصاص الذي اخترق جمجمة رأسه».

تردد في الجواب ثم قال: «رصاص من روسية ومسكين ضاعت حياته».

أدركــت أن الطبيــب لا يريد الجــواب، فقلت له:«هذا الرصــاص من النوع المتفجر».

ردّ الصدى:« رصاص متفجر».

قلت لــه: «أنا لدي تجربة عســكرية، وأعرف ذلك جيدًا، فهذا الرصــاص الذي قتل به العقيد من النوع المتفجر».

ففاجأني الطبيب قائلًا: «معك حق هو رصاص متفجر».

قلت له: «هل من الممكن أن تؤكد لي ذلك في شـهادة طبية حتى نضـمها للتقرير الخاص بالجريمة؟».

فقال لي مرحّبًا: «ما عندي مانع سأحضرها لك فورًا».

غادرني الطبيب على أسـاس أن يحضر لي الشهادة الطبية، ورحت أعاين جثـة الملازم أول هاني روجيه التي كانت في الـدرج الثاني العلوي، لكنها كانت مصابة برصاص عادي حسبما ظهر لي من الجزء العلوي الذي رأيناه، وحالتها ليست مثل التي عليها جثة والده.

تأخـر الطبيب بعض الشـيء، وقد أكملنا المعاينـة، وطلب منا طبيب آخر زيارة الجرحى، فاسـتدرت إلى عقيد من المخابرات كان يرافقنا، فسـألته عن الطبيـب الذي كان معنا، فأنكر تمامًا أنه كان بجانبي طبيب وتحدثت له، فقلت له: «يا رجل، الطبيب كان بجانبي، وطلبت منه شـهادة طبية بها توصـيف حالة العقيد وابنه».

فـردّ: «الطبيـب الوحيد هو الموجود معكم الآن، أمـا من قبل فقد كنت أنا بجانبك».

تعجبـت من مدى إنكاره للأمـر، فالتفتّ نحو أحد المراقبين كان يصـوّر بكاميرا الجامعة العربية، وطلبت منه أن يعطيني الكاميرا حتى أشاهد الصور، ففعل ذلك، ورحت أفتش بين الصور الملتقطة ووجدت صورة للطبيب وهو يقف بجانبي، فأظهر الصـورة للضـابط الذي أنكر وأكد أنها صـورة قديمة، فبحثت أيضًا بين الصور، فوجدت صورة أخرى بها الطبيب والضابط نفسه يقف خلفه، لكنه على الرغم من ذلك أنكر وأصـرّ على أن الصـور في مكان آخر، وهو دائمًا معنا في كل الأماكن التي نزورها.

توقفت عن محاجته؛ لأنني أدركت بيني وبين نفسي أن الأمر أكبر من ذلك، فالطبيب ربما اختطفوه أو منعوه من تسليمي أي وصفة طبية تثبت أن العقيد أمير روجيه قتل بالرصاص المتفجر الذي لا يمكن أن يكون بحوزة الجيش الحر أو العصابات المسلحة كما يطلقون عليها، أو ربّما هو نفسه وجده فرصة حتى يغادرني، ولا يضع نفسه في حرج مناقشتي حول حالة الجثتين.

بعدها شرعنا في جولة بالمشفى حيث زرنا بعض الجرحى الموجودين بقاعات العلاج، وقد وجدنا أشخاصًا في حالة غيبوبة؛ لأن إصاباتهم خطيرة، ووجدنا آخرين بهم كسور ومختلف الإصابات التي تتفاوت درجات خطورتها، وما حزّ في نفسي أنني وقفت على طفلة في العام الثاني من عمرها، وهي مصابة بانهيار عصبي لا تستطيع التكلّم أو الحركة، والسبب حسب الروايات التي سمعناها من الطبيب المرافق، أن قذيفة سقطت على بيتهم، فأصيبت بصدمة من جراء الانفجار الذي سمعته.

لم أتمالك نفسي وأنا أقف أمام هذه الطفلة الجميلة، وقمت بتقبيلها وكاميرات القنوات التلفزيونية تقوم بالتصوير، فقد كان مشهدها مؤلمًا للغاية، وهذه الصغيرة لا ذنب لها في كل ما يجري على التراب السوري من دمار وقتل.

في أثناء تجوالنا على المرضى والجرحى لاحظت أن المرافقين يتعمّدون في اختيار الأشخاص الذين نتحدث إليهم، وكأنهم يتفادون آخرين ممن يحتمل أنهم من جرحى المعارضة والأحياء الثائرة. في تلك الأثناء وقفت على أحدهم وظهر لي من خلال ملامحه أنه في صحة جيدة حتى خيل لي أنه أكل نصف خروف قبل وصول البعثة إلى المشفى الأهلي. تقدمت منه، وسألته عن إصابته فأجابني بأنه تلقى رصاصات من قناص إرهابي منذ ثلاثة أيام، فطلبت منه أن يظهر لي جرحه فسحب الإزار عن بطنه ورأيت ضمادة خفيفة لا توحي بوجود

جراح بسبب رصاصات عدة كما أخبرني. مددت يدي كأنني أتحسس بطنه، ولكن نزعت الضمادة بسرعة وكان هول المفاجأة التي لا يمكن تصديقها، ولا أحد من الحاضرين خطر بذهنه. لا يوجد جرح أصلًا تحت الضمادة، لذلك قلت للطبيب الذي يقف معنا: «أين الجرح الذي يتحدّث عنه الرجل؟».

فأجاب الجريح المفترض قائلًا: «لقد شفي الجرح، والحمد لله».

قلت له: «جرح بسبب رصاص عمره ثلاثة أيام يشفى بهذه الطريقة السريعة، ولا يترك أي أثر أصلًا هذه معجزة عظيمة».

ثم التفت للعقيد عبدالله الطاهر، وقلت ضاحكًا: «يبدو أن سوريا فيها كل المعجزات أو أن يدي صار فيها الشفاء لهذه الدرجة».

في تلك الأثناء يتدخّل أحدهم يبدو أنه من المخابرات، وكان يلبس الزيّ المدني، وسحبني من ذراعي مستأذنًا أن يحدثني وحدي، انسحبت معه وابتعدنا قليلًا عن الجماعة، وقال لي: «أريد أن أشرح لك ما حدث بالضبط».

قلت له: «أنا أستمع إليك».

فقال: «هذا الشخص سقطت عليه قذائف من قبل أدت إلى مقتل زوجته وابنه، ومنذ ذلك الحين يعاني أزمة نفسية حتى إنه يخيّل له أحيانًا أصابته برصاص في بطنه أو مكان آخر، ويظل يصرخ، فيتم نقله إلى المشفى، وتقدم له إسعافات شكلية وتوضع له ضمادات كالتي رأيتها فيبقى أيامًا حتى يهدأ ويعود لوضعه الطبيعي، ويطلق سراحه مرة أخرى، وهذا تردد معه عشرات المرات».

تعجبت من هذه القصة التي حبكها هذا الرجل، فقلت له:

«لماذا لم يخبرنا أحد بذلك قبل أن أكتشف القصة؟».

فقال: «أحســن الله عونكم، فأنتم تتعبون كثيرًا، ولا يمكن أن نحدثكم بكل كبيرة وصغيرة».

تجولنـا في عنابر أخرى وتحدثنا مع مرضـى وجرحـى وأهاليهم والتقينا مـع طبيبــة وهي زوجة طبيــب اغتيل في عيادته منـذ مدة تـاركًا خلفه طفلتين صغيرتين، وقد كانت الطبيبة تتحدث لنا وهي تبكي ما أبكى طبيبات وممرضات كنَّ معها.

ونحن نهمّ بالمغادرة طلب منا مرافقنا العقيد صـفوان أن نزور المشـفى العسكري لمعاينة جثث ضحايا آخرين، على الرغم من الإرهاق إلا أننا لم نجد من بدّ تحت الضـغط الذي يمارس علينا من قبل بعض أشـخاص يلبسون الزيّ المدني، ولكن بينهم من لمست سلاحًا تحته في ذلك الازدحام.

توجّهنا نحو المشـفى العسكري وتحت إجراءات أمنية مشدّدة، وصلنا بعد نحو ربع ساعة عين المكان، وهناك وجدنا المدير في انتظارنا، فأخذنا مباشرة نحو مشرحة، ولكن قبل دخولنا طلبوا منّا عدم التصوير؛ لأن الأمر فظيع للغاية، والأمر يتعلق بأعراض بشـر كما قال مدير المشفى الذي كان يلبس بذلة سوداء مدنية.

دخلنا، فصـدمني المشـهد حيث رأيـت جثثًا مقطعة إلى أجـزاء، وكأنني دخلـت مذبحة فيهـا كباش وخرفـان وبقر وماعـز مذبوح ومسـلوخ، فهذه جثة بـلا رجل أو يـد وأخرى الرأس منقسـم إلى أجزاء، وتوجد جثـث على جزأين، فأخبرنـا المدير أن عدد الجثث يتجاوز المئة جثّـة، وهي لمواطنين قتلتهم من سمّاها جماعات إرهابية مسلّحة، وقد لفت انتباهي أن كل رجُل موجود بها اسم صـاحبها مكتوب فيما يشبه خلخال بلاستيكي، ولم أرَ رجُلًا إلا وحدّد فيها اسم صاحبها.

استدرت نحو العقيد صفوان الذي كان يقف بجانبي، وسألته: «من فعل هذا بهؤلاء؟».

أجاب: «الجماعات الإرهابية المسلحة هي التي تقتلهم وتمثّل بجثثهم، ويوجد بينهم من قتلوا في تفجيرات بسيارات لغمها المسلحون، ووضعوها في الأماكن العمومية».

لكن ما أثار انتباهي هو الطريقة التي عرفوا بها أسماء الضحايا، الذين بينهم من قتلوا منذ أيام قليلة لا تتجاوز الأسبوعين، فسألت مدير المشفى الذي بدوره يقف غير بعيد منّي: «كيف عرفتم أسماء كل الضحايا؟».

أجاب: «كلهم وجدنا هوياتهم معهم، فالإرهابيون يقتلونهم ويمثلون بهم، ويتركون الهوية مع كل جثّة لاستفزاز أهلهم بطريقة طائفية فقط».

كان المشهد فظيعًا للغاية، ويوجد من بين المراقبين من لم يتمكنوا من البقاء، فاضطروا مغادرة المشرحة، فالجرائم لا يمكن وصفها، وما حدث في حق هؤلاء لم أتخيّل يومًا وأنا عشت في الجزائر خلال عشرية دموية، أن أرى هذه المشاهد في حق الإنسان والإنسانية.

رحت أكتب في دفتر أسماء الضحايا، وتمكنت من تسجيل نحو ٤٠ ضحية، وبعدها قمنا بجولة خفيفة للتحدث مع بعض الجرحى، غير أننا لم نمكث إلا ربع ساعة، فقد تأخر الوقت، واضطررنا إلى المغادرة، ووعدنا مدير المشفى العسكري بالعودة لاحقًا من أجل التحدث مع الجرحى ومعاينة أوضاعهم، وأكدنا له ضرورة تسليم هذه الجثث لأهاليهم من أجل دفنها، فأكّد أن ذلك سيحدث قريبًا جدًّا، وهو ما يعملون عليه منذ أيام.

عدنـا إلـى الفندق لتنـاول وجبة الغـداء المتأخـرة، وبعدها صـعدت إلى غرفتي لأخذ قسـط من الراحة، وقد اتصـلت بي سـيّدة من جبلة في اللاذقية، وأخبرتني أنه يتم تغيير أسـماء الشوارع لتغليط المراقبين العرب، وأن الشرطة تمنع المواطنين من الاقتراب من أفراد البعثة وكل من يتجرأ يتعرض للاعتقال.

ورحت أفتش في قائمة المعتقلين التي سلّمت لنا من طرف الأهالي في حيّ بابا عمرو، وتمكنت من حصر بعض الأسماء التي يعتقد أهلها أنهم في السجن غير أنني وجدتها ممزقة في مشرحة المشفى العسكري، ومن بين الأسماء التي كانت في قائمة المعتقلين المطابقة للتي سجلتها من تلك المكتوبة على الجثث، ولم أتمكن من التأكد أن ذلك يتعلق بالأشـخاص أنفسـهم أو الأمر مجرّد تشابه فـي الأسـماء أو يحتمل أن تكون مفبركة أيضًـا، وهي: يوسـف أنيس المغربل، حوري صلاح الدين ملوك، محمد الطالب، بلال ناصر الدين مصطفى، محمد الشاطر، جمال عبدالله العلي، عبدالكريم أحمد الشمري، محمد ربيع تركماني، خالد فايز الأحمد، ثامر فرحان جويد.

وكنـت علـى يقين لو تمكنت من تسـجيل قائمـة الجثث لوجـدت أكثر من العـدد الذي ذكرت، وطبعًا رحـت أفكّر في الطريقة التي أبلـغ بها أهالي هؤلاء الضحـايا، فالأمر صـعب للغاية، وفي الأخير قررت أن أنقل الأمر لرئيس الفوج العقيد عبدالله الطاهر، وهو من يتصرّف.

٤٩

اجتماع مع محافظ حمص

في حدود السادسة والربع اتصل بي العقيد عبدالله الطاهر، وأخبرني أنه عليّ أن أحضر نفسي لأجل موعد مع المحافظ غسان عبدالعال بقصره، فتجهزت ونزلت إلى بهو الاستقبال في الفندق، حيث وجدت المراقب العراقي صلاح سعيد برفقة رئيس الفوج وسائق السيارة المرسيدس، وهو عراقي يدعى ياسين، والتحق بنا فورًا المراقب الجيبوتي محمد حسين عمر.

توجهنا نحو القصر برفقة السيدة علا وموظف آخر من مكتب المحافظ غسان عبدالعال، وقد وجدناه في انتظارنا، وهناك اجتمعنا معه، فأول ما سألنا عنه هو قضية اغتيال العقيد أمير روجيه ونجله هاني روجيه، فقصصت عليه ملاحظاتي التي استنتجها، وأكدت له أن العقيد اغتيل برصاص متفجر لا يمكن أن يكون في متناول حتى العسكريين العاديين، بل هو دائمًا بحوزة نخبة النخب في الجيوش، وحدثته عن أمر الطبيب الذي اختفى على الرغم من تأكيده لي أن الاغتيال وقع باستعمال هذا النوع من الرصاص.

استمع لي المحافظ غسان عبدالعال باهتمام من دون أن يعلق، ولما أكملت كلامي قال: «تقصد من كلامك أن جهة ما في الدولة هي التي تقف وراء قتله».

فقلت له: «سيادة المحافظ، أنا لا أتهم أي جهة، بل أؤكد لكم ما توصلت إليه، ويجب أن تأخذوه في الحسبان في التحقيق حول العملية».

فهزّ رأسه بالإيجاب، ثم قال: «بالتأكيد مادام فيه عسكريون يفرّون من الخدمة فأكيد أنه يوجد منهم من هرب وبحوزته هذا النوع من الرصاص».

فقلت له: «أعتقد أنه لو صحّ ذلك لاحتفظوا بهذا الرصاص النادر والغالي الثمن ليستعملوه في مهام ضد مسؤولين حاليين، وليسوا متقاعدين».

ردّ المحافظ: «سأبلغ المعنيين بالتحقيق بهذه المعلومات؛ حتى يأخذوها في الحسبان».

طبعًا لم يخض المحافظ في شأن الطبيب الذي اختفى، ولا أنا عاودت الحديث حوله، فقد أحسست أنه لم يهتم به، وبعد ذلك شرع العقيد عبدالله الطاهر في التحدث حول الأزمة السورية والحلول الممكنة، وقد أبدى المحافظ اهتمامه البالغ لذلك، ومن جهتي أشرت إلى أزمة الجزائر التي يريد المسؤولون استنساخها على ما يجري على الرغم من الفرق الشاسع بين الأمرين، فقد عايشت هذا وذاك. وخاض المراقب العراقي صلاح سعيد في شأن تجربة العراق وما عرفته من منعطفات، ولكن ذهب إلى أن ما كان يحدث ضد أمريكا هو إرهاب وصفه بالإرهاب الوهابي الذي يراه الآن يستهدف الدولة السورية أيضًا.

أخبرنا المحافظ أنه تقرر الإفراج عن ٦٠ مسجونًا من السجن المركزي في حمص، وقد اتفق مع الفوج الثاني على الذهاب غدًا لتوثيق العملية وتسجيل أسماء المفرج عنهم، فسألته حينها: «هل المساجين الذين سيفرج عنهم هم من القائمة التي سلمتها البعثة إليكم؟».

أجاب: «لا أدري حقيقة، ولكن ربما يكونون من القائمة وربما لا».

ثم يستدرك: «لقد أخبرتني الجهات المعنية أن الكثير من الأسماء الواردة في القائمة وهمية ولا وجود لها».

فقال صلاح سعيد: «كيف وهمية؟ معناه أنهم يكذبون علينا، كنت أحس بذلك».

فهزّ المحافظ رأسه بالإيجاب، وقال: «يضعون أسماء غير موجودة حتى يغالطوكم أنتم وتكتبوا في تقاريركم أن الحكومة لم تطلق سراح أحد».

فقلت له: «توجد أسماء بالصور وتواريخ الميلاد».

ضحك بصوت مرتفع، وقال: «توجد صور لجنود قتلوهم، واستغلوا صورهم مع أسماء وهمية».

فقال العقيد عبدالله: «الأمور معقدة إلى هذا الحدّ».

ليتدخل المراقب الجيبوتي محمد حسين عمر: «أنا تحدثت مع شيوخ وعجائز، وقدموا لنا أسماء أبنائهم وبطاقة هويتهم ولا أظن أن أولئك قد بلغ بهم التلفيق إلى هذه الدرجة».

فردّ المحافظ: «نعم، يوجد أشخاص حقيقة اختفوا، ويظن أهلهم أنهم لدينا في السجن وهذا خطأ، بل كثيرون منهم لدى الجماعات الإرهابية المسلحة».

ثم يضيف: «عمومًا الجهات المختصة تبحث في الموضوع، وستقدم لكم تقريرًا مفصلاً عن كل الحالات التي لدينا في السجون تحت إشراف قضائي كامل».

قلت: «لكن سيادة المحافظ، نحن زرنا اليوم مشرحة المشفى العسكري، ورأينا جثثًا في حال لا يمكن وصفها، وقد سجلت بعض الأسماء، ولما عدت للفندق فتشت ووجدت من بينها عشرة أسماء موجودة في قوائم المعتقلين ومطابقة لأسماء موجودة على الجثث».

فقال: «هذا دليل على كذبهم».

فسألته: «كيف؟».

أجاب: «يقتلون المواطنين ويسجلون أسماءهم عندهم، ثم يقدمونها لكم على أساس أنهم من المعتقلين لدينا».

حقيقة لم أهضم جوابه وتحليله، لذلك قلت له: «ليس من صلاحياتنا ذلك، وهذا الأمر يحتاج إلى لجنة تحقيق قضائية وليس إلى لجنة مراقبة أوضاع مقيدة ببروتوكول محدد».

فهزّ العقيد عبدالله الطاهر رأسه بالإيجاب، وقال: «لو نخوض في هذه الأمور سنغرق حقيقة».

أما بخصوص توثيق الإفراج عن المساجين، فقلت للمحافظ: «سيادة المحافظ، نحن لا يمكن أن نوثق الإفراج عن مساجين مجهولين قد يكونون غير متورّطين في الأحداث أو لهم قصص أخرى، التوثيق يتعلق بالأسماء التي طالبت بها المعارضة، وهي موجودة، أما الأخرى التي تقول: «إنها ملفقة فليس من صلاحياتنا التحقيق في شأنها».

فردّ: «قريبًا سنوافيكم بكل التفاصيل».

لقد كان المحافظ يبدو عليه الإرهاق الشديد، فأخبرنا أنه قضى يومه مع وفد صحافي أجنبي تجول معهم في بعض الأحياء، واطلعوا على الأوضاع، فتعجبت من عدم حضورهم إلينا، وكان من المفروض أن ترافقنا الصحافة المستقلة، لذلك قلت له:

«من المفروض أن نلتقيهم وترافقنا الصحافة المستقلّة».

فقال: «هذا وفد جاء في برنامج محدّد، ثم غادر إلى الشام، ولكن حسب معلوماتي أنه يوجد وفد صحفي أجنبي قادم خلال الأيام القليلة القادمة بينهم محقق تلفزيوني فرنسي كبير يدعى جييل جاكي[1]».

وكانت أول مرة وآخرها يذكر لنا المحافظ اسم صحفي يمكن أن يكون لنا لقاء معه، حتى القنوات والصحف الموالية يتفادى تحديدها ودائمًا يتحدث بلهجة العموم فقط.

(١) كان يقصد الصحفي الفرنسي جييل جاكييه الذي قتل في حمص بتاريخ ٢٠١٢/٠١/١١ بعد استهدافه بقذيفة هاون بحي عكرمة، وأثارت عملية اغتياله ضجة عارمة، واتهمت السلطات السورية (الجيش الحر) بقتله، في حين أن الجيش الحر يتهم المخابرات السورية بفبركة العملية بعد يوم واحد من استقالتي من البعثة وظهوري على الجزيرة في ٢٠١٢/٠١/١٠. وقد قبضت كتيبة المهام الخاصة للجيش الحر بتاريخ ٢٠١٣/٠١/٠٨ على مجموعة قالت: إنها تقف وراء العملية وخططت لاغتيالي رفقة مراقبين آخرين أيضًا.

٥٠

آخر لقاء مع العماد آصف شوكت

أكملنا الاجتماع مع المحافظ، ورجعنا مباشـرة إلى فندق السـفير، حيث موعد وجبة العشاء، وجدت بعض المراقبين من الفوجين في صالون الاستقبال، وقـد بلّغنـي العميد محمد كرماني أنه قد أحس بحالة غير طبيعية في نفسـه ما يؤكـد أنه تنـاول مواد الإثارة الجنسـية في عشـاء أمس، ولم يسـتبعد أن تكون «الفياغرا»، ولا يزال يعاني حالة صحية سيئة من جراء ذلك.

اتصـلت بي السـيدة إبتسـام لتحدّثني باكية وحزينة مرة أخرى عن قضـية ابنتها ريم الغزّي، فأخبرتها أنني أتابع الأمر من دون أن أعلمها بالأشخاص الذين أتواصل معهم بخصوص ابنتها، وقد صممت أن أتحدث مع وزير الداخلية مجدّدًا.

توجهنـا إلـى المطعم، وقد لاحظـت أن المراقبين كانـوا حذرين جدًّا من الأكل فقد تفادوا بعض الأطعمة واقتصـر الأمر على بعض الفواكه والمشروبات كالبيبسـي والكوكا كولا. أدركت أن هناك تخوفًا كبيرًا لديهم من دسّ شـيء ما في الطعام، ولما همسـت لأحدهم عن السـبب فضّـل أن يدعوني للصمت؛ لأن العاملين في المطعم كلّهم من رجال المخابرات.

فـي تلك الأثناء دخل العماد آصـف شـوكت برفقة وزيـر الداخلية محمد الشعار إلى مائدتهم المعتادة في زاوية المطعم، وطبعًا جاء ذلك بعد الإجراءات الأمنية المعمول بها من تفتيش عن المتفجرات وتذوق الأكل والإشراف الطبي.

بعدما أكملنا ما تيسّر لنا من الأكل توجّهنا نحو الأرائك الموجودة في بهو الاستقبال التي نجلس عليها كثيرًا، وقررت حينها أن أنتظر خروج شوكت والشعّار لأتحدث لهما عن قضية ريم الغزّي، فقد أشفقت على والدتها كثيرًا وعلى حزنها الذي كان يتسلل من نبرات صوتها مثل الخناجر إلى قلبي الذي صار مكلومًا مما أعايشه في هذا البلد.

فتحت هاتفي لأجرب حظي علّني أبحر في شبكة الإنترنت وبعد صعوبة كبيرة تمكّنت من فتح بريدي الإلكتروني، حيث وجدت رسائل كثيرة من الأصدقاء الذين يتابعون صوري عبر الفضائيات وأنا في حيّ بابا عمرو، ووجدت رسائل عدّة من صحفيين في فضائيات مختلفة يرغبون في إجراء حوارات معي أو أخذ تصريحات منّي، غير أنني تفاديت الردّ عليهم؛ لأنني متقيّد بقسم أديته منذ اليوم الأول يفرض عليّ عدم التصريح للصحافة، فالمخوّل الأول والأخير لذلك هو رئيس البعثة الفريق أول الركن محمد أحمد مصطفى الدابي.

لاحظت للمرّة الأخرى الفتيات، وهن يتحرّشن بالمراقبين سواء بحركات غنج أو من خلال ألبستهن العارية جدًّا، فاضطررت إلى أن أغيّر مكاني؛ حتى لا أبقى قبالة ثلاث منهن يجلسن في مكان قريب مني، وقد قمن بحركات لا أقبلها ولا أرغب في رؤيتها أو أحكي تفاصيلها الآن، أو قد أضع نفسي في دائرة الشبهة، حيث إن المكان يخضع لمراقبة مشدّدة بكاميرات سريّة، فضلًا عن أن أخلاقي لا تسمح لي بذلك.

لم يمر وقت كبير، إذ خرج العماد آصف شوكت برفقة وزير الداخلية محمد الشعار، فتوجهت إليهما مسلمًا، وقد استقبلاني بوجه بشوش وترحيب كبير، وقال اللواء الشعار: «أتمنى أن الأمور تمام معكم».

قلت له بكل صراحة ومن دون لفّ ولا دوران: «يوجد تلاعب بنا سيادة الوزير».

ردّ بلهجة التعجّب: «تلاعب... كيف؟».

رويت له قصّة الجريح المزوّر الذي وجدته في المشفى الأهلي، ثم حدثته عن الرصاص المتفجر الذي اغتيل به العقيد الأسبق أمير روجيه، وكان يتابعني باهتمام، ثم قال: «لا أعتقد أنه يوجد تلاعب، فقد أصدرنا قرارات بناء على أوامر رئاسة الجمهورية بضرورة التعامل معكم بشفافية ووضوح، وأكيد هناك أمر ما، ولكن أعدكم سأتابع ذلك، وأستطلع كل الأمور من طرف المسؤولين المعنيين هنا، وإذا كان هناك غلط ما سنتّخذ كل الإجراءات اللازمة».

أحسست كأنه يرغب في المغادرة، لذلك بادرته قائلًا: «سيادة الوزير، أردت أن أتحدث لك في قضية الشابة المعتقلة التي سبق وفتحت موضوعها معكم».

فاستدار نحو آصف شوكت، وقال له: «ماذا فعلتم في الموضوع؟».

فردّ شوكت: «كلفت من يبحث في القضية غير أننا انشغلنا، تعالَ معي، وسوف نتصل به».

الشعار خاطبني: «سيادة العماد سيتصرف معك بخصوص هذه البنت».

وهو يهمّ بالمغادرة: «أتمنّى لكم كلّ التوفيق في جهودكم العظيمة».

عدت مع العماد آصف شوكت إلى داخل المطعم، في حين غادرنا الشعار إلى جناحه بالفندق، وسارع بعض من أفراد حراسته الشخصية بالدخول قبله.. توجهنا إلى طاولة في الزاوية، وهناك اتصل بأحدهم، وحدثه بلهجة الأمر، عن مصير الموضوع الذي كلّفه به، وإذا به يسحب القلم، وظهر أن الذي يتحدث معه يريد أن يملي عليه شيئًا ما، لذلك أعطيته قصاصة ورق كانت بيدي، فراح يكتب ما يملى عليه.

حيث كتب في الورقة مايأتي: «ريم عبدالحميد الغزّي، والدتها إبتسام، تولد الدمام ١٩٧٢. موقوفة في سجن النساء. سبب التوقيف: إنشاء جمعية تقصد تغيير كيان الدولة والنيل من هيبة الدولة وإذاعة أنباء كاذبة والتحريض على التظاهر. موقوفة قضائيًّا بموجب مذكرة توقيف رقم ٢٠١١/١٧٥٢ صادرة عن قاضي التحقيق الثاني بدمشق شاملًا حجز حريتها اعتبارًا من ٢٠١١/١١/٢٦».

شكر المتحدث، ثم أغلق الهاتف، وختم الورقة: (يرجى الاطلاع).

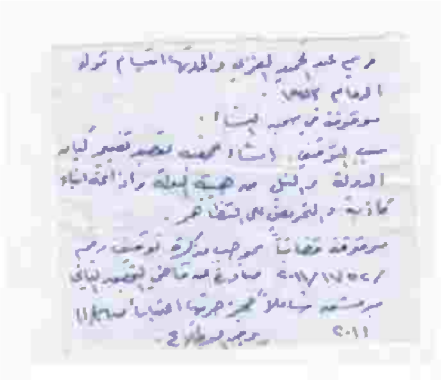

قصاصة مكتوبة بخط يد العماد آصف شوكت حول قضية ريم الغزّي

فقلت له: «هذه الاتهامات كبيرة سيادة العماد، ولكن أعتقد أنه من حقّها الإفراج؛ لأن اعتقالها يرتبط بالأحداث».

فأجاب: «هي الآن تحت سلطة القضاء، ونحن ليس من صلاحياتنا التدخل فيه؛ لأنه قضاء مستقل».

فسألته: «سيادة العماد، الأمور معقّدة، وتسير نحو الحرب الأهلية حسبما نرى، فلماذا لا تبادرون بحلّ سريع لإنقاذ البلاد؟».

أجـاب: «لا يمكن أن نتحاور مـع إرهابيين ومجرمين وقتلة، هؤلاء يجب أن يحاسبوا».

فقلت له: «السـلاح لن يصـل إلى الحلّ، وقد عشنا مرحلة دموية، ووصلت الأمور إلى أن السلطة أقدمت على مصالحة».

قـال: «زرت دولًا عربيـة وغربية عدة أخيرًا، ومنها إيـران ولبنان والعراق والجزائـر، حيث التقيت مسـؤولين كبارًا، وقد نصـحونا صـراحة بـأن نقتدي بالتجربـة الجزائرية، غير أنني أفهمتهم أن الجماعات الإرهابية عندنا تختلف عن تلك التي كانت في الجزائر».

فسألته من دون أن أهتمّ بما قاله حول زيارته للجزائر التي لم نسمع عنها في وسائل الإعلام: «أين الاختلاف؟».

قال: «الجماعـات الإرهابية عندنا مموّلة مـن دول الجوار، وهي جماعات وهابية يدعمها رجال دين مثل العرعور والعريفي في السـعودية وأيضًا مدعومة من قبل دول غربية وحتى من إسرائيل».

يسـحبني من ذراعي، وتحركنـا بخطوات متثاقلة نحـو المطعم، فأدركت أن شـوكت لا يريـد الخوض أكثـر في الحديث الذي فتحته معـه، لذلك قلت له: «سيادة العماد، سـوريا عزيزة علينا، ويجب إنقاذها من دمار قادم إذا اقتصر الأمر على الخيارات الأمنية».

فربّـت على كتفي قائلًا: «نحن هنا من أجل سـوريا، ولـن يفلح المتآمرون عليها في تحقيق غاياتهم القذرة».

مـن باب أخذ صـورة أبقيها للتوثيق مسـتقبلًا، طلبت منه قائلًا: «سـيادة العماد، ممكن صورة تذكارية معكم؛ حتى نحتفظ بها في أرشيفنا الخاص».

قال: «أعتذر لك فأنا شخصيًّا أتفادى التصوير؛ لأسباب أكيد تعرفونها، ولما تخرج سوريا من أزمتها سندعوكم، وتحتفلون معنا».

ودعت العماد آصف شوكت، ولم أكن أعرف أنه آخر لقاء يجمعني به، ورحت أبحث عن العقيد عبدالله الطاهر لم أجده، اتصلت به هاتفيًّا، فأخبرني أنه بغرفة المراقب السوداني الزاكي كوكو خالد الجاك بالطابق الثالث، حيث يعدّون التقارير كعادتهم، فقررت أن أذهب إليه لأطلع على نماذج من التقارير التي تكتب وتقدم لغرفة العمليات في دمشق التي عليها سيعتمد الفريق أول الركن الدابي في إعداد تقريره الأول، ويقدمّه إلى الأمانة العامة للجامعة العربية.

وصلت إلى الغرفة حيث وجدت العقيد عبدالله ومعه المراقبان السودانيان الزاكي كوكو خالد الجاك ومحمد حسين إدريس، وقد كانوا ملتفين على الحاسوب يعدّون التقرير، فطلبت منهم نموذجًا من التقارير التي كتبوها وأرسلوها، وعند استلامي نسخة أولى كانت مطبوعة وعلى رفّ المكتب، صعقت من هول ما كتب فيها، حيث كانت فارغة نهائيًّا، ولا يوجد فيها أي شيء، سوى كلمات مختصرة تشير إلى ساعة الخروج والدخول من الفندق، وفي خانة الملاحظات كتبوا لا شيء، أما بخانة أخرى مخصصة للآليات العسكرية وجدتهم قد كتبوا أننا لم نَرَ أيّ آليات عسكرية.

رحت أنظر للنسخ الأخرى عبر الحاسوب، فوجدتها تقريبًا نفسها، فلا شيء عن الجثث ولم يذكر حاجز كفرعايا الذي لم يسحب وفيه دبابات ومدرعات، ولا ذكر للأشخاص الذين تمّ قنصهم، والغريب أنني وجدتهم يذكرون المعارضة بمصطلح (المسلحين)، حتى محضر اللقاء مع ضباط الجيش الحرّ كتبوا ما يأتي:

«جرى لقاء مع مسلحين في بابا عمرو، حيث رفضوا أي هدنة، وقد تأكّد لدينا وجود متطرفين أجانب يحملون السلاح».

صرخت في وجوههم: «ما هذا الكذب الذي تكتبون؟».

فقال لي العقيد عبدالله الطاهر: «هذه تعليمات رئيس البعثة».

فقلت له: «أي تعليمات تسمح لكم بتحرير تقارير كاذبة ومزورة».

قال الزاكي: «اهدأ يا أستاذ، ما كتبناه هو الحقيقة».

قلت له: «كيف عرفتم وجود متطرفين مع ضباط الجيش الحرّ؟».

أجاب الزاكي: «ألم تَرَ بينهم ذلك المسلح الملتحي».

سألته: «ذاك الملتحي ملازم أول، ورأيت بطاقته، واسمه مهنّد الخطيب، لكن هم لم يرفضوا الهدنة، بل المحافظ من رفضها؟».

قال العقيد عبدالله الطاهر: «يراوغون، وهم من يهجمون على الحواجز العسكرية».

فقلت له: «يا عقيد عبدالله، كلامكم كلّه تخمينات يجب أن نكتب في التقارير ما رأينا وسمعنا فقط، أما الاحتمالات والأخبار التي تأتي من عند المعارضة أو السلطة فإن لم نقف عليها لا نسجلها».

فقال: «نأخذ ذلك في الحسبان مستقبلًا، لكن الآن هذه التقارير أرسلت لرئيس البعثة، وأشاد بها».

قلت له: «إذا فعلًا الدابي أشاد بها فهو كذّاب يريد الكذب فقط».

ثم سألتهم: «هل رأى بقية المراقبين هذه التقارير؟».

أجاب العقيد عبدالله: «بعضهم نعم، والآخرون أعطوني الموافقة على أن أكون المشرف على التقارير، وأرسلها من دون العودة إليهم».

رميت تلك الورقة، وقلت لهم: أنا أتبرأ من كل ما أرسل من طرف الفوج، ولن أسكت أبدًا؛ لأنه لا يعقل أن يصل بنا الأمر إلى تزوير الحقائق وقلبها لتكون في صالح طرف ضد طرف آخر، ونحن من المفروض بعثة مستقلة لا نحسب على أي جهة، وأدينا قسمًا على النزاهة.

حاولوا تهدئتي إلا أنني غادرتهم غاضبًا على ما رأيت من تلك التقارير المزيفة والفارغة، وعدت لغرفتي، حيث اتصلت بالدابي مباشرة لأحتجّ على هذه المهزلة التي يشيد بها كما أخبروني، غير أنه فاجأني بالقول: «التقارير ممتازة وأخذناها في الحسبان، وإن لم تعجبك فأنت مجرّد صوت واحد، وما كتب أجمع عليه بقية المراقبين».

فقلت له: «سيادة الفريق، ما كتب ليس الحقيقة التي عايشناها معًا».

فقال لي: «أنا أعرف ما يجري على الأرض، ولديّ معلومات أنت دورك في تسجيل ملاحظاتك، وتعطيها رئيس فوجكم، وهو من يختار ما يراه مناسبًا».

أغضبني دفاع الدابي عن الكذب، فقلت له: «لن أسكت سيادة الفريق، على هذا الباطل الذي تريدون الترويج له».

لم يعلّق على كلامي، وودّعني بالقول: «حافظ على نفسك، ولا تندفع كثيرًا؛ فالأمور ليست كما تراها من زاويتك أنت فقط».

أغلق الدابي الخطّ، وتركني أحترق غضبًا، فاتصلت بالمراقب الجيبوتي محمد حسين عمر الذي أخبرني بدوره أنه لم يطلع على أي تقرير، ولا أعطاهم موافقته كي يحرّروا ما يحلو لهم من الأكاذيب، وهو بدوره يرفض أي تزوير

للحقائق، ولما نقلت له بعض ما كتب في التقارير تعجّب، وأبدى انزعاجه من هذا البهتان.

لو لم تكن الساعة متأخرة، ولا يمكن أن أجد الأمين العام نبيل العربي في مكتبه لاتصلت به، غير أنني قررت أن أتصل به في اليوم الموالي، وصممت على الاستقالة من البعثة، وإذا لم يتم استدراك هذه المهزلة التي تجري على حساب دماء الناس وأعراضهم ستغرق فيما لا يحمد عقباه، وطبعًا زاد الطين بلّة ما رأيته مع أم عبد الكريم الدرويش الضريرة التي أبكتني، ومع الأسف لم تسجّل قضية ابنها في التقرير على الرغم من معاينتنا للجثة، ودورنا في تسليمها لأهلها في بابا عمرو.

اتصل بي بعض الناشطين من بينهم خالد أبو صلاح، الذي أخبرته بأنني قررت الاستقالة من البعثة، وإعلان موقفي قبل مغادرتي؛ لأنه لن يكون من الرجولة بمكان أن أغادر، ثم أتكلم عندما أكون في مأمن، أما بقية الناشطين فاعتذرت لهم في حين لم أرد على اتصالات كثيرة أخرى.

قنبلة الفيس بوك وفضائح أخرى

تمدّدت على فراشي، ورحت أفكّر في الطريقة التي أبرّئ بها نفسي وذمّتي أمام الله ثم الشعب السوري وكل العالم من هذه المهزلة والمسخرة الحقيقية التي يقودها الجنرال السوداني مصطفى الدابي، فرأيت أمامي احتمالين لا ثالث لهما، فإما أن أتحدّث في وسيلة إعلامية عبر الهاتف وأفضح عما أرى، وقد كان يتصل بي الكثير من الصحفيين بالفضائيات، يحاولون محاورتي، لكنني رفضت ذلك مرارًا وتكرارًا، وطبعًا هذه مغامرة فيها أخطار كبيرة، إذ أدينا قسمًا في بداية المهمة لا يمكن أن أحنث فيه.

حينها تنبّهت أن أكتب كلمة وأنشرها على صفحتي في الفيس بوك، التي يتردد عليها صحفيون من مختلف وسائل الإعلام، فأخذت ورقة، ورحت أكتب ما أفكر فيه، وبعد تعديلات وتصحيحات كانت هذه الكلمة:

«الدماء في سوريا لم تتوقف، فيوميًا نقف على جثث في حال لا تخطر على عقل بشر. العنف في تصاعد، ونحن في عجز عن فعل أي شيء للضحايا ممن يطولهم القنص والقصف والاغتيال. الاختطاف مستمر والتعذيب فاق الحدود. سوريا تتجه نحو الدمار والحرب الأهلية التي تغذى بالطائفية، والنظام لا هم له إلا البقاء في الحكم على حساب واقع مأساوي، والأحياء المنكوبة لن تتراجع بعد الذي تعرضت له، ولا تزال».

العالم كله ينتظر البعثة العربية، وهي عاجزة ببروتوكول ميّت لا يتماشى مع الواقع، ومراقبين تحكمهم قيود حكوماتهم وأشياء أخرى. الوقت يجري نحو أفق آخر لا نرضاه لهذا البلد الطيب، وها أننا أبرئ ذمتي للشعب السوري البطل من مسرحية ولدت ميتة، وصارت عمياء. غابت الحقيقة وغاب الحق وغربت شمس العرب في دهاليز الشام الحزين».

صورة التقطها الناشطون لصفحة المؤلف على الفيس بوك وبها رسالته التي نشرها في ٠٦/٠١/٢٠١٢.

بعدما قرأتها مرات عدة استقرّ الأمر على نشرها صباحًا، ومن دون أدنى تردد لكنني آثرت أن أصلّي صلاة الاستخارة، وأخبرت أهلي في فرنسا والجزائر بأنني مقبل على أمر قد أدفع ثمنه حياتي، وسعدت لما شجّعوني على ألا أرجع للخلف ما دمت على الحقّ.

كانت تلك الليلة مثل باقي الليالي، حيث القصف وصوت الرصاص لم يتوقف، ونمت قرير العين على الرغم من كل ذلك، وسعادة غامرة تجتاحني وأنا مقبل على مغامرة ضد النظام السوري، الذي لن يرحمني حتمًا إن هدّدت مصالحه ومخططاته. مع أذان الفجر نهضت حيث توضأت ورحت أقرأ بعض الآيات من القرآن الكريم، ولما رفع أذان صلاة الصبح قمت وصلّيت، وبعدها أدّيت صلاة الاستخارة، وقد أحسست براحة لا مثيل لها، حتى إنني لما تمددت على فراشي كأن شخصًا يسحبني من ذراعي، لأسارع وأنشر تلك الكلمة على صفحتي بالفيس بوك، حيث يجب عليّ النزول للاستقبال لأتمكن من الإبحار في الإنترنت، ولم يطمئن قلبي في حياتي لشيء مثلما حدث معي في ذلك اليوم.

لحظات الانتظار تلك كانت ممتعة روحيًّا، ولم يسبق لي أن عشت مثلها أبدًا، وازداد حماسي أكثر فأكثر إلى نشر ما جال بخاطري وكتبته في كلمات عابرة، تحت ضغط لحظات صدق، قلّما يعيش الإنسان في حياته مثلها.

نزلت إلى المطعم في حدود الساعة السابعة والنصف، حيث تناولت بعضًا مما هو متاح، وكنت حذرًا جدًّا بعد ما جرى معنا من قبل، حيث دسّت لنا مواد الإسهال، وقد تعاملت مع العقيد عبدالله الطاهر ببرودة كبيرة بسبب موقفي، مما أقدم عليه من تزوير في التقارير، على الرغم من أنه حاول أن يذيب الجليد الذي طغى على علاقتنا، ولم يفلح.

لما أنهيت فطوري خرجت إلى بهو الاستقبال، وفتحت هاتفي (الأيفون)، ورحت أحاول فتح حسابي على الفيس بوك، وقد استغرق ذلك نحو ربع ساعة، وبعدها كتبت تعليقي ونشرته، ثم غادرت نحو غرفتي مجددًا.

لم أمكث طويلًا، واتصل بي المراقب العراقي صلاح سعيد، ليخبرني بأننا سنخرج لزيارة حيّ عكرمة وبعدها نذهب إلى الأمن السياسي، حيث سيفرج عن مساجين، على الرغم مما كتبته إلا أنني قررت الخروج معهم، حتى لا أبقى وحدي في الفندق، وكنت لتلك اللحظة لا أعرف صدى كلمتي عبر الفيس بوك، وما تخيلت أنها ستذهب بعيدًا، كما سيأتي الحديث عنها لاحقًا.

جهّزت نفسي، ونزلت إلى بهو الاستقبال، حيث وجدت المراقبين في انتظاري، وانطلقنا مباشرة من دون أدنى تأخير كما كان معتادًا في اتجاه عكرمة، ولم نستغرق إلا دقائق معدودة، حيث إن المسافة لم تكن بعيدة، وهناك وجدنا مظاهرة توصف بالعفوية دومًا مؤيدة للنظام وبشار الأسد، وتحمل لافتات من مختلف الأحجام. ويردّدون شعارات مؤيدة وصلت إلى التأليه لبشار الأسد والعياذ بالله. وأنا ألتقط الصور للمتظاهرين، فوجئت برؤية ذلك الشخص، الذي التقيته في زنزانة الأمن السياسي، وقال: إن اسمه أحمد محمود، وهو إرهابي ينتمي إلى تنظيم القاعدة وقتل الناس، وقد قبضوا عليه وبحوزته أسلحة ومتفجرات وسيارات مفخخة.

التقطت صورًا عدة، وهو يصفق ويهتف لبشار الأسد، وصممت في نفسي أن أفضح ذلك للمحافظ غسان عبد العال، خاصة أنني أمتلك صورًا له وهو في زنزانته. وبعد جولة في الحيّ والتحدّث مع المواطنين الذين راحوا كالعادة يشتكون لنا ما سموه بجرائم العصابات المسلحة والإرهابيين، توجهنا نحو مبنى الأمن السياسي، حيث وجدنا مراقبين آخرين من الفوج الثاني في انتظارنا، واستقبلنا العميد حسام لوقا بمكتبه، حيث قدّموا لنا الحلويات والشاي

والعصير والمشروبات الأخرى، وقد سألته عن المعتقل أحمد محمود، فأخبرني بأنه موجود، ولما قلت له: إنني لمحته في حيّ عكرمة يتظاهر، أنكر ذلك نهائيًّا، فأظهرت له الصور التي بحوزتي، فقال لي: «أنت تخلط بين المساجين، هذا الشخص كان عندنا حقيقة، وأفرجنا عنه هذا الصباح ضمن الدفعة الأولى».

فسألته: «كيف أفرجتم عن دفعة من دون حضورنا؟».

قال: «لقد أخبرونا بأنه لا يمكنكم الحضور، لذلك أفرجنا عن المساجين، وبعدها جاء الأمر بتوقيف عمليات الإفراج حتى تأتي البعثة».

فقلت له: «يعني خرج من هنا مباشرة إلى المظاهرة».

فهزّ رأسه بالإيجاب، وقال: «يريد أن يشكر سيادة الرئيس، الذي عفا عنه، وكما رأيته لا يزال اللباس نفسه».

كنت مقتنعًا بأن القصة التي يرددها العميد لا أساس لها، فأنا متأكد من معلوماتي وما حكاه لي في أثناء وجوده في الزنزانة، ولذلك فضلت السكوت؛ حتى لا أدخل في متاهات أنا في غنى عنها، ولا أزال أنتظر صدى ما كتبت على الفيس بوك.

وقفنا نسجل أسماء المعتقلين المفرج عنهم، فقد رأيت أشخاصًا سبق أن التقيتهم في زيارتنا أمس، وآخرين وجوههم غريبة عني، والعجب أنهم أخبروني بوجودهم في مبنى الأمن السياسي منذ أيام، ما يؤكد وجود زنازين أخرى لم نَرَها، وهناك احتمالات أخرى أن هؤلاء مجرد (كومبارس)، يراد بهم توثيق عمليات إفراج دعائية فقط، المهم أننا لا نملك أي مؤشر يثبت أن الحكومة التزمت فعليًّا ببند الإفراج عن المعتقلين بسبب الأحداث، كما هو مبين في البروتوكول.

أكملنا مع الأمن السياسي تلك المسرحية، وطلبت من العقيد عبدالله الطاهر أن نذهب لزيارة المحافظ، وفي قرارة نفسي أنه اللقاء الأخير الذي سيجمعني به، فنصحني بأن أتفادى الخوض في موضوع السجين؛ لأن ذلك قد يعرضني لمكروه، فهؤلاء لن يقبلوا أبدًا من يكشف ألاعيبهم على حدّ قوله، وقد كان العقيد مقتنعًا بصحّة ما وثّقت، ولكنني صممت على أن نذهب للمحافظ، فاتصل به من أجل ذلك، فأخبره المحافظ بوجوده في الفندق، لذلك طلب من السائق أن يغير وجهته نحو الفندق، الذي لا يبتعد كثيرًا عن موقعنا.

وصلنا، حيث وجدنا المحافظ غسّان عبدالعال يجلس في زاوية بالمطعم مع موظفين وأشخاص آخرين لا أعرفهم، وبينهم من يلبسون الزيّ العسكري، سلمنا عليهم وطلبنا منه أن يسمح لنا بالتحدث معه على انفراد، فنهض وتوجهنا نحو زاوية من المطعم، وكان معي العقيد عبدالله في حين بقية المراقبين ذهبوا إلى غرفهم.

رويت للمحافظ قصّة السجين، فأنكر ذلك، ولكن عندما أظهرت له الصور، قال لي: «يخلق الله من الشبه أربعين».

فقلت له: «الشبه في الملامح، لكن أن تكون ٤٠ في البنطلون و٤٠ في السترة و٤٠ في الجاكيت و٤٠ في الحذاء، فقد صارت ٢٠٠ وليس أربعين».

اقتنعت أكثر بأنني موجود ضمن مسخرة حقيقية، ويجري استغلالنا والتلاعب بنا وبطريقة مهينة جدًّا، كأن المراقبين أغبياء، لدرجة هضمهم إلى مثل ما رأينا من تمثيليات ممجوجة.

استأذنت المحافظ الذي تركته مع العقيد عبدالله الطاهر، وغادرت نحو غرفتي، فقد قررت أن أتصل بمكتب الأمين العام للجامعة العربية نبيل العربي، وهو ما حصل بالفعل، حيث تحدثت مع سكرتيرته الشخصية، ولما

أخبرتهـا بأنني مراقب من بعثة الجامعة في سـوريا، وأريد التحدث مع السـيّد نبيل العربي، طلبت منّي أن أبقى على الخط وبعد دقيقتين أو أكثر عادت وقالت لي: إن الأمين العام غير موجود، ولكن مدير مكتبه سيتحدث معي، فحولتني له، وقد استقبلني ببرودة كبيرة، وأكدت له ضرورة التحدث مع الأمين العام، إلا أنه أخبرني بأنه لا يتواصل إلا مع رئيس البعثة الجنرال الدابي، وإذا عندي أي شيء أنقله لرئيسي المباشر، وهو المخوّل باتخاذ أي قرار مناسب.

لما قلت له: إن النظام السـوري يتلاعب بنا، ويغرقنا في متاهات لا علاقة لهـا بالبروتوكـول، ردّ بالقـول: «رئيس البعثة يقول غير هذا الكلام، وهو يشـيد بتعاون الحكومة السورية».

فقلت له: «أنا موجود في الأرض، والحقيقة أن هذا الكلام لا أساس له».

لـم يظهـر أيّ اهتمام بكلامي، وأكّـد لـي أن الأمين العـام نبيل العربي لن يتحدّث إليّ، ولا داعي أن أتعب نفسي بالاتصال به، وإن غرفة العمليات بالقاهرة تتابع الأمور عن كثب، وإن الأمين العام المسـاعد عدنان عيسـى الخضير، وهو رئيـس غرفة عمليـات الجامعـة العربية المعنيـة بمتابعة أوضـاع بعثة مراقبي الجامعة العربية في سـوريا، يبذل كل الجهـود في الليل والنهار لإنجاح المهمة، وانتهى اتصـالي بالجامعة العربية على تلك الكلمـات، التي أكّدت لي أن الأمور يراد لها أن تبقى في مسارها السيئ فقط.

بعدها اتصـل بي صحفيون، وأخبروني بأن الفضائيات تناولت كلمتي، وإن زوجتي أخبرتني بعدم وجود صـفحتي على الفيس بوك التي يبدو أنها أغلقت أو تمّت قرصـنتها، فأحسسـت بأن الأمور صـارت كبيرة جدًّا. وقد رفضت إجراء أي حديث صـحفي على الرغم من أن الذين اتصـلوا بي كثيرون جدًّا. ومن بين الاتصـالات التي جرت في أثناء وجودي في الغرفة مكالمة من الدكتورة فيوليت

داغر، رئيسة اللجنة العربية لحقوق الإنسان، وراحت تترجّاني أن أصمت ولا أستقيل حتى يقدم رئيس البعثة تقريره الأولي المزمع في ٠٨/٠١/٢٠١٢. فأكدت لها أنني سأنسحب من حمص عند عودة الدابي مباشرة من القاهرة، وراحت تلومني على أنني ساعدت أنصار التدويل، وأن كلمتي ستنسف مهمّة الجامعة العربية والمشروع العربي لحلّ الأزمة السورية.

المؤلف وهو يسجل أسماء المفرج عنهم في مبنى الأمن السياسي ٠٦/٠١/٢٠١٢

المساجين المفرج عنهم من مبنى الأمن السياسي ٢٠١٢/٠١/٠٦

المساجين المفرج عنهم من مبنى الأمن السياسي ٢٠١٢/٠١/٠٦

المساجين المفرج عنهم من مبنى الأمن السياسي ٢٠١٢/٠١/٠٦

مظاهرة مؤيدة للنظام ويظهر في الصورة مسجون الأمن السياسي الذي كان متهما بالانتماء للقاعدة وتورط في قتل المواطنين ٢٠١٢/٠١/٠٦

مظاهرة مؤيدة للنظام ويظهر في الصورة مسجون الأمن السياسي الذي كان متهما بالانتماء للقاعدة وتورط في قتل المواطنين ٢٠١٢/٠١/٠٦

المؤلف والمراقبون أمام مبنى الأمن السياسي بعد نهاية مسرحية الإفراج عن المعتقلين ٢٠١٢/٠١/٠٦

صورة توضح لعبة الأمن السياسي على المراقبين العرب في حمص

ضغط رهيب وبيان الجامعة العربية

بدأت أتلقّى اتصالات هاتفية بأرقام محجوبة تهدّدني بالذبح والقتل، أصحابها كانوا يتحدّثون باللهجة السورية، وخاصة منذ أن تناولت قناة (الجزيرة) كلمتي في نشراتها الإخبارية المتعدّدة. وقد جاء إلى غرفتي المراقب الجيبوتي محمد حسين عمر الذي أخبرني بدوره أن الجهة التي أرسلته قررت سحبه من البعثة؛ لأنها صارت مهزلة على حدّ تعبيره أيضًا.

زارني العقيد عبدالله الطاهر، رئيس الفوج، الذي راح يحاول أن يثنيني عما أنا مصمم عليه، وعدني بأن التقارير لن ترسل لاحقًا إلا بعدما نطّلع عليها جميعًا، ونوافق بالإجماع. لكنني أخبرته بقرار استقالتي وانسحابي النهائي من البعثة، مهما كلّفني الأمر. وفي تلك الأثناء يتصل به الجنرال الدابي، وقد طلب أن يتحدّث معي، فوافقت، وأخذت منه سماعة الهاتف، وكان أول ما قاله الدابي لي: «لقد حنثت بقسمك يا أنور مالك».

فسألته: «ماذا فعلت؟».

أجاب: «لماذا تحدثت لوكالة الفيس بوك على الرغم من أنك أقسمت بعدم التواصل مع وسائل الاعلام؟».

فقلت له: «الفيس بوك ليست وكالة إعلام سيادة الفريق».

فسألني: «ما الفيس بوك الذي يتحدثون بأنك تكلمت معه؟».

كدت أنفجر من الضحك، لذلك أجبته ساخرًا: «الفيس بوك لعبة يلعبها مجموعة من الأصدقاء، وتوجد أخرى اسمها تويتر، سألعبها قريبًا إذا بقي الحال على ما أراه».

فردّ: «أنت جئت لسوريا كي تراقب أو تلعب».

فقلت له: «عن أي مراقبة تتحدث يا دابي، فقد صارت لعبة أيضًا».

فسألني: «هل أوقفت المخابرات السورية لعبتك هذه كما تقول الجزيرة؟».

قلت له: «هي توقفت، لكن لا أعلم من يقف وراء ذلك».

فقال لي: «خلاص، سنتصرف نحن في الأمر، وأنت لا يجب أن تكتب شيئًا أو تتحدث في الموضوع».

فقلت له: «أنا قررت أن أغادر البعثة نهائيًّا».

فقال لي: «أنا الآن مسافر إلى القاهرة، ولما أرجع سننظر في أمرك».

انتهت مكالمتي مع رئيس البعثة الجنرال الدابي، وغادرني العقيد عبدالله الطاهر والقصف الشديد لم يتوقف في تلك الأثناء، وقد زعمت مصادر أمنية في الفندق حسبما أخبرني المراقب العراقي صلاح سعيد عبر الهاتف أن الجماعات المسلحة تستهدف الأحياء الموالية بالمدفعية الثقيلة. بقيت أتابع التلفزيون فإذا بي أفاجأ بخبر عاجل على قناة (الدنيا) الفضائية، حيث ادعت أن من سمّته السفير أنور عبدالمالك أحمد ينفي ما روجته القنوات التحريضية، وفي خبر آخر أن هذا السفير الموجود بحمص يؤكد أنه لم ينشر شيئًا على الفيس بوك، ولا يملك صفحة أصلًا حتى يكتب فيها ما نسب إليه.

لم أمكث طويلًا لأجد خبرًا عاجلاً آخر على قناة الإخبارية السورية، أن الجامعة العربية وزعت بيانًا صحفيًّا تنفي فيه سرقة صفحة (الفيس بوك)

الخاصة بأحد أفراد بعثتها، بل نقلت القناة نفسها عن أحدهم يدعى طاهر أحمد الحسين لا أعرف عنه شيئًا ولم أسمع به، قالت: إنه عضو في البعثة بدمشق، ونفى كل ما تناقلته الفضائيات عن كلمتي بالفايس بوك.

تعجّبت من ذلك، ولكنني فضّلت الصمت؛ لأن الأمور تتجه نحو أفق معقّد للغاية، ويبدو أن الصراع بلغ منتهاه، وخاصة أن أحد معارفي نقل لي عبر الهاتف أنباء عن تناقل واسع عبر الفضائيات ما نشرته عبر الفيس بوك، وأن الكل أجمعوا على غلق صفحتي الخاصة، وما زاد في انتشار ذلك وجود كثير من الصحفيين والإعلاميين في كبرى القنوات والوكالات على حسابي المقرصن.

في ذلك المساء أيضًا اتصل بي الناشط خالد أبو صلاح، الذي أشاد بكلمتي عبر الفيس بوك، وأخبرني بأنه تم توزيع بيانات في باب السباع منسوبة زورًا للثورة، تحذّر الناشطين من التعامل معي ومع مراقبين آخرين هما الجيبوتي محمد حسين عمر والمصري إسلام أبوالعينين.

تواصلت الضغوط عليّ عبر الهاتف، وتعرّضت مرة أخرى لحمى أجهل مصدرها، وفي الوقت نفسه أيضًا تلقيت اتصالات من مناطق عدة في حمص وخارجها، وخصوصًا الخالدية الذين استنجدوا بي مرات عدة بسبب محاولات الجيش اقتحام الحيّ، ولما نقلت ذلك للعقيد عبدالله الطاهر أخبرني بأن الدابي أمرهم بعدم التوجه إلى الأحياء الثائرة، مهما كانت الأسباب والظروف؛ لأن لديه معلومات عن مخططات لاختطاف المراقبين وأسرهم من قبل الجماعات المسلّحة، التي بينها من تنتمي لتنظيم القاعدة حسب رأي الدابي.

أيضًا اتصل بي الناشط عمر التلاوي، وأخبرني بأن رجال أمن يلبسون الزيّ الخاص بالمراقبين ويتجوّلون في الحيّ، وهو الأمر نفسه الذي بلغني من إحدى النساء في القصير، حيث لامتني أن المراقبين لم يتوقفوا عندهم في

حين أنه لا يوجد أي مراقب خارج الفندق، ولما استفسرت منها أدركت أنها كانت تتحدث بلهجة صادقة فيما ترويه عن وجود سيارات تشبه سيارات البعثة، وعليها إشارات الجامعة، وبها مراقبون يلبسون السترات البرتقالية.

ونشرت صباح يوم السبت ٢٠١٢/٠١/٠٧ الصحف التابعة للنظام أخبارًا تتعلق بي، فمنها من اتهمتني بالإرهاب، وأنني كنت الذراع الأيمن لعنتر زوابري أمير (الجماعة الإسلامية المسلحة في الجزائر) في الحقبة الممتدة من ١٩٩٦ إلى ٢٠٠٢، وقد قضت عليه قوات الأمن ببوفاريك (ولاية البليدة) في ٢٠٠٢/٠٢/٠٩ حسبما أعلنت عنه السلطات الجزائرية، وعرضت جثته على الصحفيين بمقر الناحية العسكرية الأولى، ويعد أبرز الدمويين الذين اقترفوا الكثير من المجازر[١]. وأخرى روجت لبرقية وكالة الأنباء (سانا) الرسمية، التي زعمت أنني لم أتواصل مع أي جهة بسبب ملازمتي لغرفتي من جراء المرض العضال الذي أعانيه.

حتى إنني مرة أخذت جريدة وجدتها على رفّ مائدة في بهو الفندق، وقد كتبت ما سمته فضيحة الجامعة العربية، وتحت عنوان ثانوي: (أنور مالك إرهابي كان يقتل الأطفال في الجزائر)، وقد بلغ عدد الأطفال الذين ذبحتهم ١٠٠ طفل، ضحكت سخرية منها، ثم رميتها حيث كانت، فسألني أحد الضبّاط كان يجلس قريبًا: «هل أنت غاضب؟».

قلت له: «لماذا؟».

أجاب: «كتبوا عنك أنك إرهابي، وكنت تقتل الأطفال».

فقلت له: «دعهم يكتبوا».

(١) راجع كتاب (أسرار الشيعة والإرهاب في الجزائر) للمؤلف الصادر عن الشروق بالجزائر في سبتمبر/٢٠١١.

فرد: «أنت لم تقتل الأطفال؟!».

قلت، له ساخرًا: «قتلت لكن ليس ١٠٠ طفل، كما تزعم الجرائد».

سألني بجدية: «كم؟».

أجبته ساخرًا: «قتلت ١٠٥ فأين الخمسة الباقون؟».

ثم استدركت ضاحكًا: «يزورون حتى الأرقام».

ويا للأسف أفاجأ غدًا في الصحيفة نفسها، أنها كتبت في إحدى زواياها، أن أنور مالك يعترف بقتل ١٠٥ أطفال، وأنه يتباهى بذلك في محلّ إقامته في فندق السفير بحمص وعلى مرأى المراقبين، بل ذهبت إلى أبعد من ذلك: أنني أنتشي لقتل الأطفال في سوريا من قبل من سميت بالجماعات الإرهابية.

مغادرة حمص ومحاولة اغتيال فاشلة

مرّت ثلاثة أيام سوداء تحت ضغط رهيب، فالتهديدات بالقتل متواصلة، والحملة الإعلامية بمواقع وصحف موالية بلغت مداها، حتى إن بعض المراقبين كانوا لا يتركونني أتحرّك وحدي، وفضّلت البقاء في الفندق ولا أغادره، والأمر نفسه بالنسبة إلى فوجنا الذي تلقى أوامر من الدابي بعدم الذهاب للأحياء الساخنة حتى إشعار آخر. وفي صباح يوم الإثنين ٢٠١٢/٠١/٠٩ كان موعد مغادرتي مدينة حمص التي دخلتها يوم الثلاثاء ٢٠١١/١٢/٢٧.

بعد ليلة هادئة لم نسمع فيها صوت الرصاص على غير العادة، نهضت مبكرًا، حيث أعددت حقائبي، وكان سيغادر معي المراقب الجيبوتي محمد حسين عمر، حيث إن الجهة التي انتدبته، وهي لجنة الإغاثة واتحاد الأطباء العرب، قررت سحبه من البعثة، وأيضًا مراقب سوادني آخر أصيب بمرض في معدته، وكان يرغب في المغادرة للعلاج.

من المفروض أن ننطلق في حدود التاسعة والنصف على أكثر تقدير، غير أن الحراسة تأخرت في الحضور إلى مقرّ إقامتنا، ولما رحت أسأل أخبروني بأن إحدى السيارات ذهبت لملء خزانها بالمازوت، والغريب أنها تأخرت أكثر من ساعة على الرغم من أن محطة النفط بجوار فندق السفير لا يكلفها الأمر سوى دقائق معدودة على أصابع اليد الواحدة.

راودني إحساس بأن شيئًا ما يدبّر لنا، وهو ما بحت به للمراقب الجيبوتي محمد حسين عمر، الذي كان مقرّبًا منّي، وصرت أثق فيه؛ لمواقفه الطيبة مع

الحق والحقيقة، وقد عبّر لي بدوره عن تخوّفه من استهدافنا في الطريق، لكنه فضّل أن نلتزم الصمت، ولا نضع أنفسنا في خانة الشبهات، وخصوصًا أننا بين يدي نظام لم يرحم حتى الأطفال الرضّع.

في حدود الساعة الحادية عشرة والربع أخبرنا الضباط بأن الحراسة جاهزة للانطلاق، وضعت حقائبي في سيارة من نوع تويوتا التي تقرر أن يقودها المراقب العراقي صلاح سعيد، وقد ركبتها برفقة محمد حسين عمر ومراقبين سوادنيين، أما السيارة الثانية ففيها مراقبون من الفوج الآخر، الذين بدورهم قرروا الذهاب لدمشق من أجل إحضار أغراض تتعلق بالبعثة، حسبما أخبرونا به.

تقدم مني رئيس الفوج الثاني، وهو المراقب العراقي عمار سلمان جابر عباس، ومعه مراسل قناة الإخبارية السورية من أجل أن يأخذ مني تصريحًا حول مغادرتي حمص، ولكنني رفضت وتحت إلحاح شديد نزلت من السيارة، وقلت له ما مفاده: إنني قررت الاستقالة ومغادرة البعثة. أما عن الأسباب فسأقدمها للرئيس الدابي، وهو المخوّل بالتصريح للإعلام. لم يعجبه كلامي، فالتفت للمراقب العراقي، وطلب منه أن أصرّح رسميًّا لقناتهم وأعطي ولو تعليقًا واحدًا عما جرى معي خلال هذه الأيام، غير أنني رفضت التصريح؛ لأنني لا أزال في البعثة والقسم ساري المفعول، ومن جهة أخرى قلت للصحفي: إنني لو أصرّح بأشياء لن تكون في مصلحتهم لن تبثّ أو ستحرّف، لذلك لا داعي أن نتعب أنفسنا.

ودّعت المراقبين كلهم مسلّمًا عليهم، ومنهم من احتضنني وعيناه تذرفان، وآخرون أوصوني بنفسي خيرًا، وبعدها غادرنا الفندق مباشرة، ولكن المفاجأة الكبرى أن سيارات الحراسة التي تسير أمامنا، ونحن نتبعها توجهت بنا نحو الجهة التي نذهب عبرها عادة نحو بابا عمرو، ولم يسبق أن سافرنا نحو دمشق

من ذلك الطريق، فتعجبنا من هذا المسلك، الذي لم يسبق أن سلكناه إلا في زياراتنا لحيّ بابا عمرو أو مبنى الأمن السياسي.

قبل وصولنا إلى بداية شارع البرازيل توجهوا بنا في الطريق الخلفي المؤدي إلى مقرّ الأمن السياسي، فراودتنا الشكوك عن مخطط ما لاعتقالنا أو اختطافنا، فقد كنا على يقين في تلك اللحظات بأن شيئًا ما يدبّر لنا. وصلنا قبالة الأمن السياسي على الكورنيش ولم تتوقف السيارات، فحمدنا الله على مرورنا، ولكن كانت قلوبنا معلقة بالقادم على مدار نحو ١٦٠كم تفصل ما بين حمص ودمشق.

عند صعود السيارات فوق جسر جامعة البعث، إذا برصاص قناصة يستهدفنا، فشعرنا بطلقات قد ضربت المحرك، غير أن السائق العراقي صلاح سعيد كان محترفًا، ويبدو أن له تجربة في مثل هذه الحالات، فضاعف سرعة السيارة واستتر بسيارة عسكرية كبيرة الحجم كانت معنا، وقد كان الرصاص يأتي من الجهة اليمنى، حيث بابا عمرو وحاجز أيضًا يفصل الحيّ عن الجامعة والجسر.

في تلك اللحظات كان المراقبون باستثناء صلاح سعيد يرفعون الشهادتين، أما أنا فقد انتابني شعور غريب، ورحت أدعو الله من قلبي ألا أموت في ذلك اليوم؛ لأنني لا أملك زادًا أقابله به سبحانه وتعالى. الرصاص لم يتوقف، فقد طال أيضًا السيارة الأخرى من المراقبين، وتجاوزنا الجسر في حدود أربعين ثانية وبسرعة فائقة. توقفنا بعدما احتمينا بجانب من الجسر عن مصدر الرصاص الذي كان تقديري في ذلك الوقت أنه قادم من الحاجز العسكري المتمركز بالقرب من جامعة البعث، وله قناصة في كل البيوت المحاذية؛ لأنني على يقين أن عناصر الجيش الحرّ بعيدون عنّا.

توقّف محرّك السيارة؛ إذ أصابته رصاصات وسال الزيت منه، وقبل أن أنزل رحت أفتش في جسمي علّني أصبت برصاصة ما ولم أشعر بها، وهذا أمر طبيعي فلا يمكن أن يحسّ المصاب بها إلا بعد دقائق من النزيف، حمدت اللّه أنني لم أجد أي إصابة في جسمي، والأمر كذلك بالنسبة إلى بقية الزملاء.

فتحت الباب وأنا أهمّ بالنزول، وإذا بصحفية من قناة الدنيا الفضائية تضع ميكرفونها في فمي، وتسألني: «ماذا حصل لكم؟».

وأنا أنظر إليها باستغراب عجيب، قلت لها: «من أين أتيت أنت في هذه اللحظة، التي نتعرض فيها لمحاولة اغتيال؟».

أجابت كمن تريد أن تدفع عن نفسها تهمة ما: «كنت مارّة من هنا مصادفة، وإذا بي أسمع الرصاص، فسارعت إليكم».

ضحكت، وقلت لها: «لدي تجربة طويلة في الإعلام، فأول مرّة أجد الصحفي يسبق الحادثة، وينتظر وقوعها حتى ينال السبق كان هنا في سوريا ومعك أنت بالضبط».

تركتني وسارعت نحو مراقبين آخرين، تريد منهم تصريحات إعلامية، أما نحن فرحنا نلتفّ حول السيارة، فقد كانت مصابة، وأيضًا أصيب عسكريان: أحدهما في ذراعه، وآخر قالوا لنا: إن الرصاصة اخترقت بطنه، وكان ينزف، وجرى نقله سريعًا من دون أن نراه إلى المشفى بسيارة إسعاف، بدورها لم تكن بعيدة عن عين المكان، كأنها تنتظر مقتلنا.

رجعت صحفية تلفزيون الدنيا إليّ مرّة أخرى، بعدما لم تفلح في أخذ أي تصريح من بقية المراقبين، الذين كانوا مصدومين للغاية، وظهر ذلك من ملامحهم، والانهيار النفسي الذي ألمّ بهم. سألتني مرة أخرى: «حدثنا عن كيفية تعرضكم لإطلاق نار من طرف المسلحين في بابا عمرو؟».

ثم أضافت: «قل لي احكِ لي...».

أجبتها: «لا أحكي شيئًا ها هي سلطات الأمن موجودون سيحكون لك القصة كيف حدثت».

فسألتني: «لماذا سلطات الأمن؟ أنت كنت موجودًا في السيارة».

أجبتها: «سلطات الأمن يعرفون من حاول قتلنا، وكيفية تحضير العملية، وجهي سؤالك إليهم أحسن لك».

قالت: «في رأيك لماذا الجماعات الإرهابية أطلقت عليكم النار؟».

ضحكت، وقلت لها: «الأمور واضحة، فلا داعي للكلام الآن».

أدركت أنها أحسّت بالمقصود من كلامي، حيث كنت أتهم الأمن، وأستبعد تورط الجيش الحر فيما ينسب إليهم على لسان هذه الصحفية... فابتعدت بالحديث نحو كلام آخر، فقالت: «أنت كنت موجودًا، أين كنتم ذاهبين؟».

أجبتها: «لا أقول شيئًا».

أحد الأشخاص كان يقف مع مجموعة يلبسون الزيّ المدني، التفّوا من حولنا بمجرد توقفنا، وكانوا كلهم يوجهون شتمهم لمن يسمونهم بالإرهابيين، تدخّل قائلًا: «تكلّموا يا كذّابون... تكلموا أيها البكريون[1]».

ثم استرسل يشتمنا ويسب الصحابة ﵃، بل كال ما يندى له الجبين في حقّ أم المؤمنين عائشة ﵂، في تلك الأثناء لم أتمالك نفسي، واستدرت نحو الصحفية التي لا تزال واقفة بالقرب منّا تتابع الجدل الدائر، وخاطبتها: «عليك الآن أن تصوّري، وأتمنى بثّ كلامي».

ثم التفت للشخص الذي لا يزال مسترسلًا في الكلام الفاحش البذيء، وقلت له: «ما دخلك أنت حتى تتحدث معنا بهذه الطريقة».

(١) نسبة لأبي بكر الصديق ﵁.

ثـم قلـت: «انتبه يا هذا... أعتـزّ أن أكون حفيد الصـحابة رضي الله عنهم أجمعين.. واعتبرني حفيد كل صـحابي تعرف أو لا تعرف، وما أكثر الذين لا تعرف.. لكن أنت حفيد من؟».

كان يقهقه من السـخرية على كلامي، وقـال: «وهابيون... أنت من جامعة الكلاب...»، وكلام فاحش آخر لا يمكن أن أكتبه.

وقد بلغ غضـبي منتهاه من تجاوزه لكل الحدود الأخلاقية، خاطبته: «أنت لا تعرف حتى والدك من هو.. فقد نسبت لآخر، واحد في قائمة المستمتعين..».

فـي تلك اللحظات يسـحبني المراقـب الجيبوتي محمد حسـين عمر من ذراعي، وهو يترجّاني أن أصمت، ولا أصعّد الأمر، فهذا الشخص الذي أتحدث إليه من الشبّيحة، وتحت إبطه السلاح، وقد يقتلني بدم بارد.

استجبت له، وابتعدت عن المكان نحو السيارة التي كانت متوقفة غير بعيدة منّا، فركبتها وبقيت أنتظر حضـور سيارات أخرى كي تنقلنا إلى دمشق، وهو ما لم يتأخر كثيرًا، وحضرت حيث ركبناها مباشرة، وأكملنا طريقنا نحو العاصمة السورية، وقد شعرت حينها بأنه لا يمكن أن نستهدف مرّة أخرى، فقد كنت على يقين أن قناصـة النظام هم من اسـتهدفونا، ولا يمكن تكـرار العملية بما يكون مفضوحًا للكل، وخاصة أن اتصالات هاتفية جاءتنا من غرفة العمليات بدمشق تؤكد الضـجّة التي حدثت إعلاميًّا بعدما تداولت الفضـائيات خبرًا عاجلًا عن استهدافنا، حيث ذهبت القنوات الموالية للنظام تتهم المسلحين في بابا عمرو بالوقوف وراء العملية، في حين قنوات أخرى مستقلة تحدثت عن حادثة تعرّض المراقبين في حمص لطلقات نارية من دون تفاصيل أخرى.

عسكري مصاب في محاولة الاغتيال

العسكري المصاب في محاولة الاغتيال

سيارة المراقبين بعد إصابة المحرك

سيارة المراقبين المصابة

آخر لقاء مع الجنرال الدابي في دمشق

وصلنا فندق الشيراتون بدمشق، ولم نتعرض لأي مضايقة في الطريق، والحمد لله، حيث قام موظفون بالجامعة العربية بتوزيعنا على الغرف، وهناك التقيت بعثة تتكوّن من ١٢ مراقبًا أردنيًّا ومراقبين آخرين من دول مجلس التعاون الخليجي الذين وصلوا قبل يوم فقط، ووجدت أيضًا المراقبين التونسيين فتحي بلحاج وأحمد المناعي اللذين بدورهما التحقا حديثًا بالبعثة بتكليف من (اللجنة العربية لحقوق الانسان)، ولم يتمّ توزيعهما بعد، ولا شاركا في أي مهمة ميدانية. وراجت أخبار كثيفة عبر كل فضائيات العالم عن إطلاق الرصاص علينا في جسر البعث في حمص، وتباينت التحاليل والتفاسير.

في حدود الساعة الثامنة مساء تجمعنا أمام مدخل الشيراتون؛ كي نذهب للقاء رئيس البعثة محمد أحمد مصطفى الدابي، حيث فوجئت بالمراقب المغربي عبدالحميد الوالي الذي سبق الحديث عنه من قبل لما قدم انتقادات لاذعة للبعثة ورئيسها في الاجتماعات الأولية، وقد أخبرني بأنه قرر الانسحاب ولديه طائرة في تلك الليلة نحو باريس، وجدّد السيد الوالي انتقاداته للبعثة، وأكّد أن ما تخوّف منه في البداية قد حصل، والمهمة فشلت فشلًا ذريعًا، وأرجع ذلك لعدم تماشي البروتوكول مع الوضع القائم، وغياب كامل للآليات اللازمة، فضلًا عن أن النظام السوري لم يلتزم بما تعهّد به للدول العربية.

انطلقنا في سيارتين إلى مقر مقاطعة الجامعة العربية، حيث يوجد مكتب الفريق أول الركن محمد مصطفى الدابي الذي عاد في ذلك اليوم فقط

مـن رحلته إلـى القاهرة، حيث قدم تقريـرًا أوليًّا عن عمله في سـوريا لمجلس الجامعة المتابع للأزمة. وصـلنا إلى المقر، حيـث كنت أنا والمراقب الجيبوتي محمد حسـين عمر والسوداني جيلي البشـير والمراقب المغربي الوالي وعميد تونسي ومراقب مصري يدعى أحمد عبدالله خليل، وكانوا كلهم من أجل مقابلة الرئيس لنيل الموافقة على مغادرتهم دمشق نحو بلدانهم.

بدأ الدابي في استقبال الوالي الذي لم يتأخر معه إلا بضع دقائق، وبعدها خرج ليودّعنا، فهو سـيتوجه مباشـرة نحو المطار، وبعدها اسـتقبل السـوداني جيلي البشير، حيث لم يوافق له على المغادرة، وأمره بالبقاء في دمشق للعلاج، وفي حدود التاسعة بالضبط جاء دوري، ودخلت على الجنرال الدابي في مكتبه، حيث وجدته برفقة سكرتيرته الشخصية السيدة إلهام الشجني.

استقبلني الدابي ببرود تام، وظهرت على ملامحه علامات الانزعاج مني، وبمجرّد أن جلست بادرني قائلًا: «ارتكبت أخطاء كثيرة في وجودك معنا».

سألته: «أي أخطاء ارتكبت؟ اذكرها لي لو سمحت».

قال: «تدخّلت في أمور لا تعنيك».

للمرة الأخرى قلت له: «اذكر لي شيئًا واحدًا، تدخلت فيه، وهو لا يعنيني».

قال: «لا داعي للخوض في التفاصيل».

قلت له: «بل يجب أن نتحدث في كل شيء وبكل صراحة؛ لأن البعثة غرقت، وصارت مجرد وسيلة تشبيح لدى النظام».

هـزّ رأسـه، ونظر إليَّ نظرات، قرأت فيها ما أوحـى لي بأن الرجل لا يقبل أدنـى انتقاد، ويحتاج فقط إلى أولئـك المطبّلين، الذين يمدحونه ويطرونه آناء

الليـل وأطراف النهار، مثل الذين أحاط بهم نفسـه، ثم قال: «أنت تتعاطف مع المسلّحين كثيرًا، لأنك معارض لنظام بلدك».

قلت له: «لست معارضًا أنا كاتب وحقوقي نزيه، ولم أتعاطف مع أيّ طرف، لكن موقفي مع الحق الذي هو موجود على أرض الواقع».

ثم استدركت: «أنت تتعاطف مع النظام؛ لأنك جنرال في بلدك».

قال لي: «ما دليلك؟».

قلـت له: «عنـدي الكثير جـدًّا، من بينه العشـاء الـذي تتناولـه مع رامي مخلوف في نادي الشـرق على الرغم أن ذلك لا علاقة له بالبروتوكول ويسـيء لاسـتقلاليتنا. أمرك بعدم الذهاب للمناطق السـاخنة والاقتصار على الموالية. تزوير التقارير. تصـريحاتك الصحفية التي تصبّ كلها في مصلحة النظام... هل تريدني أن أزيد، ففي جعبتي الكثير جدًّا؟!».

اسـودّ وجهه أكثر من ذي قبل، فكلامي الصـريح أوجعـه، ولم يتجرأ على نفي أي شيء منه، قال: «ماذا تريد منّي الآن؟».

أجبته: «أنا استقلت من البعثة، وقررت مغادرة سوريا».

فقال: «لك ما تريد، فوجود أمثالك أتعبنا كثيرًا».

قلت له: «لا يهم رأيك أنت، المهم أن ضـميري مرتاح، ولا أقبل المشـاركة في هذه المهزلة».

قال لي: «لا تنسَ أنك أقسمت بعدم التحدث لوسائل الإعلام».

قلـت له: «سـيادة الجنرال، حين أغادر فأنا حرّ أتكلـم أو أكتب أو أفعل ما أريد، فقسمنا يتعلق بمرحلة وجودنا في البعثة، وليس بعدها».

سألته: «ماذا عن محاولة اغتيالنا، الذي تعرضنا له هذا الصباح؟».

ثم أضـفـت: «هل تحرّكت لأجل التحقيق في الموضـوع، أم لا يهمّك مادام لم يستهدفك أنت؟».

أجاب بكل هدوء وبرودة أعصاب: «هذا فعل معزول».

تعجبت من جوابه، فسألته: «ماذا تقصد بالفعل المعزول؟».

ردّ بتململ: «ليست محاولة اغتيال كما تتخيّل، ولا داعي للنقاش في ذلك».

سألته: «هذا جوابك أنت، أم جواب الحكومة السورية؟».

ردّ: «قلت لك: إنه فعل معزول».

فقلـت له: «فرّق بين فعل معزول أو غير معزول، ولكن القاسـم المشـترك بينهما هو ثبوت محاولة الاغتيال، وهذا الذي يهمّ في القضية كلها».

تهرّب من كلامي الذي حاصره لما فضح نفسه بنفسه، فالتفت نحو السيدة إلهام الشجني، التي كانت تجلس غير بعيدة منا، وخاطبها قائلًا: «سجلي اسمه، واحجزوا له تذاكر السفر؛ حتى نرتاح من الصداع».

قلت له: «لسـت صداعًا يا سـيادة الجنرال، فوالله لو أخذت بمشورتي في كثير من الأمور لكانت المهمة ناجحة، ولكن أنت حرّ في خياراتك، وقد ضـيعت فرصة تاريخية ستذكرها الأجيال بخير، ولكنك يبدو أنك فضلت العكس».

قال لي: «غدًا ستأخذ التذاكر، ونتمنى لك حظًّا سعيدًا، واذكرنا بخير».

وقفـت، وأنـا أقول له: «إذا أنت تعتقد بينك وبين نفسـك أنك فعلت خيرًا، فتأكد أنني سأذكرك بخير».

صافحته، وأنا أهم بالمغادرة تذكّرت شيئًا، فقلت له: «أنا أريد الذهاب للقاهرة، وليس لباريس، لذلك يجب أن تستخرجوا لي تأشيرة أيضًا».

التفت إلى إلهام، ومن دون أن يعرف سبب ذهابي للقاهرة، وقال لها:

«استخرجوا له التأشيرة والتذاكر».

غادرت المكتب فورًا؛ ليكمل رئيس البعثة الدابي استقبال بقية المراقبين، وبعدها رجعنا إلى فندق الشيراتون، حيث تناولنا وجبة العشاء، ثم انزويت في غرفتي أتابع الأخبار عبر فضائيات مختلفة كثيرة، عكس ما عليه الشأن بفندق السفير في حمص.

اتصلت هاتفيًّا بالناشط خالد أبو صلاح، وحدثته عن محاولة قتلنا، فأخبرني بأنه تابع الأمر، وتوصّل إلى معلومات من قبل أحد الأساتذة في جامعة البعث، أنه رأى القناصة يستعدّون قبل وصولنا، وهم من الشبّيحة الذين ينتمون إلى حاجز عسكري يوجد ما بين الجامعة وبابا عمرو. ونفى أبو صلاح كل الاتهامات التي وجهت للجيش الحر، حيث لا يمكنهم أن يستهدفوا البعثة من جهة ومن جهة أخرى أنهم لا يصلون للمكان الذي كنا فيه، وأكثر من ذلك أن موقفي أسعدهم كثيرًا، وصاروا يدعون لي، فلا يعقل أبدًا أن استهدف برصاص لقتلي. وتحدث لي أحد الطلبة في الجامعة نفسها واسمه أبوعدي، الذي بدوره أكّد لي أن قناصة الحاجز هم من أطلقوا علينا الرصاص، ويوجد من شاهدهم يستعدّون لذلك.

الطريق إلى الدوحة

صــباح يوم الثلاثاء ٢٠١٢/٠١/١٠ اســتيقظت مبكرًا كعادتي، حيث أديت صــلاتي وقرأت بعض السور من القرآن الكريم، وقد كنت أعدّ الدقائق من أجل مغادرة البلاد، حتى صارت أحاسيسي تسابق مكروهًا ما قد يحدث لي لو بقيت أكثــر من ذلــك الوقت، هذا ما كان يدور في خاطري تلك الليلة، وزاد في تأجيج هــذه المشــاعر محاولة الاغتيال التي اســتهدفتنا، والتي أكـدت الحيثيات كلها أنهم أرادوا تصفيتنا، وبلا شكّ أنني المقصود الأول من وراء العملية.

بعدهــا نزلت إلــى المطعم، وتناولت وجبــة الإفطار، ثم بقيت جالسًــا مع بعض المراقبين نتحدّث عمًّا يجري، وقد وجدت بعضــهم مـن الخليج العربي يجهلون الكثير من الأمور، ولا يعلمون شـيئًا عما نقوم به، وشــرحت لهم أسباب انســحابي، وقد أبدى بعضهم تشــاؤمًا مما ينتظر عملهم، وظهر على ملامحهم مدى الامتعاض من تسيير شؤون البعثة.

في حدود العاشــرة رأيت رئيس البعثة الفريق أول الركن محمد مصطفى الدابــي وهــو يجلس على أريكة غيــر بعيد منا، برفقة مدير مكتبــه العقيد أكرم وسكرتيرته الشخصية السيدة إلهام الشجني، ومع أشخاص آخرين لا أعرفهم، فتوجهــت نحوهم، ســلمت عليهــم جميعًا، وقــد ردّ الدابي ببــرود، كأنه لا يريد رؤيتي، لذلك بادرته بالقول: «أريد التحدث إليك سيادة الفريق».

وهو يهمّ بالنهوض، ردّ: «خيرًا».

قلت له: «يجب أن أغادر هذا الصباح».

سألني: «إلى أين؟».

تعجبت من سؤاله، وأجبته: «نحو القاهرة، كما تحدثنا البارحة».

سحبني من ذراعي كأنه يريد أن يحدثني على انفراد، وقال بصوت منخفض: «بعد مشاورات قررنا أن تبقى هنا، ولا تغادر».

بدأ الغضب يسري في جسدي، وقلت له: «مشاورات... مع من؟».

قال بلهجة من يتوسل إلي: «يا أخي، أنت تحدّث عنك وسائل الإعلام كثيرًا، واضطرت الجامعة العربية إلى أن تصدر بيانًا ولو تغادر فستذبح البعثة حتمًا، ونحن نريد أن نستمرّ أكثر وقت ممكن، وواجب علينا أن نوفّق في حلّ الأزمة».

قلت له: «سيادة الفريق، مغادرتي أمر لا رجعة فيها، وأريد التذاكر والتأشيرة هذا اليوم، وانتهى الأمر».

قال لي: «أقترح عليك أن تبقى هنا في دمشق بالشيراتون لا تشتغل ولا تخرج للميدان، وأزيد أجرك إلى ٢٠٠ دولار يوميًّا، وتكون سيارة تحت أمرك، كي تتجوّل في المدينة الجميلة، وتذهب للصلاة في مسجد الأمويين».

أحسست بأن جهات ما من المخابرات السورية هي التي أوحت له بهذا الكلام، لذلك قلت له: «أولاً: لا أريد أجرًا حتى على الأيام التي قضيتها في مهمة زور ودماء الناس تنزف، وثانيًا: حيّرني تبديل قرارك بين عشية وضحاها».

وكأنه يريد أن ينهي الحديث معي، ردّ: «أنت قبلت اليوم الأول أن تكون ضمن البعثة، وقرار انسحابك ليس في مصلحتها، ولذلك قررت ألا تغادر، وانتهى الأمر».

بلهجة تحذير قلت: «اسمع سيادة الجنرال، لست ككل الناس الذين عرفتهم في حياتك، والله العظيم إذا لم أحصل على التذاكر وأغادر اليوم، سأطلع على الفضائيات وأطلب النجدة من العالم، كي أغادر دمشق».

استدار نحوي وقد تجهمت ملامحه، وقال: «تهدّدني...».

رددت عليه: «يظهر أنك لا تحب التعامل باحترام، وتعرف الجزائري لما يقرر شيئًا، ونصيحتي أن تأمرهم أن يحجزوا لي الآن وفورًا».

أدرك الدابي أنه لا مجال لإقناعي بالبقاء، فلجأ إلى حيلة أخرى، قائلاً:

«نحن لا نملك أموالًا الآن، وستصلنا بعد ثلاثة أيام، وتعرف أن الجامعة العربية لا تتعامل مع البنوك السورية، فننتظر وصولها عبر الأردن، وبمجرد أن تصل سنحجز لك وتغادر، ولكن اصبر علينا فقط».

شممت رائحة المراوغة في كلامه، لذلك قلت له: «لن أصبر لحظة واحدة، ومستعدّ أن أسافر على حسابي الشخصي، ولا أريد منكم شيئًا، ولكن يجب أن تحضروا لي تأشيرة، فأنا يجب أن أذهب لمقرّ الجامعة العربية لأضع الأمين العام في الصورة الحقيقية حول ما يجري في البعثة».

نظر إليَّ، وقال: «والله أنت مجنون».

رددت عليه بصوت مرتفع، أثار فضول غيرنا: «يجب أن تحترم نفسك يا دابي، ولن أسمح لك بالتجاوز في حقّي».

في تلك اللحظات تقدم منا العقيد أكرم، وطلب الدابي في أمر عاجل، وأحسست أن الرجل كان يستمع للحوار الذي يدور بيننا، وتدخل في الوقت المناسب، خشية تطوّر الأمر إلى ما لا تحمد عقباه، وخاصة أن الصحافة والمخابرات موجودة في الفندق بكثافة.

بقيت جالسًا في إحدى زوايا الفندق، ولم أمكث طويلاً، وإذا بموظف الجامعة العربية ينادي علينا، فالدابي يريدنا في اجتماع مستعجل، فنهضت وتوجهت نحو القاعة، حيث التقيت مع مراقبين من البعثة الجزائرية، الذين يعملون في دمشق، ويتعلق الأمر بكل من السفير ساعد بلعابد، والسفير لحسن تهامي، والمقدم جريبي محرز، والمقدم ميقاتي علي، وحدثتهم عن قراري بالانسحاب من البعثة، وقد وجدوني غاضبًا من الدابي، فنصحوني أن أصمت، وأحاول المغادرة بهدوء، وعندما أخرج من البلاد أفعل ما أريد.

في الاجتماع راح الدابي يخطب علينا حول البعثة، واجترّ الأسطوانة الأولى على مرأى المراقبين الجدد، التي حدثنا بها في البداية عن الحق والحقيقة والنزاهة والاستقلالية والحياد، حتى إنه قال بلهجة فيها نبرة غير مقبولة: «لهذه اللحظة احمدوا الله أنه لم يمت أي أحد منكم».

راح بعض المراقبين يحتجّون على كلام الدابي والأسلوب الذي تحدّث به، ولذلك استدرك كلامه بالقول: «لم تفهموا قصدي، أنا أقول نحمد الله أنه لهذه اللحظة لم يصب أو يقتل أي مراقب من البعثة».

كما تأسف عن الخبر الذي وصل توًّا عن تعرّض المراقبين في إدلب لاعتداء من قبل أنصار النظام، وأخبرنا أن مراقب كويتي أصيب بكسر في ذراعه، وأن حالته الصحية لا تدعو للقلق. وأكّد الدابي أنه سيتّخذ كل الإجراءات اللازمة مع السلطات السورية والجامعة العربية؛ حتى لا تتكرّر مثل هذه الأمور.

انتهى الاجتماع وفضّلت الصمت من دون أن أنطق ببنت شفة، وتناقش المراقبون مع رئيس البعثة حول أمور عدة، لا تختلف عن تلك التي سبق أن تحدثنا فيها بداية العمل، وبعدها غادرنا القاعة، حيث توجهنا إلى صالون في الفندق.

كنت جالسًا برفقة المراقب الجيبوتي محمد حسين عمر، والتحق بنا حينها المراقب العراقي صلاح سعيد، الذي نقل لنا خبرًا عن وصول سيارة المراقبين من إدلب، وأعلمنا أيضًا أنه اتصل بالعقيد عبدالله الطاهر، ووجده محاصرًا في سيارته بالخالدية، وأن الجيش تدخل لإخراجهم، فتعجبت من الخبر لأن الجيش لا يمكنه أن يدخل حيّ الخالدية، فقال: إن هذا ما سمعه، وإن الدابي عاتبهم على عصيان قراره بتوقيف زيارة الأحياء الساخنة، وأمرهم بعدم الذهاب إليها حتى إشعار آخر(١).

توجهنا لرؤية السيارة التي كانت في موقف الشيراتون، ووجدنا عليها كتابات كثيرة بألوان مختلفة، من بينها أذكر: «ما بتخجلوا جيتوا على سوريا وتركتوا فلسطين»، «شبّيحة لعيونك يا أسد»، «عاش بشار الأسد»، وشعارات أخرى فيها تأليه لبشار الأسد، وتطاول على الجامعة العربية وبعض الدول.. وعلقوا على السيارة صورًا مختلفة لبشار الأسد بالزيّ العسكري والمدني وأخرى لنجلِه حافظ.

في حين السيارة الثانية لم أقف عليها، وإن كانت صورها التي تناقلتها الفضائيات المختلفة تؤكد أنها تعرضت لدمار كبير، وقد كان اليوم بامتياز على المستوى الإعلامي، يتحدث عن ملاحقة البعثة من حمص إلى إدلب، دفعت وزير الخارجية وليد المعلم إلى أن يخرج ويصرّح برفضه التعرض للبعثة بأي أسلوب كان، وأدان ما جرى في إدلب من دون أي إشارة لحمص.

عدت إلى الفندق، حيث جلست على إحدى الأرائك، وكنت أراقب قاعة فيها تلفزيون، والناس يصفقون ويتابعون بنهم خطاب بشار الأسد، حينها التحق بي المراقب المصري أحمد عبدالله خليل، وأخبرني بأنهم حجزوا له

(١) حكى لي الناشط الميداني أبو جعفر المغربل لما التقيته في مدريد بتاريخ ٢٥ / ٨ / ٢٠١٢م أن القصة كلها مفبركة، وقد استقبل بنفسه المراقبين أحسن استقبال.

ثـم ألغوا التذكرة، فتأكـدت أن الدابي كان يكذب عليّ فقط لما زعم عدم وجود أمـوال. فقلـت له نخرج أمام الفندق، لأنني أحسسـت باختناق من كلام بشـار الأسـد وتصفيقات ضباط المخابرات، فخرجنا من الفندق، إذا بي رأيت وكالة سـياحية للأسـفار في إحدى الزوايـا، فتوجهت إليها، وسـألت عن الحجز فردّ الموظف أنه على اسـتعداد أن يحجز لـي، فطلبت منه أن يبحث لي عن مواعيد الطيـران في ذلك اليوم. وبعد دقائق أخبرني بأنه توجد ثلاث طائرات في ذلك المساء: واحدة للقاهرة وأخرى لإسطنبول وثالثة للدوحة.

تركته على أساس أن أعود له لاحقًا من أجل ضبط الحجز، وغادرت برفقة المراقب المصري، ورحت أفكر في الحلّ؛ لأنه لا يمكنني الذهاب إلى أي بلد من هذه البلدان إلا بتأشيرة، ولم أجد سوى الدوحة التي كنت أتردّد عليها للمشاركة في برنامج (الاتجاه المعاكس) الذي يقدّمه الدكتور فيصـل القاسم. فاتصلت بصـحفي جزائري يعمل بالجزيرة فأخبرته بالأمور، وأبدى لي اسـتعداده التامّ أن يحضـر لي تأشيرة في ظرف قياسي، وكان شرطه الوحيد فقط أنه في حالة خروجـي الإعلامـي أمنـح قناتهم أول حوار صـحفي معي، فوعدتـه بذلك وفي قرارة نفسـي كنت مصممًا على الظهور حتى أنسف الأكاذيب التي يريد الدابي التسويق لها.

أعطيته بريدي الإلكتروني الثاني؛ لأن الآخر الذي كنت معروفًا به قد تمت قرصـنته مع صـفحتي في الفيس بـوك بحمص.. بقيت أنتظـر برفقة المراقب المصري الشـاب، حتى أعاد الاتصال بي الصـحفي الجزائري، ليخبرني بأنه أرسل لي التأشيرة عبر الإيميل، فتوجهت نحو نادي الأعمال في الفندق الذي به أجهزة كمبيوتر وإنترنت، ففتحت البريد وطبعت التأشـيرة، ثم خرجت فورًا في اتجاه الوكالة السياحية وحجزت نحو الدوحة.

قام المراقب المصري أحمد عبدالله خليل بحجز تذكرة نحو القاهرة، وكان موعدنا غير بعيد عن بعض، ولم يعد يفصلنا عن ساعة السفر سوى أربع ساعات، توجهنا للمطعم حيث تناولنا وجبة الغداء، ولم تكن شهيتي مفتوحة، لذلك أكلت بعض الفاكهة فقط.

بعدها سألت أحد المراقبين الجزائريين عن الموظف في الجامعة العربية المكلف بالتوصيل إلى المطار، فذكر لي أنه يدعى فتحي وهو مصري، رحت أبحث عنه حتى وجدته بعدما دلّوني عليه، وعرفته من دون أن أتحدّث له.

بقيت أراقب الجنرال الدابي حتى رأيته دخل إلى القاعة التي سبق أن اجتمعنا فيها، وكان معه ضباط سامون من المخابرات السورية، فذهبت نحو العقيد أكرم الذي كان يقف قبالة باب القاعة مع أحد المراقبين السودانيين، فسألته عن رئيس البعثة، وأنني أرغب في التحدث إليه، فأخبرني بأنه في اجتماع مغلق، وسعدت كثيرًا لما أعلمني بأن الاجتماع سيستغرق أكثر من ساعتين على الأقل، وقد علمت من بعض المراقبين أن الدابي لما يجتمع مع ضباط المخابرات السوريين يطول وقته معهم، والغريب أن لا أحد من بقية المراقبين يحضر معه، إلا مدير مكتبه العقيد أكرم في بعض الحالات فقط.

وجدتها فرصة سانحة؛ لذلك طلبت من المراقب المصري الذي كان جالسًا على إحدى الأرائك أن يحضّر حقائبه، فتوجهت نحو الموظف المدعو فتحي، وطلبت منه توصيلي برفقة مراقب مصري نحو المطار؛ لأننا سنتوجه نحو القاهرة بأمر من رئيس البعثة، الذي أوصاني أن أطلب منه ذلك، وقد ذكره الدابي بالاسم حسبما نقلته له. فتهلل وجهه والتفت نحو أحد الضباط الذين يعملون معه في نقل المراقبين والبريد، وطلب منه تحضير السيارة لننطلق فورًا نحو المطار.

صعدت سريعًا إلى غرفتي، وأحضرت حقيبتي، ووجدت فتحي والضابط الذي معه قد جهزا السيارة، فركبنا وتوجهنا نحو المطار مباشرة، ومن دون

أن أثير فضـــول أي أحد. في الطريق كنت متخوفًا أن تطلب سلطات أمن المطار مني تأشـيرة السفر إلى قطر، التي كان مكتوبًا عليها أنها مستخرجة من طرف شبكة الجزيرة. وإنني تمنيت ألا يتفطّن فتحي إلى أمر ذهابي نحو قطر، ولست مع صاحبي المسافر إلى القاهرة.

فـي الطريق كنت أدعو الله تعالى أن أخرج سـالمًا من دمشــق، وكنت أتلو آية من سـورة يس، حيث قـال الله تعالـى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾، حيث قرأت سَدًّا بفتح السين وضمّها كما ورد في قراءة أخرى.

وصـلنا إلى المطار، فتوجّه بنا الضــابط الذي يسوق السيارة مباشرة نحو القاعة الشـرفية، التي يسـتقبل ويغادر منها كبار الزوّار، والتي سـبق أن دخلنا منها أول مرة عند وصولنا إلى دمشق قادمين من القاهرة.

اتصــل الضــابط بأحد الضــباط الذين يعملون في المطار، فحضــر إلينا سـريعًا، فأخذ جواز سـفري ليختمه، وحمدت الله أنه لم يطلب مني التأشيرة، وقد قررت لو يطلبها مني سـأخبره بأنني سـأنزل في الدوحة ومنها إلى باريس، لكـن ذلك لم يحـدث فختمه، وعـاد إلينا مجـددًا إلى حيث نجلسـ على أريكة مزركشة في القاعة الشرفية.

بعدما شــربنا الشــاي وعصــير البرتقــال، رافقت الضــابط وقلبي يخفق بشــدة، لكنني فضلـت أن أتمالك نفسي، ففي حقيبتي كل الصور، وما كتبته من يوميــات بحمصـ، وكان معي طبعًا المراقب المصــري الذي وقف عند شـبّاك ليتمم الإجراءات، أما أنا فوقفت أمام شبّاك آخر غير بعيد منه، أعطيته جوازي ثم أودعت حقيبتي، وسـلمني تذكرة الركوب والأمر نفسه بالنسبة إلى صاحبي. وبعدها رجعنا إلى القاعة الشـرفية مجدّدًا. بقيت أرقب النـاس، وكل مرة يدخل

أشخاص أعتقد أنهم قدموا من أجل القبض عليّ، أو ربما تفتيش محفظتي التي فيها كل ما حملته معي من البعثة.

لم نلبث كثيرًا، وجاء الضابط مجددًا، وأخبرنا بضرورة الدخول إلى قاعات الركوب، تجاوزنا المراقبة العادية ككل المسافرين، ومن هناك افترقت عن المراقب المصري، وتمنيت له الحظ السعيد في مشواره، وغادرني في اتجاه الجهة المخصصة لطائرة القاهرة. أما أنا فتوجهت نحو جهة الطائرة القطرية من خلال الأرقام التي ظهرت على شاشات مخصصة لذلك.

طبعًا لم أمكث إلا لحظات، ورأيت مضيفة تابعة للخطوط الجوية القطرية وصلت توًّا أمام بوابة ركوب المسافرين، فتقدمت نحوها، وطلبت منها أن تسمح لي بدخول الطائرة، فقد كنت حجزت بالدرجة الأولى، وأخبرتها بأنني مرهق للغاية، وأحتاج إلى أن أجلس في مقعدي، فسمحت لي دون تردّد؛ لأنه لم يبقَ كثير على موعد الركوب، ثم الانطلاق.

كنت متخوفًا من توقيفي في آخر اللحظات، لذلك فضلت أن أدخل الطائرة؛ لأنني أعرف أن القانون لا يسمح لأي أحد كان باقتحام طائرة دولة أجنبية، لأنها تخضع لسيادة بلادها، ولهذا قلت: لو جاء أمر اعتقالي في آخر دقيقة لا يجب أن أكون لقمة سائغة، بل على الأقل أورطهم مع دولة ما، وحظي أنني على متن طائرة قطرية، لديها صراعها المتنوع مع نظام الأسد، بسبب مواقفها الداعمة لثورة الشعب السوري.

كان صديقي الصحفي الجزائري الموجود في الدوحة يتصل بي بين لحظة وأخرى، ومن دون خوض في أي تفاصيل كان يطمئن عليّ، حيث أخبره بأن الأمور جيدة فقط، وبعد نحو نصف ساعة كان الركاب قد التحقوا جميعًا بمقاعدهم وعددهم قليل، حيث بقي أكثر من نصف الطائرة فارغًا.

لم أتنفس الصعداء إلا بعد غلق الأبواب، ثم تحرّكت الطائرة من مكانها، وعلى الرغم من كل ذلك تعاودني أحيانًا الشكوك في أن يصدر الأمر بعودتها وعدم مغادرتها، ولكن ذلك لم يحدث وحلّقت بنا الطائرة في سماء دمشق.

نظرت إلى المدينة التي أعشقها منذ زمن، وكان لها وقعها في قلبي، وقد غلبتني الدموع وأنا أتأملها من السماء، وهي تخفي بين جوانحها آلام شعب لا يمكن وصفها، لم أجد في تلك اللحظات إلا أن أحدثها وقد خيّل لي أنها تسمعني بنبض قلبها، وتعانق بجمالها العبرات التي تتدحرج على خدّي، فقلت:

«وربّ الكعبة سأعود إليك قريبًا يا دمشق».

وصلت مطار الدوحة، وأحسست بأنني ولدت من جديد، وكدت لا أصدق نجاحي في مغادرة سوريا بعد أيام قضيتها في جحيم الضغط والتهديد، حتى خيّل إلي أنني في حلم قد أستفيق منه، وأجد الدابي أمامي.. بعد الإجراءات اللازمة من ختم الجواز واستلام الحقائب خرجت ووجدت صديقي الصحفي الجزائري رضا في انتظاري، حيث ركبنا سيارته، وتاهت بنا في شوارع الدوحة التي لا يعرفها جيدًا بسبب التحاقه بقناة الجزيرة حديثًا بعدما كان يعمل في قناة أخرى بالإمارات العربية المتحدة.

ذهبنا إلى مبنى الجزيرة، وهناك استقبلني رئيس التحرير وبعض الصحفيين، الذين كانوا متلهفين إلى التحدث معي ومعرفة ما يجري، وخصوصًا الصحفيين والموظفين السوريين، وقد كانت لحظات فارقة بالنسبة إلي. نزلت ضيفًا على بلاتو (حصاد اليوم)، وكانت شهادتي التي استغرقت أكثر من تسع دقائق، هزّت أركان العالم حقيقة، وقضيت تلك الليلة وأنا أتنقل بين القنوات الفضائية العالمية التي كانت تسجّل موعدها في طابور من أجل الفوز بحوار مع من أطلقوا عليه جميعًا (المراقب المستقيل من بعثة الجامعة العربية)، في حين ثوار سوريا سموه في كل صفحاتهم وتدخلاتهم (المراقب المنشق).

٥٦

خاتمة

لم أتصوّر أن شهادتي عبر الجزيرة وفي برنامج (حصاد اليوم) ستحدث تلك الضجّة العالمية المنقطعة النظير، وتكون زلزالًا حقيقيًّا يهزّ أركان الأنظمة العربيــة وجامعة الــدول العربية، فقــد ســارعت الأمانة العامــة لجامعة الدول العربيــة للتبرؤ من موقفي من خلال تصــريحات لنائب الأمين العام الجزائري أحمــد بن حلّي، وكذا غرفة العمليات في القاهرة عبر رئيســها الســفير عدنان الخضــير. أمــا رئيس البعثة الفريــق أول الركن محمد أحمد مصــطفى الدابي فقد ردّ عليّ بعد وقت قصــير جدًّا من نهاية ظهوري على (الجزيرة) في ســهرة الثلاثاء ١٠/٠١/٢٠١٢.

الغريب أن الدابي ادعى زورًا وبهتانًا أنني كنت مريضاً، ولم أغادر غرفتي مدة ســتة أيام على الرغم من أنني لبثت في ســوريا أســبوعين. وزعم أيضًا أن ما قلته ليس صــحيحًا، وهو ما روّجت له الفضائيات الموالية كالدنيا والإخبارية الســورية والســورية والمنار والعالم وغيرها من الفضــائيات العربية والإيرانية والروسية، التي تحلب في إناء نظام بشار الأسد.

أحد المراقبين أخبرني بأنني لما كنت على الجزيرة سارع أحد المسؤولين في الجامعة العربية نحو الدابي، الذي كان بالمطعم حينها، وأخبره بما يجري، فكان ردّه: «طلبت منه أن يصبر، سأذهب إليه في غرفته، وأرى ما يحدث».

فأخبره بأنني غادرت وظهرت في إستديوهات الجزيرة من الدوحة مباشرة، حينها انتفض الدابي، وطالب بضرورة التحقيق في طريقة مغادرتي من دون أن يعلم بالأمر، وكان يعتقد أن البعثة هي التي اشترت لي التذاكر، وساعدتني على السفر، حسبما رواه لي محدثي.

لما شاهدت التقارير عن تلك الادعاءات أنني لم أغادر غرفتي على الرغم من الفيديوهات الكثيرة التي بثّها الناشطون، والتي أظهر فيها حتى برفقة رئيس البعثة في بابا عمرو. اتصلت بالدابي هاتفيًّا ولما أخبرته باسمي زعل بشدّة، وراح يلومني على ما اقترفت في حقّ البعثة، التي قضيت عليها على حدّ تعبيره، غير أنني قلت له: «أنصحك بأن تتعلم الردّ في مثل هذه الحالات».

قال: «هل تريد أن تعلّمني أنت؟».

قلت له: «نعم، ما أقدمت عليه من ردّ فضحك أكثر، فكان حريًّا بك أن تصرّح بأنك شكلت لجنة تحقيق للبحث في كل ما أوردته في الإعلام، وخلال أيام سوف نعلن النتائج، فإذا وجدت ما قيل صحيحًا ستتخذ الإجراءات اللازمة، وإن كان خطأ فستعلن للعالم كل شيء، ثم بعد أربعة أيام أو خمسة اعقد ندوة صحفية تؤكد فيها أن أنور مالك كذّاب، وهنا تعطي بعض المصداقية لنفسك، أما أن تردّ عليَّ بهذه السرعة والارتجالية، فقد فضحت نفسك، وتورطت مع النظام السوري».

قضيت ثلاثة أيام في الدوحة مترددًا بين الصحفيين، الذين هبّوا من كل حدب وصوب لأخذ مواعيد معي، حيث حاورتني كبريات الصحف الدولية والفضائيات العالمية من القارات الخمس، وغدت استقالتي محور لقاءات ومناقشات حقوقية وسياسية وجدل بين المعارضة والموالاة في سوريا، وطالتني كثير من الاتهامات التي لا تخطر على العقل أبدًا، غير أنني لم أبالِ بها وصمّمت

على التحدي، والمضي قدمًا في الانتصار للشعب السوري، الذي يتعرّض لأبشع إبادة في العصر الحديث.

كانت نهاية بعثة الجامعة العربية كما توقعت حيث عند تقديم التقرير الأول من الفريق أول الركن محمد أحمد مصطفى الدابي مباشرة إلى الجامعة العربية أعلنت المملكة العربية السعودية على لسان وزير خارجيتها الأمير سعود الفيصل، سحب مراقبيها من البعثة؛ لأنها لا يمكن أن تكون شاهدة زور، وهو الذي يلتقي مع ما قلته عند انسحابي، ليعلن أيضًا مجلس التعاون الخليجي الأمر نفسه. ثم تطورت الأمور الميدانية بسرعة ليقرر الدابي تجميد عمل البعثة مؤقتًا على الرغم من قرار التمديد لها في ٢٠١٢/٠١/٢٢ من قبل الجامعة العربية، ليتقرر لاحقًا سحب المراقبين نهائيًّا، ثم استقالة الجنرال الدابي التي تشير المعلومات إلى أنها جاءت بطلب من السيد نبيل العربي لحفظ ماء الوجه.

أمر آخر أن النظام السوري كما سبق وحدثني العماد آصف شوكت، وهو ما نقلته للعالم عبر مداخلاتي في الفضائيات، قرّر الهجوم على حيّ بابا عمرو بعد مغادرة البعثة حمص مباشرة. وأشارت معلومات مؤكدة إلى أن الأماكن التي وقفت فيها بعثة المراقبين العرب وخصوصًا بحضور أفراد البعثة العراقية، كانت أول ما تمّ قصفها، وحتى ذلك البيت الذي التقيت فيه مع ضباط الجيش الحر في ٢٠١٢/٠١/٠٤، وروينا في هذا الكتاب تفاصيل اللقاء، قد محوه من الوجود بصواريخ عدة وجهت له بإحكام مطلق بداية الحملة التي من خلالها سيطر النظام على الحيّ بعد تدميره، ليزوره بعد ذلك بشار الأسد، ويقف على ركامه، محتفلًا بما اقترفه في حق أهله الفقراء من إبادة، طالما حذّرت منها.

زرت الكثير من دول العالم، من بينها الولايات المتحدة الأمريكية وإسبانيا وسويسرا وألمانيا والنمسا وبلجيكا وفرنسا ومصر والسعودية وغيرها، وقدمت

محاضـرات، وأدرت نـدوات، وشـاركت في مهرجانـات مع الجاليـات العربية والسـورية وفي الجامعات الغربية، وحتى مع ناشـطين من الداخل السوري ومن حمص تحديدًا كالناشـط الميدانـي أبوجعفر المغربل، الـذي التقيته مرة يوم سـحب الآليات العسكرية من المؤسسة الاسـتهلاكية في بابا عمرو، ثم جمعتنا ندوة في مدريد. لقد بلّغت ما كنت شـاهدًا عليه في سـوريا بشتى اللغات إلى كل أنحاء الدنيا.

خرجت مظاهرات كثيرة في شـتى أنحاء سوريا والسودان والجزائر ودول عربية وغربية، وهي تحمل صـوري ولافتات تشـيد بمواقفـي. ورفع لي الملايين دعواتهم وتحياتهم في أمسـيات ثورية تناقلتها وسـائل الإعلام، وأقدم الشعب السـوري على يوم سـماه (ثلاثاء الشـكر للمراقـب العربي أنـور مالك) بتاريخ ١٧/٠١/٢٠١٢. وأيضًـا أطلـق ثوار الغوطة في حمص تسـمية أنـور مالك على شـارع كان يسمّى من قبل شـارع نزار قباني، ويوجد مواليد جدد آثر آباؤهم أن يحملوا اسـمي تخليدًا لما رأوه انتصـارًا لحقهم، الذي كانوا يرونه يهضم أمام أعينهم، وهم يذبحون من قبل بعثة الجامعة العربية.

بقيـت منذ انسـحابي محلّ تهديـدات وابتـزازات تمارسـها المخابرات السـورية تحت أسـاليب مختلفة، وصـل حدّ نشـر صـوري وأنا عارٍ أسـتحم في غرفتي بفندق السفير في حمص، وأيضًا اخترقوا مواقعي ونشروا رسالة مزيّفة أعتذر فيها لبشـار الأسد... لكن ذلك لم ولن يغيّر من موقفي ولا شهادتي، التي عاهدت الله أن أكون أمينا عليها إلى آخر رمق من عمري.

التقرير المفبرك الذي
قدَّمه الفريق الدَّابي
للجامعة العربية

بعثة مراقبي جامعة الدول العربية إلى سورية

بسم الله الرحمن الرحيم

(انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملها واشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوماً جهولاً)

تقرير

رئيس بعثة مراقبي جامعة الدول العربية إلى سورية

للفترة من 2011/12/24 إلى 2012/1/18

أولاً : المراجعات القانونية

1- أصدر مجلس جامع الدول العربية القرار رقم 7436 بتاريخ 2011/11/2 الذي اعتمد خطة العمل العربية المرفقة بالقرار ورحب بموافقة الحكومة السورية عليها كما أكد على ضرورة التزامها بالتنفيذ الفوري والكامل لما جاء فيها من بنود .

2- بتاريخ 2011/11/16 أصدر مجلس جامع الدول العربية القرار رقم 7439 بالموافقة على مشروع البروتوكول بشأن المركز القانوني ومهام بعثة مراقبي جامعة الدول العربية إلى سورية والمكلفة بالتحقق من تنفيذ بنود الخطة العربية لحل الازمة السورية وتوفير الحماية للمدنيين السوريين وطلب من الامين العام لجامعة الدول العربية اتخاذ ما يراه مناسباً نحو تسمية رئيس بعثة مراقبي الجامعة العربية والقيام باجراء الاتصالات اللازمة مع الحكومة السورية للتوقيع على البروتوكول.

3- اصدر مجلس جامعة الدول العربية القرار رقم 7441 بتاريخ 2011/11/24 الذي تضمن قيام الامين العام بارسال بعثة مراقبي جامعة الدول العربية الى الجمهورية العربية السورية للقيام بمهامها وفق احكام البروتوكول فور التوقيع عليه.

4- وقعت الجمهورية العربية السورية والامانة العامة لجامعة الدول العربية على البروتوكول بتاريخ 2011/12/19 والذي تضمن تشكيل البعثة من الخبراء المدنيين والعسكريين العرب من مرشحي الدول والمنظمات العربية غير الحكومية المعنية بحقوق الانسان لايفادها الى الى اراضي الجمهورية العربية السورية وتجدر الاشارة الى أن البند خامساً نص على ان تقدم البعثة تقارير دورية عن نتائج اعمالها الى الامين العام لجامعة الدول العربية والحكومة السورية تمهيداً لعرضها على المجلس الوزاري عن طريق اللجنة الوزارية المعنية بالوضع في سورية للنظر فيها واتخاذ ما يلزم في هذا الشأن.

5- وافق مجلس جامعة الدول العربية بتاريخ 2011/12/20 على تسمية الفريق أول الركن محمد أحمد مصطفى الدابي من جمهورية السودان رئيساً لبعثة مراقبي جامعة الدول العربية.

ثانياً : تشكيل البعثة :

6- طلبت الامانة العامة من الدول الاعضاء والمنظمات العربية ذات الصلة موافاتها باسماء مرشحيها للانضمام الى بعثة مراقبى الجامعة الى سورية وفي ضوء ذلك تشكلت بعثة مراقبي جامعة الدول العربية من 166 مراقباً حتى الان من 13 دولة عربية و 6 منظمات عربية معنية.

ثالثاً : زيارة وفد المقدمة من الامانة العامة لسوريا :

7- في اطار التحضير لمهمة البعثة زار وفد مقدمة من الامانة العامة الجمهورية العربية السورية بتاريخ 2011/12/22 لبحث كافة الترتيبات اللوجستية للبعثة.

8- وتطبيقاً لأحكام البروتوكول أكد الجانب الحكومي السوري على استعداده لتقديم كافة التسهيلات والسماح بدخول المعدات الفنية اللازمة لعمل البعثة وتأمين حرية التحرك الامن لجميع اعضائها في مختلف الاراضي السورية وعدم وضع عراقيل أمنية وادارية تمنع البعثة من تحقيق مهمتها .كما اكد على التزامه بضمان حرية البعثة في اجراء اللقاءات والاجتماعات اللازمة وتوفير الحماية الكاملة لافرادها أخذاً في الاعتبار مسئولية البعثة في حال الاصرار على زيارة المناطق التي تحذر منها الجهات الامنية وكذلك السماح بدخول الصحفيين ووسائل الاعلام العربية والدولية الى الاراضي السورية وفق القوائم والقواعد المعمول بها في سوريا.

رابعاً : وصول رئيس البعثة الى سورية والزيارات الاستكشافية التي قام بها :

9- وصل الفريق اول محمد احمد مصطفى الدابي رئيس البعثة الى الجمهورية العربية السورية مساء يوم السبت الموافق 2011/12/24 وعقد سلسلة من الاجتماعات مع السيد وليد المعلم وزير الخارجية والمسئولين في الحكومة السورية والذين اكدوا على استعدادهم للتعاون التام مع بعثة الجامعة وحرصهم على انجاح مهمتها وتذليل كافة المعوقات التي قد تواجهها كما تم الاتفاق على الترتيبات اللوجستية والامنية اللازمة للبعثة.

10- اكد الجانب السوري على ان هناك بعض المناطق التي لن تتمكن قوات الحماية الامنية من الدخول اليها مع المراقبين خوفاً من تعرض المواطنين لها وقد راى رئيس البعثة ان هذا الامر سوف يتيح للبعثة متابعة المواطنين والاطراف المعارضة دون رقابة حكومية مما يبعد حاجز الخوف عنهم من أية تبعات يخشونها مع البعثة.

11- استكمل رئيس البعثة التحضيرات الفنية الميدانية وتأمين وسائل النقل واجهزة الاتصال الضرورية لبدء اعمال البعثة كما التقى مع اعضاء البعثة الذين وصلوا على التوالي الى سوريا وقام باطلاعهم على واجبات مهمتهم والبنود التي سيستندون اليها لاداء المهمة طبقاً للبروتوكول ثم ادى اعضاء البعثة القسم الخاص بالمهمة والذي اعده رئيس البعثة.

12- بتاريخ 2011/12/27 قام رئيس البعثة يرافقه 10 مراقبين بزيارة استكشافية لمدينة حمص باعتبارها من المناطق الاكثر سخونة والتي شهدت اعمال عنف ومواجهة مسلحة بين قوات الجيش والمعارضة السورية ولازال هناك بعض الحواجز الامنية التي تفصل بين الاحياء.

13- وفور وصول رئيس البعثة الى حمص التقى بمحافظ المدينة الذي اوضح انها تعاني من انتشار اعمال العنف من قبل الجماعات المسلحة وحالات اختطاف وتخريب في المنشآت الحكومية والمدنية ونقص كبير في المواد الغذائية نتيجة الحصار المفروض من الجماعات المسلحة والتي يقدر عددها بـــــ3000 فرد مؤكداً على فشل كافة محاولات التهدئة التي قام بها رجال الدين ووجهاء المدينة وطلب امكانية معالجة أمر الجنود والآليات المحجوزة داخل بابا عمر.

14- قامت البعثة بزيارة بعض الاحياء السكنية (بابا عمرو – كرم الزيتون – الخالدية – الغوطة) دون أية حراسة حيث

التقت بعدد من المواطنين المعارضين الذين اعربوا عن حالة الرعب والحصار واعمال العنف التي يعانون منها من قبل القوات الحكومية وشاهدت آثار الخراب والدمار الذي طال الاحياء الطرفية وتزامن ذلك مع اطلاق ناري كثيف بين الاطراف وشهدت البعثة تبادلاً لاطلاق نار كثيف في باب عمرو من جانب الجيش والمعارضة كما شهدت اربع آليات عسكرية في بعض المناطق المحيطة مما استدعى العودة الة مقر المحافظة وتم الاتفاق مع المحافظ على ابقاء خمسة افراد من البعثة في حمص لليوم التالي للقيام باعمال ميدانية والالتقاء باكبر عدد ممكن من المواطنين.

15- فور عودة رئيس البعثة من حمص عقد اجتماعاً مع الجانب الحكومي وطالبهم بسحب الاليات العسكرية من داخل المدينة ووقف اعمال العنف وحماية المدنيين وفك الحصار وتوفير المواد الغذائية بالاضافة الى تبادل جثث القتلى من الجانبين.

16- وقد اكد الجانب السوري خلال الاجتماع على اخلاء المدينة والاحياء السكنية من كافة المظاهر المسلحة فيما عدا ثلاث اليات عسكرية معطلة ومحاصرة بالاضافة الى قيام الجماعات المسلحة بالاستيلاء على احدى الاليات العسكرية من قوات الجيش وطلب مساعدة البعثة في سحب واسترداد هذه الاليات مقابل الافراج عن اربعة افراد وتبادل لجثث القتلى (5من كل طرف) والسماح بدخول المواد الغذائية الاساسية لاهالي المدينة بالاضافة الى سيارات النظافة لازالة المخلفات وتم الاتفاق في نهاية الاجتماع على قيام البعثة بزيارة اخرى في اليوم التالي الى حمص برفقة السيد اللواء حسان شريف المنسق الامني لدى الجانب الحكومي.

17- خلال هذه الزيارة تم التعرف على احدى الشخصيات القيادية في المعارضة والذي يعمل كمسؤول اعلامي في المجلس الوطني حيث جرى نقاش مطول حول العرض المقدم من جانب الحكومة السورية والاسلوب الامثل لتنفيذ هذا الاتفاق الامر الذي ترتب عليه سحب واسترداد كافة الاليات العسكرية وتبادل لجثث القتلى ودخول شاحنات محملة بالمواد الغذائية والافراج عن ثلاثة معتقلين وسيدتين لذويهم بوجود البعثة مما أدى إلى تهدئة الاوضاع داخل المدينة.

18- بعد مضي خمسة ايام من انتشار المراقبين في خمسة قطاعات طلبت اللجنة الورازية من رئيس البعثة تقديم تقرير عن مهمة البعثة حيث غادر الى القاهرة وقدم عرضاً شفهياً للسادة اعضاء اللجنة خلال اجتماعهم بتاريخ 2012/1/8م وتقرر استكمال البعثة لمهمتها على ان يقدم رئيس البعثة تقريراً في نهاية المدة المحددة بالبروتوكول وهي 2012/1/19 وعد عودة رئيس البعثة الى دمشق لمواصلة مهامه واجهت البعثة بعض المصاعب من الموالين للحكومة والمعارضين لها وخاصة بعد التصريحات التي تلت اجتماع اللجنة وما ورد بوسائل الاعلام الا ان هذا لم يؤثر على عمل البعثة وتكامل انتشارها على المناطق المختلفة بصورة سلسة.

19- خلال الفترة منذ وصول البعثة وحتى تاريخه تلقت العديد من المكاتبات من اللجنة السورية المكلفة بالتنسيق مع البعثة اشارت الى الخسائر المادية والبشرية التي تأثرت بها مؤسسات ودواوين الحكومة السورية نتيجة اعمال تخريبية – كما يصفونها – والتي اثرت – كما ذكروا – على كافة المجالات الحيوية والخدمية في الدولة.

خامساَ : انتشار بعثة مراقبي جامعة الدول العربية الى سورية:

20- وزع افراد البعثة على (15) قطاعاً يغطون (20) مدينة وناحية في كافة أرجاء سوريا وذلك وفق التواريخ المحددة أدناه وكان سبب اختلاف هذه التواريخ هو ضعف التحضيرات الادارية والفنية بما في ذلك وصول السيارات والافراد مع مراعات ان التوزيع كان متوازناً حيث تكون كل قطاع من (10) أفراد تقريباً من مختلف الجنسيات العربية وانتشرت هذه القطاعات داخل المحافظات والمدن السورية على النحو التالي :

-بتاريخ 2011/12/29 انطلقت (6) قطاعات الى كل من دمشق وحمص وريف حمص وادلب ودرعا وحماه.

-بتاريخ 2012/1/4 انطلق قطاع حلب.

-بتاريخ 2012/1/9 انطلق قطاعان الى كل من دير الزور واللاذقية غير انهما بتاريخ 2012/1/10 عادتا الى دمشق لتعرضهما لاعتداءات ادت لاصابة اثنين من المراقبين في اللاذقية وخسائر مادية في السيارات.

-بتاريخ 2012/1/10 انطلق قطاع الى القامشلي والحسكة.

-بتاريخ 2012/1/12 انطلق قطاع الى ريف دمشق.

-بتاريخ 2012/1/13 انطلقت (4) قطاعات الى كل من السويداء والبوكمال ودير الزور وتدمر والسخنة وبانياس وطرطوس.

-بتاريخ 2012/1/15 انطلق قطاعان الى كل من اللاذقية والرقة والثورة.

(مرفق 1: كشف تفصيلي يوضح عدد المراقبين وجنسياتهم وأماكن توزيعهم)

21- تم تزويد افراد المجموعات بما يلي:

-خريطة المنطقة.

-مدونة سلوك المراقب.

-واجبات عمل رئيس القطاع.

-واجبات عمل المراقب.

-بعض الاجهزة والمعدات الفنية اللازمة (اجهزة كمبيوتر – كاميرات – اجهزة اتصال ...الخ).

22- كما تم فتح غرفة عمليات في مقر مكتب الجامعة العربية في دمشق وتعمل هذه الغرفة على مدار 24 ساعة وهي مرتبطة مباشرة بغرفة عمليات الجامعة العربية بالقاهرة وبمختلف المجموعات المنتشرة في المناطق السورية وتقوم الغرفة بتلقي التقارير اليومية من الفرق الميدانية وابلاغ التوجيهات الخاصة بالمتابعة والرصد ونتيجة لكثرة المهام تم فتح غرفة عمليات مساندة في مقر اقامة البعثة في دمشق مهمتها توزيع الافراد /لجان متابعة/لجنة للمعتقلين/ اللجنة الاعلامية / الشؤون المالية وتعمل بالتنسيق مع غرفة العمليات الرئيسية في مكتب الجامعة.

23- واجهت البعثة في كل من اللاذقية ودير الزور صعوبات من قبل المواطنين الموالين للحكومة وخاصة باللاذقية حيث اختشد الآلاف منهم حول سيارات البعثة مرددين شعارات مؤيدة للرئيس وهتافات معادية للبعثة خرج الامر عن السيطرة وحدث اعتداء على المراقبين نتج عنه اصابات طفيفة لاثنين منهم وتحطيم سيارة مصفحة بالكامل وقد تمت معالجة الامر باتصال رئيس البعثة مع اللجنة العليا السورية المكلفة بالتنسيق مع البعثة وبالرغم من ذلك فقد أمر رئيس البعثة بعودة هذين القطاعين فوراً الى دمشق وقام بمقابلة السيد زير الخارجية حيث قدم احتجاجاً رسمياً شديد اللهجة ومن جانبه استنكر الجانب السوري هذه الحادثة بشدة وقدم اعتذاراً رسمياً موضحاً أم ما تم غير مقصود اطلاقاً وتأكيداً على ذلك اجتمع السيد نائب وزير الخارجية بافراد مجموعة اللاذقية وأوضح لهم أن الحكومة السورية ستعمل على معالجة الخلل فوراً بما يضمن سلامة وأمن افراد البعثة اينما كانوا واعتذر لهم عما تعرضوا اليه من أحداث مؤسفة وغير مقصودة وبعدها تم اعادة توزيع افراد المجموعتين والدفع بهما الى القطاعات الجديدة بعد راحة 4 ايام مما حدث.

سادساً : تنفيذ مهام البعثة وفقاً لنصوص البروتوكول:

24- يود رئيس البعثة أن يؤكد على أن هذا الرصد الذي يخص بنود البروتوكول هو خلاصة لتقييم القطاعات وبناء على

ما أدلى به رؤساء القطاعات خلال اجتماعهم مع رئيس البعثة يوم 2012/1/17.

أ – المراقبة والرصد لمدى التنفيذ الكامل لوقف جميع أنواع العنف ومن أي مصدر كان في المدن والأحياء السكنية:

25- عند انتشار المراقبين في القطاعات المختلفة رصدوا في بداية عملهم اعمال عنف من جانب القوات الحكومية وتبادلاً لاطلاق النار مع بعض العناصر المسلحة في كل من حمص وحماه ونتيجة لاصرار البعثة على ايقاف كافة اعمال العنف وسحب الاليات والمعدات بدأ هذا المر في الانحسار وسجلت تقارير البعثة الاخيرة هدوءاً ملحوظاً وضبطاً للنفس من جانب تلك القنوات.

26- رصدت البعثة في قطاعي حمص ودرعا أعمال عنف من جانب الجماعات المسلحة ضد القوات الحكومية مما ترتب عليه سقوط قتلى وجرحى في صفوف هذه القوات وفي بعض المواقف تقوم القوات الحكومية باستخدام العنف كرد فعل على الاعتداءات التي تمارس ضد افرادها وقد لاحظ المراقبون قيام جماعات مسلحة باستخدام القنابل الحرارية والقذائف الخارقة للدروع.

27- شهدت البعثة في مناطق حمص وادلب وحماه اعمال عنف طالت القوات الحكومية والمواطنين اسفرت عن العديد من القتلى والجرحى مثل عملية تفجير باص مدني اسفر عن مقتل ثمانية اشخاص وجرح آخرين بينهم نساء وأطفال وتفجير قطار محمل بالمازوت بالاضافة الى احداث اخرى في حمص نتج عنها تدمير باص لقوات الشرطة ومقتل عدد اثنين منهم كما تعرض خط الانابيب الناقل للوقود للتفجير وبعض الكباري الصغيرة.

28- لاحظت البعثة اصدار بلاغات كاذبة من جهات عدة عن اعمال تفجير وعنف في بعض المناطق وعند توجه المراقبين الى هذه المناطق للتحقق من الامر تبين أن هذه البيانات لا اساس لها من الصحة.

2- لاحظت البعثة ايضاً استناداً الى ما يرد اليها من تقارير الفرق الميدانية ان هناك مبالغات اعلامية في الاعلان عن طبيعة الحوادث واعداد القتلى والمصابين نتيجة الاحداث والمظاهرات التي تشهدها بعض المدن.

ب- التأكد من عدم تعرض أجهزة الأمن السورية فضلاً عمل يسمى عصابات الشبيحة للمظاهرات السلمية:

30- رصدت التقارير الاخيرة التي تسلمتها البعثة من رؤساء الفرق الميدانية بالاضافة الى افادتهم في اللقاء المباشر الذي تم مع رئيس البعثة يوم 2012/1/17 من أجل اعداد هذا التقرير أن هناك مظاهرات سلمية في بعض المناطق من المؤيدين للسلطة والمعارضين ولم يتم التعرض لأي منها هذه المظاهرات ما عدا بعض الاحتكاكات التي تمت تجاه البعثة وبين الموالين والمعارضين والتي لم تسفر عن خسائر تذكر منذ آخر عرض تم أمام اللجنة الوزارية الخاصة بسوريا خلال اجتماعها يوم 2012/1/8.

31- أكدت تقارير وافادات رؤساء القطاعات أن المعارضين من المواطنين يبلغون البعثة عن التحشد ويقومون باستخدامها كساتر مما يمنع من تعامل أجهزة الامن معها غير أن هذه الظاهرة بدأت تتلاشى تدريجياً.

32- تتلقى البعثة ايضاً من المواطنين المعارضين في كل من حمص ودرعا مطالبات ببقاء البعثة وعدم مغادرتها وربما يعزى ذلك لتخوفهم من الاعتداء بعد مغادرة البعثة.

ج – التأكد من الإفراج عن المعتقلين بسبب الاحداث الراهنة:

33- تلقت البعثة بلاغات من جهات خارج سوريا تفيد بأن عدد المعتقلين السوريين يبلغ (16237) كما تلقت بلاغات من المعارضة الداخلية تفيد بأن عدد المعتقلين يبلغ (12005) وقد قامت الفرق الميدانية بالتحقق من صحة هذه الاعداد وقد اتضح وجود تضارب في القوائم ومعلومات ناقصة وغير دقيقة واسماء مكررة وتتواصل البعثة مع الجهات الحكومية امعنية

لاستبيان حقيقة الاعداد.

34- سلمت البعثة الحكومة السورية كافة القوائم التي تلقتها سواء من المعارضة السورية بالداخل أو من خراج سوريا وطالبت باطلاح سراح هؤلاء المعتقلين تنفيذاً للبروتوكول.

35- بتاريخ 2012/1/15 أصدر السيد الرئيس بشار الاسد مرسوماً تشريعياً منح بمقتضاه عفواً عاماً عن الجرائم المرتكبة على خلفية الاحداث التي وقعت منذ 2011/3/15 وحتى تاريخ صدور هذه المرسوم وتنفيذاً لذلك تقوم السلطات الحكومية المعنية بالإفراج عن المعتقلين في المناطق المختلفة على دفعات ما لم يكونوا مطلوبين في قضايا أخرى وتقوم البعثة بالاشراف على عملية الافراج وتتابع استكمال الموضوع مع الجانب الحكومي بتنسيق تام وتجاوب من جانب الحكومة .

36- وقد أفادت الحكومة السورية بتاريخ 2012/1/19 أنه تم إطلاق سراح (3569)معتقلاً من النيابة العسكرية والمدنية وقامت البعثة بالتحقق من اطلاق سراح عدد (1669) معتقلاً منهم حتى الآن .ومازالت تتابع هذا الموضوع مع كل من الحكومة والمعارضة مع التأكيد على الجانب الحكومي أن يتم اطلاق سراح المعتقلين في وجود المراقبين حتى يتم توثيق هذا الحدث.

37- تبين للبعثة أن المجموع الكلي لأعداد المعتقلين الذين أفادت الحكومة السورية بانها اطلقت سراحهم حتى تاريخه كما يلي:

-قبل مرسوم العفو : 4035 معتقلاً.

-بعد مرسوم العفو : 3569 معتقلاً.

ليكون اجمالي ما افادت به الحكومة 7604 معتقلاً تم اطلاق سراحهم.

– 38قامت البعثة بالتحقق من صحة المعتقلين الذين تم اطلاق سراحهم وتبين ما يلي :

-قبل صدور مرسوم العفو 3483 معتقلاً.

-بعد صدور مرسوم العفو 1669 معتقلاً .

وبذلك يصبح اجمالي ما تم التاكد منه 5152 معتقلاً ولا زالت البعثة تواصل عمليات التحقق والمتابعة مع الحكومة السورية لاطلاق سراح الاخرين.

د – التاكد من سحب واخلاء جميع المظاهر المسلحة من المدن والاحياء السكنية التي شهدت أو تشهد المظاهرات وحركات الاحتجاجات:

39- تأكدت البعثة من خلال تقارير رؤساء الفرق الميدانية وبناءً على اللقاء المباشر مع كافة الرؤساء الفرق الذي تم يوم 2012/1/17 ان كافة الاليات العسكرية والدبابات والاسلحة الثقيلة قد تم سحبها من داخل المدن والاحياء السكنية ومازال هناك تواجد امني يتمثل في سواتر ترابية وبعض الحواجز أمام المباني الهامة والميادين الا ان هذه الحواجز لا تتعرض للمواطنين وهنا تجدر الاشارة الى انه خلال مقابلة رئيس البعثة لوزير الدفاع السوري يوم 2012/1/5 أكد له السيد الوزير على استعداده لمرافقته في كل المواقع والمدن التي يحددها رئيس البعثة والتي قد تشك البعثة في وجود مظاهر مسلحة فيها لم يتم سحبها بعد وذلك لكي يصدر اوامره ميدانياً وفي الموقع لازالة المخالفة فوراً.

40- هناك تواجد لعربات مدرعة (حاملات جنود) على بعض الحواجز احدهما في حمص وبعضها في مضايا والزبداني بريف دمشق وقد تم الابلاغ عنها وتم سحبها من حمص كما تأكد ان اهالي الزبداني ومضايا توصلوا الى اتفاق ثنائي مع

الحكومة ادى الى سحب هذه الحواجز والعربات.

هـــ - التحقق من منح الحكومة السورية رخص اعتماد لوسائل الاعلام العربية والدولية والتحقق من فتح المجال أمامها للتنقل بحرية في جميع انحاء سوريا:

41- اكدت الحكومة السورية على لسان وزير اعلامها انها منحت موافقات لـــ(147) وسيلة اعلامية عربية واجنبية مختلفة منذ بداية شهر ديسمبر 2011 وحتى 2012/1/15 دخل منها الاراضي السورية (112) وسيلة اعلامية الى جانب (90) وسيلة اخرى معتمدة في سوريا وتعمل عبر مراسليها بشكل دائم.

42- تابعت البعثة هذا الموضوع ورصدت (36) وسيلة اعلامية عربية واجنبية وعدد من الصحفيين في عدد من المدن السورية كما تلقت بعض الشكاوي التي تشير الى ان الحكومة السورية منحت بعض وسائل الاعلام رخصاً للعمل لمدة اربعة ايام فقط وهي غير كافية من وجهة نظرهم اضافة الى عدم السماح لهم بالتواجد داخل البلاد الا بعد تحديد وجهتهم وأخذ تصديق آخر مع منعهم من الذهاب لبعض المناطق ومن جانب آخر أكد الجانب السوري على انه يمنح وسائل الاعلام تراخيص للعمل مدتها عشرة ايام قابلة للتجديد.

43- اشارت تقارير وافادات بعض القطاعات الى وجود قيود من جانب الحكومة على تحركات وسائل الاعلام في مناطق المعارضة مما دفع هؤلاء الصحفيين للتحرك خلف البعثة في كثير من الحالات لاداء مهامهم.

44- شهدت مدينة حمص حالة قتل واحدة لصحفي فرنسي يعمل مراسلاً لقناة فرنسا الثانية واصابة صحفي آخر بلجيكي الجنسية وقد تبادلت الحكومة والمعارضة الاتهامات بشان مسئولية كل منهما عن الحادث وصدرت بيانات ادانة الطرفين وشكل الجانب الحكومي لجنة تحقيق في هذا الحادث لمعرفة اسبابه وتجدر الاشارة ان تقارير بعثة الجامعة في حمص تشير الة ان مقتل الصحفي الفرنسي كان نتيجة لاطلاق قذائف هاون من قبل المعارضة.

)مرفق 2 : كشف بوسائل الاعلام التي تم رصدها ووسائل الاعلام التي دخلت سوريا حسب الافادات الرسمية(

سابعاً : المعوقات التي واجهتها البعثة :

أ – المراقبون:

45- لم تتم في بعض الحالات مراعاة ترشيح خبراء في مجال المراقبة قادرين على تحمل المسؤولية ولديهم خبرات سابقة في هذا المجال.

46- لم يقدر بعض المراقبين حجم المسؤولية الملقاة على عاتقهم وأهمية اعلاء المصلحة العربية على المصالح الشخصية.

47- خلال العمل الميداني لوحظ عدم قدرة بعض المراقبين على مواجهة ومواكبة المواقف الصعبة التي تعد من صلب مهامهم علماً بان نوعية هذه المهام تتطلب صفات وتخصصات محددة لدى المراقب.

48- عدد من المراقبين المشاركين في البعثة متقدمون في السن وبعضهم يعاني من عوراض صحية تحول دون قيامهم بمهامهم.

49- اعتذار عدد (22) مراقباً عن عدم استكمال مهمتهم لاسباب شخصية والبعض الآخر لحجج واهية لم تكن مقبولة لدى رئيس البعثة ومنهم من كان له أجندة خاصة.

)مرفق 3 : كشف باسماء المراقبين المعتذرين عن الاستمرار في بعثة مراقب ي جامعة الدول العربية(

50- عدم التزام بعض المراقبين واخلالهم بواجباتهم وبالقسم الذي أدوه وقيامهم بالاتصال بمسؤولين في دولهم ونقل ما يدور بصورة مبالغ فيها مما ادى الى فهم هؤلاء المسئولين الوضع بصورة قاتمة وتقويم غير سليم.

51- بعض المراقبين في القطاعات يطالبون بسكن مماثل لنظائرهم في دمشق أو بمقابل مادي يوازي فرق الاقامة نتيجة اختلاف مستوى الفنادق أو البقاء في دمشق وهي أمور لا تحتاج الى تعليق.

42- الاحداث الساخنة في بعض الاماكن وتخوف بعض المراقبين من القيام بمهامهم في مثل هذه الاجواء وعدمتوفر سيارات مصفحة لكل المواقع وسترات واقية من الرصاص كل هذا اثر سلباً على اداء البعض لواجباتهم.

تعليق رئيس البعثة على المراقبين:

43- بعض المراقبين مع الاسف كان يرى حضوره الى سوريا بمثابة رحلة ترفيهية ولكنهم فوجئوا بالواقع والتوزيع على القطاعات والبقاء بالمحطات خارج العاصمة والصعوبات التي واجهتهم والتي كانت غير متوقعة بالنسبة لهم.

54- عدم المام المراقبين بالمنطقة وجغرافيتها وعدم توفر السيارات المصفحة والسترات الواقية اثر سلباً على نفوس بعض المراقبين.

55- ما واجهه بعض المراقبين من استفزازات من الجانب المعارض أو المؤيد من المواطنين السوريين كان له ايضاً اثر سلبي في نفوسهم.

56- من تعثر سينصلح حاله بالممارسة والتوجيه باذن الله.

ب – القيود الامنية:

57- بالرغم من ترحيب الجانب الحكومي بالبعثة ورئيسها والتاكيد بصفة مستمرة على عدم فرض قيود أمنية تعوق تحركات البعثة الا أن الجانب الحكومي حاول التعامل مع البعثة باستراتيجية محكمة لمحاولة الحد من وصولها الى عمق المناطق واشغالها بقضايا تهم الجانب الحكومي الا ان البعثة قاومت هذه الاسلوب وتعاملت معه بما يحقق تنفيذ مهامها بالصورة المطلوبة وتغلبت على المعوقات التي اعترضت عملها.

ج - وسائل الاتصال:

58- تقوم البعثة بالاتصال بالمجموعات المختلفة من خلال الشبكة المحلية السورية والمتمثلة في الهواتف المحمولة والفاكس حيث تتعرض هذه الوسائل للانقطاع في بعض الاحيان الامر الذي يحول دون الاتصال بمختلف المجموعات.

59- هواتف الثريا التي وصلت للبعثة عددها (10) وهي من النوع الذي يصعب استخدامه داخل المباني لصعوبة التقاط الاقمار الصناعية مما أدى الى عدم استخدامها في ارسال التقارير اليومية والاعتماد على الهواتف العادية والفاكس وهما وسيلتان غير آمنتان.

60- وسائل الاتصال المرافقة للمراقبين القطريين تم حجزها على الحدود الاردينة رغم مطالبة رئيس البعثة الجانب السوري بضرورة السماح بدخولها وحتى لو تم الموافقة على دخولها فهي غير كافية لتأمين كل المواقع والمحطات.

61- لا توجد لدى البعثة اجهزة اتصال walkie talkie للتواصل بين اعضاء الفريق الواحد وقد قامت السفارة الصينية بتقديم عشرة أجهزة هدية للبعثة وتم استخدامها في ثلاث قطاعات فقط.

62- خدمة الانترنت في بعض المناطق غير متوفرة وفي بعض آخر بما فيها العاصمة غير منتظمة.

63- لا توجد كاميرات التقاط محمولة على السيارات مما يسهل مهمة المراقب في الاماكن الخطرة.

د – وسائل الحركة:

64- اجمالي السيارات التي تستخدمها البعثة (38) سيارة (23 مصفحة و15 غير مصفحة) منها (28) سيارة (4×4) و(10) سيارات صالون علماً بان مهمة البعثة تتطلب ان تكون كافة السيارات المستخدمة (4×4)مصفحة نظراً لطبيعة

المهمة و العدد المتوافر حالياً لا يفس بحاجة البعثة وخاصةً للتنقل داخل المناطق الساخنة.

65- قامت البعثة في بداية انتشارها بتأجير عدد من السيارات من السوق المحلي لاستخدامها في اعمال المراقبة ولكن نظراً لما واجهته المجموعات الميدانية من بعض اعمال الشغب فقد سحبت الشركات المؤجرة السيارات خوفاً على سلامتها وسلامة سائقيها.

66- واجهت البعثة مشكلة في توفير سائقين بسبب رفض الجهات المعارضة دخول السائقين المحليين الة مناطقهم باعتبارهم تابعين لجهات امنية مما اضطر المراقبون لقيادة السيارات بانفسهم.

67- طالب بعض المراقبين باستخدام السيارات التي قامت دولهم بارسالها الامر الذي رفضه رئيس البعثة وقام بتوزيع السيارات طبقاً لحاجة كل قطاع.

هـــــ - الاعلام:

68- تعرضت البعثة لحملة اعلامية شرسة منذ بداية عملها وحتى الان وقامت بعض وسائل الاعلام بنشر تصريحات لا اساس لها ونسبتها الى رئيس البعثة كما قامت بتضخيم الاحداث بصورة مبالغ فيها ادت الى تشويه الحقيقة.

69- ان هذا النوع من الاعلام المفبرك ساهم في زيادة الاحتقان بين افراد الشعب السوري واساء الى عمل المراقبين واستغل نفراً قليلاً منهم لتشويه سمعة البعثة ورئيسها ومحاولة افشال المهمة.

ثامناً : الاحتياجات الاساسية للبعثة في حالة التجديد:

-عدد (100) مراقب اضافي من العناصر الشابة ويفضل العسكريون منهم.

30 -سيارة مصفحة.

-سترات واقية خفيفة.

-اجهزة تصوير محمولة على السيارات.

-اجهزة اتصال حديثة.

-مناظير ميدان ليلية ونهارية.

تاسعاً : التقويم:

70- ان الهدف من البروتكول هو حماية المواطنين السوريين من خلال التزام الحكومة السورية بوقف اعمال العنف واطلاق سراح المعتقلين وازالة كافة المظاهر المسلحة من المدن والأحياء السكنية وذلك كمرحلة لا بد أن تفضي الى حوار بين الاطراف السورية والبدء في عملية سياسية موازية والا طال امد هذه البعثة بدون تحقيق النتائج المرجوة على الارض .

71- ثبت للبعثة وجود عنصر مسلح غير مخاطب بالبروتوكول وهو لا شك تطور ظهر على الارض نتيجة الاستخدام المفرط للقوة من جانب القوات الحكومية قبل انتشار البعثة عند التصدي للاحتجاجات التي طالبت باسقاط النظام ويعتدي هذا العنصر في بعض القطاعات على القوى الامنية السورية وعلى المواطنين كرد فعل يواجه ايضاً برد فعل حكومي عنيف يدفع ثمنه المواطنون الابرياء ويؤدي في النهاية الى سقوط عدد من القتلى والجرحى.

72- لاحظت البعثة منذ انتشارها داخل سوريا أن المعارضة رحبت بها وبأعضائها وكان هناك اطمئنان من جانب المواطنين لتاجد البعثة فتقدموا بمطالبهم رغم تخوف المعارضة في السابق من أن تتعامل بصورة مكشوفة نظراً لما اصابها من خوف الاعتقال الذي طالها قبل وصول البعثة الى سوريا وذلك باستثناء الفترة التي اعقبت صدور بيان اللجنة

الوزارية الاخير وما شهدته من احداث خفت حدتها تدريجياً.

73- كما لاحظت أن هناك تجاوباً من الجانب الحكومي لانجاح مهمتها وتذليل كافة العقبات التي قد تواجهها وقامت بتسهيل اجراء اللقاءات والمقابلات مع أية جهة كانت ولم يفرض اية قيود على تحركات البعثة ولقاءاتها مع المواطنين السوريين سواء معارضين أو المؤيدين.

74- استشعرت البعثة في بعض المدن حالة من الاحتقان الشديد والظلم والقهر الذي يعاني منه المواطنين السوريين ولكن هناك اقتناع لديهم بضرورة حل الازمة السورية بصورة سليمة وفي الاطار العربي دون تدويل حتى يتمكنوا من العيش في سلام وامان وتتحقق عملية الاصلاحات والتغيير المنشودة وقد أبلغت من المعرضة وبالاخص في درعا وحمص وحماه وادلب ان جزءاً من المعارضة لجا الى السلاح نتيجة لمعاناة الشعب السوري من قهر واستبداد نظام الحكم والفساد الذي طال كافة قطاعات المجتمع بالاضافة الى ممارسات التعذيب من قبل الجهات الامنية وانتهاكات حقوق الانسان.

75- هناك احداث بدأت تظهر وتمثل تطوراً قد يؤدي الة مزيد من الفجوة والمرارة بين الاطراف وتترتب عليها نتائج خطيرة وخسائر في الارواح والممتلكات وهي التفجيرات التي طالت المباني /قطارات الوقود/عربات المازوت/قوات الشرطة/الاعلام/خطوط الانابيب وهي اعمال بعضها تبناه تنظيم الجيش الحر والآخر من جهات مسلحة تابعة للمعارضة.

76- التزمت البعثة التزاماً دقيقاً بتنفيذ مهمتها وفقاً لما جاء في البروتوكول من خلال المعايشة اليومية للواقع على الارض بحيادية واستقلالية تامة بما يضمن الشفافية والامانة في رصد الواقع رغم الصعوبات التي واجهتها وتصرفات بعض الافراد غير المنضبطة.

77- المدة الزمنية لعمل البعثة والمحددة وفقاً للبروتوكول بشهر واحد لا تكفي للتحضيرات الادارية ناهيك عن عمل البعثة التي اكملت 23 يوم عمل فعلي حتى تاريخه فهي بالتأكيد فترة غير كافية نظراً لتعدد البنود الواجب التحقيق منها ولضرورة التواجد على الارض لفترة زمنية اطول للتعايش مع المواطنين ولرصد كل ما يدور من احداث مع العلم ان هناك تجارب سابقة مماثلة استغرقت شهوراً وفي بعض الاحيان سنوات عديدة.

78- اصبحت مصداقية البعثة مثار شك لدى المشاهد والمستمع العربي والاجنبي الذي يشاهد بعض وسائل الاعلام والتي تعمد الى استخدام التقنيات الاعلامية لتغيير الحقائق وهي مسألة يصعب التخلص منها الا بتوفير الدعم السياسي والاعلامي للبعثة ومهمتها حتى اذا ما ظهرت بعض السلبيات اثناء نشاطها فهذا امر طبيعي يحدث لمثل هذه البعثات والانشطة

79- جاءت البعثة الى سوريا بعد فرض العقوبات التي فرضت على سوريا لتنفيذ ما اتفق عليه في البروتوكول ورغم ذلك وجدت ترحيباً من الطرفين المعارض والمؤيد وكذا الحكومة غير ان التساؤل يدور حول كيفية استكمال البعثة مهمتها وهنا يلزم التنويه بان مهمة البعثة كما حددها البروتوكول طرأ عليها تغير نتيجة تطور الاحداث على الارض وردود الافعال التي صاحبها العنف في بعض الاحيان من جانب اطراف لم يخاطبها البروتوكول وكلها أمور تفرض احداث تطور وتغير في مهمة البعثة ولا شك في ان نقطة البدء في هذا الاطار هي ضرورة التزام جميع الاطراف بوقف جميع اعمال العنف حتى تتمكن البعثة من استكمال مهمتها في ظل مناخ يساعدها على تمهيد الارضية للعملية السياسية في نهاية المطاف.

80- اذا ما كان هناك اتفاق على تحديد فترة عمل البعثة فانه يلزم توفير المعدات ووسائل الاتصال والتنقل التي تمكنها من استكمال مهمتها على الارض.

81- ومن جانب آخر فان اي انهاء لعمل البعثة بعد هذه الفترة القصيرة من بدء عملها سوف يقضي على النتائج الايجابية – حتى وان كانت غير مكتملة – التي تحققت حتى الان وسينتهي الامر ربما الى فوضى على الارض طالما أن جميع

اطراف الازمة غير جاهزين ولا مؤهلين حتى الان للعملية السياسية المتعلقة بمعالجة الازمة السورية.

82- النوايا تجاه البعثة منذ تكوينها غير صادقة وبتعبير اشمل غير جادة فقد واجهت وقبل الشروع في مهمتها بل وقبل وصول مراقبيها حملة شرسة طالت الجامعة العربية ورئيس البعثة وازدادت حدتها بعد الانتشار ولا تزال تعاني من ضعف الدعم السياسي والاعلامي اللازم لانجاز المهمة.

واذا ما قدر لها ان تستمر فلن تتحقق اهداف البروتوكول الا بتوفير هذا الدعم والوقوف وراء البعثة من أجل انجاح الحل العربي.

عاشراً التوصيات:

83- في ضوء ما سبق وبما تحقق من نتائج في البنود التي نص عليها البروتوكول والتي تعهدت الحكومة السورية بتنفيذها أرى ما يلي:

-ضرورة تدعيم البعثة بالجوانب الادارية واللوجستية التي تمكنها من القيام بواجباتها وكذا توفير الدعم الاعلامي والسياسي لخلق مناخ مواتي يساهم في انجاز المهمة على الوجه المطلوب.

-التأكيد على ضرورة التعجيل بالعملية السياسية وانطلاق الحوار الوطني بالتوازي مع مهمة البعثة من اجل توفير مناخ من الثقة يساهم في انجاح البعثة ويحول دون اطالة امد بقائها في سوريا دون جدوى.

والله المستعان,,

رئيس البعثة

الفريق أول الركن محمد أحمد مصطفى الدابيالدابي

ملحق

الجمهورية العربية السورية
وزارة الداخلية
مكتب الوزير

الرفيق رئيس خلية إدارة الأزمة
تحية عربية
نبين فيما يلي الحوادث التي وقعت في بعض محافظات القطر بتاريخ ٤/١/٢٠١٢ :

محافظة درعا :

في الساعة (١٠.٠٠) صباحاً تجمع حوالي /١٠٠/ مئة شخص في بلدة داعل رددوا عبارات مسيئة للوطن وتفرقوا في الساعة (١٢.٣٠) .

وفي الساعة (١٤.٣٠) تشيع حوالي /١٠٠٠/ ألف شخص بالمدينة جنازة شخص قتل في الأحداث السابقة ردد بعضهم عبارات مسيئة للوطن وتفرقوا بعد انتهاء الدفن .

وفي الساعة (١٣.٠٠) تجمع حوالي /٦٠/ ستين شخص في بلدة الحارة رددوا عبارات مسيئة للوطن وتفرقوا في الساعة (١٣.٣٠) .

وفي الساعة (١٤.٢٥) تجمع حوالي /١٠٠/ مئة شخص في بلدة الحراك رددوا عبارات (الشعب يريد إسقاط النظام - حرية - للشهيد) وتفرقوا في الساعة (١٥.٠٠) .

وفي الساعة (١٥.٣٠) تجمع حوالي /١٥٠/ مئة وخمسين شخص في بلدة الطيبة رددوا عبارات (الشعب يريد إسقاط النظام - حرية - للشهيد) وتفرقوا في الساعة (١٧.٠٠) .

وفي الساعة (١٨.٣٠) تجمع حوالي /٣٥/ خمسة وثلاثين شخص في بلدة خربة غزالة وحوالي /٥٠/ خمسين شخص في بلدة الشجرة وحوالي /٣٠٠/ ثلاثمئة شخص في بلدة طفس وحوالي /٤٠/ أربعين شخص في بلدة حيط وحوالي /٧٥/ خمسة وسبعين شخص في بلدة الصورة رددوا عبارات (الشعب يريد إسقاط النظام - حرية - للشهيد) وتفرقوا في الساعة (١٩.٠٠) .

في الساعة (١٠.٠٠) صباحاً زار وفد الجامعة العربية بلدة داعل والتقوا عدد من المواطنين وأثناء وجودهم في ساحة البلدة ألقى رئيس الوفد لمدة نصف ساعة مع بعض الأهالي ، ثم توجهوا إلى بلدة طفس وبعدها إلى مدينة درعا . وتوجه المغربي الاطلسي عضو الوفد إلى مكتبة فرامي المقابلة للفندق ثم إلى المول (ماي سنتر) وعاد إلى الفندق في الساعة (١٣.٠٠) وفي الساعة (١٤.٠٠) اجتمع أعضاء وفد الجامعة مع المحافظ وقائد الشرطة وانتهى الاجتماع في الساعة (١٥.٠٠) . والتقوا عدد من ذوي الشهداء .

وفي الساعة (١٠.٣٠) أقدم مسلحون مجهولون على طريق عتمان (القنية - التنه) بإطلاق النار على العقيد محمد الشمالي من مرتبات الفرقة الخامسة اللواء /١٥/ مما أدى لإصابة السائق بطلق ناري أسعف للمشفى .

وفي الساعة (١١.٣٠) أقام أشخاص مجهولون بالهجوم على عناصر حاجز الجيش في بلدة داعل ورشقهم بالحجارة وضربهم بالعصي وإشعال الإطارات المطاطية أثناء تواجد وفد الجامعة العربية مما أدى إلى إصابة عدد من عناصر الحاجز برضوض إسعفوا للمشفى .

في الساعة (٨,١٥) أقدم مسلحون مجهولون في بلدة الكرك بسلب سيارة حكومية عائدة لفرع الخزن والتسويق بدرعا .

أقدم أشخاص مجهولون بدخول بعض مدارس بلدتي (عتمان – الصنمين) والعبث وسرقة بعض محتوياتها .

في الساعة (٢٠,٣٠) أقدم شخصان مسلحان على دراجة نارية في بلدة الحريك برمي قنبلة يدوية على عناصر حاجز الجيش ولم تقع إصابات .

في الساعة (٢٢,٠٠) من تاريخ ٢٠١٢/١/٣ أقدم مسلحون مجهولون في بلدة خربة غزالة بإطلاق النار على عناصر حاجز الجيش وبادلهم العناصر بالمثل ولم تقع إصابات .

بتاريخ ٢٠١٢/١/٣ وأثناء زيارة وفد الجامعة العربية إلى حي السبيل بالمدينة أقدمت المدعوة تمام سالم الفالوجي على متن سيارة بسب وشتم دوريات حفظ النظام التي ترافق الوفد بعبارة (الجيش والأمن هم الذين قتلوا أولادنا وهم يهود واسرائيليون)، والتقى الوفد بالمدعوة خديجة أحمد الحاج خليل مقيمة في حي الكاشف بالمدينة وموظفة بالقصر العدلي بدرعا وشرحتا لأعضاء الوفد معاناتهما من العصابات المسلحة ثم توجهوا إلى روضة المروج الخاصة ومعهد الفاروق للغات ، والتقى وفد الجامعة ومرصد حقوق الإنسان ثمانية أشخاص من المتضررين من المجموعات الإرهابية المسلحة .

وردت معلومات لقيادة الشرطة أثناء وجود عضوين من وفد الجامعة العربية في الفندق شاهدوا رسالة تعرض على شاشة العرض وجرى نقاش بينهما أحدهما سوداني والآخر سعودي حيث قال السوداني (دماهي صيغة التخاطب من الملك السعودي) مما يدل على أن الرسالة سترسل إلى الملك السعودي يعلمه بما يحدث من تطورات في سورية عن طريق الإيميل وقد تناقش أعضاء الوفد فيما بينهم حول إمكانية تطبيق المبادرة الخليجية في اليمن على الوضع في سورية . وإجبار محافظ درعا بفتح المساجد المغلقة بالمدينة وهما مسجدي (أبو بكر وبلال) وسحب عناصر الجيش من المساجد .

محافظة دمشق :

في الساعة (١١,٤٥) خرجت مسيرة مؤيدة حوالي /٥٠٠٠/ خمسة آلاف شخص في ساحة السبع بحرات رفعوا أعلام الجمهورية العربية السورية وروسيا والصين وحزب الله وصور السيد الرئيس وهتفوا بحياة السيد الرئيس والوطن . ونددوا بقرارات الجامعة العربية . وحضر وفد جامعة الدول العربية للمكان وانتهت في الساعة (١٥,١٥) .

في الساعة (١٩,١٥) تجمع حوالي /٥٠/ خمسين شخص في محلة الزاهرة رددوا عبارات مسيئة للوطن وتفرقوا فور وصول دوريات الشرطة والأمن وعثر في المكان على قصاصات ورقية مكتوب عليها عبارات تحريضية .

في الساعة (١٩,٠٠) من تاريخ ٢٠١٢/١/٣ تجمع حوالي /٢٠٠/ مئتي شخص في محلة برزة وحوالي /١٠٠/ مئة شخص في محلة كفرسوسة وحوالي /٣٠٠/ ثلاثمئة شخص لتشيع جنازة في محلة جوبر رددوا عبارات مسيئة للوطن وأقدم بعضهم على قطع الطريق العام بالإطارات المطاطية المشتعلة والحجارة وتفرقوا في الساعة (١٩,٢٠) وتم فتح الطريق وإزالة العوائق من قبل عناصر الشرطة .

محـافـظـة الحسكـة :

في الساعة (١٣,٠٠) تجمع حوالي /١٥٠/ مئة وخمسين شخص في مدينة رأس العين ردّدوا عبارات مسيئة للوطن وألقى المدعو محمود محمد العمو كلمة حث فيها المشاركين على الاستمرار بالتظاهر وتفرقوا في الساعة (١٣,٤٠) .

وفي الساعة (١٦,٣٠) تجمع حوالي /١٠٠/ مئة شخص من الشريحة الكردية في حـي المفتـي بالمدينـة ردّدوا عبارات مسيئة للوطن ورفعوا علمي كردستان والعراق وتم تفريقهم من قبل عناصر الشرطة والأمن وألقي القبض على /٣/ أشخاص منهم .

وفي الساعة (١٧,٠٠) تجمع حوالي /١٥٠/ مئة وخمسين شخص من الشريحة الكردية أمام جامع قاسمو فـي مدينـة القامشلي وحوالي /١٠٠/ مئة شخص في بلدة عامودا ردّدوا عبارات مسيئة للوطن وتفرقوا في الساعة (١٨,٠٠) .

لوحظ ازدياد أعداد المتظاهرين

محـافـظـة القنيطـرة :

في الساعة (١٩,٣٠) من تاريخ ٢٠١٢/١/٣ تجمع حوالي /١٥/ خمسة عشـر شـخص فـي قريـة الحميديـة وحوالي /٥٠/ خمسين شخص في قرية ممتنة ردّدوا عبارات مسيئة للوطن وأقدم بعضـهم بقطـع طريـق عـام (نبع الصخر – ممتنة) بالإطارات المطاطية المشتعلة والحجارة وتم فتح الطرق من قبل دوريـات حفـظ النظـام وإزالة العوائق .

لوحظ ازدياد أعداد التظاهـرات والأشخـاص المشـاركين فيها هذا اليـوم في بعض المحافظـات عـن اليوم السابق . وتناقصت في محافظات (حمص – إدلب – حلب – دير الزور) واشتراك طلاب المدارس بالتظـاهر (ريف دمشق – حماة – طرطوس – دير الزور) وردّد المتظاهـرون العبارات المسيئة للوطن ، وقيام المسلحين برمي قذائف آر بي جي على الحواجز الأمنية (حمص) وإطلاق النار على الدوريات الأمنيـة المشتركة ومفـرزة الجمارك ووقـوع إصابـات واستشهـاد (درعا – ريف دمشق – حمص – حماة إدلب) وتفجير عبوات ناسـفة على الطرق التي تسلكها الدوريات الأمنية ووقوع إصابات (حماة) وخطف ضابط من جيش التحريـر الفلسـطيني ومواطنين وعناصر من الشرطة وطلب فدية من ذويهم لتركهم (ريف دمشق – حمص – إدلب) وسلب سـيارات حكومية وخاصة مع حمولاتها (درعا – حمص – حماة – إدلب) وخرق حرمات المدارس والعبث وسـلب بعـض محتوياتها (درعا – ريف دمشق- إدلب) والعثور على جثث أشخاص مقتولين بطلقات ناريـة بعضـها مجهولـة الهوية (ريف دمشق – حمص – حماة – إدلب) وحرق سيارة خاصة (إدلب) .

والخـلـود لـرسـالـتـنـا

دمشـق فـي ١٠/٢/ ١٤٣٣هـ ، الموافـق ٤/١/ ٢٠١٢ م

الرفيق اللـواء محمد الشعار
وزيـر الداخليـة

٩

وثيقة مسربة من مكتب وزير الداخلية محمد الشعار

حزب البعث العربي الاشتراكي

أمة عربية واحدة

ذات رسالة خالدة

القطر العربي السوري – القيادة القطرية

الرقم:

التاريخ: 2011/11/24

سري للغاية

يحفظ لدى المسؤول شخصياً

محضر اجتماع

اجتمعت الخلية المركزية لإدارة الأزمة يوم الأربعاء الواقع في 2011/11/23 برئاسة الرفيق العماد حسن توركماني عضو القيادة القطرية، وتدارس واقع الاجتماع على النحو التالي:

- استعراض القرارات المتخذة في الاجتماع السابق الذي عقد بتاريخ 2011/11/21، والتأكيد على استكمال تنفيذها.
- دراسة كتاب مكتب الأمن القومي رقم 2/8591 تاريخ 2011/11/23 حول تطورات الموقف الأمني في محافظة درعا، وتزايد أعداد المسلحين، وزيادة [illegible] إلى الإرهابيين، وضعف المتابعات الأمنية وتدهور الموقف الأمني الناجم عنه، [illegible]
- دراسة كتاب فرع درعا رقم /29/ تاريخ 2011/11/21 المتضمن مقترحات اللجنة الأمنية للمحافظة، واتخاذ الإجراءات الممكنة للمساعدة في تنفيذ تلك المقترحات.
- دراسة الإجراءات الواجب استكمالها لضبط الحدود مع الدول المجاورة، ومكافحة تهريب الأسلحة والذخائر والمواد الأخرى والمتسللين.
- دراسة تسريع أعمال تصفيح العربات وتكثيف رحلات ورش من بعض إدارات القوات المسلحة.
- استعراض الأثر الإيجابي للتركيز على تنفيذ العمليات الصغيرة والمنفذة بشكل واحد على عدة أهداف مستطلعة بدقة بعد إنجاز كافة التحضيرات التي تساعد في نجاحها في تنفيذ مهمتها وتحقيق الأهداف المخططة.
- الوقوف على مستوى الأعمال المنفذة لاستكمال تجهيز غرف العمليات في الأجهزة الأمنية وفي وزارة الداخلية وفي المحافظات.
- دراسة كتاب رئاسة مجلس الوزراء – الفرع الخاص رقم /2288/ تاريخ 2011/11/21 المتضمن ترفيق الصهاريج التي تنقل مادة الفيول من مصفاة حمص إلى محافظات: (حماة – إدلب –حلب) وضرورة الاستفادة من الإجراءات المتخذة لحراسة خطوط نقل النفط والمنشآت النفطية وحراسة الطرق الدولية.
- دراسة أهمية متابعة العربات المخطوفة والمسروقة وخاصة عربات(البيك) وكشف أماكن تجمعها وتجهيزها بالأسلحة، واتخاذ التدابير لمصادرتها قبل استخدامها من قبل المسلحين والإرهابيين.
- استعراض الأثر الإيجابي للنشاط السياسي الذي يمكن أن تساهم فيه الأحزاب المنضوية في الجبهة الوطنية التقدمية، وحسن استثمارها لعلاقاتها مع الأحزاب العربية الأخرى وخاصة في الدول التي سيشارك منها مراقبون في بعثة الجامعة العربية.

-1-

محضر اجتماع لقيادة حزب البعث قبل وصول البعثة، وفيه اهتمام بشأنها

مواقع إلكترونية سورية شنت حملة ضده بسبب جرأته:

"أنور مالك إرهابي وكتبه ألفها أبو جرة سلطاني"!

شنت مواقع إلكترونية سورية حملة كبيرة ضد الكاتب الصحفي الجزائري أنور مالك، الذي دخل سوريا كأحد أعضاء بعثة المراقبين العرب، وذلك بعد أن نشر على صفحته عبر "الفايس بوك"، أنه شاهد في حمص "جثثا في حالة لا تخطر على عقل بشر".

واتهمته هذه المواقع بأبشع التهم، وادعت أنها بحثت في ملفه وفي "تاريخ الرجل" ووجدته أحد "العناصر الإرهابية" في الجزائر، وأنه "قتل الكثير من الأطفال" زمن العشرية السوداء، كما ادعت أن أنور مالك يدّعي أنه كاتب، لكنه حسب موقع "سيريان ديز" الذي عنون مقالا مطولا بـ"حقائق لم تكشف بعد عن المراقبين العرب.. أنور الملك، عضو بعثة المراقبين مطرود من الجيش الجزائري وعضو في جماعة مسلحة"، أن مالك لا يعرف كتابة اسمه وأن كل كتبه كتبها له زعيم حركة مجتمع السلم أبو جرة سلطاني "المقيم في سويسرا" مع أن هذا الأخير يقيم في الجزائر.

وكان أنور مالك عضو بعثة المراقبين العرب في سوريا، قال قبل أيام إنه رأى في حمص الدماء، وأن العنف لم يتوقف في سوريا، وهو في تصاعد، وأنهم يقفون على جثث في حالة لا تخطر على عقل بشر، وأكد الصحفي الجزائري على صفحته في الفايس بوك، التي أغلقت مباشرة عقب كتابة ملاحظاته، إن الاختطاف مستمر والتعذيب فاق الحدود، ووصف البعثة العربية بأنها عاجزة بسبب

أنور مالك خلال زيارته لسوريا

حكوماتهم، وختم ملاحظاته بأنه يبرئ ذمته للشعب السوري البطل من مسرحية ولدت ميتة وصارت عمياء.

جريدة الشروق اليومي في أثناء وجود المؤلف بحمص

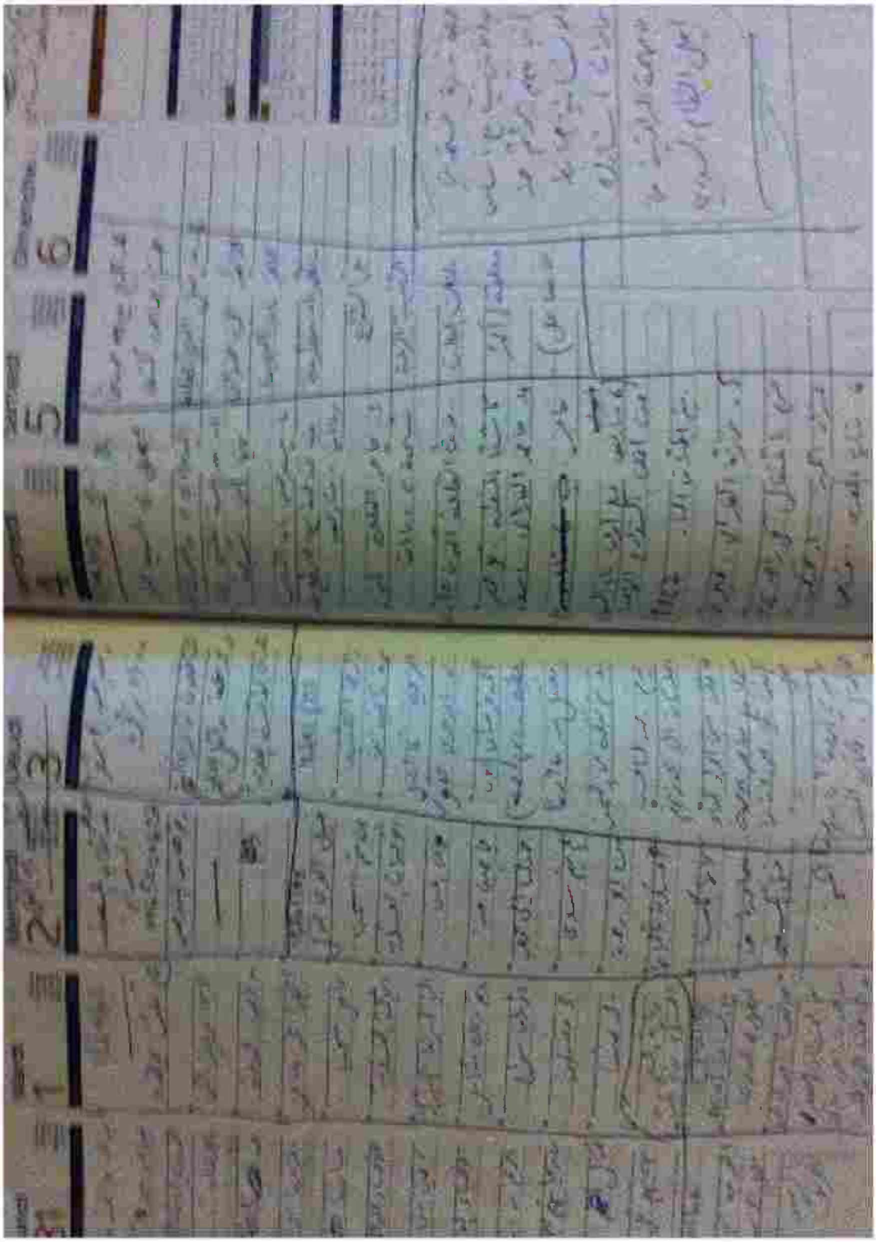

من يوميات المؤلف في أثناء أداء مهمته في سوريا

العرب

الدابي ينفي أقوال مالك: لم يغادر الفندق طيلة 6 أيام

لم تعلن الجامعة العربية بعد إن كانت ستطلب تمديد مهمة المراقبين العرب في سوريا أو لا، ومن المقرر أن يتخذ قرار بهذا الشأن خلال اجتماع لوزراء الخارجية العرب يعقد في 19 أو 20 كانون الثاني الجاري في القاهرة، وتسبقه مشاورات تجريها اللجنة العربية الوزارية المعنية بالأزمة السورية.

ومثّل الإعلان رسمياً عن انسحاب اثنين من المراقبين، ومعلومات عن انسحاب ثلاثة آخرين مادة سجالية شغلت الإعلام، وبدت أنها تمهد الطريق لإعلان انتهاء مهمة البعثة.

وقال المراقب الجزائري السابق أنور مالك لـ«رويترز» أمس إن مراقباً مصرياً وخبيراً قانونياً مغربياً وموظف إغاثة من جيبوتي يشاركون في بعثة المراقبين غادروا سوريا بالفعل.

وفي دمشق قال رئيس بعثة مراقبي الجامعة الفريق الأول محمد أحمد مصطفى الدابي إن ما ذكره مالك على قناة الجزيرة «لا يمت إلى الحقيقة بصلة». وقال، في تصريح إلى الصحافيين، إن «مالك منذ أن جرى توزيعه ضمن فريق حمص لم يغادر الفندق طيلة 6 أيام، متعللاً بمرضه». وأضاف أن «مالك قبل مغادرته دمشق بيوم، طلب السماح له بالسفر للعلاج في باريس، وجرت الموافقة له لكنه غادر قبل اتخاذ الإجراءات التي تستلزم سفره، ومن دون أن يسلّم العهدة التي تسلمها».

وفي القاهرة، قال رئيس غرفة عمليات البعثة عدنان الخضير إن بعثة المراقبين «مستمرة بأداء عملها حتى 19 كانون الثاني الجاري وفقاً للبروتوكول» الموقع بين الجامعة العربية والحكومة السورية، الذي حدد مدة عمل بعثة المراقبين بشهر قابل للتجديد، مبيناً أن العدد الإجمالي للمراقبين الموجودين حالياً في سوريا يبلغ 163، وأن أي عدد إضافي من المراقبين سيكون حسب الحاجة والطلب السوري. قال الأمين العام للجامعة العربية نبيل العربي في مقابلة مع قناة «الحياة» المصرية إن التقارير التي تصله من رئيس بعثة المراقبين «مقلقة للغاية».

أعلن المراقب الجزائري السابق أن ثلاثة من زملائه انسحبوا أمس (فادي الأسعد - رويترز)

من جانبها، ذكرت منظمة هيومن رايتس ووتش أن قوات الأمن السورية أطلقت النار على متظاهرين سلميين حاولوا الوصول إلى مراقبي الجامعة العربية في مدينة جسر الشغور، وأضافت أن «السماح باستمرار البعثة دون جهود فعالة أو واضحة لحماية المدنيين لن يؤدي إلا إلى المزيد من الوفيات».

وفي باريس، قال رومان نادال، مساعد المتحدث باسم الخارجية الفرنسية إن تسليم المراقبين تقريرهم في 19 كانون الثاني يمثل «لحظة حاسمة».

جريدة العرب القطرية

أنور مالك لـ «العرب»:

انسحاب 7 مراقبين من سوريا

» الدوحة - العرب

كشف المراقب الجزائري أنور مالك -الذي أعلن انسحابه من بعثة الجامعة العربية في سوريا- عن انسحاب عدد آخر من فريق البعثة، متوقعاً نهاية قريبة لمهمة البعثة المكلفة من الجامعة العربية برصد الأوضاع في سوريا.

وقال أنور مالك في تصريحات لـ «العرب» إنه «على يقين بأن بعثة المراقبين التي أرسلتها الجامعة إلى سوريا قد ماتت لكن للأسف فإن هذه الأيام المتبقية لإعلان وفاتها ستكون على حساب الدم السوري».

وأكد مالك انسحاب مراقب مصري وآخر مغربي، فيما ينتظر آخر من جيبوتي حجز الطائرة للمغادرة، وقال أيضاً إن «هناك ثلاثة أشخاص قد انسحبوا من البعثة قبلي»، بالإضافة إلى مراقب سوداني انسحب لأسباب صحية. وأكد مالك أن «ما يمنع الكثيرين من الانسحاب هو تكليفهم من قبل حكوماتهم، وبالتالي فهؤلاء يمثلون جهات رسمية ولا يملكون قرارهم».

من جهة أخرى، أعرب الناشط الجزائري أنور مالك عن شعوره «بالأسف لتصريحات

» أنور مالك رويترز

مسؤولين بالجامعة» تجاهه. وقال: «كنت أتوقع بدلاً من التهجم علي أن يرسل أمين عام الجامعة لجنة تحقيق في عمل البعثة».

وانتقد مالك بشدة رئيس البعثة الجنرال السوداني أحمد الدابي قائلاً إنه «لا يستحق هذه المسؤولية».

ص 17 »

جريدة العرب القطرية

LE TEMPS

Syrie Jeudi 19 janvier 2012

Un observateur de la Ligue arabe témoigne

Par Boris Mabillard

Un des observateurs de la Ligue arabe en Syrie témoigne après avoir démissionné Après avoir démissionné, l'Algérien Anouar Malek raconte les dysfonctionnements de la mission et les pressions qu'il a subies sur le terrain. Un premier rapport des observateurs est attendu jeudi

Depuis le 27 décembre, les observateurs de la Ligue arabe arpentent les lieux de la contestation en Syrie. Ce jeudi, après un mois de travail, ils rendront leur premier rapport. Les membres de la Ligue se réuniront ensuite au Caire, samedi, pour discuter des suites à donner alors qu'enfle la polémique sur la pertinence de la mission. Faut-il renouveler le mandat? Devançant la publication du rapport, l'émir du Qatar a parlé le 14 janvier d'échec et a proposé une intervention armée. L'Algérien Anouar Malek faisait partie du premier contingent d'observateurs envoyés sur le terrain. Mais après avoir patrouillé dans Homs, où la révolte fait rage, il démissionne bruyamment. Il a accepté pour Le Temps de revenir sur les dysfonctionnements de cette mission.

Anouar Malek réside en France depuis 2006, où il bénéficie du statut de réfugié politique. Ecrivain et journaliste, il s'intéresse aux droits de l'homme et à la politique en Algérie. Une ONG le contacte: la Commission arabe pour les droits humains, basée à Paris, est mandatée pour participer à la mission de la Ligue arabe. A la recherche de personnes prêtes à se rendre sans délai en Syrie, pour une durée d'un mois, elle sollicite Anouar Malek qui accepte aussitôt. En deux semaines tout est réglé. Le voilà donc au Caire, au siège de la Ligue pour un briefing, puis à Damas, où il débarque le 26 décembre.

La mission fait partie d'un plan de sortie de crise en cinq points agréé dans un premier temps par les autorités syriennes, mais jamais officiellement ratifié ni appliqué. Ce plan stipule la libération des prisonniers incarcérés depuis le début de la contestation, le retour de l'armée dans ses casernes, la fin des violences et l'accès du territoire aux médias. Enfin, pour apprécier l'application des points précédents, l'envoi d'observateurs. Sur les 500 initialement prévus, environ 160 se sont à ce jour rendus en Syrie.

«Au Caire, Nabil al-Arabi, le secrétaire général de la Ligue nous donne les grandes lignes de notre travail. Une liste nous est distribuée. J'y découvre les noms des autres observateurs: il y a des Soudanais, des Tunisiens, des militaires algériens, presque tous sont envoyés par leur gouvernement respectif. Nous ne sommes que six de l'ONG française.» Il justifie son engagement: «Je ne suis pas parti pour l'argent, 140 dollars par jour, mais pour me rendre utile, aider les populations civiles et contribuer à une solution diplomatique.»

Les observateurs se déploient dès le lendemain de leur arrivée. Homs fait partie des sites prioritaires, Anouar Malek y est envoyé. La polémique ne tarde pas à surgir, les manifestants réunis massivement attendent en vain les hommes de la Ligue arabe, vêtus d'orange. Anouar Malek rejette la faute sur les autorités syriennes: «Elles nous ont mis des bâtons dans les roues sciemment: problèmes de transport, d'infrastructures, d'autorisations.» Les experts se répartissent en groupes de dix: «J'étais dans le groupe A. Le 27 et le 28, j'ai fait équipe avec le chef de mission, ancien des services secrets, le

جريدة الوقت السويسرية

Canoë INFOS

Mise à jour: 11/01/2012 08:32
Syrie

Un observateur démissionne, accuse le régime de «crimes en série»

(AFP)

DOHA, Qatar - Un membre de la mission d'observateurs de la Ligue arabe en Syrie a présenté sa démission, accusant dans une interview à la chaîne al-Jazira le régime de mises en scène et de commettre des «crimes en série».

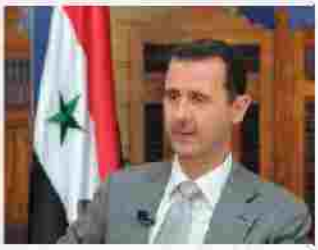

M. Malek accuse le régime du président Assad (photo) de crimes en série. © Archives/AFP photo

La démission de l'Algérien Anouar Malek est la première depuis le début le 26 décembre de cette mission de la Ligue arabe chargée de prévenir la poursuite de la répression, qui a fait, selon l'ONU, plus de 5000 morts depuis le début du soulèvement contre le président Bachar al-Assad il y a dix mois.

«J'ai présenté ma démission car j'ai trouvé que je servais le régime (syrien). J'avais l'impression de donner à ce régime une plus grande chance de continuer à tuer et que je ne pouvais rien faire pour l'en empêcher», a déclaré l'observateur à la chaîne satellitaire du Qatar.

«J'ai vu un véritable désastre humanitaire. Le régime ne commet pas un seul crime de guerre, mais une série de crimes contre son peuple», a-t-il ajouté. «J'ai vu des corps calcinés, portant des traces de torture», a-t-il également indiqué.

«Les enfants sont tués, on les affame et on les terrorise», a ajouté l'ancien observateur.

M. Malek a passé 15 jours à Homs (centre), épicentre du soulèvement, qu'il a qualifiée de «ville sinistrée» et fait état de scènes insoutenables.

Depuis mi-mars, la Syrie est en proie à une révolte réprimée dans le sang, mais le régime n'en reconnaît pas l'ampleur et attribue les troubles à des «bandes terroristes armées» manipulées par l'étranger.

Mais l'observateur démissionnaire a assuré que les manifestations étaient «entièrement pacifiques», ajoutant n'avoir vu «aucunes des milices armées dont parle le régime».

Il a assuré que «les observateurs ont été trompés» par le régime qui a systématiquement recours aux mises en scènes pour faire croire qu'il se conforme à l'initiative de la Ligue arabe prévoyant le retrait des chars des villes et la libération des prisonniers.

«Ils n'ont pas retiré leurs chars des rues, les ont juste cachés et redéployés après notre départ», a-t-il dit.

«La libération de détenus était une mascarade, le régime enlève des gens dans la rue, les garde pendant quelques jours en prison et nous convoque pour les libérer en notre présence», a-t-il poursuivi.

«Quant aux prisonniers dont l'opposition nous a fourni les listes nominatives, aucun n'a été libéré», a dit M. Malek.

Il a en outre affirmé que le régime du président Assad avait «envoyé des espions et des membres des services de renseignement, agissant comme chauffeurs et accompagnateurs» de la mission. «Dès que nous quittions un secteur, les gens étaient attaqués», a-t-il assuré.

Le chef de la Ligue arabe Nabil al-Arabi avait dénoncé mardi des attaques contre les observateurs en Syrie, ajoutant qu'il tenait le régime de Damas pour responsable de leur sécurité.

برقية لوكالة الأنباء الفرنسية

C.R.I.DE.M

TV Radios | Livre d'or | Forum | Chat online | Mon compte | Messagerie | Proposer un article

Sommaire

Accueil

Politique Générale

Justice, Démocratie

Faits divers, Insolite...

Artisanat, Tourisme

Journaux locaux, Infos Medias

Agriculture, Elevage Pêche

Finance et Economie

Emploi, Insertion, Formation

Urbanisme, Habitat Environnement

Santé, Hygiène, Beauté

Education, Culture, Littérature, Musique

L'Islam, Le Coran, La religion

Cours au 16/05/2012

1	Euro =	373.03	MRO
1	$ US =	278.25	MRO
100	FR.CFA =	57.91	MRO

Src: quote.yahoo.com

14-01-2012

00:47 **« J'ai reçu des menaces de mort et je possède des dizaines de photos des cadavres...**

... de manifestants ».

L'observateur algérien démissionnaire **Anouar Malek** a vertement répliqué aux propos du chef des opérations de la mission arabe en Syrie Mohammad al-Dabi, qui avait assuré que M. Malek était resté à son hôtel et qu'il ne s'était pas déplacé avec ses collègues à Homs.

« Oui, je suis resté à l'hôtel, mais uniquement au cours des quatre derniers jours, parce que des collègues et moi-même étions souffrants à cause du changement de climat. Mais au cours des douze premiers jours, je remplissais ma mission à Homs et Bab Amro.

Vous savez, il suffit d'un jour, un seul, pour chacun d'entre nous, pour voir et comprendre ce qui se passe en Syrie », a-t-il déclaré hier, interrogé par la chaîne de télévision al-Arabiya.

« Il existe de nombreuses vidéos sur YouTube et ailleurs où j'apparais aux côtés de M. al-Dabi, et je possède des dizaines de photographies où j'apparais devant des cadavres de manifestants. Je publierai tout cela dans un livre que j'intitulerai : J'étais observateur en Syrie », a-t-il dit, précisant que ce recueil sera disponible dans deux mois.

M. Malek a indiqué en outre avoir reçu *« plus de dix menaces de mort en Syrie »* après qu'il eut posté sur sa page Facebook des remarques sur ce qu'il avait vu comme assassinat de manifestants et qu'il eut tout raconté aux médias.

« Voilà pourquoi ils ont menacé par téléphone de m'égorger ; voilà pourquoi j'ai quitté précipitamment la Syrie en payant moi-même mon billet d'avion », a-t-il expliqué, précisant avoir informé M. al-Dabi de sa maladie et de son souhait de partir. *« Il m'a autorisé, a-t-il dit, précisant qu'il fallait que j'attende trois jours parce que la mission était à court d'argent et ne pouvait directement acheter le billet pour la France. »*

جريدة باكستانية

11 juin 2012 | Mise à jour 12h11

Le Point.fr

LES SERVICES
Météo
Bourse
Jeux-Concours

ACTUALITÉ Reuters

Reuters - Publié le 12/01/2012 à 21:26

La mission de la Ligue en Syrie de plus en plus contestée

par Alistair Lyon

BEYROUTH (Reuters) - Plusieurs observateurs de la Ligue arabe ont quitté la Syrie ou pourraient le faire prochainement pour dénoncer l'incapacité de la mission à mettre un terme à la répression des manifestations hostiles au président Bachar al Assad, rapporte jeudi un ancien membre de leur équipe.

L'opposition syrienne estime que les observateurs, qui sont arrivés le 26 décembre pour veiller à la mise en oeuvre d'un plan de sortie de crise, permettent avant tout au régime syrien de gagner du temps, dix mois après le début de la contestation.

Accepté par Damas en novembre, ce plan prévoit la libération des prisonniers politiques, le retrait des chars déployés dans les villes, la fin de la répression et l'ouverture d'un dialogue avec l'opposition.

Mais, selon un haut dirigeant de l'Onu, le nombre de manifestants tués en Syrie s'est accru depuis le début de la mission. La répression des manifestations antigouvernementales a fait plus de 5.000 morts depuis mi-mars 2011, selon les Nations unies.

Selon l'Algérien Anouar Malek, qui a quitté la mission cette semaine estimant qu'il n'était pas en mesure d'empêcher "des scènes d'horreur", de nombreux observateurs partageraient son point de vue.

"Je ne peux pas préciser combien mais ils sont nombreux. Quand vous parlez avec eux, leur colère est évidente", a-t-il déclaré à Reuters, joint par téléphone au Qatar. De nombreux observateurs ont reçu ordre de leur gouvernement de ne pas quitter la mission, ajoute-t-il.

Le chef de la mission a démenti ses propos. "Le général (soudanais) Mohammed al Dabi (...) a confirmé que ce que l'observateur Anouar Malek a dit à une chaîne satellitaire ne correspondait en rien à la réalité", indique la Ligue arabe dans un communiqué.

"Après sa nomination dans l'équipe de Homs, Malek n'a pas quitté l'hôtel pendant six jours et n'est pas sorti avec le reste de l'équipe au prétexte qu'il était malade", poursuit-elle, ajoutant qu'il avait demandé à être soigné à Paris mais qu'il a fini par quitter la Syrie par ses propres moyens.

Un juriste marocain, un travailleur humanitaire de Djibouti et un Egyptien ont également quitté la mission, selon l'ex-observateur.

Ces départs n'ont pas pu être confirmés mais un autre observateur, qui a souhaité garder l'anonymat, a dit à Reuters qu'il prévoyait de quitter la Syrie vendredi.

"La mission ne sert pas les citoyens, elle ne sert à rien", a-t-il dit.

Selon l'Observatoire syrien des droits de l'homme, au moins 21 personnes ont été tuées jeudi dans l'ensemble du pays.

Sept civils ont péri à Deir al Zor lorsque les forces de sécurité ont ouvert le feu. Les corps de sept membres des forces de sécurité, apparemment tués lors d'un accrochage avec des déserteurs de l'armée, ont été apportés à l'hôpital de Maarat al Noman.

مجلة لوبوان الفرنسية

Mail&Guardian
AFRICA'S BEST READ

PRINT FRIENDLY PAGE
SEE ORIGINAL ARTICLE

Arab League observer accuses Syria of war crimes

An Arab League observer has left Syria, saying it has turned the monitoring mission sent to check its compliance with a peace plan into a "farce".

11 Jan 2012 12:53 - Staff Reporter

Syria President Bashar al-Assad. (AFP)

An Arab League observer has left Syria, accusing the authorities of committing war crimes and turning the Arab monitoring mission sent to check its compliance with a peace plan into a "farce".

"They didn't withdraw their tanks from the streets, they just hid them and redeployed them after we left," Anwar Malek told al-Jazeera English television at its headquarters in Qatar, still wearing one of the orange vests used by the monitors.

"The snipers are everywhere shooting at civilians. People are being kidnapped. Prisoners are being tortured and no one has been released," the Algerian former observer said. "Those who

جريدة الغارديان البريطانية

وكالة آكي الإيطالية للأنباء

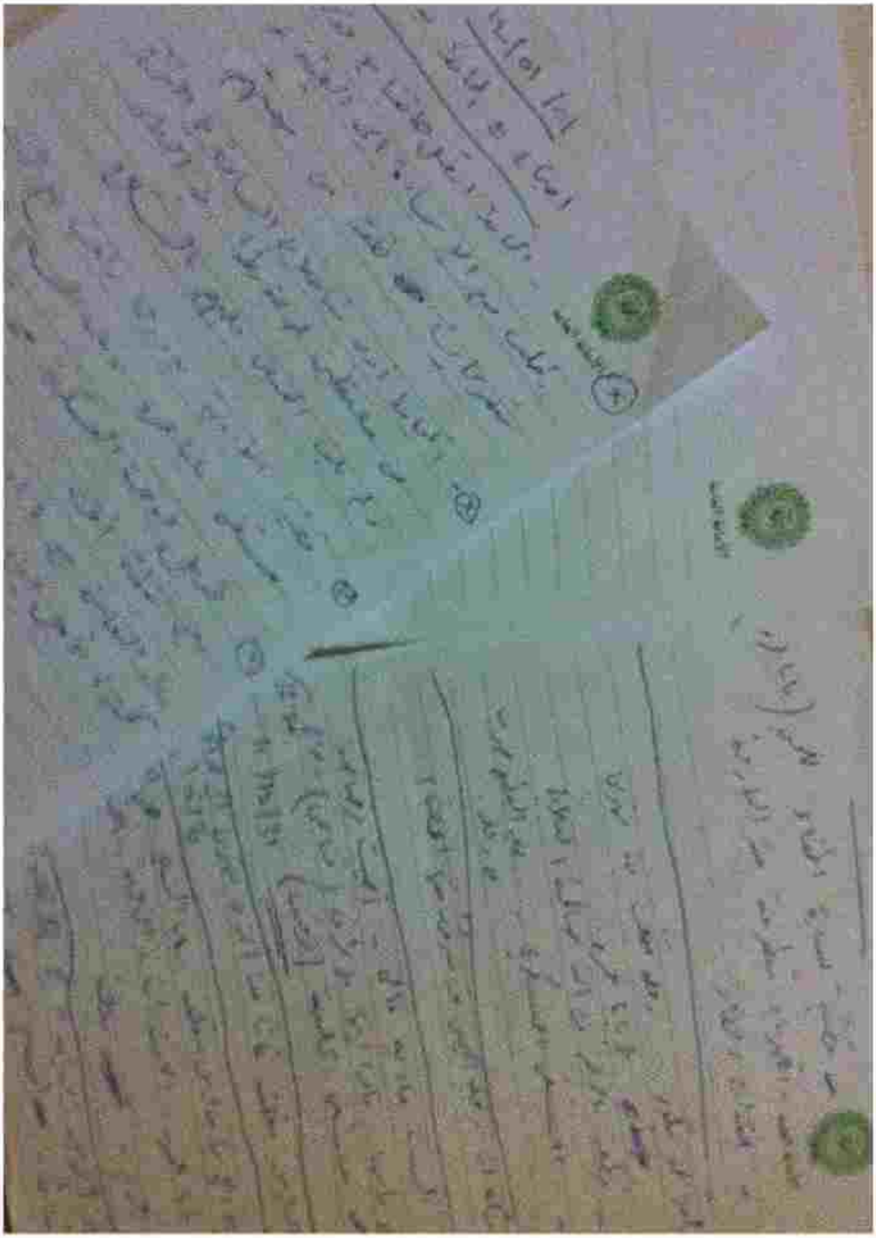

أوراق المراقبة التي يتم فيها تسجيل الملاحظات والشكاوى

ALJAZEERA

This tim
different
last time

Kenya's Raila Odinga sa
country has turned the p
post-election bloodshed

News | Programmes | Video | Blogs | Opinion | In Depth | Business | Human Rights | Sport

Africa | Americas | Asia-Pacific | Central & South Asia | Europe | Middle East

LATEST: AFRICAN LEADERS SIGN PEACE AGREEMENT TO BRING AN END TO THE CONFLICT IN EASTERN DEMOCRATIC REPU

Middle East

Arab observer calls Syria mission a 'farce'

Arab League monitor resigns over what he calls a "humanitarian disaster" in which shootings and kidnappings are common.

Last Modified: 11 Jan 2012 18:02

Like 1 Tweet 358 +1 9 Share 37 Email Print Share Feedback

موقع الجزيرة الإنجليزية

مراقب عربي : المخابرات السورية أرسلت نساء لغرفنا للإيقاع بنا

كشف المراقب الجزائري المنسحب من بعثة مراقبي الجامعة العربية إلى سوريا، أنور مالك، أن المخابرات السورية زرعت كاميرات خاصة لتصوير المراقبين العرب داخل حماماتهم الخاصة لابتزازهم بالصور، كما أرسلت نساء إلى غرف المراقبين للإيقاع بهم وتصويرهم في أوضاع مخلة. وقال إنه على ثقة أن بعض المراقبين تورطوا في أخطاء.

وقال مالك إن المخابرات السورية أرسلت إليه صورا خاصة لابتزازه عبر بريده الإلكتروني، مطالبا بسحب بعثة المراقبين لأنهم يعملون في ظروف وأوضاع لا تمكنهم من تنفيذ البروتوكول الخاص بمهمتهم.

وأفاد أن المراقبين لم تتوفر لهم أية آليات للانتقال إلى مواقع الأحداث إلا عبر الأجهزة الأمنية السورية التي كانت تتلكأ في التعامل مع الكثير من طلبات الانتقال لعدة ساعات، فضلا عن اضطرار المراقبين إلى الاعتماد على هواتفهم الشخصية.

وذكر أن الأوضاع في سوريا ليست في حاجة إلى مراقبين محليين، بل إلى مراقبين دوليين أو لجنة تحقيق دولية، مؤكدا على أن سوريا لم تسحب المظاهر العسكرية من المدن، فضلا عن استمرار قصف وحصار المناطق السكنية.

وأوضح أن رئيس بعثة المراقبين العرب صار بعد وصوله بعدة أيام إلى سوريا يتحدث إلى المسؤولين السوريين كالحمل الوديع بدون أسباب واضحة.

وقال إنه لم يشاهد صحفيا في حمص إلا من القنوات التلفزيونية التابعة للنظام السوري، وإن المسؤولين رفضوا السماح للمراقبين حتى بمتابعة القنوات التلفزيونية العربية داخل غرفهم.

جريدة عربية

«Это не война — это охота»

Анвар Малек — The New Times

В декабре сирийские власти согласились допустить в страну наблюдателей Лиги арабских государств (ЛАГ). В их числе оказался алжирский писатель и журналист Анвар Малек. Но вскоре он усомнился в эффективности этой миссии и публично сложил с себя полномочия: «Я не захотел участвовать в фарсе и покрывать преступления режима Асада». Разговор с The New Times Малек начал с впечатлений от увиденного в мятежном Хомсе.

Город фактически на военном положении. На улицах танки, во многих местах лежат еще не остывшие трупы, на крыше любого мало-мальски высокого здания — снайперы. Люди порой неделями не выходят из дома, боятся, что их подстрелят, как зайцев. Это даже не война — это охота на мирное население. Каждый день гибнут минимум 15 ни в чем не повинных людей. Кто-то на улицах, кто-то в тюрьмах.

Вам удалось посетить тюрьмы в Хомсе?

Да, но заключенных почему-то перевели в казармы, куда нас не пустили. Зато я был в больнице Хомса — в талошнем морге около 200 тел замученных людей. С отрезанными пальцами и даже руками, вырванными ногтями, выколотыми глазами. Мужчины, женщины, дети... До сих пор не могу прийти в себя от увиденного. Местные жители рассказывали нам, как солдаты пытают детей на глазах родителей, насилуют женщин на глазах их мужей.

А почему власти даже не попытались скрыть от вас эти преступления?

Как же не пытались! Мы шагу не могли ступить без сопровождения военных, что объяснялось, разумеется, нашей безопасностью. В гостиничных номерах повсюду камеры, телефоны прослушиваются. Они маскировали танки на улицах или прятали их по каким-то дворам, а через полчаса после нашего визита выводили снова. Они меняли таблички на домах, чтобы показать нам «успокоившийся» район, хотя на самом деле боевых действий там просто не было. Но размах преступлений такой, что скрыть их просто невозможно. Можно спрятать танк, если заранее знаешь, что там появятся международные наблюдатели. Но нельзя убрать труп с улицы, если человека убили за пять минут до твоего появления, а снайперов, понятно, никто не предупредил.

Вам угрожали?

Я получал многочисленные звонки и «мейлы» с угрозами и требованиями заткнуться и прекратить публиковать фотографии из Хомса в интернете. Ко мне в номер подсылали женщин, чтобы снять их на скрытую камеру и дискредитировать меня. Но самое главное, сирийские власти, конечно, просто пытались выиграть время, играясь с нашей делегацией. Вот почему в какой-то момент я решил, что каждый день, проведенный в Сирии, дает новую отсрочку режиму — значит, пора возвращаться домой и рассказывать правду.

Протесты не прекращаются с марта прошлого года. Как вы считаете, почему сирийцев не останавливают зверства?

Знаете, я говорил с пятилетним мальчиком, который мне рассказал, что у него погиб сначала отец, потом мать, а потом все его старшие братья. И этот ребенок сказал мне, что его жизнь ему больше не нужна, но он будет жить, чтобы отомстить за свою семью. И вот так думают многие. Им больше нечего терять, кроме жизни, которой они тоже больше не дорожат. Но Башар Асад этого, похоже, не понимает.

Интервью взял Сергей Лаксу (Париж)

جريدة روسية

EDITION: INTERNATIONAL | U.S. | MEXICO | ARABIC
TV: CNNI | CNN en Español
Set edition preference

CNN

Home | Video | World | U.S. | Africa | Asia | Europe | Latin America | Middle East | Business | Wor

Arab League's Syria mission extended by a month

By the CNN Wire Staff
January 25, 2012 -- Updated 0111 GMT (0911 HKT)

Increasing pressure on Syria

STORY HIGHLIGHTS

- Bloc of Gulf Arab nations withdraws observers from Arab League mission
- Egyptian reformist Mohamed

Damascus, Syria (CNN) -- Syria has extended the Arab League monitors' mission for a month, Foreign Ministry spokesman Jihad Makdessi told CNN Tuesday.

This comes after the league voted Sunday to extend the mission.

سي إن إن الأمريكية

MOURAD MEDELCI À PROPOS DE ANOUAR MALEK

«Il ne représente pas L'État algérien»

C'est, inévitablement, sur la démission fracassante de l'Algérien Anouar Malek de la mission des observateurs de la Ligue arabe en Syrie que le ministre des Affaires étrangères, Mourad Medelci, a eu à s'expliquer devant la presse internationale jeudi à New York. Pour Medelci, le sulfureux Anouar Malek n'a pas intégré la mission en tant que représentant de l'Algérie mais en tant que délégué d'ONG.

Sofiane Aït Iflis - Alger (Le Soir) -Certes, le ministre des Affaires étrangères n'est pas allé jusqu'à le dire mais l'on aura su, entre-temps, que Anouar Malek, réputé pour ses sorties tonitruantes et à larges échos médiatiques, observait pour la Ligue arabe au titre de représentant de la Fédération internationale des droits de l'Homme (FIDH).

Sa nationalité algérienne ayant été mise en exergue, autant que la nature de son témoignage sur les mises en scène du pouvoir syrien, par les médias étrangers, la précision devenait nécessaire.

Aussi répondant à une question à propos de cette démission qui, forcément, met à mal la Ligue arabe et sa mission d'observation en Syrie, Mourad Medelci a souligné que la constitution d'une mission d'observation exige, en général, que cette dernière soit formée de représentants des Etats et de la société civile.

Medelci a précisé, par ailleurs, qu'outre les dix observateurs algériens qui représentent l'Etat algérien, la Ligue arabe a également mobilisé des membres d'organisations non gouvernementales, dont Anouar Malek.

Cela dit, le ministre des Affaires étrangères s'est abstenu de commenter le témoignage de Anouar Malek livré en live sur Al Jazeera.

Un témoignage dans lequel il a accusé le régime syrien de crimes en série qu'il tente de cacher à travers des mises en scène. «Les observateurs ont été trompés (...) il s'agit d'une mascarade. Le régime a mis en scène et fabriqué la plupart des choses que nous avons vues pour empêcher la Ligue arabe d'agir contre le régime Syrien.»

Medelci plaide pour le renforcement de la mission d'observation.

Mourad Medelci s'est limité à affirmer que la mission des observateurs de la Ligue arabe en Syrie était loin d'être terminée et qu'elle était compliquée et même dangereuse.

Et si Anouar Malek a, en sa qualité d'observateur, accusé le régime syrien de ne s'être conformé à aucun point du plan arabe de sortie de crise, Mourad Medelci a, lui, souligné que «si le gouvernement syrien a, certes, commencé à réaliser une partie de ses engagements, il n'en demeure pas moins que cela reste insuffisant».

Le ministre des Affaires étrangères a, à l'occasion, plaidé pour le renforcement de la mission d'observation, composée actuellement de 163 membres.

«Ce qu'il faut retenir de la première évaluation de cette mission est que l'équipe composée actuellement de 163 observateurs doit être renforcée non seulement en effectifs, en doublant leur nombre actuel, mais aussi sur le plan logistique.»

La violence armée est le fait à la fois du gouvernement et de l'opposition

Le ministre des Affaires étrangères, qui a mis en relief les difficultés rencontrées par les observateurs de la Ligue arabe sur le terrain, a estimé, se référant aux indications de la mission d'observateurs de la Ligue, que la violence armée n'est pas l'apanage du seul gouvernement syrien. «Cette mission d'observation a constaté que, sur le terrain, la violence armée provient à la fois des forces armées du gouvernement syrien et de l'opposition dont une partie est également armée», a-t-il affirmé, poursuivant que «les observateurs arabes ont des difficultés aussi bien avec le gouvernement qu'avec l'opposition armée au point où les observateurs n'ont pas pu accéder à certains quartiers contrôlés par l'opposition et que certains ont même été blessés».

Mourad Medelci a révélé, en outre, que la seconde évaluation de la mission d'observation aura lieu le 20 janvier prochain et qu'après, certaines initiatives pourraient être prises pour améliorer le processus de médiation de la Ligue arabe.

l'Algérie est pour la modération de certaines sanctions sévères

Le ministre des Affaires étrangères a réfuté les allégations qui présentent l'Algérie comme opposée, lors des délibérations des réunions des ministres des Affaires étrangères arabes, à toutes formes de sanctions contre la Syrie.

Mourad Medelci a expliqué que l'Algérie a travaillé pour la modération de certaines sanctions sévères suggérées, et ceci afin de ne pas porter préjudice à la population. «Lorsqu'il faut punir un régime, faut-il aussi punir le peuple ?» a-t-il dit.

Pour l'exemple, il a cité la proposition contenue dans le document initial de la Ligue arabe et qui préconisait l'annulation de tous les vols entre la Syrie et les autres pays.

S. A. I.

OBSERVATION INTERNATIONALE DU SCRUTIN LÉGISLATIF

Hillary Clinton s'est dite réjouie

La secrétaire d'Etat américaine, Hillary Clinton, qui animait jeudi un point de presse conjoint avec son homologue algérien Mourad Medelci, s'est déclarée réjouie que des observateurs internationaux puissent superviser les prochaines élections législatives. «Je me réjouis d'entendre que davantage de le[illegible] vont participer (aux élections) et nous soutenons fortement l'invitation lancée par le gouvernement algérien aux organisations internationales pour veiller au bon déroulement du scrutin», a-t-elle déclaré, ajoutant que «nous attendrons avec impatience le résultat des élections législatives».

La secrétaire d'Etat américaine a également souhaité que «l'Algérie dispose de fondements démocratiques solides qui reflètent les aspirations de son peuple et nous saluons les récents efforts entrepris par le gouvernement algérien dans cette direction».

S'agissant des réformes politiques en Algérie, la chef de la diplomatie américaine a estimé qu'elles étaient «significatives» et que son pays les accueille «favorablement» du fait qu'elles participent à «l'élargissement du champ démocratique».

S. A. I.

جريدة ليبرتي الجزائرية

ينشط ندوات نقاش في عدة مدن أوروبية

المراقب أنور مالك يروي تجربته في سوريا

يستعدّ المراقب الجزائري أنور مالك، الذي انسحب من بعثة المراقبين في سورية لجولات في عواصم غربية كبرى، من أجل إلقاء محاضرات والمشاركة في ندوات ومهرجانات ومنتديات، يشرح فيها تجربته بسورية كعضو في بعثة الجامعة العربية التي بدأت عملها في 26 ديسمبر 2011.

البداية ستكون بتاريخ 11 فيفري الجاري بمدينة براوتشفانغ الألمانية، حيث سيشارك في ندوة تحت رعاية المبادرة السورية من أجل الحقوق المدنية وائتلاف شباب 15 مارس. وسيشاركه في الندوة كل من الباحث الألماني الشهير في شؤون الشرق الأوسط، البروفيسور أودو شتاينباخ، وعضو المجلس الوطني السوري الدكتور صادق الموصللي، ومن المزمع حضور شخصيات سياسية وإعلامية ونواب من البرلمان الألماني وأبناء الجالية السورية.

كما سيحلّ أنور مالك ضيفا على منتدى كرانس مونتانا العالمي ببروكسل، في دورته السنوية السادسة والتي ستنعقد خلال الفترة الممتدة من 7 إلى 10 مارس القادم، والتي ستتناول موضوع "افريقيا ملتقى التعاون جنوب جنوب". وسيحضره ممثلون لحكومات ودول عربية وافريقية، كما سيحضره الوزير الأول البلجيكي، ونظيره الكيني والأوغندي، ووزير الداخلية الإيفواري، ووزراء أفارقة آخرون. كما ستشارك في المنتدى شخصيات دولية فكرية وجامعية وحقوقية من بينهم مدير اليونسكو والإيسيسكو... الخ.

أنور مالك سيشارك مساء 9 مارس، في ندوة حول "هل الربيع العربي يقود إلى ديمقراطية؟"، إلى جانب كل من النائب البرلماني في الاتحاد الأوروبي سلافي بيناف، والمدير العام للإيسيسكو الدكتور عبدالعزيز عثمان التويجري.

كما سيكون أنور مالك ضيفا في الطبعة العاشرة من مهرجان الفيلم والمنتدى الدولي لحقوق الإنسان، الذي سينعقد بجنيف ما بين 2 و11 مارس القادم، حيث تقرر أن تهدى فعاليات الحدث العالمي إلى الشعب السوري. وتمت برمجة أمسية لمناقشة موضوع التضامن مع المقاومة والمعارضة السورية وذلك في يوم الافتتاح 2 مارس. ومن المزمع أن يشارك في هذه المائدة المستديرة إلى جانب أنور مالك، كل من الكاتبة الصحافية السورية سمر يزبك، والمعارض السوري البارز هيثم المالح.

وستحضر فعاليات المهرجان شخصيات دولية من بينهم المحامية الإيرانية الحائزة على جائزة نوبل، شيرين العبادي، والفلسطينية ليلى شهيد، والممثلة الفرنسية جولييت بينوش، وعازف البيانو الكلاسيكي ميغل أنجل أستريلا وغيرهم.

كما سيشارك أنور مالك، الجالية السورية بواشنطن الذكرى الاولى لإندلاع الثورة السورية، وسيقوم بجولات في ولايات أمريكية لعقد ندوات ولقاءات صحفية يحضرها إعلاميون وسياسيون وأعضاء من مجلس الشيوخ الأمريكي.

جريدة الشروق الجزائرية

Domingo, 11 de Marzo

General sudanés Mohammad al-Dabi

Jefe de observadores árabes en Siria desmiente ataque mediático

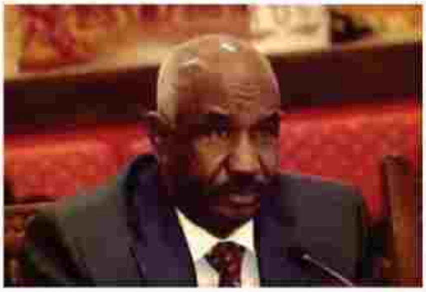

Damasco, 13 ene (PL) El general sudanés Mohammad al-Dabi, jefe de los observadores árabes en Siria, desmintió declaraciones hostiles al gobierno de Damasco de un miembro del grupo a un canal satelital, quien después abandonó el equipo.

En una declaración a la prensa, que circula hoy aquí, al-Dabi asevera que lo dicho por el argelino Anwar Malek a al-Jazeera es completamente falso, y le imputó que cometió perjurio.

Desde que fue asignado al equipo observador en Homs -relata el general sudanés- Malek no salió de su hotel durante una semana, y no participó en ninguna de las visitas de terreno realizadas por sus homólogos en localidades de esa provincia, con el pretexto de que se encontraba enfermo.

Ya desde la pasada semana, la televisora al-Jazeera comenzó a utilizar a Malek en su propaganda anti-siria. Lo primero que propaló fue que las autoridades le habían robado y después bloqueado el celular, lo cual el propio inspector tuvo que negar.

La misión observadora en Siria se encuentra bajo fuertes presiones para que sus informes no se opongan o, al menos, no se distancien del guión trazado por los centros de poder de Occidente y sus aliados árabes en la campaña anti-siria.

Al-Dabi explicó que un día antes de salir de Damasco, Malek solicitó que le permitieran viajar a París para someterse a tratamiento y se le aceptó su petición; sin embargo, viajó antes de que se adoptaran las medidas requeridas para el viaje y sin cumplir con la confianza que se le ofreció para participar en la misión a Homs.

El general sudanés recalca en su comunicado que Malek cometió perjurio y es responsable de lo que dijo, lo cual no corresponde con la postura, ni la visión que tienen sus colegas que

جريدة إسبانية

REUTERS CANADA

LATEST NEWS INSIGHT: AZERBAIJAN EYES AIDING ISRAEL AGAINST IRAN

TAP INTO WESTLAW NEXT
WestlawNext™ iPad® App.
Access the world's most advanced legal research system via your iP

You are here: Home > News > Top News > Article

HOME
NEWS
Top News
Business
Canada
Sports
Entertainment
Technology
WORLD INDICES

Products & Services
Support
About Thomson Reuters

Arab monitors say unable to halt Syrian killings

Wed Jan 11, 2012 6:54pm EST

Print This Article | Single Page [-] Text [+]

By Alistair Lyon

BEIRUT (Reuters) - An Algerian has quit the Arab League team sent to check Syria's compliance with an Arab peace plan, and a second monitor said he might leave because the mission was failing to end the killing of civilians protesting against the president's rule.

The 22-member League, which suspended Syria in November, sent the monitors last month to verify if Syria was carrying out an agreement to halt its crackdown on protests against President Bashar al-Assad.

Assad swore on Wednesday to defeat "foreign conspirators" plotting to end his rule and a Frenchman became the first foreign journalist to be killed in 10 months of unrest in which the United Nations says more than 5,000 people have been killed.

Syria barred most foreign media soon after protests began in March, but more journalists have been admitted since the Arab League sent in its monitors. The French journalist who was killed had been invited to Syria by the government.

"France 2 television has just learned with a great deal of sorrow of the death of reporter Gilles Jacquier in Homs," the broadcaster said.

A Belgian reporter who was there told Reuters several mortar rounds or grenades had landed in the area.

"There was a lot of chaos, blood, hysteria," he said. Syrian state television said eight people were killed in the incident, which it blamed on a "terrorist group."

Arab League monitor Anwar Malek said he had resigned because the mission was powerless to prevent "scenes of horror" in Homs.

وكالة رويترز

المراقب السابق أنور مالك يقاضي النظام السوري

» باريس - أ.ف.ب

ادعى أنور مالك اللاجئ السياسي الجزائري في فرنسا والمراقب السابق في بعثة الجامعة العربية في سوريا، على السفارة السورية في فرنسا متهما إياها بـ «تهديده بالقتل والاعتداء الجسدي والمعنوي» كما قال لوكالة «فرانس برس».

وأودعت الشكوى الاثنين لدى نيابة باريس، الهيئة السورية من اجل الحرية التي تعرف عن نفسها بانها منظمة غير حكومية لتقديم المساعدة الإنسانية للشعب السوري وتتحرك باسم انور مالك.

وقال أنور مالك إن «التلفزيون الرسمي السوري وصفني في فيلم وثائقي بالإرهابي والعضو في تنظيم القاعدة. تلقيت كثيرا من التهديدات بالقتل عبر البريد الإلكتروني والهاتف».

وكان أنور مالك الكاتب والناشط في مجال حقوق الإنسان من أعضاء بعثة مراقبي الجامعة العربية التي انتشرت أواخر ديسمبر في سوريا.

وبقي خمسة عشر يوما في حمص ثم أعلن في السادس من يناير استقالته وندد بعد ذلك «بجرائم بالجملة» يرتكبها النظام السوري.

وقال انور مالك إنه تعرض أواخر ابريل في تولوز (جنوب غرب) التي يقيم فيها، لاعتداء من قبل «أحد أقربائه» وصفه بانه «خائن وكاذب في شأن سوريا».

وكانت الهيئة السورية من اجل الحرية رفعت شكوى أوائل مارس في باريس على وزير الدفاع السوري السابق مصطفى طلاس.

جريدة العرب القطرية

مراقب ثان يهدد بالانسحاب اليوم

القاهرة -رويترز - تواجه بعثة المراقبين التابعة للجامعة العربية في سوريا مزيدا من المتاعب اذ ان اثنين من اعضائها يعتزمان الانسحاب من البعثة او يهددان بذلك في غضون 24 ساعة لأن مهمتهم لم تثبت فاعليتها في انهاء معاناة المدنيين.

وقال مراقب عربي طلب ألا ينشر اسمه انه ربما ينسحب من البعثة وهو ما يكشف عن تصدعات في جهود السلام العربية. وجاءت تصريحاته بعد يوم من ابلاغ المراقب الجزائري أنور مالك قناة الجزيرة بأنه انسحب من البعثة لان مهمة السلام تحولت الى «مسرحية».

وتحدث الرجلان اللذان يبدو انهما فزعا مما شاهداه عن استمرار العنف واعمال القتل والتعذيب وقالا ان اراقة الدماء لم تنحسر نتيجة لوجود بعثة الجامعة العربية.ووصف الرجلان معاناة السوريين بانها لا يمكن تخيلها.وكان انسحاب مالك ضربة للبعثة التي انتقدتها بالفعل المعارضة السورية ووصفتها بأنها كيان بلا أنياب يساعد الرئيس بشار الاسد في كسب الوقت.

ومن شأن استقالة عضو اخر من البعثة أن يقوض مصداقيتها.

وسئل المراقب عما اذا كان يتفق مع وصف مالك للمهمة بأنها فاشلة فقال «هذا صحيح..صحيح.حتى أنني أحاول المغادرة يوم الجمعة.انني ذاهب الى القاهرة أو مكان اخر..لان المهمة غير واضحة ...لا تخدم المواطنين.لا تقدم أي شيء». واضاف «استغلت السلطات السورية ضعف أداء الوفد ولم تستجب.لا توجد استجابة حقيقية على الارض».وطلب المراقب الذي كان يتحدث عبر الهاتف من سوريا عدم نشر اسمه لانه غير مسموح له بالتحدث لوسائل الاعلام.

وقال المعدات العسكرية لا تزال موجودة حتى في المساجد. طلبنا سحب العتاد العسكري من مسجد أبو بكر الصديق في درعا ولم يتم سحبه حتى اليوم.

جريدة عربية

أنور مالك يستقيل من البعثة العربية .. يغادر دمشق ويكشف لـ الشروق:

انسحبت حتى لا أكون شبيحا جزائريا لذبح السوريين

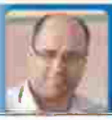

11

الشروق اليومي

إخبارية وطنية

رأينا صواب يحتمل الخطأ ورأيكم خطأ يحتمل الصواب

■ www.echoroukonline.com ■ فرنسا 1 € ■ الجزائر، 10 دج ■ العدد 3532 ■ هـ 1433 الموافق لـ 18 صفر ■ الخميس 12 جانفي 2012م ■ infos@echoroukonline.com ■

مساحة إشهارية

العالم

الخميس 12 جانفي 2012 / الموافق لـ 18 صفر 1433 هـ / العدد 3532

الشروق اليومي 11

أنور مالك عضو البعثة العربية لـ الشروق:

تسلمنا صور جثث نزعت جلود أصحابها أثناء التعذيب

■ رئيس بعثة المراقبين زور التقارير التي زودناه بها

أكد أنور مالك، أحد أعضاء بعثة المراقبين العرب لدى سوريا، أن فريقا من البعثة تعرض لمحاولة اغتيال يوم الاثنين الماضي في حي بابا عمرو، واتهم النظام السوري بالوقوف وراء ذلك.

■ القناصة و"الشبيحة" موجودون في كل مكان والنظام حاول تضليلنا

فريدة لكحل

وقال أنور مالك في تصريح للشروق، أن محاولة الاغتيال التي تعرض لها، تعود تفاصيلها ليوم الاثنين الماضي حين كان يهم هو وعدد من المراقبين لمغادرة حمص متجهين إلى دمشق، حيث تنقلا في سيارة من حمص إلى دمشق في طريق بجوار بابا عمرو، وبالرغم من وجود طريق آخر يوصل إلى دمشق مباشرة، إلا أن السيارات مرّت على هذا الحي حتى يوهمنا النظام بأن أهل بابا عمرو والجيش المنشق هم من أطلقوا علينا النار، بالرغم من أن هذا الأخير بعيد عن تلك المنطقة، مضيفا أن الطريق الذي سلكوه كانت به "نقاط عسكرية كثيرة" و"القناصة والشبيحة متواجدون في كل مكان"، فـ"لا الجيش الحر ولا المواطنين قريبين من المكان الذي تعرضنا فيه لمحاولة الاغتيال"، مؤكدا أن النظام هو من دبر العملية وخطط لها"، وأضاف أنه وعدد من المراقبين من المراقبين تحدثوا مع أستاذ جامعي بعد الحادث، فقال لهم إنه تم تحضير القناصة وخاطبهم بعينه من مكتبه قبل مرور السيارة التي كانت تقل أفراد هذه البعثة بحوالي ربع ساعة".

البعثة خضعت لرقابة شديدة في كل تحركاتها

واتهم العضو في بعثة

أنور مالك

تقارير تصور ما يجري فعلا في شوارع سوريا، وكذا شهادات من سكان تلك الأحياء، غير أنهم تفاجأوا بتقارير تمثل للعاصمة غير التي أعدّوها، مضيفا أن رؤساء الفرق التي كلفتهم الجامعة العربية بقيادة أعضاء البعثة هم من كانوا يزورون التقارير، منتقدا رئيس بعثة المراقبين الفريق الدابي، وقال إنه يريد أن يمسك العصا من الوسط، حتى لا يغضب السلطة أو يغضب أي طرف آخر"، وأضاف أن الدابي رجل نظام، وكان يتمشى مع الضباط السوريين وليس مراقبا مستقلا.

وأكد أن المناطق التي زارها لم تسحب أي آلية عسكرية منها، على عكس ما يرد في تقرير لجنة المراقبين الذي قدم للعاصمة العربية، وكان هذا أحد التقارير التي يتحملها

رؤساء الفرق حسب أنور مالك، الذي اعتبر أن استمرار بعثة المراقبين لن يأتي بنتيجة، وعملها كان بمثابة مسرحية فشلت في شوارع سوريا، ويصف البروتوكول بالميت والذي يبتعد كل البعد عن الواقع.

النظام تعمد قتل موالين له لتضليل المراقبين

وعن المشاهد التي رآها في سوريا، فقد قال المتحدث أنه رأى في المناطق التي زارها، خلال مكوثه أسبوعين في حمص وعدد من المناطق والأحياء الأخرى مشاهد مروعة في كل من بابا عمرو، الخالدية، باب السباع، وقال إن الوضعية مماثلة لباقي المناطق حسب تواصله مع باقي المراقبين وقال إن النظام السوري أصبح يقتل أفرادا من

الأطراف الموالية لتضليل عمل المراقبين.

وأكد أنور مالك الذي يعكف على التحضير لكتاب توثق صفحاته مختلف المشاهد التي رآها في سوريا تحت عنوان "كنت مراقبا في سوريا"، أن البعثة التي كانت رفقة الدابي وكان هو معهم حي بابا عمرو حين دخلتها وجدت شوارعها خالية تماما من أهلها، وبعد 5 دقائق تفاجأت البعثة بالآلاف من المتظاهرين، مضيفا أن المشاهد التي تقاسمتها أحياء سوريا، كانت البيوت المدمرة بالأسلحة الثقيلة، القصف في كل مكان، كل العائلات مصابة سواء لديها قتيل أو معوق متمدد على الفراش، الدبابات في كل مكان، وأكد أن "العائلات زودتهم بفيديوهات وصور وشهادات حية عن اعتقال ذويها من طرف الأمن السوري وتعذيب أبنائها، وصور وفيديوهات عن جثث لمتظاهرين قتلوا أثناء التعذيب ثم نزع جلودهم عن أجسامهم"، وقال إن أعضاء البعثة سمعوا ما يندى له الجبين.

وعن انسحابه من البعثة فقد أوضح أنه قرر الانسحاب منها حين تأكد من أنه أصبح يخدم النظام ولا ينتمي لهيئة مستقلة تراقب الأوضاع لحماية السوريين، مضيفا "لا أستطيع أن أتخلص من إنسانيتي أو أدعي الاستقلالية والحياد في مثل هذه المواقف".

جريدة الشروق الجزائرية

دولي

القبس 45

الخميس 19 صفر 1433هـ - 12 يناير 2012 - السنة 40 - العدد 13871

«قافلة حرية» ستحاول دخول سوريا اليوم

انسحاب أول مراقب من البعثة العربية:

مهمتنا مسرحية ومسخرة.. والوضع في سوريا كارثي

القناصة والآليات العسكرية في مكانها.. والنظام دبّر الاعتداء على المراقبين

برعاية عربية ودولية

رفعت الأسد: مبادرة عائلية لتنحي الرئيس

إسرائيل لن تذرف دمعة واحدة على الرئيس السوري

تسلمها عمها جثة هامدة أثناء إلقاء الأسد خطابه الرابع

عفاف.. رضيعة قضت تحت التعذيب!

جريدة القبس الكويتية

مدلسي يقول إن حكومة الأسد بذلت جهودا لإنهاء فتيل الأزمة ويكشف:

أنور مالك لا يمثل الدولة الجزائرية

الجامعة العربية لديها مشاكل مع المعارضة المسلحة

آسيا شلابي

حذر وزير الخارجية مراد مدلسي أول أمس من تسلح المعارضة السورية بعد أن اتخذت الحكومة السورية - حسبه- خطوات لنزع فتيل الأزمة في البلاد. وقال مدلسي في مؤتمر صحفي بالأمم المتحدة حسب رويترز "اتخذت الحكومة السورية بعض الخطوات، ربما لا تكفي لكن اتخذت بعض الخطوات، بمعنى أنه قد تم سحب الأسلحة الثقيلة من المدن التي تواجه مشاكل الآن وجرى إطلاق سراح بضعة آلاف من السجناء، لكن هناك الكثير لم يطلق سراحهم بعد، هناك انفتاح لوسائل الإعلام، رغم أن هذا الانفتاح غير كامل إلا أنه حقيقي".

وقال مدلسي إن إطلاق النار كان يأتي من الجانبين، وإن المعارضة منعت بعثة جامعة الدول العربية من الوصول إلى الأحياء التي تسيطر عليها.

ولم يتردد مدلسي في الدفاع عن النظام السوري مضيفا "الشعور هو أن الحكومة السورية تعكف على بذل مزيد من الجهد، لكن جامعة الدول العربية لديها مشاكل بشكل خاص مع المعارضة المسلحة" وقال إنه لا يعتقد أن سوريا حاليا في حرب أهلية، وأشار إلى أن العنف يقتصر على عدد قليل من المدن "إذا استمرت المعارضة في تسليح نفسها، فسيكون هناك خطر قد يضعنا في موقف عنف أوسع نطاقا".

وعلق على تصريحات أنور مالك التي وصفت مهمة البعثة بـ"الفاشلة" بأن هذا الأخير يمثل منظمة غير حكومية وأن الجزائريين الآخرين لديهم آراء مختلفة وأن هناك عشرة مسؤولين من الحكومة الجزائرية في فريق بعثة الجامعة العربية لسوريا، وعليه أنور مالك لا يمثل الدولة الجزائرية.

قال رئيس وزراء قطر الشيخ حمد بن جاسم آل ثاني إن سوريا لم تنفذ بنود اتفاق السلام الذي أبرمته مع الجامعة العربية، وقال دبلوماسي غربي بارز في مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة -حسب نفس الوكالة- إنه يتوقع أن التقرير "لن يكون واضحا للغاية" بسبب الخلافات بين الدول العربية. وقال "سأندهش إذا قالت جامعة الدول العربية أنها فشلت، وأنهم ذاهبون إلى مجلس الأمن"، وأشار إلى أن دولا مثل الجزائر والعراق ومصر ستعارض على الأرجح الإحالة إلى مجلس الأمن.

وكانت وزارة الخارجية قد أعلنت أن مراد مدلسي سيجري محادثات مع كاتبة الدولة هيلاري كلينتون وكاتب الدولة المساعد المكلف بشؤون الشرق الأوسط السيد جيفري فلتمان.

مراقب آخر ينسحب من بعثة الجامعة العربية ويصرح:

ما قاله أنور مالك صحيح وسأفضح المزيد بعد خروجي من سوريا

يبدو أن مسلسل "الانسحاب" الذي كتب حلقته الأولى الجزائري أنور مالك بتصريحات مثيرة ضربت تقرير الجامعة العربية في الصميم، سيتواصل بعد أن قرر آخرون رمي المنشفة والتبرؤ من "المهمة الفاشلة"، ويبدو أن بعثة المراقبين في سوريا ستواجه -حسب وكالة رويترز- مزيدا من المتاعب، خاصة بعد أن نقلت حصريا عن مراقب عربي طلب ألا ينشر إسمه، أكد أنه يتفق مع وصف مالك المهمة بأنها فاشلة فقال "هذا صحيح.. صحيح، حتى أنني أحاول المغادرة يوم الجمعة. إنني ذاهب إلى القاهرة أو مكان آخر.. لأن المهمة غير واضحة... لا تخدم المواطنين، لا تقدم أي شيء" وأضاف "استغلت السلطات السورية ضعف أداء الوفد ولم تستجب، لا توجد استجابة حقيقية على الأرض" وطلب المراقب الذي كان يتحدث عبر الهاتف من سوريا عدم نشر اسمه لأنه غير مسموح له بالتحدث لوسائل الإعلام، وقال لرويترز "المعدات العسكرية لا تزال موجودة حتى في المساجد... طلبنا سحب العتاد العسكري من مسجد أبو بكر الصديق في درعا ولم يتم سحبه حتى اليوم".

وأضاف المراقب أن السلطات السورية لم تظهر أي استعداد حقيقي للامتثال للخطة، في حين يفتقر المراقبون للخبرة، وقال وهو يصف منطقة زارها في مدينة حمص في وسط سوريا "هناك قمع قمع شديد ومعاناة كبيرة... أكثر مما يمكن تخيله، هذه مشكلة كبيرة للغاية مرتبطة بالرغبة العامة من جانب السلطات السورية في التعاون مع الوفد بشكل حقيقي ودون مناورة".

■ آسيا شلابي

جريدة الشروق الجزائرية

Наблюдатель ЛАГ назвал "фарсом" миссию Лиги и оставил Сирию, обвинив режим Асада в военных преступлениях

время публикации: 11 января 2012 г., 18:03
последнее обновление: 11 января 2012 г., 18:03

Наблюдатель Лиги арабских государств покинул Сирию, обвинив режим **Башара Асада** в военных преступлениях, а также заявив, что миссия ЛАГ обернулась "фарсом". Как сообщает Reuters, представляющий Алжир **Анвар Малек** сделал из штаб-квартире ЛАГ в Катаре заявление для телеканала "Аль-Джазира".

По словам наблюдателя, власти Сирии "не убрали танки с улиц, а только спрятали их и передислоцировали после отъезда наблюдателей".

"Снайперы везде, и они стреляют по гражданским. Людей похищают. Арестованных пытают и ни одного из них не отпустили", - заявил Малек. По его словам, те якобы освобожденные, которых показывают по государственному телевидению - просто случайные прохожие.

Миссия ЛАГ в Сирии стартовала 26 декабря декабря 2011 года. В данный момент она насчитывает более 160 человек. Ранее сирийская оппозиция обвиняла представителей ЛАГ в необъективном освещении ситуации в стране, однако ЛАГ дала понять, что продолжит работу в Сирии несмотря на критику.

Наблюдатели ЛАГ должны проследить за тем, как в Сирии выполняется план урегулирования конфликта, предложенный Лигой и принятый Сирией в начале ноября. Международное сообщество неоднократно призывало власти Сирии предоставить наблюдателям все условия для работы.

Противостояние между правительственными войсками и оппозицией продолжается в Сирии с марта 2011 года. За время конфликта в стране погибли более пяти тысяч человек. Совет безопасности ООН рассматривал вопрос о резолюции по Сирии , однако против нее (и соответственно возможного вмешательства ООН в конфликт) выступил ряд стран, имеющих право вето, в том числе Россия.

Между тем, Асад, выступая с обращением к народу, заявил, что не уйдет с поста главы государства, поскольку он пользуется поддержкой населения. За переживаемые его страной события президент Сирии возложил ответственность на "внешний заговор" и обвинил ЛАГ в способствовании расколу сирийского общества.

جريدة روسية

LA NACIÓN OPINION

buscar Archivo 1946-1991

6:46 A.M. DOMINGO 11 DE MARZO DEL 2012

EDITORIAL

Con puño de hierro

La Liga Árabe ha ayudado a consolidar el odioso despotismo de al-Assaden Siria

La sangre y el dolor enlutan a Siria con el respaldo de Rusia, Irán y el grupo terrorista Hezbolá

CALIFICACIÓN: COMENTAR 4 COMENTARIOS SHARE 3

12:00 A.M. 15/01/2012

El sátrapa sirio, Bashar al-Assad, en dos discursos ampliamente difundidos, prometió esta última semana aplastar "con puño de hierro" la conjura de supuestos enemigos externos en contra de su Gobierno. Según afirmó el dictador en Damasco, esta trama internacional es responsable de las acciones de "agitadores y criminales" que hostigan a las fuerzas armadas y policiales que velan por el orden y la paz.

Con esta distorsionada visión, al-Assad ha pretendido descalificar las inmensas y constantes manifestaciones públicas en todo el país que, desde marzo del año pasado, exigen democracia en Siria. Seis mil civiles muertos a manos de soldados, policías, francotiradores y tanques del régimen apostados en las principales ciudades, y miles más de prisioneros políticos en las cárceles, constituyen el cruento testimonio de la perversidad y los extremos a los que el dictador ha llegado y está dispuesto a seguir con su "puño de hierro" hasta liquidar las aspiraciones libertarias de su pueblo.

Al-Assad también abordó el tema de la misión de observadores de la Liga Árabe que, desde hace casi un mes, recorre Siria para verificar si la dictadura está cumpliendo los compromisos adquiridos con ese organismo. Tales obligaciones contemplan el retiro de tropas y tanques de las ciudades, el cese de los ataques contra los manifestantes, la liberación de los prisioneros políticos así como el inicio de un diálogo con la oposición con miras a futuras elecciones.

Este plan de paz, suscrito por al-Assad para comprar tiempo, incluye además el envío de centenares de observadores que debían recibir del Gobierno protección y amplia colaboración para constatar la ejecución cabal de los compromisos estipulados. Gracias a este plan, la Liga Árabe logró detener la remisión del tema de las matanzas en Siria al Consejo de Seguridad de la ONU que esperaría hasta conocer el resultado de dicha gestión.

En realidad, las actuaciones de la Liga Árabe no despertaron optimismo. Fundado en 1945, este foro devino en una especie de sindicato de autocracias del ámbito árabe y su desempeño confirmó por un buen rato esa naturaleza. En el caso reciente de Libia, su impulso inicial al proyecto de una zona de exclusión aérea cambió cuando las potencias de la OTAN, lideradas por Francia, interpretaron la aprobación del Consejo de Seguridad como inclusiva de una labor aérea más activa para proteger a la población civil. A ese punto, la Liga decidió dar marcha atrás con respecto al plan aéreo de la OTAN para desembocar después en la ambivalencia.

Algo similar ha ocurrido con el proyecto del plan de paz para Siria. La decisión sobre este proyecto de la Liga cuajó gracias al patrocinio y empuje de Arabia Saudita y Catar. Curiosamente, ninguno de estos dos países aceptó la jefatura de la misión de observadores cuyo nombramiento finalmente recayó en el general sudanés Mohammed al-Dabi, un militar acusado por entidades humanitarias de cometer graves crímenes en el conflictivo

جريدة إسبانية

عالم اليوم
الخميس 12-01-2012 - العدد 1524 - السنة السادسة

سوريا على أعتاب حرب أهلية وطائفية مدمرة.. والهجوم الذي تعرض له المراقبون في حمص كان «مخططا ومدبرا»

مراقب جزائري مُنسحب: جثث محترقة ومسلوخة ومنازل مدمرة.. رأيت جهنم بعيني

بيروت - رويترز - غادر مراقب من جامعة الدول العربية سوريا قائلا انه كان شاهدا على مشاهد مروعة لم يتمكن من منعها واتهم السلطات بارتكاب جرائم حرب وبأنها حولت بعثة المراقبة في سوريا الى "مسرحية".

وقال أنور مالك لقناة الجزيرة الاخبارية والذي كان يرتدي السترة البرتقالية المميزة لفريق المراقبين "شاهدت باطل..شاهدت الكذب..شاهدت الكثير ما لا يمكن أصمت عليه ولذلك رأيت أن أتكلم."وأضاف "انا كنت في حمص لم يتم سحب آلية عسكرية الا الآليات المحاصرة من الجيش (السوري) الحر"في اشارة الى المجموعة التي كونها عسكريون منشقون عن الجيش السوري.

ومضى يقول ان القناصة موجودون في كل مكان ويطلقون النار على المدنيين.

وقال مالك وهو جزائري انه كان يخدم النظام من خلال منحه فرصة أكبر لمواصلة القتل وانه لم يتمكن من منع ذلك.

وبدأت بعثة المراقبة العربية التي تتألف حاليا من نحو 165 فردا عملها يوم 26 ديسمبر. ومهمتها هي التحقق مما اذا كانت سوريا تلتزم باتفاق لوقف قمع المحتجين - الذين يطالبون برحيل الرئيس بشار الاسد - المستمر منذ عشرة أشهر والذي تقول الامم انه أسفر عن سقوط خمسة آلاف قتيل.

وتمثل استقالة مالك أحدث ضربة للبعثة التي وجهت اليها انتقادات بالفعل بسبب عدم فاعليتها والتي تعرض أعضاؤها لهجمات هذا الاسبوع سواء من أنصار الاسد أو المحتجين.

وتابع مالك "الواقع مأساوي في حمص..وهناك كارثة انسانية." وأضاف "أنا زرت مقر الامن السياسي. وجدت أناسا في حالة يرثى لها ويتعرضون للتعذيب والتجويع يأكلون وجبة خفيفة في اليوم الواحد ...

والاشخاص الذين في حالة سيئة من التعذيب يتم تهريبهم لمناطق أخرى لا تسمح للمراقبين أن يطلعوا عليها وتم زج عسكريين وضباط مخابرات على أنهم مساجين وهذا من خلال تجربتي لأني شممت أناسا عليهم رائحة عطور نساء فمن أين أتت هذه العطور؟"

مشاهد مروعة

وعندما سئل مالك عن سبب استقالته أجاب ان أهم شيء هو التخلي بالمشاعر الانسانية وانه أمضى أكثر من 15 يوما في حمص رأى فيها مشاهد مروعة وجثثا محترقة وانه لا يمكن تجاهل انسانيته في مثل هذا الظرف.

وانتقد مالك رئيس بعثة المراقبة الفريق أول الركن محمد أحمد مصطفى الدابي من السودان الذي شككت جماعات لحقوق الانسان في مدى ملاءمته لهذه المهمة نظرا لدوره السابق في الصراع في دارفور.

الاسد في ساحة الأمويين امس وسط أنصاره

وقال مالك الذي لفت الانظار بسبب تصريحات وضعها على موقع فيسبوك ان رئيس البعثة أراد أن يسلك مسارا وسطيا حتى لا يغضب السلطات السورية أو أي جانب اخر.

وقال مالك ان النظام لم يرتكب جريمة حرب واحدة بل سلسلة جرائم ضد الشعب السوري.

وتابع مالك "هذه مسرحية يقوم بها النظام قبل ان يتم الافراج عن المعتقلين يتم اختطاف الناس من الشوارع بصفة عشوائية ويتركون في السجون لبضعة أيام حتى يسوء حالهم"

وقال "لم يتم استدعاؤنا لتكمل المسرحية وبهذا يتم الافراج عن المعتقلين أما الاشخاص الحقيقيون الذين طالبنا بهم فلم يتم الافراج عن أي شخص."

400 قتيل منذ الوصول

وقالت سفيرة الولايات المتحدة في الامم المتحدة ان مسؤولا في المنظمة الدولية قال لمجلس الامن ان سوريا كثفت من قتل المحتجين بعد وصول المراقبين العرب.

وأضافت سوزان رايس للصحفيين في نيويورك "لاحظ مساعد الامين العام انه في الايام التي مضت منذ وصول بعثة مراقبي الجامعة العربية قتل ما يقدر بنحو 400 شخص اخرين قتلوا اي في المتوسط 40 كل يوم وهو معدل اعلى كثيرا مما كان عليه الحال قبل وصولهم."وكانت رايس تتحدث بعد ان قدم لين باسكو مساعد الامين العام للامم المتحدة تقريرا الى مجلس الامن في اجتماع خلف أبواب مغلقة بشأن سوريا وأزمات كبيرة اخرى.وقالت ان هذه الرقم لا يشمل نحو 26 شخصا قتلوا في تفجير انتحاري في دمشق الاسبوع الماضي.

وقال مالك أيضا انه رأى جثثا لعسكريين أعدموا بسبب رغبتهم في الفرار أو الانشقاق.

وأردف قائلا "كل الامور فعلها النظام من أجل ربح الوقت لاغراقنا في مشاكل هامشية."وقال مالك انه رأى قناصة فوق أسطح المباني لكن بعض زملائه غضوا الطرف عن ذلك.

وذكر ان بعض أعضاء الفريق فضلوا الاحتفاظ بعلاقات جيدة مع النظام ونفوا وجود قناصة.

جواسيس وضباط مخابرات

وقال أيضا أن السلطات أرسلت "جواسيس وضباط مخابرات" تنكروا في صور سائقين ومرافقين للمراقبين للحصول على المعلومات التي جمعوها مضيفا أنه بمجرد تركهم لمنطقة ما كانت السلطات السورية تهاجم الناس.

جثث مسلوخة

وأردف قوله انه رأى مشاهد مروعة مثل جثث محترقة وجثث تحمل آثار التعذيب وجثث تم سلخها وأطفال قتلى ومنازل قصفت بالاسلحة الثقيلة ودمرت. وقال ان حي بابا عمرو هو الأكثر تضررا في حمص.

وتابع أنه من حين لآخر كانوا يرون شخصا يقتله قناص وانه رأى ذلك بعينيه.

صحيفة عربية

1/03/12

MT 뉴스 인쇄하기 | 프린트 | 닫기

아랍연맹 시리아 감시단 1명 활동 중단 "너무 끔찍했다"

뉴스1 제공 | 2012.01.11 19:00

(서울=뉴스1) 여인옥 기자 =

시리아 다마스쿠스에서 감시활동을 벌이는 아랍연맹 감시단 AFP=News1

시리아에서 끔찍스런 장면을 목격한 아랍연맹 감시단 중 1명이 감시단 활동을 그만두기로 했다고 로이터 통신이 11일 보도했다.

알제리 출신의 감시단원인 안와르 말렉은 이날 알자지라 방송 인터뷰를 통해 시리아 홈스에서 감시활동을 벌이던 중 불탄 시신같은 끔찍한 장면을 목격했지만 자신은 이러한 학살을 막을 힘이 없다는데 회의가 느껴져 감시단 활동을 중단하기로 했다고 말했다.

그는 "나는 시리아 정부가 학살을 계속하도록 더 큰 기회를 제공했을 뿐이다. 나는 학살을 막을 힘이 없었다"고 털어놓았다.

그는 또 감시단장인 수단 장군 모하메드 알-다비는 단지 시리아 정부와 시위대 사이에서 중간 위치를 지키려고만 한다고 비판했다. 다비 장군은 수단 종족분쟁의 책임자 중 1명이라고 인권단체들은 밝히고 있다.

한편 수잔 라이스 유엔 주재 미국 대사는 10일 안전보장이사회에서 아랍연맹 감시단 도착 이후 시리아 정부는 시위대에 대해 더 강경한 유혈진압을 벌이고 있다고 말했다.

그는 지난달 26일 감시단 도착 이후 하루 평균 40명씩 총 400명이 사망했는데, 이는 감시단 활동 이전보다 더 많은 사망자수라고 밝혔다.

☞ 뉴스1 바로가기

[주식대출] 마이너스대출방식 연 6.9% 확정금리, 연장수수료 없이 5년간 ☎ 1577-5852
<저작권자 © '돈이 보이는 리얼타임 뉴스' 머니투데이. 무단전재 및 재배포 금지>

이기사주소 | http://news.mt.co.kr/mtview.php?no=2012011118588215300&type=1

صحيفة كورية تتحدث عن المؤلف واستقالته من البعثة

LE DROIT DE SAVOIR, LE DEVOIR D'INFORMER

LIBERTE

MOSTAGANEM
Yennayer, des coutumes, une ambiance et... des prix forts

LES HOSPITALO-UNIVERSITAIRES MENACENT DE PASSER À UNE GRÈVE ILLIMITÉE
Vers une nouvelle paralysie des CHU

IL ACCUSE LE RÉGIME SYRIEN
DE CRIMES EN CONTRADICTION AVEC LA POSITION D'ALGER

L'ALGÉRIEN ANOUAR MALEK TORPILLE DAMAS

PUBLICITÉ

جريدة ليبرتي الجزائرية

8 Jeudi 12 janvier 2012 — L'ACTUALITÉ EN QUESTION — LIBERTE

IL ACCUSE LE RÉGIME SYRIEN DE CRIMES EN CONTRADICTION AVEC LA POSITION D'ALGER

L'Algérien Anouar Malek torpille Damas

Véritable coup de théâtre au sein de la mission des observateurs de la Ligue arabe en Syrie, avec les déclarations fracassantes d'un de ses membres, en l'occurrence l'Algérien Anouar Malek, qui a accusé le régime Al-Assad d'avoir mis en scène et fabriqué tout ce qu'ils ont vu pour empêcher "la Ligue arabe d'agir".

DANS UNE SORTIE INATTENDUE

Bachar al-Assad promet de "triompher du complot"

MERZAK TIGRINE

جريدة ليبرتي الجزائرية

وردتنا من محطتنا في الجزائر المعلومات التالية

تفيد المعلومات بأن الجزائري عبد المالك بن مبروك بن أحمد تولد والدته [redacted] تولد 1962 الشريعة ولاية تبسة-الجزائر ، أحد أعضاء بعثة المراقبين إلى سورية ، معروف في الأوساط الإعلامية والصحفية كصحفي تحت اسم مستعار "أنور مالك" ، المذكور كان ضابطا في الجيش الجزائري ، ولكنه طرد بسبب قضايا فساد ودخل السجن ، بعدها فرّ إلى تونس بجواز سفر مزور ومنها إلى إيطاليا ثم إلى فرنسا ، متزوج من الجزائرية [redacted] منذ عام 2007 ولا يكف المذكور بمقالاته الصحفية المعادية والمشوهة عن مهاجمة سورية ، والقوى الوطنية فيتهم حزب الله والقوى الوطنية بأنها قوى فاشية تسببت بالعدوان الإسرائيلي على لبنان عام 2006 ، وأن من يقف وراء الاغتيالات في لبنان هي سورية وحلفاؤها ، ويهاجم سورية ويصفها بالقمعية وأن النظام الأمني السوري يحاصر المواطنين السوريين ويحرمهم من عيشهم وثقافتهم (كتاباته عام 2009) وأن النظام الأمني السوري متورط باختطاف المواطنين الجزائريين وتسليمهم للسلطات الأمنية الجزائرية كما حصل عام 2005 مع الجزائري عادل كمال شكر ، والدته [redacted] من مواليد 28 كانون الثاني 1977 سكيكدة والذي كان في سورية بقصد الدراسة وتم اختطافه من قبل المخابرات السورية عام 2005 التي سلمته بدورها إلى السلطات الجزائرية .

[redacted]

وثيقة مسربة نشرتها قناة العربية الفضائية

وهي عبارة عن تقرير للمخابرات السورية عن المراقب أنور مالك (المؤلف)

TheNational

UAE | World | Business | Sport | Lifestyle

News » World » Middle East

Anwar Malek, the former Arab League observer in Syria, said authorities did everything possible to undermine attempts to produce an independent assessment. Fadi Al-Assaad / Reuters

Anwar Malek: I saw sniper kill child

Colin Randall

Jan 18, 2012

Save this article

Tweet | Share | +1 | Recommend | 17

A former Algerian army officer who resigned in disgust and fear from the Arab League mission to monitor events in Syria accused the regime of Bashar Al Assad yesterday of committing crimes against humanity.

Anwar Malek said he saw snipers kill at least two people, one of them a child, was shown corpses, witnessed brutal beatings and arrests by soldiers and militiamen and escaped an attempt on his own life during a 15-day stay in the city of Homs.

Speaking from an undisclosed location in France, he alleged that the Syrian authorities had placed him and other monitors under constant surveillance and brushed aside any criticism of

Related

- Syria rejects any plans for an Arab League military presence
- Oil, food and protest in Syria's restive east
- Hotline set up to help topple Assad

Topic Syria unrest Syria Bashar al Assad

صحيفة خليجية

INTERVIEW

ANOUAR MALEK. *Membre démissionnaire de la mission d'observation de la Ligue arabe en Syrie*

«En Syrie, on a menacé de m'égorger»

المؤلف في حوار مع جريدة الوطن الجزائرية

חדשות בעולם

מזכ"ל הליגה הערבית: לא נוכל להשלים את המשימה בסוריה

11 משקיפים נוספים של הליגה מאיימים לעזוב את סוריה לאחר שחזו בעימות אלים בו נהרגו 19 מפגינים בצפון המדינה

רויטרס הוסף תגובה

Be the first of your Send 1

הורד עכשיו ללא תשלום הארץ iPhone הורד עכשיו ללא תשלום הארץ android

לתגובות (4)
הדפס
שלח לחבר
שתף בטוויטר
שתף בפייסבוק
שתף
הוסף לרשימת קריאה

מזכ"ל הליגה הערבית, נביל אל-ערבי, התייחס היום (חמישי) בראיון לטלוויזיה המצרית לדיווחים מסוריה ולמורת רוחם של חלק מהמשקיפים. אל-ערבי אמר כי הליגה לא יכולה להשלים את משימתה בהצלחה כיוון שהמשבר במדינה הפך מורכב מבעבר.

אל-ערבי גם התייחס לאפשרות שמדינות המערב יחליטו לבצע מהלך צבאי בסוריה, ואמר כי "אין לאף אחד תמריץ מיוחד לעשות את זה. לסוריה אין מרבצי נפט, בארצות הברית צפויות בקרוב בחירות ואני לא חושב שהאמריקאים מעוניינים להיכנס להרפתקה צבאית בסוריה", אמר אל-ערבי. לדבריו, מועצת הביטחון של האו"ם הייתה מתערבת במעשה במדינה בלא קשר למשקיפים של הליגה הערבית, וכי הליגה לא מהווה גורם בהחלטה עתידית של מועצת הביטחון לשלוח כוחות זרים לסוריה.

ארגון זכויות אדם סורי טען היום שמשקיפים נוספים מטעם המשלחת של הליגה הערבית

אנואר מאלק, היום. צילום: רויטרס

בסוריה, החליטו לעזוב במחאה על האלימות במדינה, לאחר שחזו היום בתקרית אלימה בדיר א-אזור שבצפון סוריה. על פי הדיווחים, כוחות הביטחון הסורים הרגו בתקרית 19 מפגינים. לדברי מוסאד עזאווי, חבר הארגון שבסיסו בלונדון, 11 הפקחים שצפויים לעזוב בקרוב, הגיעו מעיראק, סודאן ואיחוד הנסיכויות.

לדבריו של אנואר מאלק, המשקיף הראשון שפרש מהמשלחת, רבים מעמיתיו מעוניינים אף הם לפרוש, אך לא עושים כן כיוון שמופעל עליהם לחץ מן המדינות שלהם. "אני לא יכול לנקוב במספר, אבל פקחים רבים חשים כעס רב על המתרחש שם", אמר. מאלק גם הוסיף שלדעתו למשלחת הליגה הערבית אין את היכולת לעצור את האלימות בסוריה. משקיף נוסף, שביקש להישאר בעילום שם, אמר כי גם הוא

جريدة عبرية

聞　2012年(平成24年)1月16日(月)　夕刊　4版　総合　6

弾圧認めぬシリア政権に抗議の離脱

「アサドは我々欺いた」

監視団元メンバー・マリク氏

【カイロ和田浩明】アラブ連盟がシリアに派遣した監視団メンバーでアルジェリア人のアンワル・マリク氏(40)が、シリア当局への反発からこのほど監視団を離脱した。マリク氏は14日、毎日新聞の電話取材に応じ、「アサド政権は人道に対する罪を犯しているが、現実を認めようとせず我々を欺いた」と厳しく批判した。

監視団は、シリア・アサド政権による反体制派への武力弾圧抑止などを目的に派遣された。マリク氏はフランス在住のジャーナリストで、12月下旬からシリア中部ホムスや首都ダマスカス郊外など、反体制派が弾圧されたといわれる地域を視察した。

マリク氏は「殺害された子どもの遺体や破壊された家屋も見た。食料不足に苦しむ家族もいた」と証言したうえ、アサド政権を「人道に対する罪を犯した」と指弾した。ホムスでは当局が監視団訪問に合わせて戦車を隠し、訪問後に再展開していたと主張。ビルの屋上などに展開された狙撃手を目撃し、シリア当局に引き揚げを求めたが、実現しなかったという。

聞き取り調査に応じた住民らは、親族の拘束や拷問、殺害などを訴えた。シリア内務省関係者やホムス県知事などとも面会したが、「(国際テロ組織)アルカイダを排除しようとしている」などと弾圧を正当化したという。

マリク氏は「シリア政府の欺きで監視団は適切に任務が遂行できない」として11日に中東の衛星放送アルジャジーラでメンバー辞任を表明した。ダービ監視団長は翌日の声明で「一連の発言内容は事実でない」などとマリク氏を批判した。

アラブ連盟は8日、監視団の規模を約300人に倍増することを決めたが、反体制派によるとシリア軍・治安部隊の弾圧は継続。監視団員の襲撃事件も北部ラタキアなどで相次ぎ、11人が軽傷を負った。

アラブ連盟のシリアの和平監視団

アラブ連盟(22カ国・機構)がシリアのアサド政権に示した反体制派との調停案の一つが、連盟による和平監視団の受け入れで、デモの武力弾圧の中止▽都市部からの軍・治安部隊撤退▽反体制派との対話開始――などと共に盛り込まれた。政権側は昨年12月19日に調停案に署名したと発表。監視団本隊が12月26日にダマスカスに入り、各地で視察を続けている。

12月30日、シリア中部ホムス市のバーブ・アムロ地区でシリア軍装甲車の前を歩くアラブ連盟元監視団員のマリク氏＝本人提供

المؤلف في حوار مع جريدة ماينتشي اليابانية

The Telegraph

HOME NEWS WORLD SPORT FINANCE COMMENT BLOGS CULTURE TRAVEL LIFE FASHI

USA | Asia | China | Europe | Middle East | Australasia | Africa | South America | Central Asi

Iran | Iraq | Israel | Palestinian Authority | Syria | Jordan | Saudi Arabia | Bahrain | Dubai

HOME » NEWS » WORLD NEWS » MIDDLE EAST » SYRIA

'I was threatened with death for doing my job', says Arab League observer to Syria

ARAB League observers in Syria have been "threatened with death" if they criticise the country's murderous regime, according to a member of the team who quit last week.

Anwar Malek said he had survived an assassination attempt as he left the 'international disaster zone' of Homs, the central Syrian city, after 15 days Photo: REUTERS

By Nabila Ramdani in Paris
7:20PM GMT 14 Jan 2012

34 Comments

Print this article

Share 212

Facebook 107

Anwar Malek, who decided to leave the country week after complaining of

المؤلف في حوار مع جريدة الدايلي تلغراف البريطانية

INTERNATIONAL NEWS

'I saw the slaughter in Homs'

... monitor who fled Syria tells of 'disaster zone' and the Assad regime's tactics of intimidation

THE DIARY OF A PRESS TRIP THAT ENDED IN DEATH

Our prices are coming down and staying down.

WORLD WATCH

PRESIDENTIAL BID HALTED

TUNISIA FREES PRISONERS

PERSONAL

The Daily Telegraph
The Sunday Telegraph

الدايلي تلغراف البريطانية

USA TODAY | News — Subscribe | Mobile | Google USA TODAY stories, photos and more

Home | News | Travel | Money | Sports

News: Communities | Education | Nation | Military | Election 2012 | Religion | Health & Wellness | Washington |

BREAKING NEWS:
'Identity Thief' steals top spot at weekend bo

Arab League observer says violence prevails in Syria mission

By Oren Dorell, USA TODAY — Updated 1/19/2012 12:37 PM

Comment

Reprints & Permissions

A former Arab League observer sent to monitor an end to government violence against democracy protesters said that Syrian officials tried to intimidate him and his colleagues and that only military aid to the rebels will end the conflict.

Photo provided by Anwar Malek

Arab League observer Anwar Malek, pictured in Homs, Syria, says Syrian leaders are dismissive of sanctions.

"I don't think sanctions are having any kind of results. They don't care," Anwar Malek said of Syrian government officials he says were dismissive of sanctions. "Right now, the country is poised for ultimate civil war."

Rather than rely on sanctions, the U.S. and other countries should arm Syrian rebel forces to stop the kinds of slayings he witnessed, Malek said.

The Algerian-born author, 40, spoke from his home in Paris, where he is writing a book about his three weeks as an observer. Syrian authorities put hidden cameras in his hotel bathroom, and he has received death threats, he said.

Homs residents he spoke to "are asking for foreign intervention from the United States and other nations," he said.

The Arab League sent observers to Syria in December to oversee an agreement by Syrian President Bashar Assad to withdraw his military from rebellious towns, stop killing protesters and release political prisoners. On Sunday, the emir of Qatar became the first Arab head of state to call for military intervention in Syria, saying Arab troops should be sent in.

Sponsored Links

"How do I get organized?"
Your personalized service is here - With expert guidance, it's simple!
TryOrganizeYourself.com/results

المؤلف في حوار مع يو اس توداي الأمريكية

EDITION: INTERNATIONAL | U.S. | MÉXICO | ARABIC
TV CNNi | CNN en Español
Set edition preference

CNN

Home Video World | U.S. | Africa | Asia Europe | Latin America | Middle East Business | World Sport | Entert

explore LUXURIOUS TRAVEL onboard Crown Class
ROYAL JORDANIAN

Ex-Arab League monitor slams Syria mission

By the CNN Wire Staff
January 11, 2012 -- Updated 1517 GMT (2317 HKT)

30
Recommend

An Arab League observer arrives at a Greek Orthodox church in Damascus on January 9, 2012.

STORY HIGHLIGHTS

- NEW: An Arab League official said Malek had health issues during his stint
- Malek said he saw "shameful scenes" in Homs
- Prisoners were in "deplorable states, Malek said

Damascus, Syria (CNN) -- A former member of the Arab League monitoring team in Syria said he resigned from the mission because it is "providing the regime cover for more killing" and "shameful" brutality.

"I quit because I found myself serving the regime and not part of an independent monitoring body," Anwar Malek, an Algerian, told Al-Jazeera in an interview Wednesday. His remarks were translated by CNN. "I am unable to stop the killing."

The Arab League embarked on a fact-finding mission in Syria in December, part of an initiative to end the bloody 10-month-long crackdown by President Bashar al-Assad's government against peaceful protesters.

The League wants the government to stop violence against civilians, free political detainees, remove tanks and weapons from cities and allow outsiders, including the international news media, to travel freely around Syria. The purpose of the mission is to see how the government is adhering to the plan.

CNN ... [illegible]

The Arab League confirmed to CNN that Malek was part of the observer team.

Mahmoud Nasser, an Arab League official in Cairo, told CNN that Malek had been sick during his stint and attended only a limited number of field visits.

He "had requested to fly to Paris for medical treatment during the mission. He has excused himself from the mission," Nasser said.

Malek's comments reflect the position of opposition activists, who regularly report government brutality and document casualties.

THIS IS ...

Part of complete ...
Showdown...

Exclusive: R...
February 13, 2013

Vision of low...
February 6, 2013 -

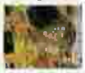

Exclusive: S...
February 6, 2013 -

Bread and g...
February 6, 2013 -

Jordan over...
February 6, 2013 -

edition.cnn.com/2012/01/11/world/meast/syria-arab-league

سي إن إن الأمريكية

كشف لـ «العرب» أنه سينشر كتاباً عن تجربته كمراقب

أنور مالك: لجنة المراقبة في سوريا ماتت وهناك انسحابات أخرى

العرب القطرية

أنور مالك يدّعي على السفارة السورية بباريس

ادّعى أنور مالك (الصورة)، اللاجئ السياسي الجزائري في فرنسا والمراقب السابق في بعثة الجامعة العربية في سوريا، على السفارة السورية في فرنسا، متهماً إياها بـ «تهديده بالقتل والاعتداء الجسدي والمعنوي». وقال أنور مالك إن «التلفزيون الرسمي السوري وصفني في فيلم وثائقي بالإرهابي والعضو في تنظيم القاعدة. تلقيت كثيراً من التهديدات بالقتل عبر البريد الإلكتروني والهاتف».

(أ ف ب)

جريدة عربية

„Männer, Frauen, Kinder – für diese Leute sind alle Terroristen“

Anwar Malek, einst Beobachter der Arabischen Liga in Syrien, über die Täuschungsversuche der Regierung und die Gewalt der Armee

جريدة ألمانية

الجمهورية العربية السورية
الرقم في سجل الوفاة
مشفى الشهيد عبد القادر شقفة
الرقم /
التاريخ /

نسخة نموذج رقم / ٢٤ /

صك وفاة

اسم المتوفى وكنيته العريف هيثم محمد الأحمد

سنة ٢٠١١ في يوم الثامن عشر من شهر آب

في الساعة / والدقيقة / توفي في المشفى مقتولاً العريف هيثم محمد الأحمد

رقم ٦٨١٧-٠٩- من مرتبات المشفى / ٤٠٢ / تاريخ الولادة ١٩٨٠

في حمص قضاء محافظة حمص محل الإقامة:

سبب الوفاة: النزف الدموي الصاعق الناجم عن مرامي نارية

اسم الأب محمد اسم الأم رمزية الوضع العائلي متزوج

محل الإقامة الحالي قضاء

حررت من قبلنا نحن

ضابط إدارة مشفى شقفة والسيدين

والذين وقعا معه على الشهادة بعد تلاوتها

الشاهد الأول الشاهد الثاني
المساعد جهاد ... العامل ...

شوهد من قبلنا نحن رئيس أطباء مشفى

٦٠٨

العميد الطبيب علي عاجا

طابق الأصل
العميد المهندس خالد ...

من الوثائق التي تسلم لبعثة المراقبين

الرقم / [illegible] /
التاريخ / /

شهادة وفاة

أنا الموقع أدناه الطبيب العميد [illegible] في مشفى الشهيد الطبيب عبد القادر شقفة

اشهد بأن العريف حكم محمد الأحمد المولود عام ١٩٦٧ في .... محلة ....

محافظة حمص اسم الوالد محمد اسم الوالدة [illegible] قد توفي [illegible]

في الساعة .... من يوم الخميس الواقع في ١٨/ ٨/ ٢٠١١

نتيجة: النزيف الدموي الصاعق الناجم عن [illegible]

شاهد أول	شاهد ثاني	توقيع الطبيب
المساعد [illegible]	العقيد [illegible]	العميد [illegible]

رئيس أطباء مشفى ٦٠٨
العميد الطبيب [illegible]

طبق الأصل
المدير [illegible]
[illegible]

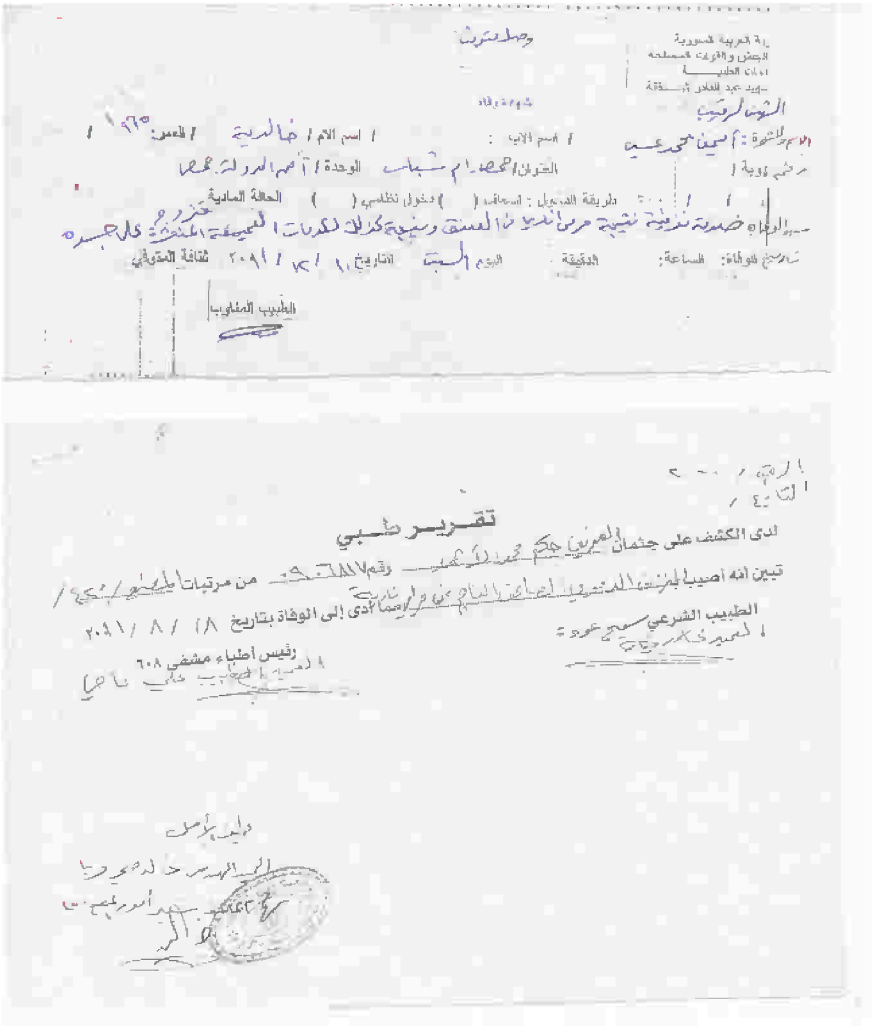

رية العربية السورية
الجيش والقوات المسلحة
امات الطبية
سويد عبد القادر الحسقاقة

شهادة وفاة

الاسم والشهرة: أسامة محمد عسيد / اسم الاب: / اسم الام: خالدية / العمر: ١٩٦٣ /

رقم دوبة / العنوان: محطة ... الوحدة: أمن الدولة حمص

طريقة الدخول: إسعاف ( ) دخول نظامي ( ) الحالة المادية

سبب الوفاة: ضربة ... مع كدمات ... على جسده

تاريخ الوفاة: الساعة: الدقيقة: اليوم السبت التاريخ ١١ / ١٢ / ٢٠١١ ثقافة المتوفى

الطبيب المناوب

الرقم /
التاريخ /

تقرير طبي

لدى الكشف على جثمان المريض حكم محمد ... رقم ... من مرتبات ...
تبين انه أصيب ... مما أدى إلى الوفاة بتاريخ ١٨ / ٨ / ٢٠١١

الطبيب الشرعي

رئيس أطباء مشفى ٦٠٨

الجمهورية العربية السورية
وزارة الإدارة المحلية
محافظة حمص

مديرية مكتب السيد المحافظ
دائرة الجاهزية والعملية

الرقم: ٣٠٦٠
التاريخ: ٢٠١١/٨/٢٩

www.homsgovernorate.org.sy
hom-mas@mail.sy

الموضوع: إيواء عدد من العوائل التي تم تهجيرها من مدينة تلبيسة. — عاجز إفاكس

باهتمام السيد مدير التربية

نظراً للحاجة الماسة لإيواء عدد من العوائل التي تم تهجيرها من مدينة تلبيسة بتاريخ ٢٠١١/٨/١٥ ولحين معالجة الأمر

نطلب إليكم اتخاذ الإجراءات اللازمة لإيوائهم مؤقتاً في مدرستي (زيدل – تل الأغر) بالتنسيق مع السيد قائد الشرطة

وإعلامنا إجراءاتكم بالسرعة العاجلة على الفاكس /٢٤٥٠٢٠٠/

محافظ حمص
غسان عبد العال

صورة إلى:
- قيادة فرع حزب البعث العربي الاشتراكي يرجى الاطلاع
- السيد قائد شرطة المحافظة نرغب إجراء ما يلزم فوراً لتنفيذ وإعلامنا
- مديرية مكتبنا – دائرة الجاهزية والعملية مصنف ١٩ مع الأصل
- عضو المكتب التنفيذي لقطاع التربية
- المصنف

الصفحة الاولى

الشيء : [illegible]

العدد : [illegible]

الجمهورية العربية السورية

وزارة الداخلية

قوى الأمن الداخلي

ورقة ضبط

شرطة محافظة حمص

منطقة /

ناحية /

قسم باب السباع

مخفر مكتب [illegible]

رقم الضبط [illegible]

تاريخ [illegible]

النسخة [illegible]

الخلاصة [illegible]

في هذا اليوم [illegible] من شهر تشرين الثاني لعام ألفين وإحدى عشر الساعة [illegible] عشر

نحن الموقعين أدناه [illegible]

[illegible]

[illegible]

الجمهورية العربية السورية
وزارة العدل
عدلية حمص

وثيقة كشف على جثة

إلى من يهمه الأمر

بتاريخه تم الكشف على جثة من قبل هيئة الكشف المؤلفة من القاضي والطبيب الشرعي والمساعد العدلي وتبين أن أسباب الوفاة تعود إلى وتقرر تسليم الجثة للمدعو ليصار لدفنها بمكان معلوم وحسب العادات والأصول

القاضي

١١/١١/٥

المساعد

ملاحظات:
١- يتم إبراز هذه الوثيقة لمكتب الدفن.
٢- يراجع ذوو المتوفى دائرة الطب الشرعي بحمص بعد الوفاة مصطحبين معهم: هذه الوثيقة والبطاقة الشخصية للمتوفى و((تقرير طبي فارغ وشهادتي وفاة- من إدارة المشفى)) وذلك للحصول على شهادة وفاة المتوفى..

من الوثائق التي تسلم للمراقبين

ailleurs

Décembre 2011. Des soldats dissidents de l'armée syrienne à Bab Amr, dans la province d'Homs.

"certains d'entre nous ont trouvé des micros dans leur chambre"

mission impossible

La mission d'observation en Syrie de la Ligue arabe vue par l'écrivain et journaliste algérien Anouar Malek qui en a démissionné au bout de dix jours, persuadé de son inutilité.

Anouar Malek – Cette mission d'observation est une farce. Les rapports qui ont été rendus ce week-end sont truffés de mensonges. Beaucoup de choses sont ignorées. A peine y mentionne-t-on l'emploi de la violence contre les civils. Dès le début, dès le 26 décembre, le général soudanais qui dirige la mission a menti : nous venions d'arriver à Homs, il y avait des tirs de snipers et il racontait que la ville était calme. Contrairement aux autres observateurs, je n'avais pas de compte à rendre à un pays. J'ai été choisi par le Comité arabe des droits de l'homme, dont le siège est à Paris, pour participer. J'étais ravi : j'allais pouvoir témoigner au-delà des images diffusées à la télé et sur internet.

Comment avez-vous pu travailler ?

Dans une mission d'observation, il y a un protocole précis. Mais les Syriens ne l'ont pas suivi : nous n'avions pas de moyens, pas de bureau, pas de téléphone. A Homs, chaque déplacement était négocié avec le gouverneur qui nous parlait de "*groupes terroristes*", d'"*Al-Qaeda*". Nous demandions à aller dans un quartier : ils échangeaient les plaques de rues pour nous amener ailleurs. Le soir, nous exigions de visiter une prison. Le lendemain, elle était quasiment vide. Entre deux portes, nous apprenions que les prisonniers avaient été transférés dans la nuit.

Vous avez cependant pu entrer dans les quartiers échappant au contrôle de l'armée.

Oui, mais nos accompagnateurs nous faisaient passer cinq ou sept heures dans un quartier fidèle à Bachar al-Assad, manifestation "spontanée" à l'appui et il ne nous restait plus beaucoup de temps pour aller de l'autre côté. Dès le premier jour, mon équipe a pu se rendre à Bab Amr, un faubourg d'Homs contrôlé par l'Armée libre syrienne. Une heure avant notre venue, deux frères avaient été tués. Nous avons vu passer cinq cercueils. J'ai vu le corps d'un prisonnier rendu à sa famille, dépecé, brûlé au chalumeau. Un enfant de 5 ans a été tué devant moi. On m'a raconté que les militaires avaient violé une jeune fille devant toute sa famille. Nous avons pu entrer dans un hôpital : à la morgue, il y avait des corps affreusement mutilés.

Avez-vous rencontré des combattants rebelles ?

J'ai rencontré des membres de l'Armée libre de Syrie et j'ai discuté avec leurs chefs. Ils n'ont rien de "terroristes". J'ai vu leurs cartes militaires, ils ont déserté. Des civils les aident à protéger les quartiers en révolte mais ils n'attaquent pas. Ils n'ont même pas les moyens de se défendre. Dans ces quartiers, il n'y a quasiment plus rien à manger. Un peu de pain rassis. L'eau et l'électricité ont été coupées.

Le régime syrien vous accuse de mentir.

J'ai longtemps été militaire, je connais bien les armes. Tous les jours à Homs, nous entendions de fortes détonations : "*Kalachnikov !*", m'assuraient les militaires. C'est grotesque : je sais reconnaître des tirs d'artillerie lourde ! Quand nous sortions de l'hôtel, les chars disparaissaient, rentraient à la caserne ou sortaient de la ville. Mais on pouvait voir les traces des chenilles dans les rues et les immeubles éventrés. L'armée m'a montré le cadavre d'un colonel chrétien et de son fils prétendument abattus par les "terroristes". Mais j'ai reconnu les effets de balles explosives, les mêmes que celles utilisées contre les civils dans les quartiers révoltés. Ces munitions viennent d'Iran, seule l'armée syrienne peut en avoir. Le régime n'hésite pas à tuer des chrétiens et des membres de la minorité chiite alaouite *(celle du président Al-Assad – ndlr)* pour précipiter le pays dans une guerre confessionnelle : sunnites contre chiites, sunnites contre chrétiens..

Pourquoi avoir démissionné, ne pas être resté pour continuer à dénoncer ?

Nous étions surveillés en permanence. Certains ont trouvé des micros dans leurs chambres. On a même essayé de nous piéger en nous envoyant des prostituées à l'hôtel. Après mon témoignage sur Al-Jazeera, j'ai reçu des photos de moi, nu dans la douche. On menaçait de les publier sur internet.

Dès le premier jour en Syrie, j'ai posté des images et des commentaires sur Facebook. Mon profil a aussitôt été fermé. On a menacé de m'égorger. Quand j'ai quitté Homs pour prendre l'avion, mon escorte n'a pas pris le chemin habituel pour Damas. La voiture a été touchée par des tirs. Dans ce quartier entièrement tenu par l'armée, les rebelles ne peuvent pas entrer. Pourtant, le régime veut nous faire croire que nous avons été attaqués par des "terroristes", comme il veut convaincre que le reporter Gilles Jacquier a été tué par des insurgés.

J'ai encore discuté hier avec un officier de l'Armée libre, au téléphone : il m'a juré que les insurgés n'avaient pas bombardé le quartier où se trouvaient les journalistes étrangers : "*Nous avons besoin de gens comme vous, pour témoigner du massacre des civils.*" Pourquoi voudraient-ils nous tuer ? **recueilli par Guillaume Villadier**

مجلة فرنسية

che rinchiude gli oppositori al governo in un carcere «lager»

Michelle: «Non sono irascibile»

NEW YORK – Non c'è mai stata «nessuna tensione con gli ex funzionari della Casa Bianca». La First Lady Michelle Obama (nella foto) risponde così al libro "The Obamas" della giornalista del New York Times Jodi Kantor, che le attribuisce frizioni con i collaboratori del presidente, e anzi, rilancia, affermando che non è la prima volta che viene banalmente dipinta come «una nera irascibile».

Nigeria, uccisi 4 cristiani

LAGOS (NIGERIA) – La Nigeria è paralizzata. Lo sciopero generale indetto contro il caro-benzina dopo il taglio delle sovvenzioni statali è arrivato al terzo giorno, mentre continuano nel Paese le violenze interreligiose che hanno causato solo ieri la morte di quattro cristiani e di un poliziotto.

Quattrocento foto al giorno per Pippa

La Lega sospende l'invio di osservatori dopo la pesante denuncia di un delegato

Siria, ucciso reporter francese

Morto insieme ad altri 7 civili durante un comizio di Assad a Homs

BEIRUT – Per la prima volta in dieci mesi di proteste, repressione e conseguente rivolte anti-regime in Siria, un raduno di sostenitori del presidente Bashar al Assad è stato colpito da mortai proprio mentre a seguire la manifestazione a Homs c'erano anche giornalisti occidentali. Uno di loro, il francese Gilles Jacquier di France2, 43 anni, è morto assieme ad altri sette civili siriani mentre un altro reporter, un fotografo olandese Steven Wassenaar, è rimasto leggermente ferito.

La notizia della morte di Jacquier, vincitore nel 2011 del Premio Ilaria Alpi con un reportage sulla rivoluzione tunisina, è giunta poche ore dopo la prima apparizione pubblica e all'aperto dall'inizio delle proteste del rais Assad a piazza degli Omayyadi, nel centro moderno di Damasco, affollata di sostenitori.

All'indomani del suo quarto discorso alla nazione trasmesso in diretta tv e durante il quale aveva duramente attaccato i media stranieri – in particolare quelli occidentali, definiti «complici del complotto contro la Siria» – il presidente ieri ha voluto rassicurare l'opinione pubblica interna. «State tranquilli! Siamo alla fase finale e la Siria sconfiggerà il complotto», ha detto dal palco Assad, in giacca e senza cravatta, mentre in basso c'erano la moglie Asma e i figli sorridenti. «Shabbiha per sempre!» hanno risposto a migliaia i lealisti, in riferimento agli squadroni della morte accusati dagli attivisti di essere responsabili delle uccisioni quotidiane di civili. E nella giornata in cui gli attivisti anti-regime dei Comitati di coordinamento locali forniscono la lista dettagliata di almeno 16 persone uccise (13 civili e tre disertori, tra Homs, Idlib, Hama e Latakia) dalla repressione di ieri, la Lega Araba dal Cairo ha annunciato la sospensione dell'invio in Siria di nuovi delegati, che avrebbero dovuto rafforzare la missione di 67 osservatori operativi dal 26 dicembre. Uno di loro, l'algerino Anwar al Malek, era apparso martedì sera sugli schermi della tv panaraba al Jazira del Qatar per denunciare «non un solo crimine di guerra, ma crimini in serie commessi dal regime di Damasco» e la «messinscena» allestita dalle autorità siriane per «disorientare gli osservatori», impegnati in teoria a monitorare la situazione sul terreno e a verificare che la Siria ha davvero applicato i punti del piano arabo per mettere fine alle violenze.

Il delegato algerino, ancora con la pettorina arancione della missione della Lega Araba, aveva detto che Homs deve essere dichiarata «zona colpita da disastro umanitario», che ha visto «con i miei occhi scene vergognose e deplorevoli come prigionieri torturati, bambini uccisi». Malek aveva confermato le insistenti voci della presenza di cecchini governativi che sparano su civili e manifestanti pacifici.

Lorenzo Trombetta

Gilles Jacquier di France2, 43 anni, in una foto d'archivio

Teheran accusa gli Usa e Israele. Si teme una escalation delle violenze

Iran, scienziato nucleare muore in un attentato

TEHERAN – Un altro scienziato nucleare ucciso in un attentato, il quarto in due anni, e per il quale Teheran accusa gli Usa e Israele. Ha iniziato la sua giornata con questa notizia, ieri l'Iran, una notizia destinata ad esasperare ancora le sue tensioni con l'Occidente per il suo programma nucleare. E le preoccupazioni di quanti, nel Paese come all'estero, temono che l'escalation – alimentata dalle minacce iraniane di chiudere la rotta petrolifera dello stretto di Hormuz – possa condurre ad una situazione fuori controllo.

Le minacce di chiudere lo stretto, ha detto ieri il segretario di Stato Usa Hillary Clinton sono «provocatorie e pericolose». Erano circa le 8.30 quando la Peugeot 405 su cui viaggiava Mustafa Ahmadi Roshan, un giovane docente universitario che lavorava anche al sito di arricchimento dell'uranio di Natanz, è esplosa per una bomba magnetica attaccata da motociclisti che si sono poi dati alla fuga. Nell'esplosione dell'auto hanno perso la vita sia lui che l'autista, Reza Qashqai. Lo scienziato aveva 32 anni, l'altro 33. Ferito ad una mano un pedone che si trovava sul posto, nei pressi della facoltà di Scienze sociali della Allameh Tabatabai University. La tecnica è la stessa usata negli attentati del 29 novembre 2010 contro i docenti Majid Shahriari e Fereydoun Abbasi Davani: Shahriari, responsabile del progetto sui reattori nucleari, morì. Abbasi Davani fu leggermente ferito e ora è il direttore dell'Agenzia atomica iraniana. Il 12 gennaio 2010 proprio due anni fa, era stato ucciso da una moto-bomba un altro scienziato nucleare, Masoud Ali Mohammadi, mentre il quarto si chiamava Daryoush Rezaie, 35 anni, ucciso il 23 luglio scorso da sconosciuti che gli hanno sparato da una motocicletta in corsa.

Mustafa Ahmadi Roshan si era laureato in chimica alla Sanati Sharif University. Specializzato nei polimeri, lavorava per il processo di arricchimento dell'uranio nell'impianto di Natanz, dove era vice direttore dell'ufficio commerciale.

Luciana Borsatti

جريدة إيطالية

16 شهادة

17 شهادة

مع آصف شوكت الذي التقيت في حمص

يومية جريدتي الجزائرية

ملاحظات على خطى الجنرال الدابي.. في بعثة كوفي أنان

بقلم: أنور مالك

ملاحظات على عاملي بعثة المراقبين

مراقبون في الجحيم!

جريدة لبنانية

اليوم

الدولي

أنور مالك: الهدوء في سوريا استراحة للنظام ليشعل بعدها الجحيم

جريدة سعودية

Il Messaggero — MINISTERO DELLA DIFESA
Data 12-01-2012
Pagina 19
Foglio 1 / 2

MEDIO ORIENTE Un osservatore della Lega araba lascia la missione: «Il regime ci usa»

Siria, granata tra i manifestanti muore un giornalista francese

Il videoreporter Jacquier ucciso a Homs. Parigi protesta

di ROBERTO ROMAGNOLI

Una granata lanciata durante una manifestazione di sostenitori del regime a Homs, nel centro della Siria, ha ucciso ieri Gilles Jacquier, noto giornalista francese. Nell'esplosione sono morti anche sei siriani mentre i feriti si contano a decine. Il reporter francese si trovava in compagnia di un gruppo di giornalisti occidentali, tra cui cinque belgi, tutti illesi, autorizzati dal governo siriano a recarsi a Homs. Gilles Jacquier, 43 anni, è il primo reporter occidentale a perdere la vita dall'inizio, il 15 marzo scorso, della primavera araba siriana.

Sulla morte di Jacquier è immediatamente intervenuto il ministro degli Esteri francese Alain Juppé che ha chiesto «un'inchiesta affinché sia fatta piena luce sul dramma». Juppé ha poi «condannato vigorosamente questo atto odioso» chiedendo alla autorità siriane di «garantire la sicurezza dei giornalisti internazionali e di proteggere questa libertà fondamentale che è la libertà di informazione».

Jacquier, che lavorava per France 2, al momento della tragedia si trovava con gli altri giornalisti lungo il percorso di un corteo pro-regime che si snodava lungo le vie di Homs, una delle città-simbolo delle proteste. Era arrivato a Homs con un viaggio organizzato dal governo siriano. La granata che lo ha ucciso, secondo quanto riferito dai giornalisti belgi della tv VTR che erano con lui, è stata la prima di una serie esplosa in rapida successione. Nessun altro dettaglio è emerso ieri sui fatti di Homs. Anche il ministero dell'Informazione siriano non è stato in grado di aggiungere nulla alla sua laconica dichiarazione di «essere al corrente di un incidente in cui sono rimasti coinvolti giornalisti stranieri».

La situazione assolutamente fuori controllo è anche alla base del clamoroso gesto dell'osservatore algerino della Lega Araba. Anwar Malek che ha deciso di sospendere la missione e di andarsene dalla Siria. «La missione della Lega Araba offre al regime di Damasco più tempo di uccidere e non è in grado di fermare la repressione» ha detto Malek che ha anche denunciato pubblicamente alla tv al Jazeera «i crimini delle autorità». «Ho sospeso il mio lavoro quattro giorni fa, ma sono uscito dalla Siria solo oggi (ieri n.d.r)» ha detto ancora Malek che ha anche accusato le autorità siriane di aver deviato appositamente il loro convoglio, martedì scorso, lungo la strada Homs-Damasco, per esporlo a un attacco armato. «Ci hanno sparato intenzionalmente. Hanno deviato il percorso apposta», ha detto.

Nel frattempo, a Damasco, nella centrale piazza degli Omayyadi, il presidente Assad appariva in pubblico durante un raduno popolare lealista rivolgendosi così alla folla: «Vinceremo il complotto, ormai siamo alla fine e vinceremo i nemici della Siria».

جريدة إيطالية

NR. 46 DONNERSTAG, 23. FEBRUAR 2012 — Blick in die Zeit — HANNOVERSCHE ALLGEMEINE ZEITUNG

„Die Liga schweigt zum Morden in Homs“

In Syrien droht eine humanitäre Katastrophe – davor warnt der Menschenrechtsaktivist Anouar Malek seit seinem Ausscheiden aus der Delegation der Arabischen Liga

Westliche Journalisten getötet

جريدة ألمانية

TROIS QUESTIONS À **ANOUAR MALEK**
OBSERVATEUR DÉMISSIONNAIRE DE LA LIGUE ARABE EN SYRIE

«Chaque jour, des civils syriens étaient tués, parfois sous nos yeux»

La Ligue arabe décidera de la poursuite ou de l'arrêt de sa mission en Syrie en fonction du rapport, attendu aujourd'hui, du chef des observateurs, le Soudanais Mohammed Ahmed Moustapha al-Dabi. Mercredi, une coalition de plus de 140 organisations arabes de défense des droits de l'homme et de la société civile a réclamé le retrait de la mission, estimant qu'elle était inefficace. Le journaliste et écrivain algérien Anouar Malek était l'un des observateurs envoyés le 26 décembre en Syrie. Il a démissionné le 6 janvier.

▸ Pourquoi avez-vous quitté la mission d'observation ?
Le régime syrien n'a pas respecté son engagement de nous laisser travailler librement. Chaque déplacement devait être négocié avec les forces de sécurité, qui mettaient plusieurs heures avant d'accepter ou de refuser. Lors de la visite de certaines villes, des panneaux ont été maquillés pour nous faire croire que l'on était bien dans le quartier où nous avions demandé d'aller. Des chars ont également été déplacés juste avant notre venue. Cette mission est totalement inefficace. Chaque jour, des civils, dont des femmes et des enfants, étaient tués, parfois sous nos yeux.

▸ Quelle solution de sortie de crise privilégiez-vous ?
L'urgence est de protéger les civils. La Ligue arabe en est incapable, il faut saisir le Conseil de sécurité des Nations unies. Il faut également définir une zone de protection où les forces de sécurité du régime ne pourront pas pénétrer. Si l'on n'agit pas très vite, le risque est que la contestation se transforme en guerre civile. Le régime tente déjà d'attiser les tensions entre la communauté alaouite [*dont est issu le régime, ndlr*] et les sunnites.

▸ Avez-vous pu rencontrer des opposants au régime ?
Oui, j'ai pu discuter durant deux heures avec des membres de l'armée syrienne libre à Homs. Contrairement à ce qu'affirment les autorités, il ne s'agit pas de terroristes manipulés par des pays étrangers. Ils m'ont montré leur carte militaire, ce sont bien des déserteurs. Leur unique revendication est la démission du président, Bachar al-Assad. Ils sont prêts à se battre jusqu'à la mort.

Recueilli par **LUC MATHIEU**

جريدة ليبراسيون الفرنسية

"Me hicieron fotos en el cuarto de baño para chantajearme"

Anwar Malek.

جريدة الباييس الإسبانية

„Männer, Frauen, Kinder – für diese Leute sind alle Terroristen"

Anwer Malek, einst Beobachter der Arabischen Liga in Syrien, über die Täuschungsversuche der Regierung und die Gewalt der Armee

جريدة ألمانية

„Was hier geschieht, ist der reine Horror“

Anouar Malek verließ die Beobachtermission der Arabischen Liga aus Protest – Seine Eindrücke aus Homs

Von Jacqueline Carewicz

In der vergangenen Woche hatte die Arabische Liga ihre Beobachtermission in Syrien vorerst gestoppt. Als Grund nannte der Generalsekretär des Staatenbundes, Nabil al Arabi, die erneute Zunahme der Gewalt in Syrien. Der in Frankreich lebende algerische Journalist und Schriftsteller Anouar Malek hatte seinen Dienst in der Mission bereits am 9. Januar aus Protest quittiert.

„Das war eine Farce“, sagt Malek im Telefongespräch mit unserer Zeitung. Den Kontakt zu Malek stellte der Braunschweiger Arzt und Mitglied im Syrischen Nationalrat, Sadiqu Al-Mousslie, her.

Das Regime von Baschar al-Assad habe versucht, die Beobachter absichtlich in die Irre zu führen, so Malek. Am kommenden Samstag

Anouar Malek in der typischen orangefarbenen Weste, die die Beobachter in Syrien trugen.

wird er in der Braunschweiger Stadthalle von seinen Erfahrungen als Syrien-Beobachter berichten. Anlass ist eine Podiumsdiskussion mit dem Orient-Experten Udo Steinbach und Sadiqu Al-Mousslie.

In seinem Hotel in Homs sei er während seines Aufenthaltes in Syrien ständig abgehört und heimlich gefilmt worden, sagt Malek unserer Zeitung. „Es gab sogar im Badezimmer versteckte Kameras.“ Um die Beobachter zu täuschen, habe man Panzer auf Straßen und Plätzen versteckt. Man habe Gefangene zur Schau freigelassen, um sie fünf Tage später wieder zu inhaftieren.

„Was hier geschieht, ist der reine Horror“, so Malek. Die Opfer der Gewalt in Syrien seien unschuldige Bürger, auch wenn das Regime beteuere, „Terroristen“ zu bekämpfen. Malek: „Doch es sind keine Terroristen. Es sind Kinder, die vor den Augen ihrer Eltern vergewaltigt werden, Alte, Frauen, Unschuldige, die gefoltert und erschossen werden. Das ist doch krank!“ Hier würden täglich Verbrechen gegen die Menschlichkeit und gegen ein ganzes Volk begangen, die sich die internationale Staatengemeinschaft nicht länger mit ansehen dürfe. Der UN-Sicherheitsrat müsse endlich etwas unternehmen – auch gegen das Veto von Russland und China. „Wir dürfen nicht länger zusehen!“ Malek: „Für mich verkörpert Russland ein ebenso kriminelles System wie Syrien.“

SERVICE

Eine Podiumsdiskussion mit dem algerische Journalisten Anouar Malek, mit Sadiqu Al-Mousslie vom Syrischen Nationalrat und dem Nahostexperten Udo Steinbach findet am Samstag, 11. Februar, ab 16.45 Uhr im Kongresssaal der Braunschweiger Stadthalle statt. Anmeldungen sind im Internet unter ks.braunschweig@googlemail.com möglich.

جريدة ألمانية

«Je n'ai pas pu protéger les civils syriens»

> **Syrie** Un des observateurs envoyés par la Ligue arabe raconte la mission

> Un premier rapport attendu ce jeudi

Boris Mabillard

Depuis le 27 décembre, les observateurs de la Ligue arabe arpentent les lieux de la contestation en Syrie. Ce jeudi, après un mois de travail, ils rendront leur premier rapport. Les membres de la Ligue se réuniront ensuite au Caire, samedi, pour discuter des suites à donner alors qu'enfle la polémique sur la pertinence de la mission. Faut-il renouveler le mandat? Devançant la publication du rapport, l'émir du Qatar a parlé le 14 janvier d'échec et a proposé une intervention armée. L'Algérien Anouar Malek faisait partie du premier contingent d'observateurs envoyés sur le terrain. Mais après avoir patrouillé dans Homs, où la révolte fait rage, il démissionne bruyamment. Il a accepté pour *Le Temps* de revenir sur les dysfonctionnements de cette mission.

Anouar Malek réside en France depuis 2006, où il bénéficie du statut de réfugié politique. Ecrivain et journaliste, il s'intéresse aux droits de l'homme et à la politique en Algérie. Une ONG le contacte: la Commission arabe pour les droits humains, basée à Paris, est mandatée pour participer à la mission de la Ligue arabe. A la recherche de personnes prêtes à se rendre sans délai en Syrie, pour une durée d'un mois, elle sollicite Anouar Malek qui accepte aussitôt. En deux semaines tout est réglé. Le voilà donc au Caire, au siège de la Ligue pour un briefing, puis à Damas, où il débarque le 26 décembre.

Anouar Malek: «Ils ont menacé de m'égorger»

La mission fait partie d'un plan de sortie de crise en cinq points agréé dans un premier temps par les autorités syriennes, mais jamais officiellement ratifié ni appliqué. Ce plan stipule la libération des prisonniers incarcérés depuis le début de la contestation, le retour de l'armée dans ses casernes, la fin des violences et l'accès du territoire aux médias. Enfin, pour apprécier l'application des points précédents, l'envoi d'observateurs. Sur les 500 initialement prévus, environ 160 se sont à ce jour rendus en Syrie.

«Au Caire, Nabil al-Arabi, le secrétaire général de la Ligue nous donne les grandes lignes de notre travail. Une liste nous est distribuée. J'y découvre les noms des autres observateurs: il y a des Soudanais, des Tunisiens, des militaires algériens, presque tous sont envoyés par leur gouvernement respectif. Nous ne sommes que six de l'ONG française.» Il justifie son engagement: «Je ne suis pas parti pour l'argent, 140 dollars par jour, mais pour me rendre utile, aider les populations civiles et contribuer à une solution diplomatique.»

Les observateurs se déploient dès le lendemain de leur arrivée. Homs fait partie des sites prioritaires, Anouar Malek y est envoyé. La polémique ne tarde pas à surgir, les manifestants réunis massivement attendent en vain les hommes de la Ligue arabe, vêtus d'orange. Anouar Malek rejette la faute sur les autorités syriennes: «Elles nous ont mis des bâtons dans les roues sciemment: problèmes de transport, d'infrastructures, d'autorisations.» Les experts se répartissent en groupes de dix. «J'étais dans le groupe A. Le 27 et le 28, j'ai fait équipe avec le chef de mission, ancien des services secrets, le général soudanais Mohammed Ahmed al-Dabi. Il m'a semblé prêt à faire le travail honnêtement. Les bombes tombaient. Il a téléphoné aux autorités pour que ça cesse. Deux jours plus tard, il avait complètement changé. Je suis sûr qu'il avait reçu des ordres.»

Anouar Malek voit du sang, des horreurs. «Nous avons tous vu les mêmes choses, des morts, des corps restitués à leur famille dans des états indescriptibles.» Pour la même période, la fin du mois de décembre, l'Observatoire syrien des droits de l'homme, basé à Londres, fait état de nombreuses victimes. Mais la ligue reste silencieuse et se félicite même de la bonne coopération des autorités syriennes et d'une situation sur le terrain satisfaisante. Anouar est stupéfait: «Ce que nous voyions durant nos visites dans les quartiers de Baba Amro ou d'Al-Khaldiya, les obus, les tanks, les morts, disparaissait des rapports quotidiens envoyés à notre quartier général de Damas.»

> «Je me sentais espionné et un de mes collègues a retrouvé un enregistreur sous son lit»

Anouar Malek met en cause les responsables politiques: «Certains observateurs transmettaient d'abord les rapports à leur gouvernement avant de les donner au chef de mission. Ils étaient aux ordres, écrivaient ce qu'on leur disait d'écrire. Ce sont des militaires, ils n'aiment pas les opposants.» Les pressions viennent aussi des autorités syriennes: «Le ministre de l'Intérieur et le responsable des services secrets, Asef Shawkat, étaient présents dans le même hôtel que nous. Alors que je parle d'obus tirés par des militaires, Asef Shawkat m'explique que je ne devrais pas mentionner cela dans mon rapport, que ce sont les terroristes qui bombardent. Je me sentais espionné et un de mes collègues a retrouvé un enregistreur sous son lit. On nous a même envoyé des filles avec du beau maquillage pour nous séduire.»

A Paris, à la Commission arabe des droits humains, Violette Daguerre est en charge des observateurs envoyés en Syrie pour le compte de l'ONG: «Deux jours après son arrivée, Anouar Malek m'a envoyé un mot où il disait ses craintes. Il était bouleversé.» Tout en regrettant que l'Algérien soit sorti de la réserve qu'impliquait la mission, Violette Daguerre s'inquiète de son instrumentalisation: «Nos observateurs m'ont dit que les membres des ONG n'étaient pas très écoutés par la hiérarchie, moins que les délégations nationales.»

La politisation de la mission constitue le principal obstacle à son succès. Au sein de la Ligue arabe certains Etats soutiennent la Syrie: le Liban et l'Irak pour des raisons confessionnelles, l'Algérie, le Soudan, le Maroc et le Yémen en raison de leur profonde méfiance face aux ingérences extérieures. Le vendredi 6 janvier, Anouar Malek jette l'éponge: «Je n'étais pas là-bas pour protéger les civils, mais pour aider Bachar el-Assad. Juste après ma démission, j'ai reçu des menaces sur mon téléphone: Malek tu seras égorgé. La voiture qui m'a ramené le lundi 9 à Damas a essuyé des tirs.»

جريدة سويسرية

الدابي.. كذاب
يغطي على النظام السوري
.. وعقد اجتماعا سريا مع رئيس المخابرات
هددوني بالذبح إذا لم أتوقف عن الحديث لوسائل الإعلام
سوريا تشهد حربا أهلية بين الجيش والمنشقين عنه

جريدة قطرية

المستقيل من بعثة المراقبين العرب بسوريا أنور مالك لـ"الخبر"

"لم أكن يوما ممن يخدمون أجندات سياسية"

● قال السيد أنور مالك، المستقيل من بعثة المراقبين العرب بسوريا، في اتصال هاتفي مع "الخبر" إن البيان الصادر عن اللجنة العربية لحقوق الإنسان والذي يتهمه بالإخلال بأخلاقيات عمل المراقبين لا يعنيه لا من قريب ولا بعيد، على اعتبار أن اللجنة نفسها معنية بأجندات سياسية معروفة.

وأشار أنور مالك إلى أنه رفض الخضوع لكل التهديدات التي تعرض لها والإساءة المعنوية وإصراره على قول الحقيقة بعيدا عن تزوير تقرير بعثة المراقبين التي تغاضت عن الحقيقة "من يتهمني بخدمة أجندات أولى به أن يتحرى مواقفه، الكل يعلم أن الأستاذ هيثم مناع من القائمين على اللجنة له أجندته السياسية في سوريا، يعني أن اللجنة نفسها صاحبة أجندة، أما أنا فأعتقد بأنني كنت واضحا منذ البداية مع من اختارني للمشاركة في البعثة العربية". وواصل قائلا "كنت واضحا بقولي إنني لا أمثل سوى شخصي وسأقول ما أشاهد، صحيح أنا لا علاقة لي باللجنة ومن هذا المنطلق أصررت على أن أعبّر عن موقفي بحرية ووفقا لما أؤمن به وأرى أنه الصواب، أما القائلون بأنني أخدم أجندات سياسية فأقول لهم إن هذا الكلام فارغ وعار من الصحة، وكل ما تعرضت له من تحامل مغرض ذو أبعاد سخيفة أرفض التدني للرد عليه".

وأوضح أنور مالك أن عددا كبيرا من المراقبين عبّروا له عن استيائهم من الوضع في سوريا "أنا لم أذهب إلى سوريا ممثلا لأي طرف رسمي، أنا قلت منذ البداية لا علاقة لي بأي طرف سوى مبادئي، فقد حرصت على استقلاليتي على عكس بقية المراقبين الذين كانوا يوم مغادرتي لسوريا حوالي 168 مراقب إن لم تخني الذاكرة، كلهم كانوا من الوفود الممثلة لدول ومنظمات، أي أنهم أصحاب مناصب رسمية ومرتبطين بجهات معينة، وبالتالي عدم قدرتهم على الحديث بالحرية التي كنت أتمتع بها، أنا كنت أمثل مبادئي وقيمي التي لا يمكن أن أخونها، كل كلمة قلتها موافقة لما شاهدته وعاينته في الواقع، ويمكنني القول إن كل المراقبين الذين تحدثت إليهم شاطروني المواقف، إلا أنهم لم يتمكنوا من الحديث بحكم مناصبهم".

من جانب آخر شدد المراقب الجزائري السابق في بعثة الجامعة العربية أن تصريحاته التي أخذت بعدا دوليا كان الغرض منها قول الحقيقة فقط لا غير.

الجزائر: سامية بلقاضي

جريدة جزائرية

الرياض

تلقى تهديدات بالقتل ونشر صوراً له "تحت الدش" في سوريا

أنور مالك يتهم الدابي بالكذب ويصف مهمة المراقبين بـ «المهزلة الكبيرة»

جريدة سعودية

المؤلف في استوديو القناة الفرنسية الخامسة

الثورة السورية والمؤلف

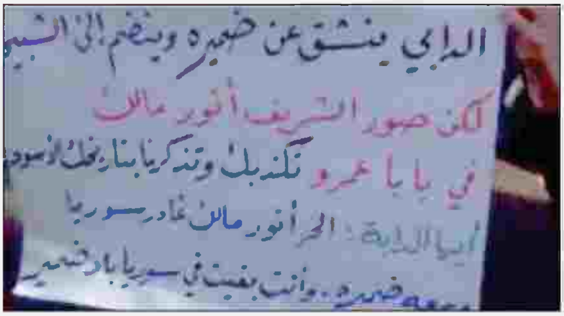

نشكر ضمير العرب الحي
انور مالك

تحية اكبار
الى البطل انور

شكرا انور مالك
تحية من الاعماق
الى كل مراقب حر

تحية الى المراقب
الحر انور مالك

تحية الى المراقب الشريف

تحية إكبار
الى البطل أنور مالك
ممثلا لجزائر الأحرار

(أنور مالك) يعلن انشقاقه عن بعثة
المراقبين الأشرار وينضم للمراقبين الأحرار

شارع
أنور مالك

جيل جاكير
ستبقى في قلوبنا
Gilles Jaquier
الحر أنور مالك

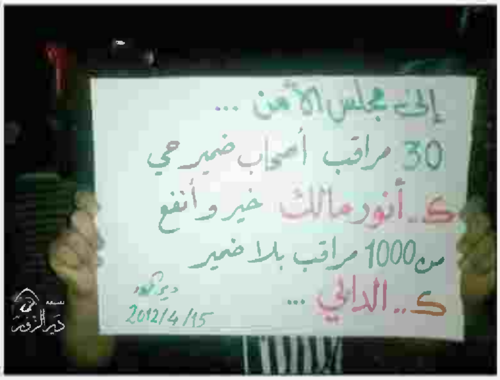
إلى مجلس الأمن ...
30 مراقب أصحاب ضمير حي
ك.. أنور مالك خير وأنفع
من 1000 مراقب بلا ضمير
ك.. الدابي ...
2012/4/15

Stamps Of The Syrian Revolution
Anwar Malek
January 2012
الجمهورية العربية السورية
Syrian Arab Republic
أنور المالك
طوابع من الثورة السورية
30

SOS

بوركت أنور حارسا لفضائل
أفسح بقلبك يا أخي مكانا	فارس وافانا
يحدوك حبك للشآم وأهلها
لما رووا بدمائهم أرض الـ	جرذان حوروا الأوطانا
أصبحت فيما ورثوا عنوانا
وندبت للشام الجريح مراقبا	أو شاهدا لترى الأمور عيانا
من طغمة قد أفسدت ألوانا
من بطش طاغ روع البلدانا
منه النفوس تصارع الغثيانا
واستصرخت في كربها الوجدانا
هربا فإن وراءها ثعبانا
جعلت رضيعهم يشيب الآنا
قد سومت من قانص نشوانا
يلهو ويرقص فوق أشلاء لهم	يرضي بذلك حاقدا فتانا
يا منصفا طال انتظارك يا أخي	من ثائرين توشحوا الأحزانا
من ثائرين أبوا حياة مذلة	ذاقوا بها التجويع والحرمانا
ما كان واحدهم يرى إنسانا
لا رأي لا حرية لا شأنا
وتحملوا التزوير والبهتانا
وصفوا بأنهم أداة تآمر	بيد العداء لما بدوا إخوانا
كان المدرب للخنا شيطانا
كم سوفوا كم طففوا الميزانا!
بوركت أنور حارسا لفضائل
وفضحت لؤمهم وخسة طبعهم
يبغون منكم أن تواروا سفكهم	لدم الشهيد وتعتنقوا الخوانا
أن تسدلوا فوق الجريمة ساترا	وتقدموا في ظهرهم برهانا
لم تستجب لعروضهم ووعيدهم	ونطقت حقا لم تخف
أكرم بأصل كنت خير فروعه	فعبيره ملأ الدنى ريحانا

مقتل صحافي فرنسي.. والأسد يفاجئ تجمعاً لأنصاره

انسحاب عضو في بعثة المراقبين يخلط أوراق الجامعة في سوريا

جريدة عربية

Anouar Malek à L'Actualité

«Je n'ai pas pensé à qui profite mon geste»

المؤلف في حوار مع جريدة جزائرية

شؤون دولية

طرد السفراء السوريين من الخليج قرار حكيم.. ونظام بشار انتهى عربيا

المؤلف في حوار مع جريدة الرياض السعودية

المؤلف في ندوة صحفية في باريس

المؤلف في محاضرة ببرشلونة الإسبانية

المؤلف في لقاء مع قناة تليفزيونية في جامعة سان دييغو بكاليفورونيا الأمريكية

المؤلف في محاضرة برانكفورت الألمانية

المؤلف في محاضرة ببرشلونة الإسبانية

المؤلف في محاضرة بمدينة براونشفايغ الألمانية

المؤلف في لقاء مع قناة تي في 3 الإسبانية

المؤلف في لقاء مع الجالية السورية والعربية في باريس

المؤلف في محاضرة بمدريد

المؤلف مع الناشطين السوريين في مدريد

المؤلف في محاضرة بجنيف

المؤلف في محاضرة بالعاصمة السويسرية لوزان

تكريم المؤلف في لوزان السويسرية

الزاوية الأخرى وما شهدته من أحداث خلت حتماً ترجيحاً.

73- كما لاحظت أن هناك تجاوباً من الجانب الحكومي لانجاح مهمتها وتذليل كافة العقبات التي قد تواجهها وقامت بتسهيل لقاء القيادات والنقابات مع أية جهة كانت ولم يفرض أية قيود على تحركات البعثة ولقاءاتها مع المواطنين السوريين سواء معارضين أو المؤيدين.

74- استشعرت البعثة في بعض المدن حالة من الاحتقان الشديد والظلم والقهر الذي يعاني منه المواطنين السوريين ولكن هناك اقتناع لديهم بضرورة حل الأزمة السورية بصورة سلمية وفي الاطار العربي دون تدويل حتى يتمكنوا من العيش في سلام وأمان ولتحقيق عملية الاصلاحات والتغيير المنشودة وقد أكدت من المعارضة وبالأخص في درعا وحمص وحماه وادلب ان جزءاً من المعارضة لجأ الى السلاح نتيجة لمعاناة الشعب السوري من قهر واستبداد نظام الحكم والفساد الذي طال كافة قطاعات المجتمع بالاضافة الى ممارسات التعذيب من قبل الجهات الأمنية وانتهاكات حقوق الانسان.

75- هناك أحداث بدأت تظهر وتمثل تطوراً قد يؤدي الى مزيد من الفجوة والمرارة بين الأطراف ويترتب عليها نتائج خطيرة وخسائر في الأرواح والممتلكات وهي التفجيرات التي طالت المباني (المقرات الوفود/عربات المازوت/قوات الشرطة/الاعلام/خطوط الأنابيب وهي أعمال ينسب بعضها لقيادة تنظيم الجيش الحر والآخر من جهات مسلحة تابعة للمعارضة.

76- التزمت البعثة التزاماً دقيقاً بتنفيذ مهمتها وفقاً لما جاء في البروتوكول من خلال المعايشة اليومية للواقع على الأرض بحيادية واستقلالية تامة بما يضمن الشفافية والأمانة في رصد الواقع رغم الصعوبات التي واجهتها وتصرفات بعض الأفراد غير المنضبطة.

77- المدة الزمنية لعمل البعثة والمحددة وفقاً للبروتوكول بشهر واحد لا تكفي التحضيرات الادارية ناهيك عن عمل البعثة

المؤلف في ندوة في نيويورك

تكريم المؤلف في نيوجرسي

تكريم المؤلف في نيوجرسي الأمريكية

تكريم المؤلف في مدينة جدة السعودية

المؤلف أثناء حفل خيري لدعم الثورة السورية في بروكسل

المؤلف في محاضرة بفيينا النمساوية

المؤلف يلقي كلمة في حفل تكريم بالمدينة المنورة

المؤلف في محاضرة في نيويورك

المؤلف مع الفنان السوري صفوت صبري في مظاهرة منظمة العفو الدولية لحظر السلاح على الأنظمة المستبدة في نيويورك

المؤلف أمام تمثال الحرية في نيويورك

المؤلف في حفل تكريم بالرياض

المؤلف في حفل تكريم بالرياض

يصدر قريباً

القائد في نفسي
أثر الفكر اليهودي على غلاة الشيعة
القوة الهادئة
سالفة وقصيدة
سالفة وقصيدة
IELTS
Academic Made Easy
كيف أصبحوا عظماء؟
أوراق
عظماء بلا مدارس

صدر حديثاً

قضايا ومواقف
في الفكر والسياسة

الدكتور عائض القرني
لا تحزن
١٠ ملايين نسخة

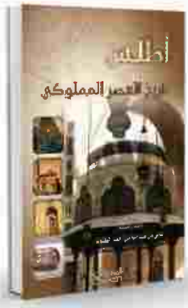
أطلس
تاريخ العصر المملوكي

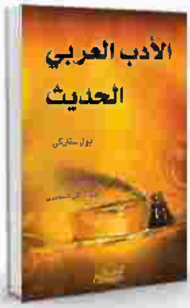
الأدب العربي
الحديث
بول ستاركي

أسطورة

الجنة
حيث أتمنى

القـوة
الناعمة
وسيلة النجاح في السياسة الدولية

لغة الابتسامة

المرجع
في تربية
الموهوبين

صدر حديثاً

قصص أعجبت طلابي

الحياة
تدافع أم تصارع
الحق والباطل

ماذا بعد
تويتر وفيس بوك؟

دليل
إداريي التعليم العالي

إدارة المعرفة
لدعم النمو

كسب المفاوضات
التي تصون العلاقات

التعليم في مجال
التعليم العالي
العابر للحدود
تعزيز تعلم
الطلاب العالميين
العابرين للحدود

تفعيل دور الطالب
في التعلم عبر الإنترنت

نظرية التوزيعات
وتطبيقاتها
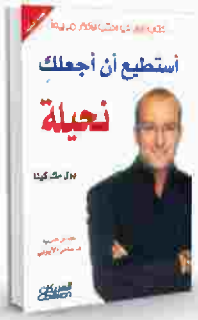
من إصداراتنا